

عرائس القرآن ونفائس الفرقان وفراديس الجنان

المعروف بـ «قصص الأنبياء»

تأليف

الشيخ محمد بن بسطام الخوشابي

المتوفى ١٠٩٦ هـ

تحقيق وتقديم

سعيد عبد الفتاح

الجزء الأول



DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: ʿARĀʾIS AL-QURʾĀN
WANAFĀʾIS AL-FURQĀN
WAFARĀDIS AL-JINĀN
(stories of the Prophets)

Author: Muḥammad ben Bisṭām al-Ḫūšābi

Editor: Saʿīd ʿAbdul-Fattāḥ

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 1024 (2 volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: عرائس القرآن ونفائس الفرقان وفراديس الجنان
المعروف بـ "قصص الأنبياء"

المؤلف: الشيخ محمد بن بسطام الخوشابي

المحقق: سعيد عبد الفتاح

الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بيروت

عدد الصفحات: 1024 (جزءان)

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنـــان

الطبعة: الأولى



منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١١/ ١١/ ٠٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ | ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٠٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ | رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com



إلى شيخى الحبيب ...

القطب الكبير ...

صلاح الدين التجانى الحسنى الحسينى

الذى نقلنا من ظلمات الأنفس

إلى أنوار القلوب ...

وعمَّنا بنور الحق ...

أهديك ...

فيض محبتك الذى شاع فى أرجائى ...

ســـــعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مفتتـــــح

هو عرائس القرآن فعلا، فهذا الكتاب تفسير للآيات المتعلقة بأفعال وأحوال الأنبياء المرسلين، عليهم السلام، وما كانوا عليه مع أقوامهم، وما بلَّغوا من رسالة ربهم، ومن أحكام الله تعالى، وما جاهدوا عليه بإخلاص ويقين حقيقى.

وانظر مثلا أحوال الأنبيـاء: وخاصة إلى موقف سيدنـا آدم، عليه السلام، والفرق بين نوره، وظلمتنا، وبين علمـه وجهلنا، أنه لمَّا أغواه الشـيطان فاقترف مـا اقترف لم يقف ليسُبَّ الشيطان ويلعنه، وأنه هو السـبب فى نقص حظه من الجنة، ووقـوعه فى المعـصيـة، فعاد إلى ربه سبحـانه وتعالى على الفـور، ولم يتعلق هو وزوجـه حواء بخـصومة الشـيطان، ولم يُسـيئـا الأدب بإضافتـه إلى خالـق الكل، بل رأيا كسـبهـما واختيارهما فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فقال تعـالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أى: اختاره وقـرَّبه منه، وذلك لأنه قدَّم التواضع وهضْم النفس، ورؤية التقصـير من جهته، لا من جهة الفـعل الحقيقى، ومن السبب الموسوس.

فلله دره ما أكثر علمه، وفضله، وأدبه، هذا نبينا وأبينا آدم ﷺ.

المحقـــق

مقدمـــة المحـــقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـــه نســـتعين

«اللهم إنى أقدم إليك بين يدى كل نَفَسٍ، ولمحةٍ، ولحظةٍ، وطرفةٍ يطرف بها أهل السموات، وأهل الأرض، وكل شىء هو فى علمك كائن، أو قد كان، اللهم إنى أقدم إليك بين يدى ذلك كله، وقبل ذلك كلـه، وبعد ذلك كله، ومع ذلك كله، وعند ذلك كله، وفى ذلك كله:

اللهم لك الحـمد حمـداً دائمًا مع خلودك، ولك الحمـد حمـداً لا منتهى له دون مشيئتك، ولك الحمد حمداً لا يزيد قائلها إلا رضاك، ولك الحمد حمداً مليًا عند كل طرفة عينٍ وتنفُّس نَفَسٍ... ملء ما علم، وعدد ما علم، وزنة ما علم».

ثـــم:

«اللهم صلِّ على سيدنا محمد، الفـاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادى إلى صـراطك المستقـيم، وعلى آله حق قدره ومقـداره العظيم» صلاة فائقـة جميع صلوات خلق الله، دائمـة بدوام ملك الله، مضروبـة فى كل عدد فى علم الله، بعدد كل مـا فى علم الله، وعرِّفنا بها إياه، مـعرفة أبدية بمـحض فضلك يا الله، ملء ما علم، وعدد ما علم، وزنة ما علم.

ثـــم أمَّـــا بعـــد ...

لعل فى عنوان الكتاب إشارة إلى معنى ما، هل هو ما يقصده المؤلف أم لا؟ وهل هذا المـعنى يفى له النص بالمطلوب أم لا؟ ومـا هو هذا المـعنى؟ هناك أسئلة كـثيـرة يمكن أن يثـيـرها هذا الكتـاب، فلو نظرنا إلى العنوان أولا فـنقول: العـرائس: جـمع عروس[1]، وهو الزوج أو الزوجة، والبناء: العرس كالعريس، وهو: ما أقيم من البناء

(١) العَرُوسُ: نعت يستوى فيه الرجل والمرأة ما داما فى أعراسهما، يقال: رجل عروس ورجال عُرُس، بضمـتين، وامـرأة عَرُوسٌ ونساء عَـرَائِسُ، والعِرْسُ بالكسـر: امرأة الرجل، والجـمع: أعْرَاسٌ =

على حالة عجالة يدفع سورة الحـر والبرد، ولا يدفع جملتها[(١)]، فالكلام عـن العرس والعروس قد يأخذنا إلى معنى أن هذه الآيات بها من البهاء والجـمال ما يجعلها متميزة حقا عن غيرها من الآيات، تميـز العروس عن قريناتها، وبالفعل حين تنظر إلى الآيات القرآنيـة التى تتحدث عن أحـوال السادة الأنبيـاء وقصصهم وأخـبارهم، وتبليغـهم لما أمرهم به مـولاهم ـ جل وعلا ـ وما حصلوا علـيه من القرب الإلهى، وما أعـانوا عليه أممـهم لعبادة الواحـد الأحد، تعرف قـدر هذا الجمال الـواضح والمستـتر خلف هذه الألفاظ المقدر لها أن تحمل هذه المعانى.

أمَّا الفرق بين القرآن والفرقان:

فالـقرآن: هو فى الأصل التنزيل، ولكنه ينظر إلى خصوصية هذا المعنى فى جميع الآيات التى فيها التوحيد مثل: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾.

أمـا الفرقـان: فهو كل ما فرق به بين الحق والبـاطل سمى فرقانا، ولذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (الأنبياء: ٤٨).

أمَّا من انتبه إلـى هذا العنوان فهو الشيخ: أبو محمـد روزبهان بن أبى نصر البلقى الشيرازى، الصوفى المـتوفى سنة ٦٠٦هـ ست وستمائة، وهو تفسـير على طريقة أهل

= وربما سُمى الذكـر والأنثى: عِرْسين، وابْنُ عِرْسٍ دويبة يجـمع على بنات عِرْسٍ، وكذلك ابن آوى وابن مخـاض وابن لبون وابن ماء، وتقـول: بنات آوى وبنات مخـاض وبنات لبون وبنات ماء، وحكى الأخفش بنات عرس وبنو عرس، وبنات نعش وبنو نعش، والعُرْسُ ـ بوزن القُفْل: طعام الوليمة، يذكـر ويؤنث، وجمعه: أعْرَاسٌ وعُرُسَـاتٌ ـ بضم الراء ـ وقد أعْرَسَ فلان أى: اتخذ عُرْسًا، وأعرس بأهله: بنى بها، وكذا إذا غشيها، ولا تقل: عَرَّس، والعامة تقوله.

قلت: قوله: بنى بها هو أيضًا مما تقوله العامة، وهو خطأ، كذا ذكره فى (ب ن ى).

والتعْـرِيسُ: نزول القوم فى السـفر من آخر الليـل يقعون فـيه وقعـة للاستراحـة ثم يرتحلون، وأعْرَسُـوا فيه لـغة قليلة، والموضع: مُـعَرَّس ـ بالتـشديد ـ ومُعْـرَس بوزن مخـرج، والعِرِّيسُ والعِرِّيسَةُ. انظر: الرازى: مختار الصحاح ١/ ٤٩٧.

(١) انظر: (المناوى: التعاريف ١/ ٥٠٩) وهناك كتب أخـرى تحمل اسم عروس، وعرائس، مثل: (عرائس المجالس) فى مسائل الخلاف لأبى الطيب البـقلى، و (عرائس المجالس) لمحمد بن أحمـد البصرى النحـوى، المتوفى سنة ٣٢٠هـ و (عـرائس النفائس) و (عرس نامـه) فارسى، وكذلك كلمـة عروس، فهناك مثـلا: (عروس الأفراح فى شـرح تلخيص المفتـاح) و (عروس الأفراح فيما يقال فى الراح، لأبى ذر الحلبى، وغـير ذلك، انظر: حاجى خليفة كشف الظنون ٢/ ١١٣٣.

التصوف، وسماه (عرائس البيان فى حقائق القرآن) وقال فيه: «صنفته موجزًا مخففًا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لى من حقيقة القرآن ولطائف البيان، بألفاظ لطيفة، وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولى أقوال مشايخى بما عبارته ألطف وإشارته أظرف، وتركت كثيرًا منها ليكون أخف محملا وأحسن تفصيلا» انتهى..

هذا بالنسبة للشيخ البقلى. أمَّا من كان قبله وكتب هذا العنوان فكان فى قصص الأنبياء، أيضًا، وسماه صاحبه: (عرائس المجالس فى قصص الأنبياء) لأبى إسحاق أحمد بن محمد الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧هـ سبع وعشرين وأربعمائة، وقال فى أوله، أيضًا: «الحمد لله حق حمده... ثم قال: هذا كتاب يشتمل على ذكر قصص القرآن بالشرح والبيان».

وقد علَّق حاجى خليفة على هذا الكتاب قائلا: وللشيخ الفاضل السيد محمد ابن بسطام الخوشابى، المعروف بالوانى أفندى، المتوفى سنة ١٠٩٦ ست وتسعين وألف ـ أيضًا ـ فى قصص الأنبياء، وهو أحسن وأفيد(١) من عرائس الثعلبى ذكر فيه من تفسير البيضاوى وحواشيه، ومن الكشاف وحواشيه سماه: (عرائس القرآن ونفائس الفرقان)(٢).

ثم إذا انتقلنا إلى موضوع الكتاب بالفعل فيكفى الإشارة بأن الكتاب يتحدث فى قصص الأنبياء، إلا أن المؤلف لم يقف ـ مثل غيره ـ عند ذكر القصة فقط، كما يفعل كثير من المصنفين، وإنما يقف عندها طويلا، ويضيف جديدًا، ويناقش القضايا المتعلقة بالنص، سواء من ناحية بلاغة اللغة، أو من ناحية النحو، أو من خلال قراءة جديدة لأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ، فضلا عن مناقشته للموضوع الحقيقى الذى أورد فيه نص القرآن، ومناقشات بعض الأئمة، معتمدًا على عدد من هذه المصادر المتعلقة بكتب التفسير مثل: الإمام البيضاوى، والنسفى، وابن كثير، والفخر الرازى، والزمخشرى فى الكشاف، وفى الحديث اعتمد على مشكاة المصابيح، وفى السيرة:

---

(١) هكذا وجهة نظر حاجى خليفة صاحب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، وتعليقه على أنه أفيد وأهم من كتاب الثعلبى.

(٢) انظر: حاجى خليفة كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون: ٢/ ١١٣١.

ابن سيد الناس. . . وغير ذلك كثير ـ ترجـمنا لأصحابها فى الهامش ـ ثم بعد أن يقدم كل هذا ويقف عليه ويناقشه يقدم حلولا فى المسائل التى تحتاج إلى حلول جوهرية، ويكون رأيه صائبًا فى كثير إلا بعض الهنَّات البسيطة، فالكتاب مجـملا عبارة عن نص هام وخطير يقدم قـصص الأنبياء فى ثوب واضح وبهىٍّ يليق بجـلال الأنبياء، ويكشف عن كثير من مـعاناتهم مع أقوامـهم، وكيف تمت مناقـشة هذه القـضايا دون أن يخل بالدلالات والمعانى القوية.

يقول المؤلف: إن الله سبحانه وتعالى لما أكرمنا بفهم معانى قرآنه العظيم، وإتقان أحكام فرقـانه الكريم، وبذلت فيه مـدة عمرى، وهى أربع وأربعـون سنة، تأملت قوله ﷺ : **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صـدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صـالح يدعـو له»**(١)، فشـرعت ـ بعون الله تعالى ـ فى تصنيف «عـرائس القرآن، ونفائس الفرقان»(٢).

وقد قسم المؤلف كتابه إلى عـدد من المجالس قد تصل إلى المائة(٣) مـجلس، تتفاوت فى الطول والقـصر، ويبدو أنها كانت مـجالس علمية لطلبـة العلم فى عصره، وقد تستغرق قصة نبى من الأنبياء «عليـهم جميعًا الصلاة والسلام» عددًا من المجالس، أكثرها طولا ـ طبعًا ـ سورة نبى الله يوسف، عليه السلام.

وأرجو القارئ الكريم أن يدخل إلى عـالم المؤلف ليرى بنفسه أهمـية هذا الكتاب فى قصص الأنبياء، عليه السلام، فهو لا يكاد يشبهه كتاب فى نفس الموضوع

المحـــــقق

---

(١) انظر تخريج الحديث فى الصفحات الأولى لكلام المؤلف.

(٢) انظر مقدمة المؤلف أول الكتاب.

(٣) وصل عدد المجالس إلى ٩٢ مجلسًا ومقدمة وخاتمة.

المؤلـــــف

هو: السيد محمد بن السيد بسطام بن السيد رستم بن السيد الشيخ خليل بن السيد الشيخ علـى بن السيد الشـيخ يونقلى بن السيـد حمزة بن السـيد قنبر، من أولاد أمـير المؤمنين، وإمام الـمتقين، أبى عبد الله الحـسن بن أمير المؤمنين، وإمام المـتقين أبى الحسن على المـرتضى بن أبى طالب، وابن سيدة نسـاء العالمين أم الموحـدين فاطمة الزهراء بنت سيـدنا رسول الله ﷺ[١]، الخوشابى الوانى[٢]، وانقولى[٣] المتوفى سنة ١٠٩٦هـ.

وهو من علمـاء الدولة العـثمانيـة، من أهل (خوشـاب) القريبـة من بلدة (وان) فى تركيا، نُفى إلى قرية (كستل) من قرى (بروسة) وقام هـناك بأعمال خيرية كثيرة منها: بناء مسجد، وكذلك مدرسة، وألقى الدروس، وصنَّف الكتب فى عدد من العلوم العربية.

مؤلفاتـــــه

ترك عددا من الكتب الهامة، فى تراث السيرة، وقصص الأنبياء:

١- **السيـرة النبوية**، وقد حققـناه، والحمد لله، وهو من أهم كتب السـيرة النبوية التى تعرفنا عليها.

٢- **عرائس القرآن ونفـائس الفرقان**، وهو هذا الكتاب الذى بين يديك، وهو فى قصص القرآن الكريم وأهم هذه القصص المتعلقة بحـضرة الأنبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام.

٣- **المبدأ والمعاد**، رسالة.

٤- **خلاصة التفاسير**[٤].

---

(١) هذه الترجمـة نقلتها من نسخة المـخطوط الخاص بهذا الكتاب كـما كتبها المـؤلف عن نفسه، وتكرار كلمـة «السيد» تعنى أنه مـن السادة الأشراف الذين يرجع نـسبهم إلى سيـدنا رسول الله ﷺ.

(٢) كما ذكر عدد من المصادر منهم الزركلى فى الأعلام.

(٣) كما ذكرها بروكلمان وحده، ولم يذكرها غيره.

(٤) ذكره كحالة فى معـجم المؤلفين، وأظنه الكتاب الذى تكلمنا عنه بـاسم عرائس القرآن ونفائس الفرقان.

مصادر ترجمته

للمؤلف مصادر ترجمت عنه، وعن مؤلفاته، وبالرغم من ذلك نرى إحجام عدد من المصادر، التى كتبت عن مؤلفى عصره قد أهملوا الكلام عنه، بالرغم مما قدمه للتاريخ الإسلامى، فكتاباه: (عرائس القرآن، ونفائس الفرقان) و (كتاب السيرة النبوية) من أهم ما كُتِب فى هذا المجال، وقد أضاء بها مناطق كثيرة، كانت فعلا فى حاجة على إلقاء الضوء عليها.

ومع ذلك كتب عنه عدد من المؤرخين، وذكروه بأحسن ما يكون، وتكلموا عن كتبه كذلك، منهم:

- بروسلى طاهر، فى كتابه عن المؤلفين العثمانيين ٢/ ٥٠.
- الزركلى: الأعلام: ٦/ ٥٢.
- كحالة: معجم المؤلفين ٩/ ٨٦.
- بروكلمان النسخة العربية المترجمة بإشراف الأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى ٩/ ٣٦٧، وذكره تحت اسم الوانقولى (٨) ويبدو أنه خاص بالعائلة.
- كتب عنه (بليغ) فى كولدست رياض عرفان ٢٠٩.
- ومخطوطات الظاهرية، التاريخ ٢: ٣٤٧ ، ٢: ٦٥٢.
- حاجى خليفة: كشف الظنون ١١٣١.
- البغدادى: هدية العارفين ٢: ٢٩٩.
- البغدادى: إيضاح المكنون ١: ٤٣٤، ٦٥٢.
- فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية: ١/ ٤٧٢.

نسخة مخطوط الكتاب

اعتمدت فى تحـقيقى لهذا الكتاب على نسخة وحيـدة خطية، حصلت على صورة ورقيـة منها من مكتبـة تيمور باشـا، الموجودة بدار الكتب المـصرية، وهى تحت رقم (١١٢٤ تاريخ تيمور).

* تقع فى (٣٦٨ صفحة).
* المقاس ١٣ × ٢٠ سم.
* عدد الأسطر فى الصفحة الواحدة ٣٣ سطراً.

عدا الصفحة الأولى والأخيرة لأن لهما شروطا خاصة فى كل كتاب تقريبًا.

* عدد الكلمات فى السطر من ١٤ - ١٦ كلمة.
* الخط معتاد ومقروء بسهولة ويسر، إلا فى بعض المواضع.
* يختـلف عنوان المجلس فـقط بخط سمـيك داخل الصفـحة، يبدأه بـبسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، ثم يذكر الموضوع.
* غير مكتوب عليها اسم الناسخ.

أمّا تاريخ النسخ المكتوب نهاية النسخة فهو:

تم بعون الله وتوفيقه فى وقت الضـحوة المباركة(١) الكبرى فـى يوم الأحد، فى شـهر ربيع الأولى، فى النصـف، فى المغـرب، فى سوق عـلنجار، فى سنة خـمس وثلاثين ومائة وألف من هجزة من له العز والشرف.

---

(١) فى نسخة المخطوط كتب: (المباركة الضحوة. . .) ولعلها سهو القلم، كما يقولون.

منهج التحقيق

اعتمدت نسخة واحدة، بل وحيدة، فى تحقيقى لهذا الكتاب الهام، لعدم وجود أخرى، وكان هذا يلجئنى فى بعض الأحيان إلى قراءة عدد من المصادر التى اتخذها المؤلف أصلا فى عمله، مثل: تفسير ابن كثير، وتفسير البيضاوى، ومشكاة المصابيح، ومفاتيح الغيب، وغيرها، وهذه النسخة بالرغم من الجهد الذى بذل فيها إلا أنها نسخة جميلة، ومكتوبة بخط معتاد مقروء، فضلا عن أنها كاملة تمامًا، وقد تم التغلب على بعض المشكلات التى صادفتنا بسبب التصوير، وهذه النسخة كتبت بخط دقيق، وبها مشكلات الإملاء المعروفة عند النسَّاخ، ولذا فإنى لن أشير إلى هذه النقاط لانشغالنا بتبيين بعض القضايا والتوقف كثيراً عند مناقشات المؤلف لقصص الأنبياء، معتمدين على مصادر أخرى تاريخية وغير تاريخية، فقد يدخلك المؤلف فى كثير من قضايا البلاغة العربية والنحو العربى والحديث، وغير ذلك، كما طرحنا فى المقدمة.

وقد خرَّجتُ جميع الآيات القرآنية ـ على كثرتها هنا ـ والأحاديث، والأشعار، والأعلام، وغير ذلك، إلا ما فاتنى ـ غير عامد ـ أحيانًا.

وقد صنعنا فهارس علمية لهذا الكتاب ألحقناها بالجزء الأخير، وهى كالتالى:

١- فهرس الآيات القرآنية. ٢- فهرس الأحاديث.

٣- فهرس الشعر. ٤- فهرس الأعلام.

٥- فهرس البلدان والمناطق، والأماكن. . . وغير ذلك.

٦- فهرس الكتب التى اعتمد عليها المؤلف.

٧- فهرس المحتويات.

وأخيرا . . . أرجو أن أكون قد قدمت نصا مهما فى قصص الأنبياء، يرضى به رب العباد عنى، ويقبله عملا خالصًا لوجهه الكريم.

المحقق

سعيد عبد الفتاح

صور ونماذج من مخطوطات الكتاب



عرائس القرآن وعرائس الجنان في قصص الأنبياء لمحمد بن سلطام [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي خلق الأرض والسموات العلى وخبر أمور الكائنات من العرش إلى الثرى ثم أرسل مياه السماوات
والعاليات بلطفه الأعلى وجعل من فوق الأرض رواسي شامخات لنفع الورى ثم استوى إلى السماء وهي دخان
فقضاهن سبع سموات تبارك وتعالى ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر والنجوم كل يجري لأجل مسمى
والصلوة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا ونبينا ورسولنا وشفيعنا أبي القاسم محمد المصطفى والمجتبى
والمرتضى صلى الله عليه وسلم وعلى خلفائه الراشدين المرشدين ذوي قدر جلي سادتنا وقادتنا وأئمتنا حضرت أبي بكر
وعمر وعثمان وعلى المخصوص منهم بالعلم والحلم والتقى والنقي وعلى آله وأصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار
والتابعين لهم بإحسان [illegible] الخضراء والغبراء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أما بعد فيقول
الفقير الحقير تراب الأقدام [illegible] بن السيد سلطام بن السيد رستم بن السيد الشيخ خليل بن السيد
الشيخ علي بن السيد الشيخ [illegible] بن السيد حمزة بن السيد قنبر من أولاد أمير المؤمنين وإمام المتقين
أبي عبد الله الحسين بن أمير المؤمنين وإمام المتقين أبي الحسن علي المرتضى بن أبي طالب وابن سيدة نساء
أهل الجنان الموصوفة [illegible] فاطمة الزهراء بنت رسول رب العالمين وسيد المرسلين وخاتم النبيين
وقائد الغر المحجلين أبي القاسم محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم إن الله تعالى لما أكرمني بتفهيم معاني قرآنه
العظيم وإتقان أحكام فرقانه الكريم بذلت فيه مدة عمري وهي أربع وأربعون سنة بأمر [illegible] صلى الله
تعالى عليه وسلم إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه
مسلم عن أبي هريرة من مشكاة المصابيح في كتاب العلم فشرعت بعون الله تعالى في تصنيف عرائس القرآن ونفائس
الفرقان وفراديس الجنان وهي تفسير آيات الله المتعلقة بأفعال الأنبياء وأحوال المرسلين عليهم السلام
وما كان من أقوامهم المشركين وما بلغوا من أحكام الله وما جاهدوا عليه بإخلاص اليقين وقد كان
[illegible] فيما علمت الإمام الثعلبي في عرائسه لكن لما لم يكن خاليا من الإسرائيليات ولم يكن مشتملا على حقائق
القرآن من المعاني التي أورده فحول العلماء من المتأخرين مثل جار الله والإمام الرازي والقاضي ناصر
الدين البيضاوي فإنهم فسروا على القواعد العربية والعقلية بمعان غير ما أورده السلف مما [illegible] فيه
الأوهام وبذلوا فيه جهدهم شكر الله مساعيهم كان واجبا على المؤمنين تبيين العرائس على قواعد
المحققين فأوردت في هذا الكتاب من آيات الله ما يتعلق بأخبار الأنبياء عليهم السلام مفسرا إياها
على قواعد الفحول [illegible] كلماتهم وتركت أكثر الإسرائيليات واقتصرت على التفسير وعلى الأحاديث
الصحيحة والحسنة واجتنبت من الإسرائيليات [illegible] مما يشير إليه النظم الكريم وكان ابتدائي من بدء
خلق العالم يوم السبت الرابع والعشرين من صفر سنة ثنتين وتسعين بعد الألف من هجرة [illegible] العز
والشرف وقد كنت ابتدأت [illegible] قبل ذلك في أول [illegible] رمضان في سنة تسعين بعد الألف من قصص
موسى كليم الله عليه السلام ابتداء من سورة القصص مكية [illegible] إلى [illegible] من أخبار الأنبياء من
بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام من كتاب الله تعالى [illegible] الوعظ و[illegible] من
أهل اللفظ والمعاني [illegible] في سنة ثنتين وتسعين والآن شرعت من بدء خلق العالم يوم السبت
[illegible] المذكورة [illegible] القرآن فوجدت [illegible] في القرآن في هذا المعنى [illegible] النبوية
[illegible] في تفسيره وضممت إليه ما يناسبه من الآيات الأخر والأحاديث الصحيحة والحسنة طالبا مرضاة
الله والتقرب إليه قربة فنقول وبالله التوفيق قال الله تعالى في السورة المذكورة [illegible] المعنى قل
أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين [illegible] في معالم التنزيل
[illegible] عبد الله بن [illegible] محمد بن كعب القرظي بطريق آخر [illegible]

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

صورة الصفحة الثانية من المخطوط

رمكة وديق التي تشتهي الحصان فغرّ الشيطان ووجد حصان فرعون للاده ريح الرمكة
فاخذ اللجام من يد فرعون ودخل الماء على اثر فرس جبريل عليه السلام فاستكفى اللعين
عن اللقاء نفسه من الغرق حياء عن الناس وراى ان البحر هواء ساكن فهوى قلبه
فراجع ثم ان ميكائيل وجنود الملائكة جاؤا الى عسكر فرعون متمثلين بصورة الحاشرين
فقالوا ان الامير راجع ودخل الماء فادخلوا انتم فدخلوا جميعا حتى اذا قرب فرس فرعون
الى الساحل ونجا بنو اسرائيل ودهم فرعون بالخروج فعند ذلك اخذ جبريل لجام فرس فرعون
واعطاه فتياه بخطه وقصته انه لما قرب هلاك اللعين وكان يوما في ديوان مظالمه
دخل جبريل عليه السلام وبيده فتيا على قرطاس ما جواب الامير في عبد نشاء ونما في نعمة
مولاه ثم جحد نعمته وادعى السيادة لنفسه دون مولاه فكتب فرعون بخط يقول
ابو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الكافر بالنعم والجاحد لحق مولاه ان يغرق
في البحر فلما اخذ فتياه عرفها فعند ذلك قال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل
وانا من المسلمين على ما في سورة يونس فامن اللعين بثلث كلمات امنت وكلمة انه
لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل فقد قرئ انه بالكسر على الاستيناف وقوله انا من المسلمين
لكن لما كانت الامور مرهونة باوقاتها وقد فات وقت الايمان فلم يقبل ولو قال واحدة
منها حال الاختيار قبلت فقال الله تع على ما هو الظاهر من الضمائر في ننجيك وفي اياتنا الاية
او جبرئيل بامره تعالى الان اتؤمن الان والهمزة للانكار لان هذا الايمان حال الاضطرار لدفع الباس
دون حال الاختيار فيكون كايمان الكفرة في جهنم وقد عصيت قبل مدة عمرك وانت
من المفسدين الضالين المضلين فاليوم ننجيك اي من قعر البحر ملقى على نجوة من الارض
ببدنك حال اي حال لا روح فيه او سالما بجميع الاعضاء وعريانا او بدرعك فانه
كان له درع من الذهب يعرف به لتكون لمن خلفك من جهة المكان وهم بنو اسرائيل فان
جسد اللعين القي على موضع عال في ممر بني اسرائيل كانه ثور عريانا من الثوب عليه درعه
فخروا عليه ونظروا اليه بعدما انكروا على موسى هلاكه اية اي علامة او من حيث الزمان
اي لتكون اية وعبرة لجميع الظلمة والكفرة في الاعصار الاتية الى يوم القيمة وان كثيرا من الناس
عن اياتنا لغافلون مثل ظلمة زماننا دمرهم الله تع تدميرا وقال تع هنا ثم اغرقنا الاخرين
اي قوم فرعون ان في ذلك اي ما حكى الله تع عن فرعون لاية اية وما كان اكثرهم مؤمنين
اي اكثر اهل زمانه وان ربك لهو العزيز الرحيم العزيز القادر للنقم الرحيم الذي يمهل
ولا يهمل اعاذنا الله تع من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا في بيان عبور بني اسرائيل
البحر وانزال التورية على موسى عليه السلام في عشر ايات من سورة الاعراف وبيان
ذلك انه تع قال وجاوزنا ببني اسرائيل اي بعد هلاك فرعون وقومه البحر اي بحر
قلزم على ما مر فاتوا على قوم من العمالقة الذين امر موسى بقتالهم يعكفون على اصنام لهم
من تماثيل البقرة المتخذة من جواهر الارض من الذهب والنفت وغيره كانوا يعبدونها ويتقربون
بها الى الله تع وهو اصل عبادة البقر قالوا اي بنو اسرائيل يا موسى اجعل لنا الها التماثيل
نتقرب بها الى الله تع كما لهم الهة يتقربون بها الى الله تع قال موسى انكم قوم تجهلون
عظمة ربكم وتقدسه عن الشركاء ان هؤلاء اي العابدين للبقر فهم متبر مهلك ما هم
فيه من الدين وباطل ما كانوا يعملون اي عملهم من عبادة البقر فاهلكها الله تع ودينهم

صورة الصفحة ٢٣١ من المخطوط

ودليهم واصنامهم بيكتهم قال موسى أغير الله أبغيكم إلها أي معبودا من التماثيل وهو
فضلكم على العالمين في زمانكم بما آتيكم من فلق البحر والآيات التسع المذكورة قال الله تعالى
ممتنا عليهم وملتفتا إليهم بالخطاب وإذ أنجيناكم يا بني إسرائيل من آل فرعون يسومونكم
أي يطلبون لكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم بيان للسوم ويستحيون نساءكم للخدمة
وفي ذلكم [illegible] بلاء أي نقمة أو نعمة من ربكم عظيم ثم إن موسى عليه السلام طلب ربه
ما كان وعده بمصر فإنه كان وعده بمصر أن يؤتيه كتابا فيه بيان ما يأتون وما يذرون بعد
هلاك فرعون وقومه فلما أهلك الله عدوهم سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب الموعود
فبين الله تعالى تلك القصة في القرآن العظيم فقال وواعدنا موسى ثلثين ليلة ليلة والمواعدة
من الجانبين وثلثين ظرف قائم مقام المفعول به ووعد الله بالوحي والتكليم وإنزال
الكتاب ووعد موسى بالمجيء إلى الطور والصوم والتخلي للعبادة والاستماع بكلامه والقبول
فنعد من الكلام وواعدنا موسى أفعال للثلثين ليلة وهي شهر ذي القعدة فصامه موسى عليه السلام وجاء
إلى الطور معه سبعون من نقباء بني إسرائيل لما وصل إلى الطور بقي السبعون في ذيل الجبل
وصعد موسى عليه السلام فوقه لقوله تعالى في طه وما أعجلك عن قومك يا موسى
أي السبعين قال هم أولاء على أثري أي خلفي وعجلت إليك رب لترضى لكن في سورة الأعراف
التي كلامنا فيها ما نطق الله عن أمر سبعين إلا بعدما حكى اتخاذ بني إسرائيل العجل فالتوفيق
ما ذكرناه فغير إنزال التورية وطلب الرؤية وخر موسى صعقا السبعون غير حاضرين كما يدل
عليه ظاهر هذه القصة فلما جاء موسى الطور وبقي السبعون في أسفل الجبل ولم يحضروا مع
موسى عليه السلام تجلى موسى وصام ذي القعدة ليلا ونهارا ولم يأكل شيئا وإنما ذكر الليل لأن عند المشهور عند
العرب بالليالي فظاهر تخصيصها بالذكر والتمام يأكل ليلا وإنما ولأن مظنة الأكل كانت بالليل فإذا
انتفت كان النهار أولى به فبعد الثلثين تسوك موسى عليه السلام لخلوف فمه أي تغير
رائحة فمه قال الله تعالى أو بعض الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزاد الله تعالى عشر
ذي الحجة على ما قال وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه وهو الوقت الذي يعين الأمر وهو
ههنا التكليم أربعين ليلة وهو حال أي بالغا أربعين ليلة وإنما ذكر فتم الأمر ولأن
معلوما مما سبق لدفع وهم أن يكون العشر في ذي القعدة وقال موسى حال انطلاقه
أي كان عند الخروج إلى الطور قد قال لأخيه هرون عطف بيان لأخيه اخلفني أي كن خليفتي
ولا يلنا فيهم رسالة هرون لأن موسى عليه السلام كان أصلا وصاحب الشريعة والكليم في قومي وأصلح
أي ما يجب إصلاحه فخفف للمفعول للتعميم لكن مصلحا فإنما تتعدى منزل منزلة اللازم هذا
إلا أمر للتهييج والتثبيت والإفهام فإنه مصلح ولا تتبع سبيل المفسدين بمتابعتهم وملا
بينهم ولما جاء موسى لميقاتنا وهو وقت التكليم يوم عرفة في أواخر الأربعين واللام للاختصاص
أي أختص مجيئه بميقاتنا وكلمه ربه بأن أسمعه كلام القديم القائم بذاته بلا صوت ولا حرف
بلا واسطة ملك أو بشر ولذا اختص باسم الكليم وقد سمع كلامه المنظم المؤلف من الأصوات
والحروف الدال على الكلام القديم بخلق الله إياه في بعض الأجسام كالشجرة فيما مضى أو كالجبل
ههنا لكن من جميع الجهات وبجميع الأعضاء وهذا أي سماعه الكلام القديم القائم بذاته المخلوق
في بعض الأجسام مذهب الأشعري ومن تبعه ومذهب أبي منصور الماتريدي أن الكلام الذي هو
حقيقة كلامه النفسي أي المعنى القديم القائم بنفسه لكن ما سمعه موسى عليه السلام وما سمعه قومه

صورة الصفحة ٢٣٩ من المخطوط

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـــه نســـتعين

الحمـد لله الذى خلق الأرض والسمـوات العلى، ودبر أمور الكائنـات من العرش إلى الثرى، وأسس مبـانى السافلات والعاليات بلطفـه الأعلى، وجعل من فوق الأرض رواسى شامخات لنفع الورى، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقضاهن سبع سموات تبارك وتعالى، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر والنجوم كلٌّ يجرى لأجل مسـمى، والصلاة والسلام الأتمان الأكـملان على سيدنـا، ونبينا، ورسولنا، وشفـيعنا القاسم مـحمد المـصطفى، والمجتـبى والمرتضى - ﷺ - وعلى خلفـائه الراشدين المرشدين ذوى القدر الجلىّ سادتنا، وقـادتنا، وأئمتنا حضرة أبى بكر[١]، وعمـر[٢]،

(١) (أبو بكر الصديق) هو: عبد الله بن أبى قحافة: عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشى التـيمى، أبو بكر الصديق، الصحابى، بل من أئمـة الصحابة، رضوان الله عليهم أجـمعـين، توفى ١٣هـ، روى له: البخـارى، والترمذى، وأبو داود، والـنسائى، وابن ماجه. خليفة رسول الله ﷺ (قال النبى ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر»). وأمه: أم الخير، واسـمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كـعب بن سعد بن تيم بن مرة، أسلم أبواه. وكـان أول الناس إسـلامًا، وهاجـر مع رسـول الله ﷺ، وشهـد مـعه بدرًا وأحـدًا، والمشاهد كلها، وروى عن عائشة من غير وجه أن رسول الله ﷺ، قال: «أبو بكر عتيق الله من النار» فمن يومئـذ سمى عتيقًا، ولى الخـلافة بعد وفاة النبى ﷺ سنتين وشيـئًا، وقيل: عشرين شهـرا، وتوفى يوم الاثنين، وقيل: ليلة الثلاثاء لثمان، وقيل: لثـلاث بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه عمر بن الخطاب فى المسجد، ودُفن ليلا فى بيت عائـشة مع رسول الله ﷺ انظر: تهذيب التهذيب ٥/ ٣١٦ وانظر: المزى: تهذيب الكمال ١٠/ ٣٢٥ الترجمة رقم (٣٤٠٠).

(٢) (عـمـر بن الخطاب) بن نفيل بن عـبد العزى بن رياح بن عبد الله بـن قرط بن رزاح بن عدى القرشـى العدوى، أبو حفص (أمـير المـؤمنين) صحـابى، الوفاة: ٢٣هـ بالمـدينة، روى له: البخـارى، ومسلم، وأبو داود، والتـرمذى، والنسائى، مـن أئمة الصحـابة، وأمير الـمؤمنين، مشهور، جمُّ المناقب، وأمه: حنتمة بنت هاشم (ذى الرمحين) بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم، وقيل: حنتمة بنت هشـام، وهو أشهر، والأول أصح، أسلم بمكة قديمًا، وهاجر إلى المدينة قبل رسـول الله ﷺ، وشهد بدرًا، والمشـاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وولى الخلافة عشر سنين وخمسة أشهـر، وقيل: ستة أشهر، وقُتل يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى =

وعثـمان[(١)]، وعلـى[(٢)]، المخصوصـين بالعلم والحلم، والتقى، والنقى، وعلى آله وأصحابه الأخيـار من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسـان ما دامت الخضراء والغبراء ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

= الحجة، وقيل: لثلاث بقين منه، سنة ثلاث وعشرين وهو ابن ثلاث وستين سنة، فى سن النبى ﷺ وسن أبى بكر، وقـد قيـل فى سنه غيـر ذلك، وهذا هو الأصح، ودفن مع رسـول الله ﷺ فى حجرة عـائشة، وصلى عليه صهـيب بن سنان. اهـ. قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمـر وقلبه» ونزل القرآن بموافقتـه فى أسرى بدر، وفى الحجاب، وفى تحريم الخمر، وفى مقام إبراهيم، وروى من حديث عقبة بن عامر وأبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لو كان بعدى نبى لكان عمر» «تهذيب التهذيب» ٧/ ٤٤١

(١) (عـثـمـان بن عفـان) بن أبى العاص بن أميـة القرشى الأموى أبو عمرو، ويقـال: أبو عبد الله، ويقـال: أبو ليلى، ذو النورين، صـحـابى، توفى ٣٥هـ بالمـدينة، أحـد السـابقـين الأولين، والخلفاء الأربعة، والعشرة المبشرة).
روى له: البخارى، ومسلم، والترمذى، وأبو داود والنسائى. أمير المؤمنين، ذو النورين.
أمه: أروى بنت كريز بن ربيـعة بن حبيب بن عبـد شمس بن عبد مناف، أسلم قـديمًا وهاجر الهجرتين، وتزوج ابنتى رسول الله ﷺ: رقية فماتت عنده، ثم تزوج أم كلثوم فماتت عنده، أيضًا. اهـ. كان أول خارج إلى الهجرة الأولى، وتابعه سائر المهاجرين إلى أرض الحبشة، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة، ولم يشهد بدرًا لتخلفه على تمريض زوجته رقية، كانت عليلة فأمره رسول الله ﷺ بالتـخلف، وضرب له بسهمه وأجره، فهـو معدود فى البدريين لذلك، وماتت رقيـة فى سنة ثنتين من الهجرة حـين أتى خبر رسول الله ﷺ بمـا فتح الله عليه يوم بدر، وروينا عن ابن عمر أنه قال: يد رسول الله ﷺ لعثمـان خير من يد عثمان لنفسه، وهو أيضًا معدود فى أهل الحديبية أنظر: «تهذيب التهذيب» ٧/ ١٤٢ وانظر المزى: تهذيب الكمال الترجمة رقم (٤٤٣١) ١٢/ ٤٤٩.

(٢) (على بن أبى طالب) بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، أبو الحسن، الهاشمى أمير المؤمنين ابن عم رسول الله ﷺ، كناه رسول الله ﷺ أبا تراب، وتوفى كرم الله وجـهه سنة ٤٠هـ، روى له: البـخارى، ومسلم، والتـرمذى وأبو داود، والنسـائى أمـه فاطمـة بنت أسد بن هاشم الـهاشمـية، وهى أول هـاشميـة ولدت لهاشـمى، أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وتوفـيت فى حياة رسول الله ﷺ، وصلى عليـها ونزل فى قبرها، وقيل: مـاتت بمكة قبل الهجرة. شهد على (كرم الله وجـهه) بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما خلا تبوك. اهـ. وكـان له من الولد الذكور أحد وعشرون: وكان له من الإناث ثمانى عـشرة: زينب الكبرى، وزينب الصـغرى، وأم كلثوم الكبـرى، وأم كلثوم الصغرى، ورقية الكبرى، ورقية الصغرى، وفاطمة الكبرى، وفاطمة الصغرى، وفاختة، وأمة =

أما بعـــــــد:

فيقول الفقير الحقير تراب الأقدام سيد محمد بن السيد بسطام بن السيد رستم، بن السيد الشيخ خليل بن السيد الشيخ على، بن السيد الشيخ يونس ابن السيد حمزة بن السيد قنبر من أولاد أمير المؤمنين، وإمام المتقين أبى عبد الله الحسن بن أمير المؤمنين وإمام المتقين أبى الحسن على المرتضى بن أبى طالب، وابن سيدة نساء أهل الجنة أم الموحدين فاطمة الزهراء بنت رسول رب العالمين وسيد المرسلين وخاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين أبى القاسم محمد ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم: إن الله ـ تعالى ـ لما أكرمنا بفهم معانى قرآنه العظيم وإتقان أحكام فرْقانه الكريم، وبذلت فيه مدة عمرى وهى أربع وأربعون سنة، تأملت قوله ﷺ : (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[1]. رواه مسلم[2].

= الله، وجمانة، تكنى أم جعفر، ورملة، وأم سلمة، وأم الحسن، وأم الكرام، وهى نفيسة، وميمونة، وخديجة، وأمامة، على خلاف فى بعض ذلك، انظر: تهذيب التهذيب ٧/ ٣٣٩.

(١) حديث: **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث)**.

(إذا مات ابن آدم) وفى رواية: الإنسان، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، والبخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة، وزاد بعضهم على ذلك أشياء وردت فى أحاديث، ونظم الجميع الجلال السيوطى بقوله:

إذا مـات ابن آدم ليس	**يجرى عليه من عشرِ**
علوم بثها ودعاء نجل	**وغرس النخل والصدقات تجرى**
وحفر البئر أو إجراء نهر	**وراثة مصحف ورباط ثغر**
وبيت للغريب بناه يأوىٰ	**إليه أو بناء محل ذكرِ**
وتعليم لقرآن كريم	**فخذها من أحاديث بحصرِ**

انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ١٠٥ الحديث رقم (٢٧٧).

(٢) **(مسلم)** بن الحجاج بن مسلم القشيرى، أبو الحسن النيسابورى الحافظ (صاحب «الصحيح»). ولد سنة ٢٠٤هـ وتوفى (رحمه الله سنة) ٢٦١هـ.

روى له: الترمذى، والإمام مسلم ثقة حافظ إمام الحافظ، صاحب «الصحيح» قال الحاكم أبو عبد الله الحافظ: قرأت بخط أبى عمرو (المستملى) أملى علينا إسحاق بن منصور سنة إحدى وخمسين ومائتين، ومسلم بن الحجاج ينتخب عليه وأنا أستملى، فنظر إسحاق بن منصور إلى مسلم فقال: لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين. حصل لمسلم فى كتابه حظ عظيم مفرط =

عن أبى هــريرة(١) من مشكاة المـصابيح(٢) فى كتاب العلم. فـشرعت بعون الله

= لم يحصل لأحد مـثله، بحيث إن بعض الناس كان يفضله على صـحيح محمد بن إسـماعيل، (أى البخـارى) وذلك لما اختـص به من جمع الطرق، وجودة السـياق، والمـحافظة على أداء الألفاظ كما هى من غـير تقطيع، ولا رواية، فسبحان المعطى الـوهاب، وله من التصنيف غير «الجامع» كتاب «الانتفاع بجلود السباع» و «الطبقات مختصر» و «الكنى».

انظر: «تهذيب التهذيب» ١٠/ ١٢٧.

(١) **(أبو هريرة)** الدوسى اليمانى، حافظ الصحابة، اختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا. توفى رضي الله عنه سنة: ٥٧هـ (٥٨ أو ٥٩ هـ) روى له: البـخارى، ومسلم، وأبو داود، والتـرمذى، والنسائى، وابن مـاجه، كان حافظا متـثبتًا ذكيّـا مفتيًا، صـاحب صيام وقيـام. قال المزى فى «تهذيب الكمال»: أبو هريرة الدوسى اليمانى، صاحب رسول الله ﷺ، وحافظ الصحابة. فقيل: اسمه عـبد الرحمن بن صخر، وقيل: عبد الرحمن بـن غنم، وقيل: عبد الله بن عائذ، وقيل: عـبد الله بن عامر ويقـال: كان اسمــه فى الجاهلية عـبد شمس، وكنيتـه: أبو الأسود، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وكناه أبا هريرة، وروى عنه أنه قال: إنما كنيت بأبى هريرة أنى وجدت أولاد هرة وحـشية فحمـلتها فى كمى، فـقيل: ما هذه؟ فقلت: هرة، قـيل: فأنت أبو هريرة. تهذيب التهذيب ١٢/٢٦٦ المزى: تهذيب الكمال: ٢٢/ ٩٠ الترجمة رقم (٨٢٧٥).

(٢) **(مـشكاة المصـابيح)** هو أولا (مصابيح السنة) للإمام حسين بن مسـعود الفراء البغوى الشافعى المتوفى سنة ٥١٦ ست عشرة وخمسمائة، قيل: عدد أحاديثه: أربعة آلاف وتسعة عشر حديثًا، منها: المختص بالبخارى ثلاثمائة وخمسة وعشـرون حديثا، وبمسلم ثمانمائة وخمسة وسبعون حديثا. ومنها: المـتفق عليه ألف واحد وخمسون حديثًا، والبـاقى من كتب أخرى، وترك ذكر الأسـانيد اعـتمـادًا على نقل الأئمة، وقـسَّم أحـاديث كل باب إلى صحـاح وحسـان، وعنى بالصحاح ما أخرجه الشيخان، وبالحسان مـا أورد أبو داود والترمذى، وغيرهما، وما كان فيها من ضعيف أو غريب أشار إليه واعرض عن ذكر ما كان.

واعتنى بهذا الكتاب العلمـاء بالقراءة والتعليق فشرح الشيخ الإمام القـاضى ناصر الدين عبد الله ابن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٦٨٥هـ خمس وثمـانين وستمائة سماه: (تحفة الأبرار) وقاسم ابن قطلوبغـا الحنفى المتـوفى سنة ٨٧٥هـ، وشـهاب الدين فـضل الله بن حسـين التوربشـتى الحنفى وسـماه: (الـميـسّر) أوله: الـحمـد لله الذى شرع لـنا الحق واوضح دليله . . . إلخ، (٦٠٠هـ) وشـمس الدين محـمد بن مظفـر الخلخالـى وسمـاه: «التنوير» وتوفى سنة ٧٤٥هـ خمس وأربعين وسبعمائة، وعلاء الدين على بن محمد الشهير بمصنفك المتوفى سنة ٨٧٥هـ، خمس وسبعين وثمانمائة، ألفه بإشارة من حـضرة الرسول، عليه السلام لابن قرمان بقونيه سنة ٨٥٠هـ، خمـسين وثمـانمائة، وغـياث الدين مـحمد بن مـحمـد الواسطى البغـدادى مدرس بالمستنصرية المعروف بابن العاقولى المتوفى سنة ٧٩٧هـ، سبع وتسعين وسبعمائة وشمس الدين محمـد بن محـمد الجـزرى المذكور فى النشر فى ثلاثة مجلدات وتوفى سنة ٨٣٣هـ ثلاث =

= وثلاثين وثمانمائة. ألفَّه وراء النهـر وسماه: (تصحيح المصابيح التوضـيح فى شرح المصابيح) وظهير الدين محمود بن عبد الصـمد الفارقى، وقرة يعقوب بن إدريس الحنفى الرومى القرمانى المتوفى سنة ٨٣٣هـ ثلاثة وثلاثين وثمـانمائة، وشمس الدين أحمد بن سليمـان المعروف بابن كمال باشا المتوفى سنة (٩٤٠هـ) وعلى بن عبد الله بن أحمد المعروف بزين العرب، قيل: إنه نخجوانى، والذى فى شـرح على القارى أنه مصرى، والأول منقول من قاسم زاده، والـمفهوم من أول شرحه أنـه شرحه ثلاث مرات والمتـداول الأوسط فإنه مشهـور عن الأول والثالث من الأول، ذكر فى أوسطه أنه قـال: فى حدود سنة خمسين وسـتمائة، ومظهر الدين الـحسين بن مـحمـود بن الحـسن الزيدانى المـتوفى سنة ٧٢٧هـ، سـمـاه: (المفـاتيح فى شـرح فى حل المصابيح) أوله: الحـمد لله ملء السموات وملء الأرض . . . إلخ، أورد فى أوله مـقدمة فى اصطلاحات أصـحاب الحديث وأنواع علومـه، كذا وجدت فى ظهـر نسخة منه ومن شـروحه الأزهار، واختصره الشيخ أبو النجيب عبد القـاهر بن عبد الله السهروردى المتوفى سنة ٥٦٣هـ ثلاث وستين وخمسمائة، وللشيخ تقى الدين على بن عـبد الكافى السبكى كتاب سماه: (ضياء المصابيح) وتوفى سنة ٧٥٦هـ ست وخـمسين وسبعمائة، وصنف الشـيخ مجد الدين أبو طاهر محمـد بن يعقوب الفيروز آبادى كـتابًا سماه التخـاريح فى فوائد متعلقة بأحـاديث المصابيح، وتوفى سنة٨١٧هـ سبعة عـشرة وثمانمائة، ثم إن الشيخ ولى الدين أبا عبد الله مـحمد بن عبد الله الخطيب كمل المصابيح وذيل أبوابه فذكـر الصحابى الذى روى الحديث عنه وذكر الكتاب الذى أخرجه منه وزاد على كل باب من صحاحه وحسـانه إلا نادرًا فصلا ثالثًا وسماه: (مشكاة المصابيح) فـصار كتابًا كامـلا، فرغ من كتابته آخـر يوم الجمعة من رمـضان سنة ٧٣٧هـ سبع وثلاثين وسبعمائة وشـرحه العلامة حسن بن محمد الطيـبى المتوفى سنة ٧٤٣هـ ثلاث وأربعين وسبعمائة، وسماه الكاشف عن حقائق السنن، أوله: الحمد لله مشيد أركان الدين الحنيف . . إلى آخره، قال: وكنت قبل قد استشرت الأخ فى الدين بقية الأولياء قطب الصلحاء ولى الدين محـمد بن عـبد الله الخطيب بجـمع فى جمـع أصل من الأحاديث، فـاتفق رأينا على تكملة المصابيح وتهذيبه وتعيـين روايته فما قصر فيما أشرت إليه، فبذل وسـعه، فلما فرغ من إتمامه شمرت عن ساق الجد فى شـرح معضله بعد تتبع الكتب معلمًا لكل مـصنف بعلامة، وشرحه أبو الحسن على بن مـحمد المعـروف بعلم الدين السخاوى المتـوفى سنة ٦٤٣ ثلاث وأربعين وستمائة وعبـد العزيز بن محمد بن عبد العزيز الأبهرى الـمتوفى فى حدود سنة ٨٩٥هـ خمس وتسعين وثمانمائة الأمير عليش وسماه منهاج المشكاة، وهو تاريخ لتأليف أوله إن أصح حديث ترويه الثقات فى الإعصـار . . . إلخ، وعلى المشكاة حاشية للعلامة السـيد الشريف، وللشيخ نور الدين على بن سلطان محمـد الهروى المعروف بالقارى المتـوفى سنة ١٠١٤هـ أربع عشرة وألف، شرح عظيم ممزوج على المـشكاة مسمى بالمرقاة فى أربع مجلدات، جمع فـيه جميع الشروح والحواشى، أوله: الحمد لله الذى فتح قلوب العلماء بمفاتيح الإيمان، ثم جاء بعده =

تعالى فى تصنيف (عرائس القرآن، ونفائس الفرْقان، وفراديس الجنان) وهى تفسير آيات الله المتعلقة بأفعال الأنبياء وأحوال المرسلين - عليهم السلام - وما كانوا عليه مع أقوامهم المشركين، وما بلَّغوا من أحكام الله وما جاهدوا عليه بإخلاص اليقين، وقد كان سبقنى إليه فيما علمت الإمام الثعلبى فى عرائسه(١) لكن لما لم يكن خاليا من

= واحد من الفضلاء فزاد فى كل باب فصلا آخر فصار كله أربعة فصول مما وجد بعدهما فى الدواوين المعتبرة للأئمة السبعة، أعنى الحميدى وابن الأثير، والصغانى، والقضاعى، والاقليشى، والنووى، والمدينى، من كل حديث استدل به مجتهد فى مذهبه، فكان كالشرح لهذين الكتابين، وسماه: أنوار المشكاة، فعدد الكتب فيهن ٢٩ تسعة وعشرون، والأبواب ٣٢٧ ثلاثمائة وسبعة وعشرون، والفصول ١٣٠٨ ألف وثمانية وثلاثمائة. ومن شروح المصابيح شرح الشيخ عبد المؤمن بن أبى بكر بن محمد الزعفانى، وشرحه خليل بن مقبل شرحًا بسيطا، ومن شروح المصابيح مفتاح الفتوح، أوله: الحمد لله الذى قصر الأفهام عما يليق بكبريائه ... إلخ، ذكر فيه أنه شرح السنة الغريبين، والفائق، والنهاية، ووضع حروف الرموز لتلك الكتب وفرغ منه فى ٢١ رمضان سنة ٧٠٧هـ سبع وسبعمائة، وشرحه الشيخ أبو عبد الله إسماعيل بن محمد بن عبد الملك بن عمر المدعو بالأشرف الفقاعى، وشرحه الشيخ صدر الدين أبو عبد الله محمد شرف الدين بن إبراهيم السلمى المناوى الشافعى المتوفى ٧٤٧هـ، وسماه المناهج كشف المناهيج والتفاتيح فى شرح أحاديث المصابيح، أوله: الحمد الله كاشف مصابيح الهدى وجعلها نجاة ... إلخ، ذكر المصابيح، هو الذى عكف عليه المتعبدون لكنه لطلب الاختصار لم يذكر كثيراً من الصحابة رواة الآثار ولا تعرض لتخريج تلك الأخبار، بل اصطلح على أن جعل الصحاح هو ما فى الصحيحين أو أحدهما، والحسان ما ليس فى واحد منها، والتزم أن ما كان من ضعيف نبه عليه، وأن ما كان موضوعًا لم يذكره ولا يشير إليه، فوقع له بعد ذلك أن ذكر أحاديث من الصحاح، وليست فى واحد من الصحيحين، وأحاديث من الحسان وهى فى واحد الصحيحين، وأدخل فى الحسان أحاديث ولم ينبه عليها، وربما ذكر أحاديث موضوعة فى غاية السقوط متناهية، فجعلت موضوع كتابى هذا لتخريج أحاديثه ونسبته إلى مخرجه من أصحاب الكتب الستة، فإن لم يكن الحديث فى شىء من الكتب الستة خرجته من غيرها كمسند الشافعى وموطأ مالك وغيرهما، ومنها تلفيقات المصابيح لقطب الدين محمد النكيدى الأزنيقى المتوفى سنة ٨٢١هـ، ومن شروحه منهل الينابيع وشرحه أبو در أحمد بن إبراهيم، ومن شروحه شرح محمد بن عبد اللطيف المعروف بابن الملك الرومى، وهو شرح لطيف ممزوج كشرح أبيه للمشارق، أوله: الحمد لله الذى بصرنا بالصراط المستقيم ... إلخ، انظر حاجى خليفة كشف الظنون: ٢/ ١٦٩٨.

(١) **(عرائس القرآن)** للثعالبى: أول من كتب تأليفًا معنى عرائس القرآن هو الشيخ أبو محمد روزبهان ابن أبى نصر البقلى الشيرازى الصوفى المتوفى سنة ٦٠٦ ست وستمائة، وهو تفسير على =

الإسرائيليـات، ولم يكن مشتـملاً على حقائق القـرآن من المعانى التى أوردها فـحول العلماء من المتـأخرين مثل: جار الله[١]، والإمـام الرازى[٢] والقاضى نـاصر الدين

= طريقة أهل التصوف قال: صنفته موجزاً مخففًا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لى من حقيقة القرآن ولطائف البـيان بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكـرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ ثم أردفت بعد قولى أقوال مشايخى بمـا عبارتها ألطف وإشارتها أظرف، وتركت كثيراً منها ليكون أخف محملا وأحسن تفصيلا وسماه: (عرائس البيان فى حقائق القرآن).

ثم جاء الثعلبى فألف عـرائس المجالس وسماه عرائس القـرآن: وهو: فى قصص الأنبياء لأبى إسحاق أحمد بن محمد الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧هـ سبع وعشرين وأربعمائة، أوله: الحمد لله حق حمده، وقال: هذا كتاب يشتمل على ذكـر قصص القرآن بالشرح والبيان، ثم جاء الفاضل السـيد محـمد بن بسـطام الخوشـابى المعـروف بالوانى افندي، المتـوفى سنة ١٠٩٦هـ ست وتسعين وألف، أيضًا فى قـصص الأنبياء، وهو أحسن وأفيد من عرائس الثـعلبى، ذكر فيه من تفسـير البيـضاوى وحواشـيه ومن الكشاف وحـواشيه سـماه: عرائـس القرآن ونفائس الفـرقان وفراديس الجنان. انظر: حاجى خليفة: كشف الظنون: ٢/ ١١٣١.

(١) **(جار الله الزمخشرى)** هو: العلامة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى الخوارزمى النحوى صـاحب الكشاف والمفـصل، ذكر التاج سنان أنه رآه على باب الإمـام أبى منصور بن الجواليقى، وقال لما قدم الزمخشرى للحج أتاه شيخنا أبو السعادات ابن الشجرى مهنئًا بقدومه وأثنى عليه، ولم ينطق الزمـخشرى حتى فرغ أبو السـعادات فتصاغـر له وعظَّمه وقال: إن زيداً دخل على رسـول الله ﷺ فرفع صـوته بالشهـادتين فقـال له: يا زيد، كل رجل وُصف لى وجدته دون الصفة إلا أنت، فإنك فوق ما وُصفت، وكذلك الشريف، ودعا له وأثنى عليه.

كـان رأسًـا فى البـلاغة والعـربيـة والمـعـانى والبـيان، ولـه نظم، وبرع فى الآداب، وصنف التصانيف، ورد العراق وخـراسان، وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتلمـذوا له، وكان علامة نسابة، جاور مدة حتى هبت على كلامه رياح البادية، مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة، له الفـائق فى غريب الحديث، وربيع الأبرار، وأساس البـلاغة، ومشتـبه أسامى الرواة، وكتـاب النصائح والمنهاج فى الأصـول، وضالة الناشـد، انظر: الذهبى: سير أعـلام النبلاء: ٢٠/ ١٥١ الترجمة رقم ٩١.

(٢) **(الفخر الرازى)** (٦٠٦هـ = ١٢١٠م) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى، أبو عبـد الله، فخـر الدين الرازى: الإمام المـفسـر، أوحد زمـانه فى المعـقول والمنقـول وعلوم الأوائل، وهو قرشى النسب، أصله من طـبرستان، ومـولده فى الرى وإليها نسبـته، رحل إلى خـوارزم وما وراء الـنهر وخـراسـان، وتوفى فى هراة، وأقـبل الناس على كـتـبه فى حـيـاته يتدارسونها، وكـان يحسن الفارسية، من تصانيـفه: مفاتيح الغيب ـ فى تفسـير القرآن الكريم، ولوامع البينـات فى شـرح أسـماء الله تعالى والصـفات ومـعالم أصول الدين ومحصل أفكار =

البيضاوى[1]، فإنهم فسروا على القواعد العربية والعقلية بمعانٍ غير ما أورده السلف مما تتحيّر فيه الأفهام، وبذلوا فيه جهدهم، شكر الله مساعيهم، كان واجبًا على المؤمنين تبيين العرائس على قواعد المحققين فأوردت فى هذا الكتاب من آيات الله تعالى ما يتعلق بأخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مفسرًا إياها على قواعد الفحول آخذًا من كلماتهم، وتركت أكثر الإسرائيليات، واقتصرت على التفسير، وعلى الأحاديث الصحيحة والحسنة وجئت من الإسرائيليات بنبأ يقين مما يشير إليه النظم الكريم.

وكان ابتدائى ـ من بدء خلق العالم ـ يوم السبت الرابع والعشرين من صفر فى سنة اثنتين وتسعين بعد الألف من هجرة من له العز، والشرف، وقد كنت ابتدأت، وشرعت قبل ذلك فى أول جمعة من رمضان فى سنة تسعين بعد الألف من قصص موسى كليم الله ـ عليه السلام ـ مبتدأ فى سورة القصص، لحكمة دعت إليه، فبلغ النهاية وتمت

= المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين).. انظر ترجمته فى: كحالة: معجم المؤلفين ١١/ ٧٩ مقدمة المحصل لأفكار المتقدمين والمتأخرين بتحقيق طه عبد الرءوف سعد، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٦٠٠، ابن حجر: لسان الميزان، اليافعى: مرآة الجنان ٤/ ٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٥٥ الصفدى: الوافى بالوفيات ٤/ ٢٤٨ ابن العماد: شذرات الذهب: ٥/ ٢١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٦/ ١٩٧ البغدادى: هدية العارفين ٢/ ١٠٧، ومختصر تاريخ الدول ٤١٨، والبداية والنهاية ١٣ : ٥٥ وطبقات الشافعية ٥ : ٣٣ ومعجم المطبوعات ٩١٥ والتيمورية ٣: ١٠٦ والكتبخانة ٢: ٢٦٣. انظر: الزركلى: الأعلام: ٦/ ٤٤٤.

(١) **(ناصر الدين البيضاوى)** (٦٨٥هـ - ١٢٨٦م) هو: عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى الشيرازى، الشافعى (ناصر الدين، أبو سعيد) نسبة إلى البيضاوية من عمل شيراز، قاض، عالم بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق والحديث، توفى بتبريز، من مصنفاته الكثيرة: منهاج الوصول إلى علم الأصول، شرح المطالع فى المنطق، الغاية القصوى فى دراية الفتوى فى فروع الفقه الشافعى، أنوار التنزيل وأسرار التأويل فى التفسير، وشرح مصابيح السنة للبغوى سماه تحفة الأبرار، الأسنوى: طبقات الشافعية ٢/ ٤٩ فهرس المؤلفين بالظاهرية، ابن شهبة: طبقات النحاة واللغويين ٣٣٩، السبكى: طبقات الشافعية ٥: ٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣: ٣٠٩، السيوطى: بغية الوعاة ٢٨٦، اليافعى: مرآة الجنان ٤: ٢٢٠، طاش كبرى: مفتاح السعادة ١: ٤٣٦، ٤٣٧، الموسوى: نزهة الجليس ٢: ٨٧، ٨٨، رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى ١٩٨، نور عثمانية كتبخانه ٢٢، ٢٣، ٦٢، الخوانسارى: روضات الجنات ٤٥٤، ٥٥، كتبخانه عمومى دفترى ١٥، العزاوى: التعريف بالمؤرخين ١: ١١٦ - ١١٩، البغدادى: هدية العارفين ١: ٤٦٢، ٤٦٣، وكحالة: معجم المؤلفين: ٦/ ٦٧.

أخبار الأنبياء من بنى إسرائيل من بعد مـوسى ـ عليه السلام ـ من كتاب الله تعالى نقلاً على كرسىّ الوعظ، أو درسًا للطالبين من أهل اللفظ واللـحظ، فى آخر جمعة فى سنة اثنتين وتسعين وألف، فـشرعت من بدء خلق العالم يوم السبت بعد الجمـعة المذكورة فتـتبعت القـرآن فوجدت البسـط: آيات من القرآن فى هذا المعنى، مـا فى سورة (حم السجدة) فـشرعت فى تفسيره وضـممت إليه ما يناسبـه من الآيات الأُخر، والأحاديث الصحيحة والحسنة طلبًا لمرضاة الله تعالى، والنيل إلى قربه، فنقول وبالله التوفيق:

قال الله تعـالى ـ فى السورة المذكـورة فى بيان هذا المـعنى قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[١] (فصلت: ٩ - ١٢).

روى محـيى السنة[٢] فى معالم التنزيل بإسناده إلى عـبد الله بن جابر[٣] بطـريق. وإلى محمـد بن كعب القرظى[٤] بطريق آخر، وأنا جـمعت بين الطريقين فيـما يمكن لأجل الإفادة أنه قرأ رسول الله ﷺ هذه الآيات على كفار قريش حين أسلم حمزة[٥]

---

(١) ذكرنا هنا الآيات كلها ليتضح للقارئ النص، فـهذا تفسير الآيات فى سورة: فُصلت (٩ - ١٢) ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(٢) هو المقصود به الإمام ناصر الدين البيضاوى، وتقدمت ترجمته.

(٣) (عبد الله بن جابر) لعَله يقصد جابر بن عبد الله، وستأتى له ترجمة.

(٤) (محـمد بن كـعب القـرظى) محـمد بن كعب بن سليم، وقـيل: ابن حيـان بن سليم بن أسد القـرظى، أبو حـمزة، وقـيل: أبو عـبـد الله، المدنـى (سكن الكوفـة) ولد سنة ٤٠هـ على الصحـيح، وتوفى ١٢٠هـ، روى له: البخارى ومسلم والتـرمذى وابن ماجه والنسـائى، وقال الذهبى: ثقة حجـة ذكره محمد بن سعـد فى الطبقة الثالثة من أهل المدينة، وقـال: كان ثقة، عالمًا كثير الحـديث، ورعًا، قال الترمذى: سمعت قتيبة بن سعـيد يقول: بلغنى أن محمد بن كعب القـرظى ولد فى حياة النبى ﷺ، وقال يـعقوب بن شيـبة السدوسى: يعد فى الطبـقة الثالثة ممن روى عن أبى هـريرة، وأبى سعيد، وابن عمر، وابن عبـاس، وولد فى آخر خلافة على بن أبى طالب فى سنة أربعين، ولم يسمع من العباس، لأن العباس توفى فى خلافة عثمان انظر: المزّى: تهذيب الكمال: ١٧/ ١٧٩ (٦١٦٢).

(٥) (حمزة بن عبـد المطلب) ﷺ، عم النبى ﷺ، هو: حمزة بن عـبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، الإمام البطل الضرغام أسد الله أبو عمارة، وأبو يعلى القرشى =

ﷺ. وكان سبب إسلامه على ما روى صاحب سيرة (ابن سيد الناس)[1] أن رسول الله ﷺ كان يومًا بعد مبعثه جالسًا على الصفا إذْ جاءه أبو جهل اللعين فشتمه، وسبه، ونال من عرضه، وعاب دينه واستَضْعَفه، والنبى ﷺ ساكت، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان حاضرة فَرَقَّت له ـ عليه السلام ـ ثم ذهب أبو جهل إلى النادى فى الحرم، وذهب ـ عليه السلام ـ إلى بيته واتفق أن جاء حمزة عم النبى ﷺ من القنص والصيد، وكان قانصًا صائدًا يرمى بسهمه، وكان عادته كلما جاء من القنص كان يدخل مكة قبل الدخول على أهله؛ فيطوف بها ثم يسلم على من رآه ثم يذهب إلى أهله، فجاء هذا اليوم فطاف بالبيت فرأته المولاة المذكورة فأخبرته بالجهل الذى جاء به أبو جهل محمدًا ﷺ، فغضب حمزة وأخذته الغيرة ـ لما أراد الله إكرامه بالإيمان ـ فجاء النادى فرأى أبا جهل فى وسطه فقال: يا ملعون، لم تجهل على ابن أخى وأنا دخلت فى دينه، وقلت ما قاله، ثم ضرب بقوسه رأسه فشجه شجة منكرة فغضب صناديد قريش فسكتهم أبو جهل وقال: الجُرْم فىَّ لدفع الفتنة.

= الهاشمى المكى ثم المدنى، البدرى الشهيد، عم رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، قال ابن إسحاق: لما أسلم حمزة علمت قريش أن رسول الله ﷺ قد امتنع وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه، روى أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر قال: سمع رسول الله ﷺ نساء الأنصار يبكين على هلكاهن فقال: «لكن حمزة لا بواكى له» فجئن فبكين على حمزة عنده إلى أن قال: «مروهن لا يبكين على هالك بعد» عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يتكلوا عند الحرب ولا يزهدوا فى الجهاد؟ قال الله: أنا أبلغهم عنكم، فنزلت: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** ...﴾ (آل عمران: ١٦٩). انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ١/ ١٧٠.

(١) **(ابن سيد الناس)** الحافظ الإمام العلامة الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد ابن يحيى بن سيد الناس اليعمرى الأندلسى الإشبيلى، خطيب تونس وعالم المغرب، ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة، سمع صحيح البخارى من أبى محمد الزهرى صاحب شريح، وأجاز له أهل الشام والعراق، أكثر من أجاز له القاضى جمال الدين أبو القاسم بن الحرستانى، وثابت ابن مشرف وجمع، وكان أحد الحفاظ المشهورين وفضلائهم المذكورين، وبه ختم هذا الشأن بالمغرب، وكان ظاهريًا علامة، ألَّف مجلدًا فى بيع العالمين الأولاد، ومات فى رجب سنة تسع وخمسين وستمائة. انظر السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٥٠٨ الترجمة رقم (١١١٧).

ثم جاء حمـزة محمدًا ـ ﷺ ـ فأظهـر إسلامه ثم اختلف اليـوم ولم يحضر مع قريش ناديهم فى المسجد الحرام، وقد تكلموا فى إسلام حمزة، وتأسفوا عليه، ثم قال أبو جهل: لو طلبنا رجـلاً عالمًا بالشعر، والسـحر والكهانة، فجاء مـحمدًا ـ ﷺ ـ فكلمه فجـاءنا ببيان من أمره، فإن أمره قـد التبس علينا، فقال عتبـة بن أبى ربيعة: أنا أعلم قريـش بالشعر والسـحر الكهـانة، أنا أذهب إليه فـآتيكم ببيان. قـالوا: اذهب أبا الوليد، وكان النبى ـ ﷺ ـ جالسًا فى المسجد بعيدًا عنهم، فجاءه عتبة فقال: يا ابن أخى، قد عـلمنا بسطتك فى النسب، وبسطتك فى الحـسب، أنت أفضلنا، وأعـقلنا، وأحلمنا، لكن ما جئت به قومك ما جاء أحد بمثله قومه، فرَّقت جمعنا، وعيبت آلهتنا وسفَّهت أحـلامنا، وضلَّلت آباءنا، فإن كان ميلك إلى الرئاسة عـقدنا لك الألوية حتى تكون رئيسًا، وإن كان ميلك إلى المال جمـعنا لك ما تستغنى أنت وعقبك بعدك، وإن كان الميل إلى المرأة زوجنـاك من عشرة بيوت من قريش ما تشتـهى، وإن كان ما فيك أثرًا من الجن طلبنا لك الطبيب يداويك، وإن كان يحبس صدرك بالشعر فذلك أمر بنى عبد المطلب، فقال له النبى ﷺ : أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، تكلم أنت، فقرأ نبىُّ الله أول حم السجدة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ... ﴾ إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فلما بلغ هنا، وكان عتبة قد ألقـى يديه خلـفه يسـتمع جعل يده ـ قطعها الله تعالى ـ على فم النبى ﷺ ، ليُسكتـه، فناشده بالرحم أن اسكت، فجـاء قومه فقـال: والله إنى سمعت كـلامًا ليس بسحْـر، ولا شعـر، ولا كهـانة، يُعلى ولا يُعْلى عليـه دعوا الرجل فـإن قتلتـه العرب كُفيتوه، وإن غلبـ العـرب فعزُّه عزكم وشرفه شرفكم، فقال أبو جـهل: سحرك، فقال عتبة: خذوا ما بدا لكم.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون، الهمزة للإنكار،

يعنى ما كان ينبغى ولا يصح، ولا يستقيم ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ بالإلحاد فى الذات بالتشبيه بمخلوقه كقولهم: الملائكة بنات الله، وغير ذلك، وبالإلحاد فى الصفات بإنكار القدرة على بعث الموتى، أو إرسال الأنبياء، والتأكيد بأن واللام للإنكار بأنه يعتبر دخولها بعد دخول الهمزة كما قيل مثل ذلك فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨).

﴿بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ﴾ أى: ما فى جهة السفل من الأجسام البسيطة العنصرية: التراب، والماء، والهواء، والنار، التى هى أصول الكائنات السفلية ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ فى مقدار يومين، لأن اليوم لا يوجد قبل الشمس، والسموات وما فيها، لم تكن.

والمراد باليومين: اليومان بليلتهما من أيام الدنيا لا من أيام الآخرة التى كل يوم منها ألف سنة، لأن المعروف ذلك.

قال الإمام: الصلة يَجبُ أن تكون معلومة الثبوت، وخلق الأرض فى يومين لا يعرف إلا بالوحى وهم منكرون له.

وأجاب: بأن قريشًا كانوا مختلطين باليهود فجاز أن يسمعوا ذلك منهم لوروده فى التوارة، لكن هذا يرده قوله تعالى فى سورة القصص: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ (القصص: ٤٨) يعنون محمدًا وموسى ـ عليهما السلام ـ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ (القصص: ٤٨) فالصواب أنه كان معلومًا لهم من قبل المنجمين من المجوس المشركين، فإنه قال فى الريح الجديد السمرقندى (أيشان كويند) يعنى: المنجمين من الفرس (خداى) تعالى عالم (راشش كاه) أو يد وأنهارًا كأنهارها (خوانند) (تأمل)(١).

وقال بعض المحققين ناصر الدين القاضى البيضاوى: المراد باليومين نوبتان فالمراد باليوم الوقت المطلق كأنه خلق السموات، لأنه الزمان وهو متجدد موهوم يقدر به متجدد آخر وآخر، عند أهل الشرع، فهو أمر اعتبارى لا وجود له فى الخارج.

وقال: خلق الله فى كل نوبة ما خلق فيها فى أسرع ما يكون، فخلق نوبة الأصل المشترك بين العناصر بدليل الانقلابات وهو الأجزاء التى لا تتجزأ عند المتكلمين أو (الهيولى)(٢) عند أرسطو أو (الصورة الجمعية) التى هى. الجسم المطلق عند أفلاطون.

---

(١) كلمات باللغة الفارسية ومقابلها باللغة العربية فلم تحتج إلى ترجمة.

(٢) **(الهيولى)** لفظ يونانى بمعنى الأصل والمادة، وفى الاصطلاح: هى جوهر فى الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية.
انظر: على بن محمد الجرجانى: التعريفات: ١/ ٣٢١ المادة رقم (١٥٩٥).

وقال سعـد الدين الرومى ردًا على سعد الدين التـفتازانى[١] القـول بالهيـولى لا يستـلزم القول بقـدم العالم على مـا تقرر فى مـحله، ثم خلق فى نوبة أخرى الـصورة النوعية عند الحكماء والأعراض المتنوعة عند المتكلمين، فلذا قال: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وكان الله تبارك وتعالى قد خلق العرش، والماء قبل ذلك بدليل قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود: ٧) .

قـالوا: يعنى قبل خلق السـمـوات والأرض فهـذا يدل على أن أول مخلوق بعـد العرش هو المـاء على ما دل عليه أيضًا الـحديث الذى رواه البخارى حـين سُئل النبى ﷺ من أهل اليمن عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال النبى ﷺ : «كان الله ولم يكن قبله شىء، وكان عـرشه على الماء، ثم خلق السمـوات والأرض وكتب فى الذكر كل شىء»[٢] الحديث.

---

(١) (سعد الدين التـفتـازانى) (٧٩٣هـ = ١٣٩٠م) مسعود بـن عمر بن عبد الله التفـتازانى، سعد الدين: من أئمة العـربية والبيـان والمنطق، ولد بتفتـازان (من بلاد خراسان) وأقـام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفى فيها، ودفن فى سرخس، كانت فى لسانه لكنه، من كتبه (تهذيب المنطق) و (المطول) فى البلاغة، و (المختصر) اخـتصر به شرح تلخيص المفتاح، و (مقـاصد الطالبين) فى الكلام، و (شـرح مقاصـد الطالبين) و (النعم الـسـوابغ فى شرح الكلم النوابغ) للزمخشرى، و (إرشاد الهادى) و (شرح العقائد النسـفية) و (حاشية على شرح العضد على مخـتصر ابن الـحاجب) فى الأصول، و (التلويح إلى كـشف غوامض التنقـيح) و (شرح التصريف العزى) فى الصرف، وهو أول ما صنف من الكتب، وكان عمره ست عشرة سنة. الزركلى: الأعلام: ٧/ ٢٣٠.

(٢) حديث: (كان الله ولم يكن شىء قبله) هذه رواية الإمام البخارى أوردناها هنا للأهمية: حدثـنا عبـدان عن أبى حـمزة عن الأعـمش عن جامـع بن شـداد عن صفوان بن محرز عن عمران بـن حصين قال ثم أتى النـبى ﷺ إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال: «اقبلوا البـشرى يا بنى تميم» قالوا: بشـرتنا فأعطنا، فدخل ناس مـن أهل اليمن فقـال: «اقبلوا البشـرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكن شىء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب فى الذكر كل شىء» ثم أتانى رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها، وايم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم).
صحيح البخارى: ٦/ ٢٦٩٩ الحديث رقم (٦٩٨٢).

وكان فى «كان الله» دائمة أزلية بمعنى القدم، وكان فى «كان عرشه» للحدوث بعد العدم.

هكذا قال شراح الحديث.

فدل هذا على أن المخلوق الأول هو العرش خلقه الله تعالى خلقًا إبداعيًا لا من مادة ولا فى مدة؛ بل أخرجه بقدرته الباهرة من العدم. والمخلوق الثانى هو الماء، فيكون خلق الماء وتنويعه قبل سائر الأجسام العنصرية بأنه أوجد الله تعالى - أصلاً مشتركًا للماء، ولسائر العناصر. ثم خلق الصورة النوعية للماء أو الأعراض المتنوعة له قبل خلق سائر الصور والأعراض، ثم خلق سائر الصور والأعراض لسائر العناصر والتقدم والتأخر فيها غير معلوم وخلق ذلك كله إبداعى لا من مادة ولا فى مدة لأنها أصول الكائنات لا بتسلسل.

وما نقل عن التوراة من أنه خلقها من جوهرة قد ذابت فأدخنت ويبست.

قال الإمام: هذا إسرائيل[١] لا عبرة به، فالصحيح أنه أخرجها من العدم بقدرته الكاملة، لا من مادة وإلا لزم أن يقال: من أى شىء خلق الجوهرة؟ وهكذا، وكل ذلك قبل خلق السموات على ما دل عليه ظاهر القرآن.

فالحاصل أنه - تعالى - خلق العرش من العدم قبل سائر الأجسام وعدمه، أى: عدم العرش قبل وجوده قبلية لا يجامع معها القبل وهى تقدم الزمان، لأن الزمان أمر موهوم، على ما مر، وليس مقدار الحركة للفلك الأعظم - أى العرش - حتى يلزم وجوده وقت عدمه، ثم خلق الأصل المشترك للعناصر ثم نوّع الماء فهو أول نوع وجد ثم نوّع سائر العناصر قبل خلق السموات.

قال الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ عطف على تكفرون.

﴿لَهُ أَندَادًا﴾ كثيرة وليس له ند أصلاً. والنّد: هو المثل المعادى، أى ما يكون موافقًا فى الماهية ومُحَال فى الأفعال والكفرة وإن لم يقولوا ذلك. لكن لما سموا الأصنام آلهة وعبدوها شابهت حالهم بحال من (جعلوا له أندادًا).

﴿ذَلِكَ﴾ أى خالق ما فى جهة السفل فى يومين.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ موجدها ما سوى الله من الموجودات ومبقيها ومربيها.

﴿وَجَعَلَ﴾ الظاهر أنه عطف على خلق فيكون فى أجزاء الصلة والفصل بينهما

---

(١) أى: هذا من الإسرائيليات، وهو هنا يرد على كتاب الثعلبى.

بقوله: «تجعلون» لا يضر لأنه ليس بأجنبي لأنه كان عين ﴿تَكْفُرُونَ﴾ فيكون من قبيل قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ حيث عطف المَسجد على سبيل لأن (كفر به) عين (صد) فكذا هنا لا يضر الفصل بقوله: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه اعتراض لتأكيد إنكار الكفر.

وقال بعضهم: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ آكد من خلق الأرض فهو محط الفائدة فلا يكون اعتراضًا، فيكون «جعل» عطفًا على «خلق» مقدر بعد قوله: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال بعضهم: الواو استئنافية ليست بعاطفة، فيكون استئناف لبيان سائر المخلوقات بعد الأرض.

﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ فـ «من» ابتدائية، أى: نشأت الجبال من فوقها صاعدة فى الهواء، أو بمعنى «فى» على ما قال الرضى: إن «من» فى الظروف بمعنى «فى» أو زائدة على ما ذهب إليه الأخفش.

وإنما لم يجعل الجبال تحت الأرض كالأساطين وسوره فيها كالمسامير مع أنه يحصل المقصود بهما وهو عدم التحريك والاضطراب على ما قال الله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لفائدتين: إظهار كمال القدرة، لأنه أمسكها مع الجبال مع أنه ثقل، وإتمام النعمة على ذوى الأرحام لأن النباتات والأشجار والمعادن والمياه العذبة تكون أحسن ما يكون فى الجبال.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى أكثر خير الأرض وبركتها بأن خلق فيها النباتات والأشجار، ثم خلق الحيوانات غير آدم ـ عليه السلام ـ وخلق النبات والحيوان أول ما يكون من تراب من غير تناسل كآدم ـ عليه السلام ـ فأكل الحيوان النبات وأوراق الأشجار.

﴿وَقَدَّرَ﴾ أى: عيَّن ﴿فِيهَا﴾ أى: فى الأرض ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ أقوات أهلها على حذف المضاف، بأن عيَّنَ قبل خلق الإنسان أقوات الأصناف، لقوم خبزًا، ولقوم تمرًا، ولقوم لحمًا ولبنًا، فعين قبل خلق الإنسان أقواتهم بلطفه وكرمه، أو قدَّر فى الأرض أقواتًا ناشئة فيها. فالإضافة لأدنى الملابسة بأن جعل فى قُطْرِ الذهب والفضة، وفى قُطْر الأثواب والأمتعة، وفى قطر الأرز، وفى قطر الحطب، وهكذا ليكون بين الأرض اختلاط تام وتجارة رابحة وعيش صالح.

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أى فى تتمة أربعة أيام وهى اليومان الآخران، وإنما لم يقل هكذا لتحصل الفذلكة بأن خلق الأصل فى يومين وخلق الفروع فى يومين آخرين فذلك أربعة أيام.

وليعلم اتصال الآخرين بالأولين فإنه معلوم فى هذه العبارة عرفًا.

﴿سَوَاءً﴾ بالنصب، أى استوت سواء، يعنى المراد بالأيام الكوامل لا ينقص كل ساعة يؤيده القراءة بالجر صفة للأيام.

﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ خبر محذوف، أى: هذا الحصر للسائلين عن مدة تكوين الأرض وما عليها أو متعلق بقدَّر، أى: قدر أقواتها للطالبين للأقوات.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ الظاهر أن ﴿ثُمَّ﴾ للتراخى الزمانى وعليه أكثر إطباق أكثر المفسرين فيكون خلق الأرض وما عليها جزء آدم ـ عليه السلام ـ قبل خلق السموات على ما هو الظاهر من آية سورة البقرة وهى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ٢٩) وإما مخالفة لقوله تعالى فى النازعات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠) أى: بعد خلق السماء على ما توهم.

والجواب عنها بأن خلق الأرض مقدم على خلق السماء، ودحوها وارتساء الجبال عليها متأخر فساقطان، لأن المعنى: تذكر وتأمل الأرض أى أمرها.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أى بعد تأمل أمر السماء، لأن الأرض متعلق بدحيها، فسقط السؤال ولم يحتج إلى الجواب المذكور.

وهذا المعنى وإن كان على خلاف الظاهر لكن تأيد بظواهر الآيات والحديث المار ذكره.

وبإطباق أكثر المفسرين فإن غير «مقاتل»[١] كلهم اتفقوا على أن خلق الأرض وما فيها مقدم على خلق السماء.

---

(١) مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ - ٧٦٧م) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى بالولاء، البلخى، أبو الحسن: من أعلام المفسرين، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها، وتوفى بالبصرة، كان متروك الحديث، من كتبه: التفسير الكبير، و (نوادر التفسير) و (الرد على القدرية) و (متشابه القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (القراءات) و (الوجوه والنظائر) وقال البخارى: روى عنه المحاربى، فقال: حدثنا مقاتل بن جوال دوز خياط الجواليقى.. وقال على بن الحسين بن واقد المروزى، عن عبد المجيد من أهل مرو سألت =

فقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد زمان استوى أى قصد وأراد، فإنه يقال: استوى فلان إلى مكان كذا، أى قصــده قصداً لا يلويه عنه شىء، فالمــعنى ثم قصد الله وأراد إرادة جاذمة باتة.

﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى ما فى جهة العلو من السموات والكواكب.

﴿وَهِيَ دُخَــانٌ﴾ أى جوهر ظلمــانى كالدخان وهو مادية على قــول الحكماء أو الأجزاء التــى لا تتجزأ على قــول المتكلمــين، فأفــاد الكلام بأنه ـ تعالى ـ خــلق مواد الأفلاك، ثم أراد تنويعها وتمييزها فقال: اعتراض بين المعطوفين، أى استوى فقضاهن لتعميم الحكم المتعلق بأحد المــذكورين وهو السماء، والحكم بيان وجوب الوقوع عند تعلق الإرادة لهما، والمذكوران الأرض والسماء، والفاء اعتراضية كقول الشاعر:

واعلم فـــعلم الــمــرء ينفـــعــه أن ســـوف يأتى كـل مـــا قـــدرا

والمراد بيــان أنه تعالى إذا أراد أمراً وجب وقــوع مراده ونفذ قــدرته فيه، والســماء والأرض فى هذا الحكم سيان وإن كانت الأرض موجودة قبل، لكن الله ـ تعالى ـ أدى هذا المراد بطريق التمثيل والتخيل ليكون أوقع فى النفس.

﴿فَقَالَ﴾ أى قال الله تعالى ﴿لَهَا﴾ للسماء ﴿وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ لتحصيل مرادى منكما ﴿طَوْعًا﴾ طائعين، فهو من قبيل:

*** إنمــا هى إقبــال وإدبار ***

﴿أَوْ كَرْهًا﴾ كارهتين، يعنى مرادى تحصيل منكما إن شئتما أو أبيتما.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أتى بصيغة الجمع المذكرة ذوى العقول لما أنهما لما خوطبتا كانتا من ذوى العقول تنزيلاً، وهى أى السموات والأرض جمع، والتأنيث فيهما لفظى، ولما اعتبر جانب المعنى فات التأنيث والمقصود من هذا التقاول ليس حقيقة، بل المراد تمثــيل حالها فى سرعــة نفوذ القدرة فيــهما بعد إرادة وجــودها ووجوب وقوعهمــا بعد الإرادة بحال المأمور المطيع فى سرعة امتثاله للأمر المطاع، فهو كقول العرب:

قال الجدار للوتد لم تشقنى؟ قال: سل من يدقنى.

= مقاتل ابن حيــان، فقلت: يا أبا بسطام، أنت أعلم أو مقاتل بن سليمــان؟ قال: ما وجدت علم مقاتل فى علم الناس إلا كالبحر الأخضر فى سائر البحور.

«تهذيب التهذيب» ١٠/ ٢٨٤: الزركلى: الأعلام: ٧/ ٣٠١.

فإن الحجر ورائى لا يتركنى ورائى.

فإن مقصودهم التمثيل والتخييل لا حقيقة المقاولة.

فحاصل المعنى هنا:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ أى: بعد خلق الأرض وما عليها أراد، وقصد آيات.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أى: قد أوجد مادتها من قبل فوجب وقوع السماء ليكون مرادًا، فإن القدرة تؤثر على وفق الإرادة.

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ عطف على استوى، متفرع عليه، والضمير للسماء لأنه جمع، لأن المراد منه السموات السبع وما فيها.

أى: خلقهن خلقًا إبداعيًا، وأخرجهن من العدم إلى الوجود لا من مادة، ولا فى مدة، أى: لا مدرجًا.

﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: نوبتين فى نوبة أصولها وموادها أو أجزائها التى لا تتجزأ، وفى نوبة صورها النوعية أو أعراضها المتنوعة فقوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ حال من الضمير، وقيل: الضمير مبهم يفسره التمييز، أى سبع سموات، فتم العالم الجسمانى السفلى والعلوى، ولم يبق إلاَّ الاستمرار التجددى إلى يوم القيامة، بيانه أنه - تعالى - خلق فى نوبتين أصول العالم السفلى، أى: العناصر بموادها وصورها، ثم خلق فى نوبتين أخريين فروع العالم السفلى فى النبات والحيوان والمعادن الداخلة فى الأوقات، وبقى الإنسان. ثم خلق السموات السبع وما فيها من السيارات والثوابت، لأنها تحتمل أن تكون مركوزة فى ممثل فلك زحل متحركة بحركته البطيئة على ما قدره بعض علماء الهيئة فالأفلاك سبع، والحركات ثمانية.

وقد كان الله أوجد قبل ذلك كله العرش على الماء على ما مر، فتكون الحركة اليومية ثابتة للعرش، فالأفلاك مع العرش ثمانية والحركات تسع، هذا على الدقيق من النظر. وإن أثبتوا فى بادئ النظر من غير تأمل لكل حركة لكن لا عبرة به، مع أنه لو اعتبرنا الكرسى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فى آية الكرسى على ما قال البعض من أن المراد به فلك الثوابت أى فلك البروج لم يبق خلاف، ويكون على ما ذكره هنا، لأنه معلوم مما فى آية الكرسى، أو لأن المراد هنا بيان أفلاك السيارات.

﴿وَأَوْحَـىٰ﴾ والوحى هو الكلام الخفى الذى يدرك بسرعة، كـما يكون للأنبياء ـ عليهم السلام ـ والملائكة، فالمعنى ألهم وكلَّم.

﴿فِى كُلِّ سَمَـاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى الأمر اللائق بهـا من الحركات والأوضاع والسـرعة والبطء إلى ملكهـا لأن الحركـة لكل فلك ملك من الملائكة يقـال له بلسان الحـكماء النفس الفلكية، وبلسان الشرع الملك فالملك واحد فتحرك الأفلاك، وحصلت الفصول الأربعة فاستمرت النبات والحيوان، يغنى الأول ويوجد الآخر إلى ما شاء الله ـ تعالى ـ فاستمرار الكائنات السفلية إلى يوم القيـامة إنما يكون بهذا الإيحاء والتحريك والتحرك، وإلا ففى العـام الأول إذا أكل الحيوان النبـات انقطع، فانقطع الحيـوان، فبهذا التـدبير حفظهما من الفناء إلى اليوم المعلوم الملك، الحكيم، الخبير.

فبعد إعطاء الكمال الذاتى للمخلوقات شـرع فى بيان كمال العرض فقال: ﴿وَزَيَّنَّـا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ وهى فلك القمر» ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أى كواكب سيارات وثوابت فإنها وإن كانت فوقها من الأفلاك لكن لما كان ظهورها فى مرأى النظر على سطح الفلك الأقرب إلينا الأزرق قال: زيناها بها.

وقيل: يحتمل فى الثوابت البعيدة عن المنطقة لعدم جريان طريقة الكسف فيها على ما هو معلوم من علم الهيئة أن تكون فى كرة تحت فلك القمر محاذية لفلك البروج فى قطبها ومنطقتها ومساوية لها فى حركتها وسائر أوضاعها، ويكون المراد «بمصابيح» هذه الكواكب.

﴿وَحِـفْظًا﴾ مصدر فـعل محذوف على «زينّا» أى: حفظناها حـفظًا من الشقوق والفطور، ومن استراق الشياطين السمع ﴿ذَلِكَ﴾ أى ما مر ذكره من خلق الأرض وما عليها، وخلق السماء وما فيها والإيحاء، والتزيين، والحفظ ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى ما قدره وعينه وأوجده إلا الكامل قـدرته والنافذ مشيئته المفهـومان من العزيز والمحيط علمه، وحكمته المفهوم من العليم.

ومن جملة حكمه: إشارته إجمالاً إلى مسائل العلم المسمى بالهيئة، ومنها النكات والمزايا من البلاغة العاجز عنها فصحاء عدنان وبلغاء قحطان.

رزقنا الله وإياكم فهم كتابه العزيز آمين.

ومما يؤيد هذه المعانى ما ذكره البـيضاوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أى فى ستة أوقات.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى استوى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يعكس للعلم به ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعًا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ بقضائه وتصريفه.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فإنه هو الموحد والمتصرف.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف: وتحقيق الآية ـ والله أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أربابًا فبيَّن لهم أن المستحق للربوبية واحد ـ وهو الله تعالى ـ لأنه الذى له الخلق والأمر فإنه ـ تعالى ـ خلق العالم على ترتيب قديم، وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسمًا قابلاً للصور المبدَّلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال، وأشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى ما فى جهة السفل فى يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً، وتصويرها ثانيًا.

كما قال بعد قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أى مع اليومين الأولين لقوله فى سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ثم لما تَمَّ له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكرير الأيام والليالى ثم خرج بما هو فذلكة التقدير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

انتهى كلام البيضاوى.

عن عكرمة[1].

---

(١) (عكرمة) مولى ابن عباس، هو: عكرمة القرشى الهاشمى أبو عبد الله المدنى مولى عبد الله بن عباس (أصله من البربر من أهل المغرب) من الطبقة الثالثة من الوسطى من التابعين توفى سنة ١٠٤هـ، وقيل بعد ذلك بالمدينة. روى له: البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى. عند ابن حجر: ثقة ثبت عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ولا تثبت عنه بدعة. قال المزى فى «تهذيب الكمال»: قال حرمى بن عمارة، عن عبد الرحمن بن حسان: سمعت عكرمة يقول: طلبت العلم أربعين سنة وكنت أفتى بالباب وابن عباس فى الدار، وقال الزبير =

عن ابن عبـاس[1] - رضي الله عنهما - أن اليهـود جاءت النبى - صلى الله عليه وسلم - فسألته عن خلق السموات والأرض؟ فقـال: (خلق الله الأرض يوم الأحد، والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فـيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء السماء والمدائن والـعمران والخراب، فهذا أربعة أيام ثم قرأ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ لمن سأل، قال: وخلق يوم الـخميس السماء، وخلق يوم الجـمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث سـاعات بقيت منه، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء ممـا ينتفع به الناس، والثـالثة خلق آدم - عليه السـلام - وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأُخرج منها فى آخر ساعة.

قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قالوا: قد أجبت، لو أتممت، قالـوا: ثم استراح، فغضـب النـبى صلى الله عليه وسلم غضبًا شديدًا، فنـزل: ﴿وَلَقَدْ

= عن عكرمـة: كان ابن عـباس يضع الـكل على تعليم القرآن والـسنن، وقال يزيد النحـوى عن عكرمة: قال ابن عباس: انطلق فأفت الناس وأنا لك عون، قال: قلت: لو أن هذا الناس مثلهم مرتين لأفتيتهم قال: انطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح ثلثى مـؤنة الناس، وقال أيوب عن عمرو بن دينار: دفع إلى جابر ابن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة وجعل يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه.
تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧١.

(١) **(ابن عــبـاس)** هو: عبد الله بن عبـاس بن عبد المطلـب القرشى الحبر البـحر، ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو الخلفـاء العباسـيين، ولد قبل الهجـرة بثلاث سنين ونشأ فى بدء عـصر النبوة فصحب النبى صلى الله عليه وسلم وروى عـنه الأحاديث الصحيحة فله فى الصحـيحين فقط (١٦٦٠) حديثًا، دعا له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) كان رضي الله عنه يقول: (أعول أهل بيت من المـسلمين شهرًا أحب إلىَّ من حـجة بعد حجـة) مات رضي الله عنه بعد أن كُف بصره بالطائف سنة ٦٨هـ.

انظر ترجمته: فى ابن قنفد القسنطينى: كتاب الوفيات ٧٦، أبو نعيم: حلية الأولياء: ١/ ٣١٤، ابن العـمـاد: شـذرات الذهب: ١/ ٧٥، المناوى: الكواكب الدرية: ١/ ١٢٤، ابن حـجـر: الإصابة، الترجـمة رقم (٤٧٧٢) الديار بكرى: تاريخ الخميس ١/ ١٦٧، ابن الجـوزى: صفة الصفوة: ١/ ٣١٤.

خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[1] (سورة ق: ٣٨، ٣٩).

هكذا فى تفسير ابن كثير[2].

وعن أبى هريرة ـ ﷺ ـ قال: بينما نبى الله جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال النبى ﷺ: (هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا العنان، هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه.

ثم قال هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها الرفيع سقف محفوظ، وموج مكفوف، ثم قال: هل تدرون ما بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بينكم وبينها خمسمائة عام، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: سماءان بُعْدُ ما بينهما خمسمائة سنة ثم قال: كذلك حتى عد سبع سموات بين كل سمائين ما بين السماء والأرض ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السمائين، ثم قال: هل تدرون ما الذى تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها الأرض، ثم قال: هل تدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن تحتها أرضًا أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وعَدَّ سبع أراضين مسيرة خمسمائة سنة ثم قال: (والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[3].

---

(١) هذا الحديث: أورده ابن كثير فى التفسير كما قال، وأورده السيوطى فى الدر المنثور، وقال: أخرجه ابن جرير، والنحاس فى ناسخه، وأبو الشيخ فى كتاب العظمة، والإمام الحاكم فى المستدرك وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات، كلهم عن ابن عباس ﷺ أن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته. . . الحديث.

انظر السيوطى: الدر المنثور: ٧/ ٣١٤.

(٢) تفسير ابن كثير مشهور متداول بالأيدى.

(٣) وحديث أبى هريرة أورده أيضًا الإمام السيوطى فى الدر المنثور، وقال: أخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذى، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقى، وأبو الشيخ فى كتاب العظمة، كلهم عند أبى هريرة ﷺ، ثم ذكر الحديث والآية هى رقم (٣) من سورة الحديد.

انظر: السيوطى: الدر المنثور: ٨/ ٤٦، ٤٧ تفسير سورة الحديد.

رواه أحمد[١] والترمذى[٢].

---

(١) الإمام (**أحمد بن حنبل**) هو: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، الشيبانى، إمام المذهب الحنبلى، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، أصله من مرو، وولد ببغداد سنة ١٦٤هـ ودرس فى مسقط رأسه حتى عام سنة ١٨٢هـ، ثم رحل لطلب العلم فدخل الكوفة والبصرة، ومكة والمدينة، وجاب البلاد، وعنى بالأسفار لدراسة الحديث، ثم عاد إلى بغداد وحضر دروس الإمام الشافعى فى الفقه وأصوله، ولما رحل الإمام الشافعى إلى مصر قال فى حقه: خرجت من بغداد، وما خلّفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل.

دعاه المأمون فى أيامه أثناء القول بخلق القرآن، لكن المأمون مات قبل أن يناظره، وتولى المعتصم الخلافة فسجن ابن حنبل ٢٨ شهراً، ومحنته فى ذلك معروفة، توفى رحمه الله سنة ٢٤١هـ ببغداد. انظر ترجمته فى: كتاب الوفيات: ابن قنفد القسنطيى ١٧٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٤٧، أبو نعيم: حلية الأولياء ٩/ ١٦١، ابن العماد: شذرات الذهب ٢/ ٩٦ ابن حنبل للشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) (**الإمام الترمذى**) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمى، أبو عيسى الترمذى الضرير الحافظ (صاحب «الجامع» وغيره من المصنفات) من الطبقة: ١٢، صغار الآخذين عن تبع الأتباع.

توفى (رحمه الله) سنة ٢٧٩هـ بترمذ، قال ابن حجر: أحد الأئمة، وقال الذهبى: الحافظ قال المزى فى «تهذيب الكمال»: أحد الأئمة الحفاظ المبرزين، ومن نفع الله به المسلمين.

قيل: إنه كان أكمه، طاف البلاد وسمع خلقًا كثيرًا من الخراسانيين والعراقيين، والحجازيين وغيرهم، وقد سميناهم فى موضعهم من كتابنا هذا. اهـ. وقال: قال الترمذى فى حديث على ابن المنذر عن ابن فضيل، عن سالم بن أبى حفصة، عن عطية، عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال لعلى: «لا يحل لأحد يجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك» سمع منى محمد بن إسماعيل هذا الحديث.

وذكره ابن حبان فى كتاب «الثقات» وقال: كان ممن جمع وصنف، وحفظ وذكر، وقال الحافظ أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفرى: مات أبو عيسى الترمذى الحافظ بترمذ ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين.اهـ. وقال منصور الخالدى: قال أبو عيسى: صنفت هذا الكتاب ـ يعنى: «المسند الصحيح» ـ فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان، فرضوا به.

وقال الحاكم أبو أحمد: سمعت عمران بن علان يقول: مات محمد بن إسماعيل البخارى، ولم يخلف بخراسان مثل أبى عيسى فى العلم والورع، بكى حتى عمى، وقال أبو الفضل البيلمانى: سمعت نصر بن محمد الشيركوهى يقول: سمعت محمد بن عيسى الترمذى يقول: قال لى محمد بن إسماعيل: ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بى. اهـ.

انظر: «تهذيب التهذيب» ٩/ ٣٨٨: وانظر المزى: تهذيب الكمال: ١٧/ ١٣٣ (٦١٢٠).

وقال الترمذى: قـراءة رسول الله ﷺ الآية تدل على أنه أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان، وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه.

من «مشكاة المصابيح» فى باب (بدء الخلق وذكر الأنبياء) (عليهم السلام).

مجلـــس فـــى:

بيـــان خلـــق ســـيدنا آدم

صلوات الله على نبينا وعليه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد.. فهذا مجلس فى بيان خلق سيدنا آدم ـ صلوات الله على نبينا وعليه.

لما خلق الله ـ تعالى ـ جميع العالم، شرع فى خلق آدم ـ عليه السلام ـ فى آخر ساعة من يوم الجمعة، وقد كان خلق الملائكة قبله والجان أيضًا.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم»[1]. رواه مسلم.

وعن أنس[2] ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (لما صوَّر الله آدم فى الجنة تركه

---

(١) حديث: (خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار ...) هذا الحديث بلفظه رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ورواه الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها.
انظر: السيوطى: جامع الأحاديث ٤/ ٦١ الحديث رقم (١١٦٢٢) ولهذا الحديث روايات أخرى كثيرة بطرق مختلفة.

(٢) (أنس بن مالك) بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار الأنصارى النجارى، أبو حمزة المدنى، صاحب سيدنا رسول الله ﷺ وخادمه توفى: ٩٢هـ وقيل: ٩٣هـ، روى له: البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه والنسائى.
قال المزى فى «تهذيب الكمال»: أمه أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام، خدم رسول الله ﷺ عشر سنين، مدة مقامه بالمدينة. اهـ. وقال جعفر بن سليمان الضبعى، عن ثابت، عن أنس: جاءت بى أم سليم إلى النبى ﷺ، وأنا غلام، فقالت: يا رسول الله، أنس، ادع له، فقال النبى ﷺ: «اللهم أكثر ماله وولده، وأدخله الجنة» قال: فقد رأيت اثنتين، وأنا أرجو الثالثة، انظر: تهذيب التهذيب ١/ ٣٧٨ وانظر: تهذيب الكمال: ٢/ ٣٣٠ ترجمة رقم (٥٥٩).

ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك)[١]. رواه مسلم من «مشكاة المصابيح» من عينها.

وعن جابر[٢] ﵁ أن النبى ﷺ قال: (لما خلق الله آدم وذريته، قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، قال الله تعالى: لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه روحى كمن قلت له: كن فكان)[٣] رواه البيهقى[٤] فى شعب الإيمان.

(١) حديث: **(لمَّا صوّر الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه)** الحديث، أورده السيوطى فى جامع الأحاديث، وقال: رواه الإمام أحمد بن حنبل والإمام مسلم عن أنس ﵁. انظر مع الأحاديث: الحديث رقم (١٧٤٣١) ٥/ ٣٤٩ وأورده الطيبى فى شرحه لمشكاة المصابيح ١١/ ٣٦٠٢ الحديث رقم (٥٧٠٢).

(٢) **(جابر بن عبد الله)** بن عمرو بن حرام الأنصارى الخزرجى السلمى، أبو عبد الله ويقال أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد المدنى، صحابى مشهور، توفى رحمه الله بعد ٧٠هـ بالمدينة، روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، شهد العقبة، وشهد المشاهد كلها، إلا بدرًا أو أحدًا، أمه أنيسة بنت عقبة بن عدى بن سنان بن نابى بن زيد بن حرام بن كعب ابن غنم، وقال روح بن عبادة: حدثنا زكريا ـ يعنى ابن إسحاق ـ قال: حدثنا أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: غزوت مع رسول الله ﷺ، تسع عشرة غزوة، قال جابر: لم أشهد بدرًا، ولا أحدًا، منعنى أبى، قال: فلما قتل عبد الله يوم أحد، لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة قط، الروايات عنهم: مات سنة ثمان وستين، وقال أبو سليمان: مات سنة اثنتين وسبعين، وقال محمد بن سعد والهيثم بن عدى، فى رواية أخرى: مات سنة ثلاث وسبعين، وقال محمد بن يحيى بن حبان: مات سنة سبع وسبعين.
وقال الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ٢/ ٤٣ وانظر أيضًا المزى فى تهذيب الكمال (٣/ ٢٩١) الترجمة رقم (٨٥٦).

(٣) حديث: **(لمَّا خلق الله آدم وذريته، قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون...)**.
هذا الحديث أورده الإمام السيوطى فى جامع الأحاديث وقال: رواه الديلمى فى مسند الفردوس، ورواه ابن عساكر فى تاريخه عن جابر ﵁ ورواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عروة بن رويم الأنصارى ﵁.
انظر السيوطى: جامع الأحاديث: ٥/ ٣٥٧ الحديث رقم (١٧٤٦٤).

(٤) **(الإمام البيهقى)**: الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخسروجردى صاحب التصانيف، ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة فى شعبان، ولزم الحاكم وتخرج به وأكثر عنه جدًا، وهو من كبار أصحابه، بل زاد عليه بأنواع من العلوم كتب الحديث وحفظه من صباه وبرع، وأخذ فى الأصول وانفرد بالإتقان والضبط والحفظ، ورحل ولم يكن عنده سنن النسائى ولا جامع الترمذى ولا سنن ابن ماجه. وعمل كتبًا لم يسبق إليها كالسنن الكبرى والصغرى، وشعب الإيمان، والأسماء والصفات، ودلائل النبوة، والبعث، =

وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «كان طول آدم ستين ذراعًا فى سبع أذرع عرضًا»(١). رواه أحمد من «مشكاة المصابيح» من عينها.

قال الله تعالى فى سورة البقرة فى بيان ذلك فى ست آيات: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ عطف على «اذكر»(٢) مقدرًا أى: اذكر خلق ما فى الأرض والسماء لكم، واذكر وقت قول ربك لأن فيه من العجائب ما يقتضى منه العجب، فلا يكون «إذ» لازم الظرفية على هذا لأنه مفعول به، واذكر الحادث وقت قول ربك على أنه لازم الظرفية.

﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ جميعًا، أرضية أو سماوية، لأنه العموم والاستغراق هو المتبادر عند عدم العهد الملائكة والملائك جمع ملك، وملك أصله ملاك بلا خلاف، بدلالة الجمع، لكن اختلف فى زيادة الهمزة، كشمائل وشمال، فالميم أصلية من الملك بمعنى القوة لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وفى زيادة الميم فيكون من لأك مقلوب بمعنى أرسل، وقيل: لأك أيضًا جاء بمعنى أرسل. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ أى مصيّر.

= والآداب والدعوات، والمدخل والمعرفة، والترغيب والترهيب، والخلافيات، والزهد، والمعتقد، وغير ذلك مما يقارب ألف جزء، وبورك له فى علمه لحسن قصده وقوة فهمه وحفظه، وكان على سيرة العلماء قانعًا باليسير، مات فى عاشر جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة بنيسابور، ونقل فى تابوت إلى بيهق مسيرة يومين، فابن عبد البر والخطيب والبيهقى وابن ماكولا هم الطبقة العاشرة الأخيرة من طبقات ابن المفضل، بدأ الأربعين بالزهرى وختم بابن ماكولا. انظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٤٣١ الترجمة رقم (٩٧٩).

(١) حديث: **(كان طول آدم ستين ذراعا فى سبع أذرع)**.

أورد الإمام أحمد بن حنبل الحديث بقوله: حدثنا عبد الله حدثنى أبى ثنا روح ثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثم كان طول آدم ستين ذراعًا فى سبعة أذرع عرضًا».

انظر مسند الإمام أحمد ٢/ ٥٣٥ وهو الحديث رقم (١٠٩٢٦).

(٢) هكذا فى أصل المخطوط ومكررة، ولكنه ربما أراد (واذكر) فكتبها الناسخ هكذا. لأن لفظ: (واذكر) أدق فى المعنى والآيات من (٣٠) إلى (٣٦) **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾** سورة البقرة (المحقق).

فيكون: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مفعولية أو خالق.

فقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ظرف والخليفة غيره وينوب منابه.

والمراد: خليفة منى، لأن آدم عليه السلام وكذا كأى نبى فى عصره، أى ما دام يكون شرعه معمولا به لا منسوخًا خليفة من الله فى عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم، وبعد الأنبياء خلفائهم خليفة من النبى بالذات ومن الله بالواسطة واستخلافه إياهم ليس لقصوره تعالى عن ذلك، بل لقصور الناس عن قبول الفيض عنه تعالى وكذا عن ملائكته لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ (الأنعام: ٩).

والأنبياء لما كانوا أول جهتين: جهة التجرد، وجهة التعلق، صاروا واسطة بينه تعالى وبين خلقه، يأخذون منه بلا واسطة ملك، كما وقع لموسى ـ عليه السلام ـ عند الطور، ولنبينا ﷺ عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، أو بواسطة الملك فيعرضه ثم يفيضون على الناس، ونظير ذلك الغضروف فى عالم الطبيعة يأخذ من اللحم ويعطى العظم لعدم المناسبة بين العظم واللحم، ولمناسبة الغضروف إياهما.

فالمعنى: إنى جاعل فى الأرض خلفاء منى ينفذون الأحكام ويقيمون الحدود وينتصفون للمظلوم عن الظالم ويعمرون الأرض بتعليم أنواع الصناعات، وأصناف العلوم، وبتعليم آلات العمارة ويكملون نفوسهم، فلم قال ذلك للملائكة؟ لتعليم الناس حسن المشاورة فى الأمور وليكون اعتراضهم فى أمر آدم عليه السلام واستشكالهم قبل استخلافه وليظهر فضله بتسميته خليفة منه تعالى.

﴿قَالُوا﴾ أى: الملائكة ـ لفهمهم ـ من الاستخلاف أنه لا يكون إلا فى قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء.

﴿أَتَجْعَلُ﴾ تعجبًا لا إنكارًا عليه تعالى، لأنهم معصومون، ولا استفهامًا، لأنه علم بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾.

﴿فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لفرط شهوته.

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ لفرط غضبه.

والجعل بمعنى الخلق هنا، أو التَّصيير لوجود ﴿فِيهَا﴾ يعنى أن الحكمة لا تقتضى خلقهم فضلا عن استخلافهم فما الحكمة فى خلقهم ثم فى استخلافهم؟ بيِّن لنا يا ربنا.

وقيل: أخبرهم الله عن إفسادهم حيث سألوا عن أحوال الخليفة، وأجاب بأن يكون ذلك فيهم أو علموه من مطالعة اللوح.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ التسبيح: إبعاد الله عن السوء من السَّبح وهو الذهاب فى الأرض.

﴿بِحَمْدِكَ﴾ حال عن الفعلين على طريق التنازع توسط بينهما، دفعوا بذلك إبهام الإعجاب بالفعل، لأنه من الرذائل، أى متلبسين بحمدك على توفيقك إيانا إلى التسبيح والتقديس.

﴿وَنُقَدِّسُ﴾ التقديس: تنزيه الله عن العجز والنقص.

﴿لَكَ﴾ متعلق بالفعلين، لأنهما يتعديان باللام تارة وبدونه أخرى، فإذا كان حالنا ذلك فاللائق بالحكمة استخلافنا لا استخلافهم، فأظهروا المانع من جهة آدم عليه السلام، وهو الفساد، والسفك.

والمرجح من جهتهم وهو العصمة، وكان يكفى أحدهما، فكيف إذا اجتمعا؟ فأجاب الله عن شبهتهم بقوله:

﴿قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ﴾ فى أمر آدم عليه السلام خصوصًا بل فى جميع الأمور.

﴿مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ فلى فيه حكمة بالغة سأظهرها لكم، وهى إجمالاً أن بعض الموجودات مما يتعلق بصنع الإنسان من الأبنية وسائر الأعمال لا يخرج من القوة إلى الفعل إلا بخلقهم، فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ الواو فصيحة دالة على محذوف، أى خلق قالب آدم من التراب فسواه فعدله ونفخ فيه الروح فأحياه وعلمه إما بطريق الإلقاء فى روعه أو بخلق العلم الضرورى فيه.

واشتقاق آدم من الأدمة، ومن أديم الأرض نحو اشتقاق يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلاس، وما آدم إلا اسم أعجمى وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر، وعازر، وعابر، وشالخ، وفالغ، وأشياء من ذلك.

كذا فى الكشاف[1] أى: لا وجه لاشتقاقه على ما ذكره الجوهرى وغيره.

﴿الأَسْمَاءَ﴾ أى أسماء المسميات، فالتعريف اللامى قائم مقام التعريف الإضافى.

---

(١) (الكشاف للزمخشرى) انظر الكلام عن الإمام الزمخشرى فى ترجمته السابقة.

﴿ كُلَّهَا ﴾ لإفادة تأكيد الشمول والاستغراق المفهوم من اللام، والأسماء جمع اسم من الوسم، أى العلامة، أو السمو، أى: الارتفاع، لأن الاسم بأى معنى كان علامة ورافع للمسمى إلى الذهن، فأحضر الله جميع الأشياء من البسائط العنصرية والفلكية والمركبات، والمعادن، والنباتات، والحيوان، والملائكة، والجن فى ذهن آدم وعلمه وحواسه، ثم علمه ذوات الأشياء وصفاتها المخصوصة وأفعالها، وعلمه أصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية الآلات، وعلمه أصول اللغات.

قيل: وهى سبعة ـ فذلك هو المراد بتعليم الأسماء لا تعليم الألفاظ فى اللغات فحسب، لأنه يبعد أن يكون آدم عليه السلام ـ معلم الملائكة والمدرس فيهم بتعليم الألفاظ كالصبيان، فالأسماء وإن كانت بمعنى الألفاظ حرفًا أو اسمًا أو فعلاً مركبًا أو مفردًا، فتعليمها وتعليم أوضاعها إنما يكون بعد العلم وضعت له، فتعليم أوضاع الأسماء يستلزم تعليم جميع الذات، والصفات والأفعال والأخلاق، والعلوم، والصناعات، والآلات، لأن لكل منها أسامى متعددة بحسب [. . .][1] فلا حاجة إلى تعميم الأسماء للخواص، والأفعال.

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أى المسميات المدلول عليها بالتعريف اللامى وتذكير الضمير لتغليب العقلاء الذكور.

﴿ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى ﴾ فلما كان آدم عليه السلام خليفة الله جعل ذاته[2] فى مقام المعارضة قائمًا مقام آدم حيث قال: «أنبئونى» ولم يقل: أنبئوا آدم كما قال: يا آدم أنبئهم بأسماء هؤلاء الذوات المسميات من اللغات وأسماء صفاتهم وأفعالهم وعلومهم وصناعاتهم وآلاتهم بعد الإنباء عن المسميات.

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى زعمكم أن لا حكمة فى خلق آدم الذى يوجد فى أولاده

---

(١) ما بين المعقوفتين غير واضحة فى المخطوط.

(٢) أى: جعل الله ذاته فى مقام آدم بالسؤال.

وكأن السائل هو آدم، عليه السلام، وتقدير الكلام أن الله سبحانه كان يقول أنبئوا آدم كما قال لآدم: ﴿ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾.

وهنا لفتة كريمة وهى: أن الله سبحانه مع عبده (محبوبه) الضعيف فى وقت ضعفه يقوم مكانه، وحينما يجب أن يباهى به فيقدمه ويقول: ﴿ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ وما العلم الذى عند آدم إلاَّ مدد الله له، فمن أين حصّل آدم علم الأسماء إلاَّ بهذا المدد الإلهى (المحقق).

الإفساد والسفك، وإنكم مستحقون للخلافة لعصمتكم، لأن الخلافة لا تكون إلا بإقامة الحدود، والنصفة للمظلوم من الظالم وتنفيـذ أحكام الله فيهم، وعمارة الأرض بالبلدان والأبنيـة، وسـائر الأعمـال، وهى لا تكون إلا بعـد العلم بالشـرائع وبمـقـادير الناس ومراتبهم، وبالصناعات وكـيفية الآلات، فأنبئونى عن ذلك كله حتى يظهـر استحقاقكم أمـر الخلافـة دونهم ولا يكون فى خلـقهم حكمـة مع وجـودكم، فـعند ذلك علمت الملائكة الحكمـة فى تكوين الإنسان واستخـلافهم، وعلموا عجـزهم عن ذلك، فعند ذلك قالوا اعترافًا بعجزهم وشكرًا لنعمة الله عليهم، وكشف شبهتهم حيث كان غرضهم استكشاف الشبهة لا الاعتراض على الله، ولا غيبة بنى آدم والطعن فيهم.

﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ مصدر كالغفران أضيف إلى المفعول منصوب بفعل واجب الحذف. دائمًا: أى نسبّحك وننزهك عن خلق العبث ولا حكمة فيه.

﴿ لا عِلْمَ لَنَا ﴾ بشىء ما أصلاً.

﴿ إِلاَّ مَا ﴾ مصدرية أو موصولة على حذف المضاف أى: علم ما.

﴿ عَلَّمْتَنَا ﴾ وما علمتنا ذلك المذكور لا لبخل فيك بل لقصور فينا وعدم استعدادنا لتلك العلوم.

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ فصل لتأكيد القصر.

﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء.

﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن كل ما فعلت والمحكم له.

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ استحـضارًا فى علم الملائكة قوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ إلا أن ما ذكر هنا أبسط وأشرح.

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى ما غاب فيهما عن العباد، ومن جملته أمر الاستخلاف.

﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ من إظهار المانع والمرجح كما ذكر.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ بجد ولذا زيد «كان» وهو عـدم الحكمة فى خلق آدم عليه السلام ـ للمانع واستحقاقهم للخلافة دونهم لعصمتهم المرجحة.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ﴾ جميعًا أرضيًا وسماويًا.

﴿ اسْجُدُوا ﴾ بوضع الجبهة على الأرض كما هو المعنى الشرعى المتبادر.

﴿لآدَمَ﴾ أى: إلى آدم، فاللام بمعنى «إلى» كما فى قول الشاعر.

أى: حسان بن ثابت[1] فى علىّ ـ رضي الله عنه :

* أليس أول من صلى لقبلتكم *

فيكون سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ قبلة السجود لهم، كالكعبة لنا وتفضيله بذلك لأنه صار معلمًا لهم ونموذجًا للعالم كله أو عند وجود آدم، فاللام للتوقيت كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ فيكون آدم سببا للسجدة لهم كالوقت لنا، فالسجدة على ذلك لله ـ تعالى، أو معنى «اسجدوا» انقادوا وتذللوا لآدم فى تحصيل أمر معاشه وتكميل أمر معاده، فجميع الملائكة خدام لبنى آدم بعضهم يأتى بالوحى وبعضهم بالمطر، وبعضهم يقبض الأرواح، وعلى هذا.

﴿فَسَجَدُوا﴾ أى: كلهم جميعًا ولم يتخلف واحد منهم ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ ودخوله فى الملائكة حتى يصير الاستثناء متصلاً على ما هو الأصل، ويكون مأمورًا بالسجود حتى

---

(١) **(حسان بن ثابت)** بن المنذر بن حرام بن عمرو الأنصارى النجارى، أبو عبد الرحمن، ويقال أبو الوليد، ويقال: أبو الحسام المدنى، صحابى، توفى رحمه الله سنة ٥٤هـ، روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، شاعر رسول الله ﷺ .

قال المزى فى «تهذيب الكمال»: ذكره محمد بن سعد فى الطبقة الثانية، قال: وأمه الفريعة بنت خالد بن حبيش بن لوذان، قال: وكان قديم الإسلام، ولم يشهد مع النبى ﷺ مشهداً، وكان يجبن، وكانت له سن عالية، توفى وله عشرون ومائة سنة، عاش ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام، قال محمد بن عمر: مات فى خلافة معاوية، وهو ابن عشرين ومائة سنة.

عن عائشة، وعن أبيه عن عروة، عن عائشة أن النبى ﷺ كان يضع لحسان المنبر فى المسجد، فيقوم عليه، فإنما يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «إن روح القدس مع حسان، ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ ».

رواه أبو داود، عن لوين، فوافقناه فيه بعلو، ورواه الترمذى، عن على بن حجر.

وقال ابن حبان: مات وهو ابن مائة سنة وأربع سنين أيام قتل على، وقيل: إنه مات سنة خمس وخمسين:

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداءُ

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاءُ

انظر: «تهذيب التهذيب» ٢/ ٢٤٨ وانظر: المزى تهذيب الكمال ٤/ ٢٥٢ الترجمة رقم (١١٧٠).

يفسق بتركه بل يكفر باستحقاره لكونه مغموراً فيهم كأنه واحد منهم، وهو فى الأصل من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

﴿أَبَىٰ﴾ أى ترك السجدة باختياره لا بعذر، فإن الإباء هو الامتناع بالاختيار.

﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أى طلب الكبر من نفسه بالتشيّع من غير استحقاق، فإن قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ لا يدل على علوه فى نفس الأمر، لأن النار وإن كانت جوهرًا علويًا لكن المنافع فى التراب أكثر من أن يحصى، فقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ علة لأبى، والعطف من باب عطف العلة على المعلول لاجتماعهما فى الوجود.

وقوله: ﴿أَبَىٰ﴾ تكميل الاستثناء بدفع وهم العذر.

كقول الشاعر:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

وكونه جملة لا ينافى كونه تكميل الشمول تعريفه عليه وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، فإنما يدفعه عام من المفرد.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: فى علم الله وقضائه، فلذا أبى واستكبر وكان من الجن فى الأصل الذى الغالب عليهم الكفر، أو صار من الكافرين بارتداده بتقبيح أمر الله بالسجود لا بتركه فقط، فعطفه على الأولين من باب عطف العلة على المعلول وعلى الثالث بالعكس، فترك الفاء لتقويض الترتيب إلى ذهن السامع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (النمل: ١٥) على قول.

وقلنا: بعد خلق حواء من ضلعه الأيسر فإنه ـ عليه السلام ـ لما دخل الجنة فلم يستقر لعدم مؤنس فيها فسلط عليه شبه النوم، وإن لم يكن فى الجنة النوم فاستخرج ضلعه الأيسر، وخلق منه حواء، فلما استيقظ أحبها حبًا شديداً فأنكحها جبريل ـ عليه السلام ـ بأمر الله، وجعل مهرها الصلاة على محمد ـ ﷺ ـ على ما هو المشهور فى التفاسير.

﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ من السكن بمعنى اتخذ مسكنًا، لا من السكون مقابل الحركة، لكن أصله من السكون خوطب بالسكنى وحده لأنه الأصل فيه بخلاف الأكل.

﴿أَنتَ﴾ التأكيد لضرورة عطف.

﴿وَزَوْجُكَ﴾ على المستكن.

﴿الْجَنَّةَ﴾ المعهودة التى هى دار الثواب.

﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أكلاً رغداً أى: واسعًا مترفهًا.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ متعلق بالفعلين، أى: اسكن وكلا، فعم فى السكنى والأكل ترفيهًا وترخيصًا.

﴿وَلا تَقْرَبَا﴾ فضلا عن التناول والأخذ والأكل.

﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قيل: شجرة الكرمة[1] وهو أولى لكونها منبع أم الخبائث، وقيل: التينة أو السنبلة، والإشارة إما للتشخيص ـ وهو الظاهر ـ لأن الترفيه على هذا أكمل، وقيل: للتنويع

﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على النهى أو جواب للنهى.

﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من الذين ينقضون حظوظ أنفسهم بارتكاب المحظور.

* * *

وفى هذه القصة من الفوائد ما لا يُحصى، **ومن جملتها:** تفضيل العلم على العبادة، والعصمة، حيث فضل آدم ـ عليه السلام ـ وأولاده على الملائكة بالعلم ـ وإن كانوا معصومين.

ومنها: تقبيح التكبر والاستكبار، فإنه السبب فى طرد الشيطان ولعنه.

ومنها: التجنب عن المنهى رأسًا بحيث لا يقربه أصلاً، ولا يلتفت إليه، فإن من قرب من الشىء يقع فيه.

---

(١) فعلاً تراوحت أقوال العلماء، وتعددت بين السنبلة، والكرم، والتينة، ثم رأى آخر غريب هو النخلة، ثم رأى بعيد الأترجة.

* فقد أخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن أبى مالك الغفارى فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: هى السنبلة.
* وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: الشجرة التى نهى عنها آدم: الكرْم.
* وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله.
* وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: بلغنى أنها التينة.
* وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن أبى مالك: قال هى النخلة.
* وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال: هى الأترج.

انظر: الإمام السيوطى: الدر فى التفسير بالمأثور ١/ ١٢٩.

أعاذنا الله ـ تعالى ـ من وساوس الشيطان، وظلمات النفس ذات الطغيان . . . آمين.

عن أبى أمامة الباهلى[1] قال: ذُكر لرسول الله ـ ﷺ ـ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»[2]،

---

(١) (أبو أمامة الباهلى) هو: صدى بن عجلان بن وهب، ويقال ابن عمرو، أبو أمامة الباهلى (صاحب النبى ﷺ).

توفى ؓ ٨٦هـ بالشام، روى له: البخارى، ومسلم، وابن ماجه، والترمذى.

قال المزى فى «تهذيب الكمال» وقال محمد بن سعد فى الطبقة الرابعة: ومن باهلة وهم ولد معن وسعد ابنى مالك بن أعصر، وهو منبه بن سعد بن قيس عيلان بن مضر، وأمهم باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة، من مذحج، بها يعرفون، أبو أمامة الباهلى واسمه صدى بن عجلان، من بنى سهم بن عمرو بن ثعلبة بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر، صحب النبى ﷺ ، وسمع منه، وروى عنه، وتحول إلى الشام، فنزل بها، وقال معاوية بن صالح عن سليم بن عامر: قلت لأبى أمامة: مثل من أنت يومئذ؟ يعنى: فى حجة الوداع، قال: أنا يومئذ ابن ثلاثين سنة، أزاحم البعير حتى أزحزحه قدمًا إلى رسول الله ﷺ .

وقال صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر: جاء رجل إلى أبى أمامة فقال: يا أبا أمامة إنى رأيت فى منامى الملائكة تصلى عليك، كلما دخلت وكلما خرجت، وكلما قمت وكلما جلست، قال أبو أمامة: اللهم غفرا، دعونا عنكم، وأنتم لو شئتم صلت عليكم الملائكة، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ مات سنة إحدى وثمانين.

انظر: ابن حجر: «تهذيب التهذيب» ٤/ ٤٢٠ وانظر كذلك تهذيب الكمال: ٩/ ٩٣/ ٢٨٥٥.

(٢) حديث: (فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم).

رواه الترمذى وحسنه عن أبى أمامة مرفوعًا، قاله ﷺ لى وعنده رجلان، أحدهما عالم والآخر عابد، ونقل النجم عن الترمذى أنه صحيح، وقال: وتمامه: «إن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرضين ـ حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت ـ ليصلون على معلم الناس الخير» وللحارث بن أبى أسامة عن أبى سعيد: «فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى» رواه الخطيب عن أنس: «فضل العالم على غيره كفضل النبى ﷺ على أمته» وابن عساكر عن ابن عباس: «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة» رواه أبو يعلى عن عبد الرحمن بن عوف: «فضل العالم على العابد بسبعين درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» وروى أبو يعلى وابن عدى عن أبى هريرة: «بين العالم والعابد مائة درجة، بين كل درجتين خطو الجواد المضمر سبعين سنة».

انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ٢/ ١١١ - ١١٢ الحديث رقم (١٨٢٨).

ثم قال رسول الله ﷺ : «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير»(١).

رواه الترمذى، ورواه الدارمى عن مكحول(٢) مرسلاً، ولم يذكر رجلان، وقال: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٣) وسرد الحديث، إلخ.

وعن الحسن مرسلاً قال: سئل رسول الله - ﷺ - عن رجلين كانا فى بنى إسرائيل، أحدهما كان عالمًا ـ يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير أيهما أفضل؟ قال رسول الله ﷺ : «فضل هذا العالم الذى يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير (٤) على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم»(٥). رواه الترمذى.

---

(١) حديث: **(إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى حجرها يصلون على معلم الناس الخير)** أورده السيوطى فى جامع الأحاديث وأوله:
(فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم...) ثم استكمل الحديث وقال: رواه الترمذى أيضًا عن أبى أمامة.
انظر: جامع الأحاديث: ٤/ ٦٣٤ حديث رقم (١٤٧٧٤).

(٢) **(مكحول)** مكحول الشامى، أبو عبد الله، ويقال أبو أيوب، ويقال أبو مسلم (والمحفوظ الأول) الدمشقى الفقيه، من صغار التابعين، توفى رحمه الله سنة ١٠٠ وبضع عشرة سنة، روى له: البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه... قال ابن حجر: ثقة فقيه، كثير الإرسال، مشهور وقال الذهبى: فقيه الشام، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: وقال أبو حاتم: سمعت أبا مسهر وسألته: هل سمع مكحول من أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ فقال: سمع من أنس، وقال الحاكم فى «علومه» أكثر روايته عن الصحابة حوالة، وقال أيضًا فيما حكاه عنه مسعود: لم يسمع من عقبة بن عامر.
انظر: ابن حجر: «تهذيب التهذيب» ١٠/ ٢٩٢ وانظر أيضًا المزى: تهذيب الكمال ١٨/ ٣٥٦ الترجمة رقم (٦٧٦٢).

(٣) حديث: **(فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم)** أورد السيوطى هذا الحديث فى الدر المنثور وقال: أخرجه عبد بن حميد عن مكحول، ٦٠والآية هى رقم (٢٨) من سورة فاطر.
انظر الدر المنثور ٧/ ٢٠ وانظر التخريج السابق لهذا الحديث.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من نسخة الأصل المخطوط ومستدرك على الهامش تصحيحًا.

(٥) حديث: **(فضل هذا العالم الذى يصلى ...)** روى الدارمى قال: سئل رسول الله ﷺ عن =

نقل من مشكاة المصابيح من عينها ولا يعارض هذا الحديث قوله ﷺ : «إن خير التابعين رجلاً يقال له: أويس[1]، وله والدة، وكان به بياض، مُرُوه فليستغفر

= رجلين كانا فى بنى إسرائيل، أحدهما كان عالمًا يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضل؟ قال رسول الله ﷺ : «فضل هذا العالم الذى يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم» أسنده أبو عمر فى كتاب بيان العلم عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : «فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى» وقال ابن عباس: أفضل الجهاد من بنى مسجداً يعلم فيه القرآن والفقه والسنة، رواه شريك عن ليث بن أبى سليم عن يحيى بن أبى كثير عن على الأزدى قال: أردت الجهاد، فقال لى ابن عباس: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تأتى مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه، وقال الربيع سمعت الشافعى يقول طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة، وقوله ﷺ : (إن الملائكة لتضع أجنحتها . . .) الحديث يحتمل وجهين: **أحدهما**: أنها تعطف عليه وترحمه كما قال الله تعالى فيما وصى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدين بقوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى: تواضع لهما.. **والوجه الآخر**: أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها، لأن فى بعض الروايات: وإن الملائكة تفرش أجنحتها، أى إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله، وكان سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها فى رحلته وحملته عليها فمن هناك يسلم فلا يخفى إن كان ماشيًا ولا يعيا، وتقرب عليه الطريق البعيدة ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض وذهاب المال وضلال الطريق، وقد مضى شيء من هذا المعنى فى آل عمران، ثم قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ ...﴾ الآية روى عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» قال يزيد بن هارون: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدرى من هم.

انظر الدارمى فى السنن: ١/ ١٠٩ الحديث رقم (٣٤٠) وانظر أيضًا: القرطبى: التفسير: ٨/ ٢٩٦.

(١) ترجمة (**أويس القرنى**) هو القدوة سيد التابعين فى زمانه: أبو عمرو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرنى المرادى اليمانى. «وقرن» بطن من مراد، وفد على عمر ﷺ وروى قليلا عنه وعن على، روى عنه يسير بن عمرو، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وأبو عبد رب الدمشقى وغيرهم حكايات يسيرة، ما روى شيئًا مسنداً ولا تهيأ أن يحكم عليه بلين، وقد كان من أولياء الله المتقين ومن عباده المخلصين. حدثنا ابن سلمة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أسير بن جابر قال: لما أقبل أهل اليمن جعل عمر ﷺ يستقرئ الرفاق فيقول: أحد من قرن، فوقع زمام عمر أو زمام أويس فناوله، أو ناول أحدهما الآخر فعرفه، فقال عمر: ما اسمك؟ قال: أنا أويس، قال: هل لك والدة؟ قال: نعم، قال: فهل كان بك من البياض شيء؟ قال: نعم، =

لكم»[1]. رواه مسلم، لأنه قال أحمد بن حنبل وغيره من المحدثين: أفضل التابعين: سعيد بن المسيب[2] لوفرة علمه وكثرة فضله، فلفظ التابعين مخصص ومحمول على غيره بدلالة الأحاديث التى ذكرت قبله.

= فدعوت الله فأذهبه عنى إلا موضع الدرهم من سرتى لأذكر به ربى، قال له عمر: استغفر لى، قال: أنت أحق أن تستغفر لى، أنت صاحب رسول الله ﷺ، فقال عمر: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضع الدرهم فى سرته، فاستغفر له ثم دخل فى غمار الناس فلم ندر أين وقع؟ قال: فقدم الكوفة، قال: فكنا نجتمع فى حلقة فنذكر الله، فكان إذا ذكر هو وقع فى قلوبنا لا يقع حديث غيره . . . فذكر الحديث هكذا اختصره.
انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢١ الترجمة رقم (٥).

(١) حديث: (إن خير التابعين رجلا يقال له: أويس...) حدثنى زهير بن حرب حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنى سعيد الجريرى عن أبى نضرة عن أسير بن جابر ثم إن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل ههنا أحد من القرنيين؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد قال: إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع أم له قد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم فمن لقيه منكم فليستغفر لكم) حدثنا زهير بن حرب ومحمد بن المثنى قالا: حدثنا عفان بن مسلم حدثنا حماد ـ وهو ابن سلمة ـ عن سعيد الجريرى بهذا الإسناد عن عمر بن الخطاب قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثم إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم».
انظر صحيح مسلم ٤/١٩٦٩ الحديث (٢٥٤٢).

(٢) (سعيد بن المسيب) بن حزن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى، أبو محمد المدنى (سيد التابعين) توفى بعد سنة ٩٠ هـ روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال ابن حجر: أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل، وقال الربيع بن سليمان، عن الشافعى: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن، وقال الليث بن سعد، عن يحيى بن سعيد: إن ابن المسيب كان يسمى راوية عمر بن الخطاب، لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًا، قال الواقدى: مات سنة أربع وتسعين فى خلافة الوليد بن عبد الملك، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وكان يقال لهذه السنة: سنة الفقهاء، لكثرة من مات منهم فيها، وقال أبو نعيم: مات سنة ثلاث وتسعين، وقال عمرو بن دينار: لما مات زيد بن ثابت قال ابن عباس: هكذا يذهب العلم، روى له الجماعة. اهـ.
انظر ابن حجر: فى «تهذيب التهذيب» ٤/ ٨٧: وانظر كذلك: تهذيب الكمال ٧/ ٢٩٦ الترجمة رقم (٢٣٣٩).

مجلس في:

بيان خلق سيدنا آدم

عليه السلام وإبليس، لعنه الله، في سبع سور

في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة الحج، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة ص.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد.

فهذا مجلس في بيان قصة آدم - عليه السلام - وإبليس، لعنه الله، وهذه القصة مذكورة في القرآن في سبع سور: في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة الحج، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة ص.

وخلق العالم في ستة أيام أيضًا مذكور في سبع سور: في سورة الأعراف، وفي سورة يونس - عليه السلام - وفي سورة هود - عليه السلام - وفي سورة الفرقان، وفي سورة السجدة، وفي سورة ق، وفي سورة الحديد.

وحديث الرحمن على العرش استوى مذكور أيضًا في سبع سور: في سورة الأعراف، وسورة يونس - عليه السلام - وفي سورة الرعد، وفي سورة طه، وفي سورة الفرقان، في سورة الم السجدة، وفي سورة الحديد.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض، قال: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته، وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا، في كم وجدت فيها كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم،

قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فحج آدم موسى)(١).

أخرجه البخاري ومسلم، أورده في «مشكاة المصابيح» في باب الإيمان بالقدر.

قال شراح الحديث: وإنما حج آدمُ موسى، لأن الاحتجاج كان في عالم الأرواح وفي عالم قطع الأسباب، والنظر في هذا العالم إلى مسبب الأسباب دون الأسباب، وإلى القضاء والقدر دون الكسب والحذر فلذا غلب، وأما في عالم الأسباب والإكساب فلم ينظر آدم ـ عليه السلام ـ إلى القضاء والقدر، بل نظر إلى كسبه، فلذا قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآية هذه مذكورة في سورة الأعراف في أربع عشرة آية، وأورد من سورة طه ست آيات، ومن سورة ص آيتين.

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ على حذف المضاف، أي: أباكم، فكان خلقه خلقهم كلهم، بأن خلق قالب آدم ـ عليه السلام ـ قيل: في جنة عدن، وقيل: بين طائف ومكة.

«من تراب ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: أباكم آدم ـ عليه السلام ـ بأن نفخ فيه الروح، كما قال في سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ثم قلنا للملائكة أي كلهم «اسجدوا» لآدم بالمعاني التي مرت ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم «قال الله ما منعك يا إبليس أن لا تسجد» و (لا) مزيدة بقرينة قوله في

---

(١) حديث: (احتج آدم وموسى عند ربهما...) عن جندب ـ يعني ابن عبد الله ـ وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته فأخرجت الناس من الجنة، فقال آدم: أنت موسى الذي كلمك الله نجيا وآتاك التوراة، تلومني على أمر قد كُتِب عليَّ قبل أن يخلقني» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى» وفي رواية: قال ـ يعني آدم ـ فأنا أقدم أم الذكر؟ رواه أبو يعلى وأحمد بنحوه، والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح، وعن أبي سعيد قال: «احتج آدم وموسى، عليهما السلام، فقال موسى: يا آدم، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك جنته فأغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: يا موسى، اصطفاك الله برسالته وأنزل عليك التوراة وفعل بك وفعل، تلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني» قال: «فحج آدم موسى عليهما السلام» رواه أبو يعلى والبزار مرفوعًا ورجالهما رجال الصحيح.

مجمع الزوائد: ٧/ ١٩١ باب تحاج آدم وموسى (عليهما السلام).

سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ وقيل: ضمن منعك معنى اضطرك، أى: ما اضطرك إلى أن لا تسجد إذ أمرتك، دليل على أن الأمر للوجوب لأن الاستفهام للتوبيخ والذم، ولا ذمّ على ترك غير الواجب وأنه على الفور، لأن التوبيخ كان على ترك السجود وقت الأمر.

قال إبليس: على أسلوب الكلام الأحمق حيث سأل عن المانع، وأجاب باستئناف خبر يدل على المانع: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أى بحسب العنصر، دل عليه قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ والنار جوهر مشرق علوىّ خفيف مؤثر، والتراب جوهر سفلى مظلم ثقيل منفعل، والمخلوق من الأشرف أشرف، ولا يليق بالحكيم الآمر للفاضل بالسجود للمفضول.

والمقدمات كلها ممنوعة لأنَّا لا نسلم أن النار أشرف من كل وجه، بل للتراب شرف فى نفسه، فإنه منبت جميع الأزهار، والأنوار، والنبات، والأشجار، ومع ذلك هو مُبْنٍ والنار مُفْنٍ، وهو رزين منبع الحلم والوقار، ولذا أقر آدم ـ عليه السلام ـ بظلم نفسه ولم يقل لله: أنت أغويتنى كما قال إبليس، ولم ينظر إلى عداوة إبليس كما نظر إليها إذ قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وفى النار طيش وخفة، وهى منبع السَّفَه، ومنه نشأ قول اللعين «بما أغويتنى» والانتقام من آدم، ولا نسلم أيضًا أن المخلوق من الشريف شريف لأنه ـ تعالى ـ يخرج الكافر مِن المؤمن.

ولا نسلم أيضًا عدم لياقة الأمر بالسجود للفاضل إلى المفضول، لأن فيه تواضعًا وخضوعًا وانقيادًا لأمر الخالق، ومع ذلك كله غفل اللعين عن الفضل والسرف باعتبار الفاعل، كما أشار إليه فى ص بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أى: بكمال قدرتى من غير توسط أب وأم، وباعتبار الصورة كما أشار إليه فى سورة الحجر وص: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وباعتبار الغاية، وهى ملاك الفضل كله، كما أشار إليه فى البقرة بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (الآية: ٣١) فقياس اللعين فاسد أشدَّ الفساد.

قال الله: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى: من الجنة التى فى السماء، فإنها دار المتواضعين الخاضعين دون المتكبرين.

﴿فَمَا يَكُونُ﴾ ما يصح.

﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ المتذللين، طلب اللعين الكبر فما وجد إلا صغارًا وذلاً كما قال النبي - ﷺ -: (من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله)(١).

قال إبليس: ﴿أَنظِرْنِي﴾ بعد طردك.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من القبور إلى المحشر، ولا موت بعد، فطلب النظرة والنجاة من الموت، فأعطاه بعض طلبته وهو النظرة، ولم يعطه النجاة من الموت حيث قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

وقال في سورة الحجر: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو وقت النفخة الأولى، إذ يموت الكل فيموت فيه إبليس.

فإن قيل: ما الحكمة في إنظاره وهو منبع جميع الفسادات؟.

قلت: لأنه سأل النظرة، والله جواد يعطي السائل، ولم يسأل المغفرة والرحمة كما سأل آدم بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ولأن عمارة الدنيا - التي هي المقصود من خلافة آدم - لا تحصل إلا بإبليس ووساوسه، كما قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا إبليس بعده الله بإنظاره وتوثيقه بأدوات التأكيد وغيظه على آدم وذريته، بل على الله في إضلاله وطرده.

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاع الاعتقاد الباطل في الباطن، أي: أقسم بعزتك، كما قال في سورة ص: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بسبب إغوانك لي بسبب آدم، فالباء

---

(١) حديث: (من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله).

لم أقف عليه بهذا اللفظ وإنما المعروف كما في كتب الحديث: (من تواضع لله رفعه الله) رواه أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، بزيادة به درجة، ومن تكبر وضعه الله، الحديث، وأخرجه أبو يعلى وأحمد بلفظ: من قنع لقبحها الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله، وأسنده الديلمي عن عمر بلفظ فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس عظيم، ورواه أبو الشيخ عن معاذ بلفظ من تواضع تخشعًا لله رفعه الله ومن تطاول تعظمًا وضعه الله، وفي تاريخ ابن عساكر عن طلحة بن عبد الله أن التواضع لله تبارك وتعالى الرضى بالدون من المجالس.

وله روايات أخرى، انظر: ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١٢٠ وابن حبان في صحيحه ٤٢١/١٢.

انظر: العجلوني: كشف الخفاء: ٢/ ٣١٧، الحديث رقم (٢٤٤٥).

متعلق بفعل القسم المحذوف، أي: بسبب إغوائك أقسم بعزتك لأقعدن لهم وقيل: الباء للقسم، أي: أقسم بإغوائك إياى.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لآدم وذريته، كما يقعد قطاع الطريق على سابلة التجار، ففى الكلام استعارة تمثيلية، شبه ملازمته لإغوائهم بترصد القطاع على السابلة.

﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: دين الإسلام: العقائد والأعمال، والجار محذوف، أى على صراطك، وأما حذف (فى) ففيه ضعف لأن حذفه عن المحدود من المكان شاذ، فيكون من باب الحذف والإيصال، كقول الشاعر:

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب[1]

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من جهة التشكيك فى أمر الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من جهة إيهام دوام العالم وقدمه ونفى حشر الأجساد، أو بالعكس.

وقيل: إن الفساد فى الاعتقاد إنما يحصل بسبب الخياليات الموضوعة فى البطن الأول من الدماغ وبالوهميات الموضوعة فى التجويف المؤخر منه.

وحرف (من) للابتداء، لأن منشأ الكفر والبدعة من الخيال أو الوهم، أو التشكيك والإيهام.

﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل الشهوة الموضوعة فى الكبد فى جهة اليمين.

﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل الغضب الموضوع فى القلب فى جهة الشمال.

وكلمة (عن) فيهما للمجاوزة لأن الشهوة والغضب منبع الأفعال الردية، وهى بالنسبة إلى الكفر والبدعة ضعيفة، فاختيار كلمة العند والمجاوزة لبعيدة عن مقصوده، وهو بوار الإنسان بالكلية فى الجملة.

﴿وَلَا تَجِدُ﴾ من الوجدان العلمى، فمفعولاه.

﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مطيعين، أو من الوجدان بمعنى المصادفة فـ «شاكرين» حال، وإنما قال له ظنا، كما قال تعالى فى سورة سبأ. ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ (الآية: ٢٠) ومنشأ الظن أنه وجد فى آدم ـ عليه السلام ـ تسع عشرة قوى مبادئ الشر: الحواس الظاهرة، والحواس الخمس الباطنة، والشهوة، والغضب، وهى القوى الحيوانية، والقوى الطبيعية السبع: الغازية، والنامية، والجاذبة، والهاضمة، والماسكة،

---

(١) يوجد شرح للمفردات اللغوية بهامش المخطوط.

والدافعـة، والمولدة، وهى القوى النباتيـة، ووجد فيه مـبدأ واحد للخيـر، وهو العقل المختـص بالإنسان، ويقال لها: القـوة العاقلة والنظرية، وأما العاملة: فـهى من فروع العاقلة، لأن القوى الفعالة إذا تبعت العقل وفعلت على حسب الأداء، والحدث الأفعال الجزئية تكون عاملة، وإذا تبعت الخيال أو الوهم يقال لها: الفاعل، والباعثة، فالمغايرة اعتبارية، فظن اللعين أن الكثرة تغلب الوحدة غالبًا، فكان كما قال.

قال الله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ أى: من الجنة خروجًا لا تدخل بعد ذلك مكرمًا، وإن دخلت مهانًا.

﴿مَذْءُومًا﴾ معيبًا مذمومًا.

﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا عن الرحمة لنسبتك الإغواء إلى الله على طريق الجبر، وإلقاء اختيارك وكسبك بالكلية.

أقسم ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ اللام موطئة للقسم المحذوف، وشرطه الدخول على كلمة الشرط وقـد وجد ﴿مِنْـهُـمْ﴾ من أولاد آدم ـ عليه السلام ـ وهم الكثيـرون المتبعون لإبليس فى الاعتقاد أو العمل ﴿لأَمْلأَنَّ﴾ جواب المحذوف.

﴿جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ منك ومنهم، ففيه تغليب.

﴿أَجْمَعِينَ﴾ لكن الفساق لا يخلدون فيها.

﴿يَـا آدَمُ﴾ وقلنا: يا آدم، ولم يجـز عطفه على مـا سبق كمـا هو الظاهر على المتأمل ﴿اسْكُنْ﴾ من السكن، مَرَّ فى الدرس السابق.

﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فيه ترفيه عظيم وتوسيع تام يغنى عن مناولة المكروه.

﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من الذين ينقصون حظوظ أنفسهم لأن الأكل من هذه الشجرة سبب بحسب التقدير للخروج كالسم للهلاك.

وقال تعالى فى سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا﴾ أى إبليس.

﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ لغيه بكما.

﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أى: لا تكونا بحيث يتسبب اللعين لخروجكما.

﴿فَـتَـشْـقَىٰ﴾ أى تتعب أنت يا آدم، لأن تحـصيل المعاش على الزوج، أو شـقاء الزوج يستلزم شقوة الزوجة، فاكتفى به.

﴿إِنَّ لَكَ﴾ أقطاب الكفاف: وهى الشبع، والرى، واللباس، ولكن المستلزم: ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ﴾ بالفتح عطف على «أن لا تجوع».

﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ لبروزك للشمس.

﴿فَوَسْوَسَ﴾ أى أنهاها إليه، أى آدم، لأنه المقصود.

﴿الشَّيْطَانُ﴾ وسببها أنه سمع أن آدم قد علم الموت، فيطلب الخلود ويتمناه وقال بيان للموسوس.

﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أى: على شجرة من يأكل منها يخلد فى الجنة ﴿وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ لا يفنى، وهو ملك الجنة بشرط الخلد.

فإن قيل: كيف وسوس إليه؟ **قلنا**: لأنه لم يكن مخلوعًا عن دخول الجنة مطلقًا بل على سبيل الإكرام.

وقيل: وسوس إليه خارج الجنة لأن آدم كان يخرج للتفرج، ووسوسته بعد، يمثله بصورة أخرى لئلا يعلم.

وقيل: إنما كان مثل وسوسته إلى بنييه من غير رؤية، لكن لا يلائمه التقاسم الذى يجىء، ثم بعد ذلك قال فى درسنا هذا:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ لأجلهما.

﴿الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ﴾ اللام لام العاقبة، ويجوز أن تكون لام الغرض، لأن الخبيث علم أن الأكل من الشجرة سبب لذل آدم وزوال عزه، وظهور عورته، وحزنه، فقصد ذلك.

﴿لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾ أى ستر من وارى بمعنى ستر عنهما.

﴿مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ سبب نور أو حلة أو ظفر، قال حين أشار إلى أكل الشجرة للخلد، وقال آدم ـ عليه السلام ـ نهانا الله عنها.

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ عن أكلها إلا كراهة.

﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ لأن أكلها يستلزمه، وآدم وإن علم فضله على الملائكة بسبب تعليم الأسماء، وسجودهم، لكن قد علم أن كمالات الملائكة فطرية جبلية، فتحصل بسهولة لها كسبية لتحصل بالعسرة، وإنهم مستغنون عن الأكل والشرب مستغرقون فى

طاعة الله فتمنى ذلك، فلذا وسوس إليه ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ كما مر من طه، فلم يشف آدم بقوله وخاف الغش وعدم النصح ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أى أقسم لهما، فالمفاعلة من جانب واحد، وأقسم على النصح وأقسما على القبول.

﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ من الذين يريدون خيركما.

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ أى: أنزلهما من منصب عالٍ إلى منزل سافل ﴿بِغُرُورٍ﴾ أى: بسببه، وهو اليمين الفاجرة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ أى: من غير أكل تام، بل عند أوله ﴿الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ للسببية المقدرة لا للمواخذة، لأن النهى كان تنزيهيًا لا تحريميًا، لأن ضرره يعود عليهما فيكون كالسم للملاك، فتفرق النور أو الحلة أو الظفر عن أبدانها للسببية المذكورة وانكشفت عوراتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ شرعًا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل: من ورق التين.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بالعطف والرحمة.

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ نهيًا تنزيهيًا لسببية الخروج ﴿عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا﴾ كما ذكر فى سورة طه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قال آدم ـ عليه السلام ـ يا رب ما ظننت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بتناول ما هو السبب فى نقص حظنا من الجنة بخروجنا منها ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ بستر ذلتنا هذه والصفح عنها ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بإدخال الجنة مرة أخرى ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المضيعين أمر دنياهم وآخرتهم فقبل الله توبتهما لأنهما سألا المغفرة والرحمة ولم يتعلقا بالخصومة للشيطان، ولم يُسيئا الأدب بإضافته إلى خالق الكل، بل رأيا كسبهما واختيارهما، ولذا قال فى سورة طه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بترك الأولى ﴿فَغَوَىٰ﴾ أى: ضل عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو والنعى عليه بالعصيان والغى لزجر أولاده عن المعاصى حيث استحق هذا النعى مع أنه ترك الأولى فكيف يكون حال من ارتكب الكبائر.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ اختاره لما يقربه منه، وهو التواضع وهضم النفس ورؤية القصور من جهته لا من الفعل الحقيقى ومن السبب الموسوس، فلله دره ما أكثر علمه وفضله وأدبه ﴿فَتَابَ﴾ رجع ﴿عَلَيْهِ﴾ بالمغفره ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى ما يحبه ويرضاه.

﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ يا آدم ويا حواء ويا إبليس بعد دخوله الوسوسة.

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى: متعادين حال بالضمير من غير الواو، أو تنزيل الجملة منزلة المفرد، ولذا أحسن ترك الواو. وكذا قال التفتازانى.

فهبط آدم ـ عليه السلام ـ إلى «سرنديب»[(١)] من أرض الهند.

وحواء إلى «جدة»[(٢)] من أرض مكة[(٣)].

---

(١) (سرنديب) بفتح أوله وثانيه وسكون النون ودال مهملة مكسورة وياء: مثناة من تحت وباء موحدة، أفسدناها بلغة الهنود هو الجزيرة، وسرن لا أدرى ما هو، قال الشاعر:

وكنت كما قد يعلم الله عازما ... أروم بنفسى من سرنديب مقصدا

هى جزيرة عظيمة فى بحر هركند بأقصى بلاد الهند، طولها ثمانون فرسخا فى مثلها، وهى جزيرة تشرع إلى بحر هركند وبحر الأعباب، وفى سرنديب الجبل الذى هبط عليه آدم عليه السلام يقال له: الرهون، وهو ذاهب فى السماء يراه البحريون أيامًا كثيرة، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام، وهى قدم واحدة مغموسة فى الحجر طولها نحو سبعين ذراعًا، ويزعمون أنه خطا الخطوة الأخرى فى البحر، وهو منه على مسيرة يوم وليلة، ويرى على هذا الجبل فى كل ليلة كهيئة البرق سحاب ولا غيم، ولا بد له فى كل يوم من مطر يغسله، يعنى موضع قدم آدم عليه السلام، ويقال إن الياقوت الأحمر يوجد على هذه الجبال تحدره السيول والأمطار إلى الحضيض فيلقط، وفيه يوجد الماس أيضًا ومنه يجلب العود فيما قيل، وفيها نبت طيب الريح لا يوجد بغيرها، ولها ثلاثة ملوك كل واحد منهم عاصٍ على صاحبه، وإذا مات قطع أربع قطع وجعل كل قطعة فى صندوق من الصندل والعود فيحرقونه بالنار، وامرأته أيضًا تتهافت بنفسها على النار حتى تحترق معه أيضًا.

انظر معجم البلدان: ٣/ ٢١٥.

(٢) (جدة) بلد على ساحل بحر اليمن، وهى قرب مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال، عن الزمخشرى، وقال الحازمى بينهما يوم وليلة، وهى فى الإقليم الثانى طولها من جهة المغرب أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة، قال أبو المنذر: وبجدة ولد جدة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة فسمى جدة باسم الموضع، قال: ولما تفرقت الأمم ثم تبلبل الألسن صار لعمرو بن معد بن عدنان، وهو قضاعة تحزيب ومراعى أغنامهم جدة من شاطئ البحر، وما دونها إلى منتهى ذات عرق إلى حيز البحر من السهل إلى الجبل فنزلوا وانتشروا فيها وكثروا بها، قال أبو زيد البلخى: وبين جدة وعدن نحو شهر، وينسب إلى جدة جماعة منهم عبد الملك بن إبراهيم الجدى، وعلى بن محمد بن على بن الأزهر أبو الحسن العليمى المقرى القطان، يعرف بالجدى.

انظر معجم البلدان: ٢/ ١١٤، ١١٥.

(٣) (مكة) هى البلد الأمين الذى شرَّفه الله تعالى وعظَّمه، وخصه بالقسم، وبدعاء الخليل، عليه السلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ واجعله مثابة للناس وأمنًا للخائف، =

= وقبلة للعباد، ومنشأ لرسول الله ﷺ ، وعن رسول الله ﷺ : «من صبر على حر مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة عام، وتقربت منه الجنة مائتي عام! إنها لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد كان بعدي، وما أُحِلت لي إلا ساعة من نهار، ثم هي حرام، لا يعضد شجرها ويحتش خلاها، ولا يلتقط ضالتها إلا لمنشد» وعن ابن عباس: «ما أعلم على الأرض مدينة يرفع فيها حسنة مائة إلا مكة، ويكتب لمن صلى بها ركعة مائة ركعة إلا مكة، ويكتب لمن نظر إلى بعض بنيانها عبادة الدهر إلا مكة، ويكتب لمن يتصدق بدرهم ألف درهم إلا مكة!» وهي مدينة في واد، والجبال مشرفة عليها من جوانبها، وبناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضًا، وهي طبقات مبيضة نظيفة، حارة في الصيف جدًا، إلا أن ليلها طيب، وعرضها سعة الوادي، وماؤها من السماء، ليس بها نهر ولا بئر يشرب ماؤها، وليس بجميع مكة شجر مثمر، فإذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار ومزارع ونخيل، وميرتها تُحمل إليها من غيرها بدعاء الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وأما الحرم فله حدود مضروبة بالمنار قديمة، بينها الخليل، عليه السلام، وحده عشرة أميال في مسيرة يوم، وما زالت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام، فلما بُعث رسول الله ﷺ أقر قريشًا على ما عرفوه، فما كان دون المنار لا يحل صيده، ولا يختلى حشيشه، ولا يقطع شجره، ولا ينفر طيره، ولا يترك الكافر فيه، ومن عجيب خواص الحرم أن الذئب يتبع الظبي، فإذا دخل الحرم كف عنه.

وأما المسجد الحرام فأول من بناه عمر بن الخطاب في ولايته، والناس ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها، فقال عمر: إن الكعبة بيت الله، ولا بد لها من فناء، فاشترى تلك الدور وزادها فيه، واتخذ للمسجد جدارًا نحو القامة، ثم زاد عثمان فيه، ثم زاد عبد الله بن الزبير في إتقانه وجعل فيه عمدًا من الرخام، وزاد في أبوابه وحسَّنه، ثم زاد عبد الملك بن مروان في ارتفاع حيطانها، وحمل السواري إليها من مصر في الماء إلى جدة، ومن جدة إلى مكة على العجل، وأمر الحجاج فكساها الديباج، ثم الوليد بن عبد الملك زاد في حلى البيت لما فتح بلاد الأندلس فوجد بطليطلة مائدة سليمان، عليه السلام، كانت من ذهب ولها أطواق من الياقوت والزبرجد فضرب منها حلى الكعبة والميزاب، فالأولى المنصور وابنه المهدي زادوا في إتقان المسجد وتحسين هيئته، والآن طول المسجد الحرام ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعًا، وعرضه ثلاثمائة ذراع وخمس عشرة ذراعًا، وجميع أعمدة المسجد أربعمائة وأربعة وثلاثون عمودًا، وأما الكعبة -زادها الله شرفًا- فإنها بيت الله الحرام، إن أول ما خلق الله تعالى في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها، فهي صرة الأرض، ووسط الدنيا، وأم القرى، قال وهب: لما أهبط آدم ،عليه السلام، من الجنة حزن واشتد بكاؤه فعزاه الله بخيمة من خيامها، وجعلها موضع الكعبة، وكانت ياقوتة حمراء، وقيل: درة مجوفة من جواهر الجنة، ثم رُفعت بموت آدم، عليه السلام، فجعل بنوه مكانها بيتًا من حجارة فهدم بالطوفان، وبقي =

وإبليس إلى «أصبهان»[(١)] أو سسال، فكأنه قيل فى حق آدم وحواء:

لله درهم مـن فـتـيـة بكروا مثل الـملوك وراحوا كـالمساكـين

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، واستقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمـتع بالأمل والشرب وغيرهما.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقت موت كل أحد ووقت البعث.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ مساكنين فيها.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ مقبورين فيها.

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للحشر والجزاء ودخول الجنة والنار.

فـإن قـيل: لِمَ لَمْ يؤبّد الله آدم ـ عليه السلام ـ بتـرك الأكل والبقاء فى الجنة؟ فَلِمَ سلَّط عليه عدوه فلم يمنعه، ولم يحفظ آدم، عليه السلام؟.

قلت: وفاء لقوله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولم يسكنه أول الأمر فيـها لكونها مكان الوحـشة والظلام [. . .][(٢)] بالمسـببات كمـا هو مقتـضى لحكمه تصديقًا لقول الملائكة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

= على ذلك ألفَىْ سنة، حتى أمر الله تعالى خليله ببنائه، فجاءت السكينـة كأنها سحابة فيها رأس يتكلم، فبنى الخليل وإسمـاعيل، عليهما السلام، على مـا ظللته، وأما صفة الكعـبة فإنها فى وسط المسجد مربع الشـكل بابه مرتفع على الأرض قدر قامة، عليه مصراعـان ملبسان بصفائح الفضـة طليت بالذهب، وطول الكعبة أربعة وعـشرون ذراعًا وشبـر، وعرضها ثلاثـة وعشرون ذراعًا وشبر، وذرع دور الحـجر خمسة وعشرون ذراعًـا وارتفاع الكعبة سبعـة وعشرون ذراعًا. انظر: القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد: ١١٢ وما بعدها، ومعجم البلدان: ٥/ ١٨١.

(١) (أصـبـهـان) بفتح الهـمزة وهم الأكثر، وكـسرها آخرون منهم السـمعانى وأبو عبـيد البكرى الأندلسى، وهى مدينة عظيمة مـشهورة من أعلام المدن وأعيانها، ويسـرفون فى وصف عظمها حتى يتجـاوزوا حد الاقتصاد إلى غاية الإسـراف، وأصبهان اسم للإقليم بأسره وكانت مـدينتها أولا جيا ثم صارت اليهودية، وهى من نواحى الجبل فى آخر الإقليم الرابع طولها ست وثمانون درجة وعـرضها ست وثلاثون درجـة تحت اثنتى عشـرة درجة من السرطان يقـابلها مـثلها من الجدى، بيت ملكـها مثلهـا من الحمل بيت عاقـبتهـا مثلها من المـيزان، طول أصبـهان أربع وسبـعون درجة وثلثـان وعرضهـا أربع وثلاثون درجة ونصف، ولهم فى تسمـيتهـا بهذا الاسم خلاف، قال أصـحاب السير: سـميت بأصبهان بـن فلوج بن لنطى بن يونان بن يافث، وقال: سميت بأصبهان بن فلوج بن سام بن نوح عليه السلام. . . انظر معجم البلدان: ١/٢٠٦.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط مقدار كلمات من المخطوط لسوء التصوير.

رزقنا الله فهم كلامه العزيز وحفظنا من وسواس الشيطان الرجيم آمين.

وقال شقيق بن إبراهيم[(١)]: ما من صباح إلا وقعد لى الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، من بين يدى فيقول: لا تخف إن الله غفور رحيم، فأقول: ذلك لمن تاب، وأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

وأما من خلفى فيخوفنى بالضيعة على تخلفى، فأقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وأما من قبل يمينى فيأتينى من قبل الثناء فأقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وأما من قبل شمالى، فيأتينى من قبل الشهوات واللذات وأقول: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كذا تفسيرية.

روى الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم[(٢)]، حدثنا أبو عقيل الثقفى: عبد الله

---

(١) **(شقيق بن إبراهيم)** هو: الإمام شيخ خراسان أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدى البلخى، صحب إبراهيم بن أدهم، وروى عن كثير بن عبد الله الأبلى وإسرائيل بن يونس وعباد ابن كثير، حدث عنه عبد الصمد بن يزيد مردويه ومحمد بن أبان المستملى والحسين بن داود البلخى وغيرهم، وهو نزر الرواية، روى عن على بن محمد بن شقيق قال: كانت لجدى ثلاث مائة قرية ثم مات بلا كفن، قال: وسيفه إلى اليوم يتباركون به، وقد خرج إلى بلاد الترك تاجراً فدخل على عبدة الأصنام فرأى شيخهم قد حلق لحيته فقال: هذا باطل، ولكم خالق وصانع قادر على كل شىء، فقال له: ليس يوافق قولك فعلك، قال وكيف؟ قال: زعمت أنه قادر على كل شىء وقد تعنيت إلى ههنا تطلب الرزق ورازقك ثَمَّ، فكان هذا سبب زهدى، وعن شقيق قال: كنت شاعراً فرزقنى الله التوبة وخرجت من ثلاث مائة ألف درهم ولبست الصوف عشرين سنة ولا أدرى أنى مراء حتى لقيت عبد العزيز بن أبى رواد فقال: ليس الشأن فى أكل الشعير ولبس الصوف الشأن أن تعرف الله بقلبك ولا تشرك به شيئًا، وأن ترضى عن الله، وأن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى أيدى الناس، وقتل شقيق فى غزاة كولان سنة أربع وتسعين ومائة.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٩/ ٣١٣ - ٣١٥ الترجمة رقم (٩٨).

(٢) **(هاشم بن القاسم)** بن مسلم الليثى مولاهم البغدادى، ويقال: التميمى، الخراسانى، أبو النضر، ولقبه قيصر (مشهور بكنيته) ولد سنة ١٣٤هـ، من صغار أتباع التابعين، توفى سنة ٢٠٧هـ ببغداد.

روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة ثبت، وقال الذهبى الحافظ: ثقة صاحب سنة، تفتخر به بغداد، قال المزى فى «تهذيب =

ابن عقيل[١]، حدثنا موسى بن المسيب[٢]، أخبرنى سالم بن أبى الجعد[٣]، عن سبرة

= الكمال»: وروى عن شعبة بن الحجاج سمع منه ما أملاه ببغداد وهو أربعة آلاف حديث ـ قال الحارث بن أبى أسامة: حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم الكنانى من بنى ليث من أنفسهم وهو من أهل خراسان، وكان يلقب قيصراً، وإنما لقب بقيصر أن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى، وكان على شرطة هارون الرشيد، دخل الحمام فى وقت صلاة العصر وقال للمؤذن: لا تقم الصلاة حتى أخرج، فجاء أبو النضر إلى المسجد وقد أذن المؤذن، فقال له أبو النضر: ما لك لا تقيم الصلاة؟ قال: أنتظر أبا القاسم، فقال له أبو النضر: أقم، فأقام الصلاة، فصلوا، فلما جاء نصر بن مالك قال للمؤذن: ألم أقل لك لا تقم حتى أخرج؟ قال: لم يدعنى هاشم بن القاسم وقال لى: أقم، قال نصر: ليس هذا هاشم، هذا قيصر تمثل بملك الروم فبقى هذا اللقب على أبى النضر، وقال الحارث: كان أحمد بن حنبل يقول: أبو النضر شيخنا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، قال الحارث: مات سنة سبع ومائتين.
انظر الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ١١/ ١٩ وتهذيب الكمال ١٩/ ٢١٤ ترجمة رقم (٧١٣٤).

(١) (**أبو عقيل الثقفى**) عبد الله بن عقيل، أبو عقيل الثقفى الكوفى، نزيل بغداد، مولى عثمان بن المغيرة الثقفى، روى عن إسماعيل بن أبى خالد، وعبد الله بن يزيد الدمشقى، وعبد الله بن يزيد ابن جابر، وروى عنه سريج بن النعمان الجوهرى وعاصم بن على بن عاصم، وعبد العزيز ابن بحر البغدادى، وعبيد الله بن موسى، وأبو النضر هاشم بن القاسم، وغيرهم، وقال أبو حاتم: شيخ، وقال أبو داود والنسائى: ثقة، وقال الدارقطنى: أثنى عليه أحمد وذكره ابن حبان فى كتاب الثقات، روى له الأربعة. انظر: المزى تهذيب الكمال، الترجمة رقم (٣٤٣١) ١٠/ ٣٤٦.

(٢) (**موسى بن المسيب**) ويقال: موسى بن السائب الثقفى، أبو جعفر الكوفى البزار، من الذين عاصروا صغار التابعين عند ابن حجر: صدوق لا يلتفت إلى الأزدى فى تضعيفه، وعند الذهبى: صالح، قال المزى فى «تهذيب الكمال» قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبى يقول: موسى بن السائب هو أبو جعفر، ما أعلم إلا خيراً، وقال إسحاق بن منصور: عن يحيى بن معين: موسى بن المسيب صالح. وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وذكره ابن حبان فى كتاب «الثقات» روى له البخارى فى كتاب «أفعال العباد» والنسائى، وابن ماجه، وقال الأزدى: ضعيف، وقال يعقوب بن سفيان: لا بأس به انظر الحافظ ابن حجر: فى «تهذيب التهذيب» ١٠/ ٣٧٣، وانظر: المزى: تهذيب الكمال ١٨/ ٤٦٥ الترجمة رقم (٦٨٤٩).

(٣) (**سالم بن أبى الجعد**) رافع الغطفانى الأشجعى مولاهم الكوفى (أخو زياد، وعبد الله، وعبيد، بنى الجعد) من الوسطى من التابعين تاريخ الوفاة: ٩٧ أو ٩٨هـ وقيل ١٠٠هـ أو بعد ذلك.
روى له: البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه.
ابن حجر: ثقة، وكان يرسل كثيراً، قال الذهبى: ثقة، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: قال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين، وأبو زرعة، والنسائى: ثقة.
وقال محمد بن يحيى الذهلى: سمعت أحمد بن حنبل ـ وذكر أحاديث سالم بن أبى الجعد عن ثوبان فقال: لم يسمع سالم من ثوبان ولم يلقه، وبينهما معدان بن أبى طلحة، وليست هذه الأحاديث بصحاح.
وقال سفيان، عن منصور: قلت لإبراهيم: ما لسالم بن أبى الجعد أتم حديثًا منك؟ قال: لأنه كان يكتب (وقال أبو نعيم: مات سنة سبع وتسعين، أو ثمان وتسعين). =

ابن فـاكـهـة[1] قال: سـمعت رسول الله ﷺ قـال: «إن الشيطان قعَـدَ لابن آدم ما بأطرقه، فقـعد له بطريق الإسلام فقاله: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك فـعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة فـقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المـهاجر كمثل الفرس فى الطول فعصـاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جـهاد النفس والمال فقال: أتـقاتل فتقُـتل فتُنكح زوجتك ويقسم مـالك، فعصاه، قـال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله، أو قعصـته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن غـرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة»[2].

= وقال مطين: مات سنة مـائة، وقيل: سنة إحدى ومائة، وقال أبو نعيم: مـات سنة سبع أو ثمان وتسعـين، روى له الجماعة... انظر: الحـافظ ابن حجر «تهذيب التـهذيب» ٣/ ٤٣٢ وانظر: المزى: تهذيب الكمال ٧/ ٦ الترجمة رقم (٢١٢٤).

(١) **(سبـرة بن فـاكه)** سبرة بن الفاكـه، ويقال: ابن أبى الفاكه، ويقال: ابن الفاكـهة، ويقال: ابن أبى الفاكهة الأسدى (نزل الكوفة) روى له: النسائى.. صحابى، قال المزى فى «تهذيب الكمال» سبرة بن الفاكه، ويقال: ابن أبى الفاكه، ويقال: ابن الفاكهة، ويقال: ابن أبى الفاكهة، له صحبة، نزل الكوفة، له عن النبى ﷺ حديث واحد، وقال المزى: وفى إسناد حديثه اختلاف.

روى له النسائى، وقد وقع لنا حديثه بعلو، أخـبرنا به أبو الحسن ابن البخارى، وأبو الغنائم بن علان، وأحمد بن شيبان، قالوا: أخبـرنا حنبل بن عبد الله، قال: أخبرنا هبة الله بن الحصين، قال: تابعه محمد بن فضيل، عن موسى بن الـمسيب، ورواه طارق بن عبد العزيز، عن محمد ابن عجلان، عن مـوسى بن المسيب، عن سالم بن أبى الجعد، عن جـابر بن أبى سبرة، عن النبى ﷺ رواه النسائى، عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى، عن هاشم بن القاسم، فوقع لنا بدلا عاليا. اهـ.

انظر الحافظ ابن حجر «تهذيب التهذيب» ٣/ ٤٥٣، والمزى: ٧/ ٤٨ الترجمة رقم (٢١٦٢).

(٢) حـديث **(فمن فـعل ذلك منهم فمات فكان حـقا على الله أن يدخله الجنة)** أخبـرنا أبو على بن المذهـب، قال: أخبـرنا أبو بكر بن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحـمد، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا هاشم بن القاسم، قـال: حدثنا أبو عقيل ـ يعنى الثقفى عبـد الله بن عقيل ـ قال: حدثنا موسى بن المسـيب، قال: أخبرنى سالم بن أبى الجعد، عن سبـرة بن أبى فاكه، قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعـد لابن آدم بأطرقه فقعـد له بطريق الإسلام، فقـال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قـال: فعصـاه فأسلم، ثم قعـد له بطريق الهجرة، فـقال: أتهاجر وتذر أرضك وسـماك، وإنما مثل المـهاجر كمـثل الفرس فى الطول؟ قال: فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فـقال: هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكـح المـرأة ويقـسم المال، قال: فـعصاه فـجاهد قال رسول الله ﷺ: «فـمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة، =

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع[١]، حدثنا مسلم الفزارى[٢]، حدثنا جبير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم[٣]، سمعت عبد الله بن عمر[٤] يقول: (لم يكن رسول الله

= وإن عقر كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو قعصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة».

انظر: المزى تهذيب الكمال ترجمة سبرة بن الفاكه ٧/ ٤٨ الترجمة رقم (٢١٦٢) وانظر تهذيب التهذيب: ٣/ ٤٥٣.

(١) **(وكيع)** هو: وكيع بن الجراح بن مليح بن عدى الرؤاسى، أبو سفيان، من الحفاظ المتقنين وأهل الفضل فى الدين ممن رحل وكتب وجمع وصنف وحفظ وحدث وذاكر وبث، كان مولده سنة تسع وعشرين ومائة، ومات بفيد فى طريق مكة سنة ست وتسعين ومائة.

انظر: ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (١٣٧٤) وانظر: المزى: تهذيب الكمال: ١٩/ ٣٩١ الترجمة رقم (٧٢٨٩).

(٢) **(مسلم الفزازى)** الصحيح هو: عبادة بن مسلم الفزارى، أبو يحيى البصرى، ويقال: الكوفى، من الذين عاصروا صغار التابعين قال عنه ابن حجر: ثقة اضطرب فيه قول ابن حبان، وقال الذهبى: صحح الترمذى له.

قال المزى فى «تهذيب الكمال» روى له البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال إسحاق بن منصور، عن يحيى بن معين: ثقة، وكذلك قال النسائى، ذكره ابن حبان فى كتاب «الثقات» فيمن اسمه عباد، وكذلك ذكره فى كتاب «الضعفاء» أيضًا وقال: منكر الحديث، ساقط الاحتجاج بما يرويه، انظر: تهذيب التهذيب ٥/ ٩٨، ٩٩ والمزى: فى تهذيب الكمال: ٩/ ٤٤٣ الترجمة رقم (٣٠٩٣).

(٣) **(جبير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم)** النوفلى القرشى المدنى (أخو عثمان بن أبى سليمان، وابن عم جبير بن محمد وإخوته) من التابعين، روى له: البخارى وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه قال ابن حجر: ثقة، وكذلك الذهبى: ثقة... قال المزى فى «تهذيب الكمال» قال عثمان بن سعيد الدارمى، عن يحيى بن معين، وأبو زرعة: ثقة، روى له البخارى فى «الأدب» وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، حديثًا واحدًا فى الدعاء، وذكره ابن حبان فى «الثقات».

انظر الحافظ ابن حجر «تهذيب التهذيب» ٢/ ٦٣ وانظر: المزى: تهذيب الكمال: ٣/ ٣٢٩ الترجمة رقم (٨٨٥).

(٤) **(عبد الله بن عمر)** بن الخطاب القرشى العدوى، أبو عبد الرحمن المكى المدنى، من أولى العزم، من العبادلة الصحابة توفى ﵁ سنة ٧٣ أو ٧٤هـ، روى له: البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه (قال: شهد الأحزاب والحديبية، قال النبى ﷺ: «إن عبد الله رجل صالح»).

قال المزى فى «تهذيب الكمال» وقال جابر بن عبد الله: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به =

ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح، وحين يمسى: (اللهم إنى أسالك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى، وأهلى، ومالى، اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى)(١).

قال وكيع: يعنى الخسف.

= ومال بها، إلا عبد الله بن عمر، وقال سعيد بن المسيب: مات ابن عمر يوم مات، وما فى الأرض أحد أحب إلىَّ أن ألقى الله بمثل عمله منه، وقال الزهرى لا نعدل برأى ابن عمر، فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة، فلم يَخْفَ عليه شىء من أمره، ولا من أمر أصحابه، وقال مالك: بلغ ابن عمر ستا وثمانين سنة، وافى فى الإسلام ستين سنة، تقدم عليه وفود الناس، وقال نافع، عن ابن عمر: عُرضت على رسول الله ﷺ يوم بدر، وأنا ابن ثلاث عشرة، فردنى، وعُرضت عليه يوم أحد، وأنا ابن أربع عشرة فردنى، وعُرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازنى، وقال الزبير بن بكار: هاجر وهو ابن عشر سنين، وشهد الخندق وهو ابن خمس عشرة، ومات سنة ثلاث وسبعين، وكذلك قال أبو نعيم، وأبو بكر بن أبى شيبة، وأحمد بن حنبل وغير واحد فى تاريخ وفاته، وقال ابن يونس: شهد فتح مصر، وقال الواقدى، وكاتبه محمد بن سعد، وخليفة بن خياط، وغير واحد: مات سنة أربع وسبعين، روى له الجماعة، قال الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ٥/ ٣٣٠ وانظر: المزى: تهذيب الكمال: ١٠/ ٣٥٣ الترجمة رقم (٣٤٢٢).

(١) الحديث: **(سمعت رسول الله ﷺ، يقول فى دعائه حين يصبح وحين يمسى، لم يدعه حتى فارق الدنيا، أو حتى مات...).**

رواه البخارى فى «الأدب» والأربعة أخبرنا أبو الحسن بن البخارى، قال: أنبأنا محمد بن أبى زيد الكرانى، قال: أخبرنا محمود بن إسماعيل الصيرفى، قال: أخبرنا أبو الحسين بن فاذشاه، قال: أخبرنا أبو القاسم الطبرانى، قال: حدثنا على بن عبد العزيز، قال: حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى، قال: حدثنى جبير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم أنه كان جالسا مع ابن عمر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول فى دعائه حين يصبح وحين يمسى، لم يدعه حتى فارق الدنيا، أو حتى مات: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى، وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى».

قال جبير: وهو الخسف... رواه البخارى عن محمد بن سلام، ورواه أبو داود عن يحيى بن موسى البلخى، ورواه ابن ماجه عن على بن محمد جميعًا، عن وكيع عن عباد بن مسلم، نحوه، ورواه النسائى عن عمرو بن منصور عن أبى نعيم فوقع لنا بدلا عاليًا بدرجتين، ورواه =

رواه أبو داود(١) والنسائى(٢) . . .

= أيضًا عن محمـد بن الخليل عن مروان بن معاوية عن على بن عبد العـزيز عن عبادة بن مسلم ببعـضه، فـوقع لنا باعتـبار هذه الرواية عالـيًا بثلاث درجـات، وباعتـبار باقى الروايات عـاليًا بدرجتين.

انظر المزى: تهـذيب الكمال ترجمة عـبادة الفزارى المتقـدمة وانظر: أيضًا: تهذيـب التهذيب ١١٣/٥.

(١) (أبـو داود) هو: سليمان بن الأشـعث بن إسحاق بن بشير بن شداد (وقـيل غير ذلك) الأزدى السجستانى، أبو داود، الحـافظ أوساط الآخذين عن تبع الاتباع، توفى سنة ٢٧٥هـ، روى له: الترمـذى والنسائى، قال ابن حجـر: ثقة حافظ، مصنـف «السنن» وغيرها، من كبـار العلماء، وقـال الذهبى: الحافظ، صـاحب السنن، ثبت حـجة إمـام عامل، قـال المزى فى «تهـذيب الكمـال» وكـان أبو داود أحـد من رحـل وطوَّف وجـمع وصنَّف وكـتب عن العـراقـيـين والخراسانيين، والشاميين والمصريين والجزريين والحجازيين وغيرهم.

وقال المزى: وروى النسـائى فى «السنن» عن أبى داود، عن سليمان بن حـرب، وعبد الله بن محمد النفيلى، وعبد العزيز بن يحيى الحرانى، وعلى بن المدينى، وعمرو بن عون الواسطى، ومـسلم بن إبراهيم، وأبى الوليـد الطيـالسى، وروى فى كـتـاب «يوم وليلة» عن أبى داود عن محمد بن كثير العبدى، والظـاهر أن أبا داود فى هذا كله هو السجستانى، فإنه معروف بالرواية عن هؤلاء، وقد شاركـه أبو داود سليمان بن سيف الحزانى فى بعضـهم، وروى عنه فى كتاب «الكنى» وسماه ولم يكنه، ذكـر الحافظ أبو القاسم فى «المشايـخ النبل» أن النسائى أيضًا روى عنه وذكر لـه، عنه فى «الموافقـات» حديثًـا واحدًا، وقد وقع لنـا عنه بعلو فى جملة كـتاب: «السنن» وقال محمـد بن إسحاق الصاغانى، وإبراهيم بن إسحـاق الحربى: لما صنف أبو داود كتـاب «السنن» ألين لأبى داود الحديث كـما ألين لداود الحديد، وكـذلك قال غيـر واحد فى تاريخ وفاته، وكانت بالبصرة، وقد تقدم ذكر مولده أنه سنة اثنتين ومائتين.

قال الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ١٧٢/٤ وانظر: المزى: فى تهذيب الكمال: ٨/ ٥ الترجمة رقم (٢٤٧٤).

(٢) (النســـائى) أحمـد بن شعيب بن على بن سنان بن بحـر بن دينار، أبو عبد الرحـمن النسائى (صاحب كتاب السنن) المولد: ٢١٥هـ بنساء، الوفاة: ٣٠٣ هـ بفلسطين، وقيل: مكة.

قال المزى فى «تهذيب الكمال» قال أبو أحمد بن عدى الحافظ: سمعت منصورًا الفقيه وأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى يقولان: أبو عبد الرحمن النسائى إمام من أئمة المسلمين، وقال أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى الصوفى: سألت أبا الحسن على بن عمر الدارقطنى الحافظ، فقلت: إذا حدث محـمد بن إسحاق بن خزيمة وأحمد بن شعـيب النسائى حديثًا من تقدم منهمـا؟ قال: النسائى، لأنه أسند، على أنى لا أقدم على النسـائى أحدًا، وإن كان ابن =

وابن ماجه(١) وابن حبان(٢) . . . .

= خزيمة إمامًا ثبتًا معدوم النظير، قال: وكان أبو عبد الرحمن يؤثر لباس البرود النوبية الخضر ويقول: هذا عوض من النظر إلى الخضرة من النبات فيما يراد لقوة البصر، وكان يكثر الجماع مع صوم يوم وإفطار يوم، وكان له أربع زوجات يقسم لهن، ولا يخلو مع ذلك من جارية واثنتين يشترى الواحدة بالمائة ونحوها، ويقسم لها كما يقسم للحرائر، وكان قوته فى كل يوم رطل خبز جيد يؤخذ له من سويقة العرافين لا يأكل غيره، صائمًا كان أو مفطرًا، وكان يكثر أكل الديوك الكبار، تشترى له، وتسمن ثم تذبح فيأكلها، ويذكر أن ذلك ينفعه فى باب الجماع، وسمعت قومًا ينكرون عليه كتاب «الخصائص» لعلى رضي الله عنه وتركه لتصنيف فضائل أبى بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولم يكن فى ذلك الوقت صنفها فحكيت له ما سمعت، فقال: دخلنا إلى دمشق والمنحرف عن على بها كثير فصنفت كتاب «الخصائص» رجاء أن يهديهم الله، ثم صنف بعد ذلك فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، وقرأها على الناس، توفى بفلسطين يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاث مائة.

وكذا قال أبو جعفر الطحاوى: إنه مات فى صفر سنة ثلاث وثلاث مائة بفلسطين، قال الذهبى فى مختصره: عاش ثمانيا وثمانين سنة، وقيل: إنه مات بالرملة ودفن ببيت المقدس. اهـ.

انظر الحافظ ابن حجر «تهذيب التهذيب» ١/ ٣٩ وانظر: المزى: تهذيب الكمال: ١/ ١٥١ الترجمة رقم (٤٥).

(١) **(ابن ماجه)** هو: أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعى مولاهم القزوينى الحافظ، صاحب كتاب السنن والتفسير، سمع بخراسان العراق والحاجز ومصر والشام وغيرها، روى عنه خلق منهم أبو الطيب البغدادى وإسحاق بن محمد القزوينى وعلى بن سعد العسكرى وأبو الحسن على بن إبراهيم القطان. . . قال الخليلى: ثقة كبير متفق عليه محتج به له معرفة بالحديث وحفظ ومصنفات فى السنن والتفسير والتاريخ وكان عارفًا بهذا الشأن، مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين انظر: المزى: تهذيب الكماال: ١٧/ ٣٥٥ الترجمة رقم (٦٣٠٠) وانظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٩/ ٤٦٩.

وانظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٢٨٢ الترجمة رقم (٦٣٥).

(٢) **(ابن حبان)** ابن حبان الحافظ العلامة أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن هدية بن مرة بن سعد التميمى البستى، صاحب التصانيف، سمع النسائى والحسن بن سفيان وأبا يعلى الموصلى وولى قضاء سمرقند، وكان من فقهاء الدين وحفاظ الآثار، عالمًا بالنجوم والطب وفنون العلم، صنف المسند الصحيح والتاريخ والضعفاء وفقه الناس بسمرقند، قال الحاكم: كان من أوعية العلم فى الفقه والحديث واللغة والوعظ، ومن عقلاء الرجال وكانت الرحلة إليه، وقال الخطيب: كان ثقة نبيلا فهمًا وقال ابن الصلاح: ربما غلط الغلط الفاحش، مات فى شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهو فى عشر الثمانين.

انظر: طبقات الحفاظ: ١/ ٣٧٥.

والحاكم[١] من حديث عبادة بن مسلم[٢].

وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

---

(١) (الحاكم) الحافظ الكبير إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن حمدويه بن نعيم الضبى الطهمانى النيسابورى، يعرف بابن البيع، صاحب المستدرك والتاريخ وعلوم الحديث والمدخل والإكليل ومناقب الشافعى وغير ذلك، وكان إمام آلاف فى الحديث العارف به حق معرفته صالحًا ثقة يميل إلى التشيع، وعنه: شربت ماء زمزم وسألت الله أن يرزقنى حسن التصنيف، قال أبو عبد الرحمن السلمى، سألت الدارقطنى أيهما أحفظ: ابن منده أو ابن البيع فقال: ابن البيع أتقن حفظا، وقال ابن طاهر قلت لسعد بن على الزنجانى الحافظ: أربعة من الحفاظ تعاصروا أيهم أحفظ؟ قال: من؟ قلت: الدارقطنى ببغداد، وعبد الغنى بمصر، وابن منده بأصبهان، والحاكم بنيسابور، فسكت، فألححت عليه فقال: أما الدارقطنى فأعلمهم بالعلل، وعبد الغنى أعلمهم بالأنساب، وأما ابن منده فأكثرهم حديثًا مع معرفة تامة، وأما الحاكم فأحسنهم تصنيفًا، دخل الحاكم الحمام ثم خرج فقال آه فأتى وهو متزر لم يلبس قميصه وذلك فى سنة خمس وأربعمائة.

انظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٤١٠ وابن قنفذ القسنطينى: كتاب الوفيات: (٢٩٩).

(٢) (عبادة بن مسلم) تقدمت ترجمته.

مجلس في:

بيان أبناء سيدنا آدم

عليه السلام: هابيل وقابيل

في خمس آيات من سورة المائدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب، أما بعد.

فهذا مجلس فى بيان أبناء سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ هابيل وقابيل فى خمس آيات من سورة المائدة: قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ (المائدة: ٢٧) أى اتل على الناس جميعًا، أو على أهل الكتاب ليعلموا سوء عاقبة الحسد ليجتنبوا الحسد، والبغى.

وقيل: لأن الحسد أول ذنب صدر فى السماء عن إبليس فى حق آدم، عليه السلام، وأول ذنب صدر فى الأرض من ابن آدم قابيل فى حق أخيه هابيل، ونشأ من الحسد قتل النفس بغير حق، وعقوق الوالدين، واستحلال محارم الله، وهو الكفر.

روى البخارى، عن عبد الله، عن رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل»[(١)].

---

(١) حديث (**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل**).

حدثنا عبد الله حدثنى أبى ثنا يحيى عن سفيان ثنا سليمان عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله عن النبى ﷺ قال: «ثم لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم كفل من دمها، ذاك أنه أول من سن القتل) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٣ الحديث رقم (٣٦٣٠) و ١/ ٤٣٠ الحديث رقم (٩٢٤٠) وابن أبى شيبة ٧/ ٢٦٩ وابن ماجه ٢/ ٨٧٣ والبيهقى فى السنن الكبرى ٨/ ١٥ والبخارى فى صحيحه ١/ ٤٣١، ومسلم ٣/ ١٣٠٣.

وروى الترمذى وأبو داود عن أبى بكرة[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا ـ مع ما يدخر له فى الآخرة ـ من البغى وقطيعة الرحم)[(٢)].

(النبأ) هو الخبر المسموع المتلو، والمراد من «ابنَىْ آدم» ابناه لصلبه، وهما: هابيل وقابيل.

وما روى عن الحسن وغيره: أنهما رجلان من بنى إسرائيل فيكونان من سبطين لآدم لا من صلبه، بقرينة قوله ـ تعالى ـ عقيب تلك القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ

---

(١) (أبو بكرة) الثقفى الطائفى، مولى النبى ﷺ، اسمه: نفيع بن الحارث، وقيل: نفيع بن مسروح تدلى فى حصار الطائف ببكرة، وفر إلى النبى ﷺ وأسلم على يده، وأعلمه أنه عبد فأعتقه، روى جملة أحاديث، حدث عنه بنوه الأربعة: عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز ومسلم وأبو عثمان النهدى والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وعقبة بن صهبان وربعى بن حراش والأحنف بن قيس وغيرهم، سكن البصرة وكان من فقهاء الصحابة، ووفد على معاوية، وأمه سمية فهو أخو زياد ابن أبيه لأمه، قال ابن المدينى: اسمه: نفيع بن الحارث، وكذا سماه ابن سعد، قال ابن عساكر: أبو بكرة بن الحارث بن كلدة بن عمرو، وقيل: كان عبداً للحارث ابن كلدة فاستلحقه، وسمية هى مولاة الحارث، تدلى من الحصن ببكرة فمن يومئذ كنى بأبى بكرة، وممن روى عنه ولداه رواد وكيسة، وكان أبو بكرة ينكر أنه ولد الحارث ويقول أنا أبو بكرة مولى رسول الله ﷺ فإن أبى الناس إلا أن ينسبونى فأنا نفيع بن مسروح، وقصة عمر مشهورة فى جلده أبا بكرة ونافعًا وشبل بن معبد لشهادتهم على المغيرة بالزنى ثم استتابهم فأبى أبو بكرة أن يتوب وتاب الآخران، فكان إذا جاءه من شهده يقول: قد فسقونى، توفى سنة ٥١هـ رضي الله عنه.

الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥ انظر: تهذيب الكمال: ٣٣/ ١٦١ وانظر أيضًا: ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٦/ ٢٩٦ وانظر أيضًا: تقريب التهذيب: ص٥٦٥، رجال صحيح البخارى: ٢/ ٧٥٢ عبد الباقى بن قانع: معجم الصحابة ٣/ ١٤٢/ ١١١٧ ابن حجر: الإصابة ٦/ ٤٤٦/ ٨٧٩٩.

(٢) حديث: **(ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة...)**.

أورده السيوطى فى جامع الأحاديث وقال: رواه أحمد بن حنبل فى مسنده والبخارى فى الأدب وأبو داود فى السنن والترمذى فى السنن أيضًا، وابن ماجه فى السنن وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك، كلهم عن أبى بكرة رضي الله عنه انظر جامع الأحاديث ٥/ ٥٧٩) الحديث رقم (١٨٧٧٤) والحديث رقم (١٨٧٧٥) وفيه زيادات وهى رواية الطبرانى فى الكبير.

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (المائدة: ٣٢) الآية، لأن الكتب على بنى إسرائيل للحسد والبغى الواقعين هو المناسب دون الحسد فى أبناء آدم من صلبه لبعده ويرده ويبطله قوله تعالى: **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾** الآية، فى هذه القصة، لأنه يقتضى أن يكون هذا القتيل أول ميت على وجه الأرض حتى لا يعلم كيفية دفنه.

فالحق هو الأول.

روى: أن آدم ـ عليه السلام ـ بعد هبوطه إلى الأرض لما تغشى حواء وذلك بعد مائة سنة من هبوطه حملت وجاءت بولدين: ذكر اسمه قابيل، وأنثى اسمها (اقليما) وبعد سنتين حملت وولدت هابيل وأخته (ليوذا) وهكذا بعد كل سنتين.

قال أكثر العلماء: جاءت بأربعين ولدًا ذكرًا وأنثى فى عشرين بطنًا، ولم يمت، عليه السلام، حتى رأى أربعين ألفًا من أولاده، وأولاد أولاده.

وقال فى التيسير: ولدت حواء ألف ولد فى خمس مائة بطن وعمرها ألف سنة، وأمر آدم أن يزوج كل أنثى فى بطن للذكر فى البطن الآخر، فلما بلغ هابيل عشرين سنة وقابيل اثنتين وعشرين سنة أراد آدم عليه السلام تزويج إقليما لهابيل، وتزويج ليوذا لقابيل، على ما هو الشرع عنده، فلم يرض قابيل أمر الله، لأن أخته كانت حسناء، فقال آدم عليه السلام: هذا أمر الله، قال قابيل: لا، بل من عندك لأنك تحب هابيل أكثر منى، قال آدم، عليه السلام: فقربا قربانين، فقربان أيكما تُقبل تزوج إقليما، فعمد هابيل ـ وكان صاحب ضروع ـ إلى أحسن كبش فى غنمه فقربه، وعمد قابيل ـ وكان صاحب زروع، فعمد إلى حنطة كانت عنده فقربه، فجاء آدم ـ عليه السلام ـ بقربانهما، ولم يكن إذ ذاك فقير يتُصدق عليه، كما لم يكن نسوة غير بنات آدم، فلذا يزوجهن أبناءه، فوضعا قربانيهما على جبل، ودعا آدم عليه السلام فجاءت بيضاء لا دخان فيها، فأكلت قربان هابيل ورجعته، حتى قيل: إنه هو الكبش الذى جاء به جبريل ـ عليه السلام إبراهيم ـ صلوات الله على نبينا وعليه ـ حين فداء الذبيح به من الجنة، ولم تأكل قربان قابيل ولم ترفعه فبقى على الحجر، فاشتد غيظ قابيل على أخيه وحسده وذلك قوله: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾** صفة مصدر محذوف، أى تلاوة ملتبسة بالصدق أو بالحكمة، والغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد، وعقوق الوالدين، وعدم الرضاء بالقضاء، أو صفة نبأ، أى : النبأ الملتبس بالصدق ومطابقة الواقع وموافقة

الكتابين، أو حال من فاعل «اتل» أى اتل أنت ملتبسًا بالجد والغرض الصحيح لا بالهزل ولا للتفكه كما فى أسماء الليل.

﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ ظرف لـ ﴿نَبَأَ﴾ لأنه فى الأصل مصدر بمعنى الإنباء، وذلك يكفى فى الظرف أو صفته له، والقربان كل ما يُتقرب إلى الله من ذبيحة، أو صدقة، أو غير ذلك، وإفراده لأنه فى الأصل مصدر يطلق على الواحد وغيره، أو المراد قرَّب كل واحد قربانًا.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ هابيل، لأنه أخلص النية ورضى بالقضاء، وقرب أحسن ما عنده ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ قابيل، لخبث نيته وسوء عقيدته بعدم الرضا بالقضاء، وقرَّب أردأ ما عنده.

﴿قَالَ﴾ الآخر: أى قابيل ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ يا هابيل، لأنى لا أتخلص من ألم الحسد المضاف بعدم تقبل قربانى، ومن خوف تزوجك أختى الحسناء إلا بقتلك.

﴿قَالَ﴾ هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ﴾ الأعمال كلها ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الرياء والشرك وسوء العقيدة وخبث النية، كلام جامع لمعانٍ، أى: ما جاءك من آفة عدم التقبل من قِبَلِ نفسك لا من قبلى لأنك لم ترض بقضاء الله، ولم تخلص النية فجاهد فى نفسك، وقاتلها حتى تكون مرضيًا عند الله، ومالك لا تقتل نفسك الأمارة بالسوء بمطاوعة حكم الله وموافقة أبيك النبى، وتهم بقتلى، فاتق الله حتى يقبل قربانك، فهو من أسلوب الحكيم.

﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ اللام موطئة للقسم المحذوف ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ أى مددت إلىَّ يدك لقتلى ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ جواب القسم، أى ما أنا بمادٍ.

﴿يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ لقتلك.

ومجيء الجملة الاسمية فى الجواب وتأكيد النفى بالباء للمبالغة، أى: أنا متصف بهذه الصفة النحوية، وهى: باسط يدى إليك أبدًا، لا فى القديم الماضى، ولا فى الحادث الحال، والمستقبل، ثم علله بعلتين:

إحدهما: الباعثة المتقدمة وهى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وكان دفع الصائل فى شرعهم محرمًا، بل الواجب كان عليهم الاستسلام، ولذا قال:

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أو كان ذلك الأفضل كما فى شرعنا عند وقوع الفتنة بين

المسلمين، ولذا استسلم عثمان ـ رضي الله عنه ـ لقتله، لقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل»(١).

وترك الأفضل عند المقربين كالذنب ولذا قال: ﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾.

والثانية: العلة الغائبة المتأخرة وهى قوله: ﴿إِنِّى أُرِيدُ﴾ وترك العطف لإفادة استقلال كل منهما فى وجود الحكم ﴿أَن تَبُوءَ﴾ أى: ترجع إلى الله يوم القيامة، أو تصير حقيقًا ﴿بِإِثْمِى﴾ بإثم قتلى إن فعلته.

﴿وَإِثْمِكَ﴾ أى: الحسد فى عقوق الوالدين وعدم الرضا بقضاء الله، أو بمثل إثمى بسبب عزمى على قتلك لحملك إياى عليه لقولك: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ فأنا أدفع نفسى

---

(١) حديث: (كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل):

حدث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى وصف الفتن: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل» هذا الحديث لا أصل له من حديث حذيفة، وإن زعم إمام الحرمين فى النهاية أنه صحيح فقد تعقبه ابن الصلاح، وقال: لم أجده فى شىء من الكتب المعتمدة، وإمام الحرمين لا يعتمد عليه فى هذا الشأن. انتهى. وقد أخرج مسلم من طريق أبى سلام عن حذيفة قال: قلت: يا رسول الله إنا كنا بشر فجاءنا الله بخير فنحن فيه فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: «نعم...» الحديث، وفيه تسمع وتطيع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع، وقد روى الطبرانى من حديث شهر بن حوشب عن جندب بن سفيان فى حديث قال فى آخره «...فكن عبد الله المقتول» ومن حديث خباب مثل هذا، وزاد: «ولا تكن عبد الله القاتل» ورواه أحمد والحاكم والطبرانى أيضًا وابن قانع من حديث حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى عثمان عن خالد بن عرفطة بلفظ: «ستكون فتنة بعدى وأحداث واختلاف، فإن استطعت أن تكون عبد الله المقتول لا القاتل فافعل» وعلى بن زيد هو ابن جدعان ضعيف، لكن اعتضد كما ترى، وقوله فى بعض الأخبار: (كن خير ابنى آدم) يعنى قابيل وهابيل، أحمد والترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص أنه قال: ثم فتنة عثمان، أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير...» الحديث، وفيه فإن دخل على بيتى وبسط يده إلى ليقتلنى، قال: «كن كابن آدم» ورواه أحمد من حديث ابن عمر بلفظ ما يمنع أحدكم إذا جاء أحد يريد قتله أن يكون مثل ابن آدم، القاتل فى النار، والمقتول فى الجنة» وروى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الفتنة (كسروا فيها قسيكم وأوتاركم).

انظر: ابن حجر العسقلانى: تلخيص الحبير: ٤/ ٨٤ الحديث (١٨١٠، ١٨١١).

وانظر: ابن الملقن فى: خلاصة البدر المنير: ٢/ ٣٣٠ الحديث رقم (٢٨٤١).

فلا أقتلك، فإثم عزمى يحط عنى لرجوعى عنه، ويبقى مثله عليك لتسببك إياه، وإثمك إثم قتلى أو إثمى لأنى مظلوم.

وقد جاء فى الحديث: (إذا لم يكن للظالم حسنات يوم القيامة يؤخذ من سيئات المظلوم فيحمل على الظالم ثم يطرح فى النار).

﴿وَإِثْمِكَ﴾ بسبب قتلك إياى وغيره.

وما فَسَّرَ به الشيخان، والكشاف والقاضى: بمثل إثمى المفروض لو قتلتك... إلى آخر ما قالا، فعنه مندوحة بما ذكر لأن فيه تكلفًا لا بحق وإرادة إثم نفسه، وغيره لا يجوز، فالكلام إما على حذف المضاف، أى عقوبة إثمى.

ويجوز على إرادة عقوبة الظالم، أو على الكناية، أى: أريد أن لا يقع هذا القتل والفعل الشنيع، فإن وجد فلا يكون إلا منك، فمراده عدم وقوعه منه أولاً وبالذات، لا وقوعه من أخيه، لكن يلزمه على تقدير الوقوع وقوعه من أخيه.

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لكفرك بإنكار حكم الله ـ تعالى ـ واستحلال المحرم. وذيَّله بقوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيدًا.

﴿فَطَوَّعَتْ﴾ أى بعد كلام هابيل بهذا الوعظ البليغ، والزجر الشديد، ولم يتأثر قابيل لسوء عقيدته وكفره بالله، ولخبث سريرته سهلت وزينت ووسعت من طاع المرتع، أى اتسع ﴿لَهُ﴾ لزيادة الربط، كقولك: حفظت لزيد ماله، إذا كان يكفى حفظت مال زيد.

﴿نَفْسُهُ﴾ الأمارة بالسوء.

﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ بأن جاءته بوساوس حملته عليه ﴿فَقَتَلَهُ﴾ بعد التطويع على الفور، ولم يتفكر أصلاً.

قيل: كان هابيل أشد منه بطشًا لكن استسلم لقضاء الله، وقيل: وجده نائمًا فقتله غيلة، وهو الظاهر.

قيل: لم يعلم كيف يقتله، فجاء إبليس بطير فشدخ رأسه بالحجر فتعلم الملعون فرفع حجرًا عظيمًا فألقى على رأسه فى منامه فشدخ به رأسه فقتله.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينًا لأنه كفر بحكم الله وقضائه، وأنكر نبى الله وقطع الرحم، وعق والديه، وقتل نفسًا بغير حق، ودنيا لأنه طرد من بين يدى والديه

وإخوته، واسود جسده بذنبه وأخذ بيد أخته، فهربا إلى أقصى اليمن، فزنيا وولدا أولاد زنا.

ثم بعد ذلك لم يعلم مواراة جسد أخيه، فحمله على ظهره ثلاثة أيام.

وقيل: أربعين يومًا، وقيل: أكثر.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ﴾ ينقر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لدفن شيء، كما هو عادة الغراب يدفن ما وجده، وقيل: لدفن غراب آخر قتله ﴿لِيُرِيَهُ﴾ الله إن تعلق ببعث أو ببحث، لأن فعل مخلوقه، أو الغراب على أن اللام متعلق ببعث، وهى لام العاقبة، ففعل ذلك ليريه، أى: يعلمه.

﴿كَيْفَ﴾ حال من فعل ﴿يُوَارِي﴾ أى: على أى حال يوارى قابيل ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عورته وجسده كله، لأن جسد الميت مما يسوء ويكرهونه، والجملة الاستفهامية متعلقة ليريه سادة مسد مفعوليه، لأن الإراءة بمعنى الإعلام، لها ثلاثة مفاعيل، قال قابيل بعدما تعلم من الغراب دفن أخيه ودفنه وتخلص عن حمله، تحسرًا على حمله وعدم اهتدائه إلى دفنه وعدم إلهام الله له الدفن، كما ألهم الغراب، فكان أبعد من الغراب.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ الألف عوض عن الياء، والويلة الهلكة، والنداء الاستغاثة والتعجب يعنى: يا ويلتى ويا هلاكى تعال فهذا أوانك، لأموت وأتخلص من هذا الندم ﴿أَعَجَزْتُ﴾ والاستفهام أيضًا للتعجب.

﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فى الاهتداء إلى دفن الأخ.

﴿فَأُوَارِيَ﴾ عطف على ﴿أَكُونَ﴾ والفاء لتسبيب الكون المذكور للمواراة، ولا وجه لجعله جوابًا للاستفهام لأن مدخول حرف الاستفهام، أعنى العجز ليس سببًا للمواراة بل عدمه سبب لها، وجعله للإنكار وإرجاعه إلى سببه عدم العجز للموارة تكلف مستغن ﴿سَوْءَةَ أَخِي﴾ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ لأجل ما ذكر من الوجوه، لا للخوف عن عقاب الله، وللتوبة، وإلا قيل: وكان موضع القتل مكان المسجد الأعظم ببصرة، وقيل: عند عقبة حراء.

روى أن آدم، عليه السلام كان فى طواف مكة عند قتل قابيل أخاه، فزلزلت الأرض سبعة أيام لأول دم حرام وقع عليها، وشوكت الأشجار ولم يكن قبله شوكت،

واغبر وجه الأرض بالزلزلة، وأمرّت مياه البحار وكانت عذبة قبله، فسأل آدم جبريل ـ عليهما السلام ـ فقال: قتل ابنك قابيل أخاه هابيل، فلذا اضطرب العالم، فرثى آدم ـ عليه السلام ـ ابنه هابيل بكلمات منثورة مسجعة حتى صارت على الألسن إلى أن وصلت إلى العرب من قحطان أول من تكلم بالعربية، فنظر إليها فقدم وأخّر إلى أن صارت شعرًا، وهى هذه:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح

فقوله: بشاشة: منصوب تمييز أو سقوط التنوين بضرورة الوزن.

والوجه المليح: مرفوع فاعل (قل) فلا إقواء ولا خلل، ثم قال:

وَمَا لِىَ لا أَجودُ بِسَكْبِ دَمْعِى وَهَابيل تَضَمَّنَه الضَّرِيحُ
أرى طَولَ الحياةِ عَلىَّ غَمًّا فَهل أنا من حَياتى مُسْتَرِيحُ

ثم قال آدم ـ عليه السلام ـ لقابيل: أين أخوك؟ قال: ما كنت عليه رقيبًا، قال: بل قتلته، ويناديني دمه من الأرض، فاذهب طريدًا شريدًا ملعونًا، فذهب إلى اليمن، وبقى آدم ـ عليه السلام ـ مائة سنة لا يضحك.

ثم بعد ذلك بخمس سنين تولّد «شيث» نبى الله ـ عليه السلام ـ ومعنى (شيث): بالعربية هبة الله، أى: خلفًا عن هابيل، ثم آدم ـ عليه السلام ـ جعله ولى عهده ووصيّه، وعلمه الله ساعات الأيام والليالى والعبادات فى كل منها، ثم لما تم عمر آدم، ـ عليه السلام ـ جاءه ملك الموت فقال آدم ـ عليه السلام: بقى من عمرى أربعين سنة، قال الملَك: وهبته لداود ـ عليه السلام ـ فجحد فكمل الله عمره، ثم جاءه الموت فحضرته الملائكة، وكانت حواء عنده تدور حوله، فأخرجها من عنده وقال: أنت أخرجتنى من الجنة، اخرجى حتى تدخل الملائكة، فحضروا موته ثم غسلوه وكفنوه، وحنطوه، وصلّوا عليه ودفنوه فى سرنديب، وقالوا: يا بنى آدم هذه سنتكم فى موتاكم.

ثم إن نوحًا، عليه السلام، جعل تابوت آدم، عليه السلام، فى السفينة، ثم قيل: دفنه بأبى قبيس بمكة، روى الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وميضًا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال:

أى رب، من هؤلاء؟ قال: ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجب وميض ما بين عينه، قال: أى رب من هذا؟ قال: داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة قال: رب زده من عمرى أربعين سنة) قال رسول الله ﷺ: (فلما انقضى عمر آدم عليه السلام، إلا أربعين، جاءه ملك فقال آدم، عليه السلام: أولم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود، فجحد آدم، عليه السلام، وجحدت ذريته، ونسى آدم، عليه السلام، فأكل الشجرة فنسيت ذريته وخطأ وخطأت ذريته)[1].

انتهى من مشكاة المصابيح.

ثم بعد ذلك جاء الشيطان قابيل فقال: أتعرف بماذا أكل النار قربان أخيك؟ قال: لا، قال: لأنه كان يعبد النار، فعبد قابيل وأولاده النار، فبنى بيت النار فجعل ابنًا له أعمى لكن فى غاية القوة والبطش خادمًا للنار، وأمره أن كل من يجىء النار ولم يعظمها ألقه فى النار، ثم بعد زمان جاء قابيل يقوده الابن الأعمى يطوف على النار فظن الأعمى أنه غير أبيه وهو يهين النار فأخذ أباه وطرحه فى النار، لعنه الله تعالى، وصاح ابن الأعمى فقال: قتلت أباك فلطمه لطمة فقتله، ثم بعد ذلك قال: قتلت أبى برمية وقتلت ابنى بلطمة.

---

(١) حديث: (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة...).

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله لصاحب حدثنا أحمد بن مهران حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم لما خلق الله آدم مسح ظهره فخرج من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصًا من نورهم ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، قال: فرأى رجلا منهم أعجبه وبيص ما بين عينيه، قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: يا رب كم جعلت عمره قال ستون، قال: أى رب فزده من عمرى أربعين سنة، قال: إذن يكتب ويختم ولا يبدل، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أولم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود، قال فجحد فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته، وخطئ فخطئت ذريته هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

انظر الإمام أبو عبد الله الحاكم: المستدرك: ٢/ ٦٤٠ الحديث رقم (٤١٣٢).

والترمذى ٥/٢٦٦، ومجمع الزوائد ٨/٢٠٦ والبيهقى فى السنن الكبرى: ٦/٣٤٧.

ثم إن أولاد قابيل اتخذوا الطنابير والمزامير وآلات اللهو والخمور وكثر الزنا فيهم، وسائر الفسوق حتى أهلكهم بالطوفان زمن نوح، عليه السلام، دمرهم الله تدميراً، وأوصلهم إلى جهنم وبئست مصيراً، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

مجلس في:

بيان قصة سيدنا إدريس

نبي الله، صلوات الله على نبينا وعليه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

أما بعد، فهذا مجلس في بيان قصة سيدنا إدريس نبي الله ـ صلوات الله على نبينا وعليه.

وهو: إدريس، اسمه في التوراة: «أُخنوخ» بضم الهمزة، وقيل: بفتحها، ابن برد ابن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث، نبي الله ابن آدم ـ عليه السلام ـ ولد في سنة ألف ومائة وستين، أو عشرين من هبوط آدم ـ عليه السلام، وهو أول مرسل بعد آدم ـ عليه السلام ـ وأول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا يلبسون قبل ذلك الجلود، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ويسميه المنجمون: هُرْمُس، ويثبتون له «تمودارا» في المواليد، وأول من اتخذ المكاييل والموازين، وأول من اتخذ السلاح، وأول من قاتل الكفار أولاد قابيل.

ذكره الله ـ تعالى ـ وقصته إجمالاً في آيتين من سورة مريم، كما قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ﴾: عطف على «اذكر» السابق.

﴿فِي الْكِتَابِ﴾: أي القرآن النازل عليك ﴿إِدْرِيسَ﴾ (مريم: ٥٦): أي: قصته، على حذف المضاف، وهو اسم أعجمي بدليل منع صرفه لأن فيه العَلَمِيَّة لا غير من أسباب منع الصرف، ولو كان عربيًا لانصرف، ويحتمل أن يكون معناه في اللغة العجمية موافقًا لمعنى كثير الدرس، أي المدرس في لغة العرب، إذ روى أنه أنزل عليه ثلاثين صحيفة فكان يدرس الصحف على التوالي، وكان ـ عليه السلام ـ مواظبًا على الطاعة حتى يروى أنه كان يرفع له كل يوم وليلة من الأعمال مثل ما يرفع من جميع أهل الأرض في زمانه.

وقيل: كان أكثر عمله التفكر فى آلاء الله، فإن التفكر فى ساعة يوازى عمل سنين كثيرة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم: ٥٦) ومعنى الصديق بحسب اللغة: البليغ الصدق والملازم عليه، وكثير التصديق بغيوب الله وآياته وكتبه ورسله، ومعنى النبى المخبر عن الله، والنبى أخص من الصديق لأن كل نبى صدِّيق وليس كل صديق بنبى.

وفسر ناصر الدين عمر الدين البيضاوى: الصديق والنبى فى سورة النساء، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) تفسير يتعجب منه الآذان، شكر الله مساعيه.

فقال: النبى ﷺ: هو الكامل فى العلم والعمل المتجاوز حد الكمال إلى درجة التكميل للنفوس الناقصة.

والصِّدِّيق: هو الذى صعدت نفسه القدسية تارة بمراقى النظر فى الحجج والآيات، وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، فيرى الأشياء ويخبر عنها على ما هى عليه.

والشهيد: هو الذى أدّى به الحرص فى طاعة الله تعالى ـ والجد فى إظهار الحق إلى أن بذل مهجته فى سبيله.

والصالح: هو الذى صرف عمره فى طاعة الله، وماله فى مرضاة الله تعالى.

ثم قال: ولك أن تقول:

النبى: هو الذى أخبر عن عيان ونال مع ذلك درجة القرب فكان كمن يرى الشىء عن قريب.

والصدِّيق: نال العيان ولم ينل درجة القرب، فكان كمن يرى الشىء عن بعيد.

والشهداء: جمع شاهد، وهو العالم النائل إلى الحقيقة الأشياء بالبرهان لا بالعيان، وهو الحجة على الخلق وأمثاله شهداء الله فى أرضه.

والصالح: هو الذى قلد العلماء المجتهدين وقنع بأمارات وعمل بفتواهم، وصرف عمره فى تحصيل مرضاة الله ـ تعالى، جعلنا الله منهم ـ آمين.

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧).

قال أكثر العلماء: يعنى شرف النبوة ورفعة الرسالة، كما قال النابغة:

بلغنا السماء مجدنا وسناءنا وإنَّا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

وقال الإمام الرازى: الظاهر منه المكان الرفيع، وعلى هذا فالمراد بالمكان العلى السماء الرابعة، لأن نبينا، ﷺ، رآه ليلة المعراج - على ما ورد فى الحديث الصحيح[١] - فيها، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: الجنة، وهو قول الحسن.

وقد ورد فى بيانها إسرائيليات، ولا حرج فى التحديث بها على ما ورد فى الحديث، خصوصًا إذا كان فى القرآن ما يشير إليها، لأنه لما كان الظاهر المكان

---

(١) الكلام عن نبى الله تعالى إدريس عليه السلام.

أورد الإمام الحاكم فى المستدرك بابًا رقم (١٣) فى (ذكر إدريس النبى ﷺ) فمنه: قال: حدثنا على بن حمشاذ العدل حدثنا هشام بن على السدوسى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا داود بن أبى الفرات حدثنا علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لمَّا قرأ هذه الآية ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قال: كانت فيما بين نوح وإدريس ألف سنة، وأن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحًا وفى النساء دمامة، وكانت نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام الرعاة فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فاتخذوا عيدًا يجتمعون إليه فى السنة، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن ونزلوا معهن فظهرت الفاحشة فيهن، فذلك قول الله عز وجل ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.

وقال: أخبرنا الحسن بن محمد الإسفرائينى حدثنا محمد بن أحمد بن البراء أنبأ عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه ثم أنه سئل عن إدريس من هو؟ وفى أى زمان هو؟ قال: هو جد نوح الذى يقال له خنوخ، وهو فى الجنة حى، وقال محمد بن إسحاق بن يسار: كان إدريس أول بنى آدم أعطى النبوة، وهو أخنوخ بن يزيد بن أهلاليل بن قينان بن ناشر بن شيث ابن آدم...).

وقال: أخبرنى أبو سعيد أحمد بن محمد الأخمسى بالكوفة حدثنا الحسين بن حميد بن الربيع حدثنا مروان بن جعفر السمرى حدثنا حميد بن معاذ اليشكرى حدثنا مدرك بن عبد الرحمن العنزى حدثنا الحسين بن ذكوان عن الحسن البصرى عن سمرة بن جندب ثم قال: ثم كان نبى الله إدريس رجلا أبيض طويلا ضخم البطن عريض الصدر قليل شعر الجسد كبير شعر الرأس، وكانت إحدى عينيه أعظم من الأخرى، وكانت فى صدره ثلاثة بياض برص، فلما رأى الله من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم فى أمر الله رفعه الله إلى السماء السادسة، فهو حيث يقول: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ انظر: الحاكم: المستدرك: ٥٩٨/٢ الأحاديث أرقام (٤٠١٣، ٤٠١٤، ٤٠١٥).

الرفيع، على ما قال الإمام، وكان الظاهر الرفع بالجسد، لأن الرفع بالروح يشترك فيه جميع الأرواح المقدسة كان أمر القول بالإسرائيليات أهون، فنقول وبالله التوفيق:

قال محيى السنة فى تفسير معالم التنزيل فى تفسير هذه الآيات: كان سبب رفع إدريس عليه السلام ـ على ما قال كعب وغيره، أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال: يا رب أنا مشيت فيها يومًا فوجدت وهج الشمس فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد، اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال: يا رب ما الذى قضيت فيه؟ قال: إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته، فقال: يا رب اجعل بينى وبينه خلة، فأذن له حتى أتى إدريس ـ عليه السلام ـ فكان يسأله إدريس ـ عليه السلام ـ فقال: إنى أُخبرت أنك أكرم الملائكة، وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرًا وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها[1] وأنا مكلمه، فرفعه إلى السماء، ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: حاجة إليك، فقال: وما هى؟ قال: صديق لى من بنى آدم وتشفع بى إليك لتؤخر أجله، قال: ليس ذلك إلىّ، ولكن أن أحببت أعلمته أجله متى يموت فيتقدم فى نفسه، قال: نعم، فنظر فى ديوانه فقال: إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدًا، قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال: فإنى أتيتك وتركته هناك، قال: فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات، فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء فرجع الملك فوجده ميتًا.

واختلفوا فى أنه حى فى السماء أم ميت؟.

فقال قوم: هو ميت، وقال قوم: هو حى، وقالوا: أربعة من الأنبياء فى الأحياء: اثنان فى الأرض: الخضر وإلياس، واثنان فى السماء: إدريس وعيسى ـ عليهم السلام.

وقال وهب[2]: كان يُرفع لإدريس عليه السلام ـ كل يوم من العبادة مثل ما يُرفع

---

(١) انظر قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١١).

(٢) (وهب بن منبه) بن كامل بن سيج بن ذى كبار ـ وهو الأسوار ـ الإمام العلامة الأخبارى القصصى أبو عبد الله الأبناوى اليمانى الذمارى الصنعانى أخو همام بن منبه ومعقل بن منبه وغيلان بن منبه مولده فى زمن عثمان سنة أربع وثلاثين ورحل وحج وأخذ عن ابن عباس وأبى هريرة، إن صح، وأبى سعيد والنعمان بشير وجابر وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص، على خلاف فيه، وطاووس، حتى أنه ينزل ويروى عن عمرو بن دينار وأخيه همام وعمرو بن =

لجميع أهل الأرض فى زمانه، فتعجبت منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه ـ عز وجل ـ فى زيارته فأذن له، فأتاه فى صورة بنى آدم، وكان إدريس ـ عليه السلام ـ يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل معه، ففعل ذلك ثلاث ليال، فأنكره إدريس ـ عليه السلام، فقال له الليلة الثالثة: إنى أريد أن أعلم ما أنت؟ قال: أنا ملك الموت، استأذنت ربى أن أصحبك، قال: فلى إليك حاجة، قال: ما هى؟ تقبض روحى، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه، فردها الله ـ تعالى ـ إليه بعد ساعة، قال له ملك الموت: ما فى سؤالك قبض الروح قال: لأذوق كرب الموت وغمته فأكون أشد استعداداً له، ثم قال إدريس ـ عليه السلام ـ له: إن لى إليك حاجة أخرى، قال: ما هى؟ قال: ترفعنى إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار، فأذن الله ـ تعالى ـ فى رفعه، فلما قرب من النار، قال: لى حاجة أخرى، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكًا حتى يفتح لى أبوابها فأَرِدُها ففعل، ثم قال: فكما أريتنى النار فأرنى الجنة، فذهب به إلى الجنة، فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرك فتعلق شجرة وقال: لا أخرج منها، فبعث الله ـ تعالى ـ ملكًا حكمًا بينهما ـ فقال له الملك: ما لك لا تخرج، قال: لأن الله تعالى قال:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥) وقد ذقته، وقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) وقد وردتها، وقال:

= شسب وفنج اليمانى، ولا يدرى من فنج، حدث عنه ولداه عبد الله وعبد الرحمن وعمرو بن دينار وسماك بن الفضل وعوف الأعرابى وعاصم بن رجاء بن حيوة ويزيد بن يزيد بن جابر وعبد الله بن عثمان بن خثيم، وخلق سواهم، وروايته للمسند قليلة وإنما غزارة علمه فى الإسرائيليات ومن صحائف أهل الكتاب، قال أحمد: كان من أبناء فارس، له شرف، قال: وكل من كان من أهل اليمن هو شريف يقال فلان له ذى وفلان لا ذى له.. قال العجلى: تابعى ثقة، كان على قضاء صنعاء وقال أبو زرعة، والنسائى: ثقة.

قال أحمد بن محمد بن الأزهر سمعت مسلمة بن همام بن مسلمة بن همام بذكر عن آبائه أن همامًا، ووهبًا، وعبد الله، ومعقلا، ومسلم بنو منبه أصلهم من خراسان من هراة، فمنبه من أهل هراة وخرج أيام كسرى.

وقال والد عبد الرزاق وعبد الصمد بن معقل ومعاوية بن صالح، مات سنة أربع عشرة ومائة، زاد عبد الصمد ابن محرم قال: توفى رحمه الله فى شهر ذى الحجة سنة ١١٣هـ.

انظر الذهبى: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤ الترجمة رقم (٢١٩).

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٨) فلست أخرج، فأوحى الله تعالى ـ إلى الموت: بإذنى دخل الجنة وبأمرى يخرج فهو حى هناك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧). انتهى.

فمن قال بحياته احتج بهذا القول، ومن قال بموته احتج بالقول الأول، ومن هنا نشأ الخلاف فى موته وحياته إلى الآن.

وقال بعضهم: أربعة من الأنبياء أحياء: اثنان فى الأرض: الخضر وإلياس، واثنان فى السماء: عيسى وإدريس(١) كذا فى الكواش.

---

(٤) هذه النقطة كررها فقد ذكرها منذ قليل.

مجلس في:

بيان قصة (هاروت وماروت)

الواقعة في زمان إدريس نبي الله - عليه السلام

في ثلاث آيات من سورة البقرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس في بيان قصة هاروت وماروت الواقعة في زمان إدريس نبي الله، عليه السلام، في ثلاث آيات من سورة البقرة[1].

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾: أي اليهود ﴿رَسُولٌ﴾: أي عظيم، فالتنكير للتعظيم، وهو محمد ﷺ ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ متعلق برسول، أي مرسل من عنده.

﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة لرسول ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة وغيرها من كتب الأنبياء - عليهم السلام - وتصديقه له في الأصول لما أن الأنبياء عليهم السلام، بنو العلات، متفقون في أصول الدين والعقائد وأصول الدين كالأب لهم، وأمهاتهم - أي: الفروع المشروعة لكلٍّ مختلفة، وهي كالأم لهم، فليسوا ببني الأضياف ﴿نَبَذَ﴾ جواب لما

---

(1) الآيات أرقام (١٠١ - ١٠٣) من سورة البقرة ونصها: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

عامل فيها لأنه ظرف عند الجمهور، وعند سيبويه حرف، بدليل: لما أسلم دخل الجنة، وهم يؤولونه كأنه حين أسلم دخل الجنة لكونه سببًا له.

﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى: علماؤهم، ووضع الظاهر موضع الضمير لأن الظاهر فريق منهم، لتقبيح حالهم بأنهم بعد رصانة العلم به.

(نبذوه) جزء آية كتاب الله أى التوراة.

﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثل لإعراضهم عنه وتركهم له نبذ الشيء وراء الظهر، والجامع عدم الالتفات وقلة المبالاة.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠١): حال من فعل نبذ، أى: مشبهين بالجاهل الصرف فيترك العمل مع رصانة علمهم به.

قال الشعبى[1]: كانوا يقرءون التوراة ولا يعملون بها.

وقال سفيان بن عيينة[2]: أدرجوها فى الحرير والديباج وحلوها بالذهب والفضة،

---

(١) (الشعبى) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كبار، وذو كبار قيل من أقيال اليمن، الإمام علامة العصر أبو عمرو الهمدانى ثم الشعبى، وكانت أمه من سبى جلولاء، مولده فى إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها، فهذه رواية، وقيل: ولد سنة إحدى وعشرين، قاله شباب، وكانت جلولاء فى سنة سبع عشرة، رأى عليا ﷺ وصلى خلفه، وسمع من عدة من كبراء الصحابة، وحدث عن سعد بن أبى وقاص وأبى موسى الأشعرى، وأبى هريرة، وغير هؤلاء الخمسين من الصحابة.

روى عنه الحكم، وأبو إسحاق، وداود بن أبى هند، ومكحول الشامى، وابن أبى ليلى، وأبو حنيفة وغيرهم كثير، وكان الشعبى توأما ضئيلا فكان يقول: إنى زُوجت فى الرحم، قال: وأقام فى المدينة ثمانية أشهر هاربًا من المختار، فسمع من ابن عمر وتعلم الحساب من الحارث الأعور، وكان حافظا وما كتب شيئًا قط، قال إسماعيل بن مخالد وخليفة وطائفة: مات الشعبى سنة أربع ومائة، زاد ابن مجالد: وقد بلغ ثنتين وثمانين سنة، وقال الواقدى مات سنة خمس ومائة عن سبع وسبعين سنة، انظر: الذهب: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤.

(٢) (سفيان بن عيينة) بن أبى عمران مولى محمد بن مزاحم أخى الضحاك بن مزاحم، الإمام الكبير حافظ العصر شيخ الإسلام أبو محمد الهلالى الكوفى ثم المكى، مولده بالكوفة فى سنة سبع ومائة، وطلب الحديث وهو حدث، بل غلام، ولقى الكبار وحمل عنهم علمًا جما وأتقن وجود وجمع وصنف وعمر دهرًا، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد، ورحل إليه من البلاد وألحق بالأجداد، سمع فى سنة تسع عشرة ومائة وسنة عشرين وبعد ذلك، فسمع من عمرو بن دينار وأكثر عنه، ومن زياد بن علاقة والأسود بن قيس، حدث =

ولم يعملوا بها فذلك نبذهم، وكذلك الظلمة فى زماننا هذا أحلوا القرآن، وحلوه بالذهب ولم يعملوا به، فإلى الله المشتكى.

﴿وَاتَّبَعُوا﴾ عطف على نبذ، أى نبذوا كتاب الله بعد عملهم به.

﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ أى: تلت، أى: تبعت من التلو، أو قرأت من التلاوة، فالمضارع لاستحضار القريب من الحال وهو كتب السحر والشعوذة، وهى ما يريد صاحب خفة اليد من الأمور الغريبة، والشعوذى فى الأصل: البريد المسرع فى الحركة، والبريد معرب بريدة دم، أى: مقطوع الذنب، كان من عادة الأكاسرة حبس البغال المقطوعة الأذناب على الطرف لإيصال الأخبار إلى الثغور، ثم أطلق على من يركبه تسمية للراكب باسم المركوب فيطلق عليه الشعوذى أيضًا، والشعبذة لغة مولدة.

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ ابن داود ـ عليهما السلام (على) بمعنى (فى) والمضاف محذوف، أى: فى زمان ملك سليمان، وذلك أن السحر فشا، وشاع فى زمن سليمان ـ عليه السلام ـ وإن كان موجودًا قبله، لما أنه نزل على الملكيْن فى زمان إدريس النبى عليه السلام ـ كما سيجىء، لكن شيوعه كان فى وقت سليمان، عليه السلام، وسبب الشيوع فى وقته ـ الله أعلم ـ أنه لما اختلط الجن بالإنس فى زمنه بتسخير الله إياها له، وسمعوا كلام الجن مشافهة، علموا الناس السحر، ثم طعنوا سليمان أنه بهذا العلم سخر الجن، والريح، والطير، فبقيت اليهود على هذا الاعتقاد الباطل حتى جاء محمد ـ ﷺ ـ وبينه فى هذه الآية.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾: أى ما سحر، فدل التعبير على أن عمل السحر كفر، وسليمان لكونه نبيًا معصوم عنه.

﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ لعملهم السحر ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ حال، فاعل كفروا.

= عنه الأعمش وابن جريج وشعبة، وهؤلاء من شيوخه، وهمام بن يحيى، قال ابن عاصم؟ سمعت من ابن عيينة وأنا محرم لبعض النساء ومن حج بعدى لم يره، مات سنة ثمان وتسعين ومائة، قال الحسين بن محمد القبانى: حدثنى عبد الرحمن بن بشر قال: سمعت ابن عيينة عشية السبت نصف شعبان سنة ست وتسعين السهو يقول: كمل لى فى هذا اليوم تسع وثمانون سنة، ولدت للنصف من شعبان سنة سبع ومائة، عاش إحدى وتسعين سنة.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٤٥٨/٨.

﴿النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فى زمان سليمان للإضلال والإغواء، فلا ينافى تعليم الملكَيْن لأنهما كان يعلمان للتمييز بين السحر والمعجزة وللابتلاء.

﴿وَمَا أُنزِلَ﴾: الصحيح أن (ما) موصولة عطفًا على السحر، أى: كانت الشياطين فى زمن سليمان يعلمون الناس السحر.

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وهو نوع فائق على أنواع السحر، أو هو عينه، والعطف لتغاير المفهومين.

وما قيل: إن (ما) نافية عطفا على ﴿مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ لإنكار الإنزال على الملكين لا يخفى بعده على المتأمل فيما سيأتى.

﴿بِبَابِلَ﴾[1] قيل: هو سواد الكوفة، وقيل: بلدة خربة عند بغداد، وقيل: هو فى جبل دماوند عند بلدة دىّ.

---

(١) (بابل) اسم قرية (كانت على شاطئ نهر الفرات) بأرض العراق فى قديم الزمان، بها جبّ يُعرف بجبّ دانيال، عليه السلام، يقصده اليهود والنصارى فى أوقات من السنة، ذهب أكثر الناس أنها هى بئر هاروت وماروت، ومن الناس من ذهب إلى أن بابل هى أرض العراق كلها، وقد روى أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل دهقان الفلوجة عن عجائب بلادهم فقال: كانت بابل سبع مدن فى كل مدينة أعجوبة ليست فى الأخرى، فكان فى المدينة التى نزلها الملك بيت فيه صورة الأرض كلها برساتيقها وقراها وأنهارها، فمتى التوى أحد بحمل الخراج من جميع البلدان خرق أنهارهم كالقعدة وأتلف ما فى بلدهم حتى يرجعوا عما هم به فيسد بأصبعه تلك الأنهار فيستد فى بلدهم، وفى المدينة الثانية حوض عظيم فإذا جمعهم الملك لحضور مائدته حمل كل رجل ممن يحضره من منزله شرابًا يختاره ثم صبه فى ذلك الحوض فإذا جلسوا للشراب شرب كل واحد شرابه الذى حمله من منزله، وفى المدينة الثالثة طبل معلق على بابها فإذا غاب من أهلها إنسان وخفى أمره على أهله وأحبوا أن يعلموا أحىٌّ صاحبهم أم ميت ضربوا ذلك الطبل، فإن سمعوا له صوتًا فإن الرجل حى، وإن لم يسمعوا له صوتا فإن الرجل قد مات، وفى المدينة الرابعة مرآة من حديد، فإذا غاب الرجل عن أهله وأحبوا أن يعرفوا خبره على صحته أتوا تلك المرآة فنظروا فيها فرأوه على الحال التى هو فيها، وفى المدينة الخامسة أوزة من نحاس على عمود من نحاس سيما على باب المدينة، فإذا دخلها جاسوس صوت الأوزة بصوت سمعه جميع أهل المدينة فيعلمون أنه قد دخلها جاسوس، وفى المدينة السادسة قاضيان جالسان على الماء فإذا تقدم إليهما الخصمان وجلسا بين أيديهما غاص المبطل منهما فى الماء، وفى المدينة السابعة شجرة من نحاس ضخمة كثير الغصون لا تظل ساقها فإن جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف نفس فإن زادوا على الألف ولو بواحد صاروا كلهم فى الشمس. =

والمشهور أنه فى جبل البرز عند منقطع جبل الفتح، وقد رأيته فى وقت سياحتى، وسمعت حكايات تمجها الآذان.

﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[1]: عطف بيان للملكين، علمان لهما فى اللغة السريانية، وليسا عربيين، مشتقين من الهرت والمرت، بمعنى الكسر، لعدم صرفهما للعجمة والعلمية.

= قلت: وهذه الحكاية كما ترى خارقة للعادات بعيدة من المعهودات، ولو لم أجدها فى كتب العلماء لما ذكرتها أخبار الأمم القديمة مثله، والله أعلم. انظر: ياقوت: معجم البلدان: ١/ ٣١٠.

وانظر أيضًا: القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد: ص ٣٠٤.

(١) (هاروت وماروت) أخرج ابن المنذر وابن حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس قال: لما وقع الناس من بنى آدم فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله، قالت الملائكة فى السماء: رب هذا (العالم) الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، وقد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر، وقتل النفس، وأكل مال الحرام، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم، قيل: إنهم فى غيب فلم يعذروهم، فقيل لهم: اختاروا منكم من أفضلكم ملكين آمرهم، وأنهاهما، فاختاروا هاروت وماروت فأُهبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بنى آدم، وأمرهما أن يعبداه ولا يشركا به شيئًا، ونهاهما عن قتل النفس الحرام، وأكل مال الحرام، وعن الزنا، وشرب الخمر، فلبثا فى الأرض زمانًا يحكمان بين الناس بالحق، وذلك فى زمان إدريس، وفى ذلك الزمان رأيا امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب، وأنهما أتيا عليها فخضعا لها فى القول، وأراداها عن نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها، فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنمًا، فقالت: هذا أعبده، فقالا: لا لحاجة لنا فى عبادة هذا، فذهبا فغبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فأراداها عن نفسها، ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا فأراداها عن نفسها، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما: اختارا أحد الخلال الثلاث، إما أن تعبدا هذا الصنم، أو أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذا الخمر، فقالا: كل هذا لا ينبغى، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فأخذت منهما فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أراد أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكُشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض، فنزل فى ذلك ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥) فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؟ فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا فجُعلا ببابل فهما يعذبان.

انظر: الإمام السيوطى: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/ ٢٣٨، ٢٣٩.

وسبب إنزال الله السحر، أى: علمه على الملكين لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) من الآيات والأحاديث.

إن السحر ظهر فى زمان إدريس - عليه السلام - بسبب إلقاء إبليس فوقع الناس فى شك عظيم لعدم تميزهم بين معجزة الأنبياء وسحر السحرة، فدعا الله إدريس - عليه السلام - لدفع ريب الناس فأنزل الله الملكيْن إلى الأرض أولاً، ثم أنزل عليهما علم السحر بواسطة ملك آخر، كما هو ظاهر من النظم، والحكمة فيه إنجاء الناس إلى يوم القيامة من الريب فى عدم التميز بين المعجزة والسحر، وهو حكمة بالغة فلولاها لبقى الناس فى الشك إلى يوم القيامة، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير، فكان نزول الملكيْن بالسحر معجزة لإدريس، عليه السلام باقيا نفعها إلى آخر الدهر، ويجوز أن يكون فيه ابتلاء من الله كما قيل: ولله أن يبتلى عباده بما يشاء كما ابتلى قوم طالوت بالنهر، على ما سيأتى فى عرائسنا هذه، فمن لم يتعلم من الملكيْن أو تعلم للتميز المذكور ولم يعلم، ولم يعمل به كان مؤمنًا خالصًا، ومن تعلَّم وعمل به كان كافرًا، فكان تعليم الملكيْن السحر كتصنيف الفقهاء باب ألفاظ الكفر فى تصانيفهم، فمن تعلم من كتب الفقهاء كلمات الكفر بأن الكلمة الفلانية والفلانية كفر فاجتنب عنها كان مؤمنًا، وإن لم يتعلم منها لعلة يقع فيه كما قال ذو نواس(١):

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
فمن لم يعرف الخير من الشر يقع فيه

(١) (أبو نواس) رئيس الشعراء أبو على الحسن بن هانئ الحكمى، وقيل: ابن وهب، ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة وسمع من حماد بن سلمة وطائفة، وتلا على يعقوب، وأخذ اللغة عن أبى زيد الأنصارى وغيره، ومدح الخلفاء والوزراء، ونظمه فى الذروة حتى قال فيه أبو عبيدة شيخه: أبو نواس للمحدثين بكفلت آلاف للمتقدمين قيل لقب بهذا لضفيرتين ينفذ تنوسان على عاتقيه، أى تضطرب وهو من موالى الجراح الحكمى أمير الغزاة وهو القائل:

سبحان ذى الملكوت أية ليلة ... مخضت صبيحتها بيوم الموقف
لو أن عينا وهمتها نفسها ... ما فى المعاد محصلا لم تطرفِ

وله أيضًا:

ألا كل حى هالك وابن هالك ... وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ولأبى نواس أخبار وأشعار رائقة فى الغزل والخمور وحظوة فى أيام الرشيد والأمين. =

والسحر: مزاولة النفوس الخبيثة، فخرج الولى لأقوال من العزائم والرقى مخالفة للشرع، فخرج الأذكار المشروعة مثل أن يدعو الساحر نفسًا من النفوس الفلكية مثل نفس ذلك الشمس وغيرها من النجوم، والأرضية مثل دعائهم اسم جنّيٍ، أو شيطانٍ عابدٍ لها، لأنه ورد فى الحديث: (الدعاء هو العبادة، والدعاء مخ العبادة)[1] فيكفر بعبادة غير الله أو لأفعال مخالفة للشرع من التصفية والرياضات مثل رياضات مسخر النجوم أو الجن والشيطان، فإنه ينفث بأعمال ويروض نفسه، ويدخن بأدخنة موافقة لغرضه، يخلق الله على جرى العادة أمورًا خارقة لعادة الأجسام عندها.

ولا خلاف بين الأئمة فى تكفيرهم إذْ ذاك، وعدَّهُ فى الحديث الصحيح من الكبائر مغاير للشرك لا ينافى كفره، إذ الكفر أعم من الشرك والخروج عن الخاص لا ينافى دخوله فى العام.

﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ**﴾ أى الملكان على السحر ﴿**مِنْ أَحَدٍ**﴾ يطلبه ﴿**حَتَّى**﴾ ينصحانه.

﴿**يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ**﴾ أى نميز بين السحر والمعجزة، من فتنت الذهب بالنار، إذا خلصته من الخبث أو ابتلاء كما سبق.

﴿**فَلا تَكْفُرْ**﴾ بعمل السحر، بل كن مميزًا بينه وبين المعجزة، أو محصلاً للثواب بالاجتناب عنه وتوقيه بعد معرفته.

﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ**﴾ أى الناس المفهوم من (أحد) لاستغراقه النفى ولا يرجع الضمير إلى (أحد) لعمومه للإفراد فى.

﴿**فَلا تَكْفُرْ**﴾ إلى يوم القيامة، فالمضارع للاستمرار.

﴿**مِنْهُمَا مَا**﴾ أى علمًا ﴿**يُفَرِّقُونَ بِهِ**﴾ أى: لا يكتفون بالتميز المذكور ولا يتفحون بنفحها بل يعملون به، ولم يذكر الله من أعمالهم إلا تفريقهم.

﴿**بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ لأن النفوس الخبيثة إذا سمعوا سائر الأعمال الغريبة الخارقة

= مات سنة خمس أو ست وتسعين ومائة، وقيل: مات فى سنة ثمان وتسعين، عفا الله عنه.
انظر: الذهبى: سيرة أعلام النبلاء: ٩/ ٢٨٩.

(١) حديث: (**الدعاء هو العبادة... الدعاء مخ العبادة**) رواه الترمذى عن أنس: «الدعاء هو العبادة». ورواه مسلم، والطبرانى، وعند ابن أبى شيبة، وأحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، وأبى داود والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم عن النعمان بن بشير بلفظ: «الدعاء هو العبادة» وقال الترمذى: حسن صحيح. انظر: العجلونى: كشف الخفاء الواردة: ١/ ٤٨٥.

للعادة لعلهم يجتهدون فى وجدانه والعمل به، فتركه ـ تعالى ـ ذكر سائر مضاره العظيمة لهذه الحكمة.

﴿وَمَا هُم﴾ السحرة ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾ بالسحر.

﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ فعمَّ هنا، أى أىَّ ضررٍ كان ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بخلقه وجعله وتهليله دون أمره إذ لا يأمر بالقبيح لقوله تعالى:

﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧) أى وإن أراد خلقه لأنه لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء لقوله، عليه السلام: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)(١)، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠).

فيتعلمون من الملكيْن أقوالا وأعمالاً إذا قالوها أو عملوا بها خلق الله العداوة والنشوز والإعراض بين الزوجين بعدما أحب كل منهما الآخر محبة ليس فوقها شىء، وهذا من جملة شرورهم، واكتفى الله عليه لما سبق من الحكمة.

ولما ورد فى الحديث الصحيح، وهو ما روى مسلم عن جابر ﷺ، عن رسول الله ﷺ: (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه يفتنون الناس فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجىء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال: ثم يجىء أحدهم فيقول: ما تركته حتى مزقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)(٢).

---

(١) حديث: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن).

أخبرنا أحمد بن عمرو قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى عمرو بن الحارث أن سالمًا الفراء حدثه أن عبد الحميد مولى بنى هاشم حدثه أن أمه حدثته ـ وكانت تخدم بعض بنات النبى ﷺ أن بنت النبى ﷺ حدثتها أن النبى ﷺ قال: «ثم قولى حين تصبحين: سبحان الله وبحمده ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شىء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) فإنه من قالهن حين يُصبح، وذكر كلمة معناها حُفِظَ حتى يُمْسِى، ومن قالهن حين يمسى حُفِظَ حتى يصبح، لمن قال لا حول ولا قوة إلا بالله).

انظر: البيهقى: السنن الكبرى ٦/٦، ٧ الحديث رقم (٩٨٤٠).

وأبو داود فى السنن: ٣١٩/٤ الحديث رقم (٥٠٧٥).

والمنذرى: الترغب والترهيب: ٢٥٨/١ الحديث رقم (٩٧٥).

وقال: رواه النسائى وأبو داود عن أم عبد بن حمد.

(٢) حديث: (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه...). =

قال الأعمش[(١)]: أراه قال: فيلتزمه.

قال الشراح فى شرح هذا الحديث: وإنما يلتزم اللعين - أى يعانق - ويحب هذا الشيطان المفرق بين المرء وزوجه لأن اللعين عدو للشرع، فيبغض النكاح لأنه عقد عقدة الشرع، وفيه نظام العالم والتناسل، وفى فوته تكثير أولاد الزنا الذين يعسر عليهم الأعمال الصالحات والأخلاق الحسنة.

ولذا قال النبى - ﷺ : (لا يدخل الجنة ولد زنية)[(٢)] وفى كثرتهم اختلال نظام العالم والهرج والمرج فلذا خصه - تعالى - بالذكر.

= أورده ابن كثير فى التفسير وقال: رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن أبى سفيان، عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
انظر ابن كثير: التفسير ١/ ١٤٣.

(١) **(الأعمش)** سليمان بن مهران الأسدى الكاهلى مولاهم، أبو محمد الكوفى الأعمش (وكاهل هو ابن أسد بن خزيمة) ولد: ٦١هـ وهو من الطبقة: الخامسة، من صغار التابعين، توفى: ١٤٧ أو ١٤٨هـ روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة حافظ عارف بالقراءات، ورع، لكنه يدلس... أما الذهبى فقال: الحافظ، أحد الأعلام، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: رأى أنس بن مالك، وأبا بكرة الثقفى، وأخذ له بالركاب... قال البخارى، عن على بن المدينى: له نحو ألف وثلاث مائة حديث، وقال عباس الدورى، عن سهل بن حليمة: سمعت ابن عيينة يقول: سبق الأعمش أصحابه بأربع خصال: كان أقرأهم للقرآن، وأحفظهم للحديث، وأعلمهم بالفرائض، وذكر خصلة أخرى، وقول ابن المنادى الذى سلف أن الأعمش أخذ بركاب أبى بكرة الثقفى غلط فاحش، لأن الأعمش ولد إما سنة إحدى وستين، أو سنة تسع وخمسين على الخلف فى ذلك، وأبو بكرة مات سنة إحدى أو اثنتين وخمسين، فكيف يتهيأ أن يأخذ بركاب من مات قبل مولده بعشر سنين أو نحوها؟! وكأنه كان - والله أعلم - أخذ بركاب ابن أبى بكرة، فسقطت ابن وثبت الباقى، وإنى لأتعجب من المؤلف مع حفظه ونقده كيف خفى عليه هذا.
انظر: المزى: تهذيب الكمال ترجمة سليمان بن مهران باب السين ٨/ ١٠٦ الترجمة رقم (٢٥٥٣) وانظر: تهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٢٤٤.

(٢) حديث: **(لا يدخل الجنة ولد زنية)** عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة ولد زنية ولا منان ولا عاق ولا مدمن خمر) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «هو شر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه» يعنى ولد الزنا، رواه أحمد أسود بن عامر عن إبراهيم بن إسحاق عن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة وإبراهيم بن إسحاق لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «ولد الزنا شر الثلاثة، إذا عمل =

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾: لأن العلم يفضى إلى العمل غالبًا، ففيه تنبيه على أن اجتنابه واجتناب الفلسفة الظاهرة المضار أولى وأجدر ﴿وَلا يَنفَعُهُمْ﴾: يعنى علم السحر، هو الضرر البحت فى الغالب وليس فيه نفع أصلاً، إذ علمه ليس مقصودًا بالذات، بل المقصود إما التمييز المذكور، وذلك فى عصرنا للمنصوب للذب، إذ يجب على الإمام أن ينصب فى كل مسافة قصر عالمًا كاملاً للذب، أى: الدفع عن عقائد المسلمين الشبهات إذا ظهرت، فيجب على هذا العالم إذا فشا باب من أبواب السحر فى ناحية من بلاد المسلمين أن يتعلم هذا الباب فيعلم الناس التمييز بينه وبين الكرامة أو المعجزة، حتى لا يعتقدوا الساحر الخبيث وليًا أو نبيًا، فهذا هو الحق، أو المقصود من علم السحر لا العمل به، وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا هو الكفر.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: اللام للقسم المحذوف دخل على الجواب، أى: والله لقد علمت اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾: اللام ابتدائية متعلقة للعلم عن العمل دخلت على المبتدأ، خبره: ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ﴾ متعلق بمعنى النفى فى ما.

﴿مِنْ خَلاقٍ﴾ أى: ليس له نصيب أصلاً، والمراد بالاشتراء الإيثار والاستبدال، أى: علمت اليهود أن كل من استبدل واختار كتب السحر والشعوذة على كتاب الله ليس له فى الآخرة نصيب أصلاً لكفره، وحبط عمله به.

﴿وَلَبِئْسَ مَا﴾: موصوفة أو موصولة، أى بئس شيئًا، أو الشرك الذى ﴿شَرَوْا﴾ صفة أو صلة، أى: باعوا هو الظاهر.

﴿بِهِ﴾ أى: بما هو العمل بالسحر.

﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أى حظوظ أنفسهم فى الآخرة من الجنة ونعيمها فى عبارة عن العمل بالسحر، وجملة ﴿وَلَبِئْسَ مَا﴾ عطف على الجملة القسمية جوابًا للقسم المحذوف

= بعمل أبويه» رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن أبى ليلى وهو سيئ الحفظ، ومندل وثق وفيه ضعف، وعن ميمونة زوج النبى ﷺ قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب» رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى وقال: «لا تزال أمتى بخير، متماسك أمرها ما لم يظهر» وفيه محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، ومحمد بن إسحاق، قد صرح بالسماع، فالحديث صحيح أو حسن. . .

انظر: ابن حبان ٨/ ١٧٦، وانظر: مجمع الزوائد: ٦/ ٢٥٧ باب فى أولاد الزنا.

الآخر، أو عطف على جواب القسم الأول، وعطف الإنشاء على الإخبار كثير فى الكلام.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: علمًا تفصيليًا بعد علمهم إجماليًا ظنيًا تقليديًا لاحترز عنه، فالعلم المثبت فى «لقد علموا» علم إجمالى تقليدى ظنى، والنفى هنا العلم التفصيلى، فلا منافاة بين أول الكلام وآخره.

وقيل: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى لو كانوا يعملون بعلمهم، لأنه إذا انتفى العمل بالعلم كان العلم كأنه انتفى لعدم نفعه، فالمعنى: لو كانوا يعملون بعلمهم لكان خيراً لهم، ولو أنهم آمنوا بالرسول المصدق لما معهم وبكتابه واتقوا عن نبذ كتاب الله وراء الظهر واتباع كتب السحر والشعوذة لمثوبة من عند الله خير قائم مقام جواب (لو) لأن جواب «لو» لا يكون إلا ماضيًا مصدراً باللام غالبا، فأصل الكلام لأثيبوا مثوبة من عند الله، فحذف الجواب وأقيم المصدر مقامه، وعدل إلى الرفع كما فى «سلام عليكم» ليدل على ثبات الخيرية للمثوبة الدال على ثبات المثوبة، لأن وجود المحمول فرع وجود الموضوع لو كانوا يعلمون خيريتها لكان خيراً لهم، فعلى هذا التفسير الذى عليه المحققون من الأولين والآخرين لا يرد شىء مانع لعصمة الملائكة، بل يكون نزولهما وتعليمهما أمراً موجبًا للحكمة التامة ـ على ما سبق ـ ولا يفهم من القرآن والأحاديث الصحيحة غير هذا مما يرويه «الحشوية» مما يخل بعصمتهم من أنهما ملكان رُكب فيهما الشهوة والغضب، لأمر يطول شرحه، ثم نزلا إلى الأرض ملكين بين الناس، ثم زنيا ـ عياذًا بالله ـ بامرأة فاجرة اسمها زهرة، وقتلا النفس المحرمة، وعبدا الصنم، وعلما الزهرة الاسم الأعظم فصعدت به إلى السماء فصارت كوكبًا مضيئًا هو الزهرة المعروفة. . . إلى آخر ما قالت الحشوية، فإنه كله فاسد وباطل ومخالف لمذهب أهل السنة.

وروى ويحكى عن اليهود فإنه ـ وإن حكى عن بعض الصحابة ـ لكن دار الحديث ورجع إلى إسرائيليات، كما هو مبين فى تفسير ابن كثير المحدث ـ شكر الله مساعيه ـ ولعله رمز من رموز الأوائل، كذا قال البيضاوى.

وحله أنهم أشاروا إلى أن الجسد كثير «بابل» مظلم نزل فيه ملكان هما الروح والعقل، فتعلقت بهما النفس الأمارة بالسوء المشبهة بالمرأة الفاجرة فزنيا بها، أى عملا

على خلف الشرع من أجل عدم تحصيل رضاء الله، ثم تعلمت منهما النفس الأمارة ما تحصل به رضاء الله، وهو الاسم الأعظم، فصعدت إلى سماء القبول حيث صارت لوامة ثم مطمئنة. . . إلى آخر المقامات، وبقى ملكا الروح والعقل معذبين بالألم والهجران عن محبوبهما الأصل، وهو جمال الله فى بابل الجسد إلى القيامة الصغرى، أى: الموت، فهذا تأويل ما حكوا عن الأوائل، حاشاهم عن اعتقاد عدم العصمة فى الملائكة المقربين، ثم بقى الكلام فى بيان أقسام السحر والحكايات الواردة فيه وفى أحكامه.

فنقول وبالله التوفيق: ذكر الإمام فخر الدين فى تفسيره مطنبًا أوجزه نظام الدين النيسابورى فى تفسيره فأوردت الإيجاز إيجازًا:

قال النيسابورى راويًا عن الإمام فخر الدين:

ثم السحر على أقسام: **منها: سحر الكلدانيين** الذين كانوا فى قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم.

منها: تصدر الخيرات والشرور، والسعادة، والنحوسة ويتحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية، وهم الذين بعث الله تعالى - إبراهيم - عليه السلام - مبطلاً لمقالتهم وردًا عليهم مذاهبهم.

ومنها: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية بدليل أن الجذع الذى يتمكن الإنسان من المشى عليه لو كان موضوعًا على الأرض لا يمكنه المشى عليه لو كان كالجبر، وما ذاك إلا لأن تخيل السقوط منى قوى أوجبه، وقد أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان، أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام.

وحكى فى الشفاء عن أرسطو: أن الدجاجة إذا شبهت كثيرًا بالديكة فى الصوت، وفى الحراب مع الديك نبت على ساقها مثل الشىء النابت على ساق الديك، وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية.

وأجمعت الأئمة على أن الدعاء مظنة الإجابة، وأن الدعاء باللسان من غير طلب نفسانى قليل الأثر.

ويحكى أن بعض الملوك عرض له فالج فدخل عليه بعض الحذاق من الأطباء،

على حين غفلة منه، وشافهه بالشتم والقدح فى العرض، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية زالت تلك العلة المزمنة، والإصابة بالعين مما اتفق عليه العقلاء، والتحقيق فيه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات كانت كأنها روح من الأرواح السماوية، وكانت قوية التأثير فى مواد هذا العالم، أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات فلا يكون لها تصرف البتة إلا فى هذا البدن، فإذا أراد أن يتعدى تأثيرها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووصفه عند الحس فاشتغل الحس به وتبعه الخيال عليه وأقبلت النفس الناطقة بالكلية على ذلك، فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية، ويعضده الانقطاع عن الماء لو فات والمشتهيات وتقليل الغذاء والاعتزال عن الناس، ثم إن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر بحسب ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير.

وأما الرقى: كانت بألفاظ معلومة فالأمر فيها ظاهر، لأن الغرض منها أن حس البصر كما اشتغل بالأمور المناسبة للغرض فحس السمع أيضًا يشتغل بها فإن الحواس متى تطابقه متوجهة إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه أقوى، وإن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة لها إذ ذاك انجذاب وانقطاع المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل، فيقوى التأثير النفسانى فيحصل الغرض، وهكذا القول فى الدخن، قالوا: فثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مستقل بالتأثير، فإن انضم إليه الاستعانة بالقسم الأول، وهو تأثيرات الكواكب قوى الأثر حد لا سيما إن حصل لهذه النفس مدد من النفوس المفارقة المشابهة لها، أو من الأنوار الفائضة من النفوس الملكية.

ومنها: سحرة يستعين بالأرواح الأرضية، وهو المسمى «بالعزايم» وتسخير الجن.

ومنها: التخييلات الآخذة بالعين ويسمى «الشعوذة» وذلك أن أغلاط البصر كثيرة وإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركا، والقطرة النازلة ترى خطًا مستقيمًا، والغبنة ترى فى الماء كالاجاهة، وترى العظيم من البعير صغيراً، وقد لا تقف القوة الباصرة على المحسوس وقوفًا تامًا إذا أدرك المحسوس فى زمان قصير جدًا فيخلط البعض بالبعض ولا يتميز، فإن الرحى إذا مزجت من مركزها إلى محيطها كثيرة بألوان مختلفة، ثم أديرت فإن البصر يرى لونًا واحدًا كأنه مركب من كل

تلك الألوان، وأيضًا النفس إذا كانت مشغولة بشيء، فربما حضر عند الحس شيء آخر فلا يشعر الحس به ألبتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان ويتكلم معه، ولا يفهم كلامه؛ لما أن قلبه مشغول بشيء آخر، وكذا الناظر في المرآة ربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستوٍ أم لا، فلا يرى شيئًا مما في المرآة، فالمشعوذ الحاذق، ويظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استقر بهم الشغل بذلك الشيء والتحديث نحوه عمل شيئًا آخر عملا بسرعة فيبقى ذلك العمل خفيفًا لتعاون الشيئين، اشتق لهم بالأول وسرعة إتيانه بالثاني.

ومنها: الأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النسب الهندسية أو لضرورة الخلاء كفارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر.

ومنها: الصور التي يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، وقد يصورنها ضاحكة أو باكية، وقد يفرق بين ضحك السرور وضحك الخجل.

ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، وعلم جر الأثقال، وهذا لا يعد سحرًا عرفًا، لأن لها أسبابًا معلومية يقينية.

ومنها: تعليق القلب وهو أن يدعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن ينقادون له في أكثر الأمور فإذا اتفق إن كان السامع ضعيف القلب قليل التمييز اعتمد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في قلبه نوع من الرعب، وحين يضعف القوى الحساسة فتمكن السحر من أن يفعل فيه ما شاء، وإن جرب الأمور وعرف أحوال الناس علم أن لتعليق القلب أثرًا عظيمًا في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار.

ومنها: السعي بالنميمة والتقريب من وجوه خفية لطيفة وذلك شائع في الناس.

فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وعند المسلمين كلها مستندة إلى قدرة الله - تعالى - فإنه لا يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر الساحر، واتفقوا على أن العلم به ليس بقبيح ولا محظور، لأن العلم لذاته شريف ولعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

ولأن الفرق بينه وبين المعجزة يمكن به إلا أن اجتنابه أقرب إلى السلامة كتعلم الفلسفة التي يؤمن أنه يجر إلى الغواية.

وأما الساحر: هل يكفر أم لا[(١)]؟... فلا نزاع بين الأئمة فى أن من اعتقد أن الكواكب هى المدبرة لهذا العالم، وهى الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور، فإنه يكون كافرًا على الإطلاق، وهذا هو القسم الأول من السحر.

(١) فى رواية: فى سحر النبى ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن رجلا من اليود سحرك، عقد لك عقدًا فأرسل إليه رسول الله ﷺ عليا فاستخرجها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة... فذكر نحوه.

قلت: رواه النسائى باختصار، رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح، وقد تقدمت قصة عائشة مع جاريتها.

باب (تكفير الساحر وقتله إن كان ما يسحر به كلام كفر) فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد».

يقول: كتب عمر رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال فقتلنا ثلاث سواحر، وعن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما سحرتها جارية لها فأقرت بالسحر وأخرجته، فقتلتها، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فغضب، فأتاه ابن عمر رضي الله عنه فقال: جاريتها سحرتها أقرت بالسحر وأخرجته، قال: فكف عثمان رضي الله عنه، قال: وكأنه إنما كان غضبه لقتلها إياها بغير أمره، قال الشافعى رحمه الله: وأمر عمر رضي الله عنه أن تقتل السحار والله أعلم، إن كان السحر شركا، وكذلك أمر حفصة رضي الله عنها وعن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «ثم حد الساحر حصول بالسيف» عن أبى عثمان النهدى عن جندب البجلى أنه قتل ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة ثم قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وعن أبى الأسود أن الوليد بن عقبة كان بالعراق يلعب بين يديه ساحر، وكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيقوم خارجًا فيرتد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيى الموتى، ورآه رجل من صالح المهاجرين فنظر إليه، فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه فقال إن كان صادقًا فليحيى نفسه، وأمر به الوليد دينارا صاحب السجن وكان رجلا صالحا فسجنه، فأعجبه نحو الرجل فقال: أفتستطيع أن تهرب؟ قال: نعم، قال: فاخرج لا يسألنى الله عنك أبدًا وانظر ابن كثير ١/ ١٩٩ وسنن البيهقى ٨/ ١٣٦.

باب قبول توبة الساحر وحقن دمه: عن أبى هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) رواه مسلم فى الصحيح، وأخرجه البخارى من حديث شعيب عن الزهرى عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، وبالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه مسلم فى الصحيح عن بندار عن أبى داود، وكفاك بسحرة فرعون وقصتهم فى كتاب الله عز وجل فى قبول توبة الساحر) انظر: البيهقى فى السنن الكبرى ٨/ ١٣٥.

أمـا النوع الثـانى: وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنســان فى التصفية والقوة إلى حيث يقدر على إيجاد الأجسام وإعدامها وتغـيير البنية والشكل، فإن ظاهر إجماع الأمة أيضًا على تكفيره أن يعتقد الساحـر أنه قد يبلغ فى التصفية وقراءة الرقى وتدخين بعض الأدوية إلى حـيث يخلق الله ـ تعـالى ـ عقـيب أفعـاله على سـبيل العـادة الأجسـام، والحياة، والعقل وتغيير البنية والشكل.

فالمعـتزلة[1] اتفقوا على تكفير من يجـوِّز ذلك، قالوا: لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف صدق الأنبياء والرسل وزيف بأن الإنسان لو ادعى النبوة وكان كاذبًا فى دعواه فإنه لا يجوز من الله ـ تعالى ـ إظهار الخوارق على يده لئلا يحصل التلبيس، أما إذا لم يدع النبـوة فظهرت الخوارق على يده لـم يفض ذلك إلى التلبيس، فـإن المحق يتميز عن المـبطل بما أن المحق يحصل له هذه الأشياء مـع ادعاء النبوة، وإن حصلت لم تتم، فصولة الباطل كنار العرفج.

أما سائر أنواع الـسحر فلا شك أنها ليـست بكفر، وحكم من كفر بالـسحر حكم المرشد، وإذا سحر إنسانًا فمات، فإن قـال: أنا سحرته وسحرى يقتل غالبًا وجب عليه القود، وإن قال: سـحرته وسحرى قد يـقتل فهو شبـه عمد، وإن قال: سحـرت غيره فوافق اسمه اسمه فخطأ.

وعند أبى حنيفة[2] ﷺ أنه قال: يقتل الساحر إذا عُلم أنه ساحر، ولا يستتاب ولا

---

(١) (المعتزلة) معلوم أن أصحاب الاعتزال هم الذين اعتزلوا مجلس الحسن البصرى، وعلى رأسهم واصل بن عطاء، وعمرو بن عـبيد، وقيل: إن الحســن البصرى هو الذى طردهما بعد سـماعه قول واصل بن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين للفاسق: فهو لا مؤمن ولا كافر فى الدنيا والآخرة. فلم يحتمل الإمام الحسن البصرى كلامهما فطردهما.

انظر: د/ على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ١/ ٣٧٣ وما بعدها.

(٢) (أبو حنيفة) الإمام فقيه الملة، عالم العراق، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوط التيمى الكوفى مولى بنى تيم الله بن ثعلبة يقال: إنه من أبناء الفرس، ولد سنة ثمانين فى حياة صغار الصحابة ورأى أنس بن مالك لما قدم عليهم الكوفة ولم يثبت له حرف عن أحد منهم، وروى عن عطاء ابن أبى رباح وهو أكـبر شيخ له، وأفـضلهم على مـا قال، وعن الشعـبى وعن طاووس، ولم يصح، وعن جبلة بن سحيم وعدى بن ثابت، وغيرهم كثير جدًا.

وعنى بطلب الآثار وارتحل فى ذلك، وأمـا الفقه والتـدقيق فى الرأى وغوامـضه فإليـه المنتهى والناس عليه عيال فى ذلك، حـدث عنه خلق كثير ذكر منهم شيخنا أبو الحـجاج فى تهذيبه =

يقبل قوله: إنى أترك السحر وأتوب منه، فإذا أقر أنه ساحر فقد حل دمه، وإن شهد شاهدان على أنه ساحر، أو وصفوه بصفة يُعلم بها أنه ساحر، قتل ولا يستتاب، وإن أقر بأن كنت أسحر مدة وقد تركت ذلك منذ زمان، قُبل منه ولم يُقتل. انتهى ما فى النيسابورى.

قال القاضى البيضاوى: والمراد بالسحر ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه فى الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط فى التضامن والتعاون، وبهذا تميز الساحر عن النبى ﷺ والولى.

وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية، أو يريد صاحب خفة اليد، فغير مذموم، وتسميته سحراً على التجوز، أو لما فيه من الدقة، لأنه فى الأصل لما خفى سببه. انتهى كلامه.

وذكر فى التيسير: قال الإمام أبو منصور ـ رحمه الله: القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ، ويجب البحث عن حقيقته، فإن كان فى ذلك رد ما لزم من شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا، ثم السحر الذى هو كفر تقتل عليه الذكور لا الإناث، والذى ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى الذكور والإناث.

ولهذا اختلف قول أبى حنيفة ـ رحمة الله عليه ـ فى الساحرة فلا تقتل بسحر الكفر وتقتل بسحر السعى فى الأرض بالفساد إذا كان سحرها قاتلا.

وعن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال: (حد السحر الضرب بالسيف، وتقبل توبته إذا تاب، فإن سحرة فرعون آمنوا وصح إيمانهم)(١) ومن قال: لا يقبل، فهو غلط، وأحق

= هؤلاء على المعجم: إبراهيم بن طهمان عالم خراسان، وأبيض بن الأغت المنقرى، وأسباط ابن محمد، وإسحاق الأزرق، وأسد بن عمرو البجلى وإسماعيل بن يحيى الصيرفى، لم يقبل العهد بالقضاء فضرب وحبس ومات فى السجن، وسيرته تحتمل أن تفرد فى مجلدين ﷺ ورحمه، توفى فى سنة خمسين ومائة وله سبعون سنة وعليه قبة عظيمة ومشهد فاخر بغداد، والله أعلم.

انظر: المزى: تهذيب الكمال ١٩/ ١٠٢ الترجمة رقم (٧٠٣٣) وابن حجر: تهذيب التهذيب: ١٠/ ٤٠٣.

وانظر: الذهبى سير أعلام النبلاء: ٣٩١/٦ وما بعدها.

(١) حديث: (حدّ السحر الضرب بالسيف إذا تاب...) تقدم تخريج أحاديث حول الساحر، وهل له توبة أم لا؟.

ما يقبل توبة الساحرة إذ هو أبلغ فى تمييز ما هو حجة منه مما ليس بحجة. انتهى. أعاذنا الله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، آمين.

وذكر ابن كثير: قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبر أبو الزناد حدثنى هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت: قدمت امرأة على من أهل دومة الجندل جاءت تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك تسأله عن أشياء دخلت فيها من أمر السحر ولم تعمل به، قالت عائشة رضي الله عنها لعروة: يا ابن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله - ﷺ - فكانت تبكى حتى إنى لأرحمها فتقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت، وكان لى زوج فغاب عنى، فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلت ما آمرك به، فاجعله يأتيك، فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين، فركِبْتُ أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن شىء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلت: أتعلم السحر، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى، فأبيت وقلت: لا، قالا: فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه، فذهبت ففزعت ولم تفعل فرجعت إليها فقالا: فعلت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم، فقالا: هل رأيت شيئًا؟ فقلت: لم أر شيئًا، فقالا: لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فأريتُ وأبيت، فقالا: اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه، فذهبت فاقشعررت وخفت، ثم رجعت إليهما وقلت: قد فعلت، فقالا: ما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئًا فقالا: كذبت لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فإنك على رأس أمرك، فأربتُ وأَبَيْتُ، فقالا: اذهبى إلى ذلك التنور فبولى، فذهبت إليه، فبلت فيه، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خرج منى فذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ فقلت: رأيت فارسًا مقنعًا خرج منى فذهب فى السماء حتى ما أراه، فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبى، فقلت للمرأة: والله فلا علم شيئًا وما قالا لى شيئًا، فقالت: بلى، لم تريدى شيئًا إلا كان، خذى هذه القمح فابذرى، فقلت: اطلعى فطلعت، وقلت: احقلى، فأحقلت، ثم قلت: افركى ففركت ثم قلت: أيبسى فأَيْبَسَت، ثم قلت: اطحنى فأُطحنت، ثم قلت: اخبزى فأخبزت، فلما رأيت أنى لا

أريد شيئًا إلا كان سقط فى يدى، ونَدِمتُ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئًا ولا أفعله أبدًا)(١).

وروى ابن حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولاً، كما تقدم، وزاد بعد قولهما: ولا أفعله أبدًا، فسألت أصحاب رسول الله - ﷺ - حداثة وفاة رسول الله - ﷺ - وهم يومئذ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس رضي الله عنهما، أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيين أو أحدهما، قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان(٢).

قال ابن أبى الزناد: ولو كان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع وخشيته من الله - تعالى - ثم يقول هشام: أو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت توكّي أهل حمق وتكلف بغير علم.

وهذا إسناد جيد إلى عائشة - رضي الله عنها - وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن فى قلب الأعيان، لأن هذه المرأة بذرت واشتغلت فى الحال.

وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلاَّ على التخيل كما قال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٦) وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦).

واستدل به على أن بابل المذكور فى القرآن هو بابل العراق، لا بابل دماوند، كما قال السدى وغيره.

ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبى حاتم، حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنى ابن وهب، حدثنى ابن لهيعة، ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن على بن أبى طالب - رضي الله عنه - قال: إن حبيبى - ﷺ - نهانى أن أصلى ببابل فإنها ملعونة(٣).

---

(١) حديث: (قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته حداثة تسأله. . .) قال السيوطى فى الدر المنثور: أخرجه ابن جرير، وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه والبيهقى فى السنن الكبرى، كلهم عن عائشة رضي الله عنها. انظر: السيوطى الدر المنثور: ١/ ٢٤٦، وانظر أيضًا ابن كثير: التفسير المشهور ١/ ١٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر: السيوطى: الدر المنثور ١/ ٢٤٦ السابقة.

(٣) حديث: (**إن حبيبى ﷺ نهانى أن أصلى ببابل فإنها ملعونة**) أورده السيوطى فى الدّر المنثور وقال: أخرجه أبو داود وابن أبى حاتم والبيهقى فى السنن. انظر الدر المنثور ١/ ٢٣٦.

وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب ويحيى بن أزهر عن عمار ابن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن عليّا رضي الله عنه مر ببابل، وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال: إن حبيبى - صلى الله عليه وسلم - نهانى أن أصلى فى المقبرة، ونهانى أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة)[1].

حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب أخبرنى يحيى بن أزهر، وابن لهيعة، عن الحجاج ابن شداد، عن أبى صالح الغفارى، عن على جاءنى حديث سليمان بن داود وقال: فلما خرج (مكان. . . فلمَّا برز) وهذا الحديث حسن عند الإمام أبى داود، لأنه رواه وسكت عليه، ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين.

قال أصحاب الهيئة: وبُعد ما بين بابل - وهى من إقليم العراق - عن البحر المحيط الغربى، ويقال له: أو قيانوس: سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً، أما عرضها وهو بعد ما بينهما وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب وهو المسامت لخط الاستواء اثنتان وثلاثون درجة، والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله، يحيى الموتى.

ورواه رجل من صالح المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال: إن كان ساحراً فليُحْيى نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٣) فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك، فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم. وقال الإمام أبو بكر الخلال[2]: أخبرنا

---

(١) حديث: (إن عليا رضي الله عنه مرَّ بابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذن بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن. . .) انظر تخريج الحديث السابق مباشرة.

(٢) (أبو بكر الخلال) الإمام العلامة الحافظ الفقيه شيخ الحنابلة وعالمهم أبو بكر أحمد بن محمد ابن هارون بن يزيد البغدادى الخلال، ولد فى سنة أربع وثلاثين ومائتين أو فى التى تليها فيجوز أن يكون رأى الإمام أحمد ولكنه أخذ الفقه عن خلق كثير من أصحابه، وتلمذ لأبى بكر المروذى، وسمع من الحسن بن عرفة وسعدان بن نصر ويحيى بن أبى طالب، ورحل =

عبد الله بن أحمد بن حنبل(١) حدثنى أبى(٢)، حدثنا يحيى بن سعيد(٣)، حدثنى

= إلى فارس وإلى الشام والجزيرة يتطلب فقه الإمام أحمد وفتاويه وأجوبته وكتب عن الكبار والصغار حتى كتب عن تلامذته وجمع فأوعى، ثم إنه صنف كتاب الجامع فى الفقه من كلام الإمام بأخبرنا وحدثنا يكون عشرين مجلدًا، وصنف كتاب العلل عن أحمد، فى ثلاث مجلدات وألف كتاب السنة وألفاظ أحمد والدليل على ذلك من الأحاديث فى ثلاث مجلدات تدل على إمامته وسعة علمه، ولم يكن قبله للإمام مذهب مستقل حتى تتبع هو نصوص أحمد ودوَّنها وبرهنها بعد الثلاث مائة فرحمه الله تعالى قال أبو بكر بن شهريار: كلنا تبع لأبى بكر الخلال، لم يسبقه إلى جمع علم الإمام أحمد أحد.

قلت: توفى فى شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثلاث مائة وله سبع وسبعون سنة ويقال: بل نيف على الثمانين.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٢٩٦ الترجمة رقم (١٩٣).

(١) (عبد الله بن أحمد بن حنبل) هو: عبد الله بن أحمد بن حنبل، أبو عبد الرحمن البغدادى، الحافظ ابن الحافظ، روى عن أبيه، وابن معين، وخلق. . . وروى عنه النسائى، وابن صاعد، وأبو عوانة، والطبرانى، وأبو بكر النجاد، والقطيعى، وأبو بكر الشافعى، وخلق، قال أبو زرعة قال لى أحمد بن حنبل ابنى عبد الله محظوظ من علم الحديث، لا يكاد يذاكرنى إلا بما لا أحفظ، وقال ابن عدى: قبل بأبيه وله فى نفسه محل فى العلم، فأحيا علم أبيه، ولم يكتب عن أحد إلا عمن أمره أبوه أن يكتب عنه. . . وقال الخطيب كان ثقة ثبْتًا فهمًا، ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين، ومات سنة تسعين ومائتين.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٩١ الترجمة رقم (٦٦٠) والمزى: تهذيب الكمال ١٠/ ١١ الترجمة رقم (٣١٤٠).

(٢) أى: أبيه الإمام أحمد بن حنبل.

(٣) (يحيى بن سعيد) بن فروخ القطان التميمى، أبو سعيد البصرى الأحول الحافظ، يقال مولى بنى تميم، ويقال: ليس لأحد عليه ولاء، ولد سنة: ١٢٠هـ. وتوفى رحمه الله سنة: ١٩٨هـ، روى له: البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى، وابن ماجه، والنسائى، قال عنه ابن حجر: ثقة متقن، حافظ إمام قدوة، وقال الذهبى: الحافظ الكبير، كان رأسًا فى العلم والعمل، قال أحمد: ما رأيت مثله، وقال بندار: أنبأنا إمام أهل زمانه يحيى القطان، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: ما رأيت أعلم بصواب الحديث والخطأ من عبد الرحمن بن مهدى، فإذا اجتمع يحيى وعبد الرحمن على ترك حديث رجل تركت حديثه، وإذا حدث عنه أحدهما حدثت عنه، يقول: ما رأيت أعلم بالرجال من يحيى القطان، وكذا على بن المدينى: ما رأيت أحد أعلم بالرجال من يحيى بن سعيد.

وقال محمد بن سعد: كان ثقة مأمونًا رفيعًا حجة، وقال العجلى: بصرى ثقة، نقى الحديث، كان لا يحدث إلا عن ثقة، أجمعوا على أنه مات سنة ثمان وسبعين ومائة: فى صفر. =

أبو إسحاق، عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً[١].

أول الشافعي ـ ﷺ ـ قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركا، والله سبحانه أعلم، والقصتان المذكورتان، ما روى الإمام أحمد بن حنبل والشافعي ـ ﷺ ـ قال: أخبرنا سفيان بن عينية، عن عمرو بن دينار[٢] أنه سمع بجالة بن عبدة[٣] يقول: كتب عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضًا.

= انظر: المزى: تهذيب الكمال ٢٠/ ٩١ الترجمة رقم (٧٤٢٨) وانظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب: ١١/ ٢٢٠.

(١) حديث: (**كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب...**) انظر: سنن البيهقى ٨/ ١٣٦، وابن كثير ١/ ١٩٩.

(٢) (**عمرو بن دينار**) المكى، أبو محمد الأثرم، الجمحى، مولى موسى بن باذم توفى سنة: ١٢٦هـ روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، والنسائى، قال ابن حجر: ثقة ثبت... وقال الذهبى: إمام، قال المزى فى «تهذيب الكمال» قال البخارى، عن على: له نحو أربع مائة حديث، وقال محمد بن على الجوزجانى، عن أحمد بن حنبل: كان شعبة لا يقدم على عمرو بن دينار أحداً لا الحكم ولا غيره ـ يعنى فى الثبت، قال: وكان عمرو مولى ولكن الله شرفه بالعلم، وقال أبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائى ثقة، زاد النسائى: ثبت، وقال أبو سلمة بن عيينة، عن عمرو بن دينار: جالست جابراً، وابن عمر، وابن عباس، وقال الواقدى: مات سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثمانين سنة، وقال أحمد بن حنبل: مات سنة خمس أو ست وعشرين ومائة، وذكره ابن حبان فى «الثقات» وقال: جاوز السبعين، روى له الجماعة انظر: الحافظ ابن حجر: فى «تهذيب التهذيب ٨/ ٣٠ وانظر: أيضًا تهذيب الكمال ١٤/ ٢١١ الترجمة رقم (٤٩٤٤).

(٣) (**بجالة بن عبدة التميمى**) ثم العنبرى البصرى، كاتب جزء بن معاوية، عم الأحنف بن قيس، روى عن عبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن عوف، وروى عنه عمرو بن دينار، وقتادة وغيرهما.

روى له البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى.

انظر: المزى: تهذيب الكمال ٤/ ٨/ ٦٣٧.

وانظر ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٣٣٩/ ٧٦١.

ابن حجر: تهذيب التهذيب ١/ ٣٦٥/ ٧٧١.

ابن عبد البر: التمهيد: ٢/ ١٢٥

وهكذا صح أن حفصة ـ أم المؤمنين ـ سحرتها جارية لها فأمرت بها فقُتِلَت.

وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم(١)، عن الحسن(٢)، عن

---

(١) (إسماعيل بن مسلم المكّى) أبو إسحاق البصرى مولى حدير من الأزد، أصله بصرى، سكن مكة فلكثرة مجاورته بمكة قيل له المكى، وكان فقيهًا مفتيًا روى عن حبيب بن أبى ثابت والحسن البصرى، والحكم بن عتبة، وحماد بن أبى سليمان، وحميد بن هلال العدوى، ورجاء بن حيوة، ويونس بن عبيد، وأبى إسحاق السبيعى، وأبى رجاء العطاردى وغيرهم. . . روى عنه أبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة الملائى وبكر بن وائل بن داود وحفص بن غياث وزيد بن بكر بن خنيس الكوفى وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة وسلمة بن الفضل الأبرش وسليمان الأعمش، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل سمعت أبى يقول: إسماعيل بن مسلم المكى، ما روى عن الحسن فى القراءات، فأما إذا جاء إلى مثل عمرو بن دينار وأسند عنه بأحاديث مناكير بشىء فكأنه ضعفه، روى له الترمذى، وابن ماجه. انظر: الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ١/ ٣٣٢، وانظر أيضًا: تهذيب الكمال للمزى: ٣/ ١٩٨ الترجمة رقم (٤٨٣).

(٢) (الحسن البصرى) الحسن بن أبى الحسن: يسار البصرى، الأنصارى مولاهم أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت، ويقال مولى جابر بن عبد الله. من التابعين، توفى رحمه الله (سنة ١١٠ هـ) روى له: البخارى ومسلم وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، والنسائى، قال ابن حجر: ثقة فقيه فاضل مشهور، وكان يرسل كثيرا ويدلس، وقال الذهبى: الإمام، كان كبير الشأن، رفيع الذكر، رأسا فى العلم والعمل، قال المزى فى «تهذيب الكمال» وأمه خيرة مولاة أم سلمة، زوجة النبى ﷺ، قال محمد بن سعد: واسم أبى الحسن يسار، ونشأ الحسن بوادى القرى، وكان فصيحًا، رأى على بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة، ولم يصح له سماع من أحد منهم، وحضر يوم الدار، وله أربع عشرة سنة، عن عمرو بن مرة: إنى لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين: الحسن، ومحمد بن سيرين. انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، فأما الحسن ابن أبى الحسن فما رأينا أحدًا من الناس كان أطول حزنًا منه، وما كنَّا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة، ثم قال: نضحك، ولا ندرى لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا، ويحك يا ابن آدم، هل لك بمحاربة الله طاقة؟ إنه من عصى الله فقد حاربه، والله لقد أدركت سبعين بدريًا، أكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم قلتم مجانين، قال أحمد بن حنبل: عن إسماعيل ابن علية: مات الحسن فى رجب سنة عشر ومائة، وقال سفيان بن عيينة، عن عبد الله بن الحسن بن أبى الحسن البصرى: هلك الحسن البصرى، وهو ابن نحو من ثمان وثمانين سنة، وقال أبو نصر الكلاباذى: بلغ تسعًا وثمانين سنة.

ومناقبه وفضائله كثيرة جدا، اقتصرنا منها على هذا القدر طلبا للتخفيف.

روى له الجماعة. . قال الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ٢/ ٢٦٦ وانظر: المزى: تهذيب الكمال ٤/ ٢٩٧ الترجمة رقم (١١٩٨).

جندب الأزدى[١] أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ : (حد الساحر ضربة بالسيف)[٢].

إلى هنا كلام التفسير لابن كثير، تم ما يتعلق بالسحر، ولله الحمد والمنة.

---

(١) **(جندب الأزدى)** عبد الله بن مالك بن القشب: جندب، الأزدى، أبو محمد، يعرف بابن بحينة (وهى أمه، وهو حليف لبنى المطلب) صحابى توفى: بعد سنة ٥٠ هـ ببطن ريم، روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، والترمذى، والنسائى... قال المزى فى «تهذيب الكمال»: أسلم وصحب النبى ﷺ قديمًا، وكان ناسكا فاضلا يصوم الدهر، وكان ينزل بطن ريم... على ثلاثين ميلا من المدينة ومات به فى عمل مروان بن الحكم الآخر على المدينة، وكانت ولاية مروان بن الحكم الثانية على المدينة من سنة أربع وخمسين إلى ذى القعدة من سنة ثمان وخمسين، روى عنه... ومحمد بن يحيى بن حبان، وسمى فى روايته مالك ابن بحينة روى له الجماعة، قال الحافظ فى «تهذيب التهذيب» ٥/ ٣٨١ وانظر: المزى: تهذيب الكمال: ٣/ ٤٥٦ الترجمة رقم (٩٥٨).

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث.

مجلس في:

بيان مناظرة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه

في إحدى عشرة آية من سورة هود ـ عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد

فهذا مجلس في بيان مناظرة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، في إحدى عشرة آية من سورة هود[1] ـ عليه السلام.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: حدثني أبو سفيان بن حرب[2] من فيه إلى فيَّ قال:

---

(١) ذكر المؤلف أنها إحدى عشر آية يذكر فيها نبي الله نوح مع قومه في هذه السورة، والصحيح هي خمس وعشرين آية وهي من الآية (٢٥) إلى الآية (٤٩) من سورة هود، وسوف أذكر نص كل آية منفصلا أثناء شرح المؤلف لكل آية بالإضافة إلى ما ذكره من سورة نوح والملاحظ أنه قسم لهذا المجلس مجموعة من الآيات ثم أجّل للمجلس الآتي حوالي ثماني آيات ستتكلم عنها في حينها. . . (المحقق).

(٢) **(أبو سفيان بن حرب)** هو: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو سفيان، (والد معاوية بن أبي سفيان) صحابي، توفي سنة: ٣٢هـ، وقيل بعدها، روى له: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي. . . قال المزي في «تهذيب الكمال» وقال النبي ﷺ يومئذ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وشهد حنينًا، وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية، وشهد الطائف، وفقئت عينه يومئذ، وشهد اليرموك، قال ابن سعد: لم يزل على الشرك حتى أسلم يوم فتح مكة، قال له النبي ﷺ لما ذهبت عينه وهي في يده: أيما أحب إليك، عين في الجنة، أو أدعو الله أن يردها عليك؟ قال: بل عين في الجنة، ورمى بها، وأصيبت عينه الأخرى يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد، ولد قبل الفيل بعشر سنين، وكان ربعًا عظيم الهامة، روى له الجماعة سوى ابن ماجه حديث هرقل. اهـ.

انظر الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٤/ ٤١٢ وانظر: المزي: تهذيب الكمال: ٩/ ٧٠ الترجمة رقم (٢٨٣٨).

انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فبينا أنا بالشام إذا جىء بكتاب من النبى ـ ﷺ ـ إلى هرقل قال: وكان دحية الكلبى جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال: هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قالوا: نعم، فدُعيت فى نفر من قريش فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسونى بين يديه، وأجلس أصحابى خلفى، ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم إنى سائل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذبنى فكذبوه.

قال أبو سفيان: وايم الله لولا مخافة أنه يؤثر علىَّ الكذب لكذبته، ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟.

قال: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟.

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

قلت: لا.

قال: يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟.

قال: قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟.

قلت: لا، يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟.

قال: قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟.

قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً، يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟.

قلت: لا، ونحن منه فى هذه المدة لا ندرى ما هو صانع فيها.

قال: والله ما أمكننى من كلمة أُدخل فيها شيئًا غير هذه.

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟.

قلت: لا.

ثم قال لترجمانه: قل له: إنى سألتك عن حَسَبِهِ فيكم فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها.

وسألتك هل كان فى آبائه ملك، فزعمت أنه لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه.

وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أنه لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له، فزعمت أنه لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب.

وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لها العاقبة.

وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله لقُلْتُ: رجل يأتسى. يقول قيل قبله.

قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف.

قال: إن يك ما تقول حقا فإنه نبى، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أك أظنه منكم، ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى، ثم دعا بكتاب رسول الله ـ ﷺ ـ فقرأه[1] متفق عليه.

---

(١) حديث: عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه قال: ثم انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام إذ جىء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل ـ يعنى عظيم الروم ـ قال: وكان جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قالوا: نعم، قال: فدُعيت فى نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسبا =

= من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، فقال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى ثم دعا بترجمانه فقال له: قل لهم: إنى سائل هذا عن الرجل الذى يزعم أنه نبى، فإن كَذَبَنى فكذّبوه، قال: فقال أبو سفيان: وايم الله لولا مخافة أن يؤثر عنى الكذب لكذبت، ثم قال لترجمانه: سله، كيف قال؟ قلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: ومن يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون، قال هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا، يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها، قال: فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها هذه؟ قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال قلت: لا، قال لترجمانه: قل له: إنى سألتك عن حسبه فزعمت انه ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها، وسألتك هل كان فى آبائه ملك فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله، قال: ثم قال بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبى، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى، قال ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابى حين =

عن ابن عبـاس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبى ـ ﷺ ـ كتب إلى قـيصر يدعـوه إلى الإسلام وبعث بكتابه إليه دحية الكلبى(١) وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر،

= خرجنا: لقـد أمر ابن أبى كبـشة إنه ليخـافـه ملك بنـى الأصـفر، قـال: فما زلت مـوقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام).

انظر الحديث فى: صحيـح مسلم ٣/ الحديث رقم (١٣٩٣) وصحيح البـخارى: ٤/ الحديث رقم (١٦٥٧) وصحيح ابن حـبان: ٤/ ٤٩٢، ومسند أبى عوانة: ٢٦٦/٤ الشيـبانى فى الآحاد والمثانى: ٣٦٨/١ الإمام الطبرانى: المعجم الكبير: ٨/ ١٤.

(١) (دحية الكلبى) ابن خليفة بن فروج بن القضاعى صاحب النبى ﷺ ورسوله بكتابه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى هرقل، روى الأحاديث، حدث عنه: منصـور بن محمد بن كعب القرظى، وعبد الله بن شداد بن الهاد، وعـامر الشعبى، وخالد بن يزيد بن معاوية. وقـد شهد اليرموك، وكان على كردوس وسكن المزة.

عن الشعبى، عنه قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس فينتج لك بغلة تركبها، قال: «إنما يفعل ذلك الـذين لا يعلمون» رواه عيسى بن يونس عن عمر عن الشـعبى مرسلا أن حذيفة قال ذلك، قال ابن سعد: أسلم دحية قبل بدر ولم يشهدها، كان يشبه بجبريل، بقى إلى زمن معاوية، وقال دحـيم ذريته بالبقاع، عن دحية: قـدمت من الشام فأهديت إلى النبى ﷺ فاكهة يابسة من فستق ولوز وكعك... الحديث إسناده واه، وعن جابر الجعفى عن الشعبى عنه قال: أهديت لرسول الله ﷺ جبة صوف وخفين فلبسهما حتى تخرقا، جابر واه، وعن سلمة ابن كهيل عن عبـد الله بن شداد عن دحية قال بعث رسول الله ﷺ معى بكتـاب إلى قيصر، فقمت بالباب فقلت: أنا رسول رسول الله، ففـزعوا لذلك، فدخل عليه الآذن فُأدخلت وأعطيته الكتاب: من محمد رسول الله إلى قيصـر صاحب الروم، فإذا ابن أخ له أحمر أزرق قد نخر ثم قال: لِمَ لم يكتب ويبدأ بك؟ لا تقرأ كـتابه اليوم، فقال لهم: اخرجوا، فـدعا الأسقف وكانوا يصدرون عـن رأيه، فلما قـرئ عليه الكتـاب قال: هو والله رسول الله الـذى بشرنا به عـيسى وموسى، قال: فـأى شيء ترى؟ قال: أرى أن نتبعـه قال قيصر: وأنا أعلـم ما تقول، ولكن لا أستطيع أن أتبعه، يذهب ملكى ويقتلنى الروم، رواه اثنان عن يـحيى بن سلمة عن أبيه عبد الله ابن أبى يحيى عن مجاهد قال: بعث رسول الله ﷺ دحية سرية وحده.

قالت أم سلمة: كـان النبى ﷺ يحدث رجلا، فلما قام قـال يا أم سلمة من هذا؟ فقلت فلم أعلم أنه جـبريل حـتى سمعت رسـول الله ﷺ يحدث أصـحابه مـا كان بيننا، فـقلت لأبى عثمـان: من حدثك بهذا؟ قال أسـامة عفيـر بن معدان عن قتـادة عن أنس أن النبى ﷺ كان يقول: «يأتينى جـبريل فى صورة دحـية» وكان دحيـة جميلا، قـال خليفة بن خـياط: فى سنة خمس بعث النبى ﷺ دحية إلى قيصر، قلت كذا قال: وإنما كان ذلك بعد الحديبية فى زمن الصلح كما ذكره أبو سفيان فى الحديث الطويل الذى فى الصحيح.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٥٠.

فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد... فإني أدعوك بداعية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فعليك اسم الأريسيين و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)، متفق عليه.

وفي رواية لمسلم قال: من محمد رسول الله، وقال: أسلم تسلم، وقال: بدعاية الإسلام.

كلا الحديثين من مشكاة المصابيح:

الأول: في باب علامات النبوة **والثاني:** في باب الكتاب إلى الكفار.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ الواو ابتدائية، واللام لام القسم دخل على جوابه «وقد» للتحقيق والتوقع، فإن اللام لما أشعر بالقسم صار الجواب متوقعًا فجيء بـ «قد» لكون الجواب متوقعًا.

﴿ نُوحًا ﴾: قيل اسمه «يشكر» وسمي نوحًا لكثرة نوحته، إن كان عربيا، كما قيل: إنه كان يتكلم بالعربية، وإن كان عجمه، كما هو الظاهر، فيحتمل أنه كان بمعنى التوجه في لغتهم، فيكون من توافق اللغتين، كما قيل في إدريس وغيره.

وسبب نوحته قيل: دعا على قومه بقوله المحكي في القرآن: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧) وقيل: نوح لهلاك ابنه بقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (هود: ٤٥) فلما عوتب على ندائه لابنه بكى بكاء كثيرًا، كما سيجيء.

وقيل: مر على كلب مجذوم فقال: اخسأ ما أقبحك، قال الله تعالى: أعبتني وعبت مخلوقي؟ اخلق مثله، إن قدرت، فناح وبكى سنين متوالية[1].

وهو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس بن برد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم ـ عليه السلام ـ ولد عليه السلام ـ لسنة ثلاث عشرة وخمسمائة

(١) حديث: (مرَّ على كلب مجذوم...).
انظر تفسير البغوي ١/ ٢٤٠، وانظر تفسير روح المعاني للآلوسي ٨/ ١٤٩.

وألف من هبوط آدم ـ عليه السلام ـ وبعد وفاة إدريس ـ عليه السلام ـ بإحدى وثلاثين سنة.

وهو أول من نهى عن عبادة الأصنام، وأول نبى أوذى فى الله، وأول من دعا على قومه، وكان قد بعث وهو فى سن أربعين سنة ولبث فى قومه يدعوهم إلى (تسعمائة وخمسين سنة) وبقى بعد الطوفان ستين سنة، فجملة عمره ألف وخمسون سنة.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي﴾ بالكسر أى قائلا: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ من «أبان» المتعدى، أى: أبين لكم موجبات العذاب من الكفر والمعاصى ووجه الخلاص منها من التوبة والتكفير بالحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤).

﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا﴾ أن مصدرية مفعول لـ «مبين» فيكون من موجبات العذاب عبادة غير الله، ومن وجه الخلاص عبادة الله ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ فهذا الكلام نهى عن عبادة غير الله وأمر بعبادة الله، فيكون كلامًا جامعًا لجوامع النهى والأمر، وكان قوم نوح عليه السلام ـ يعبدون الصور المتخذة من جواهر الأرض كالذهب والحجر للصالحين المؤمنين بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ أسماء هؤلاء الصالحين مذكورة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا﴾ أى: أشراف قوم نوح ـ عليه السلام ـ وأخاهم: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ (نوح: ٢٣، ٢٤).

اتفق المفسرون على أن هذه الأسماء رجال صالحين بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ ثم نقلت هذه الأوثان إلى العرب بإلقاء الشياطين، وكانت القبائل من قريش وغيرها فى عهد نبينا أيضًا يعبدون صور الأولياء، وكانوا أيضًا مقرين بالله، حيث كانوا يقولون كما حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣).

فإن قيل: ما الحكمة فى أن الكفار فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ وفى زمن نبينا ـ ﷺ ـ كانوا يعبدون الأولياء للتقرب إلى الله، ويؤذون الأنبياء ويقاتلونهم، ونسب الولى إلى النبى كنسبة الشهب إلى الشمس فى الفضل والشرف.

قلنا: السرُّ فيه أن الأنبياء مبعوثون بالإنذار، والكلام، وجرح القلوب كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التحريم: ٩) وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥).

والأولياء من أممهم مبعوثون بإلانة الكلام، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وجذب القلوب فلا يجرحون قلبًا ولا يؤذون أحدًا.

فلذا بغض السفهاء من الناس الأنبياء الكاملين الجارحين للقلوب ويحبون الأولياء، فمثلهم كمثل رجل أخذته الحمى المحرقة الوبائية فالطبيب الحاذق يخرجه بالجرح ويخرج دمه الفاسد لإصلاح مزاجه، وغير الحاذق يدهنه ويُطيِّبه بالإدهان النافعة، فإن كان المحموم من العقلاء يعلم أن النفع فى الجرح وإخراج الدم الفاسد، وإن كان من السفهاء والمجانين يحب الدهن ويبغض الجارح.

وفى زماننا هكذا حال الظلمة والمنافقين وأصحاب الكبائر يحبون كل مدهن ممن هو متسم بالصلاح وهو الولى عندهم، لكنه ولى الشيطان، ويبغضون العلماء بالله، الجارحين لقلوب أعداء الله الحاذقين فى إصلاح أمزجة قلوب المؤمنين.

أعاذنا الله من شرور أنفسنا ومن شرور الظالمين.

ثم علل نبى الله عن عبادة غير الله والأمر بعبادة الله بقوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾(١) إذا ارتكبتم المنهِىَّ وتركتم المأمور به.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان ﴿أَلِيمٍ﴾ ذى ألم، من ألم فهو أليم، أى: صار ذا ألم فهو ذو ألم، مثل وجع فهو وجيع أى صار ذا وجع فهو ذو وجع.

كذا قال البيضاوى فى سورة البقرة، وصححه سعد الدين التفتازانى بأن ﴿أَلِيمٍ﴾ بمعنى مؤلم بفتح اللام اسم مفعول من الإيلام، وهو صفة المُعذَّب اسم مفعول، وتوصيف اليوم به أو العذاب على أن الجر للجوار نسبة مجازية كقولك: نهاره صائم على الأول، وجد جده على الثانى، لأن العذاب ألم صارخ.

﴿فَقَالَ﴾: بعد ما سمع كلامه من غير تراخ وروية.

﴿الْمَلأُ﴾: أى: الأشراف من ملئ أو ملؤ بكذا، أى: أطاق، لأن الأشراف يطيقونه كفاية الأمور والتدبير، أو من مالأ أى: ظاهر، لأن الأشراف يظاهر بعضهم بعضًا أو من ملأ الإناء، متعديًا، لأن الأشراف يملئون العيون هيبة والمجالس زينة،

---

(٤) الآية رقم (٢٥، ٢٦) من سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

ومن ملأ الحوض لأزمان، لأن الأشراق ملأ العقول الراجحة والأفكار الصائبة فى أمور معاشهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دون المؤمنين.

﴿مِن قَوْمِهِ﴾: دون غيرهم مع كمال علمهم بحال نوح - عليه السلام - فى الاستقامة والسداد.

﴿مَا نَرَاكَ﴾ رؤية قلب هو الظاهر أو إبصار مبالغة كأنه مبصر.

﴿إِلاَّ بَشَرًا﴾ لست بملك، كما قالوا فى سورة المؤمنون:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾(١).

﴿مِّثْلَنَا﴾ فى كونك محكومًا للأمراء والملوك، أى: لست بملك فمن أين يجب لك الإطاعة علينا.

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾(٢) جمع أرذل اسم تفضيل، كالأكابر، والأحاسن، والإضافة للتخصيص مثل يوسف وإخوته حتى لا يلزم مشاركة الأشراف فى الرذالة، ومن هذا جعل أفعل وصفيًا، أو الأراذل جمع: أرذل جمع رذل كالأكالب وأكلب، وكلب.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ متعلق بـ «اتبعك» وتتميم وهو أنه يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود صيغة للمبالغة أو لغيرها.

والمعنى هنا: اتبّعك الأراذل دون الأشراف، وهم ما اتبعوك إلا وقت حدوث ظاهر الرأى، يجوز أن يكون مقلوب الهمزة لكسرة ما قبلها، فالمضافات محذوفات.

ويجوز أن يتعلق ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بقوله: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أى: كونهم أرذل ظاهر لكل من رأى. فالمراد بادى الرأى للعين.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ خلط الملاعين النبى الأشراف من كل مخلوق بالأراذل فى زعمهم.

﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأن الملاعين كانوا يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن

---

(١) الآية رقم (٢٤) من سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾.

(٢) الآية رقم (٢٧) من سورة هود: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

الآخرة هم غافلون، وكأن الأشراف عند الله وعندهم من له جاه ومال، ومن كان فقيراً غير ذى جاه كانوا يعتقدون أنه أرذل عند الله والناس، وترى المتسمين بالإسلام هذا الزمان يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زل عنهم أن الدنيا لا تقرب عند الله بل تبعد غالبًا ولا ترفع بل تضع، أعاذنا الله من سوء اعتقاد الجهال.

﴿**بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[1] ترقى الملاعين وأضربوا عما ذكروا، قيل: إلى الظن، أى: اليقين، ادعاء فهو كقوله تعالى: ﴿**يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ**﴾[2] أى: نعلم يقينا أنك يا نوح كاذب فى دعوة النبوة، وأن أتباعك كاذبون فى دعوى العلم برسالتك، وسبب ظنهم هذا ما أفاده الإمام فى سورة الأعراف: أن البراهمة من المجوس وعبدة الأصنام يقولون: إن الله لا يكلف شيئًا لأنه لا نفع له للتكاليف كالسلاطين، ولا نفع للمكلف عاجلاً، لأن التكليف مشقة، ولا آجلاً إذ الله قادر على أن يوصل النفع إلى المكلفين فى الآخرة بدون التكليف.

وهذا الزعم باطل، وأمَّا عاجلاً فلأن إخلاء العالم من الهرج والمرج المغضبين إلى خراب العالم لا يتم إلاَّ بواسطة الأنبياء، كما قال الحكماء: الإنسان مدنى بالطبع، فلا بد من النبى إلى ما قالوا، وأما آجلاً: فلأن الله ـ تعالى ـ يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، وقد جعل أمر الإثابة والعقاب منوطًا على كسب المكلفين واختيارهم ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ (الأنبياء: ٢٣) وفيه من الحكم ما لا يحصى.

ومن جملته: إقامة العدل فى الأولى والآخرة.

ويقولون أيضًا: العقل ما كان فيه حسن نفعله، وما قبحه نتركه، وما كان مُحتمَلاً نفعله عند الاضطرار ونتركه عند الاختيار، وهذه الشخصية أوهن من الأولى، وكلتاهما أوهن من بيت العنكبوت، فإن فى زماننا يفعل الظلمة أفعالاً كونها ظلمًا أجلى من الشمس فى نصف النهار، فكيف يكتفى العقل حاشاه من ذلك.

﴿**قَالَ**﴾: نوح ـ عليه السلام ـ مجيبًا عنهم وعن شبههم المزيفة إجمالا بقوله: ﴿**يَا قَوْمِ**﴾: أضافهم إلى نفسه تليينًا للكلام، كقوله تعالى: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا**﴾ (طه: ٤٤).

---

(١) جزء من الآية السابقة.

(٢) الآية رقم (٤٦) من سورة البقرة، ونصها: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾.

أى نفعكم نفعى وضرركم ضررى.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أى أخبرونى، فإن الاستفهام عن الرؤية يستعمل كناية عن الإخبار فى العرب والعجم، وهو جواب عند الكوفية ودليل عند البصرية.

﴿إِن كُنتُ﴾ وإيثار «إن» وهو للشك على إذا، وهو الجزم وهو المناسب هنا لعدم جزم المخاطبين فيكون الكلام مجازاة معهم، وصيغة المضى، والأصل بعد «إن وإذ» صيغة المضارع لتحققه فجرى على زعمهم فى أول كلامه، ثم أتى بما فى نفس الأمر قضاء لحق الكلام.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أى عظيمة وهى المعجزة الشاهدة بصحة دعواه صادرة.

﴿مِّن رَّبِّي﴾ بمحض لطفه لا باستحقاقى وكسبى.

﴿وَآتَانِي﴾ أى: الله ﴿رَحْمَةً﴾ أى: عظيمة وهى النبوة، فإنها رحمة للكافة صادرة ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ أى: بفضله.

﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أى: خفيت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وأصل الكلام: جعلت البينة عمياء، فإذا عمى الدليل بقى القوم متحيرين لا يهتدى إليهم دليلهم حتى يهديهم، ففى الكلام استعارة تمثيلية، وإنما أفردت: «عميت» لأن إخفاء البينة يستلزم إخفاء النبوة، أو لأن المراد: عميت كل واحدة منهما، أو فى الكلام اختصار، وأصله: إن كنت على بينة من ربى فعميت عليكم وأتانى رحمة فعميت عليكم، فحذف للاكتفاء.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾[1] جواب للشرط، والشرطية مفعول ثان لـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ إن كانت الرؤية علمية.

كما فعله البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ (العلق: ١١، ١٢).

وإن كانت الرؤية إبصارية، أو بمعنى المعرفة، كما فعله الرضى، تكون الجملة الشرطية استئنافية لبيان الحال العجيبة المسئول عنها، والهمزة للإنكار والإلزام إلزام جبر وقسر، وهو منتف لأن بناء الكلام على اختيار وإلزام إيجاب وإذعان، وهو فى الواقع ثابت من الأنبياء والعلماء، لكن على المنصف غير الكابر عقله والعاند، وهو منتف هنا لقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾: أى كيف ألزمكم البينة والحال أنتم تكرهونها لا تريدون

---

(١) الآية رقم (٢٨) من سورة هود: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

علمها ولا تتفكرون فيها بل تبغضونها وتبغضون من أتاها، فالضميران أيضًا للبينة وكراهة ههنا مستلزمة لكراهة النبوة.

فهذا الكلام رد لجميع شبههم إجمالاً.

ثم فصل بعض التفصيل بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[1] أى: على التبليغ المفهوم من نذير ﴿مَالاً﴾ رد لما فهم من قولهم: «اتبعك أراذلنا» من أن مراده تحصيل المال، وهو لا يحصل إلا من الأشراف دون الأراذل، فقد حرم البغية، أى: ليس بغيتى منكم المال كالقُصَّاص والشعراء، فالغنى والفقير عندى سواء.

﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ فى الدارين.

﴿إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ رد أيضًا لما فهم من قولهم هذا من طلبهم طرد الفقراء حتى تبعه الأشراف، كما وقع لنبينا ـ ﷺ ـ ونُهى بقوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[2] تثبيتًا له وتقبيحًا.

﴿إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فى الآخرة فيشكون إليه منى إن طردتهم، أو ملاقو ثوابه ورحمته فكيف أطردهم.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ عليهم بالإزراء وتتسفهون بقولكم لهم: الأراذل، أى: تجهلون ملاقاة الله فلذا تسترذلونهم.

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾[3]: من يمنعنى من عذاب الله.

﴿إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ عقاب الله.

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾[4] رد لما فُهم من قولهم: «مثلنا» أى لست بملِك (بالكسر) أى لست أدعى الملك، وكون الخزائن عندى حتى أكون ملِكا (بالكسر).

---

(١) الآية رقم (٢٩) من سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

(٢) الآية رقم (٥٢) من سورة الأنعام ونصها: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

(٣) الآية رقم (٣٠) من سورة هود ونصها: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.

(٤) الآية رقم (٣١) من سورة هود ونصها: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ عطف على.

﴿ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أى لا أعلم الغيب حتى أخرج الدفائن فى الأرض، كقوله تعالى:

﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾[١] أى: لأخرجت الكنوز.

كذا فسره بعض المفسرين.

﴿ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ رد لما فُهم من قولهم: «بشرًا» أى ادعيت الملكية حتى تنفعها ولا يلزم منه فضل الملائكة على الأنبياء، على ما هو الظاهر.

﴿ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ رد لصريح قولهم ﴿ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ أى: لا أقول لمن استرذلته عيونكم الخبيثة من تأمل، فالاسترذال فى بادى الرأى العين من غير تأمل.

﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ فى الدارين، لعل يعطيهم منازلكم وأموالكم فى الدنيا بعد غرقكم، والجنة والخلد فى العقبى.

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ من الإخلاص الكامل والإذعان الثابت.

﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ إذا قلت لأحد بهذه الأقوال.

﴿ لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فنبى الله لما ألهمهم الحُجَج، وألزمهم إلزام إيجاب.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾[٢] ولم يخلق بخلق الأولياء الصامتين الغير جارحين للقلوب، وكان نوح عليه السلام، قد أتى بالجدال الأحسن وهو المأمور به، كنبينا ـ ﷺ ـ لقوله: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٣].

﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ بإتيان أنواعه أو بالإطالة فيه، فقد أتيت بالأصل الجدال فى الجواب الإجمالى كما مرَّ، ويعده بأنواع الجدال التفصيلى كما مر من التفصيل.

---

(١) الآية رقم (١٨٨) من سورة الأعراف ونصها: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

(٢) الآية رقم (٣٢) من سورة هود ونصها: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

(٣) الآية رقم (١٢٥) من سورة النحل ونصها: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب فـى قولك: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: ٢٦).

﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: أى: نحن لا نطيعك أصلاً فاصنع ما شئت.

جاءوا بهذا الكلام إقناطا له ـ عليه السلام ـ من إيمانهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ﴾[1] لا أنا ولا غيرى.

﴿إِن شَاءَ﴾ يعنى إتيانه فى وقت مشيئته.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله وقت إتيان العذاب، لا بالهرب ولا بأمر آخر.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ جزاء أو دليله لقوله: ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ واللام مزيدة، لأنه يقال: نصحه، ونصح له،والشرط جزاء لقوله:

﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[2] فأصل الكلام: إن كان يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى، فالمؤخر مقدم، والمقدم مؤخر، على قياس قول الفقهاء فى قول الرجل لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار، إن كلمت زيداً، إن كلمت، ثم دخلت تطلق، وإن عكست فلا.

وحاصل الكلام يرجع إلى قياس استثناء عين المقدم فيه ينتج عين التالى، فالتقدير: لكن أراد الله إغواءكم فلا ينفعكم نصحى، على تقدير وجوده، وتعلق إرادة الله بالإغواء ثابت مفهوم ومعلوم من الآية، لكن لا من الشرطية حتى يقال: إن صدق الشرطية لا يستلزم صدق طرفها، بل من الاستثناء المذكور، ومعلوم أن صدق الشرطية يستلزم صدق الاستثناء، أما استثناء نقيض التالى وهو غير صحيح هنا بالإجماع.

وأما استثناء عين المقدم، وهو صحيح هنا وصادق ويفيد ما ذكرنا خلافًا للمعتزلة خذلهم الله دائما كما خذلهم هنا بهذا البيان.

فأظهر نبى الله ونجيه نوح ـ عليه السلام ـ بعض الحقائق حيث بيَّن أن الأمر كله إلى الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلما لم يشأ إصلاحهم لم ينفعهم نصح نوح ولا نُصح جميع الناصحين، فالمقصود من التبليغ إلزام الحجة، كما قال الله تعالى

---

(١) الآية رقم (٣٣) من سورة هود ونصها: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

(٢) الآية رقم (٣٤) من سورة هود ونصها: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١) وإحراز المثوبة للنبى فى حياته ولوراثته من العلماء بعد مماته، جعلنا الله منهم، آمين.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أى: خالقكم والمتصرف فيكم بإرادته، يكون ما أراد ولا يكون ما لم يرد، هذا حال المبدأ، وأما حال المعاد فبينها بقوله:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فلا يكون إلا ما أراد: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾(٢) بل أيقولون، للإضراب والإنكار، والضمير لقوم نوح - عليه السلام - على ما هو الظاهر من السوق، أو لقوم قريش على ما يدل عليه قوله تعالى فيما سبق: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ (هود: ١٣) الآية.

أتى بعد ذلك بالبراهين ثم بالقصص، فلما توسط الكلام قصة نوح، وهو أول القصص هنا أعاد المقصود، وهو: نفى الافتراء عن محمد - ﷺ - ثانيًا، وهذا سوق لطيف.

فالمعنى: بل أيقولون كفرة قريش: افترى محمد - ﷺ - هذا الكلام فى قصة نوح - عليه السلام - وبيان مناظرته مع قومه عن افترائه.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أى: على الله.

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أى علىَّ وبال افترائى وهو المراد من الإجرام، وإن افتريتم أنتم علىَّ، بإسناد الافتراء إلىَّ فعليكم وبال افترائكم.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ من افترائكم وإجرامكم فى الافتراء، فهذا أصل الكلام لكن اختصره

---

(١) أورد المؤلف هاتين الآيتين على أنهما آية واحدة، ولكن الجزء الأول من الآية هو رقم (٢١٣) من سورة البقرة ونصها: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

والجزء الثانى من الآية هو من سورة النساء الآية رقم (١٦٥) ونصها ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ولا توجد آية فى القرآن تجمع ما شمله المؤلف على أنه آية واحدة مصدراً ذلك بـ: قال الله تعالى.

(٢) الآية رقم (٣٥) من سورة هود ونصها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

الله فجاء بكلامه مجمل يدل على هذا التفصيل، وهو قوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وأدمج كونهم مجرمين فى الافتراء فصار كقول الشاعر:

أقلب فيها أجفانى كأنى
أعذبها على الدهر الذنوبا

أى: أنا برىء من افترائكم ووباله، والحال أنكم مجرمون فى هذا الافتراء.

الحمد لله على ما علمنا حقائق القرآن، ودقائق الفرقان، ونطلب المزيد بالحمد لله، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧) الحمد لله ـ تعالى ـ والنصح والنصحية، إرادة الخير للغير بدعوته إلى الطاعة ونهيه عن العصيان كما قال النبى، ﷺ: (الدين هو النصيحة) ثلاثا، قيل: لمن؟ قال: (لأمراء المسلمين ولعامتهم)[١]. ورزقنا الله هذا فضلاً منه ونعمة آمين.

(١) حديث (الدين النصيحة) رواه مسلم عن تميم الدارى مرفوعًا وعن جماعة، وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير للبخارى فى التاريخ عن ثوبان وللبزار عن ابن عمر ﷺ بلفظ (الدين النصيحة) فقط، ونسبه للإمام أحمد عن ابن عباس ﷺ وله، ولمسلم، ولأبى داود، والنسائى كلهم عن تميم الدارى ﷺ وللترمذى والنسائى عن أبى هريرة ﷺ بلفظ: (إن الدين النصيحة... ثلاثًا) الحديث وهو ما نخرج له هنا فى الكتاب.

انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ٤١٤ الحديث رقم (١٣٢٤).

مجلس فى:

بيان عمل سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ السفينة وفى بيان إغراق الظالمين من قومه وإنجاء المؤمنين

فى ثمان آيات من سورة سيدنا هود ـ عليه السلام ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله وسلام على عبـاده الذين اصطفى، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكـلت وإليه أنيب، أما بعد

فهذا مجلس فى بيان عمل (سيـدنا) نوح ـ عليه السلام ـ السفينة، وفى بيان إغراق الظالمين من قومه وإنجاء المـؤمنين، فى ثمان آيات من سورة (سيدنا) هود[1] ـ عليـه السلام.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ﴾ أى: أن الشأن ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾: ألْبَتَّة فيما سيجىء من الأزمان ﴿مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ فيما مضى، ووجه الاستثناء متصلا مع أنه لا يدخل من آمن فيما مضى فيما يُستحدث الإيمان فى المستقبل بوجوه:

منهـا: أن الاستثناء من مقدر لازم للمذكور، والتقدير: لن يؤمن من قومك، ولن

---

(١) الآيات الثمانية تبدأ من الآية رقم (٣٦) وحتى الآية رقم ٤٣ من سورة هود: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

ينجو من العذاب فى الدنيا والآخرة أحد إلاَّ مَنْ قَدْ آمن، فالاستثناء من أحد فاعل لن ينجو.

ومنها: أنه لن يؤمن فيما سيجىء إلاَّ من قد استعد للإيمان، فالمستثنى المستعدون لا المؤمنون بالفعل.

ومنها: ما يقال أَنَّ لاستمرار الشىء حكم الابتداء، فلذا من حلف لا يلبس هذا الثوب وهو لابسه فيحنث إن لم ينزع فى الحال، فالمعنى: لن يحدث الإيمان فيما سيجىء أحد إلاَّ المستمرون عليه، فإن المستمر على الشىء محدث.

﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ لا تحزن، ولا تغتم، وطهّر نفسك من الأحزان، والغموم الماضية.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب إيذاء قومك لك وتكذيبهم إياك ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾(1) ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾(2).

قال الإمام الرازى: هذا الوحى إقناط لنوح ـ عليه السلام ـ عن إيمان قومه وتسلية له عما هو ماضٍ من الإيذاء.

وبعدما أوحى إليه هذا شرع فى الدعاء عليهم بما ذكر فى سورة نوح ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧) وشرح فى الشكوى عنهم بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾(3) إلى آخر الآيات.

ثم قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾: عطف على ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ واللام فى الفلك

---

(1) جاءت هاتان الآيتان كآية واحدة، فالجزء الأول هو الآية رقم ٤١ من سورة الزخرف ونصها: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾.

(2) وهذا الجزء آيتان رقم (١٤، ١٥) من سورة التوبة ونصها: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(3) ابتداء من الآية رقم (٥) من سورة نوح إلى الآية رقم (١٤) من نفس السورة ونصها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

للجنس، إذ لا عهد ثَمَّ، أو للعهد، فإنه علَّمَهُ حقيقة الفُلك بالوحى بأنه بيت يجرى فى الماء على مثال جؤجؤ الطائر وكيت وكيت، ثم قال: اصنع الفلك الموحى إليك، ولما ورد وهو أن الأعداء يمنعونه دفعه بقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أى ملتبسًا أنت أو الفلك بالحفظ البليغ الكامل منا عن أعدائك والعين كناية عن الحفظ كما فى قوله فى سورة (طه) فى حق موسى ـ عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى﴾ (طه: ٣٩) والأعين كناية عن المبالغة فى الحفظ، ويجوز أن يكون استعارة تمثيلية بأن يشبه صورة حفظه ـ تعالى ـ ومنعه من أعدائه وإتمام صنعة الفلك بحفظ جماعة موكلين بحفظ شىء ومراعاتهم له ونصب أعينهم عليه حتى لا يضيع، ودفع وهم عدم الاهتداء إلى دقائق عمل الفلك بقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى: إنا نعلمك ما خفى عليك من دقائق الصنعة حتى يكون عملك أحسن ما يكون.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِى﴾ أى: لا تشفع، ولا تناج، ولا تتكلم، ولا تنادى.

﴿فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من قومك فى استدفاع العذاب عنهم، وعلله بقوله:

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أى: محكوم عليهم بالإغراق، وقد قضى ذلك فى الأزل وتعلق علمى وإرادتى به، فالله تبارك وتعالى جعل عبده نوحًا ـ عليه السلام ـ مستريحًا من كلف الإنذار والتبليغ ومتوجهًا إلى عمل ما ينجيه ومن آمن به عند وجود الطوفان، وذلك بعد تكرر الإنذار والتبليغ ألف سنة إلا خمسين عامًا.

حتى روى أنه كان يجىء أحد من الكفار عند كمال شيخوخته قرب موته بابنه الفاجر إلى نوح ـ عليه السلام ـ ويقول: يا بنى، هذا رجل مجنون، يمنع الناس بما اعتادوا به من عبادة الأوثان والمعاصى، فالحذر الحذر الحذر أن تَتبعه بعدى، فيقول ابنه الملعون: يا أبى، أعطنى عصاك أفعل شيئًا يقر عينك، فكان يأخذ من يد أبيه عصاه ويضرب نوحًا ـ عليه السلام ـ ويخنقه ويشج رأسه حتى يسقط ويغشى عليه، ثم يقوم ويقول: رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون، ثم إذا شاخ ذلك اللعين كان يجىء بابنه الكافر فيوصى به ويفعل ابنه مثل فعله، ونوح ـ عليه السلام ـ يدعو بدعائه، فلما استمر قومه على الكفر وتمادوا فيه أوحى الله ذلك إليه، ونهاه عن الدعاء لهم، وبعده شرع نبى الله فى الدعاء عليهم والشكاية عنهم كما مر، وبعد ذلك علمه صنعة عمل الفلك للنجاة، وأمره بالإعراض عنهم والاشتغال بصنع الفلك[1].

---

(١) وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس ﵄ قال: إن نوحًا، عليه السلام، كان =

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ حكاية للحال الماضية للاستغراب فى موضع مسجد الكوفة، وقيل: فى قرية عين وردة بالشام، وقيل: فى الهند، وكان تمام صنعه فى سنتين على الأصح، وقيل: فى أربعين سنة[1] وقيل: أزيد من ذلك إلى أربعمائة سنة.

قيل: صنعه من شجر الساج، شجر يحلب من الهند وهو أتقن الأشجار، فلذا قيل: صنعه فى الهند، فكان نبى الله ينحت الأشجار ويجعلها ألواحًا ويربطها بالمسامير، ولذا قال فى سورة القمر: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣).

= يُضرب ثم يُلف فى لبد فيُلقى فى بيته، يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم، حتى إذا أيس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه، وهو يتوكأ على عصًا، فقال: يا بنى انظر هذا الشيخ لا يغرنك، قال: يا أبت أمكنى من العصا، ثم أخذ العصا، ثم قال: ضعنى فى الأرض، فوضعه، فمشى إليه فضربه فشجه موضحة فى رأسه وسالت الدماء، قال نوح عليه السلام: رب قد ترى ما يفعل بى عبادك، فإن يكن لك فى عبادك حاجة فاهدهم، وإن يكن غير ذلك فصبِّرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين، فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا فى أرحام النساء مؤمن، قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (هود: ٣٦) يعنى لا تحزن عليهم ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء، فأُغرق أهل معصيتى وأطهر أرضى منهم، قال: يا رب وأين الماء؟ قال: إنى على ما أشاء قدير.
انظر الدر المنثور ٤/ ٤١٧.

(١) وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس ﷺ، أن نوحًا لما أُمر أن يصنع الفلك قال: يا رب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر، فغرس الساج عشرين سنة، وكف عن الدعاء وكفوا عن الاستهزاء، فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها، فقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاثة صور: رأسه كرأس الديك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنبه كذنب الديك، واجعلها مطبقة، واجعل لها أبواب فى جنبها وشدها بدسر ـ يعنى مسامير الحديد ـ وبعث الله جبريل عليه السلام يعلمه صنعة السفينة، فكانوا يمرون به ويسخرون منه ويقولون: ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتا ليسير به على الماء؟ وأين الماء ويضحكون، وذلك قوله: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ فجعل السفينة ستمائة ذراع طولها، وستين ذراعًا فى الأرض، وعرضها ثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثون، وأُمر أن يطليها بالقار، ولم يكن فى الأرض قار ففجر الله له عين القار حيث تنحت السفينة تغلى غليانًا حتى طلاها، فلما فرغ منها جعل لها ثلاثة أبواب وأطبقها، فحمل فيها السباع والدواب، فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب، وجعل الوحش والطير فى الباب الثانى ثم أطبق عليها، وجعل ولد آدم أربعين رجلا وأربعين امرأة فى الباب الأعلى ثم أطبق عليهم، وجعل الدرة معه فى الباب الأعلى لضعفها أن لا تطأها الدواب، انظر: الدر المنثور ٤/ ٤١٩ وما بعدها.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ﴾: أشراف من قومه، كلمة (ما) مصدرية «ما» كافة، والمضاف محذوف، أى: كل وقت مرور الأشراف.

﴿مِّن قَوْمِهِ﴾ والظرف متعلق بقوله:

﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ وقيل: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ صفة لملأ، والعامل قوله: قال، والجملة حال من فاعل يصنع، بتقدير قد فى سخروا، أو قال: ويجوز أن يكون عطفًا على جملة يصنع، أى: صنع نوح ـ عليه السلام ـ السفينة، وسخر قومه منه وسبب سخريتهم أنهم لم يروا السفينة قبل ذلك فيقولون ما هذا يا نوح؟ وكان يقول: بيت يجرى فى الماء، ثم يتعجبون ويقولون: أين الماء؟ وكان ذلك الموضع يبعد من الماء من البحر ومن النهر، وكان الوقت وقت حبس المطر، وكان يقول: إنه سيوجد طوفان عظيم، فينكرون ويستهزئون ويقولون: كنت نبيًا واعظًا آمرًا ناهيًا، فاليوم صرت نجارًا.

قال نوح ـ عليه السلام ـ عند سخريتهم:

﴿إِن تَسْخَرُوا﴾ وتستهزئوا ﴿مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذا جاء الطوفان وعذبتم به ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ الآن، أى نعمل معكم عملاً يشبه السخرية وهو الإعراض عنهم وعدم المبالاة بشأنهم، سمى سخرية مشاكلة، ويجوز أن يكون السخرية مجازًا عن الاستجهال لأنه يلزمها، أى: إن تستجهلونا وتنسبونا إلى الجهالة والجنون فى الإنذار والوعظ، لأنهم كانوا يقولون: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٢٥) وفى عمل السفينة خصوصًا، فإنا نستجهلكم وننسبكم إلى الجهالة والضلالة عن الحق دائمًا، وإلا أى: إن لم يكن فى الكلام مشاكلة ولا مجاز فلا يليق الاستهزاء بمنصب النبوة، كما قال موسى ـ عليه السلام ـ فى جواب قومه حين قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ عند الأمر بذبح البقرة: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧) نبه على أن الاستهزاء من ديدن الجهال.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أى: تعرفون، فيتعدّى إلى مفعول واحد وهو ﴿مَن﴾ موصولة، ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فى الدنيا، أى: الغرق، يعنى به إياهم.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: أى: ينزل أو من حلول الدين، ففى الكلام استعارة مكنية شبه العذاب بالدين وأثبت له الحلول تخييلاً.

﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا ينفك، أى: فى الآخرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ ابتدائية محكية بعدها الجملة الشرطية، وهى مع ذلك غاية لـ «يصنع» فى المعنى لا فى الإعراب، لأن ما بعدها مستأنفة على ما هو قاعدة حتى الابتدائية.

﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ هو واحد الأوامر، أى: قولنا: كن، لأن عادة الله جرت بأنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، أو أحد الأمور، أى: شأن وحال صادرة منا، وهو الطوفان

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾: تنور الخبز من الحجر، كان لآدم ـ عليه السلام ـ ثم انتقل إلى نوح ـ عليه السلام ـ وكان فى موضع مسجد الكوفة كالسفينة، فجعل الله له آية أنه إذا فار، أى: نبع الماء غلى كغليان القدر من التنور، ففار التنور، كسال الميزاب، وهو أيضًا خارق للعادة، لأن التنور موضع النار، فخروج الماء منه على خلاف العادة.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ فى الفلك، والتأنيث باعتبار السفينة.

﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين على قراءة حفص، وهى قراءة العامة فى ديارنا أى: من كل نوع وصنف من أنواع الحيوانات، فالتنوين بدل من المضاف إليه.

﴿زَوْجَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى.

﴿اثْنَيْنِ﴾ صفة لزوجين، للتأكيد كقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (الحاقة: ١٣).

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أزواجك وأبناءك وأزواج أبنائك.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، والمراد: ابنه «كنعان» وامرأته «واعلة» «وسبق القول» أى: الحكم، لعلمه بأنهما يختاران الكفر ولتقديره وإرادته جل خالق العباد عن أن يقع فى ملكه إلا ما أراد.

﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ اثنان وسبعون نفسًا من بين ذكر وأنثى.

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من أهل الدنيا، وهم المذكورون فيما قيل، ثم حشر الله الحيوانات مما يبيض ويتولد ـ دون حشرات الأرض مما يتولد من الطين ـ إليه جميعًا، فكان يأخذ بيده اليمنى ذكرًا من كل نوع وباليسرى أنثى منه فيطرحه فى السفينة، وجعل نبى الله ـ عليه السلام ـ السفينة ثلاث طبقات، وجعل فى الطبقة السفلى الوحوش، والبهائم، والسباع مع أقواتها إلى ستة أشهر، وجعل فى الطبقة الوسطى الأناس مع أقواتهم بتلك المدة، وجعل فى الطبقة العالية الطيور مع نفقتها بتلك المدة.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ الخطاب للناس، على ما هو الظاهر، أى: اركبوا الماء

واعلوا على سطحه، فإن الركوب هو العلو على الشيء، كائنين فى السفينة، فالظرف مستقر حال فلا حاجة إلى تكلف مجاز أو تضمن، وحذف المفعول للعلم به.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ حال مقدرة عن واو الجمع بمعنى ملابسين باسم الله بالتسمية: أو القول، أى: اركبوا مقدرين تسميتكم وذكركم بالله بأى ذكر كان، أو قولكم لفظة باسم الله.

﴿مَجْرِيهَا﴾: قراءة حفص بفتح الميم لقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ (هود: ٤٢) وبإمالة الراء.

﴿وَمُرْسَاهَا﴾ بضم الميم بالاتفاق، وهما إما مصدران ميميان، على حذف المضاف، أى وقت جريها وإرسائها، أى إثباتها، أو اسما زمان، فالمعنى ما مر، أو اسما مكان، وإن كانا محدودين، وحذف «فى» للتشبيه بغير المحدود، مثل قوله تعالى: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ (يوسف: ٩).

فأمرهم بالركوب على أن يذكروا الله باسم من أسمائه، أو يقولوا لفظة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وقت الجرى والإرساء أو فى مكانهما، ويجوز أن يكون «باسم الله» خبرًا مقدمًا للمبتدأ، وهو: مجريها ومرسيها، والجملة استئنافية لدفع ما يختلج فى الصدور، كيف حال السفينة وليس لها ما تجرى به من المجراة وما يرسى به من المرساة بأنها على خلاف سائر السفن، فإن لفظة باسم الله مجراة ومرساة لها، ويجوز أن تكون الجملة حالاً من ضمير فيها، أى: مجراة باسم الله ومرساة به، أى: مقدرًا جريها وإرسائها به، ووقوع الجملة الاسمية حالاً بدون الواو ضعيف فى المشهور، لكن ضعفه غير مقبول لوروده فى الكلام الفصيح مثل قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (البقرة: ٣٦) أى متعادين.

وقول القائل: كلمته قولاً إلى فىّ، أى مشافهًا.

وقوله: رجع عوده على بدئه، أى: راجعًا من حيث جاء، وأيده بعضهم بكون الجملة فى تأويل المفرد كما مر.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ لذلات المؤمنين، كبائرهم وصغائرهم.

﴿رَّحِيمٌ﴾: بهم، فلذا أنجاهم برحمته لما عسى أن يعترى القوم من العجب بأعمالهم وإيمانهم، فأخبر نبى الله ـ عليه السلام ـ أن النجاة بفضله ورحمته، لا بعمل أحد.

وفى تفسير ابن كثير: روى ابن عباس، ﷺ، عن النبى، ﷺ: (أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا السفينة أن يقولوا: باسم الله الملك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] (هود: ٤١)).

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾: عطف على مقدر، أى: فركبوا قائلين: باسم الله ـ لامتثال أمر النبى عليه السلام ـ والسفينة تجرى، أى: جرت، فالمضارع لحكاية الحال الماضية والباء فى ﴿بِهِمْ﴾ للتعدية، أى: اجر بهم.

ويجوز أن تكون للملابسة، أى: تجرى، وهم كقول الشاعر[2]:

* تدوس بنا الجماجم والتريبا *

أى: ونحن عليها.

وما قيل من أنه عطف على اركبوا من قبيل زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرًا بالعفو والإطلاق، أى من باب عطف القصة على القصة من غير نظر إلى الأخبار والإنشاء يخدشه أن هذه الجملة ليست من مقول نوح، عليه السلام.

﴿فِي مَوْجٍ﴾ هو ما ارتفع على وجه الماء بسبب الرياح، فأفاد الكلام طوفان الماء والريح العاصف حتى حصل الموج ﴿كَالْجِبَالِ﴾ فعذب قوم ـ عليه السلام ـ بالطوفانين، ويقتضى ظاهر الآية عدم ملأ الماء ما بين السماء والأرض حتى يبقى وجه الماء متموجًا.

---

(١) حديث: **(أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا السفينة أن يقولوا..)** أورده السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور وقال: أخرجه أبو يعلى والطبرانى وابن السُّنى، وابن عدى، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن الحسين بن على (ﷺ)، قال: قال رسول الله ﷺ . . . الحديث، ثم ذكر رواية أخرى عن ابن عباس (ﷺ) والآية هى رقم (٦٧) من سورة الزمر، ورواية أخرى لأبى الشيخ ذكرها فى كتاب الثواب عن ابن عباس من طريق غير الرواية السابقة والتى قبلها، انظر: السيوطى: الدر المنثور ٤/ ٤٣٢، وأورده ابن كثير فى التفسير ٢/ ٤٤٦.

(٢) شطر هذا البيت للمتنبى، وهذا البيت يقول:

فمرَّت غير نافرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا

أى: وطئت رءوسهم وصدورهم، ولم تنفر عنهم.

انظر: شرح ديوان المتنبى للواحدى ١/ ٣٥٦.

فالصحيح أن الماء ارتفع على شوامخ الجبال خمسة عشر أو أربعين ذراعًا ولم يطبق إلى السماء.

وقد أخبر الله تعالى فى سورة القمر بقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ (القمر: ١١) منصب ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ (القمر: ١٢) أى التقى ماء السماء وماء الأرض فوجد بينهما التلاقى فى الجملة لأنه ملأ الأرض، إلى السماء ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر: ١٢): أى التقاء المذكور كان على أمر قد قدره الله ـ تعالى ـ فى الأزل، وهو: هلاك الكفار.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ من صلبه على الصحيح، وكان كافرًا اسمه «كنعان» وكانت أمه «واعلة» زوجة نوح ـ عليه السلام ـ أيضًا كافرة.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ فى مكان عزل فيه نفسه عن المؤمنين وعن الكفار لإطلاق معزل، فلعزله نفسه من الكفار ـ رحمه نوح (عليه السلام) ـ ورجا إيمانه فناداه:

﴿يَا بُنَيَّ﴾ التصغير للشفقة على الطبيعة أو على الرجاء.

﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ فى السفينة، والقراءة بإدغام الباء فى الميم لقرب المخرج.

﴿وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لا تبق معهم خارجًا عن السفينة، فلا ينافى إطلاق معزل.

﴿قَالَ﴾: ابنه ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ شامخ.

﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فإنه زعم أن الماء لا يبلغ رأس الجبل، فكفر بهذا الزعم لإنكار نبى الله قال نوح ـ عليه السلام: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى الطوفان ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾: أى: الراحم، وهو الله، وفيه وضع الظاهر موضع الضمير، لأن الظاهر على «هذا لا عاصم من أمر الله إلا هو» وهذا الوضع لما فيه من الإبهام والتفخيم، وفى رحم من التنصيص على رحمته على المؤمنين يعمل السفينة، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أو لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحمه الله، أى: المرحوم من المؤمنين، أى: السفينة، ففيه أيضًا إشارة إلى ما سبق، أو لا عاصم بمعنى ذى عصمة كلابن، وتامر، فيصدق على المفعول، أى: لا معصوم من أمر الله إلا المرحوم، أى

المؤمن، أو لا عاصم معصوم من أمر الله إلا مكـان المرحوم، أى السفينة، فإذا عصم المكان عصم ما فيه بالطريق الأولى، فعلى هذه الوجوه الاستثناء متصل.

أو لا عـاصم اليوم لكم من رحـمـة الله يعصـمه، أو: لا مـعـصوم اليـوم، لكن المرحوم معصوم، فالاستثناء على هذين منقطع.

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ﴾ بين نوح وابنه ﴿ الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ فى ماء الطوفان لكونه من المغرقين فى بحـر الكفر والطغيان، فلم يركب السفينة الجسمـانية لكونه غير راكب فى سفينة الشريعة لعدم اعتقاده بصدق أبيه المعصوم ولعدم علمه على موجبه.

رزقنا الله الاختتام على الاعتقاد الصدق، والعمل الحق، آمين يا رب العالمين.

مجلس فى:

بيان إنجاء (سيدنا) نوح ـ عليه السلام
فى السفينة واستوائها على الجودى وإهلاك الظالمين

فى ست آيات من سورة هود ـ عليه السلام ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان إنجاء سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ فى السفينة واستوائها على الجودى وإهلاك الظالمين فى ست آيات[1] من سورة هود (عليه السلام).

وفى الآية الأولى منها من أسرار البلاغة ما يفوق الحصر، ولقد أطنب علماء البيان والتفسير القول فيها.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ نوديا بما ينادى أولو العلم، وأُمِرَا بما يؤمرون تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهم لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذى يأمر المنقاد لحكمة المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشيته من أليم عقابه.

والبَلْعُ: النَّشْفُ والإقلاع والإمساك[2].

---

(١) هذه الآيات الست تبدأ من الآية رقم (٤٤) من سورة هود، وتنتهى بالآية رقم (٤٩) من نفس السورة ونصها: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(٢) وذكر السيوطى فى الدر المنثور أيضًا، قال: أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى =

= عن أبى صالح عن ابن عباس ﷺ قال: كان للملك يوم ولد نوح اثنتان وثمانون سنة، ولم يكن أحد فى ذلك الزمان ينتهى عن منكر، فبعث الله نوحًا إليهم وهو ابن أربعمائة سنة وثمانين سنة، ثم دعاهم فى نبوته مائة وعشرين سنة، ثم أمره بصنعة السفينة فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سنة، وغرق من غرق، ثم مكث بعد السفينة ثلاثمائة وخمسين سنة، فولد نوح سام وفى ولده بياض وأدمة، وحام وفى ولده سواد وبياض، ويافث وفيهم الشقرة والحمرة، وكنعان وهو الذى غرق، والعرب تسميه بام وأم، هؤلاء واحدة، وبجل فود نجر نوح السفينة، ومن ثَمَّ بدأ الطوفان، فركب نوح السفينة معه بنوه هؤلاء ونساء بنيه هؤلاء، وثلاثة وسبعون من بنى شيث ممن آمن به، فكانوا ثمانين فى السفينة، وحمل معه من كل زوجين اثنين، وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع بذراع جد أبى نوح، وعرضها خمسين ذراعًا، وطولها فى السماء ثلاثين ذراعًا، وخرج منها من الماء ستة أذرع وكانت مطبقة، وجعل لها ثلاثة أبواب بعضها أسفل من بعض، فأرسل الله المطر أربعين يومًا فأقبلت الوحش حين أصابها المطر والدواب والطير كلها إلى نوح وسُخرت له، فحمل منها ـ كما أمره الله ـ من كل زوجين اثنين، وحمل معه جسد آدم، عليه السلام، فجعل حاجزًا بين النساء والرجال، فركبوا فيها لعشر مضين من رجب، وخرجوا منها يوم عاشوراء من المحرم، فلذلك صام من صام يوم عاشوراء، وخرج الماء مثل ذلك نصفين: نصف من السماء ونصف من الأرض، فذلك قول الله: ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ**﴾ (سورة القمر: ١١) يقول: منصب ﴿**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا**﴾ (القمر: ١٢) يقول: شققنا الأرض فالتقى الماء ﴿**عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**﴾ (القمر: ١٢) وارتفع الماء على أطول جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعًا، فسارت بهم السفينة فطافت بهم الأرض كلها فى ستة أشهر، لا تستقر على شىء حتى أتت الحرم فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعًا، ورفع البيت الذى بناه آدم، عليه السلام، رفع من الغرق، وهو البيت المعمور، والحجر الأسود على أبى قبيس.

فلما دارت بالحرم ذهبت فى الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودى، وهو جبل بالحضين من أرض الموصل، فاستقرت بعد ستة أشهر لتمام السنة، فقيل بعد الستة أشهر: بعدًا للقوم الظالمين، فلما استوت على الجودى قيل: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي**﴾ يقول: احبسى ماءك ﴿**وَغِيضَ الْمَاءُ**﴾ نشفته الأرض، فصار ما نزل من السماء هذه البحور التى ترون فى الأرض، فآخر ماء بقى فى الأرض من الطوفان ماء يحسى، بقى فى الأرض أربعين سنة بعد الطوفان، ثم ذهب فهبط نوح، عليه السلام، إلى قرية فبنى كل رجل منهم بيتًا فسميت سوق الثمانين، فغرق بنو قابيل كلهم، وما بين نوح إلى آدم من الآباء كانوا على الإسلام، ودعا نوح على الأسد أن يلقى عليه الحمى، ودعا للحمامة بالأنس، وللغراب بشقاء المعيشة، وتزوج نوح امرأة من بنى قابيل فولدت له غلامًا سماه يوناطن، فلما ضاقت بهم سوق الثمانين تحولوا إلى بابل فبنوها، وهى بين الفرات والصراة، فمكثوا بما حتى بلغوا مائة ألف، وهم على الإسلام، ولما خرج نوح من السفينة دفن آدم عليه السلام ببيت المقدس.

انظر الدر المنثور ٤/ ٤٣٤.

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نقص ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين.

﴿وَاسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل: بالشام، وقيل: بآمل[١].

روى أنه ركب السفينة عاشر رجب ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم فصار سنة.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هلاكًا لهم، يقال: بعِد بعداً وبُعداً إذا بعد بعدا بعيداً بحيث لا يرجى عوده ثم استعير للهلاك وخُص بدعاء السوء.

والآية فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها أو للدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالى عن الخلال وإيراد الأخبار على البناء للمفعول للدلالة على تعظيم الفاعل وأنه متعين فى نفسه مستغنٍ عن ذكره إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليه سوى الواحد القهار.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ اختار صاحب الكشاف كون النداء قبل غرق ابنه، فناداه وسأله نجاته، لكن يرد عليه أنه موضعه[٢].

قيل: قوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ إلى آخره.

وأجيب بأنه أفرد أوله قصة غرق الابن وذكر آخراً لاستقلاله بنوع نكتة فائقة، وهو الدلالة على أن قرابة النسب مضمحلة عند قرابة الدين، فلا اعتداد للأولى بدون الثانية،

---

(١) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال: الجودى جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله تعالى فلم يغرق، وأرسلت عليه سفينة نوح.

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن عطاء قال: بلغنى أن الجبل تشامخ فى السماء إلا الجودى، فعرف أن أمر الله سيدركه فسكن، قال: وبلغنى أن الله تعالى استخبا أبا قبيس الركن الأسود، وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه قال: الجودى جبل بالموصل، وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال: أبقاها الله بالجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، كم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت. انظر: السيوطى: الدر المنثور: ٤/ ٤٣٧.

(٢) أخرج عبد الرزاق، والفريابى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ما بغت امرأة نبى قط) وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يقول: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. انظر: السيوطى: الدر المنثور ٤/ ٤٣٨.

فلذا أفرد وجعل مستقلا غير مربوط بها، فهذا كما فى قصة البقرة، فارجع إلى سورة البقرة.

واختار البيضاوى كونه بعد الغرق لظاهر النظم.

والمراد من النداء السؤال عن سبب الهلاك، ويرد عليه السؤال كثيراً.

فالمختار الأول، أى: نادى نوح ربه حين ما شرع الموج فى الحيلولة وأشرف ابنه على الهلاك.

﴿فَقَالَ رَبِّ﴾ وهذا القول عين النداء، بل تفصيله، فورود الفاء إما لتأويل أراد نداءه فقال، أو لأن التفصيل إنما يكون عقيب الإجمال.

﴿إِنَّ ابْنِي﴾ أى: من أهلى، على ما هو الظاهر.

﴿مِنْ أَهْلِي﴾ أى بعضهم.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ كله، فالإضافة للاستغراق ﴿الْحَقُّ﴾ كأنه لا حق غيره، أى كائن بلا خلق، وقد وعدت إنجاء أهلى.

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم وأقدرهم، ويجوز مع ضعف أن يكون الحاكم بمعنى ذى حكمة، وهو قليل، وأن يكون أحكم اسم التفضيل منه، وهو أقل قليل لعدم جريانه على الفعل حينئذ بمعنى: أنت أعظم حكمة من جميع الحكماء، وهذا السؤال يقال للإلطاف فى السؤال، كقول أيوب ـ عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ حيث عرض كونه محل الرحمة وكون الله كثير الرحمة، ولم يقل: اشفنى لأنه معلوم أشد العلم.

وكقول العجوز لسليمان بن عبد الملك[2]: يا أمير المؤمنين، مشت جرذان

---

(١) الآية رقم (٨٣) من سورة الأنبياء، جاءت هذه الآية ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ وهذا تحريف كما هو واضح، فالنص القرآنى فى الآية هو: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(٢) **(سليمان بن عبد الملك)**: سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، الخليفة أبو أيوب القرشى، الأموى، بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين، وكان له دار كبيرة مكان طهارة جيرون، وأخرى أنشأها للخلافة بدرب محرز، وعمل لها قبة شاهقة صفراء، وكان دينًا فصيحًا عادلا محبًا للغزو، يقال: نشأ بالبادية، مات بذات الجنب، ونقش خاتمه: أومن بالله مخلصًا، وأمه وأم الوليد هى ولادة بنت العباس بن حزن العبسية، ولسليمان من البنين: يزيد، وقاسم، وسعيد، ويحيى، وعبيد الله، وعبد الواحد، والحارث، وغيرهم، =

بيتى على العصا، فقال فى جوابها: لأجعلنها تثب وثب الفُهود، فملأ بيتها حبًا، ودهنًا.

هنا عرض نبى الله كون ابنه محل الرحمة، لأنه من أهله، وقد وُعد إنجاءهم، وعرض كون الله أحكم الحاكمين وأعدلهم وأقدرهم، فكأنه قال: فنجه يا رب، فسكت عن طلب الإنجاء إلطافًا فى السؤال، قال الله مجيبًا له:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الموعود إنجاءهم، فالإضافة للعهد على ما علم من استثناء من سبق عليه القول من الأهل أن الموعود إنجاءهم إنما هم المؤمنون وعلل النفى بقوله:

﴿إِنَّهُ﴾ أى الابن الهالك لا النداء على ما قيل، لعدم ملائمته هنا.

﴿عَمَلٌ﴾ على سبيل المبالغة كأنه تجديد من عمل ﴿غَيْرُ صَالِحٍ﴾ كقول الشاعر:

ترتع ما رتعت حتى إذا ما ادركت فإنما هى إقبال وإدبار

وإنما أطنب ولم يقل: عمل فاسد ليشير بالصلاح الذى هو الملاك فى الإنجاء لا كونه أهل.

﴿فَلا تَسْأَلْنِ﴾ أى: إذا لم يكن من أهلك، فلا تسألن ولا تطلب منى نجاته، وهو قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وكان الواجب على تفسير البيضاوى أن يقول: عما ليس، لأن السؤال على هذا

= جهز جيوشه مع أخيه مسلمة برا وبحراً لمنازلة القسطنطينية فحاصرها مدة حتى صالحوا على بناء مسجدها، وكان أبيض كبير الوجه مقرون الحاجب جميلا، له شعر يضرب منكبيه، عاش تسعًا وثلاثين سنة، قسم أموالا عظيمة، ونظر فى أمر الرعية، وكان لا بأس به، وكان يستعين فى أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمال الحجاج، وكتب إن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها بوقتها، وهمَّ بالإقامة ببيت المقدس ثم نزل قنسرين للرباط، وحج فى خلافته، وقيل: رأى بالموسم الخلق فقال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذين لا يحصيهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره؟ قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليوم رعيتك، وهم غداً خصماؤك، فبكى وقال: بالله أستعين، وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر، وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء، ولى الديار المصرية بعد عبد العزيز بن مروان إلى أن صرف بقرة بن شريك سنة تسعين، وولى غزو الروم فأنشأ مدينة المصيصة وله دار بدمشق، قيل: مات بسر بن سعيد الفقيه فما ترك كفنًا، ومات سنة مائة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبى: ٥/ ١١١ الترجمة (٤٧).

عمّا فات، والقول بنزع الخافض يرده الظاهر هنا، وفيما سيأتى، ولا يناسبه الفاء فى ﴿فَلا تَسْأَلْنِ﴾ على هذا أيضا.

والمراد بـ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ هو نجاة ولده، يعنى أن سؤال نجاة ابنك وطلبها منى بناء على ما عندك من الظن بإيمانه لأنه كان ينافق ـ على ما قيل، وقد دل عليه إطلاق قوله: بـ ﴿مَعْزِلٍ﴾ على ما مر، لأنه كان بمعزل من الكفار أيضًا، فظن إيمانه ونهاه عن الكون مع الكافرين الباقين خارج السفينة، لا منهم لأنه كان ينافق، لا يجوز لأنه ليس من العمليات حق يكتفى فيه بالظن، وإنما هو الإلهيات التى يجب فيها اليقين، فإذا لم تتقين بإيمانه لا يجوز لك الشفاعة بنجاته.

قال الإمام الرازى فى تفسيره: سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خُراسان كان، فى النسب أقرب الناس إلى على (رضي الله عنه) ـ غير أنه كان فاسقًا، وكان هناك مولًى أسود تقدم بالعلم والعمل، ومال الناس بالنزل به، فاتفق أن خرج يومًا من بيته يقصد المسجد واتبعه خلق فلقيه الشريف سكران، فجعلوا يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ ونادى يا أسود الحوافر، يا كافر ابن كافر، أنا ابن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُذل وتُجل، وأُذمّ وتُكْرم، وأُهان وتُعان، فَهَمَّ الناس بضربه، فقال الشيخ: لا، هذا محتمل منه بجده وضربه محدودٌ بحده، ولكن يا أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك، فرأى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى، فحسنت وأخذت مسيرة أبيك وأخذت سيرة أبى، فرآنى الخلق فى سيرة أبيك، ورأوك فى سيرة أبى فظنوك ابن أبى، فعَمِلوا معك ما يُعمل مع أبى، وعملوا معى ما يعمل مع أبيك. انتهى.

﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ أى: أزجرك وأمنعك.

﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: الذين يكتفون بالظن فى الإلهيات[1]، وما قيل من أن قول ابنه: «سآوى إلى جبل» فى جواب أبيه المعصوم قد دل على كفره وعناده فزال

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن المبارك (رضي الله عنه) قال: لو أن رجلا اتقى مائة شىء ولم يتق شيئا واحدًا لم يكن من المتقين، ولو تورع من مائة شىء ولم يتورع من شىء واحد لم يكن ورعًا، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعت قول الحق لنوح (عليه السلام) حين قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال تعالى له: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ انظر: السيوطى: الدر المنثور ٤/ ٤٣٩.

الظن، فجوابه أنه قد حمل كلام ابنه على شبهه أن ماء الطوفان لعله لا يبلغ رءوس الجبال، بل يكون فى البرارى مع التصديق فى وجوده لقول أبيه، وإن قوله:

﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (هود: ٤٣) لعله لم يبلغ إليه لكون الوقت وقت الطوفان وتموج المياه والرياح، والأصوات الشديدة فظن إيمانه وطلب نجاته عند حلوله الموج، فهى بأن الشفاعة للمعلوم إيمانه المتيقن لا للمظنون إيمانه، وقد جرب نبى الله أحوال الناس إلى قريب من ألف عام، فكان اللائق بشأنه أن يعلم أن قول ابنه كان عنادًا لا استرشادًا، لكن لحمل المؤمن على الصلاح وهى شبهة باقية إلى يوم القيامة، سأل نجاة ابنه فأخطأ فى الاجتهاد فبيَّن الله له أن هذا أكمل فى الأحكام الفرعية المبنية على الظن غالبًا مثل جواز الصلاة ـ بل وجوبها ـ على من كان فى الظاهر مؤمنًا، وتوريثه فى المؤمنين لا فى الأسرار الإلهية منها الشفاعة فى حق الفساق، بعد العلم بإيمانهم لا فى المنافقين الذين فى الدرك الأسفل من النار، ولذا نُهى نبينا ﷺ: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أى من المنافقين ﴿وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ (التوبة: ٨٤) وكانت صلاة النبى ـ ﷺ ـ شفاعة مختصة بأهل الإيمان فنهاه عن المنافقين.

فكذا هنا، فلم تقدح الآية فى عصمة نبى الله نوح (عليه السلام) أصلاً لأن سؤال نجاته كان لخطأ فى الاجتهاد، وظن أن الظن كما يكفى فى العلميات يكفى فى الإلهيات والخطأ فى الاجتهاد يجوز على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولكن لا يقررون عليه كما لم يقرر نوح ـ عليه السلام ـ عليه.

قال نوح ـ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ فيما بعد ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ويقين من الإلهيات، فهو عزم على أن لا يعود لمثله، لكن دفع حوله وقوته والتجأ إلى حوله وقوته بأن يعيذه من مثله.

﴿وإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾ ما مضى من السؤال فى ابنى الكافر.

﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بقبول توبتى منه.

﴿أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهو ندم ما مضى وإقلاع فى الحال، فحصل التوبة عن ذلته بجميع أركانها، والخطأ فى الاجتهاد فى حقنا ليس بذنب أصلاً بل فيه أجر، لكن (حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1].

(١) (حسنات الأبرار سيئات المقربين) قيل: هو من كلام أبى سعيد الخراز (رحمه الله) كما رواه ابن =

فبعد ما تم أمر التوبة وقبولها.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ من السفينة على الجبل أو من الجبل إلى السهل، قيل: سارت السفينة خمسة أشهر واستوت على الجودى شهرًا ليجف وجه الأرض، ثم بعد ذلك نزلوا من السفينة، وكان الله قد وصَّاه قبل ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٨) فأمره بالحمد عند هلاك الظلمة، كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥) وكان قد أمره بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٩) فدعا نبى الله فاستجاب دعاءه هنا بقوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ أى: ملتبسًا بسلامة محفوظًا عن الآفات أو بتسليم مكرمًا.

﴿مِّنَّا﴾ أى: من جهتنا ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ وزيادات كثيرة فى الأولاد والأموال، وسعادة الدارين.

﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ﴾ كثيرة فى الأعصار الآتية، وهم المؤمنون بجميع الأنبياء بعده إلى يوم القيامة، فدخل فيه كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾: من للابتداء، أى: ناشئة وصادرة ممن يطلق عليهم أنهم معك، وهم أولاده الثلاثة:

سام: أبو العرب والفرس والروم، **وحام**: أبو السودان من الحبشة والزنج والبربر والنوبة.

ويافث: أبو الترك، والمغول، والتتار، والروس، والصقالبة، والجراكسة واللاَّن وآس وأزواجهم، فأما من كان من المؤمنين فإنهم لم يتناسلوا، بل ماتوا، فالنسل لنوح ـ عليه السلام[1] ـ فقط، وهو أبو البشر بعد آدم ـ عليه السلام.

= عساكر فى ترجمته، وهو من كبار الصوفية، مات فى سنة ٢٨٠هـ مائتين وثمانين من الهجرة، وعدّه بعضهم حديثًا، وقال النجم: رواه ابن عساكر عن أبى سعيد، وحكى عن ذى النون، وعزاه الزركشى فى لقطته للجنيد.

وقال شيخ الإسلام: الفرق بين الأبرار والمقربين، أن المقربين هم الذين أُخذُوا عن حظوظهم وإرادتهم واستُعملوا فى القيام بحقوق مولاهم عبودية وطلبًا لرضاه، وأن الأبرار هم الذين بقوا مع حظوظهم وإرادتهم وأقيموا فى الأعمال الصالحة ومقامات اليقين ليجزوا على مجاهداتهم برفع الدرجات. انتهى. انظر: العجلونى: كشف الخفاء ١/ ٣٥٧ الحديث رقم (١١٣٧).

(١) **ذرية نبى الله نوح كما وردت**: أخرج الترمذى وحسنه وابن سعد وأحمد وأبو يعلى وابن المنذر =

هذا هو المشهور فيما بين السلف والخلف.

لكن ما دل عليه ظاهر النظم هو أن من معه: كل من فى السفينة، فتناسل كلهم، وعلى جعل (من) ابتدائية كما مضى يكون صريح السلام والبركات على نوح ـ عليه السلام ـ وأولاد من فى السفينة إلى يوم القيامة دون من معه، لكن النبى ـ عليه السلام ـ زعيم قومه، فيعلم دخول من معه فى السلام والبركات من دخول نوح ـ عليه السلام ـ فبقيت الشبهة فى أولادهم إلى يوم القيامة فدفعها بقوله:

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ بيانية فيدخل من معه فى السلام صراحة، لكن يفوت المقابلة بينه وبين ما سيأتى، وأيضًا (من) البيانية قليل، وأيضًا إطلاق الأمم على من معه يحتاج إلى تأويل، وجعل من معه جماعات واعتبار كل جماعة قليلة أمة، أو إلى تسمية من معه باسم، وأولادهم إلى يوم القيامة، وهم الأمم.

= وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم، وصححه عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه نعم، أخرج البزار وابن أبى حاتم والخطيب فى تالى التلخيص عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط والسودان، ولا أعرف حال الخبر» والأكثرون على أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح، عليه السلام، ولذا قيل له: آدم الثانى، وإن صح أن لكنعان المغرق ولدا فى السفينة لا يبعد إدراجه فى الذرية، فلا يقتصر على الأولاد الثلاثة، وعلى كون الناس كلهم من ذريته، عليه السلام، استدل بعضهم بالآية، وقالت فرقة: أبقى الله تعالى ذرية نوح، عليه السلام، ومد فى نسله، وليس الناس منحصرين فى نسله، بل من الأمم من لا يرجع إليه، حكاه فى البحر، وكأن هذه الفرقة لا تقول بعموم الغرق، ونوح، عليه السلام، إنما دعا على الكفار، وهو لم يُرسَل إلى أهل الأرض كافة، فإن عموم البعثة ابتداء من خواص خاتم المرسلين ﷺ ، ووصول خبر دعوته، وهو فى جزيرة العرب، إلى جميع الأقطار كقطر الصين وغيره غير معلوم.

والحصر فى الآية بالنسبة إلى مَن فى السفينة ممن عدا أولاده وأزواجهم، فكأنه قيل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ لا ذرية من معه فى السفينة، وهو لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه، وكان فى بعض الأقطار الشاسعة التى لم تصل إليها الدعوة ولم يستوجب أهلها الغرق، كأهل الصين ـ فيما يزعمون ـ ويجوز أن تكون قائلة بالعموم، وتجعل الحصر بالنسبة إلى المغرقين، وتلتزم القول بأنه لم يبق عقب لأحد من أهل السفينة هو من ذرية أحد من المغرقين، أى: وجعلنا ذريته هم الباقين، لا ذرية أحد غيره من المغرقين، وولد كنعان ـ إن صح، وصح بقاء نسله ـ داخل فى ذريته، والله تعالى أعلم.

انظر أيضًا: الألوسى فى روح المعانى: ٢٣/ ٩٨.

﴿ وَأُمَمٌ ﴾ أى: منهم أمم على حذف الخبر، وغير الأسلوب لدناءة هذه الأمم وهم الكفرة.

﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ فى الدنيا بدون السلام والبركات.

﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة، ويدخل فيه كل كافر، وقيل: المراد بالأمم المُمَتَّعة أقوام يهود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم السلام ـ وبالعذاب ما نزل عليهم من العذاب المستأصل.

﴿ تِلْكَ ﴾ أى قصة نوح ـ عليه السلام ـ مبتدأ، خبره: ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى: بعض المغيبات لتقدم عصرها منذ زمان كثير.

﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خبر ثانٍ، أى موحاة إليك، والخبر الثالث قوله: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ ﴾ لعدم سماعك من أحد.

﴿ وَلا قَوْمُكَ ﴾ لإلحادهم، لأن الملاحدة من الفلاسفة ينكرونها أو لا يعلمون تفصيلا، وإن علموها مجملة لشهرة أمر الطوفان من قبل هذا الإيحاء إليك، وأما بعده فقد علمت أنت والمؤمنون من قومك علمًا يقنيًا، وغيرهم من الكفرة فقد سمعوا منكم تفاصيل ما سمعوه إجمالاً وأنكروه.

والحاصل أن تلك القصة كانت من المغيبات المحتاجة إلى الوحى، فلذا أوحيتها إليك لتعلمها أنت وقومك لتقتدى بنوح ـ عليه السلام ـ فى الصبر على أذى قومك وانتظار الفرج من الله، وليحذر الذين يخالفون أمرك أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم(١) كما أصاب قوم نوح عليه السلام.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على أذاهم كما صبر نوح ـ عليه السلام، تلك المدة المتطاولة.

﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ أى: الحميدة، لأنها هى التى ينبغى أن تسمى عاقبة، بخلاف عاقبة السوء، أى آل الأمرُ فى الدنيا بالنصر والظفر والفتوح، وفى الآخرة بالجنة والرضوان للمتقين عن مخالفة أمر الله، فانتظر الفرج لتقواك فلتنظر قومك بالعذاب فى الأولى والآخرة لعدم تقواهم.

---

(١) وردت هذه الآية هكذا، لذا لم نضع عليها أقواس إسلامية واعتبرناها جاءت بالمعنى فقط، أما الآية حقيقة فهى الآية رقم (٦٣) من سورة النور ونصها: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

جعلنا الله من المتقين، آمين.

فإن قيل: لم عذب الأطفال والبهائم والوحوش بدون ذنب، **أجاب المعتزلة**: بأن الله لم ينزل المطر أربعين سنة، وعقم أرحـام نسائهم فى تلك المدة ولم يعذب إلا من له أربعون سنة أو أكثـر، وجوز ذبح الحيوانات للأكل والصـيد، فكذا هنا، ورده الإمام فخر الدين بأنه على ذلك يكون الإيمان اضطرارى إلجائيًا، فالحق فى الجواب أن يقال: إنه تعالى ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ (الأنبياء: ٢٣).

وأيضًا أطفال المشركين فى قول: معذبون فى الآخرة، إن كان الله يعلم منهم أنهم إن عاشوا كفروا، فكذا هنا، والعلم عند الله تعالى.

مجلس في:

بيان قصة (سيدنا) هود ـ عليه السلام ـ

في ثمان آيات من سورة الأعراف:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس في بيان قصة (سيدنا) هود (عليه السلام) في ثمان آيات[1] من سورة الأعراف.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ قال: عطف المجموع على مجموع قوله تعالى: ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (هود: ٢٥) وتقديم الجار والمجرور هنا مع تأخيره هنالك لاقتضاء الضمير في (أخاهم) والأخوة في النسب لا في الدين.

والصحيح أن هودًا (عليه السلام) من عاد، وواحد منهم، وتقول العرب لواحد من القبيلة: أخاهم، كما تقول: يا أخا تميم لواحد منهم، «وهودًا»: عطف بيان لأخاهم،

---

(١) هذه الآيات الثماني في سورة الأعراف، تبدأ من الآية رقم (٦٥) وتنتهي إلى الآية رقم (٧٢) ونصها: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وهو: هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض ابن آدم، بن سام، بن نوح، عليه السلام.

وكان مسكن عاد بالأحقاف من اليمن، ما بين عالج إلى شجر عمان، وكانوا قد تسلطوا فى البلاد، وملكوا المعمورة، وكانوا يعبدون الأصنام، لهم صنم يقال: «صمود» وآخر يقال له: «هباء»، وآخر «صداء»(١).

وكانوا ـ مع ذلك ـ مسرفين فى بناء العمارات العالية واتخاذ المصانع من الحصون والحياض، وفى ظلم الناس باطشين بغير الحق جبارين، فنهاهم نبى الله هود ـ عليه السلام ـ عن جميع ذلك فهنا نهى عن عبادة الأوثان، كما قال الله تعالى مستأنفا لجواب سؤال: ماذا قال هود ـ عليه السلام؟

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أى: وحدوه، يؤيد أن اعبدوا، يفسر بوحدوا، بقرينة المقام، لأن القوم كانوا مشركين يعبدون الله وغيره، فالمطلوب منهم ليس نفس العبادة، بل التوحيد فيها، والدليل عليه هنا قوله:

---

(١) وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق عطاء عن ابن عباس قال: كان هود أول من تكلم بالعربية، وولد لهود أربعة: قحطان، ومقحط، وقاحط، وفالغ، فهو أبو مضر، وقحطان أبو اليمن، والباقون ليس لهم نسل، وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس، ومن طريق ابن إسحاق عن رجال سماهم، ومن طريق الكلبى، قالوا جميعًا: إن عادًا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها، اتخذوا أصنامًا على مثال ود، وسواع، ويغوث، ونسر، فاتخذوا صنمًا يقال له: صمود، وصنمًا يقال له: الهتار، فبعث الله إليهم هودًا، وكان هود من قبيلة يقال لها: الخلود، وكان من أوسطهم نسبًا وأصبحهم وجهًا، وكان فى مثل أجسادهم أبيض، طويل اللحية، فدعاهم إلى الله، وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس، ولم يأمرهم بغير ذلك، ولم يدعهم إلى شريعة ولا إلى صلاة، فأبوا ذلك وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ فذلك قول تعالى ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ كان من قومهم ولم يكن أخاهم فى الدين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعنى: وحدوا الله ولا تشركوا به شيئًا يقول: ليس لكم ﴿مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعنى: فكيف لا تتقون ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ يعنى سكانًا فى الأرض من بعد قوم نوح فكيف لا تعتبرون فتؤمنوا، وقد علمتم ما نزل بقوم نوح من النقمة حين عصوه؟! ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ يعنى هذه النعم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: كى تفلحوا، وكانت منازلهم بالأحقاف، والأحقاف: الرمل، فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا فى الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله، وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن خيثم قال: كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ إلخ، وعلله بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لا أرضيًا ولا سماويًا لأنه تعالى خالق ولا عبادة للمخلوق، لأنه عـاجز لكونه مخلوقًا، فلا يكون إلهًا، أى: مستحقًا للعبادة، وإنما المستحق لها من يخلقه، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٧) فى سورة النحل، أى: لا تكفروا وفى هذا البرهان الساطع.

﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عن مثل ما نزل على قوم نوح ـ عليه السلام ـ من العذاب الهائل ـ وقال أيضا فى سورة الشعراء ناهيًا لهم منكرًا عليهم أفعالهم القبيحة[1] بعد نهيهم، كما هنا، وفى سورة هود ـ عليه السلام ـ عن سـوء الاعتقاد: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مـوضع ريع أى موضع مرتفع.

﴿آيَةً﴾ أى علامة من البناء تدل على سفهكم وسخافة عقولكم.

﴿تَعْبَثُونَ﴾ لأنه الإسراف فى البناء، ولا خير فى الإسراف، فيكون عبثًا.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: حياضًا، وقيل: حصونًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أى: تشبه حالكم بحال من يرجو الخلود.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ الخدام والرعايا ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أى: لا يكون بطشكم للتأديب ولا للحد والتعزيز، بل مقصودكم منه الشـفاء عن الغيظ وجبر الخلق على ما تريدون، والكبر والظلم، فنهاهم نبى الله ـ عليه السلام ـ عن الكفر، والظلم، والإسراف، وبهذه الثلاثة يخـتل أمر الدين والدنيا، ويحصل الخـراب فى العالم بالآخرين، كـما قال فى أواخر سورة هود عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أى: بشرك ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧) فيما بينهم، أى: لا يضمون إلى شركهم الإفساد والتباغى.

قال البيضـاوى: ومن ههنا قال الفقهاء: إذا اجتمـع حق الله وحق العباد يقدم حق العباد، لأن الله غنى يسامح فى حقه.

ولذا قيل: المُلك لا يبـقى مع الظلم، ويبقى مع الكفر، ولما كـان مظنة أن يقال:

---

(١) آيات سورة الشعراء من الآية رقم (١٢٣) وهى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وهى الآية (١٣٠) من نفس السورة.

بماذا أجاب قومه عن النهى عن الشرك استأنف بقوله هنا، أى: فى سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ أى الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وصف مفيد، لأن من أشرافهم كان «مرشد بن سعد» مؤمنًا، ويجوز أن يكون وصفًا ذامًا.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ من الرؤية العلمية.

﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ فى خفة عقل وضعف رأى مستغرقا ومغموسًا فيها كما يدل عليه فى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ من الظن بمعنى اليقين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ٤٥، ٤٦)، ويجوز أن يكون الظن بمعناه أى: الطرف الراجح وإن لم يجزم، فيكون إشارة إلى الظن، بل الشك كاف فى طرف الكفر لكن فى طرف الإيمان يجب اليقين.

﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الشبه الأربع التى مضت فى قصة نوح عليه السلام - من عرائسنا، وهى شبه منكر النبوة، فتذكر، وأيضا فى سورة الشعراء فى جواب النهى عن الظلم والإسراف ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٦): أى: وعظك وعدم وعظك سيان عندنا، لأنَّا لا نترك الظلم والإسراف بقولك، بل نقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٧) أى: فعلنا من الظلم والإسراف دأب الأولين، أى من آبائهم الضالين، فنحن نقلدهم.

أو وعظك دأب المتقدمين من الوعاظ والنصاح، كقول قريش لنبينا ﷺ: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[1] ثم قال قوم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٨): بنوا على عدم التعذيب على الظلم والإسراف لإمهال الله - تعالى - فى أسلافهم الملاعين وإرخاء الستور فاجترءوا على هذا القول.

وهذا كما ترى ظلمة زماننا - أصلحهم الله بما يليق بحكمته - وأجاب نبى الله هود - عليه السلام - عن كلمتهم الحمقاء فى سورة الأعراف بجواب حكيم حسن حليم، حيث لم يغضب عليهم ولم يرد السفاهة إليهم، بل أعرض عن سفههم تنبيهًا لمن يسلك سبيل الوعظ على أن يكون على هذا الأسلوب عن الإغضاب والظلم، فقال تعالى: ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بإضافتهم إلى نفسه للاستعطاف.

---

(١) وهى متكررة فى المصحف واخترنا أول آية تقابلنا وهى الآية رقم (٢٥) من سورة الأنعام ونصها: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

﴿لَيْسَ بِي﴾: أي: ملتصقًا وملتبسًا بي، فضلا عن التوغل والتمكن ﴿سَفَاهَةٌ﴾ ولما حصل من نفي السفاهة وهم ترك دعوى الرسالة في زعمهم، لما مر من الشبه الأربع التي أشير إليها هنا، وفصل في قصة نوح ـ عليه السلام ـ من عرائسنا.

استدرك بقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالمعنى أنهم لما ظنوا أن دعوى الرسالة من خيالات المجانين للشبه الأربع، ونفى هود ـ عليه السلام ـ السفاهة عن نفسه نفيًا كليًا وهم الكفرة، إذ أن هودًا عليه السلام رجع إلى قولهم في ترك دعوى الرسالة للشبه المذكورة، فبيَّن نبي الله أن السفاهة والجنون منفية عنه مطلقًا، ومع ذلك الرسالة ثابتة، فخذ هذا المعنى، وكن من الشاكرين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ استئناف لبيان الرسالة، أو صفة للرسول، للبيان.

على طريقة قول الشاعر:

* أنا الذي سمتني أمي حيدرة *

﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وجمعها لتنوعها إلى مواعظ، وقصص، وأحكام، وعقائد، وأمثال، أو لتعددها بحسب الأزمنة والمجالس.

﴿وَأَنَا لَكُمْ﴾ متعلق بناصح في قوله: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

ويجوز أن يكون للبيان، والإتيان بالاسم هنا مع تقدم الفعل في «أبلغكم» للإشارة إلى أنه مع تجديد التبليغ كل وقت ومجلس ثابت على النصح والأمانة، كأنه قال: أنا معروف عندكم بالنصح لكم وبالأمانة وكمال العقل والاستقامة، فكيف تتهمونني بالسفاهة، فيكون.

﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ منزلاً منزلة اللازم.

ويجوز أن يكون المعنى: وأنا لكم ناصح فيما أمرت ونهيت، أمين فيما بلغت عن ربي، فيكون الكلام على الأول جملة معترضة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٥١) وعلى الثاني: حالاً.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أي: أكذبتم وعجبتم.

﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ من أن جاءكم.

﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ من قبيلتكم عاديًا، أو من جنسكم آدميًا مثلكم.

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أى: ولتتقوا بإنذاره ولتفلحوا بتقواكم، تركه للاختصار لما مر قبل فى سورة الأعراف.

فبيَّن نبى الله أن فائدة الإرسال الإنذار من عذاب الله، وفائدته التقوى، وفائدتها الفلاح بخير الدارين، ثم ذكرهم بنعم الله، لأن الإنسان عبيد الإحسان، فلعلهم إن لم يتعظوا بالإنذار يتعظوا بالإطلاق فقال: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ عطف على محذوف، أى: تنبهوا بالإنذار واذكروا النعم الكائنة.

﴿إِذْ جَعَلَكُمْ﴾: فإذ ظرف والمفعول به محذوف.

ويجوز أن يكون (إذ) مفعول به على القول بعدم لزوم ظرفيته وتذكر الوقت مستلزم لتذكر ما فيه من النعم، ففى الكلام كناية.

﴿خُلَفَاءَ﴾ ساكنين متمكنين فى الأرض، أو ملوكًا فى المعمورة، لأن شداد بن عاد وأولاده ملكوا جميع المعمورة[1].

﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾: أى فى جسمكم، أو فيما خلق لكم من تسليطكم على الناس وقهركم وتصرفكم فيهم «بسطة» مفعول ثان لزاد، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة: ١٠) أو بسطة من الإبساط وهو التوسع الزيادة، أى جعلكم أصحاب طول القامة، وهو مستلزم لشدة القوة، وكان قوم عاد فى زمانهم مشهورين بطول القامة على أهل زمانهم، حتى إذا مد أحد من أهل زمانهم يده كان يبلغ رأس العادى، فهذا القدر يكفى فى معنى الآية.

وما ذكر من أن طول أطولهم مائة ذراع، وطول أقصرهم ستون أو سبعون ذراعًا، فلا حاجة إليه، أو جعلكم أصحاب الخدم والحشم والتبسط فى البلاد، حتى قهرتم جميع من فى الأرض وتصرفتم بما تشاءون.

ثم إن نبى الله بعدما خصص التذكير ببعض النعم عممه فى جميع النعم فقال:

---

(١) أخرج الزبير بن بكار فى الموفقيات عن ثور بن زيد الديلمى قال: قرأت كتابًا: أنا شداد بن عاد، أنا الذى رفعت العماد، وأنا الذى سددت بدرًا عن بطن واد، وأنا الذى كنزت كنزًا فى البحر على تسع أذرع، لا يخرجه إلاَّ أمّة محمد (ﷺ). انظر: السيوطى ٣/ ٤٨٦ من الدر المنثور فى التفسير بالمأثور.

﴿فَاذْكُرُوا﴾ بعد ذكر النعم الخاصة الكاملة.

﴿آلاءَ اللَّه﴾ أى: نعم الله، جمع أُلَى، كعنب وأعناب، وضلع وأضلاع.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ قصدتنا، مثل قولهم: ذهب يمشى، أو أجئتنا من مصلاك وموضع عبادتك أو من السماء على الاستهزاء، لأن الرسول لا يكون عندهم إلا ملك.

﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام، فمالوا إلى التقليد وتركوا النظر فى البرهان.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ فى قولك أفلا تتقون.

﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأقنطوا نبى الله من إيمانهم واستعجلوا بالعذاب فعند ذلك ينتقم الله لا محالة فلذا قال:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾: أى ثبت ووجب وحق.

﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من جهته.

﴿رِجْسٌ﴾ عذاب من الارتجاس، أى: الاضطراب، لأن العذاب ما به الاضطراب ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة انتقام التى هى سبب العذاب، فجمع بين السبب والمسبب تأكيداً، يعنى أن عادة الله قد جرت بأن عند إقناط الكفرة نبيهم واستعجالهم العذاب يتعلق إرادة الله بعذاب القوم تعلقًا حاليا بعد تعلقها فى الأزل، فالتغير فى التعلق، وهو أمر اعتبارى، لا فى الإرادة التى هى صفة قديمة، وبعد تعلق الإرادة تعلقًا حاليا يبتدئ أسباب العذاب فى الحدوث، على ما روى عند هذه المقاولة، حبس الله القطر عنهم فلم يُمطروا ثلاث سنين، فهذا الحبس مقدمة العذاب وأوله، وثمرة التعلق الحال للإرادة فلا حاجة بعد ذلك لما ذكر الموقوع من الوجود، ثم أنكر نبى الله مجادلتهم فى الأصنام فقال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ وأنا أريد خيركم وأمين على ما أبلغ عن ربى.

﴿فِي أَسْمَاءٍ﴾ فى أشياء، وهى الأصنام، ومن هنا زعم من زعم أن الأسماء عبارة عن ذات الشىء، لكن الحق أن المراد أن اسم الإله فى أصنامكم لا حقيقة، لأنه أى: المعبود من له النعم كلها ومنه الوجود مطلقًا، وهو الله، والأصنام لا نفع فيها أصلا، فلا يكون اسم الآلهة فيها إلا ألفاظا غير دالة على المعانى كالمهملات، فالنزاع كأنه فى الألفاظ المهملة حاصلة، إن ذوات الأصنام ليست مما يصدق عليها الآلهة.

﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من غير تحقق للمعنى أصلاً فى نفس الأمر، فلا استحقاق للأصنام لاسم الآلهة عقلا يفى أن يدون نقلا، وهو منتفٍ لأنه:

﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا﴾ ملتصقًا باسم الآلهة للأصنام.

﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ من حجة، فلا دليل لكم عقلا ولا نقلا.

﴿فَانتَظِرُوا﴾ بعد ما وضح الحق وتبين الطريق وذهبت الشبهة للعذاب الموعود.

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ له.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾: أى: هود، الفاء فصيحة، أى: نزل العذاب فهلكوا فأنجينا هودًا.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لا لاستحقاقهم الذاتى بل بفضل منا.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ودابر الشىء: آخره، فإذا قطع الآخر، على ما هو المعروف، أى بعد الابتداء من الأول، فقد قطع كل شىء، ففى الكلام كناية، والكلام دال على نبى الله هود. كانت آيات، وكذا لكل نبى، لأن النبوة تكون مقرونة بالمعجزة البينة وإن لم تعرف تفاصيلها كما فى حق بعض منهم كموسى وعيسى عليهما السلام.

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾: حتى يحصل لهم النجاة كما حصلت للمؤمنين منهم، فذكر هذا الكلام للتعريض، وإلا فقد علم عدم إيمانهم من «كذبوا بآياتنا» وقيل: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فى علم الله، أى: قد علم الله أنهم إن عاشوا أبد الدهر لم يؤمنوا، فلذا أهلكهم، وقد بين الله ـ تعالى كيفية هلاكهم فى سورة الحاقة على ما قال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦) من الصر، وهو البرد، أى: بريح باردة، أو من الصرير وهو الصوت، أى: بريح عاصفة شديدة الصوت عاتية على خزانها حيث لم يقدروا على ضبطها لغضب الله على عاد، أو عاتية على عاد، فلم يقدروا على ردها.

﴿سَخَّرَهَا﴾[1] استئناف بيان للإهلاك ودفع لوهم أن يكون الإهلاك بالريح لاتصالات فليكن فهى تقتضى ذلك، يعنى إنما كان الإهلاك بتسخير الله الريح بقدرته القاهرة وإرادته الكاملة، سواء كان سببًا عاديا كالاتصالات، أو لأنها بعد كون السبب عاديا، على ما عرف من الشرع تواترًا، فالتسخير حاصل (عليهم) جزء آية على عاد.

(١) هنا ابتداء ذكر الآية رقم (٧) من سورة الحاقة ونصها: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ أولها أربعاء، آخرها أربعاء ﴿ حُسُومًا ﴾ متواليات، أو منقطعات للخبر.

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ ﴾ أى: قوم عاد، إن كنت حاضرهم ﴿ فِيهَا ﴾ أى فى مهب الريح ﴿ صَرْعَى ﴾: هلكى.

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أصول نخل: لعظم إجرامهم ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ ساقطة ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٨) أى: ما بقى أحد منهم أصلاً.

وقصة هلاك قوم هود على ما ذكر محيى السنة فى معالم التنزيل، حيث قال: وكانت قصته على ما ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا قومًا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالأحقاف، وهى رمال بين عمان وحضرموت، وكانوا قد فشوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله، أو كانوا أصحاب أوثان يعبدون لهم وصنمًا يقال له صداء، وصنمًا يقال له: صمود، صنمًا يقال له: الهباء، فبعث الله إليهم هودًا نبيًّا وهو من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم حسبًا، فأمرهم أن يوحدوا الله ويكفوا عن ظلم الناس، لم يأمرهم بغير ذلك، فكذبوه وقالوا: «من أشد منا قوة» وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين، فلما فعلوا ذلك أمسك الله المطر عنهم ـ ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، وكان الناس فى ذلك الزمان إذا أنزل بهم بلاء فطلبوا الفرج كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة، مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكلهم معظِّم لمكة وأهل مكة يومئذ العماليق، سموا عماليق لأن آباءهم عماليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له: معاوية بن بكر، فليستسقوا لكم، فبعثوا قيل: «ابن عتر» و «لقيم بن هزال بن هذيل» و «عتيل بن صاد بن عاد» الأكبر، و «مرشد بن غفير» وكان مسلمًا يكتم إسلامه، وجهلمة بن الخيرى خال معاوية بن بكر، ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغر ابن صمد بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء مع رهط من قومه حتى بلغ عدة وفودهم سبعين رجلاً، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارجًا من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية بن بكر، وكان مسيرهم شهرًا أو مقامهم شهرًا فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ـ وقد بعثهم قومهم ـ ماحَلَّ بهم

من البلاء الذى أصابهم، شق ذلك عليه، وقال: هلك أخوالى وأصهارى، وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى، والله ما أدرى كيف أصنع بهم؟ أستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بُعثوا له فيظنون أنه ضيق منى بمقامهم عندى، وقد هلك من ورائهم من قومهم جهدًا وعطشًا، فشكى ذلك من أمرهم إلى قينية الجرادتين فقالتا شعرًا تغنيهم لا يدرون من قاله، لعل ذلك أن يحركهم، فقال معاوية بن بكر:

ألا يا قيل ويحك قم فهيِّم ... لعل الله يمنحنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادًا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرْجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش تأتيهم جهارًا ... ولا تخشى لعادىٍّ سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم تماما
فقُبِّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لُقُّوا التحية والسلاما(١)

فلما غنتهم الجرادتان هذا قال بعضهم لبعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغيثون بكم من البلاء الذى نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال: مرثد بن سعد بن غفير ـ وكان قد آمن بهود سرًا: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك، وقال: عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشًا ما تبلهم السماء، لهم صنم يقال له: «صمود» يقابله «صداء» و «الهباء» فبصرنا الرسول سبيل الرشد، فأبصرنا الهوى وجلاء العماء، وإن إله هود إلهى على الله التوكل والرجاء، فقال معاوية بن بكر احبس عنا مرثد بن سعد ولا يقدمن معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم خرجوا إلى مكة يستسقون لعاد، فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم، قبل، أن يدعوا الله بشىء مما خرجوا له، فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عادٍ يدعون، فقال: اللهم أعطنى سؤالى وحدى، ولا تدخلنى فى شىء مما يدعونك به وفد عاد، وكان «قيل بن عنز» رأس وفد عاد فقال: اللهم أعط قِيلاً ما سألك واجعل سؤالنا مع سؤاله، وقد كان تخلف عن وفد عاد حين دعوا لقمان بن عاد، وكان سُئِل عاد حتى إذا

---

(١) انظر هذه الأبيات فى ابن كثير: البداية والنهاية وتم ضبطها معه: ١/ ١/ ١٢٦.

فرغوا من دعواهم قام فقال: اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤلى، وسأل الله طول العمر فعمرً عُمْر سبعة أشخاص.

وقال: «قيل بن عنز» حين دعا يا إلهنا إن كان هود صادقًا، فاسقنا، فإنا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثًا: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السحاب، يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذه السحائب، وقال: اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد، اخترت رمادًا رَمْدَدًا لا يبقى من آل عاد أحدًا، وساق الله السحابة التى اختارها «قيل» بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥) أى: كل شىء مرت به، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها: «مهدد» فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيت قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار أمامها رجل يقودها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.

واعتزل هود ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ الأنفس وإنها لتمر من عاد بالطعن فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه، فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة فى ليلة مقمرة مش ثالثة من مصبات عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هودًا وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر، فكأنهم شكوا فيما حدثهم به، فقالت هذيلة بنت بكر: صدق ورب مكة.

وذكروا أن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد، وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم: قد أعطيتهم منامكم فاختاروا لأنفسكم، إلا أنه لا سبيل إلى الخلود، ولا بد من الموت، فقال مرثد، اللهم اعطنى صدقًا وبرًا، فأعطى ذلك، وقال لقمان: اعطنى يا رب عمرًا، فقيل له: اختر فاختار عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ فرخ حين يخرج من بيضة فيأخذ الذكر منها لقوتها حتى إذا مات أخذ غيره، فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، وكان آخرها لبد فلما مات لبد مات

لقمان معه، وأما قيل، فإنه قال: اختار أن يصيبنى ما أصاب قومى، فقيل له: إنه الهلاك، فقال: لا أبالى، لا حاجة لى فى البقاء بعدهم فأصابه الذى أصاب عاداً من البلاء والعذاب فهلك.

قال السُّدى: بعث الله على عاد الريح العقيم، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوها تبادروا البيوت فدخلوها وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح فقلعت أبوابهم، فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيراً سوداً فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه.

وروى أن الله ـ تعالى ـ أمر الريح قالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام، لهم أنين تحت الرمال قط إلا بمكيال إلا يومئذ، فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيا لها.

وفى الحديث: (أنها خرجت على قدر خرت الخاتم)(١).

وروى عن على ـ رضي الله عنه ـ أن قبر هود ـ عليه السلام ـ بحضرموت فى كثيب أحمر.

وقال عبد الرحمن بن سابط: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيّا، وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل عليه السلام ـ فى تلك البقعة.

ويروى أن النبى من الأنبياء كان إذا هلك قومه جاء هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا. انتهى.

---

(١) قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ما فتح الله تعالى على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلاَّ مثل موضع الخاتم، فمرَّت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة) وقد رواه الطبرانى عن عبدان بن أحمد. . . عن ابن عباس. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ١/ ١/ ١٢٩.

مجلس فى:

بيان قصة (سيدنا) صالح نبى الله (عليه السلام) وقصة قومه ثمود

فى سبع آيات من سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان قصة (سيدنا) صالح نبى الله (عليه السلام) وقصة قومه ثمود فى سبع آيات[1] من سورة الأعراف.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ عطف للمجموع على مجموع قوله: ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (هود: ٢٥) لكن قدَّم المجرور هنا لاقتضاء ضمير ﴿أَخَاهُمْ﴾ تقديمه.

و ﴿صَالِحًا﴾ عطف بيان لأخاهم، وصالح (عليه السلام) هو: صالح بن عبيد بن

---

(١) هذه الآيات تبدأ فى سورة الأعراف من الآية رقم (٧٣) وتنتهى عند الآية رقم (٧٩) من نفس السورة ونصها: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود، وثمود هذا هو: ثمود بن عابر بن لدم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ ابن عم عاد، لأن عادًا هو عاد بن عوض بن إرم بن سام ابن نوح (عليه السلام) وقد كثر نسل ثمود فى الأرض وتمكنوا فى أرض حجر بين الشام والحجاز قريبًا من وادى القرِى، وعمروا الأرض وعمروا أعمارًا طوالاً، وكان أحدهم يبنى بيته من الحجارة وغيرها من الآجر وغيره، وكان بيته لا يفى بعمره فكان ينهدم مرة بعد أخرى، فكانوا ينحتون الجبال والحجارة بيوتا ويسكنونها وكانوا فى أرغد عيش، وأهنأه[1].

(١) وأخرج سنيد وابن جرير والحاكم من طريق حجاج عن أبى بكر بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة عن رسول الله ﷺ قال: «كانت ثمود قوم صالح، أعمرهم الله فى الدنيا فأطال أعمارهم، حتى جعل أحدهم يبنى المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حيٌ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا فنحتوها وجابوها وخرقوها، وكانوا فى سعة من معايشهم فقالوا: يا صالح ادع لنا ربك يخرج لنا آية نعلم أنك رسول الله، فدعا صالح ربه فأخرج لهم الناقة، فكان شربها يومًا وشربهم يومًا معلومًا، فإذا كان يوم شربها خلوا عنها وعن الماء وحلبوها لبنًا ملأوا كل إناء ووعاء وسقاء، حتى إذا كان يوم شربهم صرفوها عن الماء فلم تشرب منه شيئًا فملأوا كل إناء ووعاء وسقاء، فأوحى الله إلى صالح: إن قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم: فقالوا: ما كنا لنفعل. . .! فقال لهم: إن لا تعقروها أنتم يوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها، قالوا: فما علامة ذلك المولود، فوالله لا نجده إلا قتلناه، قال: فإنه غلام أشقر أزرق أصهب أحمر، وكان فى المدينة شيخان عزيزان منيعان، لأحدهما ابن يرغب به عن المناكح، وللآخر ابنة لا يجد لها كفؤًا، فجمع بينهما مجلس فقال أحدهما لصاحبه: ما يمنعك أن تزوج ابنك؟ قال: لا أجد له كفؤا، قال: فإن ابنتى كفء له، فأنا أزوجك، فزوجه، فولد بينهما مولود، وكان فى المدينة ثمانية رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، فلما قال لهم صالح: إنما يعقرها مولود فيكم اختاروا ثمانى نسوة قوابل من القرية، وجعلوا معهن شرطا كانوا يطوفون فى القرية، فإذا نظروا المرأة تمخض نظروا ما ولدها؟ إن كان غلامًا قلبنه فنظرن ما هو؟ وإن كانت جارية أعرضت عنها، فلما وجدوا ذلك المولود صرخت النسوة: هذا الذى يريد صالح رسول الله، فأراد الشرط أن يأخذوه فحال جَدَّاهُ بينهم، (أى: جد أبيه وجد أمه) وقالوا: لو أن صالحًا أراد هذا قتلناه، فكان شر مولود، وكان يشب فى اليوم شباب غيره فى الجمعة، ويشب فى الجمعة شباب غيره فى الشهر، ويشب فى الشهر شباب غيره فى السنة، فاجتمع الثمانية الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وفيهم الشيخان، فقالوا: استعمل علينا هذا الغلام لمنزلته وشرف جديه فكانوا تسعة، وكان صالح لا ينام معهم فى القرية، كان يبيت فى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكرهم، وإذا أمسى خرج إلى مسجده فبات فيه، =

= قال حجاج: وقال ابن جريج: لما قال لهم صالح: إنه سيولد غلام يكون هلاككم على يديه، قالوا: فكيف تأمرنا؟ قال: أمركم بقتلهم: فقتلوهم إلا واحدًا قال: فلما بلغ ذلك المولود قالوا: لو كنا لم نقتل أولادنا لكان لكل رجل منا مثل هذا، هذا عمل صالح، فأتمروا بينهم بقتله، وقالوا: نخرج مسافرين والناس يروننا علانية، ثم نرجع من ليلة كذا من شهر كذا وكذا فنرصده عند مصلاه فنقتله فلا يحسب الناس إلا أنا مسافرون كما نحن، فأقبلوا حتى دخلوا تحت صخرة يرصدونه، فأرسل الله عليهم الصخرة فرضختهم فأصبحوا رضخًا، فانطلق رجال ممن قد اطلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ، فرجعوا يصيحون فى القرية: أى عباد الله، أما رضى صالح أن أمرهم أن يقتلوا أولادهم حتى قتلهم؟! فاجتمع أهل القرية على قتل الناقة أجمعين، وأحجموا عنها إلا ذلك ابن العاشر، ثم رجع الحديث إلى حديث رسول الله ﷺ قال: وأرادوا أن يمكروا بصالح، فمشوا حتى أتوا على شِرْب طريق صالح فاختبأ فيه ثمانية، وقالوا: إذا خرج علينا قتلناه وأتينا أهله، فبيناهم، فأمر الله الأرض فاستوت عليهم، فاجتمعوا ومشوا إلى الناقة وهى على حوضها قائمة، فقال الشقى لأحدهم: ائتها فاعقرها، فأتاها فتعاظمه ذلك فأضرب عن ذلك، فبعث آخر فأعظمه ذلك، فجعل لا يبعث رجلا إلا تعاظمه أمرها حتى مشى إليها وتطاول فضرب عرقوبيها فوقعت تركض، فرأى رجل منهم صالحًا فقال: أدرك الناقة فقد عُقرت، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه، يا نبى الله إنما عقرها فلان، إنه لا ذنب لنا، قال: فانظروا هل تدركون فصيلها؟ فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه، فلما رأى الفصيل أمه تضطرب أتى جبلا يقال له: القارة قصير، فصعد وذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله إلى الجبل، فطال فى السماء حتى ما تناله الطير، ودخل صالح القرية، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم استقبل صالحًا فرغا رغوة، ثم رغا أخرى، ثم رغا أخرى فقال صالح لقومه: لكل رغوة أجل، فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب، ألا إن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة، واليوم الثانى محمرة، واليوم الثالث مسودة، فلما أصبحوا إذا وجوههم كأنها قد طليت بالخلوق، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنها خضبت بالدماء، فصاحوا وضجوا وبكوا وعارفوا أنه العذاب، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثالث فإذا وجوههم مسودة كأنها طليت بالقار، فصاحوا جميعًا: ألا قد حضركم العذاب فتكفنوا وتحنطوا، وكان حنوطهم الصبر والمغر، وكانت أكفانهم الأنطاع، ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم فينظرون إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة فلا يدرون من أين يأتيهم العذاب، من فوقهم من السماء أم من تحت أرجلهم من الأرض، خسفًا أو قذفًا، فلما أصبحوا اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت فى الأرض، فتقطعت قلوبهم =

كما قال ـ تعالى ـ فى سورة الشعراء عن لسان صالح ـ عليه السلام: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾[(١)]: إنكارًا أو تقريرًا.

﴿فِي مَا﴾ موصول صلته.

﴿هَاهُنَا﴾ ألاَّ تموتون وتتركون فى النعم التى هاهنا ﴿آمِنِينَ﴾ من الموت والزوال، ثم بيَّن النعم بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أى: تمرها منضوج ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ أى: بطرين أو حاذقين، وكانوا عبدة الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحًا بن عبيد منهم فدعاهم إلى الله وعبادته بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: فى ترك الشرك والكفران بالنعم.

﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾.

فأنكره قومه كما قال فى تلك السورة، أى سورة الشعراء أيضًا:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٣) أى المغلوبين على عقولهم، أى المجانين، وعللوه بقولهم: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[(٢)]: أى لست بملك ولا ملك ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[(٣)]: فاقترحوا معجزة تدل على صحة دعواه من الرسالة، فأعطاه الله معجزة (ناقة خارجة من الصخرة) كما سيجئ فى القصة.

= فى صدورهم، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. انظر: الإمام السيوطى: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور: ٣/ ٤٨٩ وما بعدها.

(١) آيات من سورة الشعراء فى قصة سيدنا صالح (عليه السلام) تبدأ من الآية رقم (١٤١) إلى الآية رقم (١٥٩) ونصها ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(٢) الصحيح أن الآية نصها: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهى الآية رقم (١٥٤) من سورة الشعراء.

(٣) انظر تخريج الآية السابقة.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء: ١٥٥): فكانت الناقة تشرب ماء البر يومًا ويشربون يومًا.

﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٥٦): فبقيت الناقة فيما بينهم تأكل فى الأرض وتشرب الماء.

وإلى جملة هذا أشار فى سورة الأعراف فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ قال: استئناف وجواب وسؤال: ماذا قال لهم؟ ﴿يَا قَوْمِ﴾: الإضافة إلى نفسه للاستعطاف.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أى: وحّدوه لأن الاختصاص الذكرى يفضى إلى الاختصاص الحصرى بقرينة المقام، وهو أن القوم كانوا يعبدون الله والأصنام، مشركين، فإذا قيل: اعبدو الله وخص الله بالذكر، وتركت الأصنام دل الكلام على الاختصاص الحصرى كما إذا رأيت رجلاً يكرم زيدًا وعمرًا، وكان زيد لائقا بالإكرام دون عمرو، فقلت: أكرم زيدًا واترك عمرًا دل الكلام على الحصر، لأنه كان يكرم زيدًا وعلله بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾: (فمن) للاستغراق ﴿غَيْرُهُ﴾: بالرفع على البدل لأنه المختار فى الكلام الغير الموجب، وحكم غير الاستثناء فى الإعراب حكم ما بعد إلاَّ.

وقرئ بالنصب على الاستثناء.

وبالجر على أن غيرًا صفته وليس للاستثناء.

فلما فهم من قوله وأمره دعوى الرسالة وكان يجب على مدعيها إظهار المعجزة فأجاب عن السؤال بقوله استئنافًا: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم﴾ أى: ظهرت لكم، فإن الظهور كأنه المجئ ﴿بَيِّنَةٌ﴾: أى: حجة عظيمة، وشاهد، ودليل على صحة نبوتى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الذى يربيكم بأنواع النعم التى من جملتها الهداية كما قال فى سورة فصلت:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧).

ثم أجاب على سؤال تعيين البينة بقوله:

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾: الإضافة للتشريف كبيت الله ولكونها بلا واسطة فحل وطروقه، بل بتكوين الله ككلمة الله ﴿لَكُمْ﴾: اللام للبيان والاختصاص.

﴿آيَةً﴾: حال مؤكدة من ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾: لأن ناقة الله لا تكون إلا آية، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى هذه والمعنى: أن كون نفس ظهور الناقة من الحجر آية ودليل مختص بكم لأنكم شاهدتموه وأمَّا غيركم فى هذا الزمان وبعده فكونه آية لهم

إنما هو سبب تواتر الخبر أو بسبب خبر الرسول فالمختص هم ظهور الآية من دون التواتر أو غيْره، والمشاهدة نعمة عظيمة أعلى من السماع لأن الخبر، وإن أفاد اليقين ليس كالعيان.

﴿ فَذَرُوهَا ﴾: أي إذا كانت الناقة ناقة الله فاتركوا ناقة الله.

﴿ تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا ﴾: ملابسين أنتم ﴿ بِسُوءٍ ﴾: وقصده نهى من المس مبالغة لكن عند قصد السوء لأنه بدون ذلك، بل للشفقة يحسن أى إذا كان قصدكم سوء أى ضربًا أو قتلاً فلا تمسوها مساسًا، فضلاً عن الجرح والقتل.

﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾: جواب للنهى.

﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: أى: لا يكن منكم المس وأخذ العذاب المتسبب عن المس.

﴿ وَاذْكُرُوا ﴾: عطف على الأمر أو النهى، وتذكير لهم بالنعم خاصة وعامة، لأن الإنسان عبيد الإحسان.

﴿ إِذْ ﴾: مفعول له، أو ظرف على ما مرَّ فى القصَّة السابقة عليها.

﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾: فى المساكن.

﴿ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾: أى فى بعدهم كقوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ (الجمعة: ٩) فى قول، لأن عاداً كانوا يتصرفون فيهم وفى مساكنهم.

﴿ وَبَوَّأَكُمْ ﴾: أى أنزلكم، من المباءة وهى المنزل.

﴿ فِي الأَرْضِ ﴾: أرض حجر بقرب وادى القرى.

﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾: حال من الضمير.

﴿ مِن سُهُولِهَا ﴾: (من) للابتداء، والمراد من السهول ما يسهل منه العمل، من سهولة الأرض من الطين الرجص واللبن والاحرا وفى سهولها (فمن) بمعنى فى.

والسهل خلاف الجبل.

﴿ قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ ﴾: أى: الأحجار الرواسى.

﴿ بُيُوتًا ﴾: حال مقدرة لأن البيت ليس فى حال مباشرة النحت فصار مثل: خطت الثوب قميصًا، وبريت القصبة قلمًا لأنها بمعنى مساكن ومسكونات.

أو تقول: من محذوف من الجبال على الحذف والإيصال لما ذكر فى سورة الشعراء وغيرها، فـ «بيوتًا»: مفعول به لاستلزام النحت الصنع.

أو نقول: ضمن «تنحتون» معنى تتخذون فتتعدى إلى مفعولين، قيل: كانوا يسكنون القصور فى السهل صيفًا والبيوت فى الجبال شتاء، فلما خصص بعض النعم عطف عقيبه، ذكر العام على ذكر الخاص بقوله:

﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾: عمومًا.

﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ﴾: العثى وكذا العثو الإفساد.

فيكون قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالاً مؤكدة، فأجاب عن سؤال: ماذ قال قومه فى جوابه بقوله استئنافًا: ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾: أى الأشراف.

﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: من غير أهلية لكبر لأنه كيف يليق بمن أوله نطفة مذرية، وآخره جيفة قذرة ويحتمل بين ذلك عذرة فذموا بالاستكبار لكونه فعلهم، فلذا بنى للفاعل: ﴿مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ﴾: اللام صلة.

قال: لا للأجل بدليل الخطاب فيما بعد.

﴿اسْتُضْعِفُوا﴾: صلة للموصول على بناء المجهول أى استضعفهم المستكبرون فبهذا ثبت إفسادهم وتباغيهم فيما بينهم واستحقاقهم بعذاب الله عاجلاً كما قال فى أواخر سورة هود كما مر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أى بشرك ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧): أى فيما بينهم لا يضمون إلى شركهم إفسادًا أو تباغيًا فالاستضعاف للمؤمنين صفة مدح، لأنه ليس بفعلهم بل بقهر الظالمين، كما فى زماننا يقهرون المؤمنين، ويضرون عليهم أكثر من جزية الكفرة دمر الله الظالمين تدميراً وأوصلهم إلى جهنم وبئست مصيراً.

﴿لِمَنْ آمَنَ﴾: بدل من الذين (استضعفوا) بإعادة الجار بدل الكل إن رجع الضمير فى ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى القول وبدل البعض البتة إن رجع إلى الذين استضعفوا.

﴿أَتَعْلَمُونَ﴾: الاستفهام للاستهزاء.

﴿أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾: استهزأ بهم فى علمهم بكون صالح (عليه السلام) رسولاً من الله، فأجاب المؤمنون على أسلوب الحكيم من قبيل تلقى السائل بغير ما يتطلبه لنكتة، وهى وضوح أمر رسالة صالح ـ عليه السلام ـ هنا على ما قال.

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾: فأخرجوا الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأنه كان الظاهر فى الجواب نعم، نعلم أنه رسول، فغيروه إلى ما ترى لإفادة أن إرساله

والعلم به أظهر من الشمس وأبين من الأمس ولا يريب عاقل فيه لما قد سبق من المعجزة، فاللائق بحالكم السؤال عن إيماننا وكفر من كفر به فنخبركم بأنا بما أرسل به من الدين مؤمنون، لأن المشكل فى الجملة هو هذه الإرسالة، فلما أتى المؤمنون بكلام أبلغ، وأجابوا عن الكافرين به، لا بمقتضى الظاهر، وغيروا الأسلوب إلى أسلوب حكيم أجاب الكفار عنهم على أسلوبهم فى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر كان قولهم: إنا بما أرسل به كافرون فغيروا الأسلوب إلى أسلوب أحمق وهو هنا تلقى المخاطب بغير ما يترقبه لنكتة هى إظهار العناد وصيانة أفواههم الملعونة عن ذكر رسالة على ما قال:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: لاستكبارهم.

﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾: فجواب المؤمنين من باب الأسلوب الحكيم، وجواب الكفار من باب الأسلوب الأحمق، شكر مساعى صاحب الكشّاف، وسامحه الله فى معاملته حيث بينوا هذا البيان آخذين من علمى المعانى والبيان المختصين بالقرآن وذاق منه من ذاق إعجاز الفرقان.

﴿فَعَقَرُوا﴾: بعد هذا الإنكار بلا تراخ لأن الإنكار بلغ غايته.

﴿النَّاقَةَ﴾: أى قطعوا عرقوبها، ثم نحروها.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: فالأمران واحد الأمور أو واحد الأوامر وكلمة (عن) إمّا لتضمين معنى التولى أو الصدور، فالمعنى: عتوا وتولوا عن شأن ربهم، أى دينه عاتين أو عن أمره بقوله: ﴿فَذَرُوهَا﴾ لأن أمر الرسول هو أمر الله.

أو عتوا وصدر عتوهم عن أمر الله، أى: صار الأمر بكلا معنييه سببًا لعتوهم كقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ (الكهف: ٨٢).

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: فى قولك ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فاستعجلوا العذاب وعلقوه بالشك فى رسالة بقولهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: أى نحن نشك فى رسالتك وليس لنا يقين فإن كنت رسولاً على ما زعمت فأت بالعذاب، فأظهروا عدم مبالاتهم بعذاب الله.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: أى الزلزلة الناشئة فى صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ لأن

المعتاد أن الصيحة إذا عظمت زلزلة الأرض كما نشاهد من الزلزلة عند الصيحة الناشئة فى المدافع الكبار.

﴿فَأَصْبَحُوا﴾: فعل تام بمعنى دخلوا فى الصباح، أو ناقص بمعنى صاروا.

﴿فِي دَارِهِمْ﴾: وفى موضع آخر «ديارهم».

فيحتمل أن يكون المراد من ديارهم الجنس فيكونون خامدين فى بيوتهم ويحتمل أن يكون المراد بدارهم بلدتهم كدار الحرب ودار الإسلام فيكون الخمود فى بلدتهم.

﴿جَاثِمِينَ﴾: أى: مبقين، والجثوم للإنسان والطير كالركوب للبعير أى: ملتصقين بالأرض حال أو خبر.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: ظاهرالكلام يدل على تعقيب التولى على الجثوم فيكون النداء والخطاب فى:

﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾: والإفراد هنا لإرادة الاستغراق من الإضافة.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: إمَّا للتحسير والتوبيخ والتقريع، كما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ بأهل قليب بدر[1] وقال: ما أنتم بأسمع منهم... الحديث، لما كان يوم بدر ونصر

---

(١) أهل «قليب بدر» حدثنا أحمد بن إسحاق السور مارى قال: حدثنا عبيد الله بن موسى قال: حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال: ثم بينما رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة وجمع قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائى، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاه فيجىء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه وثبت النبى ﷺ ساجداً فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة، عليها السلام، وهى جويرية، فأقبلت تسعى وثبت النبى ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش» ثم سمى: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، وعمارة بن الوليد» قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ثم سُحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة) انظر: صحيح البخارى ٣/ ١٠٧٢، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٢٠٣، وصحيح ابن حبان ١٤/ ٢٢٣ والحاكم فى المستدرك ٣/ ٧٢، ومسند أبى عوانة ٤/ ٢٨٥، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٧، ١٤٧ وأبو داود ٣/ ٥٨، ومصنف ابن أبى شيبة ٣/ ٦٣، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٨.

رسول الله ـ ﷺ ـ أقام ثلاثًا وألقى بضعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فى طوى من أطواء بدر، ثم أمر براحلته فشد عليها رحلها فانطلق حتى وقف على شقى الركى، فجعل يقول: (يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإنى وجدت ما وعدنى الله؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئًا).

رواه أبو طلحة(١) من سيرة ابن سيد الناس(٢).

وإما للتحسير والحزن لأن من عادة الناس عند هلاك أحبته أنهم يقولون: يا أخى كم نصحت لك، ولكن لا تنتصح ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾: والتعبير بصيغة المضارع للاستحضار، وكانت قصة ثمود على ما ذكره محمد بن إسحاق ووهب وغيرهما: «أن عادًا لما هلكت وأنقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا فى الأرض، فرحلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل أحدهم يبنى المسكن من المدر فينهدم والرجل حى، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا فى سعة من معاشهم، فعتوا وأفسدوا فى الأرض، وعبدوا غير الله، فبعث الله إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عربًا وكان صالح من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم حسبًا وموضعًا، فبعث الله إليهم غلامًا شابًا فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم

---

(١) **(أبو طلحة)**: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصارى النجارى المدنى، أبو طلحة (مشهور بكنيته، صاحب رسول الله (ﷺ)، صحابى توفى رضي الله عنه: ٣٤هـ. روى له: البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وأبو داود، وابن ماجه، قال المزى فى«تهذيب الكمال»: شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أحد النقباء، قال شعبة، عن ثابت البنانى، وحميد الطويل، عن أنس ابن مالك: كان أبو طلحة لا يصوم على عهد رسول الله ﷺ من أجل الغزو، فصام بعده أربعين سنة، لا يفطر إلا يوم أضحى، أو يوم فطر، وقال أبو زرعة الدمشقى: توفى بالشام، وعاش بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة، وقال يحيى ابن عبد الله بن بكير، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وأبو حاتم الرازى: مات سنة أربع وثلاثين، وصلى عليه عثمان بن عفان، زاد ابن بكير، وابن نمير: وسنه سبعون سنة، وكذلك قال الواقدى، قال: وكان رجلا آدم مربوعًا لا يغير شيبه، وقيل: إنه مات سنة اثنتين وثلاثين، روى له الجماعة. انظر: الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» ٣/ ٤١٥.

(٢) تقدم الكلام عن السيرة ومؤلفها.

صالح ـ عليه السلام ـ بالدعاء والتبليغ وأكثـر لهم التحذير والتخويف، سألوه أن يريهم آية تكون مصدقًا لما يقول، فقـال لهم: أى آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيـد يخرجون فيه بأصـنامهم فى يوم معلوم فى السنة، فتـدعوا إلهك وندعو إلهنا، فإن اسـتجيب لك اتبـعناك، وإن استجـيب لنا اتبعـتنا، فقال لهم صـالح ـ عليه السلام ـ: نعم، فـخرجوا بأوثانهم إلى عيـدهم، وخرج صالح ـ عليه السـلام ـ فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح ـ عليـه السلام ـ فى شىء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو ابن حواش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ـ ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء.

والمخـترجة: مـا شاكل البخت من الإبل، فـإن فعلت صدقناك وآمنا بك، فـأخذ صالح ـ عليه السلام ـ عليهم مواثقهم لئن فـعلت لتصدقوننى ولتؤمنن بى؟ قالوا: نعم، فصلى صالح ـ عليـه السلام ـ ركعتين ودعا ربـه، فتمخضت الصخـرة تمخض النتوج بولدها، ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيهـا إلا الله عظمًا، وهم ينظرون، ثم نتجت سقبًا مـثلها فى العظم، فآمن به جندع بن عمـرو ورهط من قومـه، وأراد أشراف ثمـود أن يؤمنوا به ويصدقوه فـنهاهم ذواب بن عمرو بن لبيد، والحباب صـاحب أوثانهم، ورباب بن صعمر وكان كاهنهم، وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة قال لهم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء: ١٥٥) ومعها سـقاها فى أرض ثمود وترعى الشجرة شرب المـاء، فكانت ترد الماء غبا، فإذا كان يومها وضـعت رأسها فى بئر فى الحجر يقال لها: بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، فلا تدع قطرة، ثم ترفع رأسها فتفتتح حتى تفحج لهم فيـحلبون ما شاءوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى تملأ أوانيهم كلها، ثم تصدر من غـير الفج الذى منه وردت لا تقدر على أن تصدر من حيث ترد بـصنعى عنها حـتى إذا كان الغد كـان يومهم فـيشـربون ما شـاءوا من الماء ويدخرون ما شاءوا ليوم الناقة، فهم من ذلـك فى سعة ودعة، وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منهـا المواشى وأغنامهم وأبقارهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادى فى حرة وجدبة وتستـوى لبطن الوادى إذا كان الشتاء فتهرب مـواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للبـلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا

عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود: إحداهما يقال لها: (عنيزة بنت غنم) تكنى بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مسنة وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل، وبقر وغنم، وامرأة أخرى يقال لها: (صدوق بنت المحيا) وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح ـ عليه السلام ـ وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بهما فى مواشيهما فحملتا فى عقر الناقة فدعت صدوق رجلاً من ثمود يقال له: الحباب، لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها له إن هو فعل، فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً فأجابها إلى ذلك، ودعت (عنيزة بنت غنم) قدار بن سالف، وكان رجلاً أحمر أزرق فقيراً يزعمون أنه كان لزنية، ولم يكن لسالف لكنه ولد على فراش سالف، فقالت: أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزاً منيعًا فى قومه، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعمى، أخبرنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا موسى ابن إسماعيل، أنبأنا وهب، أنبأنا هشام، عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبى: ﷺ يخطب وذكر الناقة والذى عقر، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (الشمس: ١٢) انبعث لها رجل عزيز عام منيع فى رهطه مثل أبى زمعة.

رجعنا إلى القصة:

فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستعانوا بأعوان ثمود فأتبعهما سبعة نفر فكانوا تسعة رهط، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرَصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقدار فى أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع فى طريق آخر فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فاستقرت لقدار، ثم زمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة تحدر سقيها ثم طعن فى لبتها فخرها وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه، فلما رأى سفيها ذلك انطلق حتى أتى جبلاً منيعًا يقال له: صنور، وقيل: اسمه: قارة وأتى صالحًا (عليه السلام) وقيل له: أدرك الناقة فقد عقرت، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه، يا نبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب

لنا، فقال صالح ـ عليه السلام ـ: انظروا هل تدركون فاعلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل وذهبوا ليأخذوه فأوحى الله إلى الجبل فتطاول فى السماء حتى لا ينال الطير، وجاء صالح ـ عليه السلام ـ فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعهُ ثم رغا ثلاثًا وانفجرت الصخرة فدخلتها فقال صالح ـ عليه السلام ـ: لكل رغوة أجل يوم ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ (هود: ٦٥) وقال ابن إسحاق:

اتبع الشِّعب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جر برجل فأنزله فألقوا لحمه مع لحم أمه، وقال لهم صالح ـ عليه السلام ـ أنتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته، وقالوا وهم ينهزون برومتى ذلك: يا صالح وما آية ذلك؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم: الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دباراً، والأربعاء جباراً، والخميس مؤنسًا، والجمعة العروبة، والسبت شباراً.

وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح ـ عليه السلام ـ حين قالوا ذلك: تصبحون غداة يوم المؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شيَّار ووجوهكم مسودة ثم يصبِّحكم العذاب يوم أول، فلما قال لهم صالح ـ عليه السلام ـ ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحًا فإن كان صادقًا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبًا قد كنا ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً ليبيتوه فى أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا على منزل صالح ـ عليه السلام ـ فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا: يا صالح أنت قتلتهم، ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبدًا فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقًا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبًا وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أنه صالح ـ عليه السلام ـ فطلبوه ليقتلوه وخرج صالح ـ عليه السلام ـ هاربًا منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لها: بنو غنم فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له: نفيل ويكنى بأبى هدب، وهو مشرك فغيبه ولم يقدروا عليه فغدوا على

أصحاب صالح ـ عليه السلام ـ يعذبونهم ليدلوا عليه فقال رجل من أصحاب صالح ـ عليه السلام ـ مبدع بن هدم، يا نبى الله إنهم ليعذبوننا لندلهم عليك، أفندلهم؟ قال: نعم، فدلوهم عليه، فأتوا أبا هدب فكلموه فى ذلك فقال: نعم عندى صالح، وليس لكم عليه سبيل، فأعرضوا عنه وتركوه، وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضًا بما يرونه فى وجوههم، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل، فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أنه العذاب، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا بأجمعهم ألا قد حضركم العذاب، فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح ـ عليه السلام ـ من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام فنزل رحلة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم بالأرض يتقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد الضحى يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود: ٦٧) إلا جارية مقعدة يقال له: (ذويعة بنت سلف) وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح ـ عليه السلام ـ فأطلق الله رجليها بعدما عاينت العذاب فخرجت كأسرع ما يرى شىء قط حتى أتت قرح وهى وادى القرى، فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصابت ثمود، ثم استسقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت.

وذكر السدى فى عقر الناقة فال:

فأوحى الله إلى صالح ـ عليه السلام ـ إن قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل، فقال صالح ـ عليه السلام ـ: إنه يولد فى شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يولد لنا ولد فى هذا الشهر إلا قتلناه، قال: فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر، فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك، وكان ابنه أزرق أحمر فنبت نباتًا سريعًا، فكان إذا مر بالتسعة ورأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضب التسعة على صالح ـ

عليه السلام ـ لأنه كـان سبب قتل أبنائهم، فتـقاسموا بالله لنبيـتنه وأهله، قالوا: نخرج فترى الناس أنا قـد خرجنا إلى سفر فتـأتى الغار فنكون فيه حـتى إذا كان الليل وخرج صالح ـ عليـه السلام ـ إلى مـسجده أتيناه فـقتلناه، ثم رجـعنا إلى الغار فكنا فـيه، ثم انصرفنا إلى رحالنا فقلنا: ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصـادقون فيصدقوننا فيظنون أنا قد خرجنا إلى سفر.

وكان صالح ـ عليه السـلام ـ لا ينام معهم فى القرية كان يبيت فى مـسجد يقال له مسجد صالح، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكرهم، فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه وانطلقوا فدخلوا الغار فسقط عليهم الغار فقتلهم، فانطلق رجال ممن قد اطلع على ذلك منهم فـإذا هم رضخ فرجعـوا يصيـحون فى القرية عـباد الله أمـا رضى صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة.

وقال ابن إسـحاق: كان تقـاسمت تسـعة على تبيت صـالح ـ عليه السـلام ـ بعد عقرهم الناقة كما ذكرنا.

قال السدى وغـيره: فلما ولد ابن العاشـر يعنى قد شب فى اليوم شـاب غيره فى الجمعـة وشب فى الشهر شباب غـيره فى السنة، فلما كبـر جلس مع أناس مصون من الشراب فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم، وكان ذلـك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا: ما نصنع نحن باللبن لو كنا نأخذ هذا الماء الذى تشربه الناقة فنسقـيه أنعامنا وحروثنا كان خير الناقة، فـقال ابن العاشر: هل لكم فى أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم فعقرها.

أخبرنا عبـد الواحد المليحى، أخبرنا أحـمد بن عبد الله النعمى أخبـرنا محمد بن يوسف، حدثنا محـمد بن إسماعـيل، حدثنا ابن مسكين، حدثنا يحـيى بن حسان بن حيـان أبو زكريا حدثنا سلـيمان عن عـبد الله بن دينار عن ابن عمـران أن رسول الله ـ ﷺ ـ (لما نزل الحجر فـى «غزوة تبوك» أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يسـتسقوا منها فقالوا: قـد عجنًا منها، وأسقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العـجين ويهريقوا ذلك الماء.

قال نافع عن ابن عمـر: فـأمرهـم رسـول الله ـ ﷺ ـ أن يهـريقوا ما استـسقوا من آبارها وأن يعلقـوا الإبل العـجين وأمرهم أن يسـتسقـوا من البئر الـتى كانت تردها

الناقة)[١] وروى أبو الزبير عن جابر ـ ﷺ ـ قال: لما مر النبى ـ ﷺ ـ بالحجر فى غزوة تبوك[٢] قال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم هذه القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم الذى أصابهم، ثم قال: أما بعد، فلا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من الغار فعتوا عن أمر ربهم وعقروها، فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يقال له: أبو رغار وهو أبو تعيف كان فى حرم الله فمنعه حرم الله من عذابه فلما خرج أصابه قومه فدفن معه غصن من ذهب، وأراهم قبر أبى رغار، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه فاستخرجوا ذلك الغصن.

وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح عمر أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح فسمى حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها حاصورا.

قال قوم من أهل المدينة: توفى صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين وأقام فى قومه عشرين سنة. انتهى.

كذا ذكره محيى السنة فى معالم التنزيل، بل ذكرناه بعبارته حِذار من الانتحال.

عصمنا الله من سوء الأخلاق ومن العداوة والشقاق والنفاق آمين ثم آمين يا عزيز يا رزاق يا خلاق.

---

(١) حديث: **(إن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر فى غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستسقوا منها...)** حديث: (لما نزل رسول الله (ﷺ) الحجر فى غزوة تبوك...) حدثنا محمد بن مسكين أبو الحسن حدثنا يحيى بن حسان بن حيان أبو زكريا: لما نزل الحجر فى غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء، ويروى عن سبرة بن معبد وأبى الشموس أن النبى ﷺ أمر بإلقاء الطعام، وقال أبو ذر عن النبى ﷺ من اعتجن بمائه) انظر: صحيح البخارى ٣/ ١٢٣٦ الحديث رقم (٣١٩٨) ابن حجر: تعليق التعليق: ٤/ ١٩، ابن حزم الظاهرى: المحلى ١/ ٢٢٠.

(٢) انظر هذا الحديث فى: السيوطى: الدر المنثور: ٣/ ٤٩٢ وقال: أخرجه أحمد والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والطبرانى فى الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه وابن مردويه، كلهم عن جابر بن عبد الله.

مجلس فى:

بيان مناظرة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وولادته وإيتاء رشده مع أبيه وقومه وفى بيان إراءته ملكوت السموات والأرض

فى عشر آيات من سورة الأنعام:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان مناظرة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وولادته وإيتاء رشده مع أبيه وقومه، وفى بيان إراءته ملكوت السموات والأرض فى عشر آيات من سورة الأنعام[1].

وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾: منكرًا عليه وعلى قومه عبادة الأصنام.

---

(١) الآيات هى ابتداء من رقم (٧٤) وحتى الآية رقم (٨٣) ونصها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾: معبودات، وعلل الإنكار بقوله:
﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾: لأجل عبادة ما لا يضر ولا ينفع.
﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: أى: ظاهر لأن العبادة غاية الخضوع لا تليق إلا لمن له غاية الإنعام والإحسان.

وإبراهيم هذا، هو إبراهيم خليل الله، جد الأنبياء والمرسلين وجد خاتم النبيين، هو إبراهيم بن آزر.

قيل: له اسم آخر هو «تارح» بالحاء المهملة ـ وهو المشهور بين المؤرخين ـ فيكون لإسرائيل ويعقوب علمين لأبى يوسف ـ عليه السلام ـ.

فلا منافاة بين ما فى القرآن وبين ما فى التواريخ على أن أكثرها خطأ مأخوذ من أهل الكتاب المحرفين.

وآزر على وزن فاعل كشالخ، وعابر، أعجمى وصريح نصوص القرآن فى مواضع متعددة، يدل على أن آزر أبوه الذى من صلبه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتأويل تلك النصوص المتكثرة بأنه عمه خروج عن دائرة العقل بل عن دائرة الإسلام، قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير الكبير فى تفسير هذه الآية: وقال الشيعة: إن أحدًا من آباء الرسول ـ ﷺ ـ وأجداده ما كان كافرًا، وأنكروا أن والد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان كافرًا، وذكروا أن آزر كان عم إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وما كان والد له واحتجوا على قولهم بوجوه: الحجة الأولى أن آباء الأنبياء ما كانوا كفارًا.

ويدل عليه وجوه منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٨، ٢١٩).

قيل: معناه أنه كان ينقل روحه من ساجد إلى ساجد وبهذا التقدير فالآية دالة على أن جميع آباء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ كانوا مسلمين.

وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مسلمًا فإن قيل له: وتقلبك فى الساجدين يحتمل وجوهًا أخرى:

أحدها: أنه لمَّا نسخ فرض قيام الليل طاف رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الليلة على بيوت أصحابه لينظر ماذا يصنعون لشدة حرصه على ما يظهر منهم من الطاعات،

فوجدها كبيوت الزنابير لكثرة ما سمع من أصوات قراءتهم وتسبيحهم وتهليلهم.

فالمراد من قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾: طوافه ـ ﷺ ـ تلك الليلة على الساجدين.

وثانيها: المراد أنه ـ ﷺ ـ كان يصلى بالجماعة، فتقلبه فى الساجدين معناه فيما بينهم مختلطًا بهم حال القيام والركوع والسجود.

وثالثها: أن يكون المراد أنه لا يخفى حالك على الله كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى الاشتغال بأمور الدين.

ورابعها: المراد وتقلب بصره فيمن يصلى خلفه والدليل عليه قوله ﷺ: (وأتموا الركوع والسجود فإنى أراكم من وراء خلفى)(١).

فهذه الوجوه الأربعة مما يحتملها ظاهر الآية فسقط ما ذكرتم، والجواب لفظ الآية محتمل للكل وليس حمل الآية على البعض أولى من حملها على الباقى، فوجب أن تحملها على الكل، وحينئذ يحصل المقصود.

ومما يدل أيضا أن أحدًا من آباء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ ما كان من المشركين قوله ـ ﷺ ـ: (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات)(٢).

---

(١) حديث: (**وأتموا الركوع والسجود فإنى أراكم من وراء خلفى**) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما معناه موجود فيما أوردنا عن أبى عبد الله الأشعرى قال: ثم صلى رسول الله ﷺ بأصحابه ثم جلس فى عصابة منهم فدخل رجل يصلى، فجعل ينقر فى سجوده والنبى ﷺ ينظر إليه، فقال: «ترون هذا؟ لو مات مات على غير ملة محمد، ينقر صلاته كما ينقر الغراب الدم، مثل الذى يصلى وينقر فى سجوده كجائع لا يأكل إلا تمرة أو تمرتين، فما يغنيان عنه، فأسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار، وأتموا الركوع والسجود» قال أبو صالح: فقلت لأبى عبد الله الأشعرى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أمراء الأجناد وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبى سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، ﷺ، كل هؤلاء سمعوه من رسول الله ﷺ. الشيبانى: الآحاد والمثانى، ١/ ٣٧٢، وانظر البيهقى فى السنن الكبرى ٢/ ٨٩، فتح البارى ٢/ ١٨٩.

(٢) حديث: (ولم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات) ففى مجمع الزوائد: (كتاب علامات النبوة بسم الله الرحمن الرحيم باب فى كرامة أصله ﷺ، وعن ابن عباس ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ قال: من صلب نبى إلى نبى حتى صرت نبيًا. رواه البزار ورجاله ثقات، وعن على أن النبى ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن =

= ولدنى أبى وأمى» رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن على، صحح له الحاكم فى المستدرك، وقد تكلم فيه وبقية رجاله ثقات، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء، وما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام» رواه الطبرانى عن المدينى عن أبى الحويرثى، ولم أعرف المدينى ولا شيخه، وبقية رجاله وثّقوا، وعن ابن عباس ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسمًا، فذلك قوله: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فأنا من أصحاب اليمين، وأنا من خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين بيوتًا فجعلنى فى خيرهم بيتًا فذلك قوله: أصحاب الميمنة، ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، فأنا من خير السابقين، ثم جعل البيوت قبائل فجعلنى من خيرها قبيلة، فذلك قوله: «شعوبًا وقبائل، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله، عز وجل، ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتًا فجعلنى فى خيرها بيتًا، فذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ رواه الطبرانى، وفيه يحيى بن عبد الحميد الحمانى وغسان بن ربعى، وكلاهما ضعيف.

وعن عبد الله بن عمر قال: إنا لقعود بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة فقال رجل من القوم: هذه ابنة محمد، فقال رجل من القوم: إن مثل محمد فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط النتن، فانطلقت المرأة فأخبرت النبى ﷺ فجاء النبى ﷺ يُعرف فى وجهه الغضب، ثم قام على القوم فقال: «ما بال أقوال تبلغنى عن أقوام، إن الله عز وجل خلق السموات سبعًا فاختار العليا منها فسكنها وأسكن سمواته من شاء من خلقه، وخلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشًا، واختار من قريش بنى هاشم، واختارنى من بنى هاشم، فأنا من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم» رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط إلا أنه قال: «فمن أحب العرب فلحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فلبغضى أبغضهم» وفيه حماد بن واقد، وهو ضعيف يعتبر به، وبقية رجاله وثقوا، وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال: أتى ناس من الأنصار النبى ﷺ فقالوا: إنا نسمع من قومك حتى يقول القائل منهم: إنما مثل محمد نخلة نبت فى الكبا، قال حسين: الكبا: الكناسة، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله، قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» قال: فما سمعناه ينتمى قبلها، إلا أن الله عز وجل خلق خلقه ثم فرقهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى فى خيرهم بيتًا، فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسًا، ﷺ.

قلت: روى له الترمذى هذا رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح).

انظر: ابن حجر الهيثمى: مجمع الزوائد: ٨/ ٢١٤ وما بعدها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة: ٢٨).

وذلك يوجب أن يقال: إن أحدًا من أجداده ما كان من المشركين وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت بما ذكرنا أن والد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما كان مشركًا وثبت أن آزر كان مشركًا، فوجع القطع أن والد إبراهيم كان غير آزر.

الحجة الثانية: على أن آزر ما كان ولده إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن هذه الآية دالة أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ شافه آزر بالغلظة والجفاء، ومشافهة الأب بالجفاء لا يجوز.

وهذا يدل على أن آزر ما كان والد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إنما قلنا: إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ شافه آزر بالغلظة والجفاء فى هذه الآية لوجهين:

الأول: أنه قرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ بضم آزر وهذا محمول على النداء، ونداء الأب بالاسم الأصلى من أعظم أنواع الجفاء.

والثانى: أنه قال لآزر: ﴿إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا من أعظم أنواع الإيذاء.

فثبت أنه ـ عليه السلام ـ شافه آزر بالجفاء.

وإنما قلنا: إن مشافهة الأب بالجفاء لا يجوز لوجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣) وهذا عام فى حق الأب الكافر والمسلم.

وقال تعالى: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾(١) وهذا أيضا عام.

الثانى: أنه تعالى لما بعث موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون أمره بالرفق معه فقال: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ (طه: ٤٤) والسبب فيه أن يصير ذلك رعاية لحق تربية فرعون، فهنا الوالد أولى بالرفق.

الثالث: أن الدعوة مع الرفق أكثر تأثيرًا فى القلب، أما التغليظ فإنه يوجب التنفير والبعد عن القبول.

ولهذا المعنى قال تعالى لمحمد ـ ﷺ ـ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

فكيف يليق بإبراهيم (عليه السلام) مثل هذه الخشونة مع أبيه فى الدعوة.

---

(١) الآية السابقة.

الرابع: أنه ـ تعالى ـ حكى عن إبراهيم الحلم فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤) وكيف يليق بالنبى الحليم مثل هذا الجفاء مع الأب، فثبت بهذه الوجوه أن آزر ما كان والدًا لإبراهيم بل كان عمّا لهُ، وأمّا والده فهو تارح، والعم قد يسمى بالأب على ما ذكرنا أن أولاد يعقوب (عليه السلام) سموا إسماعيل بكونه أبًا ليعقوب مع أنه كان عمّا له، وقال ـ ﷺ ـ: (ردُّوا على أبى العباس)(١) يعنى العم.

---

(١) حديث: (ردُّوا على أبى ـ يعنى ـ العباس).

فيا ليت شعرى هل لنا مرة   سهيل بن عمرو حولها وعقابها

قال: فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل فارتحلوا فساروا حتى نزلوا بمر الظهران، قال: وجاء أبو سفيان حتى نزل ليلا فرأى العسكر والنيران فقال: ما هذا؟ قيل: هذه تميم أمحلت بلادها فانتجعت بلادكم، قال: هؤلاء والله أكثر، من أهل منا أو مثل منا، فلمّا علم أنه النبى ﷺ تنكر، وقال: دلونى على العباس بن عبد المطلب، وأتى العباس فأخبره الخبر وانطلق به إلى رسول الله ﷺ فأتى به إلى رسول الله ﷺ فى قبة له، فقال: يا أبا سفيان أسلم تسلم، قال وكيف أصنع باللات والعزى؟ قال أيوب: حدثنى أبو الخليل عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ قال: قال عمر رضي الله عنه وهو خارج من التيه ما قلتها أبدًا، قال أبو سفيان: من هذا؟ قالوا: عمر رضي الله عنه، الراوى أبو سفيان، فانطلق به العباس، فلما أصبحوا ثار الناس لظهورهم، قال: فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل ما للناس؟ أمروا فى شىء؟ قال: فقال: لا، ولكنهم قاموا إلى الصلاة فأمره فتوضأ وانطلق به إلى رسول الله ﷺ، فلما دخل رسول الله ﷺ الصلاة كبر فكبر الناس ثم ركع فركعوا ثم رفع فرفعوا، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم طاعة قوم جمعهم من ههنا وههنا ولا فارس الأكارم ولا الروم ذات القرون بالطوع منهم، قال حماد: وزعم يزيد ابن حازم عن عكرمة قال: قال أبو سفيان: يا أبا الفضل أصبح والله ابن أخيك عظيم الملك، قال: ليس بملك ولكنها نبوة، قال: أوذاك أوذاك قال: ثم رجع إلى حديث أيوب عن عكرمة قال: فقال أبو سفيان: واصبح قريش، قال: فقال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله لو أذنت لى فأتيت أهل مكة فدعوتهم وأمنتهم وجعلت لأبى سفيان شيئًا يُذكر به، قال: فانطلق فركب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، وانطلق، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ردوا علىَّ أبى، ردوا على أبى، إن عم الرجل صنو أبيه، إنى أخاف أن تفعل بك قريش كما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود، دعاهم إلى الله فقتلوه، أما والله لئن ركبوها عليهم نارًا، قال فانطلق العباس رضي الله عنه فقال يا أهل مكة أسلموا تسلموا، فقد استبطنتم بأشهب بازل، قال: وقد كان رسول الله ﷺ بعث الزبير من قبل أعلى مكة وبعث خالد بن الوليد من قبل أسفل مكة، قال: فقال لهم؟ هذا الزبير من قبل أعلى مكة، وهذا خالد من قبل أسفل مكة، وخالد وما خالد وخزاعة مجدعة الأنوف، ثم قال: من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبى =

وأيضا يحتمل أن آزر كان والد أم إبراهيم (عليه السلام) وهذا قد يقال له الأب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعِيسَى﴾ (الأنعام: ٨٤، ٨٥) فجعل عيسى من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أن إبراهيم كان جدًا لعيسى من قِبَل الأم.

وأما أصحابنا فقد قالوا: إن والد رسول الله ـ ﷺ ـ كان كافرًا فذكروا أن نص الكتاب فى هذه الآية يدل على أن آزر كان كافرًا، وكان والدًا لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وأيضًا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (التوبة: ١١٤) وذلك يدل على قولنا، وأما قوله للنبى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٩): قلنا: بينا أن هذه الآية يحتمل سائر الوجوه، قوله: تحمل الآية على الكل، قلنا: هذا محال لأن حمل اللفظ المشترك على جميع معانيه لا يجوز، وأيضًا حمل اللفظ على حقيقته ومجازه معًا لا يجوز.

وأما قوله ـ ﷺ ـ: (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات)(١) فذلك محمول على أنه ما وقع فى نسبه ما كان سفاحًا.

وأما قوله: التغليظ مع الأب، لا يليق بإبراهيم ـ عليه السلام ـ قلنا: لعله أصر على كفره فلأجل الإصرار استحق ذلك التغليظ والله أعلم.

وقال الإمام أيضًا فى سورة الشعراء فى تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٨، ٢١٩) اعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبى ـ عليه السلام ـ كانوا مؤمنين وتمسكوا فى ذلك بهذه الآية وبالخبر.

أمَّا هذه الآية فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يحتمل الوجوه التى

= سفيان فهو آمن، ثم قدم النبى ﷺ فتراموا بشىء من النبل، ثم إن رسول الله ﷺ ظهر عليهم فأمن الناس إلا خزاعة، عن ابن بكر، وذكر أربعة: مقيس بن ضبابة، وعبد الله بن أبى سرح، وابن خطل، ومارة مولاة بنى هاشم. قال حماد سبارة فى حديث أيوب أو فى حديث غيره قال: فقاتلهم خزاعة إلى نصف النهار فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ (التوبة: ١٣) إلى قوله عز وجل: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قال غزاعة ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ انظر: أبو جعفر الطحاوى: شرح معانى الآثار: ٣/ ٣١٤.

(١) تقدم تخريج هذا الحديث.

ذكرتم، ويحتمل أن يكون المراد أن الله ـ تعالى ـ نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن.

وإذا احتمل كل هذه الوجوه ، وجب حمل الآية على الكل ضرورة أنه لا منافاة ولا رجحان.

وأما الخبر فقوله ـ ﷺ ـ: (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات) فذلك محمول على أنه ما وقع، وكل من كان كافرًا فهو نجس لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة: ٢٨).

قالوا: فإن تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ قلنا: الجواب عنه أن لفظ الأب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (البقرة: ١٣٣) فيسموا إسماعيل أبًا له مع أنه كان عمًّا له.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: (رُدُّوا على أبى) يعنى: العباس[1].

ويحتمل أيضًا أن يكون متخذًا الأصنام أبا أُمِّه، فإن هذا قد يقال له: الأب، قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعِيسَى﴾ وجعل عيسى ـ عليه السلام ـ من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ جده من قبل الأم.

واعلم أنا نتمسك بقوله تعالى: ﴿لأَبِيهِ آزَرَ﴾.

ما ذكروه حرف اللفظ عن ظاهره.

وأما حمل قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز.

وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن. انتهى.

وقال ابن كثير أبو الفداء إسماعيل رئيس المحدثين المتأخرين فى تفسير قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ١١٣) الآية، والأغرب والأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادى[2] فى كتابه السابق واللاحق بسند

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) (الخطيب البغدادى): (الخطيب) هو: أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدى بن ثابت =

مجهول عن عائشة[١] فى حديث فيه قصة أن الله ـ تعالى ـ أحيا آمنة فآمنت ثم عادت وكذا ما رواه السهيلى[٢] فى (الروض) بسنده، وفيه جماعة مجهولون: أن الله أحيا أباه وأمه وآمنا به.

= المعروف بـ (الخطيب البغدادى)، أبو بكر، محدث، مؤرخ أصولى نشأ فى بغداد، ورحل وسمع الحديث، وتوفى فى بغداد سنة ٤٦٣هـ، ترك عددًا من المؤلفات العامة منها: تاريخ بغداد، الكفاية فى معرفة علم الرواية، الفقيه والمتفقه، الجامع لآداب الراوى والسامع، شرف أصحاب الحديث.

انظر ترجمته فى: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٣٢، الذهبى: تذكر الحفاظ ٣/ ٣١٢، ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٣١١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: ٥/ ٨٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٠١، العش: الخطيب البغدادى، مؤرخ بغداد، ومحدثها، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ١٠/ ٢٣، كحالة: معجم المؤلفين ٢/ ٣.

(١) **(سيدتنا عائشة (رضي الله عنها) أم المؤمنين)**: بنت الإمام خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى، القرشية التيمية المكية النبوية، أم المؤمنين، زوج النبى ﷺ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وأمها هى: أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب ابن أذينة الكنانية... هاجر بعائشة أبواها، وتزوجها نبى الله ﷺ قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وقيل: بعامين، ودخل بها فى شوال سنة اثنتين، منصرفه ﷺ من غزوة بدر وهى ابنة تسع، فروت عنه علمًا كثيرًا طيبًا مباركا فيه، وعن أبيها، وعن عمر، وفاطمة، وسعد، وحمزة بن عمرو الأسلمى، وجدامة بنت وهب. حدث عنها إبراهيم ابن يزيد النخعى مرسلا، وإبراهيم بن يزيد التيمى كذلك، وإسحاق بن طلحة وإسحاق بن عمر والأسود بن يزيد وخلق كثير جدًا... مسند عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، اتفق لها البخارى ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد البخارى بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين، وعائشة ممن ولد فى الإسلام، وهى أصغر من فاطمة بثمانى سنين، وكانت تقول: لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٨٠.

(٢) **(السهيلى)** الحافظ العلامة البارع أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ابن أصبغ بن حسن بن حسين بن سعدون الخثعمى الأندلسى المالقى الضرير، صاحب الروض الأنف والتعريف فى مبهمات القرآن وغير ذلك، ولد سنة ثمان وخمسمائة وسمع من ابن العربى وطائفة، وأخذ النحو والأدب عن ابن الطراوة، والقراءات عن أبى داود الصغير سليمان ابن يحيى، وكان إمامًا فى لسان العرب واسع المعرفة غزير العلم، نحويًا متقدمًا لغويًا عالمًا بالتفسير وصناعة الحديث، عارفًا بالرجال والأنساب، عارفًا بعلم الكلام وأصول الفقه، =

وقد قال الحافظ بن دحية[١]: هذا الحديث موضوع برد القرآن والإجماع.

قال الله تعالى: ﴿وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (النساء: ١٨) ومال أبو عبد الله القرطبي[٢] إلى هذا الحديث ورد على ابن دحية فى الاستدلال بما جاء قبله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى على العصر، قال الطحاوى[٣]: وهو حديث ثابت، يعنى حديث الشمس.

قال القرطبى: فليس إحياؤهما يمتنع عقلاً ولا شرعًا، قال: وقد سمعت أن الله

= عارفًا بالتاريخ، ذكيًا نبيهًا صاحب استنباطات، عمى وله سبع عشرة سنة وآخر من حدث عنه أبو الخطاب بن خليل، مات بمراكش خامس عشرى شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وسهيل قرية قرب مالقة سميت بالكوكب لا يرى فى جميع بلاد الأندلس إلا من جبل مطل عليها يرتفع نحو درجتين ويغيب. انتهى. وله مؤلفات كثيرة هامة.

انظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٤٨١ الترجمة رقم (١٠٦٤).

(١) (الحافظ ابن دحية) حدثنا محمد بن على المروزى حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلا، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه، وبكى هؤلاء لبكائه وقالوا: ما بكى نبى الله بهذا المكان إلا وقد أحدث فى أمته شيئًا لا تطيقه، فلما بكى بكى هؤلاء معه قام فرجع إليهم فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: يا نبى الله بكينا لبكائك فقلنا: لعله أحدث فى أمتك شيء لا تطيقه، قال: لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمى فسألت الله أن يأذن لى فى شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لى، فرحمتها، وهى أمى، فبكيت، ثم جاءنى جبريل فقال ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهى أمى، ودعوت ربى أن يرفع عن أمتى أربعًا فرفع عنهم اثنين وأبى أن يرفع عنهم اثنين، دعوت ربى أن يرفع عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعًا، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم القتل والهرج، وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم.

وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادى فى كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة فى حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت، وكذلك ما رواه السهيلى فى الروض الأنف، انظر: ابن كثير التفسير: ٢/ ٣٩٥.

(٢) (أبو عبد الله القرطبى) انظر التخريج السابق.

(٣) (الطحاوى) تقدم له ترجمة.

ـ تعالى ـ أحيا عمه أبا طالب فآمن به، قلت: هذا كله يتوقف على صحة الحديث، فإذا صح فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال النيسابورى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ وأما علماء الشيعة فقد احتجوا بالآية على مذهبهم أن أبا النبى ـ ﷺ ـ لا يكون كافرًا، قالوا: أراد تقلب روحه من ساجد إلى ساجد كما فى الحديث المعتمد عليه عندهم: (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات).

وناقشهم أهل السنة فى التأويل المذكور وفى صحة الحديث والأصوب عندى أن لا نشتغل بمنع أمثال هذه الدعوى تسرح إلى بقعة الإمكان على أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول. انتهى.

فلما علمت أقوال الأكابر من أهل التفسير والحديث، وأهل المذاهب، علمت تفصيل الكلام فى هذا المقام واطلعت على ما خفى على كثير من الأنام بلطف الله الملك العلام.

فهاهنا ثلاث مقامات:

أحدها: المذهب وهو أن من مات من أجداد النبى ـ ﷺ ـ غير الأنبياء الست وهم: آدم وشيث، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل ـ عليهم السلام ـ الذين لا يعرف إيمانهم ماتوا على الكفر عندنا خلافًا للشيعة، فإن عندهم كلهم ماتوا على الإيمان.

ومقام آخر يقال له المسلك، وهو أن أمه ـ عليه السلام ـ وقيل: أبويه، قيل: عمه أيضًا وهو أبو طالب، ماتوا على الكفر، كما هو المذهب، لكن بعد موتهم أحياهم الله فآمنوا فهذا مسلك بعض المحدثين، ولا دليل عليه سوى الأحاديث الضعاف.

وهنا مقام آخر يقال له: المشرب، وهو إفادة النيسابورى بقوله: الأصوب عندى أى الأولى أن لا يمنع أحد من هذه الدعاوى بل يقال: إنه ممكن لا دليل عليه، ولا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فالسكوت فيه الله أعلم بحقيقة الحال.

وكتب فى بعض التفاسير فى كتب إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو إبراهيم بن آزر وهو (تارح ابن ناخور بن أشرع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وفى التوراة شارع مكان أشرع.

وكان مولده فى سنة اثنتين وعشـرين وثلاث مائة وثلاثة آلاف من هبوط آدم ـ عليه السلام ـ ومن الطوفان فى سنة ألف ومائة والله أعلم.

وكان فى ذلك الوقت ملك جبار (نمرود بن كنعان) من أولاد حام وكان أول ظهور علم التنجيم، وكـان المنجمون أول ما اسـتخرجوا الخسوف والكسـوف، وشدة ابتلاء الناس به، وكـان رئيس المنجمـين رجلاً يقـال له نبطين، وكانوا أول مـا صنفوا كـتب الأحكام، واستخرجوا الطوالع، فالبيوت الاثنا عشر، والدلائل، وكان الناس فى اعتقاد عظيم للمنجمين أنهم يعلمون الغيب، وكان قد وضع لهم المنجمون قوانين فى الاعتقاد على خلاف الحق وهى أن الله ـ تعالى ـ هو صـانع العالم، فبعدمـا خلق العالم فوض التـدبير والتـأثير فى العـالم السـفلى وهو عالم العـناصر، وعـالم الكون والفسـاد إلى الكواكب السبعة السـيارة وإلى المشهورة من الثوابة من القـدر الأول، والثانى والثالث، بل إلى كواكب الكـيدابضه وهو لا يرى أصـلاً، واعتقـدوا أن كل ما حـدث فى العالم السـفلى من الخيـرات والشـرور فهـو من الكواكب، والكواكب ذوات الإرادة والقـدرة والاختبار وأصحـاب النفوس المجردة وزعموا أن الكواكب مسـتقلة فى إيجاد ما ينسب إليها وأن صانع العالم ـ أى الله ـ معطل حاشاه عن ذلك ثم إنهم كانوا يعبدون الكواكب بالنسك والدعـاء والنداء والرياضات الشاقـة من ذبح الأنفس وقطع الجوارح والإمـساك عن الأكل والشرب وغير ذلك كما هو الآن مـشاهد فى مجوس الهند وكانوا يقولون فى إضلال السفلة من الناس لا يريب عاقل فى أن حركة الشمس سبب فى الفصول الأربعة لأنها كلما قربت سـمت الرأس تشتد الحرارة، وينبت النبات ويتعـيش الحيوان ويتكون المعـادن، وذلك فى البروج الشمـالية، أعنى أزمنة الربيع والصيف، وكلمـا بعدت عن سمت الرأس يبرد وييبس النبات ويتكدر العالم ويضيق معاش الحيوان.

ثم بعد ذلك استخرجوا طوالع سقوط النطفـة، وسقوط المولود، وسقوط البيوت، فوجدوا التجـربة المتكررة أحوال المولود من السعادة والنحـوسة مربوطة بالكواكب فى درجاتها وهكذا وبكذا.

ثم حكموا جهـلاً بأن الخالق والمؤثر والموحد فى السـفليات هو الكواكب العلوية فضلوا وأضلوا كثيرًا ومع ذلك كانوا يعـبدون الله أيضًا، ولم يكونوا دهرية صرفة منكرة لصانع العالم.

وإن قال الإمام فى بعض المواضع لأن قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٧٨) وكذا ما بعده يدل على أنهم كانوا مشركين ولم يكونوا نافية للصانع، فالله تبارك وتعالى لفرط رحمته على الناس أخرج نوراً مبينًا فى ظلمات الشرك، فأرسل إبراهيم نبيه لهدم قواعد الشرك.

وقيل: كانوا قد أخبر المنجمون نمرود بأنه سيولد فى هذه السنة غلام يكون سبب زوال دينك ودولتك فأمر بقتل كل غلام يولد فى هذه السنة، وكانت مثانى أم إبراهيم حاملاً به، فلما قرب وضع حملها ذهبت إلى غار فولدت فيه وكانت تربى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكلما كانت تخرج سدت باب الغار بحجر خوفًا من السباع حتى كبر ولما دخل فى سن ثلاثة عشر وحصل له العرفان التام بأمر الرحمن ناظر أمه ثم أباه فى أمر الرب وإرشادًا لهما إلى الدين، فأجاب أزر بأن ربك ـ أى: مربيك ـ أمك ومربيها بالنعم أنا، ومربينى نمرود الملك لإعطاء الأرزاق لى ولغيرى ورب نمرود، ومربيه قوة طالعة والكواكب، فلما أورد ـ عليه السلام ـ الدلائل القطعية على توحيد الصانع المعبود، أخرجه معه إلى المنجمين والكاهنين أى المرتاضين الرهبانيين من الكفرة، فلما دخل نبى الله، مجلسهم مع أبيه خاطب أباه إمحاضًا للنصح لأنه أقرب إليه على ما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾: أى اذكر وقت قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن تذكر الوقت يوجب تذكر ما فيه.

﴿لأَبِيهِ﴾: الذى هو ﴿آزَرَ﴾ على الصحيح، فإنه ـ تعالى ـ أصدق القائلين.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾: أى: هياكل معمولة من الجواهر الأرض فإنهم لما رأوا أن الكواكب قد تغيب عن الأبصار وضعوا لها ـ أى: لنفوسها ـ صوراً وهياكل من الجواهر المنسوبة بكل فجعلوا هيكل الشمس من الذهب، وزينوه بالماس والياقوت، لأنها المنتسبة بالشمس، وكذا الفضة للقمر وهكذا، فكانوا يعبدون الهياكل أيضًا لكن مرادهم توجيه العبادة إلى الكواكب، فخليل الله ـ عليه السلام ـ أولاً أخذ عن الهياكل ليندرج عن الآلهة الأرضية إلى الآلهة السماوية فأنكر أولاً اتخاذ الأصنام والهياكل آلهة ثم ضلل أباه وقومه فى مجلسهم بعد أن سمع شبهتهم وهى أن مقصودنا توجيه العبادة إلى الكواكب وهى شبهة واهية.

فقال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: ثم لما ألزم القوم وكانوا حينئذ طالبين

للحق لعدم ظهور العناد وقالوا: يا إبراهيم نجلس معك ونريك الكواكب ونعلمك خواصها لتستفيد ما يزيد شبهتك فجلسوا ليلة إلى الصبح ناظرين الأجرام السماوية فعند ذلك كشف لخليله كشفًا لطيفًا فأراه تصرفه وملكوته فى جميع أجزاء العالم، فإن الخالق فى جميع الأفعال والموجودات هو الله وإن كان فى بعض مدخلاً ما للكسب على ما هو المذهب الحق فرأى خليل الله بعين قلبه أن الله ـ تعالى ـ يتصرف فى كل موجود، وأن الكواكب وغيرها أسباب عادية لا استقلال لها، واطلع على كونه الأمر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى﴾: الإشارة إلى مصدر نرى والتشبيه لإفادة التعظيم، أى إراءة عظيمة ﴿نُرِى إِبْرَاهِيمَ﴾: أى: أرينا، فالمضارع لحكاية الحال الماضية للاستغراب ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: والملكوت مبالغة الملك كالرهبان للرهبة، والرغبوت للرغبة، أى: التصرف التام والملك العام، فالملك هو التصرف، فرأى أن كل ذرة فى تصرفه فيه، تتحرك وبه تسكن وهكذا، ولا دخل للكواكب وغيرها إلا بالسببية العادية، فانضم العيان إلى البيان، والمكاشفة إلى الاستدلال وطور الكشف وراء طور العقل.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فى أول الأمر، أى وفعلنا ذلك ليكون من الموقنين وهذا الكشف لخليل الله والكشف الذى وقع لحبيب الله ـ ﷺ ـ وذلك ما أورده صاحب مشكاة المصابيح فى الفصل الثانى وفى الفصل الثالث من باب المساجد حيث قال فى الفصل الثانى:

عن عبد الرحمن بن عياش ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (رأيت ربى ـ عز وجل ـ فى أحسن صورة قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: أنت أعلم، قال: فوضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى، فعلمت ما فى السموات والأرض[١] وتلا: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾).

ورواه الدارمى والترمذى نحو عنه.

---

(١) حديث: (رأيت ربى عز وجل فى أحسن صورة...) عن أبى رافع قال: خرج علينا رسول الله ﷺ مشرق اللون، يعرف السرور فى وجهه، فقال: «رأيت ربى فى أحسن صورة فقال لى: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى، فقلت: يا ربى فى الكفارات، قال: وما الكفارات؟ قلت: إبلاغ الوضوء أماكنه على الكريهات، والمشى على الأقدام إلى الصلوات، =

وعن ابن عباس ومعاذ بن جبل[1] ـ رضي الله عنهم ـ وزاد فيه: (قال: يا محمد هل تدرى

= وانتظار الصلاة بعد الصلاة. رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه، ولم أر من ترجمهما.

وعن طارق بن شهاب قال: سئل رسول الله ﷺ فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقال: فى الكفارات والدرجات، فأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وأما الكفارات فإسباغ الوضوء فى السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير، وفيه أبو سعد البقال وهو مدلس وقد وثقه وكيع وعن خولة بنت قيس بن فهد أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بكفارات الخطايا» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة» رواه الطبرانى فى الكبير وفيه ابن لهيعة، وله إسناد آخر رجاله موثقون كلهم، وعن سعيد بن خيثم قال: سمعت جدتى عبيدة بنت عمرو الكلابية تقول.

رأيت رسول الله ﷺ توضأ وأسبغ الوضوء. رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون إلا أن سعيد بن خيثم لم أجد له سماعًا من أحد من الصحابة وقد روى قبل هذا عن جدته عن أبيها والله أعلم... انظر: ابن حجر الهيثمى: مجمع الزوائد: ١/ ٢٣٧.

(١) **(معاذ بن جبل)** هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدى بن كعب بن عمرو بن أدى بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصارى الخزرجى ثم الجشمى الغرماء أبا عبد الرحمن، وقد نسبه بعضهم فى بنى سلمة.

قال أبو عمر: قد قيل: إنه ولد له ولد سمى عبد الرحمن وإنه قاتل معه يوم اليرموك، وبه كان الغرماء، ولم يختلفوا أنه كان الغرماء أبا عبد الله بن مسعود، قال الواقدى: هذا ما لا اختلاف فيه عندنا.

وقال ابن إسحاق: آخى رسول الله ﷺ بين معاذ بن جبل وبين جعفر بن أبى طالب، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، وبعثه رسول الله ﷺ قاضيًا إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضى بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال، وكان رسول الله ﷺ قد قسم اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد على صنعاء، والمهاجر بن أبى أمية على كندة، وزياد بن لبيد على حضرموت ومعاذ بن جبل على الجند، وأبو موسى الأشعرى على زبيد وعدن والساحل، وقال رسول الله ﷺ: (يأتى معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء).

توفى معاذ بن جبل وهو ابن ثمان وثلاثين سنه وقال غيره: كان سنه يوم مات ثلاثا وثلاثين سنة، قال أبو عمر: كان عمر قد استعمله على الشام حين مات أبو عبيدة، فمات من عامه ذلك فى الطاعون فاستعمل موضعه عمرو بن العاص، وعمواس قرية بين الرملة وبيت المقدس. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب: ٣/ ١٤٠٢ الترجمة رقم (٢٤١٦).

فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم فى الكفارات، والكفارات المكث فى المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات وإبلاغ الوضوء فى المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، قال: يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين «فإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون» قال: والدرجات إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام) هذا الحديث كما فى المصابيح لم أجده عن عبد الرحمن إلا فى شرح السنة، وعن معاذ بن جبل قال: (احتبس عنا رسول الله - ﷺ - ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس فخرج سريعًا فتوب بالصلاة فصلى رسول الله - ﷺ - وتجوز فى صلاته، فلما سلم دعا بصوته فقال لنا: على مصافكم كما أنتم، ثم أقبل إلينا قال: أما إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة إنى قمت الليل فتوضأت وصليت ما قدّر لى فنعست فى صلاتى حتى استثقلت فإذا أنا بربى - تبارك وتعالى - فى أحسن صورة فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدرى، قالها ثلاثًا، قال: فرأيته وضع كفه بين كتفى حتى وجدت برد أنامله بين ثديى فتجلى إلىَّ كل شىء، وعرفت فقال: يا محمد قلت: لبيك، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات، قال: ما هن؟ قلت: مشى الأقدام إلى الجماعات والجلوس فى المساجد بعد الصلاة وإسباغ الوضوء حين الكريهات قال: ثم فيم؟ قال: قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سل، قال: قلت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى وإذا أردت فتنة فى قومى فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك، وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنى إلى حبك، فقال رسول الله - ﷺ : إنها حق فدرسوها ثم تعلموها).

رواه أحمد والترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث صحيح.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾: الصحيح أنه عطف على ﴿قَالَ﴾ وبيان لمناظرته مع قومه فى الليل فى الآلهة السماوية وقوله فيما سبق كان مناظرة معهم فى النهار وفى الآلهة

الأرضية وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى﴾: اعتراض بين المعطوفين لبيان أنه ـ عليه السلام ـ كان على الحق واليقين فى أمر المناظرة يقال: جن عليه الليل أى ستره بظلامه.

﴿رأَىٰ كَوْكَبًا﴾: قيل زهرة أو المشترى قريبًا من أفق الغرب.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّى﴾: أى: هكذا اتقولون وهو كلام المنصف غير المتعصب لمذهبه يحكى كلام الخصم على حاله ويسلمه أولاً لئلا ينفر الخصم ثم ينكره فيهدمه.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾: أى غاب أو قرب من الغروب.

﴿قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾: فضلاً عن أن أعبدهم.

وتفصيل هذا الدليل على ما قال الإمام: أن المنجمين كانوا يقولون: إن الكواكب ما دام طالعًا فى الربع الشرقى يكون له السعادة والكمال والقوة فإذا وصل إلى الربع الغربى يكون فى نحوسه ونقصان وضعف، فلذا استدل بالأفوال فى الجميع، ولم يستدل بالسروع فبين لهم أن الكواكب الأفل فى زعمكم ناقص وضعيف ونحس، فلو كان فاعلاً مستغلا وقع فى هذه الأحوال فهو إذن تحت قدرة كاملة مجبورة والفعل لها لا له، والقوم لما سمعوا كلامه الشريف قالوا: اصطبر معنا حتى نرى القمر والشمس فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾: وكان فى نصف الشهر يطلع بعد زمان.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّى﴾: على الوضع والتسلم.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾: أى قرب من الغروب، وحصل فى الربع الغربى وصار نحسًا ناقصًا، ضعيفًا على ما زعموا.

﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾: اللام موطئة للقسم، وصرح بربه الكريم، وبأن جميع الأفعال والهداية أيضًا منه.

﴿لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾: فعرض بضلال قومه.

وبعد ذلك: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾: طالعة.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّى﴾: على الفرض والتقدير.

﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾: الإشارة لتذكير الخبر أو لصيانة الرب عن شبهة التأنيث.

﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾: أى دخلت فى الربع الغربى وقرب من الأقوال وظهر عجزها ونقصها ونحوستها.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: وعلَّله بقوله:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾: أي: قلبي.

﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: وكانوا يقرون به معلوم الثبوت.

﴿حَنِيفًا﴾: أي مخلصًا.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: احترس وتكميل لدفع وسم الإشراك بعد التوجيه.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾: بأمرين: بالتقليد لآبائهم فدفعه بقوله:

﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾: في دينه لأمر التقليد.

﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾: ربي، أي: الحق بالكشف وآباؤكم كانوا غيْر مهديين فإن قلدتم فقلدوا الهدى، وبالتخويف عن الكواكب لأنها ذوات اختيار عندهم بأن قالوا: يخاف عليك من إصابة ضر من جهة الكواكب فرده بقوله:

﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ من الكواكب في جميع الأوقات إلا وقت ﴿أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾: إصابة مكروهة من جهتها لمعصية صدرت مني فالمخوف منه حقيقة هو الله وعلله بقوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فيعلم استحقاقي وعدم استحقاقي أتعرضون عن التأمل ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾: مع قدرته الكاملة.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾: في كتاب سماوي أو بدليل عقلي.

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾: المؤمن والكافر، ولم يقل: (أينا) لهضم النفس فلإعطاء النَّصفة من الشيء.

﴿أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ثم أجاب هو بنفسه لأن الجواب كان متعينًا فلا ضير في إعطاء السائل الجواب كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢) حيث كان النبي ـ ﷺ ـ سائلاً ومجيبًا كما هو الظاهر من الكلام فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢): أي بشرك فالإيمان لغوي، أي: آمنوا بوجود الصانع ولم يخلطوه بالشرك في العبادة.

وهذا التفسير مروي عن الصديق وعن ابن مسعود رضي الله عنهما في حديث برويه أو بمعصية على ما روى عن الفاروق.

وورد في حديث جرير بن عبد الله[1] على ما سيجيء.

---

(١) (جرير بن عبد الله) ابن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عوف. الأمير النبيل =

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: فالأمن على الأول عن العذاب المخلد، وعلى الثانى عن العذاب الموقت، ومعنى الاختصاص المفاد من اللام والتعريف قصر الصفة على الموصوف، أى لا يتجاوزهم إلى غيرهم.

والحديثان ما روى ابن كثير فى تفسيره هذه الآية.

قال البخارى: حدثنا معتمر بن بشار حدثنا أبوه أبو عدى عن شعبة[1]، عن

= الجميل أبو عمرو، وقيل: أبو عبد الله البجلى القسرى، وقسر من قحطان، من أعيان الصحابة، حدث عنه أنس وقيس بن أبى حازم وأبو وائل والشعبى وهمام بن حارث، وأولاده الأربعة: المنذر وعبيد الله وإبراهيم لم يدركه وأيوب وشهر بن حوشب وزياد بن علاقة وحفيده أبو زرعة ابن عمرو بن جرير وأبو إسحاق السبيعى وجماعة، وبايع النبى ﷺ على النصح لكل مسلم.
عن المغيرة بن شبل قال: قال جرير: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتى وحللت عيبتى ولبست حلتى ثم دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ يخطب، فرمانى الناس بالحدق فقلت لجليسى: يا عبد الله، هل ذكر رسول الله من أمرى شيئًا؟ قال: نعم، ذكرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذا عرض له فى خطبته فقال: إنه سيدخل عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن، ألا وإن على وجهه مسحة ملك، قال: فحمدت الله.
عن قيس سمعت جرير بن عبد الله يقول ما رآنى رسول الله ﷺ إلا تبسم فى وجهى.
كنا عند النبى ﷺ فأقبل جرير بن عبد الله فضن الناس بمجالسهم فلم يوسع له أحد، فرمى إليه رسول الله ﷺ ببردة كانت معه، حباه بها، وقال: «دونكها يا أبا عمرو فاجلس عليها» فتلقاها بصدره ونحره وقال: أكرمك الله يا رسول الله كما أكرمتنى، فقال النبى ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».
انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٣٠

(١) (**شعبة بن الحجاج**) بن الورد العتكى مولاهم الأزدى، أبو بسطام الواسطى ثم البصرى، مولى عبدة بن الأغر مولى يزيد بن المهلب، ولد سنة ٨٢هـ، وتوفى رحمه الله سنة ١٦٠هـ، وهو من كبار التابعين، روى له البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة حافظ متقن، كان الثورى يقول: هو أمير المؤمنين فى الحديث.
حدث عنه أيوب السختيانى، وسعيد الجريرى، ومنصور بن زاذان، وهؤلاء هم أحد شيوخه، وابن إسحاق، وأبان بن تغلب، وسفيان الثورى، وإبراهيم بن طهمان، وإبراهيم بن سعيد، وأبو حمزة محمد بن ميمون السكرى وزائدة بن قدامة وأبو إسحاق الفزارى، وأبو معاوية الضرير، وغيرهم كثير جدا، قال أبو عبد الله الحاكم: شعبة إمام الأئمة بالبصرة فى معرفة الحديث، رأى أنس بن مالك وعمرو بن سلمة الجرمى وسمع من أربع مائة شيخ من التابعين.
انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٠٢، وابن حجر تهذيب التهذيب: ٤/ ٣٤٥ والمزى: فى تهذيب الكمال ٨/ ٣٤٤ الترجمة رقم (٢٧٢٣).

سليمان[١] عن إبراهيم[٢]، عن علقمة[٣] عن عبد الله[٤] قال: (لما نزلت: ﴿وَلَمْ

(١) (سليمان) هو: سليمان بن مهران الأسدى الكاهلى مولاهم، أبو محمد الكوفى الأعمش، وكاهل هو ابن أسد بن خزيمة، يقال: إن أصله من طبرستان، ويقال من قرية يقال لها: دنباوند من رستاق الرى، جاء به أبوه حميلا إلى الكوفة فاشتراه رجل من بنى أسد فأعتقه... رأى أنس بن مالك وأبا بكرة الثقفى وأخذ له بالركاب وروى عن أبان بن أبى عياش وإبراهيم التيمى، وإبراهيم النخعى، وإسماعيل بن أبى خالد، وغيرهم...
وشعبة بن الحجاج، قال أبو عوانة وعبد الله بن داود: مات سنة سبع وأربعين ومائة، وقال وكيع وأحمد بن عبد الله العجلي وغير واحد: مات سنة ثمان وأربعين ومائة، زاد أبو نعيم: فى ربيع الأول بعد منصور بست عشرة سنة وهو ابن ثمان وثمانين سنة. انظر: المزى: تهذيب الكمال: ١٢/ ٧٦ ترجمة رقم (٢٥٧٠).

(٢) (إبراهيم بن إسماعيل) بن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمى الكهيلى، أبو إسحاق الكوفى، توفى سنة ٢٥٨هـ روى له: الترمذى... قال ابن حجر: ضعيف... وقال الذهبى: اتهمه أبو زرعة، روى عن أبيه إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل، وأبى نعيم الفضل بن دكين، روى عنه الترمذى، وإبراهيم بن شريك بن الفضل الأسدى، وأحمد بن داود القومسى السمنانى، ومحمد بن على، الحكيم الترمذى... وغيرهم، قال أبو جعفر إذنه حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى قال: كان ابن نمير لا يرضى إبراهيم بن إسماعيل ويضعفه، قال: روى أحاديث مناكير قال إذنه ولم يكن إبراهيم هذا يقيم الحديث، قال محمد بن عبد الله الحضرمى مات سنة ثمان وخمسين ومائتين.
انظر المزى: تهذيب الكمال ٢/ ٤٧ الترجمة رقم (١٤٩).

(٣) (علقمة) بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعى، أبو شبل الكوفى، من كبار التابعين توفى بعد ٦٠هـ، وقيل: بعد ٧٠هـ بالكوفة، روى له: البخارى ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة ثبت، وقال داود بن أبى هند: قلت للشعبى: أخبرنى عن أصحاب عبد الله كأنى أنظر إليهم، قال: كان علقمة أبطن القوم به، وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خيثم أشد القوم اجتهاداً وكان عبيدة يوازى شريحًا فى العلم والقضاء. وقال الشعبى كان الفقهاء بعد أصحاب رسول الله بالكوفة فى أصحاب عبد الله ابن مسعود وهؤلاء: علقمة، وعبيدة، وشريح، ومسروق، وقال أبو الهذيل: قلت لإبراهيم: علقمة كان أفضل أو الأسود؟ فقال: علقمة، ولد فى حياة النبى ﷺ ومات سنة إحدى وستين، وقيل: اثنتين، وقيل: ثلاث، وقيل: خمس، وقيل: سنة اثنتين وسبعين، وقيل: ثلاث وسبعين.. انظر: السيوطى طبقات الحفاظ: ١/ ٢٠ الترجمة رقم (٢٤).

(٤) (عبد الله بن مسعود): بن غافل بن حبيب بن شمخ بن مخزوم، ويقال: ابن شمخ بن فار ابن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم، أبو عبد الرحمن الهذلى صاحب =

﴿يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه، فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) إنما هو الشرك)[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف[2]، حدثنا أبو حيان عن

= رسول الله ﷺ، وكان أبوه مسعود بن غافل قد حالف عبد بن الحارث بن زهرة فى الجاهلية... وأمه: أم عبد بنت ود بن سواء من هذيل أيضًا، أسلم بمكة قديمًا وهاجر الهجرتين وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحب نعل رسول الله ﷺ، كان يُلبسه إياها إذا قام فإذا جلس أدخلها فى ذراعه، وكان كثير الولوج على النبى ﷺ، وقال له رسول الله ﷺ: «إذنك على أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادى حتى أنهاك، والسواد: السرار.

ومناقبه وفضائله كثيرة جدًا، روى عن النبى ﷺ، وعن سعيد بن معاذ الأنصارى، وصفوان ابن عسال المرادى، وعمر بن عبد الخطاب، روى عنه الأحنف بن قيس، والأسود بن يزيد، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، والبراء بن ناجية.

انظر: المزى تهذيب الكمال: ١٦/ ١٢٠ الترجمة رقم (٣٥٦٤) وانظر: ابن حجر تهذيب التهذيب: ٦/ ٢٨، وانظر: تقريب التهذيب: ص٣٢٣.

(١) هذا الحديث أورده السيوطى فى الدر المنثور وقال: أخرج أحمد، والبخارى، ومسلم، والترمذى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والدارقطنى فى الأفراد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، كلهم جميعًا عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أمَّا رواية أبى بكر الصديق (رضي الله عنه) فقد أوردها أيضًا السيوطى وقال: أخرج الفريابى، وابن أبى شيبة، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه كلهم عن (أبى بكر الصديق) (رضي الله عنه) انظر: السيوطى: الدر المنثور ٣/ ٣٠٨ تفسير سورة الأنعام.

(٢) (إسحاق بن يوسف): ابن مرداس القرشى المخزومى أبو محمد الواسطى المعروف بالأزرق، روى عن أيوب أبى العلاء القصاب، وزكريا بن أبى زائدة، وسعيد بن إياس الجريرى، وسفيان الثورى، وسليمان الأعمش، وشريك بن عبد الله النخعى، وعبد الله بن عون... روى عنه أحمد بن إبراهيم الدورقى، وأحمد بن خالد الخلال، وأحمد بن سنان القطان، وغيرهم، قيل: إسحاق الأزرق ثقة؟ قال: إى والله ثقة... وقال الحافظ أبو نعيم: نسمع أن إسحاق ـ يعنى الأزرق ـ لم يرفع رأسه إلى السماء نحوًا من عشرين سنة، قال أحمد بن على: ورد بغداد وحدث بها، وكان من الثقات المأمونين، وأحد عباد الله الصالحين، قال وهب بن بقية ولد سنة سبع عشرة ومائة، وقال خليفة بن خياط، ومحمد بن سعد، ومحمد بن وزير، مات سنة خمس وتسعين ومائة، زاد محمد بن سعد فى خلافة محمد بن هارون، وكان ثقة، وربما غلط، روى له الجماعة.

انظر: تهذيب الكمال: ٢/ ٤٩٦ ترجمة رقم (٣٩٥) ابن حجر تهذيب التهذيب: ١/ ٢٥٧.

زاذان[1]، عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ - فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله - ﷺ -: (كان هذا الراكب إياكم يريد، فانتهى إلينا الرجل فسلم، فرددنا عليه، فقال له النبى - ﷺ -: من أين أقبلت؟ قال: من أهلى وولدى وعشيرتى؟، قال: فأين تريد؟ قال: أريد رسول الله - ﷺ - قال: فقد أصبته، قال: يا رسول الله، علمنى ما الإيمان؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، قال: قد أقررت قال: ثم إن بعيرة دخلت يده فى شبكة جرزان فهوى بعيره وجرى الرجل فوقع على هامته فقال رسول الله - ﷺ - بالرجل، فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقال: أيا رسول الله - ﷺ - قبض الرجل، قال: فأعرض عنهما رسول الله - ﷺ - قال: أما رأيتما إعراضى عن الرجل فإنى رأيت ملكين يدسان فى فيه من ثمار الجنة فعلمت أنه مات جائعًا ثم قال رسول الله، ﷺ، هذا من الذين قال الله - عز وجل - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثم قال: ودونكم أخاكم، قال: فاحتملناه إلى الماء فغسلناه، وخطناه، وكفَّناه، وحملناه إلى القبر فجاء رسول الله - ﷺ - حتى جلس على شفير القبر فقال: الحدوا ولا تشقوا فإن اللحد لنا والشق لغيرنا[2].

---

(١) (زاذان): أبو عمر سنان مولاهم الكوفى البزار الضرير، أحد العلماء الكبار، ولد فى حياة النبى ﷺ وشهد خطبة عمر بالجابية، روى عن عمر، وعلى، وسلمان، وابن مسعود، وعائشة، وحذيفة، وجرير البجلى، وغيرهم، حدث عنه: أبو صالح السمان، وعمرو بن مرة، وحبيب ابن أبى ثابت، وآخرون وكان ثقة صادقًا روى عن جماعة أحاديث، قال النسائى ليس به بأس، وعن يحيى بن معين قال: ثقة، وقال ابن عدى: تاب على يد ابن مسعود، وعن أبى هاشم الرمانى قال: قال زاذان: كنت غلامًا حسن الصوت جيد الضرب بالطنبور، فكنت مع صاحب لى وعندنا نبيذ وأنا أغنيهم، فمر ابن مسعود فدخل فضرب الباطية بددها وكسر الطنبور ثم قال لى: لو كان ما يسمع من حسن صوتك يا غلام بالقرآن كنت أنت أنت، ثم مضى، فقلت لأصحابى: من هذا؟ قالوا: هذا ابن مسعود، فألقى فى نفسى التوبة فسعيت أبكى وأخذت بثوبه أقبل علىَّ فاعتنقنى وبكى وقال: مرحبًا بمن أحبه الله، اجلس، ثم دخل وأخرج لى تمراً، قال زبيد: رأيت زاذان يصلى كأنه جذع، روى أن زاذان قال يومًا: إنى جائع، فسقط عليه رغيف مثل الرحا، وقيل: كان إذا باع ثوبًا لم يسم فيه، مات سنة اثنتين وثمانين.

انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٨٠ الترجمة رقم (١٠٢).

(٢) أورد السيوطى الحديث كاملا فى الدر والمنثور، وقال: أخرج أحمد، والطبرانى وأبو الشيخ، =

وروى ابن مردويه[١] من حديث محمد بن يعلى الكوفى[٢] وكان ينزل الرى، حدثنا زياد ابن خيثمة[٣] . . .

= وابن مردويه، والبيهقى فى شعب الإيمان عن (جرير بن عبد الله) (رضي الله عنه). . . الحديث. انظر: السيوطى: الدر المنثور ٣/ ٣٠٩.

(١) **(ابن مردويه)**: الحافظ الكبير العلامة أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهانى، صاحب التفسير والتاريخ والمستخرج على البخارى، سمع أبا سهل بن زياد القطان وخلقًا، وكان فهمًا بهذا الشأن بصير الباع مليح التصانيف، ولد سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ومات لست بقين من رمضان سنة عشر وأربعمائة.
انظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٤١٢ الترجمة رقم (٩٣٠).

(٢) **(محمد بن يعلى الكوفى)** بن عبد الكريم الهمدانى اليامى الكوفى، سكن بعض قرى الرى، روى عن يحيى بن سعيد الأنصارى، وعبد الله بن عمر، وابن إسحاق، وزياد بن خيثمة وغيرهم. . . وروى عنه: على بن بحر بن برى، ومحمد بن حميد، وأبو غسان زنيج، ومحمد ابن مهران قال إبراهيم بن موسى: كان من الثقات، وقال أبو حاتم صدوق لا بأس به، وذكره ابن حبان فى الثقات.
أورد البخارى حديثه عن ابن إسحاق عن ابن المنكدر عن جابر: «إذا شرب الخمر فاجلدوه» الحديث، وقال: لم يتابع عليه، وأورده إذنه فى الضعفاء وقال: حدثنا محمد بن سعيد سئل أبو عبد الله ـ يعنى عبد الرحمن بن الحكم بن بشير بن سليمان عن محمد بن المعى فقال: لم يكن صاحب حديث، وكان رجلا صالحًا، وكان فى كتابه إسناد مقلوب فوقفته عليه فأبى، يعنى حديث: إذا شرب. . .» الذى ذكره خ فإن الصواب عن ابن إسحاق عن الزهرى عن قبيصة مرسل وقال إذنه هذا أولى. . .
انظر: ابن حجر تهذيب التهذيب: ٩/ ٤١١ الترجمة رقم (٧٥٤) انظر: المزى: تهذيب الكمال: ٢٦/ ٤٨٣ الترجمة رقم (٥٦٢٠).

(٣) **(زياد بن خيثمة)**: زياد بن خيثمة الجعفى الكوفى، روى عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى والأسود ابن سعيد الهمدانى، وثابت البنانى روى عنه أبو خيثمة زهير بن معاوية الجعفى، وأبو بدر شجاع بن الوليد وعبد السلام بن حرب ومحمد بن المعلى الكوفى نزيل الرى قال إسحاق ابن منصور عن يحيى بن معين وأبو زرعة ثقة، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وقال أبو عبيد الآجرى: عن أبى داود زياد بن خيثمة قرابة زهير ثقة وذكره ابن حبان فى كتاب الثقات، روى له الجماعة سوى البخارى، وروى أبو الوليد الطيالسى عن زياد بن خيثمة عن عبد الله بن المؤمل المخزومى وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ومسعر، وهو شيخ آخر متأخر عن هذا قليلا، والله أعلم.
انظر: المزى تهذيب الكمال: ٩/ ٤٥٧ الترجمة رقم (٣٩٢٠) ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٣/ ٣١٠ الترجمة رقم (٦٦٨).

عن أبى داود[١]، عن عبد الله بن سخبرة[٢] عن أبيه[٣] قال: قال رسول الله - ﷺ -: (من أعطى فشكر، ومن مُنع فصَبر، وظلم فاستغفر، وظلم فغفر وسكت، قال: قالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾)[٤].

---

(١) (أبو داود) تقدم تخريج ترجمة له.

(٢) (عبد الله بن سخبرة): الأزدى، ويقال الأسدى، أبو معمر الكوفى (من أزد شنوءة) من كبار التابعين، توفى - رحمه الله - فى إمارة عبيد الله بن زياد... روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة، وقال الذهبى: صدوق... قال المزى فى «تهذيب الكمال»: قال أبو بكر بن أبى خيثمة، عن يحيى بن معين: ثقة... وذكره ابن حبان فى كتاب «الثقات» قال محمد بن سعد: توفى فى ولاية عبيد الله بن زياد... روى له الجماعة وقال العجلى: كوفى، تابعي، ثقة، قال المزى: روى عن: خباب بن الأرت، عبد الله ابن مسعود، علقمة بن قيس، وهو من أقرانه، على بن أبى طالب، عمر بن الخطاب، المقداد ابن الأسود، أبى بكر الصديق، مرسل أبى مسعود الأنصارى، أبى موسى الأشعرى، وروى عنه: إبراهيم النخعى، تميم بن سلمة، عمارة بن عمير، مجاهد بن جبر المكى يزيد بن شريك التيمى، والد إبراهيم التيمى. انظر ابن حجر: «هذيب التهذيب» ٥/ ٢٣١ والمزى: تهذيب الكمال ١٠/ ١٦٧ الترجمة رقم (٣٢٧٤).

(٣) (سخبرة) (والد عبد الله بن سخبرة): صحابى، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: روى حديثه: أبو داود الأعمى عن عبد الله بن سخبرة، عن سخبرة، عن النبى ﷺ، وليس بالأزدى، فإن الأزدى آخر، وهو أبو معمر عبد الله بن سخبرة صاحب ابن مسعود، وليس لأبيه رواية، ولأبى داود عنه رواية... روى له الترمذى حديثًا واحدًا، وقد وقع لنا عاليًا عنه، أخبرنا أبو طاهر المخلص، قال: حدثنا عبد الله بن محمد البغوى، قال: حدثنا محمد بن حميد، قال: حدثنا محمد بن المعلى، قال: حدثنا زياد ابن خيثمة عن أبى داود، عن عبد الله بن سخبرة، عن سخبرة، قال: قال النبى ﷺ: «من ابتُلى فصبر، وأُعطى فشكر، وظلم فاستغفر، وظُلم فغفر» ثم سكت، فقالوا: ما باله؟ فقال: ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال: وكنا عند النبى ﷺ فمر رجلان، فقال النبى: «اجلسا فإنكما على خير» قالا: ألنا خاصة أم للعامة فقال: «ما من مسلم يطلب العلم إلا كان كفارة» روى قصة العلم منه عن محمد بن حميد الرازى، فوافقناه فيه بعلو، ولفظه: «من طلب العلم كان كفارة لما مضى» وقال: هذا حديث ضعيف الإسناد، ولا نعرف لعبد الله بن سخبرة كبير شىء ولا لأبيه، تابعه محمد بن عمرو زنيج، عن محمد بن المعلى، ورواه على بن بحر بن برى، عن محمد بن المعلى، فلم يذكر عبد الله.
انظر: ابن حجر: «تهذيب التهذيب» ٣/ ٤٥٤، : «تقريب التهذيب» ص٢٢٩.

(٤) الحديث: (من أعطى فشكر، ومنع فصبر، وظُلِمَ فَصَبَر، وظَلَم فاستغفر...) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٥، ابن حجر الهيثمى: مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٨٤ ابن قانع: معجم الصحابة: =

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف موسى القطان حدثنا مهران بن أبى عمر، حدثنا على بن عبد الأعلى، عن أبيه عن سعيد بن جبير عن عباس قال: كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى مسير ساره إذ عرض له أعرابى فقال: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لقد خرجت عن بلادى وتلادى ومالى لأهتدى بهداك وآخذ من قولك وما بلغتك حتى ما لى طعام إلا من خضر الأرض فاعرض علىَّ فعرض عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقبل فازدحمنا حوله فدخل حق يكره فى بيت صردان فتردى الأعرابى فانكسر عنقه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: صدق والذى بعثنى بالحق، لقد خرج من بلاده، وتلاده وماله يهتدى بهداى، ويأخذ من قولى، وما بلغنى حتى ما له طعام إلا من خضراء الأرض، أسمعتم بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً، هذا منهم، أسمعتم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فإن هذا منهم).

﴿وَتِلْكَ﴾: ما ذكر من الاحتجاج.

﴿حُجَّتُنَا﴾ من حجننا بطريق الكشف المذكور خبر تلك.

﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ صفة مقررة لمضمون الإضافة.

﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾: متعلق بحجة ثم علل تخصيص إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بين الأنام بإعطاء الحجة والكشف وتقرير المقدمات وتبين المقاصد بقوله:

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾: بالتنوين أى فى الدرجات أو إلى درجات.

﴿مَّن نَّشَاءُ﴾: مثل إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾: يخصم بحكمته من يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾: يعلم ما يستحقه كل أحد يجعله تعالى بذاته.

= ١/ ٣٢١ رقم (٣٩٤)، الحكيم الترمذى نوادر الأصول: ٤/ ٢٠٩ المنذرى: الترغيب والترهيب ٤٠/ ١٤٠.

مجلس فى:

بيان مناظرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه

مناظرة فعلية بتكسير أصنامهم فى اثنتين وعشرين آية من سورة الأنبياء:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان مناظرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه مناظرة فعلية بتكسير أصنامهم فى اثنتين وعشرين آية من سورة الأنبياء(1).

وكان ما سبق فى سورة الأنعام مناظرة قولية ـ عليه السلام ـ معهم.

قال الله ـ تعالى ـ مسليًا لنبيه ومصبرًا له ـ عليه السلام ـ على أذى قومه وكان مقام التسلية والتصبير مقام التأكيد.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا ﴾: والواو لعطف القصة على قصته، واللام للقسم المحذوف، أى: أقسم بالله جوابه لقد آتينا ففيه ثلاثة توكيدات: القسم واللام وقد.

---

(1) الآيات من سورة الأنبياء من رقم (٥١) وحتى الآية رقم (٧٢) ونص هذه الآيات: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾.

وأسند فعل الإيتاء أى الإعطاء إلى ذاته بنون العظمة لتعظيم ذاته وإجلاله حتى يجر إلى الإجلال بالفعل أى الإيتاء وهو فعل وكل فعل اختيارى كما حققه التفتازانى فى بعض كتبه.

فمعنى الكلام: والله البتة تحقيقًا آتينا وأعطينا نحن بعظمتنا وجلالنا إعطاء اختياريًا لا إيجابيًا كما يقوله المعطلة من الفلاسفة.

﴿إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾: والرشد بالضم والفتحتين كالعدم والعدم الاهتداء بوجوده الصالح فى أمور الدارين.

أى: الوصول إلى العلم بأسباب كل مصلحة فى جميع الأمور والإضافة للتخصيص، أى: رشدًا مختصًا بمثل إبراهيم لا يقال بمنصب النبوة والرسالة والخلة له شأن عظيم من قبل موسى، وهارون ـ عليهما السلام ـ هو الحق وكناية بإبراهيم وباستحقاقه المجعول للرشد الموصوف وبلياقته عالمين علمًا بخصوصه وتعيينه، والكلام تذييل دال على ما يستفاد من ﴿آتَيْنَا﴾ لأنه فعل اختيارى وهو لا يكون إلا لمصلحة، وحكمة للتوكيد، فدل الكلام مع تذييله على أن فعله اختيارى مبنى على العلم بالحكمة ورعاية المصلحة وعلى أنه ـ تعالى ـ عالم بالجزئيات والمجردة ولا التغير لأن علمه حضورى فكل شىء من الكليات والجزئيات المجردة والمادية حاضر عنده بزمانه ومكانه وجميع مشيئته، لا يغيب عن علمه مثال ذرة فى السماء ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿إِذْ قَالَ﴾: ظرف لاذكر مقدراً هو الصحيح.

أى: اذكر وقت قوله هذا حتى تبين لك عظم شأن رشده ويعلم كيف كان رشده هذا فى سنة ستة عشر.

﴿لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ﴾: الاستفهام للتجاهل، والتغالى وإلاَّ فهو عالم بها.

والمقصود من التجاهل التحقير بها وأيَّده بالإشارة إلى القريب فإنها قد تكون للتحقير كقولهم: هذا اللعين فعل كذا وأيده أيضًا بقوله:

﴿التَّمَاثِيلُ﴾: لأنها أجساد بلا أرواح، وهى محقرة عند كل ذى لب.

﴿الَّتِي أَنتُمْ﴾ مع أنكم عقلاء يميزون لها لأجل تلك التماثيل.

﴿عَاكِفُونَ﴾ فاعلون العكوف، تنزيلاً للمتعدى منزلة اللازم لأن صلة العكوف على دون اللام، بل اللام للبيان كقوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (يوسف: ٢٣).

والعكوف هو الإقبال على الشىء مواظبًا، أى: كما أن حال الأصنام فى ظرف الإفراط لأنها لا روح لها ولا عقل ولا تميز كذل حال العباد أيضًا، لأنكم مع عقولكم وتميزكم لا تقتصرون على أدنى التعظيم أحيانًا بل تجعلون العبادة وهى غاية التعظيم مختصة بها دائمًا.

قال ابن كثير: قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح(١) حدثنا معاوية الضرير(٢) . . .

---

(١) (الحسن بن محمد الصباح) هو: (الحسن بن محمد الزعفرانى) أبو على البغدادى، وإليه ينسب درب الزعفرانى المسلوك فيه من باب الشعير، روى عن إبراهيم بن مهدى المصيصى، والأزرق بن على، وأسباط بن محمد القرشى، وإسماعيل ابن علية، وأبى معاوية محمد بن خازم الضرير. حدثنى أحمد بن محمد بن الجراح قال: سمعت الحسن بن محمد الزعفرانى قال: لما قرأت الرسالة على الشافعى قال لى: من أى العرب أنت؟ فقلت: ما أنا بعربى، وما أنا إلا من قرية يقال لها الزعفرانية، قال: فقال لى: فأنت سيد هذه القرية، وذكره أبو حاتم بن حبان فى كتاب الثقات وقال كان راويًا للشافعى، وكان يحضر أحمد وأبو ثور ثم الشافعى، وهو الذى يتولى القراءة عليه، مات يوم الاثنين فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسين ومائتين وقال أبو الحسين بن المنادى: مات سنة ستين ومائتين بالجانب الغربى من مدينة السلام وكان أحد الثقات، وقال محمد بن مخلد: مات فى رمضان سنة ستين ومائتين.
انظر: المزى: تهذيب الكمال: ٦/ ٢١٠ (١٢٧٠).

(٢) (أبو معاوية الضرير) هو: محمد بن خازم التميمى السعدى، أبو معاوية الضرير الكوفى، ولد: ٢١٣هـ توفى (رحمه الله) (سنة: ٢٩٥هـ). . . روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة أحفظ الناس لحديث الأعمش، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبى ذكر أبا معاوية الضرير فقال: كان والله حافظا للقرآن، وقال عباس الدورى عن يحيى بن معين: أبو معاوية أثبت من جرير فى الأعمش، وروى أبو معاوية عن عبيد الله بن عمر أحاديث مناكير، وقال معاوية بن صالح: سألت يحيى بن معين: من أثبت أصحاب الأعمش؟ قال: بعد سفيان وشعبة: أبو معاوية الضرير، قال أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغير واحد: ولد سنة ثلاث عشرة ومائة، وقال محمد بن عبد الله بن نمير: مات سنة أربع وتسعين ومائة، روى عن: إبرهيم بن طهمان، إسماعيل بن أبى خالد، إسماعيل بن مسلم المكى، أبى بردة بريد بن عبد الله بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، سليمان الأعمش، شعبة بن الحجاج، وروى عنه: إبراهيم بن أبى معاوية الضرير (ابنه) أحمد بن حرب الموصلى، أحمد بن حنبل، روى له الجماعة. . . انظر: الحافظ ابن حجر فى: «تهذيب التهذيب» ٩/ ١٣٩: انظرالمزى فى «تهذيب الكمال» ٢٥/ ١٢٣ الترجمة رقم (٥١٧٣).

حدثنا سعيد بن طريف[1] عن الأصبغ بن نباتة[2] قال على عليّ قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون لا يمس صاحبكم جمراً حتى يُطفأ خير له من أن يمسها)[3]. انتهى.

فلما سمعوا من إبراهيم هذا الإنكار البليغ ولم يكن لهم برهان ولا شبهة غير النقلية تمسكوا به كما قال تعالى:

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا﴾: وتقديمه له غاية الفاصلة.

﴿عَابِدِينَ﴾: ثم نبه نبى الله على أن التقليد وإن جاز فى الأصول فإنما يجوز لمن

---

(١) (سعد بن طريف) الإسكافى الحذاء الحنظلى الكوفى، روى له: الترمذى، وابن ماجه، قال ابن حجر: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع، وكان رافضيا، وعند الذهبى: واه، ضعفوه، شيعى، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث، منكر الحديث وقال البخارى: ليس بالقوى، روى له الترمذى حديثًا، وابن ماجه آخر، روى عن الأصبغ بن نباتة، الحكم بن عتيبة، أبى وائل شقيق بن سلم، وعكرمة مولى ابن عباس، روى عنه: إسماعيل بن زكريا، إسماعيل ابن علية، أبو معاوية محمد بن خازم الضرير، وغيرهم.
انظر الحافظ ابن حجر فى: «تهذيب التهذيب» ٣/ ٤٧٤ وانظر المزى: تهذيب الكمال: ٧/ ٨٩ الترجمة رقم (٢١٩٤).

(٢) (الأصبغ بن نباتة) التميمى ثم الحنظلى ثم الدارمى ثم المجاشعى أبو القاسم الكوفى، روى عن الحسن ابن على بن أبى طالب، وأبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى، وعلى بن أبى طالب، وعمار بن ياسر، وعمر بن الخطاب. روى عنه الأجلح بن عبد الله سنان، وثابت بن أسلم البنانى، وأبو حمزة ثابت بن أبى صفية الثمالى، وسعد بن طريف الإسكاف، وفطر بن خليفة. عن جرير بن عبد الحميد كان المغيرة لا يعبأ بحديث الأصبغ بن نباتة، وقال عمرو بن على ما سمعت يحيى ولا عبد الرحمن حدثا عن الأصبغ بن نباتة بشىء قط، وقال أبو أسامة عن يونس بن أبى إسحاق كنت مع أبى فى المغازى بخراسان فكان يدور تلك الفساطيط، ولا يعرض لفسطاط يعنى بن نباتة، وقال أحمد بن عبد الله العجلى كوفى تابعى ثقة... وقال النسائى متروك الحديث، وقال فى موضع آخر: ليس بثقة.
انظر المزى: تهذيب الكمال: ٣/ ٣٠٨ الترجمة رقم (٥٣٧).

(٣) حديث: (لا يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ...) أورد السيوطى هذا الحديث فى الدر المنثور وقال: أخرج ابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الشُّعب، كلهم عن عليّ بن أبى طالب (رضي الله عنه) قال: (أنه مر على قوم...) إلخ.
انظر: السيوطى: الدر المنثور ٥/ ٦٣٥.

علم أنه على هدى كالمجتهدين أو إن آباءكم على خلاف ذلك وأقسم على ذلك، وأكده تأكيدتين قال إبراهيم (عليه السلام):

﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ﴾: فعل لعطف: ﴿وَآبَاؤُكُمْ﴾: على المتصل ﴿فِي ضَلالٍ﴾: منفى من فى ضلال عظيم.

﴿مُّبِينٍ﴾: ظاهر كونه ضلالاً عند كل عاقل فانتفى شرط التقليد وهو يكون المقلد على هدى فلا يتمسك به ولما سمعوا منه إنكار التقليد أيضًا تعجبوا واستبعدوا ذلك لأن التقليد داء عضال كما قال تعالى:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾: الهمزة للتعجب والاستبعاد.

﴿بِالْحَقِّ﴾: بالجد، ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾: أى: مستمر على حال الصبا كما كنت فى أصل كلامهم إنك يا إبراهيم إما جاد فى إنكار التقليد بعد إنكار الآلهة، وإما لاعب لكن استبعدوا القسم الأول ولذا جاءوا به فعلية وظنوا القسم الثانى ولذا جعلوه اسمية مؤكدة كما ترى.

قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ معرضًا مصرفًا عن اللعب المظنون لهم إلى الجد المستبعد لهم بقوله:

﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: فأدخل كلمة الإضراب على دليل الجد أى بل أنا جاد لأن ربكم موجودكم ومبقيكم ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: أى: موجدها ومبقيها لا النفوس الفلكية والكواكب كما تزعمون.

﴿الَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾: أى الأصنام، وذلك أبلغ فى التبكيت من إرجاع الضمير إلى السموات والأرض.

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم﴾: أى: القول بأن الرب للكل واحد.

﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾: أى: من المتحققين المحققين وهو شأن الشاهدين، حاصل الكلام أنا متحقق للتوحيد لأن علمته ببيان وعيان كما مر فى المجلس السابق فى بيان كشفه ومحقق ومبين لكم بالدليل القطعى لذلك التوحيد وليس شأن العجز عن الدليل والتمسك بالتقليد الباطل مثلكم، روى أن أباه استدعاه أن يخرج إلى عيدهم وكان وقته فى أيام المناظرة إلى أصنامهم المصطفة وإلى تعظيم العابدين لها شرقًا وغربًا لأن النظر إلى الجميع الكثير فى فعل خصوصًا إذا كان فيهم سلطان الزمان هى أركان الدولة

وأعيان المملكة ليرغب فى ذلك الفعل وكان ملك زمانهم (نمرود بن كنعان) من أولاد حام وكان قد ملك المعمورة طولاً وعرضًا وكان يحضر اللعين موضع عيدهم مع الحكام فِى جميع أقطار الأرض، فخرج إبراهيم عمل الكيد فى كسر الأصنام فأسقط نفسه على الأرض موهمًا مرض من الطاعون وكانوا يخافون العدوى كما قال تعالى فى سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (الصافات: ٨٨) أى: نظر إليها بالآيات المصنوعة للنظر فى الكواكب كالاسطرلاب.

واستدل على زعمهم بحصول المرض فيه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩) أى: مريض من الطاعون، ومعنى «قال»: أوهمهم بأن فعل شيئًا أوهمهم ذلك فكأنه قال مثل أن أخذ ارتفاع بعض النجوم واستخراج الطالع وسائر البيوت فى ذلك الوقت، ويقال له طالع السائل فى أحكام النجوم، ثم بنى عليه كونه مريضًا وسقط على الأرض، فأوهمهم أنه، فكأنه قال ذلك وهذا أحسن ما قيل فى دفع الكذب عنه فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فلما توهموه مطعونًا فرقا عنه خوفًا من العدوى وذلك قوله تعالى فى سورة الصافات: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافات: ٩٠).

ثم لما انكشف القوم عنه ـ عليه السلام ـ تكلم بما فى ضميره من الكيد للأصنام على ما هو العادة عند إرادة أمر عظيم يتكلم الإنسان مع نفسه بصوت جهورى كما قال تعالى حاكيًا عن خليله: ﴿وَتَاللَّهِ﴾: أقسم بالتاء وهو عوض عن الواو [وهو عن الباء وفى التاء معنى التعجب، تعجب ـ عليه السلام ـ من سهولة الكيد للأصنام حيث تتكسر الأصنام إلى الأجزاء][(١)] وقومه إياه ـ عليه السلام ـ معهم إلى موضع العيد، ثم تفرقهم عنه لخوف العدوى ببعض الطريق، وخلوا بيت الصنم عن السدنة لأن عادتهم أنهم كانوا يذهبون بالأطعمة والأشربة والأدوية والمعاجين النافعة للأمراض فى كل سنة كما هو عادة الأطباء فى هذا الزمان، ويسمونها النيروزية وكان عيدهم يوم النيروز وليلته فكانوا يصنعون تلك الأدوية والمعاجين ليلة النيروز فى بيت الأصنام يتبركون بها وكانت السَّدنة كسائر الناس يتبركون بيت الأصنام خالية، ويقظون الباب لأن المعاجين مال عظيم يخافون من تهمة السرقة وللأغراض الآخر فلأجل ذلك تعجب وقال: ﴿وَتَاللَّهِ﴾.

(١) ما بين المعقوفتين سقط من المتن، ومصحح من هامش المخطوط.

﴿لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾: لأفعلن فعلاً فى كسرها يشبه الكيد وهو إيصال الضرر إلى الغير مع الإخفاء ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا﴾: أى تعرضوا عن بيت الأصنام بعد وضع المعاجين.

﴿مُدْبِرِينَ﴾: أى عنها حال مؤكدة.

فقال الله فى سورة الصافات: ﴿فَرَاغَ﴾ أى: ذهب فى خفية ﴿إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ بعد كسر الأقفال بفأس هيأة لذلك فقال مستهزئًا: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾ كان عرض الأكل عليهم ثم لما رأى سكوتهم الطويل قال: ﴿مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ﴾ والغرض الاستهزاء أيضًا ﴿فَرَاغَ﴾ مال عليهم ﴿ضَرْبًا﴾ أى يضرب ضربًا ﴿بِالْيَمِينِ﴾ (الصافات: ٩١ - ٩٣) أى اليد اليمنى أو بسبب الحلف وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ﴾.

وقال هنا أى فى سورة الأنبياء: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾: أى قطاعًا، فعال بمعنى مفعول كالحطام بمعنى المحطوم من الجذ وهو القطع ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ﴾: أى: للأصنام، وكانت سبعين على ما قاله الكشاف وغيره لكن الصحيح أنها اثنان وثلاثون على عدد النفوس الفلكية لأنهم كانوا يعبدون الكواكب.

وقوله: الفلاسفة وهو أن فى فلك الشمس فلكين وممثلاً وخارجًا وفى كل من أفلاك الزهرة والعلوية، أى: المريخ، والمشترى، وزحل ثلاثة أفلاك: ممثل، وحامل، وتدوير، وفى كل من فلكى القمر وعطارد أربعة أفلاك، ففى القمر جوهر ومائل وحامل وتدوير، وفى عطارد وممثل ومدبر وحامل وتدوير، فالكل اثنان وعشرون، وينضم إليها الفلك الأطلس وفلك البروج، فالمجموع أربعة وعشرون، ولكلٍّ نفْس، يقولون إنها تتعلق بالكواكب كالقلب للحيوان، ثم بعد ذلك يثبتون نفسًا لنقطة المحاذاة فى القمر ولذلك له ثم يثبتون نفسين للإقبال والإدبار فى ما يلى السفليين فتكون النفوس الفلكية اثنتين وثلاثين، ويكون الهياكل والأصنام المصنوعة أيضًا كذلك فكسر الخليل كل الهياكل والأصنام وأبقى الكبير منها وهو هيكل الشمس.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾: إلى إبراهيم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألون ويبكتهم بما سيجىء لأنه علم أنهم يعلمون أنه ليس فى العالم عدو لها غيرها أو إلى الكبير لفرط جهلهم.

ولما رجع الكفار يوم النيروز إلى بيت الأصنام ووجدوها محرقة متفرقة والفأس معلق فى عنق الكبير.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا﴾: أى الكسر الكامل الذى لا يمكن رفعه.

﴿ بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾: لأنه وضع الإهانة موضع التعظيم أو ظلم نفسه إلى لقائها فى التهلكة.

﴿ قَالُوا ﴾: أى الشيوخ الذين بقوا قرب إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد انكشاف القوم عنه وقد سمعوا قوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾.

﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾: صفة موضحة للفتى، وإبراهيم: يراد به اللفظ، وقد أسند إليه (يقال) أى يقال له هذا اللفظ أى يطلق عليه.

ويجوز إسناد القول إلى اللفظ المفرد كما تقول: هذا الرجل يقال له زيد، أى: هذا اللفظ.

قال ابن كثير: عن ابن عباس ـ ﷺ ـ قال: (ما بعث الله نبيًا إلا شابًا، ولا أوتى العلم عالم إلاَّ وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾: فلما سمع ذلك نمرود الجبار وحكام جميع الدنيا واحترزوا عنه.

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ ﴾: مستقر.

﴿ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾: كاستقرار الراكب على المركوب، ففى الكلام استعارة تبعية وغرضهم أن يحضر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بملأ من الناس ويراه الناس جميعًا.

﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾: أى لعل بعضهم.

﴿ يَشْهَدُونَ ﴾: على إبراهيم بالكسر، فيقتل بعد الشهادة فلا يكون ظلمًا وإلى الله المشتكى من ظلمة زماننا إنهم مع ادعائهم الإيمان لا يخافون من الظلم، ونمرود وأعوانه مع كفرهم كانوا يخافون منه.

وقيل: ﴿ يَشْهَدُونَ ﴾: أى يحضرون عقوبته.

فلما جاءوا به ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا ﴾: الكسر الشديد ﴿ بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾: والاستفهام للتقرير والحمل على الإقرار لأنهم عرفوا من صلاحه واستقامته أنه يقر وكانوا يعتقدون أنه لا يكسر غيره الأصنام، وإدخاله على الضمير دون الفعل لأن التردد فى الفاعل دون الفعل لأن الكسر محقق.

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾: القول من معاريض الكلام ويقال له الكناية العرضية والكناية التعريضية وهو أبلغ فى الفهم من قوله: أنا كسرت، ففهم الكفار من هذا القول أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أقر على نفسه وقال: نعم أنا كسرت، لكن أتى بالكناية لأنها

أبلغ من التصريح لما فيها من الفوائد، فهذا كقولك لصاحبك الذى لا يحسن الخط لكن يعرفه وقد أخرجت له خطأ رشيقا وليس فى الدار غيركما وقال أنت كتبت هذا بل أنت، فهذا كناية عرضية عن قولك نعم أنا كتبت لكن قصدت بالكناية الاستهزاء به بأنه لا يكتب، وإسحاقه بأنه ليس فى الدر غيرنا وأنك تعرف أنك لا تكتب، فما وجه السؤال، فليس فى هذا الكلام رائحة كذب أصلاً.

وقيل: إسناد فعل إلى الكبير إسناد إلى السبب أى تسبب الكبير لغاية غيظى به إلى كسرهن وإبقائه لهذا السؤال والجواب.

ثم قال تعريضًا عليهم بأن الأصنام وإن لم تقدر على دفع الكاسر فيحتمل أن ينطقوا بالكاسر فقال:

﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾: أى: جهلكم قد بلغ غايته لأنكم تعبدون أشياء لا تدفع الضر عن نفسها بل لا تنطق عن الكاسر فإنها جماد البتة فلما أرشدهم نبى هذا الإرشاد تأملوا بالنظر الصحيح فعرفوا جهلهم وأقروا به على ما قال تعالى:

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾: فى التأمل والتذكر.

﴿فَقَالُوا﴾: أى قال بعضهم لبعض.

﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾: فقط لا من ظلمهم بقولكم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين لأنكم تعبدون شيئًا هذا حاله ولا ظلم أكبر منه، فبقوا على هذا التفكر الصحيح زمانًا يعتد به على أنفسهم من كلمة ثم فى قوله:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا﴾: أى قلبوا.

﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾: وهو استعارة لارتدادهم إلى الكفر بعد استقامتهم بالنظر الصحيح والإقرار على أنفسهم بالظلم، شبهوا بمن نكس على رأسه بعد الاستقامة، أى انقلبوا إلى الكفر قائلين:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾: فلم قلت: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾.

وقيل: صاروا منكوسين فى قولهم: ﴿مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ لأنه جدل عن إبراهيم لا له، وإنما سمى هذا الحق نكسًا، لأنهم ما انتفعوا بقولهم هذا.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ﴾: أتقرون بعجز الآلهة فتعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: مجاوزين الله لأنهم كانوا يشركون الأصنام له فى العبادة.

﴿مَا لا يَنفعُكُمْ شَيْئًا ولايَضرُكُمْ﴾.

﴿أُفٍّ﴾: كلمة تضجر، أى: تضجرت، فكأنه قيل: هذا التضجر لمن قال.

﴿لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: ألا تتفكرون أفلا تتعقلون، ثم لأتم الإلزام بالقول والفعل رجعوا إلى قوتهم وبطشهم كما هو ديدن العاجز رجع إلى البطش عند انقطاع الحجة.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾: والقائل أولاً رجل من أكراد فارس من أمرائهم اسمه «حزن» و «هيزون» أو «هينون».

وقيل: نمرود، ثم رضوا به، فصاروا جميعًا قائلين، واختيار التحريق لأنه لا جريمة فى زعمهم أعظم من كسر الأصنام فينبغى أن يكون عقوبته أعظم العقوبات وهو الإحراق بالنار.

﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾: بتحريقه فإنه لا يضر لها غيره.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾: النصْر لها، فتحريقه هو النصْر.

روى محيى السنة فى معالم التنزيل وقال: وقال ابنى ـ ﷺ ـ إن الذين قالوا: هذا رجل من الأكراد وقيل: اسمه «هيزن» فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وقيل: قاله نمرود، فلما اجتمع نمرود وقومه لإحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ حبسوه فى بيت وبنوا بنيانًا كالحظيرة وقيل: بنوا «أتونًا» بقرية يقال لها: «كوتا» فى نواحى «بابل» بالعراق ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عافانى الله ـ عز وجل ـ لأجمعن حطبًا لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر فى بعض ما تطلب لئن أصابته لتحتطبن فى نار إبراهيم، وكان الرجل يوصى بشراء الحطب وإلقائه فيه، وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها وتلقيه فيها احتسابًا فى دينها.

قال ابن إسحاق: كانوا يجمعون الحطب شهرًا فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب فاشتعلت النار، واشتدت حتى إن كان الطير لتمر بها فتحترق من شدة وهجها فأوقد عليه سبعة أيام.

وروى: أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها فجاء إبليس فعلمهم عمل المنجنيق

فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيَّدوه ثم وضعُوه فى المنجنيق مُقَيَّداً مغلولاً فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة، أى: ربنا إبراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته، فقال الله ـ تعالى ـ: إنه خليلى ليس لى غيره خليل، وأنا إلهه ليس له إله غيرى، فإن استغاث بشىء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به، وأنا وليُّه فخلُّوا بينى وبينه، فلما أرادوا إلقاءه فى النار، أتاه خازن المياه، فقال: إن أردت أخمدت النار، وأتاه خازن الرياح، فقال: إن شئت طيرت النار فى الهواء، فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: لا حاجة لى إليكم، حسبى الله ونعم الوكيل.

وروى عن أبى بن كعب[1]: أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به فى المنجنيق إلى النار، واستقبله جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: سل ربك، فقال إبراهيم: حسبى من سؤاله علمه بحالى)[2].

---

(١) (أُبيّ بن كعب) بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك الأنصارى الخزرجى، أبو المنذر، ويقال أبو الطفيل المدنى، صحابى، توفى: سنة ١٩هـ، وقيل سنة ٣٢ (وقيل غير ذلك) بالمدينة، روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، شهد بدراً والعقبة الثانية، وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، نحيفًا أبيض الرأس واللحية لا يغير شيبه، قال هدبة بن خالد: حدثنا همام عن قتادة عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال لأبى بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن» قال: الله سمانى لك؟ قال: «نعم، الله سماك لى» قال: فجعل أبى يبكى، أخبرنا بذلك أبو العباس أحمد بن أبى الخير عن كتاب أبى الحسن مسعود بن منصور، قلت لأنس: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، ورجل من الأنصار يقال له: أبو زيد، إنا لندع بعض ما يقول أبى، وأبى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول... فلن أدعه لقول أحد، وقد نزل بعد أبى قرآن كثير، والله يقول: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية، وقال عبيد الله بن سعد الزهرى: مات قبل عثمان، وصلى عليه عثمان، سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين، روى له الجماعة، انظر الحافظ ابن حجر فى: «تهذيبالتهذيب» ١/ ١٨٨، المزى: تهذيب الكمال ١/ ٤٦٥ الترجمة رقم (٢٧٤).

(٢) حديث: (إن إبراهيم (عليه السلام) حين أوثقوه ليلقوه فى النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك =

قال كعب الأحْبَار[١]: (جعل كل شيء يطفئ عنه النار إلا الوزغ، فإنه كان ينفخ في النار)[٢].

= رب العالمين. . .) أورده العجلونى فى كتابه عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) هذه الروايات: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ذكره البغوى فى تفسيره سورة الأنبياء بلفظ، وروى عن كعب الأخبار أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة قال: أما إليك فلا، قال جبريل فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبى من سؤالي علمه بحالي. انتهى. وذكر البغوى فى تفسير ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ إن إبراهيم عليه السلام قال: حسبى الله ونعم الوكيل حين قال له خازن المياه لما أراد النمرود إلقاءه فى النار: إن أردت أخمدت النار، وأتاه خازن الريح فقال له: إن شئت طيرت النار فى الهواء فقال إبراهيم لا حاجة لى إليكم، حسبى الله ونعم الوكيل. انتهى.

انظر: العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس ١/ ٤٢٧ الحديث رقم (١١٣٦)

(١) (كعب الأحبار) بن ماتع الغرماء أبو إسحاق، وهو من حمير من آل ذى رعين، كان يهوديا، وقدم المدينة ثم خرج إلى الشام فسكن حمص، قال كعب الأحبار: ما كرم عبد على الله عز وجل إلا زاد البلاء عليه شدة، وما أعطى رجل زكاة فنقصت من ماله، ولا حبسها فزادت فى ماله، ولا سرق سارق إلا حسب له من رزقه. عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعب: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر دويا حول العرش كدوى النحل يذكرن بصاحبهن، والعمل الصالح فى الخزائن عن عبد الله بن الحارث عن كعب قال: ما استقر لعبد ثناء فى الأرض حتى يستقر فى السماء. . . عن أبى العوام عن كعب الأحبار، قال: جاء رجلان فوقفا بباب المسجد فدخل أحدهما ولم يدخل الآخر، وقال: مثلى لا يدخل بيت الله وقد عصيته، فأوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل إننى قد جعلته صديقا بإزرائه على نفسه، عن يزيد بن قودر عن كعب أنه قال: مؤمن عالم أشد على إبليس وجنوده من مائة ألف مؤمن عابد، لأن الله يعصم بهم من الحرام. . . عن عبد الله بن شقيق إذنه عن كعب قال: لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بوزنى ذهبًا، والذى نفس كعب بيده ما بكى عبد من خشية الله حتى تقع قطرة من دموعه إلى الأرض فتمسه النار أبدًا حتى يعود قطر السماء الذى وقع إلى الأرض من حيث جاء، ولن يعود أبدًا. عن علقمة بن مرثد عن كعب قال: من يعبد الله عز وجل حيث لا يراه خرج من ذنوبه كما يخرج من ليلته، أسند كعب عن عمر بن الخطاب وصهيب وعائشة، وتوفى بحمص سنة ثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان (رضي الله عنه).

انظر: ابن الجوزى: صفة الصفوة: ٤/ ٢٠٣ الترجمة رقم (٧٤٢).

(٢) حديث: (جعل كل شيء يطفئ النار إلا الوزغ...) أورد السيوطى فى الدر المنثور: أخرج أحمد والطبرانى، وأبو يعلى، وابن أبى حاتم، كلهم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: =

أخبرنا عبد الواحد المليحى، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن موسى وابن سلام عنه، أخبرنا ابن جريج[1]، عن عبد الحميد عن سعيد بن المسيب عن أم شريك[2] أن رسول الله - ﷺ - (أمر بقتل الوزغ وقال: كان ينفخ على إبراهيم)[3].

= (إن إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن فى الأرض دابة تطفئ النار عنه غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمر رسول الله (ﷺ) بقتله: وله روايات أخرى. انظر: السيوطى الدر المنثور: ٥/ ٦٣٨، ٦٣٩.

(والوَزَغُ): جمع: وَزَغَة، وهى دويبة صغيرة، والوزع جمعها: وزْغان والوَزْغُ: (بسكون الزاى) الارتعاش، وقال الدميرى: اتفقوا على أن الوزغ من الحشراب المؤذيات، وفى الحديث: (إن من قتل وزغة من أول ضربة فله كذا وكذا حسنة، ومن قتله فى الضربة الثانية فله كذا وكذا وكذا، دون الأولى، ومن قتلها فى الضربة الثالثة فله كذا وكذا. . .) الحديث.

انظر: الدميرى: حياة الحيوان الكبرى ٣٢٢ ابن منظور: لسان العرب: ٥/ ٤٨٢٦.

(١) **(ابن جريج)**: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم، أبو خالد، وأبو الوليد القرشى الأموى المكى، صاحب التصانيف، وأول من دوَّن العلم بمكة مولى أمية بن خالد، وقيل: كان جده جريج عبداً لأم حبيب بنت جبير زوجة عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد بن أسيد الأموى فنسب ولاؤه إليه، وهو عبد رومى، وكان لابن جريج أخ اسمه محمد لا يكاد يعرف، وابن اسمه محمد، حدث عن عطاء بن أبى رباح فأكثر وجود، وعن ابن أبى مليكة ونافع بن عمر وطاوس حديثًا واحدًا. فحدث عن زياد بن سعد شريكه، وجعفر الصادق، وزهير بن معاوية، وإبرهيم بن محمد بن أبى عطاء. حدث عنه ثور بن يزيد والأوزاعى والليث والسفيانان والحمادان وابن علية وابن وهب وخالد بن الحارث وهمام بن يحيى وغيرهم.

قدم عبد الملك بن جريج إلى العراق قبل موته وحدَّث بالبصرة وأكثروا عنه، قال ابن المدينى وأبو حفص الفلاس: مات ابن جريج سنة تسع وأربعين ومائة، وهذا وَهْمٌ فقد قال يحيى القطان ومكى بن إبراهيم وأبو نعيم وعدة: مات سنة خمسين ومائة، وعن ابن المدينى أيضا سنة إحدى وخمسين.

قلت: عاش سبعين سنة، فسنه وسن أبى حنيفة واحد ومولدهما وموتهما واحد.

انظر الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٢٥ الترجمة رقم (١٣٨).

(٢) **(أم شريك)**: امرأة أنصارية نجارية. عن قتادة أن النبى ﷺ قال: «إنى أحب أن أتزوج فى الأنصار، ثم إنى أكره غيرتهن قال: فلم يدخل بها، نعم وروى عروة بن الزبير عن أم شريك أنها كانت فيمن وهبت نفسها للنبى ﷺ انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٥٥ الترجمة رقم (٣٣).

(٣) حديث: إن رسول الله (ﷺ) أمر بقتل الوزغ، وقال: كان ينفخ النار على إبراهيم (عليه =

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

قال ابن عباس ـ ﷺ ـ: لو لم يقل سلامًا لمات إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بردها.

ومن المعروف فى الآثار أنه لم يبق يومئذ نار فى الأرض إلا طُفئت[1] فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم، ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبدًا.

قال السدى[2]:

= السلام) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/ ٦٣٩، ورواه مسلم من حديث ابن جريج، وأخرجه النسائى، وابن ماجه من حديث سفيان بن عُيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة.

انظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ١/ ١/ ١٤٧.

(١) حديث (لم يبق يومئذ فى الأرض نار إلاّ طفئت) بردها فلم يبق يومئذ نار فى الأرض إلا طفئت ظنت أنها تعنى، فلما طُفئت النار نظروا إلى إبراهيم فإذا هو رجل آخر معه، وإذا رأس إبراهيم فى حجره يمسح عن وجهه العرق، وذكر أن ذلك الرجل هو مَلَك الظل وأنزل الله نارًا فانتفع بها بنو آدم، وأخرجوا إبراهيم فأدخلوه على الملك ولم يكن قبل ذلك دخل عليه. عن كعب قال: ما أحرقت من إبراهيم إلا وثاقه، حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: ذكر لنا أن كعبًا كان يقول: ما انتفع بها يومئذ أحد من الناس، عن المنهال بن عمرو قال: قال إبراهيم خليل الله: ما كنت أيامًا قط أنعم منى من الأيام التى كنت فيها فى النار حدثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد قال: لما أُلقى إبراهيم خليل الله فى النار، قال الملك خازن المطر: رب خليلك إبراهيم رجا أن يؤذن له فيرسل المطر قال: فكان أمر الله أسرع من ذلك فقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فلم يبق فى الأرض نار إلا طفئت، حدثنا ابن حميد: قال ثنا جرير عن مغيرة عن الحارث عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال إن أحسن شىء قاله أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو فى النار وجده يرشح جبينه فقال ثم ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم. . . انظر الطبرى: ١٧/ ٤٤.

(٢) (السدّى) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة، الإمام المفسر أبو محمد الحجازى ثم الكوفى الأعور السدى أحد موالى قريش، حدث عن أنس بن مالك، وابن عباس، وعبد خير الهمدانى، ومصعب بن مسعد وعدد كثير، وحدث عنه شعبة وسفيان الثورى، وزائدة، وإسرائيل، والحسن بن حى، وآخرون، وورد عنه أنه رأى أبا هريرة والحسن بن على، قال النسائى: صالح الحديث، وقال أحمد بن حنبل: ثقة، وقال أبو زرعة لين، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه وقال ابن عدى: هو عندى صدوق، وقيل: كان السدى عظيم اللحية جدًا قال عبد الله بن حبيب بن أبى ثابت سمعت الشعبى، وقيل له إن إسماعيل السدى قد أعطى حظا من =

فأخذت الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب، وورد أحمر ونرجس.

قال كعب:

ما أحرقت النار من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا وثاقه، قالوا: وكان إبراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام.

قال المنهال بن عمرو[1]:

وقال إبراهيم: ما كنت أيامًا قط أنعم منى من الأيام التى كنت فى النار.

قال ابن يسار: وبعث الله ملكًا أنكل فى صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم ـ عليه السلام ـ يؤنسه، قالوا: وبعث الله ـ عز وجل ـ إليه جبريل بقميص من حرير من الجنة وطنفسة، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه جبريل ـ عليه السلام ـ يحدثه، وقال له جبريل: يا إبراهيم إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائى.

ثم نظر نمرود وأشرافه على إبراهيم من صرح له فرآه جالسًا فى روضة، والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه: كبّر إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين نارى، يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟.

قال: نعم.

= علم، فقال: إن إسماعيل قد أعطى حظا من الجهل بالقرآن من الشعبى، رحمهما الله، وقال سلم بن عبد الرحمن ـ شيخ لشريك مر إبراهيم النخعى بالسدى وهو يفسر فقال: إنه ليفسر تفسير القوم... قال خليفة بن خياط: مات إسماعيل السدى فى سنة سبع وعشرين ومائة...
قلت: أما السدى الصغير فهو محمد بن مروان الكوفى، أحد المتروكين، كان فى زمن وكيع.
انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٦٤ الترجمة رقم (١٢٤).

(١) (المنهال بن عمرو) الأسدى مولاهم الكوفى، روى عن أنس وأرسل عن يعلى بن مرة، وزر ابن حبيش، وعبد الله بن الحارث المصرى وزاذان سنان، وعائشة بنت طلحة وغيرهم، وروى عنه: محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، والأعمش، وشعبة بن الحجاج، وميسرة بن حبيب، وآخرون، وقال ابن معين والنسائى ثقة... وقال الدارقطنى صدوق... روى عنه أبو إسحاق السبيعى، قال أبو حاتم: إن لم يكن بالأسدى فلا أعرفه.
إنما يمكن أن يكون الأسدى إن كان أرسل عن ابن مسعود، فإن الأسدى لم يدركه وتكون رواية أبى إسحاق عنه من رواية الأكابر عن الأصاغر، روى له: البخارى والأربعة... انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب: ١٠/ ٢٥٣ الترجمة رقم (٥٥٦).

قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟.

قال: لا.

قال: فقم فاخرج منها.

فقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ يمشى فيهـا حتى خرج منها، فلما خرج إليه قال له: يا إبراهيم من الرجل الذى رأيتـه معك فى مثل صـورتك قاعـدًا إلى جنبك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله إلىَّ ربى ليؤنسنى فيها.

قال نمرود: يا إبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قربانًا لمـا رأيت من قدرته وعزته فيما يصنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده، إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة.

فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: إذًا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه إلى دينى، فقال: لا أستطيع ترك ملتى وملكى لكنـى سوف أذبحها له، ثم كف نمرود عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومنعه الله منه.

قال شعيب الجبائى[1]: ألقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى النار وهو ابن ست عشرة سنة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾: قيل: معناه أنهم خسروا السعى والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم.

وقيل: مـعناه أن الله أرسل على نمـرود وأهله وقومـه البعـوض فأكلت لحـومهم وشربت دماءهم ودخلت واحدة فى دماغه فأهلكته.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾: من نمرود وقومه من أرض العراق.

﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: يعنى الشام بارك الله فيها بالخصب، وكثرة الأشجار والثمار والأنهار ومنها بعث أكثر الأنبياء ـ عليهم السلام.

---

(١) (شعيب الجبائى) أخبارى متروك قاله الأزدى، حدث عنه: سلمة بن وهرام وجبأ جبل من أعمال الجند ظاهرا فكأنه شعيب بن الأسود صاحب الملاحم تابعى، قال إبراهيم بن خالد الصنعانى حدثنا رباح بن زيد حدثنى النعمان بن عبيد عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائى قال مكث ستة أشهر وأياما بنوح فوقفت السفينة بعرفة وباتت بالمزدلفة ثم جعلت تقف على الجمار وطافت به وسعت وعـلا الماء فوق أطول جبل فى الأرض مسيرة خمسة أشهر صعدا، قال رباح بـلغنى أن الشجرة التى عمل منهـا نبتت حين ولد نوح فكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها نحو ستين ذراعا. انظر الذهبى: ميزان الاعتدال: ٣/ ٣٨٣ (٣٧٣٦ ٤١٥٩).

وقال أبي بن كعب:

سماها مباركة لأنه ما من ماءٍ عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى، أخبرنا أبو الحسين بشيران، أخبرنا إسماعيل ابن محمد الصفار[١]، حدثنا أحمد بن منصور الرمادى[٢]، حدثنا أبو عبد الرزاق

---

(١) (إسماعيل بن محمد الصفّار): هو إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن صالح بن عبد الرحمن، أبو على، الصفار النحوى صاحب المبرد، سمع الحسن بن عرفة العبدى، وعبد الله بن محمد ابن أيوب المخرمى، وزكريا بن يحيى المروزى، وأحمد بن منصور الرمادى وغير هؤلاء من أهل طبقتهم وممن بعدهم. روى عنه محمد بن المظفر، والدارقطنى، وجماعة نحوهما، وحدثنا عنه أبو عمر بن مهدى وأحمد بن محمد المتيم وأبو عبد الله بن دوست ومحمد بن أحمد بن رزقويه وعبد العزيز بن محمد الستورى والحسين بن عمر بن برهان الغزال عن أبى الحسن الدارقطنى قال: إسماعيل بن محمد الصفار ثقة، صام أربعة وثمانين رمضانًا، قال: وكان متعصبًا للسنة، أخبرنى على بن أبى على أخبرنا محمد بن عمران المرزبانى أن أبا على إسماعيل بن محمد الصفار أنشده لنفسه:

إذا زرتكم لقيت أهلا ومرحبا ... وإن غبت حولا لا أرى لكم رسلا
وإن غبت لم أعدم إلا قد جفوتنا ... وقد كنت زوارًا فما بالنا نقلى
واخضع لله الذى هو خالقى ... ولا أعطى للمخلوق من نفسى الذلا

ولد فى سنة سبع وأربعين ومائتين.

وقيل: إن مولده كان فى ليلة الاثنين لليلتين خلتا من شهر رمضان من هذه السنة.

وتوفى سحر يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من المحرم سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، أخبرنا السمسار أخبرنا الصفار حدثنا ابن قانع أن إسماعيل الصفار مات فى يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ودفن مقابل قبر معروف الكرخى بينهما عرض الطريق دون قبر أبى بكر الآدمى وأبى عمر لصاحب، انظر الخطيب فى تاريخ بغداد ٦/ ٣٠٢ الترجمة رقم (٣٣٤٤).

(٢) (أحمد بن منصور الرمادى) بن سيار بن المبارك البغدادى الرمادى، أبو بكر، ولد سنة: ١٨٢هـ، أوساط الآخذين عن تبع الأتباع، وكانت الوفاة سنة: ٢٦٥هـ... روى له: ابن ماجه، قال ابن حجر: ثقة حافظ طعن فيه أبو داود لمذهبه فى الوقف فى القرآن... قال المزى فى «تهذيب الكمال»: كان قد رحل وأكثر السماع والكتابة وصنف المسند، وقال الدارقطنى: ثقة، وقال أبو الحسين ابن المنادى: مات يوم الخميس لأربع بقين من ربيع الآخر سنة خمس وستين ومائتين، وقد استكمل ثلاثًا وثمانين سنة، كان ميلاده فى سنة اثنتين وثمانين ومائة، وصلى عليه إبراهيم بن أرمة الأصبهانى... وقال الخليلى: ثقة، آخر من روى عنه =

أخبرنا معمر عن قتادة[1] أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال لكعب: ألا تتحول إلى المدينة وفيها مهاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبره؟ فقال كعب: (إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن كنز الله ـ عز وجل ـ من أرضه وبها كنزه من عباده).

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهرين، أخبرنا جد عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أخبرنا محمد بن زكريا الغذافرى، أخبرنا إسحاق الدبرى، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام)[2].

= من الثقات إسماعيل الصفار، وذكره ابن حبان فى «الثقات» وقال: كان مستقيم الأمر فى الحديث، روى عن: إبراهيم بن الحكم بن أبان العدنى، وأحمد بن محمد بن حنبل، وحجاج بن محمد المصيصى، وعبد الرزاق بن همام... روى عنه: ابن ماجه، والقاضى أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفار.

انظر: الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» ١/ ٨٤ والمزى: تهذيب الكمال: ١/ ٢٦٩ الترجمة رقم (٢٦٩).

(١) (قتادة): بن دعامة بن قتادة، ويقال: قتادة بن دعامة بن عكابة، السدوسى، أبو الخطاب البصرى، ولد ـ رحمه الله ـ سنة: ٦٠هـ أو ٦١هـ، توفى: سنة ١٠٠ وبضع عشرة هـ بواسط، روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، قال عنه ابن حجر: ثقة ثبت... قال المزى فى «تهذيب الكمال»: وقال عبد الرزاق، عن معمر: جاء رجل إلى ابن سيرين، فقال: رأيت حمامة التقمت لؤلؤة، فخرجت منها أعظم مما دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة فخرجت أصغر مما دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة فخرجت كما دخلت سواء، فقال له ابن سيرين: أما التى خرجت أعظم مما دخلت فذاك الحسن يسمع الحديث فيجوده بمنطقه ثم يصل فيه من مواعظه، وأمًّا التى خرجت أصغر مما دخلت، فذاك محمد بن سيرين ينتقص منه ويشك فيه، وأما التى خرجت كما دخلت فهو قتادة، وهو أحفظ الناس، وعن قتادة، قال: إعادة الحديث فى المجلس يذهب بنوره، وما قلت لمحدث قط أعد عليَّ، وما سمعت أذناى شيئًا قط إلا وعاه قلبى، وقال أحمد بن حنبل عن يحيى بن سعيد: مات سنة سبع عشرة أو ثمانى عشرة ومائة، وقال إسماعيل ابن علية: مات سنة ثمانى عشرة ومائة، روى له الجماعة... انظر الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» ٨/ ٣٥٥ والمزى: تهذيب الكمال: ١٥/ ٢٢٤ الترجمة رقم (٥٤٣٤).

(٢) حديث: (إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس...) عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: ثم لما جاءت بيعة يزيد بن معاوية قلت: لو خرجت إلى الشام فتنحيت من شر هذه البيعة، =

قال محمد بن إسحاق(١): استجاب لإبراهيم ـ عليه السلام ـ رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله ـ عز وجل ـ من جعل النار عليه بردًا وسلامًا على خوف من نمرود وملئه وآمن به لوط، وكان ابن أخيه.

= فخرجت حتى قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف فجئته فإذا رجل فاسد العينين عليه خميصة، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال له عبد الله: حدث بما كنت تحدث به، قال: أنت أحق بالحديث منى، أنت صاحب رسول الله ﷺ ، قال: إن هؤلاء قد منعونا عن الحديث ـ يعنى الأمراء ـ قال أعزم عليك إلا ما حدثتنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ، قال: سمعته يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، يجتاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها، تلفظهم أرضهم وتقذرهم أنفسهم، والله يحشرهم إلى النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف» قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتى من قبل المشرق يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال فى بقيتهم».

انظر: الحاكم فى المستدرك: ٤/ ٥٣٣ الحديث رقم (٨٤٩٧) الطبرى: التفسير: ٢٠/ ١٤٢، ابن كثير: التفسير: ٣/ ٤١٢ معمر بن راشد: الجامع فى آداب الراوى والسامع: ١١/ ٣٧٧ نعيم بن حماد: الفتن: ٢/ ٦٣٢.

(١) (محمد بن إسحاق): ابن يسار المدنى، أبو بكر، ويقال: أبو عبد الله، القرشى المطلبى مولاهم (نزيل العراق، إمام المغازى) روى له: البخارى فى التاريخ، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه، عند الذهبى: الإمام، كان صدوقًا من بحور العلم، وله غرائب فى سعة ما روى تستنكر، واختلف فى الاحتجاج به، وحديثه حسن، وقد صححه جماعة، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: وقال المفضل بن غسان الغلابى: سألت يحيى بن معين، عن محمد بن إسحاق، فقال: كان ثقة، وكان حسن الحديث، فقلت: إنهم يزعمون أنه رأى سعيد بن المسيب؟ فقال: إنه لقديم، وقال البخارى: رأيت على بن عبد الله يحتج بحديث ابن إسحاق، قال: وقال على عن ابن عيينة: ما رأيت أحدًا يتهم ابن إسحاق، وقال محمد بن سعد: كان ثقة، ومن الناس من يتكلم فيه، وكان خرج من المدينة قديمًا فأتى الكوفة، والجزيرة، والرى، وبغداد، فأقام بها حتى مات فى سنة إحدى وخمسين ومائة، وقال فى موضع آخر: كان أول من جمع مغازى رسول الله ﷺ ، وخرج من المدينة قديمًا فلم يرو عنه أحد منهم غير إبراهيم بن سعد، وكان محمد بن إسحاق مع العباس بن محمد بالجزيرة، وكان أتى أبا جعفر المنصور بالحيرة فكتب له المغازى فسمع منه أهل الكوفة بذلك السبب.

انظر: المزى: تهذيب الكمال ١٦/ ٧٠ الترجمة رقم (٥٦٤٤) وانظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٩/ ٤٥.

وهو: لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان لهما أخ ثالث يقال له: ناخور بن تارح وآمنت به أيضا سارة، وهى بنت عمه، وهى سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فخرج من «كورثا» من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى: ﴿ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي** ﴾ (العنكبوت: ٢٦).

فخرج يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهى برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة أو أقرب، فبعثه الله نبيًا فذلك قوله تعالى: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾. انتهى كلام محيى السنة.

﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾.

فهذا الكلام مثل قوله تعالى: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ** ﴾ (هود: ٤٤) حيث ذكر القول وأريد سبب أى الإرادة واستعيرت النار عن الماء المطيع استعارة بالكناية واستعير الأمر فى كونى للإرادة، واستعير الكون التكليفى للكون التكوينى، وجعل النار عين البرد والسلامة من قبيل:

*** إنما هى إقبال وإدبار ***

وخصصه بإبراهيم بقوله يا إبراهيم.

﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا** ﴾: فى إبطال أمر التوحيد وإعزاز الآلهة ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** ﴾: أخسر من كل خاسر ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا** ﴾: ابن أخيه هاران ﴿ **إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾: وهى أرض الشام، وبركتها الدينية لما بعث فيها من الأنبياء المتكررة وشرائعهم نعمة على العامة، وبركتها الدنيوية لما فيها من الخصب والرخاء فى كل زمان.

وروى ابن كثير: حدثنا هنا وهو أنه قال:

وفى الصحيحين من حديث هشام بن حسام[1] ...

---

(١) (هشام بن حسان) الأزدى القردوسى، أبو عبد الله البصرى روى له: البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه... قال ابن حجر: ثقة، من أثبت الناس عند =

عن محمد بن سيرين[1]، عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكذب غير ثلاث، اثنتين فى ذات الله تعالى: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (الأنبياء: ٦٣) وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩) وقال: وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذا نزل منزلاً فأتى الجبَّار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس فأرسل فجاء فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هى أختى، قال: اذهب فأرسل بها إلىَّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار سألنى عنك فأخبَرتُه أنك أختى فلا تكذبينى عنده، فإنك أختى وإنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى فلما أن دخلت عليه

= الذهبى: الحافظ، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: وقال أبو الحسن ابن البراء، عن على ابن المدينى: أما حديث هشام عن محمد فصحاح، وحديثه عن الحسن عامتها تدور على حوشب، وهشام أثبت من خالد الحذاء فى ابن سيرين، وهشام ثبت، وقال عباس الدورى عن يحيى بن معين: لا بأس به، قال أبو بكر بن أبى خيثمة عن يحيى بن معين، وأبو نعيم، وأبو بكر بن أبى شيبة: مات سنة ست وأربعين ومائة، وقال يحيى بن سعيد القطان ويحيى بن بكير: مات سنة سبع وأربعين ومائة، وقال مكى بن إبراهيم، والترمذى: مات أول يوم من صفر سنة ثمان وأربعين ومائة، وذكره ابن حبان فى «الثقات» وقال: مات سنة سبع أو ثمان، وكان من روى له الجماعة، قال الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» ١١/ ٣٦ والمزى: تهذيب الكمال ١٩/ ٢٤١ الترجمة رقم (٧١٦٦).

(١) (محمد بن سيرين) الأنصارى، أبو بكر بن أبى عمرة البصرى، مولى أنس بن مالك روى له: البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه. عند ابن حجر: ثقة ثبت كبير القدر، كان لا يرى الرواية بالمعنى، وعند الذهبى: ثقة حجة، أحد الأعلام، كبير العلم، قال المزى فى «تهذيب الكمال»: قال فضيل بن عياض: قلت لهشام بن حسان: كم أدرك الحسن من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم؟ قال: عشرين ومائة، قلت: فابن سيرين؟ قال: ثلاثين، وقال عبد الله ابن أحمد بن حنبل، عن أبيه: سمع من أنس وابن عمر وعمران بن حصين، وأبى هريرة، ولم يسمع من ابن عباس شيئًا، كلها يقول: نبئت عن ابن عباس، وقال أبو طالب: عن أحمد بن حنبل: محمد بن سيرين من الثقات، وقال إسحاق بن منصور، عن يحيى بن معين: ثقة، وقال العجلى: بصرى، تابعى، ثقة، وهو من أروى الناس عن شريح وعبيدة، وقال محمد بن سعد: كان ثقة مأمونًا، عاليًا، رفيعًا، فقيهًا، إمام، كثير العلم، ورعا، وكان به صمم، روى له الجماعة.

انظر: الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» ٩/ ٢١٦ والمزى: تهذيب الكمال: ١٦/ ٣٤٥ الترجمة رقم (٥٨٦٩).

فرآها فأهوى إليهـا فتناولها فأُخِذَ أخْذًا شديدًا فـقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فـأهوى إليها فـتناولها فأخـذ بمثلها أو أشـد ففعل ذلك الثـالثة فأخـذ مثل المرَّتـين الأوليين فـقال: ادعى الله لى فلا أضـرك، فدعت له، فـأرسل ثم دعى أدنى حُجَّـابه فقال: إنك لـم تأتنى بإنسان ولكنك أتيـتنى بشيطان أخرجـها وأعطهـا «هاجر» فأخـرجت، وأعطيت «هاجر» فـأقبلت فلما أحسَّ إبراهيم بمـجيـئها انتـقل من صلاته وقال: مهيم، قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخْدَمَنى هاجر)[1].

قال محمـد بن سيرين: فكان أبو هريـرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يا بن ماء السماء)[2]. انتهى.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾: ولدًا.

﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾: ولد ولد.

﴿ نَافِلَةً ﴾: أى عطية مصدر لوهبنا من غير لفظه ﴿ وَكُلاًّ ﴾: من الأربعة: إبراهيم ولوطًا وإسحـاق ويعقوب ﴿ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾: والصلاح استقـامة الأفعال والأقوال والأحوال.

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ بعد كمالهم فى أنفسهم.

﴿ أَئِمَّةً ﴾: مكملين لغيرهم.

﴿ يَهْـدُونَ ﴾: الناس ﴿ بِأَمْـرِنَا ﴾: فالهداية مأمورة واجـبة على من قدر لا يجوز تركها.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ ﴾: لأجل كمال أنفسهم وتكميل غيرهم.

﴿ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾: أصله أن نفعل الخيرات لأنه المشهور بعد الإيحاء أن مع الفعل

---

(١) قال ابن كثيـر: رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن على الفلاس عن عـبد الوهاب الثقفى، وأخرجاه من حديث هشام، ثم قال البزَّار: لا نعلم أسنده عن محمد عن أبى هريرة إلاَّ هشام، ورواه غيره موقوفًا ورواه الإمام أحـمد بن حنبل عن ورقاء بن عمر اليشكرى عن أبى الزناد عن الأعرج، وتفرد به أحـمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح، وقـد رواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج.

انظر تفاصيل تخريجه فى ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١/ ١٥١، ١٥٢.

(٢) هذه الرواية أوردها ابن كثير فى البداية والنهاية انظر ١/ ١/ ١٥٠.

ثم فعل الخيرات بالرفع، ثم فعل الخيرات بالجر، أى: فعلهم وفعل غيرهم وكذا قوله:

﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾: وإسقاط التاء فى إقامة لقيام المضاف مقامه.

﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ مستمرين فى جميع أعمارهم على العبادة فحكم الله ـ تعالى ـ بحصول الكمالات لهم كمالاً وتكميلاً.

صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين. آمين آمين.

مجلس فى:

بيان ابتلاء الله ـ تعالى ـ إبراهيم عليه السلام ـ بكلمات وإتمامه لها وفى بيان جعل البيت مثابة للناس ورفعه لقواعد البيت المكرم كله وبيان ما قال الله تعالى فى ست آيات من سورة البقرة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذ مجلس فى بيان ابتلاء الله ـ تعالى ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكلمات، وإتمامه لها، وفى بيان جعل البيت مثابة للناس ورفعه لقواعد البيت المكرم كله، وبيان ما قال الله ـ تعالى ـ فى ست آيات من سورة البقرة وهى قوله:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾: (إذ) ظرف لمقدر معطوف على قوله ﴿اذْكُرُوا﴾ فى قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾ (البقرة: ١٢٢) أى: واذكروا وقعة ابتلاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ والابتلاء هو الاختيار وهو طلب الخيرة.

---

(١) الآيات من الآية رقم (١٢٤) وحتى الآية (١٢٩) ونصها: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أى: المعرفـة والتعريف بما يجهل من حـال الشخص وهو لا يكون إلاَّ بالتكليف بأن يكلف المخبر الشخص الـمختبر بأمر ليظهر حاله عليه من الجـودة والرداءة وحقيقة محال عليه ـ تعالى ـ إذ لا مجهول له ـ تعالى ـ فيراد منه سبب اللازم وهو التكليف.

فالمعنى: كلف الله إبـراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿بِكَلِمَـاتٍ﴾: عظيمة الـكثيرة فى نفسها وقليلة بالنسبة إلى ما عند الله من التكليفات الغير محصورة.

والكلمة هى اللفظ الدال على معنى.

والمراد هنا الـمعنى ذكر الدال وأريد المـدلول فكلفه ـ تعـالى ـ بالسهـام الثلاثين المذكـورة فى سورة التوبة وسورة الأحـزاب وسورة «المؤمنون» وسورة المـعارج وهى الخصال المـحمودة التى يقال لها: سـهام الإسلام وهى التوبة، والعبـادة، والحمد فى السـراء والضراء، والسـياحـة فى طلب العلم أو الجهـاد والركوع والـسجـود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحفظ حدود الله، وهى تسع فى سورة التوبة: والإسلام والإيمان، والقنوت، والصدق والصـبر، والخشوع، والتصدق، والصـيام وحفظ الفرج وذكر الله كثيـراً، وهى عشر فى سورة الأحزاب، والخشـوع فى الصلاة والإعراض عن اللغو أو فعـل الزكاة، ورعاية العهد ورعـاية الأمانة والمحافظة علـى الصلاة فى سورة «المؤمنـون» والمداومة على الصـلاة وهى غيـر المحـافظة، لأن المحافظـة هى رعاية الأوقات بأن يصلى فى وقـته، والمداومـة على الصلاة رعاية نفس الصـلاة بأن لا يترك صلاة أصلاً وأداء الحق المعلوم فى ماله، مثل أداء ما يجب عليه من نفقة الأقارب وهو غير الزكاة وغير التصديق، إذ هو المندوب، والتصديق بيوم الدين والإشفاق من عذاب الله والقيام بالشهادة وهى خمس فى سورة المعارج، وقيل: المراد بالكلمات:

الخصال العشر التى هى على إبراهيم ـ عليـه السلام ـ كانت فرضًا وعلينا سُنُنًا فى أكثر الأوقات وهو الختان والاسـتحداد أى: حلق العانة، ونتف الإبط، وقلم الأظافير، والاستنجاء بالمـاء، وهى خمس فى البدن وخمس فى الرأس: المضمـضة والاستنشاق والسواك، وقـص الشارب وفرق الرأس، وقـيل: المراد بالكلـمات الصبـر على النار، والصبر على ذبح الولد والهجرة، والاستدلال على قومه بالكوكب والقمر والشمس.

وقيل: المراد مناسك الحج.

ويجوز أن يراد الجميع.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أى أداهن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حق الأداء وقام بهن حق القيام كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾ (النجم: ٣٧).

ولما ورد سؤال أنه ماذا قال ربه بعد هذا الأداء والكامل أجاب بقوله:

﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾: عامة إلى يوم القيامة.

﴿إِمَامًا﴾: قدوة يقتدون بك فى هذه الخصال إلى يوم القيامة فإقامته عامة مؤيدة، والإمام فعال بمعنى من يؤتم به كاللحاف، والرداء، والإزار، بمعنى ما يلتحف به، ويرتدى به، ويؤتزر به.

ولما ورد ما أجاب لربه أجاب:

﴿قَالَ﴾: إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾: عطف على الضمير المجرور فى جاعلك، وساغ ذلك وإن لم يكن الجار مع المجرور مضافًا إليه، ولم يجز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار لأن الإضافة لفظية وهى فى حكم الانفصال أو يقال لهذا العطف فى جواب المعطوف عطف التلقين فهو كعطف التلقين لأن التلقين على الله محال، فهو كقولك فى جواب من قال: سأكرمك وزيدًا، فجاز عطف ما فى كلام متكلم على ما فى كلام متكلم آخر وهو أبلغ من أن يقدر: واجعلنى ومن ذريتى، وإن سلم هذا من التكلفات المذكورة لأن فى العطف على الضمير المجرور نكات ثلاث: إفادة التحقيق فى المعطوف كالمعطوف عليه وإنابة خليل الله ـ عليه السلام ـ نفسه مناب ربه فى جعل ذريته إمامًا والتفادى عن سورة الأمر وإن كان للدعاء، والذرية فعلية أو فعولة من الذرء بمعنى الخلق، أى المخلوق، أو من الذرء بمعنى التفرق أى المتفرق تطلق على نسل الرجل وإن سفل أجاب ربه ودعاءه الضمنى على الأبلغ والصريح على غيره بمضمون قوله:

﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى﴾: أى وعدى بمعنى موعدى وهى الإمامة المفهومة من جاعلك.

﴿الظَّالِمِينَ﴾: أى الكافرين ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) إن فَسَّر الإمامة بالولاية مطلقًا وهى نفوذ القول على الغير فيعم الخليفة، والسلطان، والأمير، والقاضى، والخطيب، فنفاها عن الكفار.

وإن فسرت الإمامة بالنبوة فالظلم على إطلاقه وهو الكفر والفسق، لأن النبوة لا تنال الفاسق أيضًا.

وهذا التفسير على مذهب الإمام الأعظم[(١)]، وعلى مذهب الشافعى ـ رضي الله عنه ـ: الفاسق لا يكون إمامًا أصلاً بالمعانى المذكورة، وينعزل بالفسق، ومبنى الخلاف على أن أهل الولاية بالمعنى المذكور وشروطه خمسة عند الإمام الأعظم وهى: الإسلام، والحرية، والذكورة، والعقل، والبلوغ، فالمسلم الحر الذكر، العاقل، البالغ أهل للولاية[(٢)] صالحًا كان أو فاسقًا لكن تقليد الفاسق مكروه يأثم مقلِّده، وإن نفذ حكمه.

ودليله ما أجمع عليه من أن الأب الفاسق يتولى إنكاح صغيرته وما وقع من السلف من تقلد القضاء والخطبة من الأمراء الظالمين.

وعند الشافعى[(٣)] ـ رحمه الله ـ بعد هذه الشروط الخمسة العدالة أيضًا لشرط، لأن

---

(١) أى: على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان.

(٢) المقصود هنا بالولاية الظاهرة لا الولاية الباطنة فإن أمرها عظيم، وخطرها جسيم لا يصلح معها هذا الكلام، لأنها من الأسرار.

(٣) **(الإمام الشافعى رحمه الله)**: هو: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف القرشى المطلبى المكى نزيل مصر، إمام الأئمة وقدوة الأمة. ولد بغزة سنة خمسين ومائة، وحُمل إلى مكة وهو ابن سنتين، روى عن عمه محمد بن على، وأبى أسامة، وسعيد بن سالم القداح، وابن عيينة، ومالك، وابن عُلَيّة، وابن أبى فديك، وخلق، وعنه: ابنه أبو عثمان محمد، والإمام أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وأبو عبيد القاسم بن السرح، والمزنى، والربيع بن سليمان المرادى والربيع بن سليمان الجيزى وخلق كثير، قال ابن عبد الحكم لما حملت أم الشافعى به رأت كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر، ثم وقع فى كل بلد منه شظية، فتأوله أصحاب الرؤيا أنه يخرج عالم يخص علمه أهل مصر ثم يتفرق فى سائر البلدان، وقال أحمد: إن الله تعالى يقيض للناس فى رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن وينفى عن رسول الله ﷺ الكذب فنظرنا فإذا فى رأس المائة عمر بن عبد العزيز: وفى رأس المائتين الشافعى، وقال إسماعيل بن يحيى سمعت الشافعى يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر، وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعى يفتى وله خمس عشرة سنة، وكان يحيى الليل إلى أن مات، وقال أبو ثور: كتب عبد الرحمن بن مهدى إلى الشافعى ـ وهو شاب ـ أن يضع له كتابًا فيه معانى القرآن ويجمع قول الأخيار فيه وحجة الإجماع وبيان محمود والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة، قال ابن مهدى: ما أصلى صلاة إلا وأنا أدعو للشافعى فيها، وقال هارون بن سعيد الأيلى لو أن الشافعى ناظر على هذا العمود الذى هو من حجارة أنه من خشب لغلب، لاقتداره على المناظرة، وكان الحميدى يقول: حدثنا سيد الفقهاء الشافعى.

=

الفاسق لا يرحم نفسه فكيف يرحم غيره فـلا يكون الفاسق خليفة ولا سلطانًا ولا أميرًا ولا قاضيًا عنده، وينعزل إن لم يؤد إلى الفتنة عنده.

وقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة لدعائه، أبلغ إجابة لا رد له وتصديق له فى التبـعيض وبيان لمـا أجمل من البعض بأنه العـادلون، وينبّه على أنَّ من ذريته كـما ألهم كفـارًا أو فسـقة ونظر هذه الإجابة البـليغة قـول غنى يموت وقـد قيل له: أوصِ لبنيك: لا يرثنى أجنبى، فإنه يفيد كون المال لبنيه أبلغ إفادة ﴿وَإِذْ﴾: عطف على «إذ» المتقدم.

﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾: أى الكعبة لأن البيت المعرف علم الكعبة بحسب الغلبة، والمراد بالبيت الحرام كله.

﴿مَثَابَةً﴾: موضع ثوب أى رجوع أو ثواب.

﴿لِّلنَّاسِ﴾: أى لجنة يرجعون إليه بأعيانهم أو أمثالهم أو يثابون بحجه واعتماره.

﴿وَأَمْـنـًا﴾: موضع آمن على حـذف المضاف أو كأنه عين آمـن كرجل عدل من الغارات كقوله: ﴿حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(1)، ومن عذاب الآخرة بسبب الحج والعمرة.

وقيل: من الحدود والقصاص لأن الجان إذا دخله لا يؤخذ.

لكن عند الشافعى ـ رضي الله عنه ـ يضيق حتى يخرج فيؤخذ.

وعن أبى حنيفة ـ رضي الله عنه ـ لا يؤخذ إلا بعد الخروج باختياره.

﴿وَاتَّخِذُوا﴾: أمر هذه الأمة.

﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾: هو فى الأصل اسم للحجر الذى قام عليه عند غسل زوجه إسماعيل رأسـه أو عند ارتفاع البناء أو عند النداء إلى الحج، ويطلق على المكان الذى هذا الحجر فيه وهو المراد هنا.

= مات فى آخـر رجب سنة أربع ومائتـين، السيوطى: طبـقات الحـفاظ: ١/ ١٥٧ الترجـمة رقم (٣٣٦) وانظر المزى: تهذيب الكمال ١٦/ ٣٩ الترجمة (٥٦٣٥) وابن العماد: شذرات الذهب ٢/ ٩ - ١١ الذهبى: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٩ ابن قنفذ: كتاب الوفيات ١٥٥.

(١) هى الآية رقم (٦٧) من سورة العنكبوت ونصها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿مُصَلًّى﴾: موضع صلاة.

وهذه الجملة معترضة بين المعطوفين، أى جعلنا.

﴿وَعَهِدْنَا﴾: والواو للاعتراض كقوله:

إن الثمانين - وقد بُلِّغْتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وفائدته تأكيد كونه مثابة، أى: يرجع إليه للصلاة، روى أن النبى - ﷺ - أخذ بيد عمر - ﷺ - يوم الفتح فقال: (هذا مقام إبراهيم - عليه السلام - قال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أومر بذلك فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾)(١).

وعن جابر - ﷺ -: صلى فيه رسول الله - ﷺ - ركعتى الطواف)(٢) فالأمر للندب.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن مردويه عن جابر (ﷺ) أنه قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر ﷺ... الحديث، وأخرج الطبرانى والخطيب فى تاريخه عن ابن عمر (ﷺ) أن عمر (ﷺ) قال: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت... وأخرج عبد بن حميد، والترمذى عن أنس أن عمر قال: يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام؟ فنزلت وأخرج ابن أبى داود عن مجاهد قال: كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب (ﷺ): يا رسول الله لو نحيته إلى البيت ليصلى إليه الناس.... ففعل، وأخرج ابن أبى داود، وابن مردويه عن مجاهد قال: قال عمر (ﷺ): يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام... وأخرج ابن مردويه من طريق عمر بن ميمون عن عمر (ﷺ) أنه مرَّ بمقام إبراهيم (عليه السلام) فقال: يا رسول الله أليس نقوم مقام إبراهيم خليل ربنا؟ قال (ﷺ): «بلى» قال: أفلا نتخذه مصلى؟ وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده، والدارقطنى فى الأفراد عن أبى ميسرة قال، قال عمر (ﷺ) يا رسول الله...) فنزلت انظر: السيوطى: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/ ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) حديث (**صلى فيه رسول الله ﷺ ركعتى الطواف**) انظر ما أورده السيوطى فى الدر المنثور عن أبى هريرة (ﷺ) قال: إن رسول الله (ﷺ) لمَّا دخل مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين خلف المقام، يعنى يوم الفتح، وأخرج البخارى، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه عن عبد الله بن أبى أوفى (أن رسول الله (ﷺ) اعتمر فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين)، وأخرج الحميدى وابن النجار عن جابر بن عبد الله (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): (من طاف بالبيت سبعًا، وصلى خلف المقام ركعتين، وشرب من ماء زمزم، غُفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت).

انظر: السيوطى: الدر المنثور ١/ ٢٩٣، ٢٩٤.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾: أى أمرناهما، فإنَّ (عـهد إليه) يجىء بمعنى أمره. . . إن مصدرية أى بأن أو مفسرة.

﴿بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾: أى: الزوار وأكثرهم من الآفاق.

﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: أى: المجاورين المقيمين أو المعتكفين.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: أى: المصلين تسمية للكل باسم الجزء.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: فى دعائه حين وضع هاجر، وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ عند البيت وموضع مكة فى ذلك اليوم خراب ليس فيه أحد ولا ماء، فوجد عليهما فدعا بهذا الدعاء وبدعائه فى سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقصته على ما فى المعالم.

قال محيى السنة: أخبرنا عبد الواحد المليحى، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السحسك، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (أول ما اتخذ من النساء المنطق من قبل: أم إسماعيل ـ عليهما السلام ـ اتخذت منطقًا لتُعْفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ـ عليهم السلام ـ وهى ترضعه حتى وضعها عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فتبعته أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء، فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فقالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى إذا كان عند الثنية لا يرونه استقبله بوجهه ـ البيت ـ ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾[1]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب ذلك الماء حتى إذا فقد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتبلَّط،

---

(١) هذه هى الآية رقم (٣٧) من سورة إبراهيم ونصها: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

فانطلقت كراهية أن ننظر إليه فوجدت الصفـا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استـقبلت الوادى تنظر: هل ترى أحدًا، فـهبطت من الصفـا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعهـا ثم سعت سعى الإنسان المجهـول حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (فلذلك سعى الناس بينهما).

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فـقالت: صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمـعت أيضا فقالت: قـد أسمعت إن كان عندك غواث فـإذا هى بالملك عند موضع زمزم فَنَحِت بعـقبه أو قـال: بجناحه حتى ظـهر الماء، فـجعلت تحوطه ويقـول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عـباس ـ رضي الله عنهما ـ قـال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (يرحم الله أمَّ إسماعـيل لو تركت زمزم) أو قـال: (لو لم تغرف المـاء كانت زمزم عليـنا عينًا معـينًا) فشـربت وأرضعت ولدها، فقال لهـا الملك: لا تخافى الضيعة فإنه حـرمنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيـت مرتفعًا من الأرض كالرابـية تأتيه السيـول فتأخذ عن يمينـه وشماله، وكانت كذلك حـتى مرت بهم رفقة من جرهم وأهل بيت من جـرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء ولعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريـين فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم بالماء فـأقبلوا، وأم إسـماعيـل ـ عليه السلام ـ عند الـماء فقـالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم فى الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عـباس ـ رضي الله عنهما ـ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فـألفت بذلك أم إسماعـيل وكانت تحب الأنس).

فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا مـعهم حتى إذا كان لهـا أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العـربية منهم وكان أنفسهم وأعـجبهم حين شب فلمـا أدرك زوجوه امرأة منهم.

واستأذن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فقدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد ماتت هاجـر فذهب إلى إسماعيل فقال لأمرأته:

أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد، وكان إسماعيل ـ عليه السلام ـ يخرج من الحرم ليصيد، فقال لها إبراهيم ـ عليه السلام ـ: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندى، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له فليغير عتبة بابه وذهب إبراهيم ـ عليه السلام ـ فجاء إسماعيل ـ عليه السلام فوجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه، وقال: فما قال لك؟ قالت: قال: أقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه، قال: ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك، الحقى بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما شاء الله أن يلبث ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل ـ عليه السلام ـ فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فجاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى انتهى إلى باب إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجىء الآن إن شاء الله فانزل رحمك، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن واللحم وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، فدعا لها بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برًا وشعيرًا وتمرًا، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقى أثر قدميه عليه فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له قد استقام عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ أحسن الناس وجهًا وأطيبهم ريحًا وقال لى كذا وكذا وقلت له كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه فقال: ذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنت العتبة وأمرنى أن أمسكك)[١].

وروى عن سعيد بن جبير أيضًا عن ابن عباس ﷺ قال: لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً تحت دوحة قريبًا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر تعيننى

---

(١) هذه الرواية الطويلة لها استكمال فى الدر المنثور، وهى التى أخرجها أحمد، وعبد بن حميد، والبخارى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والجندى، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقى فى الدلائل عن سعيد بن جبير، وسعيد بن جبير عن ابن عباس (ﷺ).

انظر: السيوطى: الدر المنثور: ١/ ٣٠٤.

عليه، قال: أعينك، قال: إن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتًا فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى ارتفع البناء[(١)].

جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ على الحجر وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧).

وفى الخبر: الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا ما مسته أيدى المشركين لأضاء ما بين المشرق والمغرب، قالت الرواة:

إن الله ـ تعالى ـ خلق موضع البيت قبل الأرض بألفى عام فكانت زبدة بيضاء على الماء، فدحيت الأرض من تحتها فلمًا أهبط الله آدم ـ عليه السلام ـ إلى الأرض استوحش فشكى إلى الله ـ عز وجل ـ فأنزل الله ـ تعالى ـ البيت المعمور من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر له باب شرقى وباب غربى، فوضعه على موضع البيت وقال: يا آدم إنى أهبطت لك بيتًا فتطوف به كما تطوف حول عرشى، فتصلى عنده كما تصلى عند عرشى، وأنزل الحجر وكان أبيض فاسودَّ من لمس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيًا، وقيض الله ـ تعالى ـ ملكًا يدله على البيت فحج البيت وأقام المناسك فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا: بر حجك لقد حججنا يا آدم هذا البيت قبلك بألفى عام.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

حج آدم ـ عليه السلام ـ أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجلين، فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه وبعث جبريل ـ عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع السبب خاليًا إلى زمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم إن الله ـ تعالى ـ أمر إبراهيم بعدما ولد له إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ بناء بيت يذكر فيه، فسأل الله عن أن يبين له موضعه فبعث السكينة لتدله على موضع البيت وهى ريح خجوج لها رأسان يشبه الحية وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوفت السكينة على موضع البيت كتطوف الجحفة.

هذا قول على والحسن.

---

(١) انظر: السيوطى: الدر المنثور ١/ ٣٠٦.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

بعث الله ـ تعالى ـ سحابة على قدر الكعبة فـجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وافت مكة ووقفت على مـوضع البيت فنودى منها إبـراهيم أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص(١).

وقيل: أرسل الله ـ تعالى ـ جبريل ـ عليه السـلام ـ ليدله على موضع البيت فذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ (الحج: ٢٦).

فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه، وإسماعيل يناوله الحجر.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

إنما بنى البيت من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زينا ولبنان وهى جبال بالشام، والجودى وهو جبل بالحيرة، وبنيا قـواعده من حراء وهو جبل بمكة فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحـجر الأسود قال لإسـماعيل ـ عليـه السلام ـ ائتنى بحجـر حسن يكون للناس فأتاه بحـجر، فقال: ائـتنى بأحسن من هذا، فمـضى إسماعيل ـ عليـه السلام ـ يطلبه فصاح أبو قـبيس: يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها، فأخـذ الحجر الأسود فوضعه مكانه.

وقـيل: إن الله ـ تعالى ـ بنى فى السماء بيتًا وهو البـيت المعمور ويسمى ضراح، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة فى الأرض بحياله على قدره ومثله.

وقـيل: من بنى الكعبة آدم ـ عليه السـلام ـ واندرس زمان الطوفان، ثم أظهره الله لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى بناه.

انتهى كلام محيى السنة.

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ﴾: المكان الخالى عن العمارة والماء.

﴿ بَلَدًا ﴾: فطلب كون المكان العقر بلدًا وطلب كونه ﴿ آمِنًا ﴾: ذا أمن كعيشة راضية أو أمنا أهله، كقولهم: نهاره صائم.

وتعريف البلد فى سورة إبراهيم باعتبار التـصور أى اجعل هذا البلد المتصور لى، فيكون هذا الدعاء أيضًا قبل عمارته.

---

(١) أورد هذا الحديث السيوطى فى الدر المنثور وقال: أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن علىّ (رضي الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وسلم) انظر: الدر المنثور ١/ ٣٠٧.

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: فأجيب دعاؤه فإنه يوجد فيه الفواكه الصيفية والخريفية والشتوية في وقت واحد.

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

بدل البعض من أهله، قاس الخليل - عليه السلام - الرزق بالإمامة فخصه بالمؤمن فرده الله بعطف ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾: على ﴿مَنْ آمَنَ﴾ عطف تلقين.

فالسابق كان كعطف تلقين، وهذا عطف تلقين، وسببه أن الرزق تمتّع دنياوى يعم الكافر، بل البهائم ولا كذلك الإمامة.

﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾: أى: الكافر.

﴿قَلِيلاً﴾: تمتيعًا قليلاً أو زمانًا قليلاً أى: فى الدنيا.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ ألجئه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾: فى جهنم.

فإنه المتبادر بعد تعذيبه فى القبر، فلذا جاء بثم.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: عذاب جهنم.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾: حكاية حالة ماضية أى كان يوضع ﴿إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة بمعنى الثبات وهى الأساس ومن القعود بمعنى الثبات قعدك الله أصله، قعدتك الله تقعيدًا بمعنى سألت الله ثباتك سؤال ثبات، فأقيم المصدر مقام الفعل بعد حذفه، وحذف زوائده فصار قعدك الله بالكسر، معناه سألت الله ثباتك ومثله عمرك الله بالكسر، وأيدك الله بالكسر بمعنى عمرتك الله تعميرًا بمعنى سألت الله تعميرك، فحذف الزوائد وأقيم المصدر مقام الفعل، وأيدتك الله تأييدًا بمعنى سألت الله تأييدك كما مر.

﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾: حال من القواعد أى كائنة من البيت وإبهام القواعد ثم تبيينه بالحال للتفخيم.

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾: كان يناوله الحجارة فله يدخله فى البناء وقيل: كانا يبنيان كل على طرف من البناء أو على التناوب، قيل: كانت الأجبل الخمس: حراء بمكة، وطور سيناء بمصر، وطور زينا بالقدس، وجبل لبنان بالشام، والجودى بالجزيرة، تأتى إلى إسماعيل بالحجارة فيتناولها إسماعيل - عليه السلام - ويناولها إبراهيم - عليه السلام -

قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾: أى السعى فى البناء المذكور، وسائر أعمالنا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾: فتسمع دعاءنا ﴿الْعَلِيمُ﴾: فتعلم إخلاصنا ونيتنا فى البناء وغيره.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ منقادين.

﴿لَكَ﴾: أو مخلصين من أسلم وجهه.

والمراد طلب الزيادة أو الثبات فيه لأن أصله حاصل لكل نبى.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾: عطف على الضمير المنصوب فى اجعلنا أى واجعل بعض ذرياتنا ودعاءنا للبعض لعلمهما بأن اتفاق الكل على الحق فى كل قطر مخل بالحكمة وانتظام المعاش لقولهم: لولا الحمقى لخربت الدنيا.

وتخصيص الذرية بالدعاء لأن الشفقة عليهم أكثر ولأن فى إصلاحهم إصلاح العالم لأنهم الأئمة والمقتدون.

﴿أُمَّةً﴾: جماعة ﴿مُّسْلِمَةً﴾: منقادة أو مخلصة.

﴿لَّكَ وَأَرِنَا﴾: من رأى بمعنى أبصر وعرف فله مفعول واحد، وبالهمزة يتعدى إلى مفعولين لا الثالث.

﴿مَنَاسِكَنَا﴾: مواضع عباداتنا والنسك مثلثة وبضمتين العبادة.

وقيل: مذابحنا من النسيكة.

﴿وَتُبْ﴾: أى: ارجع بالرحمة، وتقبَّل التوبة.

﴿عَلَيْنَا﴾: من زلاتنا.

ومما تركه أولى وقيل: على أولادنا إما على حذف المضاف أو تصبيرًا بالآباء عن الأبناء وحقيقة التوبة على ما نقله الإمام عن الغزالى علم وحال وفعل، فالعلم هو العلم بعظم الذنب وهو الندم وهو المراد من الحال وهذا الحال تستلزم فعلاً فى الزمان الحاضر بترك الذنب وفى المستقبل بالعزم على أن لا يعود، وفى الماضى بتدارك ما فات إن أمكن كقضاء الصلوات ورد المظالم.

رزقنا الله التوبة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ﴾: كثير الرجوع بالرحمة وقبول التوبة على من تاب.

﴿الرَّحِيمُ﴾: برفع درجته وتوفيقه للصالحات.

﴿رَبَّنَا﴾: أى قائلين ربنا وهو تكرير للأول كان والمعطوف ما بعده وهو.

﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾: فى أهل مكة من ذريتهما.

﴿رَسُولاً﴾: عظيما شريفًا وهو محمد ـ ﷺ ـ إذ لم يبعث من ذريتهما غيره.

﴿مِّنْهُمْ﴾: ليكونوا أعرف بحاله وأفهم لكلامه.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾: وهى نظم القرآن المعجز الدال بإعجازه على صدق محمد ـ ﷺ ـ فيما أخبر عن الله ـ تعالى ـ فيدخل فيه كل مؤمن به، كأنهما أوحى إليهما بأن محمدًا ـ ﷺ ـ سوف يأتى بمعجز من جنس الكلام فلذا قالا ﴿يَتْلُو﴾ لأنه متعلق بالكلام.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: حقائق القرآن ومعانيه وأحكامه ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: أى: المعارف الإلهية المأخوذة من الكتاب لأنه لا ينطق عن الهوى بل كل ما يعلم وحى يوحى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: بواسطة التلاوة والتعليم عن الأخلاق الذميمة والأفعال القبيحة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾: القادر الغالب لا تغلب..

﴿الْحَكِيمُ﴾: تراعى الحكمة فى فعلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان بن عامر، سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: (دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى رأت أمى أنه يخرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام)(١).

والمراد أن أول من نوَّه بذكره وشهرته فى الناس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولم يزل ذكره فى الناس مذكوراً مشهوراً سائر حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسبًا وهو عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ حين قام فى بنى إسرائيل خطيبًا وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦) ولهذا قال فى هذا الحديث: دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم.

وقوله: (رأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت لها قصور الشام).

قيل: كان منامًا رأت حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم،

---

(١) حديث: (دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى...) أورد السيوطى فى الدر المنثور قال: أخرج أحمد، وابن سعد، والطبرانى، وابن مردويه، والبيهقى، عن أبى أمامة... الحديث.
انظر: الدر المنثور ١/ ٣٣٤ تفسير آية رقم (١٢٩).

وكان ذلك توطئة، وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا يكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها.

ولهذا جاء فى الصحيحين:

(لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك)[1].

وفى صحيح البخارى: (وهم بالشام).

وقال أبو جعفر الرازى: عن أبى الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ يعنى أمة محمد ـ ﷺ[2] ـ فقيل: قد استجيب لك وهو كائن فى الزمان وكذا قال السدى وقتادة[3] كذا ذكره ابن كثير فى تفسيره.

---

(١) حديث: **(لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق...)** قد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة» وفى رواية: «حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» وفى رواية: «حتى يقاتلون الدجال» وفى رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون» وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها.

انظر: رواية البخارى: الحديث رقم (٣٦٤٠) والإمام مسلم (١٩٢١) وشرح النووى على صحيح مسلم: ٢/ ١٣٢، وانظر ابن كثير: التفسير: ٣/ ٣٠٣ وانظر أيضًا: ابن كثير: التفسير أيضا: ٤/ ٢٨٦ وللحديث روايات أخرى بطرق مختلفة.

(٢) ورد فى الدر المنثور قال: أخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ يعنى أمة محمد... إلخ، انظر الدر المنثور ١/ ٣٣٤.

(٣) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى وذكره، انظر الدر المنثور ١/ ٣٣٤.

مجلس في:

بيان تأذين إبراهيم - عليه السلام - في الناس بالحج

في أربع آيات من سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس في بيان تأذين إبراهيم - عليه السلام - في الناس بالحج.

وقيل: هذا التأذين لمحمد - ﷺ - في سنة حجة الوداع.

في أربع آيات من سورة الحج[1].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾: أي: واذكر وقت بوأنا.

قال في الصحاح: بوأت للرجل المنزل، وبوأته المنزلة بمعنى، أي هيأت له المنزل.

فعلى هذا لا تكون اللام زائدة ولا مقدرة كما في الوجه الثاني، فالمعنى له هيأنا وعينا.

﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾: قال في القاموس[2]:

بوأت الرجل المنزل، وبوأت له أي: أنزلته فيه.

---

(١) الآيات من سورة الحج من رقم (٢٦) إلى الآية رقم (٢٩) ونصها: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

(٢) **(القاموس المحيط)**: للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي، المتوفى في شوال سنة ٨١٧ سبع عشرة وثمانمائة، قال في خطبته: وكنت برهة من الدهر ألتمس كتابًا =

فعلى هذا تكون اللام زائدة، وفى مكان البيت مقدرة ويجوز ذلك التقدير لأن لفظ مكان وإن كان معينًا محمول على الجهات الست المبهمة كقوله: جلست مكانك وهذه التهيئة كانت بإرسال الله ـ تعالى ـ ريحًا شديدة الهبوب فكنست أس البيت.

وقيل: أرسل الله ـ سبحانه ـ سحابة على قدر الكعبة فقامت بحياله الكعبة وفيها رأس ولسان يتكلم فقال: أين؟ فقال: ابن على ظلها..

وقيل: أرسل الله ـ تعالى ـ جبريل ـ عليه السلام ـ فعين له موضع البيت وكان قد نزل من ياقوتة حمراء من الجنة زمن آدم ـ عليه السلام ـ فطاف به آدم أربعين حجة من الهند ثم رفع أيام الطوفان، ثم بنى إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ على أسسه.

﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ﴾: «أن» مفسرة لأن بوأنا بمعنى استعبدناه أى: طلبنا منه العبادة بشىء ويقول هو: قلنا لا تشرك بى.

﴿شَيْئًا﴾: أى أخلص النية فى بناء البيت ولا تبن لغرض سوى رضائى.

ويجوز أن تكون مصدرية أى: بأن لا تشرك بى شيئًا.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: من الأوثان، والأقذار.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾: أى الزائرين.

﴿وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: أى: المصلين، عبر بأركان الصلاة أى القيام، والركوع والسجود عنها.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾: أكثر المفسرين على أنه أمر به إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقال الحسن: أمر به نبينا فى حجة الوداع، فأوردنا حديث حجة الوداع.

= جامعًا بسيطا ومُصَنَّفًا على الفُصَح والشوارد محيطًا، ولما أعيانى الطلاب شرعت فى كتابى الموسوم باللامع المُعلَم العُجاب الجامع بين المَحكم والعُباب غير أنّى خَمّنْتُهُ فى ستين سفرًا يعجز عن تحصيله الطلاب، فصرفت صوب هذا القصد عنانى وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزوائد، ولخصت كل ثلاثين سفرًا فى سفر، وضمنته خلاصة ما فى العباب والمحكم فأضفت إليه زيادات مَنَّ الله سبحانه وتعالى علىَّ بها وأنعم. وأسميته القاموس المحيط بذلك لأنه البحر الأعظم، وقال فى آخره: يسر الله تعالى إتمامه بمنزلى على الصفا المشرقة تجاه الكعبة المعظمة... وحوله كلام كثير مهم وشروح، ومختصرات أخرى انظر مقدمة القاموس طبعة دار الكتب ط٣ نسخه مصورة عن المطبعة الأميرية ١٩٧٧.

انظر كل ذلك فى: حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون: ٢/ ١٣٠٦.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - مكث بالمدينة تسع سنين لم يحج، ثم أذن فى الناس بالعاشرة: رسول الله - ﷺ - حاج، فقدم المدينة بشر كثير، فخرجنا معه حتى إذا أتينا ذا الحُليفة فولدت أسماء بنت عُميس محمد بن أبى بكر، فأرسلت إلى رسول الله - ﷺ - كيف أصنع؟ قال: اغتسلى واستشفرى بثوب وأحرمى، فصلى رسول الله - ﷺ - فى المسجد ثم ركب القصوى حتى إذا استوى بناقته على البيداء أهلّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك لا شريك له لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك)(١).

(١) حديث حجّة الوداع: (إن رسول الله ﷺ مكث بالمدينة تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس بالعاشرة...) قال أبو جعفر: ثم دخلنا على جابر بن عبد الله فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ فقلت: أنا محمد بن على بن الحسين بن على فأهوى بيده إلى زرى الأعلى وزرى الأسفل ثم وضع فمه بين ثديى وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: مرحبا بك يا ابن أخى، سل عما شئت، فينبغى وهو أعمى، وجاء وقت الصلاة فقام فى نساجه ملتحفًا بها، كلما وضعها على منكبيه رجع طرفها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب، فصلى، فقلت: أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ، فقال بيده فعقد تسعًا فقال: مكث رسول الله ﷺ تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس بالحج فى العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ فقال: اغتسلى واستشفرى بثوب وأحرمى، فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ثم ركب القصواء حتى استوت به ناقته على البيداء، فنظرت إلى مد بصرى من بين يديه من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، وخلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، فأهَلّ بالتوحيد، لبيك، اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، فأهَلّ الناس بهذا الذى يهلون به فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئًا، ولبى رسول الله ﷺ تلبيةً حتى إذا أتينا البيت معه. قال جابر: لسنا ننوى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فصلى فقرأ ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان أبى يقول: ولا أعلمه ذكره عن جابر عن النبى ﷺ أم لا قال كان يقرأ فى الركعتين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما أتى الصفا قرأ ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فوحَّدَ الله وكَبَّرهُ وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت، وهو على كل شىء =

....

= قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى قال عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى: يعنى فرمل، حتى إذا صعدنا مشى حتى إذا أتينا المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طواف على المروة قال: إنى لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أو لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه فى الأخرى فقال: دخلت العمرة فى الحج، هكذا مرتين، لا، بل لأبد أبدًا، لا بل لأبد أبدًا، وقدم علىٌّ ببدن من اليمن للنبى ﷺ فوجد فاطمة فيمن حلَّ ولبست ثيابًا صبيغا واكتحلت فأنكر علىٌّ ذلك عليها فقالت: إن أبى أمرنى، فكان علىٌّ يقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشًا على فاطمة فى الذى صنعت، مستفتيًا لرسول الله ﷺ فيما ذكرت، فأنكرت ذلك عليها، فقال: صدقت، ما فعلتَ حين فرضت الحج؟ قلت: اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك، قال: فإن معى الهدى فلا تحلل، قال: فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىٌّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ مائة بدنة، فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى، فلما كان يوم التروية وجه إلى منى فأهللنا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بمنًى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ثم مكث قليلا حتى إذا طلعت الشمس أمر بقبة من الشعر عملا له بنمرة، ثم ركب رسول الله ﷺ فسار لا تشك قريش إلا أنه واقف ثم المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية فى المزدلفة، فسار رسول الله ﷺ حتى إذا زاغت ـ يعنى الشمس ـ أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وأول دم وضع دماؤنا دم ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا فى بنى سعد فقتلته هذيل، وربا، الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله فى النساء، فإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وأنتم مسئولون عنى، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة فرفعها إلى السماء وينكتُها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثم أذَّن بلال بنداء واحد وإقامة، فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر، لم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب حتى وقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخيرات، وقال إسماعيل: إلى الشجرات، وجعل حبل المشاة بين يديه ثم استقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى أنه ليصيب رأسها مورك رحله. ويقول بيده اليمنى: السكينة السكينة، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان =

قال جابر ـ ﷺ ـ: لسـنا ننوى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة حـتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ فـقـرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البـقـرة: ١٢٥) فجـعل المقـام بينه وبين البيت)[1].

وفى رواية: أنه قرأ فى الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١) و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون: ١).

ثم رجع إلى الركن فـاستلمه، ثم خـرج من الباب إلى الصفـا فلما دنا من الصـفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨) أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقـبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له لـه الملك وله الحمد وهـو على كل شىء قدير لا إله إلا الله وحـده أنجز وعده ونصر عـبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك قـال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل ومشى إلى المروة حتى أنصبت قدماه فى بطن الوادى حتى إذا أصعد عليه مشى حتى أتى المروة ففـعل على المروة كما فعل على الصفا حـتى إذا كان آخر طوافه على

= وإقـامتـين، ثم اضطجع حتى إذا طلع ـ يعـنى الفجـر ـ صلى الفجـر بأذان وإقامـة، ثم ركب القصواء حـتى وقف على المشعر الحرام واستـقبل القبلة فدعا الله، وكـبَّره، وهلَّله، ووحده، حتى أسفر جـداً، ثم دفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عبـاس، وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما، فلما دفع النبى ﷺ مـر بالظعن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن فأخذ النبى ﷺ يده فوضعهـا على وجه الفضل، فحول الفضل رأسـه من الشق الآخر فوضع النبى ﷺ يده من الشق الآخر، حـتى إذا أتى محسر حرك قـليلا، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرجك إلى الجمـرة الكبرى، حتى إذا أتى الجمرة الـتى عندها الشجرة فرمى بسبع حـصيات يكبر على كل حصـاة من حصى الخذف ثم رمى من بطن الوادى ثم انصرف إلـى المنحر فنحر ثلاث وستين بيده ثم أعطى عليـا فنحر ما غبر، وأشركه فى بدنة، ثم أمـر من كل بدنة ببضعة فجُعلت فى قدر فطُبخت فأكلا من لحومها وشربا من مرقها، ثم ركب فأفاض إلى البيت فصلى الظهر بمكة، وأتى بنى عـبد المطلب وهم يستقـون من زمزم فقال: انزعوا بنى عـبد المطلب، فلولا يغلبنكم الناس على سقايتكم نزعت معكم، فـناولوه دلواً فشرب. . .) انظر تمام الحديث فى سنن الدارمى: ٢/ ٦٧ بـاب سنن الحـاج، الحـديث رقم (١٨٥٠) والحـديث له روايات أخرى.

(١) حـديث: (لسنا ننوى إلاَّ الحج، لسنا نعرف العـمرة حتى إذا أتينا البـيت معه...) انظر تخـريج الحديث السابق مباشرة ففيه تخريج هذا الحديث.

المروة فقال: لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسُق الهدى وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة، فقال سراقة بن مالك بن جعشم[1]، فقال: يا رسول الله إلعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله ـ ﷺ ـ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال: دخلت العمرة فى الحج ـ مرتين ـ لا بل لأبد آبد».

وقدم على من اليمن ببُدن النبى ـ ﷺ ـ فقال: ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: (اللهم إنى أهلٌ بما أهلَّ به رسولك، قال: فإن معى الهدى فلا تحل، قال: فكان جماعة الهدى.

قدم به على من اليمن والذى أتى بالنبى ـ ﷺ ـ مات قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى ـ ﷺ ـ ومن كان معه هدى، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب النبى ـ ﷺ ـ فصلى بها الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر نفسه من شعر تضرب له بنمرة فسار رسول الله ـ ﷺ ـ ولا تشك قريش إلا أنه وافق عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية، فأصابه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمِرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس بالقصواء، فرحلت له، فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال:

«إن دماءكم، وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا كل شىء فى أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث وكان مسترضعًا فى بنى سعد فقتله

---

(١) (**سراقة بن مالك بن جعشم**): ابن مالك بن عمرو بن مالك بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة المدلجى الغرماء أبا سفيان، من مشاهير الصحابة، كان ينزل قديدًا وهو الذى لحق النبى ﷺ وأبا بكر حيث خرجا مُهاجرَيْن إلى المدينة، وقصته مشهورة، روى عن النبى ﷺ وعنه جابر بن عبد الله وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وطاوس وعطاء وعلى بن رباح والحسن البصرى وابنه محمد بن سراقة وأخوه مالك بن مالك بن جعشم وابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم وغيرهم، قال ابن عبد البر وغيره مات فى صدر خلافة عثمان (سنة ٢٤هـ) قال: وقيل: إنه مات بعد عثمان **قلت**: رواية الحسن وطاوس وعطاء عنه منقطعة، روى له البخارى والأربعة: انظر ابن حجر تهذيب التهذيب: ٣/ ٣٩٦ الترجمة رقم (٨٥٤).

هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا عبَّـاس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتمـوهن بإذن الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكن عليهن ألاَّ يوطئن فرشكم أحـدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضـربًا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمـعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتـصمتم به: كتـاب الله، وأنتم تسألون عنى فمـا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهـد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة يرفعه إلى السماء وينزلها إلى الناس: اللهم اشهـد، اللهم اشهد، ثلاث مـرات ثم أذن بلال (رضي الله عنه) ثم أقام فصلى الظهـر، ثم أقام فصلى العـصر ولم يصل بينهـما شيئا ثم ركب حـتى أتى الموقف فـجعل بطن ناقـته القصـواء إلى الصحرات وجعل جـبل المشاة بين يديه، واسـتقبل القبلة فلم يزل واقـفًا حتى غربت الشـمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القـرص، وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المزدلفة فصـلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتـين، ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حـتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبـين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر حدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وأردف الفضل بن عـباس: حتـى أتى بطن محسـر فحرك قليـلاً ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج عـلى الجمرة الكبـرى حتى أتى الجمـرة التى عند الشجرة فـرماها بسبع حـصيات يكـبر مع كل حصـاة، مثل حصى الحـذف، ورمى من بطن الوادى ثم انصرف إلى المنحر فنحـر ثلاثًا وستين بدنة بيده (ﷺ) ثم أعطى عليها فنحـر ما غير وأشركـه فى هديه، ثم أمر من كل بدنة ببـضعـة فجُعلت فى قِـدْرٍ فطبخت فـأكلا من لحمها فشربا من مرقـها، ثم ركب رسول الله ـ ﷺ ـ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر فأتى عـلى بنى عبد المطلب يسقـون على زمزم فقال: نزعوا بنى عـبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقائكم لنزعت معكم فناولوه دلوًا فشرب منه)(١).

رواه مسلم من مشكاة المصابيح فى كتاب مناسك الحج فى باب قصة حجة الوداع.

فإن كان الأمر بالتأذين لإبراهيـم ـ عليه السلام ـ فقوله ﴿وَأَذِّن﴾: مـعطوف على ﴿لاَّ تُشْرِكْ﴾.

---

(١) حديث الحج رواه مسلم حديث الحج، الحديث له روايات أخرى.

وإن كان الأمر بالتأذين لنبينا ـ ﷺ ـ فهو معطوف على «اذكر» مقدراً، ويكون ذلك التأذين ما وقع فى حجة الوداع على ما سبق.

فلا إشكال فى وجود الناس والتأذين.

وعلى الأول فهو مشكل لأن الناس لم يكونوا حينئذ موجودين فلا يوجد التأذين.

فقيل: لما أمر خليل الله بالتأذين قال: يا رب وكيف أبلغ ولا ناس هنا؟ قال تعالى: منك النداء ومنى الإبلاغ فصعد على جبل أبى قبيس.

وقيل: قام على الحجر فقال: أيها الناس، بنى ربكم بيتًا فحجوا بيت ربكم، فأجاب الأرواح أى الأرواح من قدر لهم الحج وهو المعنى من قول المفسرين من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات بقوله: لبيك اللهم لبيك.

وقيل: تكرر الجواب مراراً فقال الله: هذا الجواب نشأ من أرواح من قدر لهم الحج من أمة محمد ﷺ والتكرير ممن يتكرر حجهم.

وهذا لا يبعد فجاز من الرسول فيكون معجزة.

ومعنى: «فأذن فى الناس بالحج» تأذن فى مجمعهم بأمر الحج والدعوة إليه بأن قل حجوا بيت ربكم، والتأذين الصادر من نبينا ـ ﷺ ـ فى حجة الوداع امتثالاً لأمر ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾: أى على تقدير كونه أمر له فظاهر وأما على تقدير كونه أصل لإبراهيم، فلقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

﴿يَأْتُوكَ﴾: جواب الأمر، أى إن تؤذن يأتوك، أى يأتى الناس بيتك الذى بنيت فكأنه أتوك لأن العادة إتيان الناس إلى الداعى.

﴿رِجَالاً﴾: جمع راجل كقيام وقائم، وتقديمه على الركبان يدل على فضله.

ولذا قال النبى ـ ﷺ : (للماشى فى كل خطوة سبع مائة حسنة والراكب سبعون من حسنات الحرم كل حسنة بمائة ألف حسنة)(١).

لكن فضل المشى عند القرب من مكة قصد البعد الركوب أفضل كما سيجىء.

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور قال: أخرج ابن سعد، وابن مردويه، والضياء فى المختارة، كلهم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة، وللماشى بكل قدم سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة مائة ألف حسنة. انظر الدر المنثور: ٦/ ٣٦.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: أى: راكبين على كل ضامر من الإبل.

وضامر من ضمر ضموراً، أى: هزل هزالاً، وإنما قيد الركوب بالضمور لأنه صفتها وهو قوله:

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾: تدل عليه، أى طريق واسع وأصله الطريق بين الجبلين فاتسع فيه واستعمل على العموم.

﴿عَمِيقٍ﴾: أى: بعيد مأخوذ من العمق، فإن الأرض كرية الشكل على ما بيّن فى علم الهيئة وبينه بعض المفسرين فى قوله تعالى: فى سورة البقرة: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ (البقرة: ٢٢).

والقاعدة أن كل نقطة من الكرة إذا أخذت كانت أرفع من جميع أجزاء الكرة (فمكة) شرفها الله عند اعتبارها تكون أرفع من جميع أجزاء الأرض فيكون الطريق إليها كان يخرج من قعْر البئر.

وجميع «يأتين» وإن كان موصوفه وهو كل ضامر مفرد، لأن كلمة كل لمَّا أحاطت الإفراد فصار كل ضامر فى معنى الجمع، وإسناد الإتيان إلى الإبل دون الراكبين لأنها أصل فى الإتيان لها أولا بالذات وللراكبين ثانيًا، وبالعرض، وتقييد الإتيان بقوله ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يدل على أن الركوب للبعيد أفضل.

﴿لِيَشْهَدُوا﴾: علة للإتيان.

﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾: أى: منافع دينية، ودنيوية، فللتَّعظيم والتكثير نكرت.

أما الدينية: فظاهرة لأن الحج المبرور لا جزاء له إلا الجنة، ويخرج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمهُّ[1] على ما ورد فى الأحاديث.

وأما الدنيوية: فثناء الخلق، وقبولهم له والبركة فى ماله ببركته والتجارة، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨) وزيارة الإخوان، ولفرج البلدان إلى غير ذلك من الفوائد.

---

(١) انظر مثلا إلى حديث (من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) فى أحاديث للبخارى: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن منصور عن أبى حازم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) انظر صحيح البخارى: ٢/ ٦٤٥ الحديث رقم (١٧٢٣، ١٧٢٤)، ٢/ ٥٥٣ الحديث رقم (١٤٤٩).

﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾: بأن يقولوا: باسم الله، والله أكبر اللهم منك ولك ﴿ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾: هى عشر ذى الحجة عند جميع العلماء منهم أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لأن من النافع المشهور وقوف عرفة وطواف القدوم والسعى عنده وغير ذلك فى المناسك وهى فى العشر.

فيتعلق ﴿ فِي أَيَّامٍ ﴾ بالفعلين أى: يشهدوا ويذكروا، وعند جمع منهم صاحب أبى حنيفة: أيام النحر، لأن الذبح والنحر فيها، فيتعلق ﴿ فِي أَيَّامٍ ﴾: بيذكروا فقط.

﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾: أى الله.

﴿ مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾: بيان لما.

والبهيمة كل ذات أربع من القوائم، والأنعام الأزواج الثمانية «من الإبل اثنين» أى: ذكر وأنثى، «ومن البقر اثنين»[١] «ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين»[٢].

وإضافة البهيمة إلى الأنعام بيانية بمعنى من ولا يلزم فى هذه الإضافة العموم والخصوص من وجه بين المضافين كما هو المشهور فى كتب النحو.

لأنه قال المحقق الرضى: ولنا أن نقول: إن الإضافة فى نحو جميع القوم، ويوم الأحد بمعنى «من» لأن المجرور بمن المبينة لا يشترط وقوعه على غير المبين أيضًا كما فى قوله تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ (الحج: ٣٠).

فنقول: إنما يصح إطلاق اسم المضاف إليه فيه على المضاف فهو بمعنى من، ولا يعتبر الجنس كما اعتبره المصر. انتهى كلامه.

فيوم الأحد بمعنى يوم من الأحد، وبهيمة الأنعام بمعنى بهيمة من الأنعام، فإضافة العام المطلق مثلاً للبهيمة إلى الخاص المطلق أى الأنعام تكون بيانية لأن الأنعام تطلق على البهيمة فوجد الشرط وهو وقوع المضاف إليه على المضاف فاندفع الإشكال الوارد هنا فذكر اسم الله على البهيمة كناية عن نحرها وذبحها لأن المسلم لا ينفك عن ذكر

---

(١) الآية رقم (١٤٤) من سورة الأنعام ونصها: ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

(٢) الآية رقم (١٤٣) من سورة الأنعام ونصها: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

اسمه عند الذبح، فكان ذكر اسم الله عند الذبح لازمًا مساويًا للذبح، فوجد شرط الكناية والكفاية أبلغ من التصريح وفى هذا الكفاية إشارة وتلويح إلى أن المقصود الأصلى من الذبح ذكر اسمه - تعالى - وإن كان فيه فوائد أخرى من الأكل والإطعام والادخار، وإيماء إلى أن المقصود الأصلى فى جميع مناسك الحج من الوقوف بعرفة والطواف والسعى الذكر أيضًا، فلأجل كون مطلق الكناية أبلغ، ولهذا التلويح والإيمان المذكورين أصابت الكناية هنا نحرها والبلاغة موقعها، وفى قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾: تهوين الأمر على الذابح وترغيب فى الذبح لأن المذبوح حقيقة ملك الله لا ملكه فالتجارة فى مال الغير تهون على كل واحد.

وفى إبهامه بكلمة (ما) وتبينه بقوله: ﴿مِّنْ بَهِيمَةِ﴾ تفخيم لأمر المذبوح، وإجمال وتفصيل فيكون أوقع فى النفس.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: أيها الذابحون، التفت بالخطاب بعد الغيبة فى ﴿وَيَذْكُرُوا﴾ للاهتمام بأمر الأكل، فإن الكفار فى الجاهلية كانوا يخرجون عن أكل الهدايا مطلقًا، فأباح الله للمؤمنين الأكل من هدى التطوع والأضحية، ودم القران والتمتع.

وهذا فى مذهبنا، وعند الشافعية من الأولين فقط فالأمر لما كان بعد الخطر كان للإباحة على ما عرف فى أصول الفقه مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ (المائدة: ٢) وقيل: الأمر للندب؛ لأن فى الأكل المساواة مع الفقراء والتواضع.

﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾: ذا البؤس، أى: الشدة.

﴿الْفَقِيرَ﴾: ضعيف الحال مواساة لهم.

فتنقسم الهدايا على هذا قسمين: للأكل والإطعام، لكن ورد التثليث، والقسم الثالث: الادخار.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا﴾: أمر للغائب التفاتًا بعد أمر المخاطب رفعًا لشأنهم، وإجلالاً بمكانهم، أى: لبعض هؤلاء الأكابر المبجلين بعد الوقوف، وسائر الأعمال الحجية فى الأيام العشرة فهذا التفسير أى بالأيام العشرة أولى، وبعد الذبح والنحر يوم خصوصًا.

﴿تَفَثَهُمْ﴾: أى إزالة تفثهم أى: درنهم ووسخهم، فالمضاف، أى: إزالة محذوف، وهذه الإزالة بحلق الرأس وقص الشارب، ونتف الإبط وحلق العانة.

وكلمة ثم للتراخى الرتبى لأن هذه الأوامر من معظمات أمور الحج خصوصًا طواف الزيارة، فإنه ركن.

﴿وَلْيُوفُوا﴾: وليؤدوا، أمر أيضا.

﴿نُذُورَهُمْ﴾: الموجبة التى وجبت عليهم بإحرامهم، والتزامهم الحج أشبهت المنذورات لمدخلية الفعل أى الإحرام والالتزام.

وقيل: المراد المنذورات من أعمال البر فى الحج أى إن وجدت فليوفوها.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾: أمر أيضًا، والمراد بهذا الطواف طواف الزيارة فلكونه ركنًا بالغ فيه بصيغة التفعل التى للتكليف، أى: ليطوفوا مع الاهتمام التام فى أيام النحر.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: أى: القديم لأنه أول بيت وضع للناس للعبادة، أو الكريم من عتاق الخيل والطير، أو المعتق من الطوفان، أو من أيدى الجبابرة، وكم من جبار قصده لهدمه وقصمه الله.

وأما تسلط الحجاج[١] الظالم فلعدم قصده بالبيت بل بعبد الله بن الزبير[٢] لأنه

---

(١) (الحجاج) بن يوسف الثقفى، المشهور، تكرر ذكره فى المختصر والمهذب والوسيط والروضة، وهو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب الثقفى... قال ابن قتيبة: هو من الأجلاف، قال: وكان أخفش دقيق الصوت، وأول ولاية وليها تبالة ـ بمثناة فوق مفتوحة ثم باء موحدة مخففة ـ فلما رآها احتقرها فتركها، ثم تولى قتال ابن الزبير ﷺ فقهره على مكة والحجاز، وقتل ابن الزبير وصلبه بمكة سنة ثلاث وسبعين فولاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنين، وكان يصلى بالناس ويقيم لهم الموسم، ثم ولاه العراق وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فوليها عشرين سنة وحطم أهلها وفعل ما فعل، وتوفى بواسط ودُفن بها وعفى قبره وأجرى عليه الماء، وكان موته سنة خمس وتسعين. اهـ. انظر: النووى: تهذيب الأسماء: ١/ ١٥٧ الترجمة رقم (١١٣).

(٢) (عبد الله بن الزبير) ابن العوام بن خويلد بن أسد القرشى الأسدى أبو بكر، ويقال أبو خبيب المدنى... وأمه: أسماء بنت أبى بكر الصديق... وكان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة فى قريش، هاجرت به أمه حملا فولد بعد الهجرة بعشرين شهرًا، وقيل: إنه ولد فى السنة الأولى من الهجرة، وبايع رسول الله ﷺ، وتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن ثمانى سنين وأربعة أشهر، وكان فصيحًا ذا لسن وذا شجاعة وقوة، وكان أطلس لا لحية له ولا شعر فى وجهه، روى عن النبى (ﷺ)، وعن أبيه الزبير بن العوام، وسفيان بن أبى زهير، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعمر بن الخطاب، وجده أبى بكر الصديق، وخالته عائشة أم المؤمنين... وروى عنه: بشير ـ شيخ لسفيان الثورى، وثابت البنانى، وأبو الشعثاء جابر بن =

كان تحصن بـه، فاحتال فى إخراجـه لا فى هدم البيت، لأنه كان مسلمًـا، لكن ظالمًا انتقص حرمة الله، قاتله الله.

وفى ذلك عند الله جزاؤه.

عن أبى نوفل معاوية بن مسلم[١] قال: (رأيت عبد الله بن الزبير على عتبة المدينة قال: فجعلت قريش تمر عليه والناس حتى مر عليه عبد الله بن عمر فوقف عليه، فقال: السلام عليك أبا حبيب، السلام عليك أبا حبيب، السلام عليك أبا حبيب، أما والله لقد كنت أنهـاك عن هذا، أما والله لقـد كنت أنهاك، أمـا والله إن كنت ما علمت صـوامًا، قوامًا وصولاً للرحم أما والله لأمة أنت شرها لأمة سوء، وفى رواية: لأمة خير.

ثم بعُد عبد الله بن عمر فبلغ الحجاج موقف عبد الله.

وقوله: فـأرسل إليه، فأنزل عن جـذعة فألقى في قـبور اليهـود ثم أرسل إلى أمّه أسمـاء بنت أبى بكر[٢] - ﵄ - فأبت أن تأتيه فأعاد عليـها الرسول لتأتينى أو لأبعثن

= زيد، والحسن بن عثـمان بن عبد الرحمن بـن عوف، وابنته أم عمرو بنت عـبد الله بن الزبير، وحضر وقعة اليرموك مع أبيه الزبير بن العوام، وشهد خطبة عمر بالجابية وبويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن مـعاوية سنة أربع، وقيل: سـنة خمس وستـين، وغلب على الحجاز والعـراقين واليمن ومصر وأكـثر الشام، وكانت ولايته تسع سنين، وقتله الحـجاج بن يوسف فى أيام عبد الملك بن مروان، قال الحـسن عن ضمرة بن ربيعة وأبـو نعيم قتل سنة اثنتين وسبـعين، وقال سفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد وأحـمد بن حنبل وغير واحد: قُتل سنة ثلاث وسبعين، وقال الواقدى وخليفة بن خياط وعمرو بن على: قتله الحجاج، وصلبه بمكة يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسـبعين، وقال يحيى بن بكير: كان أكـبر من المسور بن مخـرمة ومروان بن الحكم بأربعـة أشهر، روى له الجمـاعة، انظر: المزى: تهـذيب الكمال: ١٤/ ٥٠٨ الترجمة رقم: (٣٢٦٩)..

(١) (أبو نوفل معاوية بن مسلم): معاوية بن مسلم بن أبى عقرب أبو نوفل، ويقال: اسم أبى نوفل ابن أبى عقرب: عمـرو بن مسلم بن أبى عقرب، نا عبد الرحمن قـال: سمعت أبى وأبا زرعة يقولان: اسـمه مـعاوية بن مسلم بن أبى عـقرب، وكـذلك قاله أحمـد بن حنبل روى عن ابن عباس، وعـائشة (﵄)، وأبيه، وروى عنه: علي بن زيد بن جـدعان، والأسود بن شيـبان، سمعت أبى يقول ذلك، نا عبد الرحمن، قـال: ذكره أبى عن إسحاق بن منصور عن يحيى بن معـين أنه قال: أبو نوفل بن أبى عقـرب ثقة. انظر: الجرح والتـعديل ٨/ ٣٧٩ الترجـمة رقم (١٧٣٥).

(٢) (أسـماء بنت أبى بكر) عبد الله بن أبى قحـافة... وأم عبد الله القرشيـة التيـمية المكية ثـم =

إليك من يسحبك بقرونك، قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني، قال: فقال: أروني سبتي فأخذ نعليه ثم انطلق حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتني منعت بعد والله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك.

بلغني أنك تقول لـه: يا بن ذات النطاقين أنا والله ذات النطاقين أحـدهما: فكنت أرفع طعام رسول الله (ﷺ) وطعام أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ من الدواب، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه أما إن رسول الله ـ ﷺ ـ حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلاَّ إيَّاه)[1].

وقال: فقام عنها فلم يرجعها. رواه مسلم.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (في ثقيف كذاب ومبير)[2].

= المدنية، والدة الخليفة عبد الله بن الزبير، وأخت أم المؤمنين عائشة، وآخر المهاجرات وفاة... روت عدة أحاديث وعَمَّرت دهرًا وتُعرف بذات النطاقين، وأمها هي قُتيلة بنت عبد العزى العامرية... حدث عنها ابناها عبد الله وعروة، وحفيدها عبد الله بن عروة، وحفيده، عباد بن عبد الله وابن عباس وأبو واقد الليثي وصفية بنت شيبة وعدة وكانت أسن من عائشة ببضع عشرة سنة، هاجرت حاملا بعبد الله، وقيل لم يسقط لها سن، وشهدت اليرموك مع زوجها الزبير، وهي وأبوها وجدها وابنها ابن الزبير أربعتهم صحابيون، كانت أسماء أكبر من عائشة بعشر، قالت صنعت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي حين أراد أن يهاجر فلم أجد لسفرته ولا لسقائه ما أربطهما فقلت لأبي ما أجد إلا نطاقي قال شقيه باثنين فاربطي بهما، قال: فلذلك سُميت ذات النطاقين، وعن أسماء قالت: لما توجه النبي ﷺ من مكة حمل أبو بكر معه جميع ماله خمسة آلاف، أو ستة آلاف فأتاني جدي أبو قحافة وقد عَمِيَ، فقال: إن هذا قد فجعكم بماله ونفسه، فقلت: كَلاَّ، قد ترك لنا خيرًا كثيرا، فعمدت إلى أحجار فجعلتهن في كوة البيت وغطت عليها بثوب ثم أخذت بيده ووضعتها على الثوب فقلت: هذا تركه لنا، فقال: أما إذ ترك لكم هذا فنعم... انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٨٧ الترجمة رقم (٥٢).

(١) حديث: (**رأيت عبد الله بن الزبير على باب المدينة...**) رواه مسلم، انظر أيضًا بالإضافة إلى رواية الإمام مسلم رواية إبراهيم بن محمد الحسيني: البيان والتعريف: ١/ ٢٤٠ ابن حجر العسقلاني: الوقوف على الموقوف: ١/ ١٢٦ الحديث رقم (١٦٧)

(٢) حديث: (**في ثقيف كذاب ومبير**) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: في ثقيف كذاب ومبير، قال أبو عيسى يقال: الكذاب المختار بن أبي عبيد، والمبير: الحجاج بن يوسف، حدثنا أبو داود سليمان بن سلم البلخي، أخبرنا النضر بن شميل عن هشام بن حسان قال: =

فقال عبد الله بن عصمة: يقال: الكذاب هو (المختار بن أبى عبيد)[1] والمبير هو الحجاج بن يوسف.

وقال هشام بن حسان: احصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا.

رواه الترمذى من مشكاة المصابيح فى باب مناقب قريش، وذكر القبائل.

(١) (المختار بن أبى عبيد الثقفى) قال الذهبى فى كتابه: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال: ٦/ ٣٨٥ المختار ابن أبى عبيد الصقفى الكذاب لا ينبغى أن يروى عنه شىء، لأنه ضال مضل كان يزعم أن جبرائيل عليه السلام ينزل عليه، وهو شر من الحجاج أو مثله.
انظر: ميزان الاعتدال الترجمة رقم (٨٣٨٤/ ٨٣١٩).

مجلس فى:

بيان قصة ذبح إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ابنه الذبيح

فى خمس عشرة آية من سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان قصة ذبح إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ابنه الذبيح فى خمس عشرة آية من سورة الصافات[1] فذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ﴾: إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعدما وقع من أمر كسره الأصنام وإلقائه فى النار.

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾: وفى إيقاع الذهاب على قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ مجاز عقلى، فإن المجاز العقلى لا يختص بالإسناد على ما هو الظاهر من تعريفه، بل قد يوجد فى الإضافة، وفى النِّسْبة الإيقاعية على ما حققه التفتازانى فى شرح التلخيص فى حقيقة قوله ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ذاهب إلى حيث أمرنى ربى أو إلى حيث أتجرد لعبادة ربى فجعل الذهاب إلى مكان الأمر، ومكان التجرد للعبادة ذهابًا إليه تعالى مبالغة كأنه ذهاب إليه ـ تعالى ـ.

---

(١) الآيات التى فى سورة الصافات هى من الآية رقم (٩٩) إلى الآية رقم (١١٣) ونصها: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

﴿سَيَهْدِينِ﴾: إلى مقصدى الذى هو مكان التجرد للعبادة أو إلى مصالح الدارين، لأن أمثال الأمر يوجب بحسب العبادة الاهتداء إلى مصالح، والسين تفيد التأكيد فى الحكم كأنه قال: يهدين ألْبَتّة بلا ريب ولا شك.

قال سيبويه: سينصر إثبات لن ينصر فكما أن لن يفيد تأكيد الحكم كذلك السين، وبته عليه السلام لفرط توكله على ربه، إما للوعد السابق بالوحى وإما للإجراء على عادة الله معه فى الأمور خصوصًا فى أمر إلقاء النار، وقول موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص: ٢٢) ورجاؤه الهداية أيضًا ناشئ من التوكل، لكن لم يوجد له وعد سابق بالوحى لأنه كان قبل نبوته، ولم يوجد معه العادة التى وجدت مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يوجد له فرط التوكل، وإن أصله، فلذلك لم يبت بالهداية.

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أى: هاجر عن قومه لأن المهاجرة عن قوم يخلون بحضور القلب وفراغ البال فى العبادة لشدة العداوة، إذ العداوة شغل واجبة كما هاجر إبراهيم، وموسى ومحمد (صلوات الله عليهم أجمعين) فوصل إلى حرَّان ولم يجد فيه الفراغ للعبادة كما لم يجد فى بلده الذى ولد فيه وهو كوتى ببابل العراق فى نواحى بغداد الآن فراح إلى الشام ببلده الآن الذى يقال له: مدينة خليل الرحمن، فوجد الفراغ فيه لعبادة ربه، فوصل إلى مقصده، وإلى حيث أمره ربه فطلب ولدًا صالحًا يعينه فى الطاعة ويؤنسه فى الغربة فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ بعض الصالحين، والهبة وإن استعملت فى الأخ كقوله ـ تعالى ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥٣) ولكن أكثر استعماله فى الابن كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ (الأنبياء: ٩٠) وكقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ (الأنبياء: ٧٢) وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ (ص: ٣٠).

فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حكاية دعائه بعد الهجرة حكى الله دعاءه ولم يعطف على مقول قال متقدمًا، للاختلاف إخبارًا أو إنشاء.

وإن قيل: إنه يصح لكونهما مقولين، بل أورده على الاستئناف كأنه سأل، ماذا سأل بعد الهجرة؟ وكيف سأل؟ أجاب بقوله: ﴿هَبْ لِى﴾ أو سأل هكذا تعليمًا للأمة بأن أدى ما يطلب من الله بعد الأعمال الصالحة كالصلاة والهجرة والولد الصالح.

كما ورد في الحديث: (لا ينقطع عمل الإنسان إذا كان له ولد صالح يدعو له)[1].

﴿فَبَشَّرْنَاهُ﴾: بعد الدعاء بلا تراخ.

﴿بِغُلَامٍ﴾: أى: ولد ذكر.

﴿حَلِيمٍ﴾: أى: متسع الصدر، مساوى أخلاق الخلق ناشئًا ذلك الاتساع عن العلم الراسخ، والعقل الراجح.

وذلك لا يكون إلا بعد البلوغ أو قربه فاشتملت هذه البشارة على ثلاثة أمور وهى: أن هذا المولود ذكر يبلغ أوان الحلم، أى: سن البلوغ أو سن المراهقة، ويكون حليمًا بالفعل والحلم أعلى من العلم لأنه مشتمل عليه مع الزيادة.

واختلف الصحابة والتابعون ومن بعدهم من العلماء فى هذا الغلام والذبيح.

فقال بعضهم: هو إسحاق.

وقال بعضهم: هو إسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

فلأجل ذلك الاختلاف أخَّرنا قصة الذبح عن (رفع قواعد البيت) وعن قصة (التأذين بالحج) وإن كان الأنسب على تقدير كون الذبيح إسماعيل ـ عليه السلام ـ تقديمها عليهما لكن للاختلاف المذكور أخّرناها إلى هنا.

والصحيح الذى عليه الاعتماد أن هذا الغلام الذبيح هو (إسماعيل) ـ عليه السلام ـ لأمارات تدل عليه نظم القرآن:

إحداها: أنه تعالى بشَّر إبراهيم وامرأته سارة بإسحاق (عليه السلام) وذكره في القرآن فى أربعة مواضع: قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١) فى سورة هود ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ (الصافات: ١١٢) فى هذه السورة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠١) فى سورة الحجر[2] والذاريات[3]، فكان المناسب للحكمة أن يبشره بإسماعيل لأنه نبى مرسل جد خاتم النبيين ومع ذلك هو أكبر أولاده، فهى هذه البشارة هنا.

---

(١) لعله يقصد حديث النبى (ﷺ) في قوله: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له) تقدم تخريجه أول الكتاب فانظره هناك.

(٢) ففى سورة الحجر الآية رقم (٥٣) ونصها: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

(٣) وفى سورة الذاريات الآية رقم (٢٨) ونصها: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

والثانى: أنه ذكر فى بشارة إسحاق فى الموضعين الحجر والذاريات وصف الغلام بالعليم، ووصفه هنا بالحليم، فكما أن الوصفين مغايران للوصف يناسب أن يكون الموصوف أيضًا مغايرًا للموصوف والغلام العليم فى السورتين هو إسحاق ألبتة، لأنه مذكور فيهما فى إتيان قصة قوم لوط ـ عليه السلام ـ فهذا الغلام الحليم هو (إسماعيل).

الثالث: وهو العمدة أن الله لما ختم قصة الذبيح وذيله به عند ختم القصص المذكورة فى هذه السورة وهو قوله: ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الصافات: ١١٠، ١١١) ثم ذكر بشارة إسحاق ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ**﴾ علم علمًا قريبًا عن القطع، بل قطعيًا أن البشارة السابقة وهى البشارة بالذبح غير بشارة إسحاق للتذييل المذكورة لئلا يلزم التكرار، وما قيل: إن البشارة الأولى بوجوده، والثانية بنبوته عدل عمًّا سبق له الكلام عدولاً ليس وراءه عدول.

﴿**فَلَمَّا بَلَغَ**﴾: أى الغلام الحليم، بعدما وجد وترعرع ودخل فى سن المراهقة والبلوغ، لأنه قيل: كان ذلك فى سن ثلاث سنين.

﴿**مَعَهُ**﴾: هنا محذوف تقدير الكلام: فلما بلغ السعى معه مع أبيه فى مصالح البيت، وتخصيص الأب بالذكر لأنه شفيق رحيم بابنه لا يستسعيه.

قيل: أو إنه وقيل استكمال القوة.

وقوله: ﴿**السَّعْيَ**﴾: مفسر للمحذوف كقوله: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ**﴾ (التوبة: ٦).

وهذا بناء على أن معمول المصدر لا يتقدم عليه لضعفه فى العمل لكن جوز بعض المحققين فى الظرف وما يشبهه فلا حاجة إلى التقدير.

وما قيل: إنه بيان بنفيه وقوع البيان، قيل: منشأ السؤال كذا قيل.

﴿**قَالَ**﴾: أبوه.

﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ**﴾: بعدما ذهب به إلى الشعب فى صورة الأخطاب ما يجىء فى القصة.

يحتمل أنه قد رأى، وما قيل إنه تكرر الرؤيا، فالمضارع لإفادة التجدد، ولا يليق بمنصب الخليل لأنه يكفيه مرة.

﴿فَانظُرْ﴾: أى تفكر.

﴿مَاذَا تَرَى﴾: من الرأى كأنه شاور معه لكن الأمر حتم قد علم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجوب الذبح عليه، لكن أتى بصورة المشاورة لئلا يكون الأخذ بغتة فيعسر على الولد أشد العسرة، وليعلم ما عنده من الجزع والصبر فإن كان الصبر شكر لله وحمده، وإن كان الجزع قواه وصبره، ثم يباشر الذبح.

قال الابن: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾: أى ما تؤمر به، فحذف الجار أولاً فعاد المجرور منصوبًا فوجد الشرط لأن الضمير المنصوب إذا كان عائدًا إلى الموصول يحذف قياسًا فحذف الضمير.

وهذا عند الكسائى[1].

وجوز بعضهم حذفهما دفعة.

انظر إلى هذا الجواب الحليم من الابن الحليم، لأن أباه ذكر الرؤيا فأجاب الحليم بأن رؤيا الأنبياء وحى فأنت قد أمرت فافعل ما تؤمر به.

قال العلماء: السر فى كون الأمر فى المنام إظهار كمال الانقياد من الخليل وابنه الحليم وإعلام أن منصب النبوة لا تناسب سائر المراتب، فإن الأنبياء معصومون من الوساوس الشيطانية فى يقظتهم ومنامهم كما قال تعالى فى وصف: ﴿مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ (الجن: ٢٧، ٢٨).

فكل ما لاح فى خواطرهم الشريفة فى الحالتين لا يكون إلا من الله ـ تعالى ـ لأنه وإن يذر إلقاء الشيطان فى أمنية النبى، لكن ينسخ ما يلقى الشيطان، ثم يحكم آياته فلا

---

(١) (الكسائى) على بن حمزة أبو الحسن المقرئ، روى عن حمزة الزيات وأبى بكر بن عياش ومحمد ابن سهل. روى عنه: أبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن أبى سريج، مات بالرى سنة تسع وثمانين ومائة سمعت أبى يقول ذلك، قال أبو محمد روى عن حرب بن مهران، روى عنه مبشر بن عبيد ويحيى بن آدم، وروى عنه أبو عمرو الدورى نا عبد الرحمن نا حجاج ابن حمزة ثنا يحيى بن آدم قال: سمعت يقول: لولا الثريدان هلكنا بالضمر ثريد ليل وثريد بالنهر، يروى عن الأعمش وعاصم بن أبى النجود روى عنه أبو عبيد وأهل العراق... انظر: الجرح والتعديل: ٦/ ١٨٢ الترجمة رقم (١٠٠٠) وانظر: ابن حبان: الثقات: ٨/ ٤٥٧ الترجمة رقم (١٤٤١٤).

فرق بين الحالتين فى ذلك مع الدلالة على كمال الانقياد فى المنام، فلذا اختبر الأم فى الرؤيا، ثم وعد الابن الحليم الصبر من نفسه بقوله:

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾: وهذا التعليق للتيمن والتبرك لا للشك فى صبره، لأنه كان جازمًا عازمًا على الصبر لكن للتبرك لإطلقاء العاقبة، أتى بالتعليق:

﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾.

ثم صدق فى وعده هذا كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ (مريم: ٥٤).

فهذا أيضا أمارة أنه إسماعيل.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾: أى استسلما ـ الأب والابن ـ لأمـر الله ـ تعالى ـ وإنقادا وأسلم الأب ابنه، والابن نفسه.

﴿ وَتَلَّهُ ﴾: أى صرع الأب الابن.

﴿ لِلْجَبِينِ ﴾: أى عليه.

قال الرضى: اللام تجىء بمعنى على كقوله: ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ وقوله: ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ (الإسراء: ١٠٧).

والجبين طرف الجبهة دون الجبهة وهما اثنان.

والمعتاد وصول طرف الجبهة عند الذبح.

وقيل: هو الجبهة كما يجىء فى القصة.

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن ﴾: مفسرة.

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾: ونظم القرآن يدل على أنه ما رأى فى منامه عين الاستسـلام أو التسليم وعين اضطجاع على الجبين وهى مقـدمتا الذبح، ولا يفهم من ظاهر القرآن إمرار السكين على الحلق إلا أن يتكلف بأن أسْلما يشعر به.

وجواب لمـا محذوف، أى كان كـيت مما لا يحيط به المـقال من استبـشار الأب بخلاص ابنه ونيله الثواب العظيم فى العقـبى والثناء الجزيل فى الدنيا بتسليم ابنه للذبح واستسلامه لأمر الحق واستبشار الابن أيضًـا بخلاص نفسه من القتل وحيازة أجر الدنيا من الثناء الحسن وأجـر الآخرة رضوان ربه الأكـبر لصبره على مـا وعده وصدقه فـيه، واستسلامه لأمر ربه، وتسليم نفسه للقتل وغير ذلك مما لا يحصى.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾: تذييل من القسم الثانى كقوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) لكن لعدم ختم القصة ما أتى بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: أى أمر الابتداء بالذبح.

﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ﴾: أى الابتلاء ﴿الْمُبِينُ﴾: الظاهر كونه ابتلاء لا يشك فيه عاقل، والمحنة الظاهرة الصعوبة.

وهذه علة الإحسان المستفاد من التذييل.

﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾: والفادى هو المخلص للمفدى، والمخلص هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ والمفدى هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ والله هو المفتدى منه لأنه الآمر بالذبح والآخذ بالابتلاء، لكن إسناد النداء إلى الله مجاز عقلى وحقيقة فدى إبراهيم بسبب إعطائنا الكبش إياه وأمرنا بذبحه فأسند إلى السبب الأمر للمبالغة كأن الله فداه والضمير المنصوب لإسماعيل عليه السلام.

﴿بِذِبْحٍ﴾: بالكسر ما يذبح.

﴿عَظِيمٍ﴾: أى: فى حبيبه أو فى قدره.

حيث فدى به رسول الله ابن الخليل جد حبيب الله ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾: على إبراهيم أى: لأجل الاستسلام المذكور ولم يذكر الابن لأنه يعلم بالطريق الأولى، ولأن المساق فى إبراهيم عليه السلام.

﴿فِى الْآخِرِينَ﴾: من الأمم

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: هذا القول، فهو محكى من السنة الأمم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: وترك أنا لذكره قبل.

﴿نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ﴾: أى إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: عظم الإيمان وأهله بإدخال إبراهيم الخليل أى الذبيح فى جملتهم، وجعله منهم، وقصة الذبح على ما ذكر محى السنة فى معالم التنزيل، قال محمد بن إسحاق:

كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقبل بمكة ويروح بمكة فيبيت عند أهله حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعى وأخذ بنفسه، ورجاه لما كان يأمله فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أُمِر فى المنام أن يذبحه.

وذلك أنه رأى ليلة «التـروية» كأن قـائلا يقول له: إن الله يأمـرك بذبح ابنك هذا، فلما أصـبح رأى فى نفسه، أى: فكر من الصـباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم؟ أم من الشيطان؟ فمن ثم سـمى يوم التروية، فلما أمسى رأى فى المنام ثانيًـا، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله، فمن ثم سمى يوم العرفة، قال مقاتل:

رأى ذلك ثلاث مرات متتابعات، فلما تيقن ذلك أجز به بابنه، فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

فلما أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بذلك قال لابنه: يا بنى خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشـعب نحتطب فلمـا خلا إبراهيم بابنه فى شعب بشـير أخبره بمـا أمر قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾: انقادا وخضعا لأمر الله.

قال: قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه.

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أى صرعه على الأرض.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أضجعه على جبينه على الأرض الجهة بين الجبلين.

قالوا: فقال له ابنه الذى أراد ذبحـه: يا أبت شدد رباطى حتى لا أضطرب واكفنى عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شىء فينقص أجـرى فتراه أمى فتحزن فاشحذ شفرتك، وأسرع، أمر السكين على حلقـى ليكون أهون علىّ، فإن الموت شديد، فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى وإن رأيت أن ترد قمـيصى على أمى فافعل فإنه عسير أن يكون أسلا لهـا عنى، قال له إبراهيم ـ عليه السـلام ـ: نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ـ تعالى ـ ففعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه يقيده، وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى، ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يجر السكين.

وروى: إنه يجر الشـفرة فى حلقه فلا تقطع فـشحذها مرتين أو ثلاثا بالـحجر كل ذلك يستطيع.

قال السدى: حز بصفيحة من نحاس على حلقه.

قالوا: فقـال الابن عند ذلك: يا أبتى كُبَّنى لوجهى على جبـينى فإنك إذا نظرت فى وجـهى رحمـتنى، وأدركتـك رقة تحـول بينك وبين أمـر الله، وأنا لا أنظر إلى الشفـرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم وضع السكين على قفاه، فانقلب السكين.

«ونودى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا».

وروى أبو هريرة ـ ﷺ ـ عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قالوا: لما أرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فمثل له الشيطان رجلاً، فأتى أم الغلام، فقال لها: هل تدرى أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: إن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشى على إثر أبيه، فقال له: يا فلان هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال: والله ما يريد إلا يذبحك، قال: ولم؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك؟ قال: فيفعل ما أمره به ربه فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه، قال: والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم، فقال: إليك عنى يا عدو الله فوالله لأمضين أمر ربى، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئًا مما أراد قد امتنعوا منه بعونه ـ عز وجل ـ.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس ـ ﷺ ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ (لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا الشعر يسابقه فسبقه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأمر الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: فنظر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبر جبريل وكبر الكبش، وكبر إبراهيم وكبر ابنه فأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ الكبش وأتى به النحر من منى فذبحه)[1].

---

(١) حديث فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ فنظر فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه...) حديث فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ قال: فنظر فإذا هو بجبريل، ومعه كبش أملح أقرن...) انظر: القرطبى: ٤/ ٢٣٦، ١٥/ ١٠٤ وانظر: تفسير الطبرى: ١٧/ ٩٢ - ٢٣/ ٧٩.

وقال أكثر المفسرين: كان ذلك الذبيح كبشًا رعى فى الجنة أربعين خريفًا.

وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (الكبش الذى ذبحه إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذى قربه ابن آدم)(١).

قال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيمًا.

قال مجاهد: سماه عظيمًا لأنه متقبل.

وقال الحسين بن فضل: لأنه كان من عند الله.

وقيل: عظيم فى الشخص.

وقيل: فى الثواب.

وقال الحسن: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى أهبط عليه ثُبير. انتهى.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾: أى إبراهيم بعد التبشير الأول بإسماعيل ـ عليه السلام ـ كما هو ظاهر نظم القرآن، للتذييل المذكور ولئلا يلزم التكرار.

﴿بِإِسْحَاقَ﴾: وهو من سارة زوجته.

﴿نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: حالان من إسحاق مقدرتين أى بشرناه بإسحاق حال كون إسحاق مقضيًا ومقدرًا ثبوته وكونه من الصالحين، وقضاء النبوة والصلاح وتقديرهما مقدم على وجود إسحاق ومقارن للتبشير وهو الشرط فى الحال، فيكون مثل: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣) لكن حقيقة الحال فيه مقدرين بصيغة اسم الفاعل وهنا مقدرًا بصيغة اسم المفعول، لكن هذا لا يضر فى التنظير والصلاح هو استقامة الأقوال والأفعال والأحوال ولهذه الاستقامة مراتب لا تنحصر، والاستقامة مقولة عليها بالتشكيك، فصلاح النبى يخالف صلاح الأمة فى أكثر الجهات، وإن وافقه فى أصل المعنى فيكون كإطلاق الوجود على وجود الواجب، ووجود الممكنات فاعرفه.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾: على إبراهيم أى أفضنا بركات الدارين عليه وعلى إسحاق، لو جعلنا البركة والزيادة فى أولادهما فجاء تأسيسًا على الأول أو تأكيدًا على الثانى بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ من بنى إسرائيل وبنى عيص وهم الروم دون أولاد إسماعيل ـ عليه السلام، ﴿مُحْسِنٌ﴾ على الناس بالانعام أو على نفسه بالعمل الصالح مثل أنبياء بنى

---

(١) (الكبش الذى ذبحه إبراهيم (عليه السلام) هو الذى قربه ابن آدم...) انظر: تفسير الطبرى: ١/ ١٦٦، ١٦٧ - ٢٣/ ٨٦ تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣.

إسرائيل ومؤمنهم، ومثل أيوب النبى من أولاد عيص بن إسحاق ومتبعيه، ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر كونه ظلمًا مثل فجار القبيلتين.

وهذا يدل على أن العرق لا تأثير له، فإما لكون أولاد الأنبياء ظالمين، لكن يجوز أن يكون للعرق مدخل ما في الجملة لقوله ـ عليه السلام ـ (لا يدخل الجنة ولد زنية)[1] أى يعسر عليه الأعمال المرضية التى هى أسباب دخول الجنة بحسب الوعد.

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) آمين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) حديث: (لا يدخل الجنة ولد زنية) تقدم تخريج هذا الحديث.

مجلس في:

بيان محاجة نمرود إبراهيم - عليه السلام - ودعائه إراءته كيفية إحياء الموتى وإحياء الله الطيور الأربعة

في آيتين من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فهذا مجلس في بيان محاجة نمرود إبراهيم - عليه السلام -، ودعائه إراءته كيفية إحياء الموتى وإحياء الله الطيور الأربعة في آيتين من سورة البقرة[1] قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: خطاب عام لكل من يتأتى منه الرؤية والسماع، والاستفهام للتقرير، أي: الحمل على الإقرار والتعجب يخاطب به في الأصل من يرى الواقعة أو يسمع، ثم عمم فخوطب به من يرى، ولم يسمع كأن الواقعة صارت في غاية الظهور بحيث كان ينبغي أن لا يخفى على أحد فكأن المخاطب رآها وسمعها فخوطب به للتقرير والتعجب.

والرؤية: **إماً إبصارية**: فإلى تضمين معنى انتظر أي ألم تبصروا ولم تنظروا..

﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾.

أو علمية: فإلى هذا لتضمين الانتهاء، أي: ألم ينته علمك إليه، والذي حاج هو:

---

(1) الآيتان من سورة البقرة هما الآية رقم (٢٥٨) ورقم (٢٥٩) ونصهما: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ من الأربعة الذين ملكوا مشارق الأرض ومغاربها:

مؤمنان: سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ وذو القرنين، وكافران: نمرود، وبُخْت نَصَّر.

وقيل: شداد بن عاد مكان بخت نَصَّر.

وهذه المحاجة فى قول أكثر المفسرين بعد النجاة من النار، ويتوقف عليها تمام الحج كما سيجىء وهو الصحيح، وقيل: قبلها.

وضمير ﴿رَبِّهِ﴾ إلى إبراهيم وهو الظاهر لقربه.

وقيل: ﴿إِلَى الَّذِى حَاجَّ﴾ وهو أبلغ فى المحاجة وسبب هذه المحاجة هو أنهم قالوا: وقع قَحْطٌ عظيم فى زمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعدما نُجِّى من النار، وذهب إلى الشام واستوطن بها وكان عند نمرود طعام، أى: حنطة فى غاية الكثرة وكان الناس يتوجهون إليه للميرة فتوجه إليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيمن توجه لأخذ الحنطة وكان كل من دخل على نمرود يسأله عن ربه، فإن قال أنت ربى أعطاه الطعام بقيمته، وإن لم يقل لم يعطه، فدخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ عليه فسأله من ربك؟ فقال: ربى الله، فحاجه اللعين فى ربه أى: فى شأنه، وتوحيده.

﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾: إما أن يقدر اللام أو الوقت مضافًا، فإن قدر اللام فعلى المعنيين السببية الحقيقة أو التشبيهية.

فعلى الأول: حاجه اللعين لأجل أن إتيانه المُلك أورثه الكبر والبطر وهما صارا سببًا للمحاجة فى الواقع فإيتاء الملك سبب السبب فهو سبب أيضًا.

وعلى الثانى: هو من قبيل قولك: عاديتنى لأنى أحسنت إليك، وكان الإحسان سببًا للموالاة دون معاداة لكن لما عكس المخاطب الأمر وجعل سبب الموالاة سبب المعاداة بأن أحدث عقيب سبب الموالاة المعاداة وترتب المعادة على الإحسان كترتب المسبب على السبب، جعلت الإحسان سببًا للمعاداة للمشابهة فى الترتيب.

ويقال له: التعكيس، فههنا أيضًا كان اللائق جعل إيتاء الملك سببًا للتصديق بنبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فعكس اللعين، فيصير الإتيان المذكور سببًا للمحاجه للشبه المذكور.

وأما إذا قدر الوقت مضافًا يكون ظرفًا للمحاجة أى حاجه وقت إيتاء الله الملك.

وكان اللائق فى ذلك الوقت الإيمان دون المحاجة فعكس اللعين، فيناسب هذا معنى التعكيس فى اللام إذ قال ظرف الحاج على تقدير اللام فى ﴿أَنْ آتَاهُ﴾ ويدل من الوقت المقدر على تقدير الوقت مضافًا إبراهيم حين سأله نمرود: من ربك؟.

﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي﴾: يخلق الحياة فيما لا حياة فيه ﴿وَيُمِيتُ﴾: يخلق الموت فى الجسم الحى بلا مباشرة سبب ظاهر كالقتل، فالخبر أى الموصول مع صلة لكونه فى حكم المعرف باللام بقيد الاختصاص فيكون دليل التوحيد، أى الربوبية منحصرة فى الله لا تتجاوزه إلى غيره لأن الرب هو الموجد المبقى، وفعل الإيجاد وكذا ضده وهو فعل الإعدام فذكر الإماتة استطرادى لكونه ضده لا مدخل له فى التربية مختصان بالله.

فالدليل على الأصالة هو الإيجاد والإعدام فذكر الإحياء والإماتة على التمثيل للتوضيح فورد، ماذا قال اللعين فى جواب هذا الدليل الواضح بالمثال فأجاب بقوله: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾: فجاء برجلين يستحقان القتل فقتل أحدهما، ولم يقتل الآخر، بل عفا عنه، فكأن اللعين لكونه حلوليًا، يعتقد أن الله حال فيه، ولكونه دهريًا منكرًا للصانع أو فلسفيًا قائلاً بإيجاب الله لا باختياره، كان يزعم أن من ملك قطرًا من العالم بقوة طالعه يستحق من أهله العبادة ويكون هو ربًا متصرفًا فيهم، ويقدر على جنس ما يقدر الله عليه.

فأوهم حضار مجلسه أن القتل والإبقاء من جنس أفعال الله ـ تعالى ـ فيكون ربًا.

فهذه الشبهة وإن وردت على المثال، والمناقشة على المثال ليست من دأب المخلصين لعدم نفعها لسلامة الدليل عنها فمنع ذلك كانت فى غاية الركاكة، والضعف لأنه على ما لخَّصْنا من معنى الإحياء والإماتة لا وجه لهذا الشبه أصلاً، فصارت هذه الشبهة الجواب الأحمق والسكوت عن الأحمق جواب فلم يتعرض إبراهيم ـ عليه السلام ـ لدفع الشبهة لظهور بطلانه على السامعين وتعرض المستدل لدفع الشبهة إنما يكون عندما يكون لها وجه فى الجملة فانتقل إلى مثال آخر للدليل وهو الإيجاد والإعدام وضع مما ذكر سابقًا لا يرد عليه المشاغبة المذكورة.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ﴾: أى إذا قدرت فى زعمك على جنس كل فعل الله فالله ﴿يَأْتِي﴾ بقدرته واختياره فإن الإتيان فعل وكل فعل اختيارى.

﴿ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾: كل يوم على خلاف طبع الشمس فإن الحركة الذاتية للشمس من خارج مركزها ومثلها غريبة والحركة الشرقية عرضية قسرية يخلقها الله فيها بقدرته بسبب حركة الفلك الأعظم سببية عادية لا ذاتية، فالسبب لا ينافى القدر.

وكان نمرود وقومه أهل التنجيم عالمين بالأفلاك وحركتها فإن كنت ربًا فالقدر على جنس فعل الله كما زعمت.

﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾: فإنه أسهل لكونه على موافقة طبع الشمس.

وحاصل الكلام: ادفع قسر الله الشمس بتحريكه بالحركة اليومية واجعلها بحيث تجرى على وفاق طبعها.

﴿ فَبُهِتَ ﴾: أى صار مبهوتًا عاجزًا منقطعًا عن الجواب.

﴿ الَّذِي كَفَرَ ﴾: وإنما صار مبهوتًا وقد كان يمكن له على مذهب الفلاسفة أن يقول الحركة اليومية للفلك الأطلس صادرة عن نفسها الصادرة عن العقل الأول الصادرة عن الله، لكن بالإيجاب بالقدرة والاختيار لأن اللعين كان قد رأى أنَّ الله ـ تعالى ـ جعل النار العظيمة على إبراهيم ـ عليه السلام ـ بردًا وسلامًا، فكان قد علم أنَّ الله ـ تعالى ـ فاعل بالاختيار والقدرة لا بالإيجاب فلم يقدر على هذه الشبهة فبهت وانقطع عن المحاجة.

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾:

تذييل وتأكيد للبهت من القسم الثانى للتذييل أى لم يهتد هذا اللعين إلى الجواب بل بهت لظلمه وتجاوزه عن طوره بادعاء الربوبية، وهكذا العادة لأن الله لا يهدى إلى الجواب الحق كل ظالم، لأنه لا جواب له حتى يهتدى فلا جواب ولا هداية.

وقيل: لا يهدى إلى طريق الجنة.

ثم ذكر فى بعض التفاسير أن إبراهيم (عليه السلام) ذكر فى مجلس اللعين أن الله ـ تعالى ـ كما كان قادرًا على الإحياء أول مرة قادر على الإحياء ثانيًا يوم الحشر وفى الدنيا أيضا أن أراه فقال مستبعدًا ومتعجبًا ومنكرًا للحشر: هل شاهدت يا إبراهيم إحياءه فى الدنيا الميت بعد موته؟ قال: لا لكنه ثابت بالدليل، فاقترح اللعين إحياء الميت من إبراهيم ـ عليه السلام ـ وخوفه بالقتل إن لم يجئ، فعند ذلك سأل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه إحياء الميت ليكون معجزة له على دعواه، ولعل اللعين وقومه يؤمنون،

فذلك قوله حول دابة «عزير» ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: أى: واذكر وقت قول إبراهيم والحادث فيه.

وقيل: هو عطف على ﴿الَّذِى حَاجَّ﴾ كما كان قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ﴾ عطف عليه أيضًا فى قول أى: وألم تر إلى وقت قول إبراهيم وإلى الحادث فى هذا الوقت فإنه أيضًا عجيب بل أعجب.

﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى﴾: معناه أى مؤمن ومصدق بإحيائكم أولاً وثانيًا لكن لا أعرف كيفية الإحياء فأرنى كيفيته، والإيمان بالإحياء قد يجامع عدم العرفان بكيفيته كما أن المتكلفين من أهل الإيمان بعدما آمنوا بالإحياء اختلفوا فى كيفيته.

فقال بعضهم بالإعدام بالكلية وإعادة المعدوم بعينه، وقال بعضهم: يجمع الأجزاء بعد التفريق، وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض لكن لما كان طلب معرفة الكيفية صادرًا على طريق الندرة عمن لا معرفة له بالإحياء أيضًا، فلدفع هذا الوهم قال الله: ألم تصدق.

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾: فالاستفهام للتقرير ليعلم السامعون غرضه وليندفع الوهم المذكور، ففيه إشارة إلى أن اللائق عدم التكلم فى العقائد بما يوهم خلاف المقصود وإن وقع فالواجب على المتكلم دفع الوهم، وإن سكت فعلى السامعين الاستكشاف حتى يضمحل الوهم.

﴿قَالَ﴾: إبراهيم ﴿بَلَى﴾ آمنت بنفس الإحياء ﴿وَلَكِن﴾ سألت ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾: بانضمام العيان مع البيان وتكثر الأدلة بالنجاة عن قتل اللعين وبأنى ما قصرت فى الدعوة حيث أتيت بالمعجزة بعدما أبلغت الحجة فلما علم غرض إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

﴿قَالَ﴾: الله ﴿فَخُذْ﴾: أى إذا كان غرضك صحيحًا فخذ ﴿أَرْبَعَةً﴾: وتخصيص هذا العدد لما سيجىء إن شاء الله تعالى فى التأويل.

﴿مِّنَ الطَّيْرِ﴾: وتخصيصه لأنه أجمع خواص الحيوان لأن كل ما يوجد فى الحيوان فيه مع زيادة الطيران ولأنه هوائى ومائى وأرضى.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أى امضهن وضمهن إليك تتأملها وحلبها وأوصافها ولم يشتبه عليك بعد الإحياء من صار يصور.

وقد قرئ بالكسر أيضا من صار يصير.

قال الشاعر:

وما صيد الأعناق فيهم بحيلة ولكن أطراف الرماح تصورها

وقال الآخر:

وفرع يصير الجيد وحفٌ كأنه على الليث قنوان الكروم الدوالح

فبعد ذلك إذ يجمعهن وقطعهن وجزئهن.

﴿**ثُمَّ اجْعَلْ**﴾: فكلمة ثم للفصل بالأفعال المذكورة ﴿**عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ**﴾: من الجبال التى بحضرتك.

﴿**مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ**﴾: بقولك: تعالين.

﴿**يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾: أى مشيًا على الأرض لأنه الظاهر من السعى.

﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**﴾: قادر على كل ما يريد ﴿**حَكِيمٌ**﴾: لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة.

روى أنه ذبح فى مجلس نمرود بعدما أوحى الله إليه هذا الوحى أربعة من الطيور قيل: ديكًا، وغرابًا، وحمامة أو نسرًا بدل الحمامة، وطاوسًا، ثم قطع أجزاءهن وخلط بعضها ببعض ثم جعل على أربعة أجبل ـ أو سبعة ـ تلك الأجزاء المخلوطة، وحفظ رءوسهن فى المجلس ثم دعاهن عند رءوسهن قائلا: تعالين بإذن الله ـ تعالى ـ.

فرأى أهل المجلس بأجمعهم أن كل جزء من الأجزاء يطير إلى مثله فتكاملت الأجزاء، فعزلت إلى الأرض ثمَّ سعت فى الأرض جثث بلا رءوس كل إلى رأسه ثم وضع رأس كل على جثته فحيى بإذن الله تعالى، وصاح فلما رأى اللعين وأهل مجلسه ذلك أخلى عن سبيل إبراهيم ولم يعطه الطعام فجاء إبراهيم إلى بيته فى الشام فلما قرب من المنزل قال لفتيانه: اجعلوا فى الظروف والجد التى من الرمل الدقيق لئلا يكون شماتة الأعداء ولئلا ينكس قلوب الأولاد والضعفاء، فلما دخل بيته مساء حطوا الرمل ونام الخليل، وقامت امرأته سارة إلى حمل فوجدت فيه دقيقا حواريًا فدعت الخبازات فخبزت، فانتبه الخليل بريح الخبز ولم يأكله منذ أيام، وقال: يا سارة، من أين الدقيق؟ قالت: مما جئتنى به، قال: لا بل من رزق الله – تعالى ـ.

ثم بعد ذلك لما ظهرت الحجة عند نمرود بالمعجزة المقرحة وعادة الله ـ تعالى ـ

الإهلاك أو الاستئصال بالعناد بعد ذلك جاءه ملك فى زى رجل فى خلوته فقال: أيها اللعين حضر هلاكك آمن بالله تعالى، فأبى، ثم بعد ذلك جاء فقال ما قال أولاً، فأبى، ثم بعد ذلك جاء وقال: اجمع جموعك إن الله يرسل عليك جنداً من جنوده، فَلَمَّا أصبح اللعين ركب إلى الصحراء مع جنوده مسلحين مكملين فعند طلوع الشمس أرسل الله عليهم البعوض وسدت عليهم الأفق حتى ما رأوا أعين الشمس فأكلت وشربت دماءهم ولحومهم حتى بقيت عظامهم عارية أدخل أحد منها فى منخر اللعين فبقى بعد ذلك منكوبًا ومعزولاً عن الرئاسة مغلوبًا للخصوم وامتد ذلك أربعمائة سنة وكان عمره فى النعمة والدولة أيضًا أربعمائة سنة، وكان كل من دخل عليه يضرب ـ لطلبه ـ على دماغه لتحرش البعوض دماغه، بمطارق قد أخذت لذلك فعذب بهذا أربعمائة سنة ثم وصل إلى عذاب الله ـ تعالى ـ.

ففى كل حركة فى العالم ستر من الله ـ تعالى ـ ففى وقوع القحط وذهاب إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الميرة هذا السر العجيب.

قال العلماء: الحكمة فى اختيار هذه الأربعة من الطير أن:

الديك: مشهورة بالصولة.

والطاوس: يحب الزينة.

والغراب: بالحرص وطول الأمل.

والحمامة: بالترفع والمسارعة إلى الهواء.

وأيضا النسر بالغضب.

فأشير إلى أن الواجب على الإنسان قطع هذه الصفات من نفسه ودفعها بالرياضيات المشروعة ومعظمها إدمان ذكر الله ـ تعالى ـ فبذكر الله تحيا الأرواح وتطمئن القلوب حتى يحيا قلبه بالحياة الأبدية ويصل إلى الكرامة السرمدية، قال نظام الدين النيسابورى[(١)]:

---

(١) **(نظام الدين النيسابورى)** هو: نظام الدين حسن بن محمد النيسابورى شارح كتاب المجسطى، وسماه تفسير التحرير، وعليه حاشية للعلامة قاضى زاده الرومى، قال: والمجسطى ثلاث نسخ مشهورة، **إحداها**: من نقل الحجاج، **والثانية** من نقل إسحاق وقد صححها ثابت، **والثالثة** منسوبة إلى ثابت وحده والفصول فى نسخة الحجاج بالأنواع، وفى نسخة ثابت بالأبواب، وقد تختلف النسخ فى إعدادها وإعداد الأشكال فى بعض المقالات ونسخة ثابت على ثلاث =

تأويل هذه الآيات الثلاث، الاثنتان من عرائس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما ذكر، والأخرى من عرائس عُزَيْر ـ عليه السلام ـ بينهما أن الله ـ تعالى ـ لما أعطى نمرود ملكًا ما أعطى أحدًا قبله ادعى الربوبية وما ادعاها أحد قبله، وسبب ذلك أن الإنسان لحسن استعداده للطلب وغاية لطافته في الجوهر دائم الحركة في طلب الكمال إلا المانع، ولكنه جعل ظلومًا جهولاً، فمتى وُكِّل إلى نفسه مال إلى عالم الحسن موافقًا لسيره الطبيعي، لأنه خلق من تراب وطبعه أميل إلى السفل فيرى الكمال في جمع المال ثم في طلب الجاه فيصرف المال فيه، ثم في الحكم والتسلط فإذا ملك السفليان بأسرها وقهر ملوك الأرض أراد أن ينازع ملك الملوك وجبار الجبابرة فيقول: أنا أحيي وأميت، وليس للعالم رب إلا أنا جهلاً بالكمال، وذلك عند فساد جوهره، وبطلان استعداده كما أنه إذا صلح جوهره يحسن تربية النبي ـ عليه السلام ـ أو من ينوب منابه وهو الشيخ، قال في الوجود سوى الله، وهذا هو حقيقة ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ (محمد: ١٩) يعني كن فانيًا عن وجودك بالكلية واستغفر لذنب حسبان وجود غير وجوده، فافهم جدًا وإن لم تكن مجدًا فإن المجد من يدق بمطرقة لا إله إلا الله دماغ غرور النفس إلى أن يؤمن بالله ويكفر بطاغوت وجوده ووجود كل ما سوى الله.

قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾.

اعتراض على قول الكافر: أنا أُحيي وأميت.

والمراد أن إرسال النفس الناطقة لتدبير البدن إطلاع الشمس الحياة من أفق البدن، فإن كنت صادقًا في دعواك أن هذا يتأتى منك فامسكها عندك وهو الإتيان بالشمس من مغربها وأنه آية القيامة من مات فقد قامت قيامته.

﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ لأنه إن أمكنه أن يدعي الإحياء بمعنى الإبقاء وهو إطلاع

= عشرة مقالة في مجلد، وأما المجسطي فمعناه الأعظم في لغتهم، هكذا قرأته في كتاب امروز كالبينو. وقال أبو الريحان في القانون المسعودي: المجسطي سينطاسيس، والحال أن معنى سينطاسيس الفكر في ترتيب المقدمات، هذا نهاية ما وقفت عليه في ذلك، وله كتب أخرى. انظرها في كشف الظنون: ١/ ٣٩١ - ٢/ ١٠٢١ - ٢/ ١١٩٥ - ٢/ ١٥٩٥ - ٢/ ١٧٦٣.

الشمس من المشرق فلن يمكنه أن يدعى الإماتة، بمعنى قبض الروح من غير آلة القتل وهو الإتيان بالشمس من المغرب فهذه طريقة عذراء لا يرد عليها شىء من الاعتراضات المذكورة فى التفسير ثم أَخبَر عن إظهار قدرته فى إحياء الموتى بعد انقطاع المدعى فى حجة عقيب الدعوى بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾.

وذلك أن قومًا أنكروا حشر الأجساد بعد اعترافهم بحشر الأرواح، وزعموا أن الأرواح إذا خرجت من سجن الأشباح وتقوت بالعلوم الكلية التى استفادتها من عالم الحس فى حاجتها أن ترجع إلى السجن والقيد كما أن الصبى إذا استفاد العلوم فى المكتب وكبر قدره وعظم لم يحتج أن يرجع إلى المكتب وحال حياة فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لكمال فضله ورأفته رفع هذه التسويدات النفسية، ودفع هذه الشبهات الفلسفية بأن أمات «عُزيرًا» مائة سنة وحماره معه، ثم أحياهما جميعًا ليعلم أن الله تعالى مهما أحيا عزير الروح معه حمار الجسد وكما أن عُزَير الروح يكون عند الملك الجبار يكون حمارًا لجسد فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، فلعزير الروح مشرب بن كوس تجلى صفات الجمال والجلال ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١).

(أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى)[1].

ولحمار الجسد مرتع من الرياض ومشرب عن الحياض فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

شربنا وأهرقنا على الأرض قسطها ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

ثم أكد حديث الحشر بقصة عن خليله ـ عليه السلام ـ.

---

(١) حديث: (أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى) حدثنا محمد بن على بن حبيش ثنا القاسم بن زكريا ثنا إبراهيم بن سعيد ثنا ابن نمير عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: (نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل، قال: إنى لست مثلكم، إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى، أكلفوا من الأعمال ما تطيقون) رواه مسلم عن ابن نمير عن أبيه.
انظر: أبو نعيم الأصفهانى: المسند المستخرج على صحيح مسلم: ٣/ ١٧٨ الحديث رقم (٢٤٨٤) وانظر الترمذى فى السنن: ٣/ ١٤٨، سنن الدارمى: ٢/ ١٥، وانظر: سنن أبى داود: ٢/ ٣٠٩، ومصنف عبد الرزاق ٢/ ٢١٢، ٢٦٨ وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢/ ٤٩٥ - ٣/ ١٧٠، ٢٣٥، ومسند أبى يعلى: ٥/ ٤١٤، والبيهقى فى شعب الإيمان: ٣/ ٤٠٥ وفتح البارى ٤/ ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٨، المناوى: فيض القدير: ٣/ ١٢.

وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي﴾[(١)] فيفوح منه رائحة قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) إلاَّ أنَّ موسى لم يحفظ الأدب فى الطلب فما رأى غير النَّصب والتعب، وأدب تأديب الخاطئ الجانى وعرك بتعريك: ﴿لَن تَرَانِي﴾[(٢)] (الأعراف: ١٤٣) وذلك أنه كان صاحب شُرْب، وكان الخليل صاحب رِىّ، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الرى صاح.

شربت الحب كأسًا بعد كأس   فما نفد الشراب وما رُويتُ

فلسُكْر موسى كان يبسط تارة مع الحق بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ويعربد أخرى بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾[(٣)] (الأعراف: ١٥٥) ومن كمال صحوى الخليل ما زل قدمه فى أدب من آداب العبودية فى الحضور والغيبة فلا حرام أكرم اليوم بكرامة الشيبة، إن أول ما شاب شيبة إبراهيم، ويحترم غدًا بالكسوة، إن أول من يكسى إبراهيم.

ولما ابتلى فى ماله فبذل للضيفان وابتلى لولده فأسلم وتله للجبين، وابتلى فى نفسه فاستسلم بلخنيق بن كنعان وابتلى بجبريل فقال: (أمَّا إليك فلا) حرم، أكرمه الله بالإمامة بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[(٤)] (البقرة: ١٢٤) ومن أمامته أنه كان أول من دق باب طلب الحق وقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ (الأنعام: ٧٦) وأول من سلك طريق الحق وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (الصافات: ٩٩) وأول من نطق بالمحبة وقال: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦) وأول من ظهر الشوق وقال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ

---

(١) فى الآية رقم (٣٧) من سورة إبراهيم ونصها: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

(٢) وهى الآية رقم (١٤٣) من سورة الأعراف ونصها: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣) وهى الآية رقم (١٥٥) من سورة الأعراف ونصها: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

(٤) وهى الآية رقم (١٢٤) من سورة البقرة ونصها: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧) وأول من اشتاق فسأل الرؤية، وقال: رب إنى، ولا تظننى أن اشتياقه إلى الرب إنما كان وقت سؤاله:

ولست حديث العمد شوقا ولوعة حديث هواكم فى حشانى قديم

ولكنه من حفظ آداب الإحلال كان لا يفتح على نفسه باب السؤال ويقول (حسبى من سؤالى علمه بحالى) إلى أن ساقه التقدير إلى حسن التدبير وسأله نمرود: مَنْ ربك، فأجرى الحق على لسانه من فضله وإحسانه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقال نمرود: هل رأيت منه ما يقول؟ فوجد الخليل فرصة للمأمول فأدرج فى السؤال المسئول فأخفى سره وهو: أرنى فى علته وهو كيف تحيي الموتى وهو يعلم السر ويخفى، فأول باب فتح عليه من مقصوده أن أسمعه من كلامه بفضله وجوده وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾.

فكان فى هذه الكلمة من إعجاز القرآن ثلاثة معان مضمرة:

- أولم تؤمن وقت ما آمنت عند نمرود ما أحيى وأميت فما كان إيمانك حقيقيّا.
- أولم تؤمن لميعاد رؤيتى فى الجنة فأريك ثمة.
- أولم تؤمن بما طلبت من الإحياء.

مضمراً فى كل منها الإثبات فى لفظة النفى.

فأجاب الخليل عن الاستفهامات الثلاثة بـ «بلى» سرّا بسر، أى: بلى آمنت وكان إيمانى حقيقيّا ولكن ما كان مقصودى الإيمان والإيقان فإنه حاصل ولا إحياء الموتى فإن فارغ من الموتى وإحيائهم، ولكن سألت ليطمئن قلبى بما يزيد.

أو بلى آمنت بميعاد رؤيتك فى الجنة ولكن ليطمئن قلبى برؤيتك فإنه كلما ازداد اليقين ازداد الشوق فاضطراب قلبى من غاية نفسى.

أو بلى آمنت بقدرتك على الإحياء ولكن ما سألتك عن الإحياء ففى ضمن ذلك يحصل مقصودى كما أن من له معشوق خياط وهو يريد مشاهدة معشوقه ويحتشم أن يقول أرنى وجهك لأنظر إليك، لأنه يعلم أن الدلال قرين الجمال وأن العزة والحسن توأمان.

وفى مذهب الملاح: الطلب ردوا فيقول: أرنى كيف تخيط الثياب فكل صانع فاخر فى صنعه، يريد أن يرى جودة عمله فيحضر المعشوق عند بلا حجاب وهو يخيط

الثوب ويقول: انظر إلى كيف أخيطه فـالعاشق ينظر بعلة الصنع إلى الصانع ويحظى منه بلا مانع ودافع، ويطمئن قلبه بذلك.

فالخليل لما اعتذر عن الجليل من اضطراب قلبه، واضطرار حاله وتضرع بين يدى مولاه وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه حقق رجاءه.

وقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ الآية.

والمراد أنك محجـوب بك عنى فبحجاب صفاتي محـجوب، وبحجاب ذاتك عن ذاتي ممنوع فمهما تموت عن صفـاتك تحيا بصفاتى، وإذا فنيت عن ذاتك وبقيت ببقاء ذاتى فخـذ أربعة من الطير وهى الصـفات الأربع التى تولدت من العناصـر الأربعة التى احمرت الإنسان منها فتولدت من أزواج كل عنصـر مع قرينه صفتان من التراب وقرينها وهو الماء.

تولد الحرص والبخل وهما قرينان يوجدان مـعًا فمن النار وقرينها وهو الهواء تولد الغـضب والشـهوة ولكل واحـدة من هذه الصـفـات زوج خلق منهـا لتسكـن إليهـا: فالحرص: زوجه الحسد.

والبخل: زوجه الحقد.

والغضب: زوجه الكبر.

وليس للشهوة اختصـاص زوج معين بل هى كالمعشوقة بين الصـفات، فيعلق بها كل صفة هى الأبواب السبعة للدركات السبع من جهنم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٤) يعنى من الخلق فمن كان الغالب عليه صفة منها دخل النار من ذلك الباب.

فأمر الله خليله بذبح هذه الصفات وهى الطيور الأربعة:

* طاوس البخل: فلو لم يزين المال فى نظر البخيل ما بخل به.
* وغراب الحرص: ومكوره من حرصه.
* وديك الشهوة.
* ونسر الغضب لترفعه فى الطيران.

وهذه صفة المغضب، فلمـا ذبح الخليل بسكين الصدق هذه الطيور وانقطعت منه متولداتها ما بقى له باب يدخل فيه النار فصارت النار عليه لما ألقى فيها بردًا وسلامًا.

والمبالغة فى تقطيعها ونتف ريشها وخلط أجزائها إشارة إلى محو آثار الصفات المذكورة، وهدم قواعدها على أيدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ الروح بأمر الشرع، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾: هى الجبال الأربعة التى جبل الإنسان عليها: النفس النامية وهى النباتية والأرواح الثلاثة: الحيوانى، والطبيعى، والإنسانى الملكى، فهذه الجبال كالأشجار والزروع وأجزاء الطيور كالتراب المخلوط بالزبل يجعل على الزروع فيتقوى كل واحد من هؤلاء بقوة واحدة من أولئك، ويتربى بتربيتها ويتصرف فيها الروح الإنسانى فيحبها بنور هو من خصائص أرواح الإنسان فتكون تلك الصفات ميتة عن أوصافها حية بأخلاق الروحانيات.

هذه خواص الخلق الذين غالب على أحوالهم الروح وأمَّا خواص الخواص ولمن أدركته العناية كالخليل فالله ـ تعالى ـ بعد جمود هذه الصفات يتجلى بصفته المحيى فيحيى هذه الصفات الفانية عن أوصافها بنور صفته المحبة فيكون العبد فى تلك الحالة حيا بحياته مجيبًا بصفاته كما قال: (لا يزال العبد يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا، ولسانًا، ويدًا، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى ينطق، وبى يبطش)[1] كما أن أميًا يقول لكاتب: أرنى كيف تكتب، فيجعل الكاتب قلمه فى يد الأمى وأخذ يده بيده ويكتب فتظهر الكتابة من يد الأمى على الصحيفة، ففى تلك الحالة يظن الأمى أنه صار كاتبًا فيقول: إن الكاتب كقوله:

عجبت منك ومنى أفنيتنى بك عنى
أدنيتنى منك حتى ظننت أنك إنى

(١) حديث: **(لا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل...)** هذه رواية البخارى: حدثنى محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان بن بلال حدثنى شريك بن عبد الله بن أبى نمر عن عطاء عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته) انظر: صحيح البخارى: ٥/ ٢٣٨٤ الحديث رقم (٦١٣٧) وانظر: صحيح ابن حبان: ٢/ ٥٨، وانظر مجمع الزوائد: ٢/ ٢٤٧ وانظر أيضا: البيهقى فى السنن الكبرى: ٣/ ٣٤٦.

فـإذا رفع الكاتب يده عن يد الأمى فيـعلم الأمى أنه أمى والـكاتب هو الكاتب، فيستغفر عن ذنب حسابه أنه هو الكاتب.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (محمد: ١٩) أى ذنب حسبًا أنك كاتب وأنت بنى أمى وعربى ما وصلت إلى ما وصلت إلا بفضله.

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٣).

ثم إن الله ـ تعالى ـ إذ تجلى لخليله بصفة واحدة وهى صـفة المحيى ليريه آية من آياته وهى كيفية الإحياء فقد تجلى لحبيبه بجميع صفاته ليلة المعراج.

كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ١٨).

والخليل طلب الرؤية لنفسه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ والحبيب طلبها له ولأمته: أرنا حقائق الأشياء مرئية قال: حقائق الأشياء فإنه فيه مع رعايته الأدب بإخفاء المقصود، فكان قول الخليل بالنسبة إلى هذا تصـريحًا وإن كانت بالنسبة إلى قول الكليم تعريضًـا وفيه أيضًا طلب كمال الرؤية بجميع الصفات، فإن جميعها داخلة فى الأشياء ولكمال معرفته طلب الماهية فقـال: كما هى وهذا هو الملك الحقيقى الـذى لا يكتنه كنهه ثم قيل للخليل: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ من أن يُعرف كنه صفاته ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يطلع على أسراره إلا من يليق بذلك، من مخلوقاته، والله أعلم. انتهى.

قال فى المواقف وشرحه: هل يعدم الله الأجزاء البدنية ثم يعيدها أو يفرقها ويعيد منها التأليف الحق أنه لم يثبت ذلك ولا جزم فيه نفيًا ولا إثباتًا لعدم الدليل على الشىء من الطرفين، وما يحتج به على الإعدام من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القـصص: ٨٨) ضعيف فى الدلالة، فإن التفـريق هلاك كالإعدام، فإن هلاك كل شىء خروجه عن صفاته المطلوبة منه، وزوال التأليف الذى به يصلح الأجزاء لأفعالها، ويتم منافعها والتفريق بالرفع عطف على زوال يجرى منه مجرى التفسير.

وقوله كذلك خبر لهما أى زوال التأليف والخروج التفريق خروج الشىء عن صفاته المطلوبة منه فيكون هلاكًا، ومثله يسمى فناء عرفًا فلا يتم الاستدلال أيضًا بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦).

وعلى الإعدام.

واعلم أن الأقوال الممكنة فى مسألة الميعاد لا تزيد على خمسة:

الأول: ثبوت المعاد الجسمانى فقط وهو قول أكثر المتكلمين للنفس الناطقة.

والثانى: ثبوت المعاد الروحانى فقط وهو قول الفلاسفة الإلهيين.

والثالث: ثبوتهما معًا وهو قول كثير من المحققين كالحليمى[1] والغزالى[2]،

---

(١) **(الحليمى):** هو العلامة البارع رئيس أهل الحديث بما وراء النهر، القاضى أبو عبد الله الحسين ابن الحسن بن محمد بن حليسم البخارى الشافعى من أصحاب الوجوه، كان من أذكياء زمانه ومن فرسان النظر، له يد طولى فى العلم والأدب أخذ عن القفَّال وغيره، وله تصانيف مفيدة، وسمع أبا بكر محمد بن أحمد بن خنب، وخلف بن محمد الخيام، وبكر بن محمد المروزى الدخمسينى وطائفة، مولده سنة ثمان وثلاثين وثلاث مائة، نشأ ببخارى، وقيل: بل ولد ببخارى، له تصانيف مفيدة حدث عنه أبو عبد الله الحاكم مع تقدمه ونبله، والحافظ أبو زكريا عبد الرحيم البخارى وأبو سعيد الكنجرودى وآخرون، ولى القضاء، وترك عدداً من المؤلفات منها: المنهاج فى شعب الإيمان فى نحو ثلاثة مجلدات، وآيات الساعة وأحوال القيامة. وغير ذلك وتوفى رحمه الله سنة ٤٠٣هـ.

انظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ٤٠٨ الترجمة رقم (٩٢٣) انظر الذهبى: تذكرة الحفاظ: ٣/ ٣٠، ١٠ الترجمة رقم (٩٥٨) الذهبى: ١٧/ ٢٣٢ الترجمة رقم (١٣٨) ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ١٦٧ وكحالة: معجم المؤلفين ٤/ ٣.

(٢) **(الغزالى):** (أبو حامد الغزالى) هو: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الشافعى، المعروف بالغزالى (زين الدين، حجة الإسلام، أبو حامد حكيم، متكلم فقيه، أصولى، صوفى، مشارك فى أنواع من العلوم، ولد بالطابران إحدى قصبتى طوس بخراسان، وطلب الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى أبى نصر الإسماعيلى بجرجان، ثم إلى إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى بنيسابور، فاشتغل عليه ولازمه، وحضر مجلس نظام الملك، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت منزلة الغزالى، وندب للتدريس بنظامية بغداد، ثم أقبل على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز فحج، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين، ثم سار إلى القدس والإسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس، ثم إن الوزير فخر الدين ابن نظام الملك طلبه إلى نظامية نيسابور فأجاب إلى ذلك، ثم عاد إلى وطنه، وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ومدرسة، توفى رحمه الله سنة ٥٠٥هـ.

ابن الأثير: اللباب ٢: ١٧٠، ابن العماد: شذرات الذهب ٤: ١٠ - ١٣، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٥: ٢٠٣، اليافعى: مرآة الجنان ٣: ١٧٧ - ١٩٢، مختصر دول الإسلام ٢: ٢٣، ٢٤، ابن هداية: طبقات الشافعية ٦٩ - ٧١، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ٢: ٢٣٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢: ١٧٣، ١٧٤، مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل ١: ٢٦٥، طاش كبرى: مفتاح السعادة ٢: ٥١، ١٩١ - ٢١٠ حاجى خليفة: كشف الظنون =

والراغب[1]، وأبى زيد الدبوسى[2]، ومعمرى قدماء المعتزلة وجمهور من متأخرى الإمامية، وكثير من الصوفية فإنهم قالوا: الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة وهو المكلف، والمطيع، والعاصى، والمثاب، والمعاقب والبدن يجرى منها مجرى الآلة، والنفس باقية بعد فساد البدن، فإذا أراد الله ـ تعالى ـ حشر الخلائق خلق لكل واحد بدنًا يتعلق به، ويتصرف فيه كما كان فى الدنيا.

والرابع: عدم ثبوت شىء منها، وهذا قول القدماء من الفلاسفة الطبيعيين.

والخامس: التوقف فى هذه الأقسام وهو المنقول عن جالينوس فإنه قال:

لم يتبين لى أن النفس هل هى المزاج فينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها، أو هى جوهر باقية بعد فساد البنية فيمكن المعاد قدراً ولا مذهب للقائلين بالمعاد الجسمانى فقط.

ثم شرع فى بيان مذهب القائلين بالمعاد الروحانى فقط.

انتهى كلامهما، والحمد لله رب العالمين.

= ١٢، ٢٣، ٢٤، ٣٦، وكثير غيرها، وانظر هدية العارفين ٢/ ٧٩ - ٨١، انظر ترجمة وافية له فى الذهبى: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٢.

(١) **(الراغب الأصفهانى)** (٥٠٢هـ = - ١١٠٨م) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهانى (أو الأصبهانى) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء، من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالى، من كتبه (محاضرات الأدباء) مجلدان، و (الذريعة إلى مكارم الشريعة) و (الأخلاق) ويسمى (أخلاق الراغب) و (جامع التفاسير) كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوى فى تفسيره، و (المفردات فى غريب القرآن) و (حل متشابهات القرآن) و (تفضيل النشأتين) فى الحكمة وعلم النفس، و (تحقيق البيان) فى اللغة والحكمة، وكتاب فى (الاعتقاد) و (أفانين البلاغة) وانظر: الأعلام للزركلى: ٢/ ٤٥٠.

(٢) **(أبو زيد الدبوسى)**: أبو الفتح الدبوسى ميمون بن عبد الله بن محمد بن بكر بن مج الدبوسى السعدى، من أهل الدبوسية، بلدة بين بخارى وسمرقند، أقام ببخارى مدة ثم سكن مرو إلى حين وفاته، وكان فقيهًا صالحًا عفيفًا حسن السيرة محتاطا فى الوضوء والصلاة، حتى كان يخرج إلى الوسواس، سمع بمرو الإمام جدى أبا المظفر وأبا القاسم إسماعيل بن محمد بن أحمد الزاهرى وببخارى السيد إسماعيل بن محمد بن المحسن الحسينى، وأستاذه أبا سعد أحمد بن محمد بن إبراهيم الطبرى، وجماعة سواهم، كتبت عنه وسمعت منه، وكان سليم القلب مشتغلا بما يعنيه تاركا للفضول، ولد بالدبوسية فى حدود سنة ستين وأربعمائة أو بعدها، وتوفى بمرو ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ودفن بسنجذان، التحبير فى المعجم الكبير: ٢/ ٣٢٦ الترجمة رقم (١٠٣١).

مجلس فى:

بيان ضيف إبراهيم المكرمين وإهلاك قرى لوط ـ عليه السلام ـ

فى خمس عشرة آية من سورة هود:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان ضيف إبراهيم المكرمين، وإهلاك قرى قوم لوط ـ عليه السلام ـ فى خمس عشرة آية(1) فى سورة هود ـ عليه السلام ـ.

ولوط هو لوط بن هاران بن آزر ابن أخى إبراهيم عليه السلام.

أرسل إلى المؤتفكات وهى خمس قرى معظمها سدوم وكان فيها أربعة آلاف ألف إنسان من بين الذكور والإناث على ما قيل.

---

(1) الآيات فى سورة هود من الآية رقم (٦٩) إلى الآية رقم (٨٣) ونصها: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وكانوا معتادين على فعل اللواطة وكان سبب ذلك أن الشيطان أتى ناديهم فى صورة غلام، أمرد، مليح صبيح فمكن بعضهم فى دبره، ثم بعد ذلك تمرنوا على ذلك العمل الشنيع حتى سرى ذلك الداء أكثرهم فبقيت نساؤهم معطلات، فجاء إبليس يومًا مجمع نسائهم فى صورة امرأة حسناء فرأتهن محزونات فقالت: ما لكن؟ قلن: تركنا أزواجنا فبقينا معلقات بلا أزواج، فقالت: نحن فى بلادنا نفعل السحق فعلمهن السحق، فصار رجالهم لواطين ونساؤهم سحاقات، فأرسل الله ـ تعالى ـ إليهم لوطًا ـ عليه السلام ـ فوعظهم ونهاهم عن ذلك الفعل الشنيع عشرين مرة بقوله فى سورة الشعراء: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٥، ١٦٦) وفى سورة النمل: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل: ٥٤، ٥٥) وأمثال ذلك مما حكى الله فى القرآن.

فلما أصروا على فعلهم أرسل الله إليهم ملائكته بالعذاب على ما قال هنا أى فى سورة هود ـ عليه السلام ـ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾: قيل: اثنا عشر ملكًا: جبريل وميكائيل وإسرافيل وتسعة غيرهم.

وقيل: ثلاثة، وقيل: تسعة.

﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾: ملتبسين بها: بشرى الولد، وبشرى هلاك أهل الفساد، فإن هلاكهم رحمة للعالم، جاءوا فى صورة الغلمان الحسان وكان نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ لا يأكل طعامًا بلا ضيف، وكان كل يوم يمشى ثلاثة أميال يرتاد ضيفًا، فإن لم يجد ينوى صومًا فبقى مرة خمسة عشرة يومًا لا يجد ضيفًا فبعد ذلك جاءه ضيف مكرمون ـ ملائكة الله ـ فلما دخلوا بلا طلب منه لهم، بل جاءوا بغتة ﴿ قَالُوا سَلامًا ﴾ أى سلمنا سلامًا جاءوا بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد أى أحدثنا الآن الدعاء بالسلامة لك ﴿ قَالَ سَلامٌ ﴾: أى عليكم جاء بالجملة الاسمية الدالة على الثبات أى أدعو لكم بالسلامة دائمًا فحياهم بأحسن من تحيتهم لإكرام الضيف.

﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾: إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد تحيته فى أو عن.

﴿ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾: وما لبث وما تأخر مجيئه به ولم يتكلم معهم ولم يسأل عن حالهم ومجيئهم وإلا لظهر له ملكيتهم، وهذا أيضًا إكرام آخر للضيف.

فإن السنة فيهم تقديم الطعام على الكلام، والعجل: ولد البقر حديث العهد بالولادة، فإنه أطيب وكان عامة مال إبراهيم ـ عليه السلام ـ البقر.

«والحنيذ»: المشوى فى التنور كما فى بلادنا، أو على الرضف أى: الحجارة المحماة كما فى البادية، فأول ما يأكل الإنسان من اللحم وأطيبه الشوى.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾: أى إلى الشوى ﴿نَكِرَهُمْ﴾: أى أنكر فعلهم عدم الأكل قال: كلوا، قالوا: لا نأكل مما لم نعط ثمنه، قال: ثمنه بسم الله فى أوله والحمد لله فى آخره، فنظر جبريل ـ عليه السلام ـ إلى بعضهم قال: خليق بأن يتخذه الله خليلاً، ثم مسح جبريل العجل فحيى بإذن الله ـ تعالى ـ ولحق بأمه فعرف أنهم الملائكة.

﴿وَأَوْجَسَ﴾: أضمر فى قلبه.

﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: خوفًا لعلهم جاءوه للعتاب على زلة صدرت منه أو لتعذيب قومه، قال الله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ (الأحزاب: ٣٩) فأنكرهم لعدم أكلهم

قيل: أن يعرفه وهم ويجاس الخوف بعد معرفتهم أنهم الملائكة لعدم علمه لأى مصلحة جاءوا.

﴿قَالُوا لا تَخَفْ﴾: قد علموا خوفه أى بظهور أثره على وجهه أو بوحى الله فإن الملائكة لا يطلعون على ما فى قلب الإنسان.

﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾: لتعذيبهم.

وهذا الكلام إنما يكون مع تعرفهم ولا يعرف سبب مجيئهم.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾: سارة بنت هاران بن ناحور أخى آزر عم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فسارة بنت عم إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

﴿قَائِمَةٌ﴾: الجملة حال أى قالوا له ذلك وإلى كان امرأته قائمة.

قيل: من وراء السر، وقيل: بلا حجاب تخدمهم، لأن الاحتجاب شرع جديد.

﴿فَضَحِكَتْ﴾: سروراً لذهاب خوف إبراهيم أو لهلاك أهل الفساد أو لإصابة ظنها فإنها كانت تقول لإبراهيم: ضم إليك ابن أخيك فإن قومه هالكون.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾: خصها بالذكر لحرصها على الولد كما هو عادة النساء، وليعلم أن هذا الولد منها دون هاجر أو غيرها، ولسرورها بهلاك أهل الفساد وهو ظاهر.

﴿ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

بالنصب بفعل مفهوم من فحوى الكلام أى وهبناها يعقوب.

وكون يعقوب عطفًا على إسحاق فتحته لكونه غير منصرف يرده فصل الظرف بينه وبين حرف العطف، لأن العاطف نائب عن حرف الجر، أى: الباء فى ﴿ بِإِسْحَاقَ ﴾ فكما لا يجوز الفصل بين الجار والمجرور بالظرف لا يجوز بين نائب الجار والمجرور بالأولى.

وقراءة للرفع على أنه مبتدأ والظرف خبر والتسميتان إما وقعتا فى التبشير كما وقع فى يحيى وإما فى الحكاية.

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ﴾: تعجبًا وأصله فى الدعاء بالهلاك، ثم اتسع فى كل أمر عجيب.

﴿ أَأَلِدُ ﴾: إنكار للتعجب.

﴿ وأَنَا عَجُوزٌ ﴾: جملة حالية للتعليل.

﴿ وَهَذَا بَعْلِي ﴾: مبتدأ وخبره.

﴿ شَيْخًا ﴾: حال من الخبر والعامل معنى الإشارة والجملة عطف على الحالية للتعليل أى لا وجه لولادتنا فى العادة لأنى عجوز فى سن تسعة وتسعين وبعلى شيخ فى سن مائة وعشرين.

﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾: تذييل من القسم الأول له تأكيد الكلام السابق حصل الكلام أن ظهور الولد من الهرمين بعليل أو أمر غريب عجيب من حيث العادة لا من حيث القدرة، لأن الله ـ تعالى ـ قادر على كل ممسكن، فلذا تعجب منه.

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ ﴾: منكرين تعجبها، فإن التعجب هيئة تعرض للإنسان عند رؤية أمر غريب خارق للعادة ولكون سارة فى بيت الخليل رأت معجزات خارقة للعادة أكثر مما تعد فلا غرابة بالنسبة إليها، فلذا قالوا: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: فعله الخارق للعادة.

وعللوا إنكارهم لتعجبها بقولهم:

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾: فى أنواع الأمور من الخوارق وغيرها، مبتدأ وخبره ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ .

والمعنى: أن إحسان الله والزيادات فى أنواع الخيرات الخارقة وغيرها نازلة عليكم وحاصلة لكم فما معنى التعجب.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: إما نداء حقيقة أو على قصد التخصيص مثل قولهم بل أهل الترحم أوصل.

أو نصب على المدح أو على الاختصاص، وهذا غير النداء على قصد الاختصاص.

قال الرضى: ومما أصله النداء باب الاختصاص وذلك أن تأتى بأى وتجريه مجراه فى النداء من ضمه والمجىء بها التنبيه فى مقام المضاف إليه ووصف أى بذى اللام وذلك بعد ضمير المتكلم الخاص كأنا وإنى والمشار من به نحو: نحن وإننا لغرض بيان اختصاص مدلول ذلك الضمير من بين أمثاله بما نسب إليه وهو إما فى معرض التفاخر نحو أنا أكرم الضيف، أيها الرجل، أى أنا أختص من بين الرجال بإكرام الضيف أو فى معرض النصار نحو: أنا المسكين أيها الرجل أى مختصًا بالمسكنة من بين الرجال، أو المجرد بيان المقصود بذلك الضمير لا للافتخار ولا للتصاغر نحو: أنا أدخل أيها الرجل ونحن فقراء أيها القوم فكل هذا فى صورة النداء، وليس به المراد بصفة أى هو ما دل عليه ضمير المتكلم السابق لا المخاطب إنما نقل عن باب النداء إلى باب الاختصاص لمشاركة معنوية بين البابين إذا المنادى أيضًا مختص بالخطاب من بين أمثاله ولا يجوز فى باب الاختصاص إظهار حرف النداء معه، أى أنه لم يبق فيه معنى النداء لا حقيقة، كما فى يا زيد، ولا مجازًا كما بقى فى المتعجب منه والمندوب فكرة استعمال علم النداء فى الخالى عن معناه بالكلية وحال ظاهر، أى: ووصفه من ضم الأول ولزوم رفع الثانى كحالهما فى النداء ولكن مجموع نحو: أيها الرجل فى باب الاختصاص فى محل النصب لوقوعه موقع الحال، أى: مختصًا من بين الرجل.

وهذا كما قيل فى نحو سواء قمت أم قعدت إن قمت أو قعدت وإن كان فى الظاهر جملة معطوفة على جملة إلا أنه فى الحقيقة بتقدير مبتدأ عطف على اسم آخر، أى سواء قيامك وقعودك كما يجىء فى باب حرف العطف.

وقد يقوم مقام أى المذكور اسم منصوب دال على المراد من الضمير المذكور إما معرف باللام نحو: نحن العرب أقرى للنزل، أو مضاف نحو قوله ـ ﷺ ـ: (إنَّا

معاشر الأنبياء)[1] فينابك أى قلة كلام، وقولهم نحن آل فلان كرماء، وربما كان المنصوب علمًا قال بنا تميمًا يكشف النصاب.

قال أبو عمرو: وإن العرب نصبت فى الاختصاص أربعة أشياء: معشر، وآل، وأهل، وبنى.

قال: إنا بنى ضبة لا نفر، أقول: لا شك أن الأربعة المذكورة أكثر استعمالاً فى باب الاختصاص ولكن ليس الاختصاص محصورًا فيها.

قال «المص» المعرف باللام ليس منقولاً عن النداء، لأن المنادى لا يكون ذا لام ونحو أيها الرجل منقول عنه قطعًا، والمضاف يحتمل الأمرين: أن يكون منقولاً عن المنادى، ونصب بياء المقدر كما فى أيها الرجل، وإن ينتصب بفعل مقدر كأعنى أو أخص أو أمدح.

قال: والنقل خلاف الأصل، والأولى أن ينتصب انتصاب نحو العرب هذا كلامه.

والأولى: أن يقال: الجميع منقول عن النداء، وانتصابه انتصاب المنادى إجراء لباب الاختصاص مجرى واحدًا.

---

(١) حديث: (**إنّا معاشر الأنبياء...**) وعن أبى عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله ﷺ نعوده، فى نساء، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه مما يجده من حر الحمى، فقلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك، فقال رسول الله ﷺ: «إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» رواه الطبرانى فى الكبير بنحوه، وقال فيه: «إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء» وإسناد أحمد حسن، وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نعجل فطرنا وأن نؤخر سحورنا، وأن نضع أيماننا على شمائلنا فى الصلاة» رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح، وقد تقدمت لهذا الحديث طرق فى الصلاة، وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا بثلاث: بتعجيل الفطر وتأخير السحور، ووضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة» رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط، وفيه يحيى بن سعيد بن سالم القداح، وهو ضعيف، وعن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبها الله: تعجيل الإفطار، وتأخير السحور، وضرب اليدين إحداهما على الأخرى فى الصلاة» رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عمر بن عبد الله بن يعلى، وهو ضعيف، وعن أنس بن مالك قال: ما رأيت النبى ﷺ قط على صلاة المغرب حتى يفطر، ولو كان على شربة من ماء رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط ورجال أبى يعلى رجال الصحيح. انظر ابن حجر الهيثمى: مجمع الزوائد: ٢/ ٢٩٢ - ٣/ ١٥٥والاستشهاد هنا (معاشر. . .) أو معشر.

ثم نقــول: لكنهم جوزوا النصب ودخول اللام فــى نحو: نحن العرب، لأنه ليس بمنادى حقيقة، ولأنه لا يظهر فى باب الاختصاص حرف النداء المكروه مجامعته للأم.

وقد يأتى الاختصاص الذى باللام أو الإضافة بعد ضمير المخاطب نحو: سبحانك الله العظيم، وبك أهل الترحم أتوسل.

قالوا: وإن كان الاختصاص باللام أوالإضافة يأتى بعد ضمير الغائب نحو مررت به الفاسق، أو بعد الظاهر نحو: الحمد لله الحميد، أو كان المختص منكرًا فليس من هذا الباب، بل هو إما على المدح نحو: الحمد لله الحميد، أو الذم نحو: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد: ٤) أو الترحم نحو قوله: لنا يوم وللكروان يوم نظير البائسان ولا يضر.

وقوله:

يأوى إلى تسوية عطلَ، وشعث مراضيع مثل السعالى.

بفعل لا يظهــر وهو: «أعنى»، أو أخص فى الجمــيع، أو أمدح أو أذم، أو أترحم كل فى موضعه.

هذا ما قيل، ولو قــيل فى الجميع بالنقل من النداء لم يبعد لأن فى الجــميع معنى الاختــصاص فنكون أجرينا هذا الــباب مجرى واحــدًا، أو كما ينــصب على الزم ما هو المراد مما قبله نحو: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ينصب عليه ما يشبه به فى القبح شىء مما قــبله كقوله لحى الله جرحــا كلما ذر شارق وجد مكلاب هارشــت فاز بارت وقال افارع عوف لا حاول غيرها وجوه قرود تبتغى من مخادع. انتهى.

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾: يفعل ما يستحق به الحمد.

﴿مَّجِيدٌ﴾: كثير الإحسان واللفظ تذييل من القسم الثانى تأكيدًا للكلام السابق.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾: لظهور أنهم أرسلوا لتعذيب قوم آخرين.

﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾: بالولد.

﴿يُجَادِلُنَا﴾: أى: يجادل رسلنا إما للمجاز فى النسبة أو فى الحذف وهو جواب لما. وصيغــة المضارع لحكاية الحــال الماضية أو مــتعلق بجواب لما، أى شــرع وأقبل يجــادلنا، وهذا الجــدال بين الخلــيل والمــلائكة غــير مــذمــوم، فــإنه كــالجــدال بين المجتهدين، والخليل أفضل منهم عندنا.

﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: فى شأنهم وهلاكهم وصورة جدالهم قال الخليل والأم للتراخى

فأمهلوهم حتى يتوبوا قالوا: الأمر على الفور فيعذبون فى الليلة الآتية أو أبدى الخليل المانع بقوله فى سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ (العنكبوت: ٣٢) بعد إبدائهم الموجب بقولهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (العنكبوت: ٣١) فى السورة المذكورة، فأجابوا عن المانع: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ (العنكبوت: ٣٢) الآية فى السورة المذكورة.

قال المفسرون: سورة المجادلة، قال الخليل: لعل فيهم أربعمائة مسلم، قالوا: إذا لا نهلكهم، قال: بل ثلاثمائة قالوا: لا هلاك حتى نزل إلى العشرة، قالوا: لا هلاك إذًا، فقال قتادة:

ما قوم لا يكون فيهم خير قال تعالى فى سورة الذاريات: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٦).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالانتقام ممن أساء إليه.

﴿أَوَّاهٌ﴾: كثير التأوه لخشيته من الله.

﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إليه فى كل حال، وهذه الصفات الثلاث تقتضى رقة القلب والشفقة على الخلق، فلذا جادل جدالا مسنا كما مر، فعند ذلك قالت الملائكة: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: الجدال.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: شأنه وهو قدره بمقتضى قضائه فى الأزل.

قال البيضاوى فى شرح المصابيح:

القضاء عبارة عن إرادة الله الأزلية والعناية الإلهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص وحاصله تعلق الإرادة الأزلية فى وقت وجود الحادث وهو القدرة والعلو أمر اعتبارى الإضافات لا يوصف بالقدم ولا بالحدوث، فأخبروه أن إرادة الله تعلقت فى هذا الوقت بعذابهم فيه.

﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: بالجدال ولا بالدعاء ولا بالشفاعة.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾: فى مزرعة له يعمل فيها مع بناته جاءوه فى صور الغلمان الحسان الوجوه وقالوا: إنا ضيف لك.

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾: أى ساءه آخرته مجيئهم فى هذه الصور لعلمه بخبث قومه.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أى صدرًا وقلبًا وأصله الذراع يقال: فلان رحب الذراع،

والذراع للمطيق بالأمر، وضـيق الذراع والذرع لغير المطيق بـه، فكنى هنا بضيق الذرع عن ضيق القلب وعدم الإضافة للمكروه.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: أى شديد من عصبه أى شده وكان الله قد قال للملائكة ما لم يشهد لوط أربع شهادات بخبث قومه لا تهلكوهم لأن اللواطة فى حكم الزنا فقال لهم: أيها الفتـيان ليس على وجه الأرض قوم أخبث من قومى كـرره عليهم أربع مرات ثم ذهب لهم إلى بيته عند وقوع الظلـمة، فما شعر بهـم أحـد إلا أن امرأته أخـبرتهم ـ أى: قومـه ـ بأن فى بيتنا غلمـانًا حسانًـا ليس على وجه الأرض مثلهـم، فعند ذلك جاءوا باب لوط ـ عليه السلام ـ قيل: ألف رجل.

كما قال: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أى يسرعون.

وأصل يدفعون دفعًا عنيفًا كأن دافعًا يدفعهم.

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: اعتراض يؤكد السـابق وكأن هى الدائمة أى كانت عادتهم المستمرة من قـبل ذلك الوقت عمل السيئات من اللواطة وكشف العورة، فيما بينهم، والفراط فى مجالسهم فلذا لم يستحيوا من الله ـ تعالى ـ ولا من الناس، بل جاءوا باب نبيهم جاهرين بفعل القبيح.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾: مبتدأ وخبر ﴿هُنَّ﴾: أى: إتيانهن ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: من إتيان الذكور فهو من قبيل قولك زيد أعلم من حمار، والصيف أحر من الشتاء، أى هذا فى بابه الحل أبلغ من ذلك فى بابه أى الحرمة.

وقيل: المراد بالبنات نـساء قومه لأن كل نبى أبو أمتـه لقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُـــهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

فالمعنى إتيان حلائلكم لائق بكم وواجب عليكم، وإتيان الذكور حرام.

وقيل: المراد بهـا بنات لوط ـ عليه السلام ـ اثنتا عشـرة كما قيل فدا بهن ضـيوفه اثنتى عشرة فعـرضهن عليهم بالنكاح لأن إنكاح الكافر المسلمة كـان جائزًا فى شرعهم وقد كان تزوج منهم امرأة الكافرة.

وقيل: هذا العـرض سائرى حقـيقة ليست بمـراده، بل المراد المعنى المـجازى، فعرض عليـهم بناته بلا قصد الانكاح فمـراده منه المبالغة فى تحريـم فعلهم وفى شدة غيظه لهم.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾: بترك المحرم أو ترك إيذائه فى ضيفه.

﴿ وَلا تُخْزُونِ ﴾: لا تفضحون، من الخزى، أو لا تخجلون من الخزاية.

﴿ فِي ضَيْفِي ﴾: فى شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاءه.

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ ﴾: واحد وإن لم يكن أكثر.

﴿ رَّشِيدٌ ﴾: ذو رشد ينهاكم عن فعلكم.

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾: حاجة وشهوة.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾: من إتيان الذكور.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ ﴾: متعلق بقوله.

﴿ قُوَّةً ﴾: لأن الظرف يتسع فيه.

﴿ أَوْ آوِي ﴾: عطف على الفعل المحذوف بعد لو أى لو ثبت أن لى بكم قوة أو أوت، فالاستقبال للاستحضار.

﴿ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾: إلى رجل منيع فى قومه أو عشيرة منيعة، مأخوذ من ركن الجبل أى جانبه.

ولو إما للشرط أو للتمنى.

وحاصل المعنى على الأول لو قويت عليكم بنفسى لفعلت بكم ما فعلت من القتل والنكال، ثم تنزل فقال: أو لو أويت إلى رجل منيع أو عشيرة منيعة لتخلصت من ذلك الخزى لا أقل.

وعلى الثانى: ليت لى القوة عليكم بنفسى أو الأوى والالتجاء إلى منيع لا أقل.

وفتح باب لو وليت وإن أفضى إلى الوسوسة، لكنه صدر عن النبى ـ ﷺ ـ المعصوم بمقتضى البشرية لشدة تألمه وتأذيه فعند ذلك وقد كان لوط ـ عليه السلام ـ قد أغلق بابه يناظر قومه من ورائه، وقد بلغ الألم والأذى نهايته.

قال جبريل: إن ركنك لشديد افتح الباب وخلهم يدخلون وهو معنى قوله: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾: تأكيد لكونهم رسل الله لأنه يستلزم أن لا يصلوا إليه، أى إلى إضراره بإضرار ضيوفه، ففتح الباب ودخلوا فنشر جبريل ـ عليه السلام ـ جناحه فضرب به وجوههم فطمس أعينهم فقالوا: النجا النجا إن فى بيت لوط قومًا سحرة.

قال الله ـ تعالى ـ فى سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٧).

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ﴾: بطائفة.

﴿مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ﴾: لا ينظر.

﴿مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلى ورائه.

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾: بالنصب استثناء من أهلك أى لا تخرجها معك وإن خرجت هى بنفسها.

فيجوز أن لا يخرجها لوط ـ عليه السلام ـ لكن خرجت بنفسها، فلا ينافى قراءة الرفع استثناء من أحد لأنها تقتضى أن تخرج فتنظر إلى ورائها فتهلك.

وقيل: على قراءة النصب أيضًا استثناء من أحد، لكن المختار كان الرفع.

لكن يجوز إطباق أكثر القراء على غير المختار كما قرأ ابن عامر فى قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦) بالنصب وما قال صاحب الكشاف:

إن اختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين غير صحيح لأن القراءتين غير صحيح قطعًا.

وأجاب عنه صاحب الكشاف: بأن معنى قول الكشاف إن القراءتين سبب وجالب للروايتين.

وقال الرضى: إن قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ إلى آخرة حال، وقيدوا الاستثناء عن الكلام المقيد من حيث هو مقيد سواء جعل عن القيد والمقيد فالمال واحد.

وعللوا استثناء المرأة على كل حال بقولهم ﴿إِنَّهُ﴾ أى الشأن.

﴿مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾: ثم قال: متى هلاكهم؟ قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾: فتعجل لوط.

وقال: أريد أسرع من ذلك.

فقال: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أى: قدرنا كما مرَّ لإعادته معرفة ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

روى أن وقت الصبح بعدما أخرج لوط ـ عليه السلام ـ أهله من أرض القوم غير امرأته فإنها خرجت بغير الأمر تبعًا لولدها، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت: واقوماه فأصابها حجر فهلكت.

أدخل جبريل ـ عليه السلام ـ جناحه تحت المدن الخمس فرفعها إلى السماء حتى سمعت ملائكة السموات صياح الديكة ونباح الكلاب ثم قلبها فخرجت من مواضعها بحر أسود نتن.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾: على المدن أى أهلها قبل القلب، والواو لا تقتضى الترتيب، هذا هو الظاهر، وقيل: على شذاذها بحذف المضاف.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: معرب سبك كل، ويدل عليه قوله: «حجارة من طين»، وقيل: من جهنم اسمها سجين فاللام مبدلة من النون.

يرده قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾: مسابع كأنه بعضه على بعض أو نضد فى معدته، أو نضد بعد الوقوع على الأرض لكثرته ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: معلمة باسم من يقع عليه، أو بعلامة العذاب.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: فى خزينة.

﴿وَمَا هِيَ﴾: أى القرى أو الحجارة.

﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: من كل ظالم أمن من ظالمى مكة لوقوعها على طريقهم نمر ذلك عليها فى أسفارهم إلى الشام أو من ظالمى أمتك.

﴿بِبَعِيدٍ﴾: بمكان بعيد وبشيء بعيد.

قال ابن كثير: قوله ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: أى وما هذه النقمة ممن شبه لهم فى ظلمهم ببعيد منه.

وقد ورد فى الحديث المروى فى السنن من حديث عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)(١).

---

(١) حديث: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول) عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» قال سليمان بن بلال: سمعت يحيى بن سعيد وربيعة يقول: إن من عمل عمل قوم لوط فعليه الرجم، أحصن أو لم يحصن» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد، عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به، (ومن وجدتموه يأتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، انظر: الحاكم: المستدرك: ٤/ ٣٩٥ (٨٠٤٧، ٨٠٤٨)، =

وذهب الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنًا أو لم يكن محصنًا عملاً بهذا الحديث.

وذهب الإمام أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ إلى أنه يُلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب. انتهى.

قال مولانا خسرو[(١)] في كتاب الحدود من (درر الحكام في شرح غرر الأحكام)[(٢)] أن من أتى في دبر غلام فإنه لا يحد، عند أبي حنيفة، وعندهما وعند الشافعي ـ رحمهم الله تعالى ـ يحد، لأنه في معنى الزنا لأنه قضاء الشهوة في محل مشتهى على سبيل الكمال المتمحض حرامًا وله أنه ليس بزنا.

فإن الصحابة اختلفوا في موجبه من الإحراق وهدم الجدار عليه والتنكيس من محل مرتفع باتباع الأحجار.

فعند أبي حنيفة يعذر بأمثال هذه الأمور. انتهى.

أعاذنا الله من شرور أنفسنا ومن سيئات قبيح أعمالنا آمين والحمد لله رب العالمين.

= ٨٠٤٩): والترمذي: ٤/ ٥٧، والبيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ٢٣١: والدارقطني: ٣/ ١٢٤، وأبو داود ٤/ ١٥٨، مسند أحمد: ١/ ٣٠٠، ومسند أبي يعلى: ٤/ ٣٤٨.

(١) **(مولانا خسرو)** اسمه: محمد بن قرامز بن خواجة علي، كان عالمًا عاملا محققًا فاضلا استقضاه السلطان محمد المطلوب بالعسكر ثم صار قاضيًا بمدينة قسطنطينية، ثم صار مفتيًا بها سنين كثيرة توفي سنة ٨٨٥ هـ له مصنفات كثيرة في علوم عديدة مثل الدرر وشرحه الغرر، وحواشي التلويح وحواشي المطول، وغير ذلك من الكتب والرسائل. انظر: أبجد العلوم: ٣/ ١٢١، حاجي خليفة: كشف الظنون: ١/ ٧٤٧.

(٢) (كتاب **(درر الحكام في شرح غرر الأحكام)** غرر الأحكام في فروع الحنفية متن متين لمنلا خسرو المتوفى سنة ٨٨٥ هـ، وشرحه وسماه: درر الحكام ومن الحواشي المشهورة عليه حاشية المولى محمد بن مصطفى الواني الشهير بوانقولي سماه: الدرر، أوله الحمد لوليه... إلخ، فرغ منه في محرم سنة ٩٩٥ خمس وتسعين وتسعمائة وتوفي سنة (١٠٠٠) ألف، ثم حاشية المولى حالتي مصطفى بن بير محمد الشهير بعزمي زاده المتوفى سنة ١٠٤٠ أربعين وألف، وهو معتبر مقبول ،غيره كثير، انظر حاجي خليفة: كشف الظنون: ٢/ ١١٩٩.

مجلس في:

بيان خصائص خمس لإبراهيم ـ عليه السلام والكرامات الخمس في مقابلتها له

أربع آيات من سورة النحل(١):

وفي بيان الخصال الخمس لإسماعيل ـ عليهما السلام ـ

في آيتين من سورة مريم:

وفي بيان وفاتهما

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فهذا مجلس في بيان خصائص خمس لإبراهيم ـ عليه السلام ـ والكرامات الخمس في مقابلتها له أربع آيات من سورة النحل، وفي بيان الخصال الخمس لإسماعيل ـ عليهما السلام ـ في آيتين من سورة مريم وفي بيان وفاتهما.

قال الله ـ تعالى ـ في آخر سورة النحل:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: أي جامعًا لخصال حميدة ومكارم وأخلاق شريفة فائتة عن العد والحصر بحيث لا يكاد يوجد جميعها إلا في أُمَّة عظيمة من الناس.

كما قال الشاعر:

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وكان مؤمنًا واحدًا والناس كلهم كفار وذلك حين أول ظهوره قبل أن تؤمن به سارة ولوط ـ عليه السلام ـ كان صبيًا.

---

(١) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أو تقول: أمة فعلته بمفعول كالرحلة بمعنى ما يرحل إليه والنخبة بمعنى المنتخب قامة بمعنى مأموم من أمه إذا قصده، أى: من يؤتيه الناس لتعلم الخبر منه فحاصله معلم الناس الخير لأنه يقصده كل واحد من كل أواب ومن أعنت الناس، أى صرت إمامًا لهم، فأمة بمعنى من يؤتم به، أى يقتدى به، كما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤).

﴿قَانِتًا﴾: مطيعًا.

﴿لِّلَّهِ﴾: قائمًا بأوامره.

﴿حَنِيفًا﴾: أى مائلاً عن كل الأديان إلى دين الإسلام، من حَنَفَ إذا حال ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ سقوط النون لأنه يشبه حرف العلة لمجيئه من هؤلاء الخيشوم من كان الدائمة، أى: ما كان فى صغره ولا كبره ولا فى حالة من أحواله من المشركين شركًا جليًا كالإشراك بالله أو خفيًا كالرياء.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: جيء مجمع العلة إيذانًا بأنه كان لا يبخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة.

روى أنه ـ عليه السلام ـ كان لا يأكل إلا مع الضيف، ولم ينزل عليه ضيف أيامًا، ثم بعد ذلك جاءه ملائكة فى صورة البشر فدعاهم أن يأكلوا معه فخيلوا إليه أن بهم جذامًا فقال: الآن وجبت مواكلتهم شكر النعمة إن الله عافانى مما ابتلاكم به فهذه هى الخصال الحميدة الخمس: كونه أمة وقانتًا لله حنيفًا وغير مشرك وشاكرًا لمطلق نعمه، فأكرمه الله وأنعم عليه بمقابلة هذه الخصال الخمس بالإكرامات والإنعامات الخمس وهى قوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾: أى: اصطفاه من جميع الناس من جبى الماء فى الحوض، أى: جمع، ومنه الجابية للحوض.

فحقيقة جمع الله إبراهيم وجميع قواه فى جنابه الاقدس وصيَّر همومه همًا واحدًا، بحيث لم يتفرق باله ولم تتشوش حاله، بل صار مطمئنًا بذكر الله دائمًا.

وهذا الجمع كمال يتنافس فيه المتنافسون ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء: ٦٩) وهداه إلى صراط مستقيم فى التوجه إليه حين قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (الأنعام: ٧٩) فلم يعرج إلى ما فى الكون من الأشياء الفانية فى حد ذاتها لا مكانها، وفى آخر الأمر بعدم بقائها بل

توجه إلى موجد الكل، ورأى بعين قلبه قيوم العالم وقيومية له، وقيام العالم به، لأن القيوم من يقوم بنفسه ويقيم غيره، ورأى تصرفه وتعريفه لأجزاء العالم دائمًا، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥).

وهذه الهداية إلى هذا الصراط المستقيم أمر يغبطه فيه الأولون والآخرون.

وكما حصل لنبينا في حديث المنام كما سبق وهو قوله: (فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت...)[1] الحديث.

وقد كتب الإمام محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ إلى بعض أصدقاء له أرسلته في بيان القيومية بالفارسية ترجمتها هذه الروح الإنساني موجود يرى كالمعدوم لأنه لا طريق لأحد إليه وهو السلطان والقاهر والمتصرف في البدن، والبدن أسير له وعاجز عنده كل ما يرى، يرى من البدن، والبدن لا خبر ولا شعور له فيه، فهكذا حال العالم بالنسبة إلى قيومه ـ تعالى ـ لأن قيوم العالم موجود لا يرى فكل ذرة من ذرات العالم قوامه ووجوده ليس بنفسها بل بقيوم وقيوم كل شيء يكون بالضرورة معه وحقيقة الوجود للقيوم ووجود المقوم منه على سبيل العارية.

وهذا المعنى سر قوله ـ تعالى ـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤).

ولكن لا يعلم الناس إلا معية الجسم بالجسم، أو معية العرض أو معية العرض بالجسم، وهذه الثلاثة في حق قيوم العالم محال فمعية القيوم بالمقوم وهي قسم رابع لا يعرفه الناس بل هي المعية في الحقيقة فقط، وهذه المعية أيضًا موجودة ترى كالعدم

---

(١) حديث: (فوضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت...) عن بعض أصحاب النبي ﷺ، قال: إن رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات غداة وهو طيب النفس، مسفر الوجه، أو مشرق الوجه، فقلنا: يا رسول الله إنا نراك طيب النفس مسفر الوجه ـ أو مشرق الوجه ـ فقال: «وما يمنعني وأتاني ربي الليلة في أحسن صورة فقال: يا محمد، قلت لبيك ربي وسعديك، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى قلت: لا أدري أي رب، قال ذلك مرتين أو ثلاث، قال: فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي حتى تجلى لي ما في السماوات وما في الأرض، هذه الآية ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية، قال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الكفارات، قال: وما الكفارات؟ قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد خلاف الصلوات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، قال: من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، ومن الدرجات: طيب الكلام وبذل السلام، وإطعام الطعام، =

وكل من لا يعرف هذه المعية يطلب القيوم ولا يجده وكل من عرفها وجده بلا طلب. انتهى.

وأورد له مثالاً وقال: إعصار فى الهواء الصافى ينبعث من الأرض على صورة منارة مستطيلة يلتوى على نفسه فكل أحد ينظر إليه أن أجزاء التراب يتحرك بنفسها وتلتوى، وليس كذلك، بل مع كل ذرة من ملك الأجزاء ريح تحركه لكن الريح والهواء لا يرى، وأجزاء التراب، فأجزاء التراب فى المحركية معدومة ترى موجودة والهواء موجود يرى معدومًا، فأجزاء التراب ليس لها فى الحركة إلا كونها مسخرة وعاجزة فى يد الهواء والسلطنة لا ترى للهواء وسلطنة لا ترى. انتهى.

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لا يكتنه كنهها، فالتنكير للتفخيم والتكثير وهى النبوة والرسالة والخلة والإمامة العامة المؤيدة والعمر الطويل فى سعة من المال والطاعة لله تعالى، والأولاد الصالحبن وحبيبه إلى جميع خلقه فالمشركون من العرب كانوا يحبونه ويفتخرون به بأنهم من نسله، وكذا اليهود والنصارى وكذا أمة محمد - ﷺ - يحبونه ويصلون عليه فى صلواتهم كما صليت على إبراهيم.

﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: الذين لا يؤتون بفساد أصلاً فى عقائدهم وأعمالهم.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: وثم للتراخى الرتبى لا الزمانى تدل على أن البون بين الكرامات الأربع السابقة وبين هذه الكرامة بعيد لا يتناهى، أى بعد هذه الكرامات كرامة لا نسبة بينها وبين ما سبق، بل بينهما كما بين الثريا والثرى وهى: «إنا» بعظمتنا.

﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: أيها السيد للأولين والآخرين ويا خاتم النبيين ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: لكونه مقدمًا عليك لا لكونك تابعًا له، صاحب الكشف وحاشية الكشاف فى تفسير سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ١٣٠).

= والصلاة بالليل والناس نيام، فقال: يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إنى أسألك الطيبات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تتوب علىَّ، وإذا أردت فتنة فى الناس فاقبضى إليك غير مفتون) انظر: مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٧٨ رقم (٢٣٢٥٨) مجمع الزوائد: ٧/ ١٧٦، سنن الدارمى ٢/ ١٧٠، مسند الروياني: ١/ ٤٢٩، نوادر الأصول ٣/ ١٢٠.

الملة فى الأصل اسم من املك الكتاب على ما ذكر من الراغب، أو من قولهم طريق ممل، أى ملوك معلوم على نقله الأزهرى عن الزجَّاج، وهذا أشبه بلفظ جاد الله حيث قال: الملة: السنة والطريقة نقل إلى أصول الشرائع اعتبار أنها عليها النبى المبعوث على من أمر بإرشادهم ولهذا لا يختلف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيها وقد يطلق على الباطل كما يقال الكفر ملة واحدة ولاعتبار ملاحظة الأصل لا يضاف إلى الباعث تعالى شأنه، فلا يقال: ملة الله ولا إلى آحاد الأمة والدين يراد بها صدقًا يدل عليها قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ﴾ (الشورى: ١٣).

وقال البيضاوى: أى شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من الله باب الشرائع وهو الأصل المشترك فيما بينهم. انتهى.

لكنه باعتبار قول المأمورين لأنه الطاعة فى الأصل وللنظر إلى حدتها قال تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الأنعام: ١٦١).

وقد يتجوز فيه خاصة فيطلق على الفروع أيضًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥) أى الملة القيمة على أن تغاير الاعتبار كاف فى صحة الإضافة وعلى الطائفة المخصوصة بعمر ودون زيد نظر إلى الأصل، ولهذا صح إضافته إلى الباعث ـ تعالى ـ وإلى الآحاد ويقع على الباطل أيضًا كقول عدى بن حاتم:

إنى من دين

وأما الشريعة فهو المورد فى الأصل وهى اسم للأحكام الجزئية التى يتهرب بها المأمورون معاشًا أو معادًا سواء كانت منقوصة من الشارع أو راجعة إليه، ولذلك قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

والتبديل والنسخ يقع فيها ويتجوز فيطلق على الأصول الكلية أيضًا، إطلاقًا شائعًا. انتهى.

وقال النيسابورى: المختار اتحاد الملتين فى الأصول فقط، لكن نبوة محمد ـ ﷺ ـ من جملة الأصول التى مهدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

والمراد بملة إبراهيم فى الآية أصولها التى لا تختلف بمر الأعصار، وكرِّ الدهر،

فلا يلزم أن يكون محمد ـ ﷺ ـ راغبًا عنها لأنه أُمِرَ باتباعها ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٣).

روى أن هاجر أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ماتت بمكة ودفنها إسماعيل عليه السلام فى الحجر، وهو الحطيم ثم بعد ذلك ماتت سارة بالشام فى سن مائة وسبعة وعشرين ودفنها إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى مغارة كان اشتراها ثم تزوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الكنعانيين امرأة اسمها «قنطورا» بنت «يقطن» فولدت له ستة أولاد ذكور: مدين، ومدان وزمران، ويقشان ونيشاق، وشوح[1].

هكذا فى «القانون الحاكى».

وتزوج امرأة من العرب أى جرهم جيران إسماعيل ـ عليه السلام ـ اسمها (حجوزا بنت أهيب) فولدت له خمسة أغلمة أى بنين وبلغ عمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ مائتين، وقيل: مائة وتسعين، وبلغ أولاده الذكور ثلاثة عشر مع إسماعيل وإسحاق، وأسكن كلا فى طرف من الأرض، فإسماعيل بمكة، وإسحاق بالشام، ومدين فى بلاد مدين، وكذا غيرهم.

ثم بعد ذلك اتخذ يومًا ضيافة عامة للناس وحضر مجلسه من الفقراء والأغنياء والغرباء والمسافرين والمجاورين خلق عظيم، وأمر بالمائدة فبسطت فعند ذلك ظهر على الطريق شيخ فانٍ لا يقدر على المشى فأرسل فتيانه فَوَضعوه على فرس وجاءوا فأدناه من نفسه فوضع له الطعام فلا يقدر الشيخ أن يأكل فكلما رفع لقمة ذهب بها إلى عينه أو أذنه أو أنفه، وإذا وضع فى فمه تسقط اللقمة من فورها، سأله عن سبب ذلك؟ فأجاب بعمر يزيد على عمر إبراهيم سنين قلائل، فقال ـ عليه السلام ـ: إننى إذا وصلت إلى ذلك المبلغ أصير هكذا، قال الشيخ: حاصل عمر الإنسان وحياته ومالها

(١) ذكر فى البداية والنهاية لابن كثير هذه الأسماء وضبطت الأسماء منها إلا أنه قال: ولم يُسَمِّ السادس، ولعل هذا الاسم هو أحد أسماء أبناء المرأة التى من جرهم ولكن اسمه (سورج) أما اسمها فقد ذكر ابن كثير أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) تزوج بعد قنطورا بنت يقطن الكنعانية، امرأة من العرب من جرهم اسمها: (حجون بنت أمين) وقال: إنها ولدت له (عليه السلام) خمسة من الذكور هم (كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس) ثم قال: إن هكذا ذكره السهيلى فى كتابه (التعريف والإعلام) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١/ ١٧٥ وانظر تفاصيل أكثر فى كتاب «مروج الذهب» للمسعودى ١/ ٤٦.

هذا الضعف فعند ذلك دعا الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بقوله: «رب ألحقنى بالصالحين»[١] من الأنبياء المرسلين فعند ذلك تحول الشيخ إلى صورته الملكية، وقد كان ملك الموت قد جاء إلى إبراهيم لتقبيح الدنيا عليه ليميل إلى ما عند الله، فقبض روحه، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه.

وقال الله تعالى فى سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾: أى القرآن.

﴿إِسْمَاعِيلَ﴾: أى قصته فبينها على وجه الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ (مريم: ٥٤): وكل الأنبياء متصفون بصدق الوعد لكن وقع أمور له لم يتفق لغيره من الأنبياء مثلها فى صدق الوعد فاشتهر به.

منها: أنه وعد الصبر من نفسه على ذبحه قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

ثم وفَّى بذلك الوعد أكمل الوفاء ولا صدق للوعد أكمل من هذا.

ومنها: أنه روى أنه وعد رجلاً المكث فى برية فذهب الرجل ونسى الوعد فبقى فى ذلك الموعد ثلاث ليال.

ومنها: أنه روى، عامل مع رجل فى موضع حزب معاملة فذهب ليجىء بالثمن أو السلفة وطلب منه المكث فى ذلك الموضع فوعد له فنسى الرجل الوعد ووقع أمر شغله عنه فبقى إسماعيل ـ عليه السلام ـ فى ذلك الموضع سنة واتخذ لنفسه بيتًا فمكث فيه حتى إن الرجل مر يومًا عليه فسأله فقال: إنى أنتظرك منذ سنة لوعد وعدته لك، فتحير الرجل فقال: إنى نسيت فأعتذر.

وقد وقع لنبينا ﷺ مثله: قال ابن كثير: عن عبد الله بن أبى الحمساء[٢] قال:

---

(١) وهو قوله (عليه السلام): ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهو نص الآية رقم (٨٣) من سورة الشعراء.

(٢) (**عبد الله بن أبى الحمساء**) العامرى، من بنى عامر بن صعصعة، له صحبة، سكن البصرة، وقيل: سكن مصر، له حديث واحد، مختلف فى إسناده، رواه بُدَيل بن ميسرة عن عبد الكريم، عن عبد الله بن شقيق، روى له أبو داود، وقد وقع لنا حديثه عاليًا جدًا، قال ابن حجر: لم أر له فى أهل مصر ذكرًا، وقيل: سكن مكة، وفى الحديث قال: (بايعت رسول الله ﷺ) بيعًا قبل أن يُبعث فبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى =

تبايعت رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث فبقيت له على بقية فوعدته أن آتى بها فى مكان ذلك، قال: فنسيت يومى والغد فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك، فقال لى: يا فتى، لقد شققت علىَّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك)[1].

وكأن رسولاً نبيًا قد أرسل بعد أبيه إلى جرهم فدعاهم إلى الله وأظهر المعجزة وأتى بشرع مجدد لأن الرسول من ضم إلى المعجزة الشرع المجدد.

وقد قيل: إن أولاد إبراهيم إلى موسى ـ عليهما السلام ـ كانوا على شريعته كما أن أنبياء بنى إسرائيل إلى عيسى ـ عليهم السلام ـ كانوا على شريعة موسى ـ عليه السلام ـ.

ويمكن أن يقال: لا يلزم فى الشرع المجدد أن يكون مغايرًا بالكلية لما قبله، بل تكفى المغايرة فى الجملة.

وأيضًا لا يلزم أن يكون الشرع المجدد متلوًا فى كتاب مغاير لما سبق قبله، بل يجوز أن يكون كتاب إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو صحف إبراهيم الثلاثين النازلة عليه، ومع ذلك جاز أن يأمر إسماعيل وينهى بأمور لم تثبت فى شرع إبراهيم ـ عليه السلام.

قيل: فيكون الأمر والنهى المذكوران بالوحى الغير المتلو كما كان لنبينا ـ عليه السلام ـ أكثر من أن يحصى.

فبهذا الاعتبار يكون المجموع، أى ما فى الصحف وما آمره أو نهاه إسماعيل ـ عليه السلام ـ شرعًا جديدًا.

وهكذا أرسل بنى إسرائيل فلا إشكال أصلاً.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ (مريم: ٥٥): أى أولاده وسائر أهله الأقربين، وإنما خصهم لأنهم قدوة الناس فبصلاحهم صلاح الناس، ولأن إرشادهم أهم كقوله تعالى ﴿وَأْمُرْ

= والغد، فأتيته اليوم الثالث فوجدته فى مكانه فقال: يا هذا لقد شققت علىّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك) انظر: المزى تهذيب الكمال: ١٠/ ٩٤)، الترجمة رقم (٣٢١٧) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٥/ ١٦٨ ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٥٨ الترجمة (٤٦٢٥).

(١) حديث: (يا فتى لقد شققت علىّ أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك) أورده السيوطى فى جامع الأحاديث وقال: رواه أبو داود، وابن سعد عن عبد الله بن أبى الحمساء (رضي الله عنه) انظر: السيوطى: جامع الأحاديث ٧/ ٧٢٨ الحديث رقم (٢٨٠٠٨).

أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾ (طه: ١٣٢) وكقوله تعالى ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (التحريم: ٦) وكقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

فكما أن الإحسان الدنيوى إليهم أهم كقوله ـ عليه السلام ـ (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول)[1].

كذلك الإحسان إلا ضرورى.

ويجوز أن أهله جميع أمته، أمة الإجابة لا أمة الدعوة لقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هود: ٤٦).

والتعبير عنهم بالأهل لإدماج أن إرشاده ـ عليه السلام ـ للإجابة كان كإرشاد أهل الأقربين، ففيه تنبيه على أن العالم ينبغى أن لا يألو جهداً فى إرشاد جميع الناس بل ينبغى أن يجتهد فى إصلاحهم كإصلاح أولاده.

---

(١) حديث: (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول...) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما ورد فى رواية الطبرانى فى الكبير قوله (ﷺ): (ابدأ بمن تعول) رواه عن حكيم بن حزام ١/ ٧٩ جامع الأحاديث حديث: (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) وقوله ﷺ: «إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه» هو مثل حديث: ابدأ بنفسك ثم بمن تعول، قوله ﷺ: «أنا الفرط على الحوض» الفرط بفتح الراء ومعناه السابق إليه، والمنتظر لسقيكم منه، والفرط والفارط هو الذى يتقدم القوم إلى الماء ليهيئ لهم ما يحتاجون إليه رواه مسلم والنسائى وآخرون، عن جابر قال: أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «ألك مال غيره» فقال لا. . . فقال رسول الله ﷺ من يشتريه منى؟ «فاشتراه» نعيم بن عبد الله العدوى بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: ابدأ بنفسك. . . الحديث، ورواه فى الدرر بلفظ: «ابدأ بنفسك ثم بمن يليك» وقال فيها: وفى الطبرانى من حديث جابر بن سمرة: «إذا أنعم الله على عبد نعمة فليبدأ بنفسه وأهل بيته» انتهى. ورواه مسلم عن جابر بن سمرة بلفظ: «إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه وأهل بيته» ورواه الطبرانى عن معاذ كما فى الجامع الكبير، وفى ذيل الصغير بلفظ: «ابدأ بأمك وأبيك وأختك وأخيك، والأدنى فالأدنى، ولا تنسوا الجيران وذا الحاجة» انتهى. وقال فى الجامع الكبير أيضاً رواه ابن حبان عن جابر بلفظ: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، ثم على أبويك، ثم على قرابتك، ثم هكذا» ثم هكذا وقال النجم فى ابدأ بنفسك رواه الطيالسى عن ابن عمر، وأنه ﷺ قال: «له يا عبد الله ابدأ بنفسك فاغذها وجاهدها. . .» الحديث، ثم قال: ولابن أبى شيبة عن سعيد بن سيار قال: جلست إلى ابن عمر فذكرت رجلا فترحمت عليه فضرب صدرى وقال: ابدأ بنفسك، على صحيح مسلم: ١٢/ ٢٠٤ المناوى: فيض القدير: ١/ ٦٦ العجلونى: كشف الخفاء ١/ ٢٤.

﴿بِالصَّلَاةِ﴾: أى العبادات البدنية.

﴿وَالزَّكَاةِ﴾: أى العبادات المالية، فذكر المعظم وأراد الكل.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: قد رضى عنه ربه فى أقواله وأفعاله وأحواله، ومات بعد أبيه بزمان كثير.

تزوج بنت الحارث بن مضاحن الجرهمى فولدت له اثنى عشر ذكرا منهم فيذار وثابت، ولما كثر ولده ضاقت بهم مكة فانتشروا فى البلاد وكانوا لا يدخلون بلادًا إلا أظهرهم على أهلها ووصى بهم إلى إسحاق أخيه ودفن فى الحجر عند أمه وزوج بنته من عصود، عاش إسماعيل ـ عليه السلام ـ مائة وسبعة وثلاثين.

وكتب بعض العلماء: ما اشتمل عليه صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ ينبغى للعاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقل أن يكون حافظ اللسان عارفًا بزمانه مقبلاً على شأنه.

وعن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال: (أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ من شهر رمضان، وأنزلت الزبور فى اثنتى عشرة من شهر رمضان، وأنزل الإنجيل فى ثمان عشرة من شهر رمضان وأنزل الفرقان فى ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان)(١).

وقيل: الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء مائة وأربعة: صحف شيث وهى ستون وصحف إبراهيم وهى ثلاثون، وصحف موسى قبل التوراة وهى عشر، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومعانى كل الكتب مجموعة فى الفرقان ومعانى كل القرآن مجموعة فى الفاتحة ومعانى الفاتحة مجموعة فى التسمية ومعانى التسمية فى باء التسمية ومعناها فى كان ما كان وفى يكون ما يكون. انتهى.

وقال الثعلبى فى عرائسه: وروى أبو إدريس عن أبى ذر الغفارى قال: قلت: يا رسول الله، كم كتابًا أنزل الله؟ مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله على آدم ـ عليه السلام ـ عشر صحائف، وعلى إدريس ـ عليه السلام ـ خمسين صحيفة، وعلى إبراهيم ثلاثين صحيفة، وعلى موسى ـ عليه السلام ـ عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

قال: قلت: يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت كلها أمثالاً بمعنى

---

(١) حديث: (أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من شهر رمضان وأنزلت التوراة...)

أيها الملك المبتلى المسلط المغرور إنى لم أبعثك لتجمع بعضها على بعض ولكن نبعثك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردّها ولو كانت من كافر، وكان منها أمثال أخرى.

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يتفكر فى صنع الله، وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر، وساعة يخلق لحاجته فى الحلال من المطعم والمشرب وغيرهما.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظًا للسانه، ومن علم أنه كلامه عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، والله ـ عز وجل ـ يعينه. انتهى. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

مجلس فى:

بيان قصة أيوب نبى الله ورسوله
صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه

فى آيتين من سورة الأنبياء، وفى أربع آيات من سورة ص:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عبادة الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان قصة أيوب نبى الله ورسوله ـ صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه ـ فى آيتين من سورة الأنبياء وفى أربع آيات من سورة (ص)[1].

قال الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾: هو: أيوب بن أموص بن راذح بن روم بن عيص[2] هو الأصغر ابن إسحاق بن إبراهيم ـ صلوات الله على نبينا وعليهم ـ.

---

(١) الآيتان من سورة الأنبياء (٨٣، ٨٤) ونص الآيتين: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾، والآيات من سورة (ص) هى: (٤١ - ٤٤) ونص الآيات هى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

(٢) ذكر فى البداية والنهاية قال: قال ابن إسحاق كان رجلاً من الروم وهو: أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل (عليه السلام) وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أيضًا رواية أخرى عن اسمه (عليه السلام) فقال: هو: أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم (عليه السلام) وقيل غير ذلك فى نسبه، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت نبى الله «لوط» (عليه السلام) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١/ ٢٢٠ وانظر ما قيل عند المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٤٨ وانظر: ابن قتيبة: المعارف: ص ٤٢.

وكان يسكن بـثنية[1] من بلاد الشام وكانت بثنية سهلهـا وجبلها كلها له وكانت له ثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف غنم، وكـان لكل خمسين من الإبل راع هو عبده وله أهل ومال، ولكل خمسمائة من الغنم كذلك وكان له خـمسمائة فدان يتبع كل واحد عبد له لكل عبـد أهل ومال، ولكل فدان أتان تحمل الآلة مع كل أتان أولادلهـا، وكان له مع ذلك سبعة بنين وسبع بنات، ومعنى الآية: واذكر أيوب.

و (إذ) بدل من أيوب بدل الاشتمال لأن الإحسان مشتملة على ما فيها، والمقصود هو البدل.

﴿نَادَى﴾: أى ربه.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾: أى بأنى وهو حكاية لكلامه الذى نادى به ولولا هى لقال: أنه مسَّـهُ الضُّر بالضم هو البلاء فى الجـد من المرض والهزال، والضَّـر بالفتح أعم من ذلك ومن البلاء فى الأهل والمـال وأسند المس إلى الضر تأدبًا كـقول الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠).

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِـمِـينَ﴾: لأن رحمـتك ليست مـعللة بخـلاف رحمة سـائر الراحـمـين، لأن الرحـمة فى الأصـل رقة القلـب تعرض عـند رؤية مكروه فى الأهل وغيرهم، إما بسبب التوالد أو القراءة أو المشاركة فى الصنف أو النوع أو الجنس كرؤية مكروه فى الولد أو القريب الآخر من الأخ وغـيره أو الرجل الذى من بلده أو فى رجل من نوع الإنسان أو فى حيـوان، ثم تطلق على غايتها وهى الإحسان والمـقتضى له فى الغالب إمـا طلب إزالة المضرة كـالرقة المذكورة، وإمـا طلب منفعة تعـود إليه كطلب الثواب فى المعنى، أو طلب الثناء فى الأول، أو الخدمـة العاجلة، أو الرياء والسمعة، والله تبارك وتعالـى ـ منزه عن الانفعالات المتـقدمة، وعن طلب الأغراض المـتأخرة، فهو يرحم من يرحم لا لعلة ولا لغرض يعود إليه فيكون أرحم من كل راحم، لأن نعمه لا تحصى، وفـوائده لا تعد، ومع ذلك لا يحـمله عليهـا حامل ذكـر أيوب نفسـه بما يوجب الرحمة وهو مس الضرورية بغاية، وكنى بذلك عن طلب الصحة ولم يذكر ذلك صريحًا لأن اللطف فى الطلب باب من أبواب الأدب.

---

(١) هى (البثنية) من بلاد الأردن من بين دمشق والجابية) كـما عند المسعودى. انظر: مروج الذهب ١/ ٤٨ انظر: ابن قتيبة: المعارف ص٤٥٢١.

حُكِيَ أن عجوزًا قيل: اسمها «ليلى الأخيلية» وقيل: إنها صاحبة مجنون، قالت لسليمان بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين مشت جرذان بنى على العصى قال: ألطفت فى السؤال لإرادتها تثب وثب الفهود، فملأ بيتها حبًا[(١)].

وفى المثل السائر[(٢)] أن عجوزًا شكت من قلة الغار إلى أمير من أولاد سود بن عبادة فأمر فملئوا بيتها خبزًا أو لحمًا وسمنًا.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾: أى صار إلطافه فى السؤال سببًا لاستجابة دعائه.

﴿فَكَشَفْنَا﴾: الفاء للتغير لأن الاستجابة هى الكشف المذكور.

﴿مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾: عظيم لا يكتنه كنهه، فلذا أعاد نكرة ووجه الكشف ما يذكر بعد من سورة ص.

﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾: ظاهر الكلام يدل على أنه ـ تعالى ـ أحياهم بعد موتهم ومثلهم معهم وصار مضاعفًا.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: وذكر ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾: أى لرحمتنا للعابدين مطلقًا فيدخل فيه دخولاً أوليًا، ولأنا نذكرهم بالإحسان دائمًا ولا ننساهم فيكون من باب التنازع.

أو لرحمتنا أيوب وللتذكير للعابدين غيره لأن يصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب.

والوجه الأول أبلغ لكونه أكثر فائدة ولاشتماله على البرهان فيكون أنسب بالمقام.

وقال الله ـ تعالى ـ فى سورة ص:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ (ص: ٤١): أطنب هنا لأن القصة مستوفاة هنا.

﴿إِذْ نَادَى﴾: بدل من عبدنا لكونه مقصودًا متبوعًا، وأيوب عطف بيان له.

﴿رَبَّهُ أَنِّي﴾: أى: بأنى.

﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾: تعب ومشقة وعذاب أليم يتبعه، والمراد ما فى نفسه من المرض والوصب أو النصب ما فى نفسى والعذاب ما فى الأهل والمال.

والأول: أوفق لما فى سورة الأنبياء.

والثانى: أوفر فائدة، وإسناد المس إلى الشيطان مع إسنادة فى سورة الأنبياء إلى نفس الضر، إما إسناد مجازى إسناد اللمس إلى السبب الأبعد وهو الوجه، وإما الإسناد إلى الفاعل العادى.

---

(١) وردت هذه القصة، وتقدمت إشارة لها.

(٢) ولعله يقصد كتاب «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر».

وبيان ذلك أنه روى عن وهب كلام إسـرائيل لا سند له فى القرآن ولا فى الحديث غير الإسناد إلى الشيطان هنا لا بأس بذكره، وهو أن الشـيطان كان يصعد إلى السموات السبع، ولا يحجب شىء حتى رفع عيسى ـ عليه السلام ـ فحجب عن ثلاث.

ولما ولد نبينا ـ ﷺ ـ حجب عن الكل.

فصعد يومًا فى زمن أيوب ـ عليه السلام ـ فسمع جبريل ـ عليه السلام ـ ينادى فى ملائكة السمولت بأن الله قد أحبَّ عبده أيوب لكثرة عبادته فأحبوه، فحسده إبليس قال: رب إنك؛ أعطيته أولادًا وأموالاً وصحة، وعافـيتنا له لا يعبدك فسَلّطنى على أمواله إن شئت فقـال الله: سلطتك عليها، فاغتنم اللعـين الفرصة فجمع مردته فـأمرهم بإحراق أمواله، فانقلب عفريت ماردًا إعصارًا فأحرق بتيسير الله إبله مع رعائها وأولادهم فى واد فما نجا منهم أحد، فجاء إبليس فى صورة راع مخدوش وجهه ورأسه ـ أيوب وهو فى صلاته لا يتقيل عنها فناداه فقال: لو رأيت إبلك ورعاتها احـترقوا جميعًا بإصابة إعصار وهلكوا فمـا نجا غيرى فـسلم أيوب فأجابه بأن الإبل كـانت لله لا لى، وكانت عندى عارية، الحمد لله حين أعطاها والشكر لله حين أخـذها ولو كان عندك خير لمت معهم واستشهدت، فانقلب اللعبن خاسرًا، فأمر عفريتًا آخر فأحرق غنمه ورعاتها فجاء اللعينُ ـ أيوبَ ـ عليه السلام ـ على صـورة راع فقال مثل ما قال وسمع جـوابه كما مر وهكذا أحرق الفدادين، والأتن، والحـراث، وأهاليهم وفى كلٍّ يجىء إليه ويسـمع جوابه مثل الأول، ثم بعد ذلك صعـد إلى السماء، فسمع الملائكة يثنون على صـبر أيوب ـ عليه السلام ـ وعبادته فحسده اللعين، وقال: يا رب إن له أولادًا فما له لا يصبر على فقدان المال وهو يرجو أن يجده بعـد ذلك، فسلطنى على أولاده، قال الله ـ تعالى: (أنا أعلم بأيوب وصبره، سلطتك عليهم).

فجـاء اللعين فدعا الـشيطان فزلزلوا عليـهم القصر الذى كانوا فـيه فسـقط عليهم القصر، فهلكوا عن آخرهم فجاء اللعين فى صورة معلمهم متلطخًا بدمه فناداه وهو فى الصلاة، يا أيوب لو رأيت أفـلاذ كبدك، قرة عينك فى أولادك وأبنائك قـد هُدمَ عليهم القصر فكسرت أعناقهم ورءوسهم، وخرجت عيونهم وأدمغتهم فما قبل الله عبادتك ولا طاعتك فما صرف عنهم السوء فنظر أيوب إليـه فقال: خرجت من أمتى عريانًا وأذهب إلى التراب عريانًا، وأسأل قوم يوم الحشر عن القبر عريانًا فكلهم كانوا لله، إن لله ملكًا

وخلقًا وكلنا راجعون إليه، فإن كان فيك خير لمتّ معهم، فرجع اللعين خائبًا، ثم وقف فى السماء موقفه فسمع الملائكة يثنون على أيوب أضعاف ما فى الأول فأحرقه الحسد، وقال: يا رب إن جسده صحيح، يرجو الفلاح بعد، فسلطنى على جسده إن شئت، قال الله تعالى: (أنا أعلم به وبصبره اذهب سلطتك عليه إلا على قلبه ولسانه).

فجاء اللعين وهو يصلى فلما وضع رأسه على الأرض ساجدًا نفخ فى أنفه فوقع فى جسده المبارك حكة فحكة بأنامله وأظفاره حتى سقطت، ثم بالمسوح والفخار حتى ما بقى عليه لحم فأخرجه أهل قريته من قريتهم فكانت امرأته (رحمة بنت أفرايم بن يوسف) أو (ماخير بنت منشا بن يوسف) ـ عليه السلام ـ أو (ليا بنت يعقوب) ـ عليه السلام ـ تخدمه وتأتيه بالطعام واضعة إياه على كناسَة)(١). انتهى.

(١) وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وابن عساكر عن ابن عباس ﷺ، أن الشيطان عرج إلى السماء قال: يا رب سلطنى على أيوب، عليه السلام، قال الله: قد سلطتك على ماله وولده، ولم أسلطك على جسده، فنزل فجمع جنوده فقال لهم: قد سلطت على أيوب عليه السلام، فأرونى سلطانكم، فصاروا نيرانا، ثم صاروا ماء، فبينما هم بالمشرق إذا هم بالمغرب، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق، فأرسل طائفة منهم إلى زرعه، وطائفة إلى أهله، وطائفة إلى بقره، وطائفة إلى غنمه، وقال: إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف، فأتوه بالمصائب بعضها على بعض، فجاء صاحب الزرع فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على زرعك عدوا، فذهب به؟ وجاء صاحب الإبل فقال: يا أيوب، ألم تر إلى ربك أرسل على إبلك عدوا، فذهب بها؟ ثم جاءه صاحب البقر فقال: ألم تر إلى ربك أرسل على بقرك عدوا، فذهب بها؟ وتفرد هو ببنيه، جمعهم فى بيت أكبرهم، فبينما هم يأكلون ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك جمع بنيك فى بيت أكبرهم؟ فبينما هم يأكلون ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم، فقال له أيوب: أنت الشيطان، ثم قال له: أنا اليوم كيوم ولدتنى أمى، فقام فحلق رأسه، وقام يصلى، فرن إبليس رنة سمع بها أهل السماء، وأهل الأرض، ثم خرج إلى السماء فقال: أى رب إنه قد اعتصم، فسلطنى عليه، فإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: قد سلطتك على جسده، ولم أسلطك على قلبه، فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدميه إلى قرنه، فصار قرحة واحدة، وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى إليه حتى قالت له: أما ترى يا أيوب نزل بى والله من الجهد والفاقة ما إن بعت قرونى برغيف، فأطعمك، فادع الله أن يشفيك ويريحك، قال: ويحك. . . ! كنا فى النعيم سبعين عاما، فاصبرى حتى نكون فى الضر سبعين عامًا، فكان فى البلاء سبع سنين، ودعا فجاء جبريل عليه السلام، فأخذه بيده، ثم =

واعترض أبو على الجبائى[1] رئيس أهل الاعتزال على هذه القصة بوجوه أربعة:

الأول: أن الشيطان لو قدر على مثل هذه الأعمال ما بقى على وجه الأرض عالم وصالح.

فأجاب عنه الإمام الرازى أنه بتسليط الله فيجوز أن لا يسلطه على أحد غيره.

والثـانى: أنه مخالف لما ثبت فى الكتاب وذكر فى مواضع متعددة أنه ليس له سلطان على العباد سوى الوسوسة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢) فتصدق الله وتكذب وهنا.

وأجاب عنه الإمام أيضًا بأن هذا الحصر فى حق غير أيوب ـ عليه السلام ـ فجاز أن لا يكون له سلطان فى غير أيوب إلا بالوسوسة فى شأنه بما ذكر.

والثالث: لم دعا أيوب ـ عليه السلام ـ فى آخر مدة البلاء وهى ثمان عشرة سنة أو ثلاث عشرة أو سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، ولم يدعه قبل ذلك؟.

فأجاب الإمام بأن الأمور مرهونة بأوقاتها فلعله علم بالوحى أن أيام البلاء انصرفت فمراد الله أن يشفيه بدعائه، فدعا.

= قال: قم، فقام فنحاه عن مكانه وقال اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله، فنبعت عين فقال: اغتسل، فاغتسل منها، ثم جاء أيضًا فقال: اركض برجلك فنبعت عين أخرى، فقال له: اشرب منها، وهو قوله ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة، فتنحى أيوب، فجلس فى ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله، أين المبتلى الذى كان ههنا، لعل الكلاب ذهبت به والذئاب؟ وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك...! أنا أيوب، قد رد الله علىَّ جسدى، ورد الله عليه ماله وولده عيانًا ومثلهم معهم، وأمطر عليهم جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ الجراد بيده، ثم يجعله فى ثوبه، وينشر كساءه، فيجعل فيه، فأوحى الله إليه: يا أيوب أما شبعت؟ قال: يا رب من ذا الذى يشبع من فضلك ورحمتك. انظر السيوطى الدر المنثور ٧/ ١٩٢.

(١) **(أبو على الجبائى)** هو: محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمزة بن أبان الجبائى، البصرى، المعتزلى (أبو على) ولد بجبا بخوزستان، وإليه تنسب الطائفة الجبائية، توفى بالبصرة، وله تفسير للقرآن. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٢٥ الصفدى: الوافى ٤/ ٧٤، ٧٥ ابن حجر: لسان الميزان: ٥/ ٢٧١ السيوطى: بغية الوعاة للسيوطى: طبقات المفسرين ٣٣ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٩ الخوانسارى: روضات الجنات ١٦١ - ١٦٣، كحالة: معجم المؤلفين ١٠/ ٢٦٩.

الرابع: لا يجوز على الأنبياء العلل المنفرة مثل الجذام لأن المقصود من بعثتهم الدعوة إلى الحق والتنفير يخلها، فأجاب الإمام: بالمنع.

قال النبى ـ ﷺ ـ: (أشد البلاء على الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)[1].

ثم بعد ذلك سلك العلماء من أهل السنة والاعتزال مسلكًا غير ما سلكه الأولون فقالوا:

إن أيوب ـ عليه السلام ـ كان عبدًا قد بسط الله عليه دنياه وكثر عليه أولاده وأمواله ثم بعد ذلك بسنين متطاولة قيل: بعد ثمانين سنة فى الصحة والعافية سقط على أولاده القصر فهلكوا جميعًا ثم ذهبت أمواله بأسباب لا يعلمها إلا الله، ثم مرض فى بدنه مرضًا شديدًا ثمان عشر سنة، ثم أذهب بأسه، فالإسناد إلى الشيطان مجازى لأنه ـ عليه السلام ـ فعل فعلاً بوسوسة الشيطان صار سببًا لزوال الصحة والعافية فأسند المس إلى الشيطان لذلك، ثم اختلف فى الفعل المذكور فقيل: إنه أعجب بكثرة أمواله وفيه ضعف لأنه مناف للعصمة.

وقيل: إنه استغاث إليه مظلوم فلم يغثه.

وفيه أيضا ما مرَّ.

وقيل: كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه، وفيه أيضًا ما مر.

والصحيح أن إسناد المس إليه لأنه وسوس إليه فى أواخر مرضه بتعظيم البلاء والقنوط من الرحمة وإغرائه على الجزع، فعند ذلك قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ (الأنبياء: ٨٣) وقال: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١).

---

(١) هكذا ورد ولكن المعروف هو: حديث: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) حديث: (أشد الناس بلاء الأنبياء. . .) أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع قال: حدثنا هدبة بن خالد قال: حدثنا حماد بن سلمة بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ثم يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى العبد على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يدعه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة) انظر: صحيح ابن حبان: ٧/ ١٦٠ الحديث رقم (٢٩٠٠) الحاكم فى المستدرك على الصحيحين: ١/ ٩٩، ١٠٠ الدارمى: السنن: ٢/ ٤١٢ الحديث رقم (٢٧٨٣) البيهقى: السنن الكبرى: ٢/ ٢٧٢ الحديث رقم (٦٣٢٥) الإمام أحمد بن حنبل: ٦/ ٣٦٩ الحديث رقم (٢٧١٢٤) وقد تقدمت إشارة تخريج له قبل هذا. (المحقق).

فالضرّ والنصب والعذاب هو ذلك الوسوسة.

أو تقول: وسوس إلى أصحابه الخلص، قيل: كانوا ثلاثة شباب وشيخان، فجاءوا فى أواخر مرضه فـقال أحد الشيخين: يا أيوب تب إلى الله ممـا تعلم فى نفسك، فإن الله ما عـذب بمثل تعـذيبك أحدًا، ولو لم يكن لك ذنب عظيم لمـا عذبك به، فـقال الشـيخ الآخر مـا قال الأول فـقال الشـاب: إنكم تعلمون نبـوة أيوب ورسالتـه ورأيتم معجـزاته فأى جهالة صـدرت عنكما، وقال أيوب ـ عليـه السلام ـ إن الله يعلم أنه لم يخالف لسـانى قلبى ولم يتبع قلبى بـصرى، ولم يريبنى ما ملك يـمينى، ولم آكل إلا ومعى يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسيًا، ومع جائع أو عريان، فخرجوا من عنده، فعند ذلك تضرع بمس الشيطان.

فالمراد من مسه هو الوسوسة إلى أتباعه.

أو نقول: جاءته امرأته فى أواخر مرضه فـقالت: لو دعوت الله، فقال: كم كانت مُدَّة رخـائنا؟ قالت: ثمانين سنة، فـقال: كم مدة بلائيا؟ قـالت: ثمان عشرة، فـقال: استحى أن أدعـوه ولم يبلغ مدة البلاء مدة الـرخاء، فخرجت، فعند ذلـك قال: مسنى الشيطان.

وقيل: إن امرأته ذهبت تطلب القوت فـوسوس لأهل القرية «لا تدخلن هذه المرأة بيوتكم فإنها تخدم وتلامس أيوب» وقد كان به مـا علمتم فأخرجوا المرأة عن قريتهم، فلم تجد شيئًا، ثم بعد ذلك رأتها امرأة شفيقة فدعتها إلى بيتها فقالت: اخبزى لى خبزًا أعطيك أجرك، فخبزت لهم، ثم جعلت لهم قرصًا لصبى لهم فبعد تمام العمل وجدوا الصبى نائمًـا فأعطوها القرص فـجاءت به أيوب ـ عليه السـلام ـ فأخبرته بالقـصة، ثم قال: لعـل الصبى حيـن ينتبه يـطلب القرص فاذهـبى به إليهم، فـردته رحمة إلـيهم، ووجدت الصـبى قد انتبه وهو يبـكى، ويطلب القرص فأعطتـه ثم خرجت فتمـثل لها الشيطان بصورة طبيب حاذق، فـقال: يا حرة إن دواء زوجك أن يأكل من ذبيحة ذبحت ولم يسم عليها الله، فجاءته فأخبرته بما قال الطبيب، فقال: إن اللعين قد وسوس إليك فالله إن شـفانى ضَـرَبْتُك مـائة سوط وحلف عليـها، ثم طرد المـرأة من عنده فـقال: اخرجى من عندى حرام علىَّ خـدمتك فى طعامك ثم خرجت المـرأة، فدعا الله بمس الضر مس الشيطان، وهذا الوجه هو الصحيح.

وما قيل: إن المرأة أبطأت عليه فى حاجة ذهبت إليها فحلف أن يضرب مائة سوط، فضعيف.

لأن المرسل لا يحلف على إيذاء مؤمن بأدنى شىء.

فعند ذلك استجاب الله دعاءه فقال:

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾: فقوله اركض برجلك مقول لقال مقدراً قد وقع جوابًا لسؤال: ماذا قال ربه فى جوابه؟ أى: قال اركض، فركض رجله الأرض.

قيل: كانت أرض جابية كثيرة الحيَّات كما أن نصيبين كثيرة العقارب فخرجت ببركة قدمه المباركة فى الأرض المشئومة عين، فقال:

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ﴾: أى: مغتسل على الحذف والإيصال.

﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾: فجمع ما نبع الأوصاف الثلاثة كونه مغتسلاً به والبرودة والمشروبة، والخارج واحد على ما هو ظاهر القرآن.

وقيل: نبعت عينان إحداهما حارة فهو المغتسل، والأخرى باردة وهو الشراب.

فاغتسل نبى الله فى العين فذهب ما بظاهره من الداء، وشرب فذهب ما فى باطنه ثم جاءه جبريل بحلة فلبس على موضع مشرف ثم رجعت رحمة إليه وخافت عليه من السباع فلم تجده على الكتابة فبكت ودارت حول الكتابة فناداها أيوب: يا حرة لمَ تبكى؟ قالت: كان هنا مريض يشبهك فى صحته فلم أجده، قال: أنا ذلك، فاعتنقا، ثم أرسل الله سحابتين على أندرين له: أندر للقمح، وأندر للشعير فأمطر الله إليه من السحابتين على أندر الحنطة الذهب، وعلى أندر الشعير الفضة.

قال ابن كثير: عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى، قال: بلى يا رب ولكن لا غناء بى عن بركتك)[1].

رواه البخارى عن طريق عبد الرزاق. انتهى.

---

(١) حديث: (بينما أيوب يغتسل عريانًا خرّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى...) أورد السيوطى هذا الحديث فى جامع الأحاديث وقال: رواه أحمد بن حنبل فى مسنده، والبخارى فى صحيحه، والنسائى فى السنن، كلهم عن أبى هريرة (رضي الله عنه) انظر: جامع الأحاديث ٣/ ٥٢٦ حديث رقم (١٠٠٤٣).

قال الله تعالى: ﴿ووَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ ظاهره أنه أحياهم، وقيل: جمعهم بعد فرقتهم. وقيل: ولدت زوجته بعددهم ومثلهم معهم فتضـاعفوا فصاروا ثمانية وعشرين بعد أن كانوا أربعة عشر.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾: منا زاد فى الأبناء كلمة عند إلطاف السؤال هنالك ﴿وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ يحتمل التنازع والتفريق، كما مر وأولو الألباب هم العابدون، فدل الكلام أن كل ذى لب عابد، ﴿وَخُذْ﴾ عطف على ﴿ارْكُضْ﴾.

وقوله: ﴿ووَهَبْنَا لَهُ﴾: اعتراض بالواو كقول الشاعر:

إذا الثـمـانين ـ وقـد بُلّغـتهـا ـ قـد أحـوجت سـمـعى إلى ترجـمـان

يدل على أن الخروج عن الحلف إنما كان بعـد الإنعام وهو يكون بالصحة وإعادة الأولاد.

﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾: حزمة من حشيش أو ريحان.

﴿فَاضْرِب﴾: المرأة به.

﴿وَلا تَحْنَثْ﴾: فخر عن الحلف ولم يصب المرأة النصب لحسن خدمتها لنبى الله.

وهذه رخصة باقيـة فى الحدود للمـرض وأهـل الأعـذار، روى أنـه جـىء إلى نبينا ـ ﷺ ـ بمخدج قد زنى بأمة فأمر بعنقود فيه مائة شمراخ فضرب به مرة.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾: فى جسده، وأهله، وماله.

﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾: أيوب.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: أى مقبل بشرا بشره إليه ـ تعالى ـ فهو علة للمدح.

روى أن الصحابة قـالوا: يا رسول الله، قال الله فى سليمان العبـد إنه أواب لأن كثرة العطاء لم تشغله عن المعطى، وقال فى أيوب ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لأن شدة البلاء لم تشغله عـن المبلى، فرجـوا من الله مثل ذلك فـأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿نِعْمَ الْمَـوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الأنفـال: ٤٠): أى إن لم تكونوا نعم العبد فمـولاكم نعم المولى ونعم النصير، يعنى هو يعنيكم يا أمة محمد اعتناء تامًا فهو يعطى لعملكم القليل الثواب والأجر الجزيل، وينصركم على أعدائكم بقليل ثبات القدم والصبر عند اللقاء نصرًا ليس فوقه نصر.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع.

مجلس في:

بيان قصة شعيب النبي ـ عليه السلام ـ
مع قومه مدين أصحاب الأيكة

في اثنتي عشرة آية من سورة هود:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس في بيان قصة شعيب النبي ـ عليه السلام ـ مع قومه مدين أصحاب الأيكة في اثنتي عشرة آية من سورة هود[1] ـ عليه السلام ـ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي أرسلنا إلى قبيلة مدين تسمية للحي باسم أبيهم الأكبر، وإلى أهل مدين بحذف المضاف، فإن مدين اسم مدينة

---

(١) الآيات من سورة هود من الآية رقم (٨٤) إلى الآية رقم (٩٥) ونصها: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وشعيب بن مكيل أمه بنت لوط ـ عليه السلام ـ بن شمه بن مدين بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيكون أخا أهل مدين نسبًا لأنه منهم أرسله الله إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة.

قال ابن كثير فى سورة الشعراء فى تفسير قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٧٦، ١٧٧).

هؤلاء أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح وكان نبى الله ـ شعيب ـ من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهى شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: إذ قال لهم شعيب فقطع نسبة الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسبًا.

ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيبًا ـ عليه السلام ـ بعث إلى أمتين.

ومنهم من قال: ثلاث أمم.

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلى[(١)] وهو ضعيف: حدثنى ابن سدى[(٢)] عن أبيه وزكريا بن عمرو، عن حصيف، عن عكرمة قال: (ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا، مرة إلى مدين، فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة).

---

(١) (إسحاق بن بشر الكاهلى) كوفى، روى عن مالك بن أنس وأبى معشر، سمعت أبا زرعة يقول ذلك، قال: سمعت أبا زرعة يقول: إسحاق بن بشر الكاهلى كان يكذب، يحدث عن مالك وأبى معشر بأحاديث موضوعة رأيته بالكوفة، قال: وسئل أبى عنه فقال: كان يكذب، كان يباع فى طريق قبيصة فإذا مررنا به قال: من أين جئتم؟ قلنا من ثم قبيصة، قال: إن شئتم حدثتكم بما كتب عنى أحمد بن حنبل، ولم يكتب عنه شيئا، أخبرنا يوسف بن أحمد الصيدلانى حدثنا محمد بن عمرو إذنه قال إسحاق بن بشر الكاهلى، كان ببغداد منكر الحديث، أخبرنا السمسار أخبرنا الصفار حدثنا ابن قانع قال: إسحاق بن بشر الكاهلى كوفى ضعيف، أخبرنا ابن الفضل أخبرنا جعفر الخالدى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى قال: سنة ثمان وعشرين ومائتين فيها مات إسحاق بن بشر الكاهلى. انظر: الخطيب: تاريخ بغداد: ٦/ ٣٢٨ أبو حاتم الرازى: الجرح والتعديل: ٢/ ٢١٤ الترجمة رقم (٧٣٤).

(٢) (ابن سدى) لعله قصد السدى وتقدمت ترجمته.

وروى أبو القاسم البغوى وعن هوية عن تمام عن قتادة فى قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ (ق: ١٢) قوم شعيب.

وقوله: ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾: قوم شعيب.

قاله إسحاق بن بشر.

وقال غيرهم: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد، والله أعلم.

وقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبى هلال[١]، عن ربيعة بن سيف[٢] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (إن قوم مدين وأصحاب الأيكة اثنان بعث الله إليهما شعيبًا النبى ـ عليه السلام)[٣].

وهذا غريب وفى رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا.

والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء، ولذا وعظهم وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء، تدل ذلك على أنهما واحد. انتهى.

---

(١) (سعيد بن أبى هلال): الإمام الحافظ الفقيه أبو العلاء الليثى، مولاهم المصرى، أحد الثقات، روى عن نعيم المجمر وعون بن عبد الله بن عتبة والقاسم بن أبى بزة وقتادة وزيد بن أسلم وغيره. وحدَّث عنه: خالد بن يزيد، وعمرو بن الحارث وهشام بن سعد، والليث بن سعد. قال أبو حاتم: لا بأس به، مولده سنة سبعين، وتوفى سنة خمس وثلاثين، ومائة قاله ابن يونس، وقال ابن حبان توفى سنة تسع وأربعين ومائة وقيل: إنه نشأ بالمدينة، وقد حدث عنه سعيد المقبرى أحد شيوخه. انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣٠٣ الترجمة رقم (١٢٨).

(٢) (ربيعة بن سيف): المعافرى المصرى، تابعى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى وجماعة، وعنه الليث وضمام بن إسماعيل ومفضل بن فضالة، قال البخارى: وابن يونس عنده مناكير، وقال الدارقطنى: صالح، وقال النسائى: ليس به بأس، وقال الترمذى: لا نعرف لربيعة سماعًا من عبد الله، وضعفه الحافظ عبد الحق الأزدى عندما روى له حديث: يا فاطمة أبلغت معهم الكداء؟ قالت لا. . . قال لو بلغت معهم الكداء ما دخلت الجنة حتى يدخلها جد أبيك، فقال: هو ضعيف الحديث عنده مناكير، وقال ابن حبان: لا يتابع ربيعة على هذا، فى حديثه مناكير. . . فأما النسائى فى كتاب التمييز فأورد له هذا، وقال: ليس به بأس، قيل: مات قريبًا من سنة عشرين ومائة. . . انظر: الذهبى: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال: ٣/ ٦٧.

(٣) حديث: (إن قوم مدين وأصحاب الأيكة اثنان بعث الله إليهما شعيبًا النبى (عليسه السلام) انظر: ابن كثير: التفسير: ٣/ ٣٤٦.

فلله در ابن كثير حيث استدل على اتحاد القبيلتين باتحاد الموعظة وهى علاقة فى غاية الظهور وإنما ذكر الله سببًا لتعذيبهم بالصيحة فى سورة هود، والرجفة فى سورة الأعراف، وعذاب يوم الظلة فى سورة الشعراء لما ذكر ابن كثير فى تفسير سورة هود من أنه ذكر ههنا أنه أخذتهم الصيحة، وفى الأعراف الرجفة، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمه واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النعم كلها.

وإنما ذكر فى كل سباة ما يناسبه:

ففى الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ (الأعراف: ٨٨) ناسب أن يذكر هنا الرجفة فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم، وههنا لما أساءوا الأدب فى معاملتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة، أى أسكتتهم وأخمدتهم.

وفى الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٧) قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٨٩).

وهذا من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمنة. انتهى.

وذكر النسفى فى تفسير التيسير فى تفسير سورة الأعراف وقال وهب: سلط الله عليهم الحر والغم حتى أنضجهم فلبثوا فيه سبعة أيام ولياليها، ودخل الحر عليهم فى بيوتهم ومضالهم وفى الأودية وظلائل الأشجار وصار ماؤهم حميمًا لا يستطيعون شربه فانطلقوا يسوقون ذراريهم ونساءهم ودوابهم حتى انتهوا إلى غيضة وهى الأيكة كثيرة الشجر، وقد جاءهم سموم من جهنم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رءوسهم حتى تقلقلت جماجمهم والرمضاء من تحتهم حتى تساقط لحوم أرجلهم ونشأت لهم الظلة من سحابة سوداء فابتدروها يستغيثون بردها، فلما صاروا تحتها أطبقت عليهم فهلكوا فيها، وقيل: أحرقتهم. انتهى.

فلما جاء نبى الله شعيب ـ عليه السلام ـ إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة وكانوا عبدة أوثان مشركين، وكانوا مع ذلك مكاسين مرتشين راشين أصحاب التطفيف فى الكيل والوزن، سراقين، قطاع طريق، أهل الإغارة مغيرين على الناس، قطاع الدراهم والدنانير، مجتمعة فيهم أكثر الأخلاق الذميمة والأفعال القبيحة فنهاهم نبى الله عن الشرك أولاً لكونه أهم، ودعاهم إلى التوحيد على ما أخبر الله عنه بقوله مستأنفًا:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾: الكسرة فى الميم عوض عن ياء المتكلم، فإن أصله: يا قومى، أضافهم إلى نفسه استعطافًا لهم.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أى وحده لأن التخصيص الذكرى يقضى بقرينة المقام إلى التخصيص الحصرى فى كما إذا قال رجل: سأكرم زيدًا وعمرًا، وقلت فى جوابه: أكرم زيدًا بدل عمرو على الحصر والإلغاء.

فكذا هنا كان أهل مدين يعبدون الله والأصنام، فقال شعيب ـ عليه السلام ـ لهم: اعبدوا الله، فيدل على الحصر وإلا يلزم تحصيل الحاصل، وعلله أى التوحيد بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾: فى الأرض والسماء ﴿غَيْرُهُ﴾.

فهذا دليل على التوحيد.

ثم نهاهم عن أفعالهم القبيحة وأمرهم بأمور الرشد فقال: ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾: أى آلتى الكيل والوزن، أى لا تنقصوهما من المعتاد.

ثم علله بقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم﴾: أعلمكم ملابسين.

﴿بِخَيْرٍ﴾: بنعمة كثيرة وافرة فأنتم مستغنون عن التطفيف فلا تفعلوه فالخير على هذا هو النعمة الكثيرة.

ويجوز أن يراد به النعمة المطلقة.

فالمعنى على هذا: إنى أراكم ملابسين بالنعمة مطلقًا وحقها الشكر بالطاعات وإبقاء الكيل ولا الكفران والتطفيف ثم علله بالتخويف من عذاب الآخرة أو عذاب الاستئصال فقال: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: إن أصررتم على الكفر والتطفيف.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: وهو: عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال، و ﴿مُّحِيطٍ﴾: صفة عذاب فى الحقيقة، فيحتمل أن يكون خبره للجوار، ويكون صفة عذاب أيضًا فى اللفظ.

ويحتمل أن يكون صفة يوم على المجاز العقلى، كنهاره صائم، وهو أبلغ، لأن اليوم إذا أحاط، أحاط بما فيه من أنواع العذاب، فيكون كل نوع من العذاب الذى فى اليوم قد أحاط بكل فرد منهم.

والإحاطة إما على حقيقتها أى الشمول.

وإما المراد منها الإهلاك، من أحاط العدو بزيد، فإذا أحاطوا به أهلكوه البتة.

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾: أى: ما فيها من المكيال والموزون، فذكر الظرف وأريد المظروف، فلا تكرار، نهاهم أولاً عن آلتى المكيال والموزون فى الآلتين الصحيحتين.

﴿ بِالْقِسْطِ ﴾: أى بالعدل والسوية، فذكر ذلك أداء بالواجب، فإن الواجب التسوية والفضل مندوب وقد يكون حرامًا كما فى الربوبات.

ثم عمم الحكم بقوله: ﴿ وَلا تَبْخَسُوا ﴾: أى لا تنقصوا.

﴿ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾: مطلقًا فى المقداريات كما مر أو غيرها فإنهم كانوا مكاسين لا يدخل بلدهم شىء إلا أخذوا بعضه ظلمًا ومكسًا.

فمعنى ﴿ وَلا تَبْخَسُوا ﴾ لا تمكسوا.

وكانوا أيضًا قطاعين الدراهم والدنانير.

فمعنى ﴿ وَلا تَبْخَسُوا ﴾: لا تقطعوا الدراهم والدنانير.

وكانوا أيضًا مرتشين، فمعنى لا تبخسوا: لا تأخذوا الأموال بوجوه الاحتيال.

﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ ﴾: بالسرقة وقطع الطريق والغارة فلا تفسدوا دنياكم لانقطاع الطريق.

﴿ مُفْسِدِينَ ﴾: آخرتكم لغضب الله ـ تعالى ـ عليكم، ولعذابه فى الآخرة، فلما ورد فكيف المعيشة والتعيش أجاب بقوله: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾: أى: الرزق الحلال الباقى بعد التنزه عن التطفيف وغيره.

وإضافتها إلى الله للتشريف كبيت الله وناقة الله، لا لأن الحرام ليس برزق منه تعالى.

والإلزام أن لا يكون المعاش مدة عمره بالحرام مرزوقًا وهو باطل لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود: ٦).

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾: أى فى الدنيا لا فى الحلال بركة.

ومع ذلك فإذا اشتهر رجل بالأمانة والعدل فى معاملته انصرف إليه وجوه الناس وينفخ عليه أبواب الكسب فيأخذ من الربح قليلاً قليلاً ويكثر القليل فيصير لكثرة المبتاعين كثيراً كثيراً.

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾: مصدقين بقولى هذا، آخذين بنصحى عالمين به أو خير لكم

فى الآخرة تنجون من النار وتدخلون الجنة إن كنتم مؤمنين، أى: بشرط الإيمان، فإن الكفار وإن انتفعوا بأعمالهم الصالحة لتخفيف عذابهم لكن لا نجاة لهم ولا فوز بالجنان.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: عن المعاصى، بل أنا نذير فقط وقد أعذرت وأنذرت.

عطف على محذوف جوابًا لسؤال: لماذا لا يؤثر قولك فينا؟ أى ما أنا عليكم بمسيطر وأما أنا عليكم بحفيظ وإنما أنا مذكر.

قالوا: أجابوا كلامه الحكيم بجوابهم الأحمق قائلين:

﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾: أى: لا يأمر العقل بذلك وإنما يأمر به الهذيان والوسوسة للمجانين وصلاتك تشبه فعل المجانين فهذا العقل الجنونى أفضى بك إلى القول الجنون حيث أمرتك تكليف ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾: فالمضاف محذوف، لأن الإنسان لا يأمر بفعل غيره.

﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: من الأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾: كلمة ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو إيرادها كذلك للإشعار بأن أحدهما كاف فى التجنين والتسفيه فكيف إذا اجتمعا عطفا على ما يعبد، أى أصلاتك تأمرك بترك أن نفعل.

﴿فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾: من التطفيف والبخس وغيرهما استهزاء به ـ عليه السلام ـ الاستهزاء حيث جعلوا صلاته الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، والثانية فى جميع الأديان إذ ما من دين إلا وفيه صلاة من هذيانات الجنون ووساوس الشيطان.

ثم بعد ذلك ظنت وأثنى الله وتهكموا به بقولهم:

﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: فهذا الكلام فى الطنن والاستهزاء مثل قولك لبخيل: لا بيض حجره، أى بخيل غاية البخل، لو رآك حاتم لسجدك نصفه بضد صفة للطنن والتوبيخ.

فهؤلاء الكفرة يقصدون إنك فى غاية السفاهة والجنون غضب الله عليهم حيث استهزءوا بمرشدهم: ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبرونى جزاء الشرط المذكور بعده أو دليل جزاء.

﴿إِن كُنتُ﴾: كلمة (إن) المقام مقام إذا للمجاراة مع الخصم وإعطاء النصفة من نفسه.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: أى بينة ما فى الجملة وهى العلم والنبوة.

﴿مِّن رَّبِّى﴾: من فضله لا بكسبى.

﴿وَرَزَقَنِى﴾: عطف على كنت.

﴿مِنْهُ﴾: أى بفضله لا بكسبى.

﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾: حلالاً خاليًا عن التطفيف والبخس فأصل الكلام وحاصله: أن كنت نبيًا عالمًا بأوامر الله ونواهيه جامعًا للسعادة والروحانية ومع ذلك إن رزقنى حلالاً مغنيًا عن البخس والتطفيف أى: جامعًا للسعادة الجسمانية أيضًا إن كنت جامعًا للسعادتين بفضل الله ولطفه فأخبرونى هل يسع لى أن أخون وحيه وأترك أمره مع هذه الألطاف العظيمة فهو اعتذار وجواب لكلمتهم الحمقاء حيث جنبوه لعدم تقليده لآبائهم كتقليدهم، يعنى ما أقول بوحى الله وأمره، ولا يجوز عند عاقل مخالفة الله الحكيم بتقليد الآباء الجهال وهو ظاهر غاية الظهور.

﴿وَمَا أُرِيدُ﴾: حال عن سابقه.

﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾: وأذهب ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾: من التطفيف والبخس والإفساد، يعنى والحال إن غرضى ومرادى ليس أن أستبدل بهذه القبائح فأنهاكم عنها وأفعلها لأكون متهمًا عندكم.

يقال: خالفت زيدًا إلى كذا، أى: أنا توجهت إليه وهو صول عنه.

ويقال: خالفت زيدًا عن كذا، أى أنا توليت عنه وهو مقبل إليه.

عن بهز بن حكيم[1] عن أبيه عن جده قال: أخذ النبى ـ ﷺ ـ أناسًا من قومى فى تهمته فحبسهم فجاء رجل من قومى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يخطب فقال: يا محمد على ما تحبس جيران؟ فصمت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن ناسًا

---

(١) (بهز بن حكيم) ابن معاوية بن حيدة، الإمام المحدث أبو عبد الملك القشيرى البصرى، له عدة أحاديث عن أبيه عن جده وعن بينها بن أوفى، وعنه الحمادان ويحيى القطان وروح وأبو أسامة وأبو عاصم والأنصارى ومكى بن إبراهيم وعدة، وثقه ابن معين وعلى وأبو داود والنسائى، وقال أبو داود أيضًا: هو عندى حجة، وقال البخارى: يختلفون فى بهز، وقال الحاكم: هى نسخة شاذة، وقال ابن حبان: يخطئ كثيرًا، وهو ممن أستخير الله فيه، وقال أحمد بن بشير رأيته يلعب بالشطرنج، وقال أبو حاتم لا يحتج به، وقال الخطيب روى عنه الزهرى، توفى قبل الخمسين ومائة. انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٥٣ الترجمة ١١٤).

ليقولون: إنك تنهى عن الشىء وتجىء به، فقال النبى ـ ﷺ ـ ما تقول؟ فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومى دعوة لا يفلحون بعدها أبدًا فلم يزل رسول الله ـ ﷺ ـ حتى فهمها فقال قد قالوها أو قائلها منهم، وأنت لو فعلت لكان على وما كان عليهم خلّوا له عن جيرانه).

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ﴾: أى إصلاحكم.

﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾: مدة استطاعى (فما) مصدرية حينية والمدة مقدرة هذا هو الوجه.

وقيل: ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ بدل من الإصلاح بدل البعض، أى مقدر ما استطعت منه على حذف المضاف على الوجهين.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾: مصدر مبنى للمفعول، أى ما كونى موفقًا فيما آتى من الأمر والنهى وأذر من عاداتكم القبيحة ووصولى إلى الحق والصواب.

﴿إِلاَّ بِاللَّهِ﴾: أى بمعونته وتيسيره فأرجو منه التوفيق.

﴿عَلَيْهِ﴾ فحسب.

﴿تَوَكَّلْتُ﴾: أى: إليه فوضت أمورى واتخذت وكيلاً لا أثق على غيره ولا أعتمد فى دنياى لأن غيره ممكن فى معرض الزوال بل زائل بالحقيقة لا مكان فلا أرجوكم ولا أخاف منكم.

﴿وَإِلَيْهِ﴾: فقط، فتقديم الظرفين للحصر.

﴿أُنِيبُ﴾: أرجع فى الآخرة لا إلى غيره فلا أرجو فيها سواه ولا أخاف لا منه، فقطع اطاع الكفار عن نفسه بأنه لا يميل إليهم أصلاً ولا يرجو ولا يخاف منهم، وأظهر توكله على من عليه التوكل.

قال عثمان بن أبى شيبة: حدثنا جرير بن أبى سليمان الضنبى قال: كانت كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهى فكتب فى آخرها وما كنت من ذلك إلا أقول ما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يكسبنكم يقال: جرمت كذا بمعنى كسبت كذا فيتعدى إلى مفعول واحد.

وقد يجىء متعديًا إلى مفعولين كقول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعد أن يغضبوا

كسبت هذه الطعنة فزارة مفعوله الأول، أن يغضبوا أى على مفعوله الثانى.

وهو أى جرمت أفصح من أجرمت لكونه كثير الدوران على ألسنة العرب العرباء، وما فى القرآن من هذا القبيل فمعنى: لا يجرمنكم: لا يحملنكم ولا يكسبنكم.

﴿ شِقَاقِي ﴾: أى خلافى.

﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ ﴾: من العذاب.

وقرأ (مثل) بالفتح بالإضافته إلى المبنى كقول الشاعرة:

لم يمنَع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غضون ذات

أو قال: ﴿ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾:

عن أبى ليلى الكندى قال: كيف يعصى مولاى أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال: يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح يا قوم لا تقتلونى إنكم إن تقتلونى كنتم هكذا وشبك بين أصابعه.

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ ﴾: أى إهلاكهم.

﴿ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾: فتذكير بعيد لتقدير المضاف أى الهلاك أو تقول: لقسط قوم يذكر مثل وكذب به قومك، ويؤنث مثل «كذبت قوم نوح»، فلتذكيره ذكر بعيداً، وتقول: وما هم بشىء بعيد.

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾: واطلبوا مغفرته بالرجوع عن الشرك وتركه.

﴿ ثُمَّ تُوبُوا ﴾: أى ارجعوا عن فعل المعاصى والقبائح كفعل التطفيف وغيره.

﴿ إِلَيْهِ ﴾: إلى الله.

﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾: كثير الإحسان كمن استغفر عن الشرك وتاب عن المعاصى.

﴿ وَدُودٌ ﴾: فعول بمعنى الفاعل، أى كثير المودة والمحبة لمن تاب عنهما أو بمعنى المفعول أى مودود ومحبوب لأرباب العقول.

فيجب أن يستغفر منه ويتاب إليه فجاءتنى بالوعد فى الآية الأخيرة والوعيد فى الآية المتقدمة فعند ذلك مال قومه إلى العناد وقاموا إلى السفه كما هو ديدن السفيه العاجز إذا عجز عن الحجة يقدم إلى السفه والشتم والضرب حيث قالوا:

﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾: ما نفهم ﴿كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾: وهم قد فهموه لأنه بلسانهم، لكن كان غير مطابق لهواهم فكأنهم ما فهموه لازدرائهم به، أو لأنهم لا يلقون أذهانهم إليه فلا يفهمون.

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾: أى ضعيف الجسم والقوة أو لا خدم لك وجاه ولا مال فائقا.

وتفسير الضعيف بالأعمى على أنه حمير، يرده التقييد بعسى لأن العمى لا يتقيد، فلا يجوز تغيره بالأعمى هنا.

وإن جاز العمى على الأنبياء عند أهل السنة.

خلافًا للمعتزلة حيث قالوا: الأعمى لا يتنزه عن النجاسات فهو منفر.

والجواب: يجوز أن يكون تنزه النبى الأعمى من خوارق العادات.

وقالوا أيضًا: الأعمى لا يكون شاهداً ولا قاضيًا فكيف يكون نبيًا؟.

الجواب الفرق ظاهر لأن الشاهد والقاضى يجب أن يريا الخصم فيشهد ويحكم عليه، والنبى مبلغ منذر واعظ لا يجب أن يرى، وعند الحكم قاضيًا يحكم.

﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾: أى قومك الأقربون القليلون، فإن الرهط دون العشرة، فأشاروا إلى ضعفه من جهة أقاربه أيضًا.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: بالحجارة حتى تموت، يعنى إبقاؤنا إياك ليس لقوة جسدك وخدمتك ومالك وجاهك، بل لرعاية جوانب أقاربك القليلين لأنهم على ديننا.

﴿وَمَا أَنتَ﴾: فقط: ﴿عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾: بل رهطك علينا عزيز فهو كقولك لعمر: وما أنت سعيت فى حاجتى أى سعى زيد دونك فهو لنفى الفعل أى العزة هنا والسعى فى المثال من المخاطب، أى شعيب هنا وعمر.

وفى المثال وإثباته لغيره، أى الرهط هنا وزيد فى المثال، فلما أثبتوا العزة لقومه فى كلامهم أى قولهم: ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ وقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

على ما مر، أنكر عليهم نبى الله جاعلاً تحقير نبى الله لقوله:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠) حيث.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾: والكلام كان فى شعيب لا فى الله لكن لما استلزم تحقيره أجرى الكلام على المبالغة.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾: منبوذًا وراء الظهر منسبًا منسوبًا إلى الظهر والكسر من تغييرات النسبة كالأمسى بالكسر، والدهرى بالضم فى النسبة إلى الأمس والدهر.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: أى مجاريكم.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أى مكانكم.

والمراد ما فيه من الحالة من الشرك والتطفيف وغيرهما، أى اعملوا ما تعملون قادرين مستقرين على شرككم، وأفعالكم الخسيسة، أو اعملوا ما تعملون من القبائح على تمكنكم وغاية طاقتكم.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: أى على مكانتى، حذف لفهمه من السابق أى إنى عامل على ثباتى فى الإسلام ومصايرتكم.

أو على غاية تمكنى واستطاعتى.

والأمر فى ﴿اعْمَلُوا﴾ للتهديد والإشعار بأنهم لا يصدر عنهم إلا الشر، وبأن المعذب يريد تعذيبهم البتة فيأمرهم بعلمهم حتى يعذبهم.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: الربط هنا معنوى بالفصل جوابًا لسؤال نشأ من السابق، أى ما ضرر عملنا، فأجاب بأنه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: وهو أحسن من الربط اللفظى بالفاء فى آية الأنعام.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾: أى فى الدنيا بالاستئصال وبالعقبى بالخلود فى النار.

﴿يُخْزِيهِ﴾: منا ومنكم.

﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾: منا حيث كذبوه وجنوه ومنكم حيث أنتم الكاذبون فى الواقع.

﴿وَارْتَقِبُوا﴾: هلاكى!.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: أى مرتقب بقرينة ارتقبوا، أى هلاككم وهذا قطع للكلام ومتاركه بينه وبين القوم فلم يبق إلا العذاب.

قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ﴾: بالواو وعطف للقصة على القصة دون إلقاء لعدم سبق ذكر الوعد بخلاف قصتى ثمود وقوم لوط لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود: ٦٥) فى الأولى و ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ (هود: ٨١) فى الثانية، أمرنا بالعذاب أو قدرنا بمقتضى قضائنا.

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾: قيد وطرف لـنجينا وهو الظاهر أو لآمنوا على طريقة قوله حكاية عن بلقيس قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤).

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: لا باستحقاقهم.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾: صيحة جبريل.

﴿فَأَصْبَحُوا﴾: صاروا ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾: فى بيوتهم أو أكنانهم ﴿جَاثِمِينَ﴾: على الركب ميتين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾: أى لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ من رحمة أو هلاكًا ﴿لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ﴾: بالكسر أى: أهلكت، حيث اختص الكسر بالهلاك، وبعدًا بالضَّم يجىء مصدرًا بعد بالكسر، وبعد بالضم والبعد من الرحمة عين الهلاك.

﴿ثَمُودُ﴾: حيث كان هلاكهم أيضًا بالصيحة فى هذه السورة، فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ليتبردوا فيها، فإذا دخلوها وجدوها أشد حرًا من الظاهر، فخرجوا هرابًا إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم وهى الظلمة، فوجدوا لها بردًا ونسميًا فينادى بعضهم بعضًا حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم، ونساؤهم وصبيانهم فألهبها الله عليها نارًا، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلى وصاروا رمادًا.

وروى أن الله ـ تعالى ـ حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر.

وقال يزيد الجريرى: سلط عليهم سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون فاجتمعوا كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك عذاب يوم الظلة.

قال قتادة: بعث الله شعيبًا إلى أصحاب الأيكة وأهل مدين، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعًا.

قال أبو عبد الله البجلى: كان أبو جاد وهو ذو حطى وكلمون ويروى كلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب ـ عليه السلام ـ يوم الظلة كلمون فلما هلك قالت ابنته بنكيه كلمون هدركنى هلكه وسط المحلة سيد القوم أتاه الحتف نار تحت ظله جعلت نار عليهم دراهم كالمضحلة.

ذكره محيى السنة فى تفسير سورة الأعراف من تفسير المعالم واعلموا إخوانى وخُلَّص خِلاَّنى أن تاريخ نبىٍّ الله يوسف وأبيه نبى الله يعقوب ـ عليه السلام ـ وإن كان مقدمًا على تاريخى نبى الله أيوب ونبى الله شعيب ـ صلوات الله على نبينا وعليهم ـ لكن أخرنا قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وتفسير سورته ليكون متصلاً بأنبياء بنى إسرائيل ولا يقع بينهم غيرهم.

مجلس في:

بدء سورة يوسف ـ عليه السلام ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس في بدء سورة يوسف ـ عليه السلام.

واعلم أني قلت لكم معاشر الإخوان في ديباجة الكتاب: إني شرعت في تفسير العرائس أول ما شرعت من العرائس الموسوية ـ عليه السلام ـ وكنت لم أكتب العرائس يوسفية حتى وفقني الله في الشروع فيها يوم الجمعة السابع من شعبان سنة اثنتين وتسعين وألف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل أحسن القصص قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وجعل الملك بعد الملك السجن حصة يوسف عليه السلام، وكشف بالنفوس والصبر غصه ـ يوسف عليه السلام ـ على سيدنا ونبينا وشفيعنا أبي القاسم محمد سيد الرسل الكرام وعلى خلفائه الراشدين المرشدين ذوي قدر جلي، سادتنا وقادتنا، وأئمتنا حضرة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلى شمول الاهتداء، ونجوم الاقتداء في الظلام وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الحشر والقيام، رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم أجميعن.

قال النيسابوري: سورة يوسف ـ عليه السلام ـ مكية.

وقيل: فيما بين مكة إلى المدينة وقت الهجرة.

حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وستون.

وكلمها ألف وسبع مائة وست وسبعون، وآياتها مائة وإحدى عشرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر﴾: هى وأشباهها من الحروف المقطعة فى أوائل السور اختلفوا فيها اختلافًا عريضًا.

والأقوال التى عول عليها ثلاث:

الأول: أنها إشارة إلى أن هذا القرآن المتحدى به مؤلف من هذه الحروف التى تؤلف العرب منها كلماتهم وليس تأليف القرآن المعجز من الحروف الغير العربية، فلو لم يكن القرآن من عند الله، بل كان كلام البشر كما زعموا لما سقطت مقدرتهم ولما ظهرت معجزتهم دون معارضته، فيكون ذكرهن الحروف فيما يذكر فيه للإيقاظ وقرع العصا والسبب لهذه النكتة السَّنِيّة مثلاً لما أراد الله ـ تعالى ـ ذكر قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وقد كانت مذكورة فى التوراة مفصلة حتى إنى طالعت فى نسخة من التوراة عربية قد غيرت من اللغة العبرانية، وترجمت بها، فلما نظرت إليها ووجدت هذه القصة بعينها لكن ليست فى هذا الأسلوب من الإعجاز والإيجاز، بل هى كسائر الحكايات فى كلام البشر تمت على ما أولانا هذا الكتاب المعجز وكذا هذه القصة مذكورة فى كتب التواريخ بالألسنة المختلفة لكن أين الثرى من الثريا.

ذكر فى أول السورة هذه الحروف لقرْع العصا والإيقاظ والتنبيه على أن هذه السورة مؤلفة من هذه الحروف وأخواتها.

وهذه القصة متداولة بين أهل الكتاب وأرباب التواريخ فأتوا بها المصاقع من بلغاء قحطان وآلها الحاذقون من فصحاء عدنان.

مضمون هذه السورة فى كلمات مؤلفة على هذا الأسلوب البديع والنمط العجيب فإن القصة متواترة معلومة يمكن تعلمها ممن يعلم، ولغتكم لغة العرب لغة القرآن ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤) إلى آخر الدهر أَلْبَتَّة، فاتقوا الكفر بالقرآن المؤدى إلى «النار» التى «وقودها الناس والحجارة وآمنوا بأنه من الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله».

قلت والعلم عند الله: نزوله بلغة العرب وانقضت البلغاء منهم ليكون الإيمان إيمانًا بالغيب والله العظيم لو علم الناس فى شأن القرآن ما يعلم هذا الفقير، وعلمى كالقطرة

من البحر، وكالذرة من الجبل، لآمن من فى الأرض جميعًا، ولكن الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وكذا الكلام فى سائر الحروف المقطعة فى أوائل سائر السور.

واعلم أن حروف الهجاء ـ ويقال لها: حروف المبانى والحروف المقطعة ـ ثمانية وعشرون وهى الأسماء مسمياتها للحروف الواحدانية وهى تسعة وعشرون، لأن اسم الألف الساكنة فى وسط قال، والهمزة المتحركة فى أول أخذ وأحد، وهى كلمة ألف والباء اسم لآخر ضرب، والتاء اسم لأول ترك، وعلى هذا فذكر الله نصف الأسماء يجمعها (نصٌّ حكيمٌ قاطع له سر) وهى أربعة عشر بعد حذف المكررات فى تسع وعشرين سورة بعدد المسميات، وذكر من كل نوع من أنواع الحروف كالمهموسة والمجهورة وغيرهما اتصافها وإذا تأملت وجدت المتروكة مكثورة بالمذكورة يعنى أن المذكورات من الحروف وأنواعها أكثر استعمالاً فى كلام العرب من المتروكات، فسبحان من وقت حكمته وعلى هذا الوجه يكون معنى ﴿الٓر﴾ مثلاً أن هذه السورة عربية مؤلفة من هذه الحروف وأخواتها فأتوا بها للمنكرين سورة من مثله.

وهكذا الكلام فى سائر السور والحروف فيكون لها محل من الإعراب وتكريرها فى السور وعدم إتيانها دفعة لتكرير التنبيه والإيقاظ كتكرير بعض القصص القرآنية لكن تخصيص بعض الحروف السور مثلاً تخصيص ﴿الٓر﴾ بهذه السورة ويونس، وهود، والحجر، وهكذا سر لا يعلمه إلا هو.

وقال سيبويه(١)...

---

(١) (سيبويه) عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر، المعروف بسيبويه النحوى، من أهل البصرة، كان يطلب الآثار والفقه ثم صحب الخليل بن أحمد فبرع فى النحو وورد بغداد، قال: سيبويه الغرماء أبا بشر وأبا الحسن وهو من موالى بنى الحارث بن كعب، وتفسير سيبويه بالفارسية: رائحة التفاح، وسمعته ـ يعنى إبراهيم الحربى ـ يقول: سُمِّيَ سيبويه سيبويه لأن وجنتيه كانت كأنهما تفاحة، كان سيبويه فى أول أيامه يعجبه الفقهاء وأهل الحديث وكان يستملى على حماد بن سلمة فلحن فى حرف فعابه حماد فأنف من ذلك ولزم الخليل، وكان من أهل فارس من البيضا ومنشؤه بالبصرة. عن نصر بن على قال: برز من أصحاب الخليل أربعة: عمرو بن عثمان، أبو بشر المعروف بسيبويه، والنضر بن شميل، وعلى بن نصر، ومؤرخ السدوسى، كان سيبويه وحماد بن سلمة أكثر فى النحو من النضر بن شميل والأخفش، وكان النضر أعلم الأربعة باللغة والحديث، كان سيبويه النحوى مولى بنى الحارث بن كعب غاية الخلق فى النحو وكتابه هو الإمام فيه، وكان الأخفش أخذ عنه وكان أفهم الناس فى النحر، مات سيبويه =

وأبو على الفارسى[١] وأكثر النحاة:

إنها أسماء السور التى افتتحت بها..

وفيه ضعف لأن اشتراك السور المذكورة فى اسم (الر) يوقع الاشتباه فيحتاج فى التميز إلى قرينة.

وقيل: إنها أشطار كلمات أشير بها إليها مثلاً: الألف فى (الر) شطر أنا، واللام شطر كلمة الله، والراء شطر أرى، فيكون إشارة إلى هذا التركيب «أنا الله أرى» يعنى من العرش إلى الثرى فيما ابتلى فيه يوسف المبتلى وشيخه المعلى فبمرأى منى ومسمع ولست بغافل عما يعمل الورى، والعلم عند الله ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة

= النحوى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، قال المرزبانى: وهذا غلط قبيح، لأن سيبويه بقى بعد هذا مدة طويلة، وقال المرزبانى: حدثنا ابن دريد قال هات سيبويه بشيراز وقبره بما وذكر بعض أهل العلم أنه مات فى سنة ثمانين ومائة، وقرئ على ظهر كتاب حصول ابن سعيد الدمشقى: مات سيبويه سنة أربع وتسعين ومائة.

ويقال: إن سِنَّهُ كانت اثنتين وثلاثين سنة، انظر: الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد: ١٢/ ١٩٥ الترجمة رقم (٦٦٥٨).

(١) (أبو على الفارسى): (٢٨٨ - ٣٧٧هـ = ٩٠٠ - ٩٨٧م) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الفارسى الأصل، أبو على: أحد الأئمة فى علم العربية، ولد فى فسا (من أعمال فارس) ودخل بغداد سنة ٣٠٧هـ، وتجول فى كثير من البلدان، وقدم حلب سنة ٣٤١هـ، فأقام مدة عند سيف الدولة، وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة ابن بويه، وتقدم عنده، فعلمه النحو، وصنف له كتاب (الإيضاح) قال الأفغانى (فى مذكرته): (منه مخطوطة رآها فى الاسكوريال برقم ١٢٥ واسمه عليها الإيضاح والتكملة للفارسى، بخط يحيى بن على بن محمد بن الحسن، كتبت سنة ٥٣٥) ثم رحل إلى بغداد فأقام إلى أن توفى بها، كان متهما بالاعتزال، وله شعر قليل، من كتبه (التذكرة) فى علوم العربية، عشرون مجلداً، و (تعاليق سيبويه) جزءآن، و (الشعر ـ ط) جزء منه، و(الحجة ـ ط) الأول منه، فى علل القراءات، و (جواهر النحو ـ خ) و (الإغفال فيما أغفله الزجاج من المعانى) و (المقصور والممدود) و (العوامل) فى النحو، وسئل فى حلب وشيراز وبغداد والبصرة أسئلة كثيرة فصنف فى أسئلة كل بلد كتاباً، منها (المسائل الشيرازية) فى الخزانة الحيدرية بالنجف، وأشار عبد الفتاح إسماعيل إلى أماكن وجود (المسائل العسكريات) نسبة إلى بلدة عسكر مكرم، و (المسائل البصريات) أمال ألقاها فى جامع البصرة، والحلبيات جزء منه، والبغداديات وفى مذكرات الميمنى أن فى مكتبة شهيد على باستنبول (الرقم ٢٥١٦) رسائل للفارسى بخط أحمد بن تميم ابن هشام اللبلى، كتبها ببغداد سنة ٦١٥، انظر الزركلى الأعلام: ٢/ ٣١٥.

المفهومة من ﴿الٓر﴾ على ما مر بيانه، أى آيات ﴿تِلْكَ﴾ السورة والإشارة بما يشار به إلى البعيد وهو كلمة ﴿تِلْكَ﴾ والمشار إليها قريب وهو ﴿الٓر﴾ لأن ﴿الٓر﴾ لما تكلم بها وانقضت أو لما وصلت من المرسل إليه صارت فى حكم البعيد.

﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾: أى هذه السورة.

فالمراد بالكتاب هذه السورة أيضًا.

﴿الْمُبِينِ﴾: صفة للكتاب وبها تحصل الفائدة فى الحمل والأخبار وإلا فلا فائدة فى قولنا آيات هذه السورة، والمبين من أبان، لازم بمعنى طهراه، متعديًا بمعنى بين.

فعلى الأول يحتمل وجهين:

آيات الكتاب الظاهر إعجازها على ما استدل عليه بذكر ﴿الٓر﴾ كما مر فذكر ﴿الٓر﴾ للاستدلال على الإعجاز وظهوره.

والثانى: الكتاب الواضح معناه على العرب لأنه ليس فيه تعقيد لفظى ولا معنوى، بل هو سلس عذب على العذبات.

وعلى الثانى يحتمل وجهين:

الأول: آيات الكتاب المبين أنه من عند الله بإعجازه على ما علم من (الر) أو المبين للسائلين قصة يوسف ـ عليه السلام ـ لأنه روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء قريش فى بعض أسفارهم إلى الشام ومرورهم على مدارس اليهود واستخبارهم عنهم بأن رجلاً يدَّعى الرسالة فينا فما علامة المرسل؟ سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وما قصة يوسف، فنزلت.

فمعنى الآية الكريمة أن هذه السورة المعجزة بفصاحتها وبلاغتها للثقلين عن معارضتها كسائر السور آياتها آيات السورة الظاهر أما فى الإعجاز والواضح معناها على العرب لخلوها عن التعقيد أو آيات السورة المبنية كونها من عند الله لأنها معجزة أو المبنية ما سألت اليهود ولقريش وغيرهم ويحتمل الجميع على مذهب من يجوز الجمع فى معانى المشترك ولا بأس فيه هنا، بل يرجح.

ثم علل كائنًا على طريقة الاستئناف على الإعجاز بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾: لا غيْرنا، فتقديم الضمير للحصر كقوله: إنَّا سعيت فى حاجتك، وكقوله: أنا كفيت مهمك، على ما فصّل فى علم المعانى.

﴿قُرْآنًا﴾: مصدر بمعنى المفعول حال من الضمير الغائب أى مجموعًا من قرأ الماء فى الحوض، أى: جمع، أو مقروء وهو ظاهر فالإنزال فى حال القراءة أو الجمع.

﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لقرآنًا.

والمعنى أن كلام القديم بذاته وإن كان منزهًا عن الصوت والحرف لكن لما أراد إنزال ما يدل عليه اللطيف عظيم على العباد، أنزل ما يدل على الكلام القديم القائم به وهو الحروف الكلمات المؤلفة بتأليف الله ـ تعالى ـ لا غيره كائنًا فى لباس اللغة العربية التى هى أفصح اللغات وأوسعها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أيها العرب، وليعقل العجم بخلطتكم أو بتحصيل العلوم العربية فالإنزال والمقرونية أوصاف للدال على الصفة الكريمة لا للصفة، فلا يلزم منقصة أصلاً، ولعل فى الأصل لترجى المتكلم وهو محال على الله ـ تعالى ـ فيحمل على المعانى المجازية من جملتها، التعليل بمعنى العلة الغائية لأن فعل الله ـ تعالى ـ لا يعلل بالأغراض لكن يراعى فيه الحكمة والمصلحة.

فالمعنى فائدة الإنزال عربيًا صارت تعقل معانى سورة وهى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ أو أنها من عند الله لأنها معجزة، ثم أكد كون الإنزال من عنده للعقل، ولذا فصل بقوله:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾: لا غيرنا ﴿عَلَيْكَ﴾: يا أشرف الموجودات ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: مفعول نقص إذ جعل القصص فعلاً بمعنى المفعول كالشلل وهو الطرد.

أو مصدراً بمعنى المفعول كالنقص أى: نحن نقص عليك أحسن جنس المقصوصات.

فيلزم أن تكون هذه القصة أحسن من كل قصة، وقصة سيد المرسلين وإن كانت فى نفسها سيدة القصص، لكن لما لم تذكر بتمامها وإن ذكر بعضها كبعض مغازيه وبعض أحواله فى كلام الله ـ تعالى ـ على الترتيب فهذه الجهة أى بذكر تمامها على الترتيب الواقع فى كلام الله، كانت أحسن.

وقيل: القصص مصدر بمعنى الاقتصاص من قص أى اتبع سميت القصة بذلك لأن القاص يتبع ما يحفظه شيئًا.

فأحسن مصدر لإضافته إلى المصدر.

فالمعنى: نحن نقص عليك اقتصاصًا هو أحسن الاقتصاصات لأن هذا الاقتصاص بكلام يعجز عن إثبات مثله البشر، فيكون الاقتصاص على أسلوب عجيب ونمط غريب وهو أنه يقص القصة ويظهر بالاقتصاص المعجزة لنبينا ـ ﷺ ـ.

﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا ﴾: متعلق بنقص والباء للسببية و (ما) مصدرية أى: نَقُصُّ عليك أحسن المقصوصات أو أحسن الاقتصاصات سبب إيحائنا.

﴿ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾: أى هذه السورة، فروعى فى تلك الآيات براعة الاستهلال وهى الإشارة فى المقدمة إلى المقاصد باعتبارات كثيرة حيث أشرت إلى المقاصد فى كلمة ﴿ الَر ﴾ وفى لفظ ﴿ الْكِتَابِ ﴾ وفى لفظ ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾.

﴿ وَإِن كُنتَ ﴾: إن مخففة من الثقيلة.

﴿ مِن قَبْلِه ﴾: من قبل الإيحاء إليك.

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾: واللام فارقة بين المخففة والنافية، والجملة حال من الضمير فى ﴿ إِلَيْكَ ﴾ مبينة كمال الاحتياج إلى الإيحاء، وعلة ذلك الاحتياج.

والمعنى أوحينا إليكم هذه السورة المعجزة المبينة لقصة يوسف ـ عليه السلام ـ التى سئلت عنها، ودعت الحاجة إلى بيانها فى حال أنك كتبت فى زمرة الغافلين عن هذه القصة الذين لا يعلمونها أصلاً وهم الأميون من العرب فهو كقوله تعالى فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ (هود: ٤٩).

وإذا وجدت الغفلة عن القصة وعدم معرفتها احتيج إلى الإيحاء، فهذه الغفلة عن هذه القصة علة للإيحاء، والإيضاح ومدح لرسول الله ـ ﷺ ـ كقوله فى الأعراف: ﴿ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وسبب للامتنان عليه بالإيحاء فلا ضير أصلاً.

قال فى التيسير: الغفلة أقسام:

مذمومة: كالغفلة عن ذكر الله، وعن الآخرة.

ومحمودة: كالغفلة عن الشر.

ولا محمودة ولا مذمومة كالغفلة عن هذه القصة. انتهى.

لكن ما ذكرنا يدل على أنها أيضًا محمودة على ما مر.

قال محيى السنة فى معالم التنزيل: سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم، والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا من سير الملوك والمماليك

والعلماء ومكر النّسَاء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد.

قال خالد بن سعد: إن سورة يوسف وسورة مريم ـ عليهما السلام ـ يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة.

وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف ـ عليه السلام ـ محزون إلا استراح إليها. انتهى.

قال ابن كثير فى تفسيره:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير(١)، حدثنا على بن مسهر(٢) . . .

---

(١) (عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير) الزبيرى من أهل الموصل، كنيته أبو نصر، يروى عن على ابن مسهر حدثنا عنه الحسن بن أدريس الأنصارى والمواصلة، مات سنة أربعين ومائتين أو قبلها أو بعدها بقليل. انظر: كتاب الثقات: ٨/ ٤٢١ الترجمة رقم (١٤١٩٥) وانظر الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد: ٦/ ١٣٢، ٢٩٤ - ١٢/ ٣١٢.

(٢) (على بن مسهر) القرشى، أبو الحسن الكوفى الحافظ، قاضى الموصل، روى عن يحيى بن سعيد الأنصارى وهشام بن عروة، ومطرف بن طريف، وأبى إسحاق الشيبانى، وأبى مالك الأشجعى، وسعيد بن أبى عروبة روى عنه: على بن حجر، وهناد بن السرى، وآخرون، قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: صالح الحديث، أثبت من أبى معاوية، وقال عثمان الدارمى: قلت لابن معين هو أحب إليك أو أبو خالد الأحمر؟ فقال: ابن مسهر، فقلت: ابن مسهر أو إسحاق ابن الأزرق؟ قال: ابن مسهر، قلت: ابن مسهر أو يحيى بن أبى زائدة؟ فقال: كلاهما ثقة، وقال يحيى بن معين: قال ابن نمير كان قد دفن كتبه، قال يحيى: وهو أثبت من بن نمير، وقال العجلى: قرشى من أنفسهم، كان ممن جمع الحديث والفقه، ثقة، وقال أبو زرعة: صدوق، وقال النسائى: ثقة، وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: مات سنة تسع وثمانين ومائة، وعن يحيى بن معين أنه ولى قضاء أرمينية فاشتكى عينه فدس القاضى الذى كان بأرمينية إليه طبيبًا فكحله فذهبت عينه، فرجع إلى الكوفة أعمى.

وقال العجلى أيضًا: صاحب سنة، ثقة فى الحديث، ثبت فيه، صالح الكتاب كثير الرواية عن الكوفيين، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وقال إذنه قال أبو عبد الله ـ يعنى أحمد ـ لما سئل عنه: لا أدرى كيف أقول؟ قال: كان قد ذهب بصره فكان يحدثهم من حفظه. انظر: ابن حجر تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٥ الترجمة رقم (٦٢٤) انظر: السيوطى: طبقات الحفاظ: ١/ ١٢٧ الترجمة رقم (٢٥٨).

عن عبد الرحمن بن إسحاق[(١)] عن خليفة بن قيس[(٢)]، عن خالد ابن عرفطة[(٣)]

---

(١) (عبد الرحمن بن إسحاق) ابن الحارث، أبو شيبة الواسطى، ويقال: الكوفى، ابن أخت النعمان ابن سعد الأنصارى، روى عن أبيه إسحاق بن الحارث، وبكر بن عبد الله المزنى، والحجاج ابن دينار الواسطى، وروى عنه: حفص بن غياث، وعلى بن مسهر، والقاسم بن غصن الليثى، والقاسم بن مالك. وأبو معاوية محمد بن خازم الضرير، قال أبو طالب: عن أحمد بن حنبل ليس بشىء، منكر الحديث، وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يضعف عبد الرحمن بن إسحاق الكوفى، وقال عباس الدورى: عن يحيى بن معين ضعيف ليس بشىء، وقال محمد بن سعد ويعقوب بن سفيان وأبو داود والنسائى وابن حبان؟ ضعيف، زاد النسائى ليس بذاك وقال البخارى: فيه نظر، وقال أبو زرعة: ليس بقوى، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث، منكر الحديث، يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال أبو بكر بن خزيمة: لا يحتج بحديثه، روى له أبو داود والترمذى. انظر: المزى: تهذيب الكمال: ١٦/ ٥١٦ الترجمة رقم (٣٧٥٤).

(٢) (خليفة بن قيس) مولى خالد بن عرفطة، حدثنى آدم بن موسى قال: سمعت البخارى قال: خليفة بن قيس مولى خالد، يعد فى الكوفيين، لم يصح حديثه، روى عنه عبد الرحمن بن إسحاق، وهذا الحديث حدثناه بشر بن موسى قال: حدثنا إسماعيل بن خليل الخزاز قال: حدثنا على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن خليفة بن قيس عن خالد بن عرفطة عن عمر بن الخطاب قال: انتسخت كتابًا من أهل الكتاب فرآه رسول الله ـ فى يدى فقال: ما هذا الكتاب يا عمر؟ فقلت: انتسخت كتابًا من أهل الكتاب لنزداد به علمًا إلى علمنا، قال: فغضب رسول الله ـ حتى احمرت عيناه، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، السلاح السلاح، غضب نبيكم، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ـ فقام رسول الله ـ فقال إنى أوتيت جوامع الكلم وخواتمه، واختصر لى الحديث اختصارًا، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهيكوا، ولا يغرنكم المتهيكون، فقال عمر: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبك رسولا، ثم نزل، وفى هذا رواية أخرى هذا المعنى بإسناد فيه أيضًا لين. انظر: العقيلى فى كتاب الضعفاء: ٢/ ٢١ الترجمة رقم (٤٣٧).

(٣) (خالد بن عرفطة) ابن أبرهة ويقال: أبره بن سنان القضاعى العذرى، روى عن النبى ﷺ وعن عمر، وعنه: أبو عثمان النهدى، وأبو إسحاق السبيعى، وعبد الله بن يسار الجهنى، وحفيده عمارة بن يحيى بن خالد بن عرفطة ومولاه مسلم وغيرهم، قال الطبرانى: كان خليفة سعد بن أبى وقاص على الكوفة، وقال ابن أبى عاصم: مات سنة ٦١، له فى الجنائز حديث واحد فيمن قتله بطنه.

وذكر الدولابى أن المختار بن أبى عبيد قتله بعد موت يزيد بن معاوية، فيكون ذلك بعد سنة ٦٤، روى له الترمذى والنسائى.. والله أعلم ـ انظر ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٣/ ٩٣ الترجمة رقم (١٩٨).

قال: كنت جالسًا عند عمر ـ رضي الله عنه ـ إذْ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بعصا معه قال: فقال الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس، فجلس فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

فقرأها عليه ثلاثًا وضربَهُ عليه ثلاثًا فقال له الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نَسَخت كتاب دانيال قال: مرنى بأمرك أتَّبعه، قال: انطلق فامْحُه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحدًا من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأُنهكنَّك عقوبة ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه فقال: انطلقت أنا فنسخت من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم، فقال لى رسول الله ﷺ ما هذا فى يدك يا عمر؟ قال: قلت يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد علمًا إلى علمنا، فغضب رسول الله ـ ﷺ ـ حتى احمرَّت وجنتاه ثم أمر أن يؤذن بالصلاة جامعة فقالت الأنصار: أغضب نبيكم السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: (يا أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لى اختصاراً ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون) قال عمر ـ رضي الله عنه ـ فقمت فقلت: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبك رسولاً ثم نزل رسول الله ﷺ)[1] انتهى.

أعاذنا الله من غضبه ومخالفة رسوله ـ ﷺ ـ وعلى آله وأصحابه.

---

(١) حديث: **(يا أيها الناس إنّى قد أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً...)** أورد السيوطى هذا الحديث فى الدرّ المنثور وقال: أخرجه أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، ونصر المقدسى، والضياء فى المختارة، كلهم عن (خالد بن عُرْفُطة) وذكر الحديث بتمامه. انظر: السيوطى: الدر المنثور: ٤/ ٤٩٧ أثناء تفسير سورة يوسف.

مجلس في:

بيان رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ ونصيحة أبيه له وتعبيره رؤياه تعبيرا إجماليا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ ونصيحة أبيه له وتعبيره رؤياه تعبيرًا إجماليًا.

وذلك قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾: بدل من (أحسن القصص) على تقدير كونه مفعولاً به، بدل الاشتمال لأن الأوقات مشتملة على ما فيها، أو منصوب بتقدير اذكر على كلا التقديرين، أى: المصدرية والمفعولية.

﴿لأَبِيهِ﴾: يعقوب عليه السلام ـ سئل النبى ـ ﷺ ـ عن أكرم الناس؟ فقال: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين)(١).

﴿يَا أَبَتِ﴾: أصله يا أبى بياء الإضافة ثم اختلف فى الياء.

قيل: أصله الحركة ثم الفتح لنظر الواضع إلى الكلم فى أنفسها مع قطع النظر عن التركيب فلما كان ياء المتكلم اسمًا مفردًا لو ابتدئ به يكون متحركًا لتعذر الابتداء بالساكن وضعه متحركًا وفتح لأن الفتحة خفيفة.

---

(١) حديث: (سئل النبى (ﷺ) عن أكرم الناس فقال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب...) أورده السيوطى فى الدر المنثور، قال: أخرج أحمد فى مسنده والبخارى فى صحيحه عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: وذكر الحديث. انظر: السيوطى: الدر المنثور ٤/ ٤٩٨.

وقيل: أصله السكون لأن نظر الواضع إلى الكلم فى حال تركيبها وحين التركيب لا يكون الياء إلا فى الآخر، فيكون ساكنًا لخفة السكون.

قال الرضى: هذا أولى، ثم التاء فى: ﴿يَا أَبَتِ﴾ للتأنيث بدليل قراءة ابن عامر وابن كثير بالهاء فى الوقف، وللتعويض عن الياء عند البصريين بدليل أنه لم يرد فى الكلام الفصيح «يا أبتى» بجمع الياء والتاء.

عند الكوفيين للتأنيث فقط دون التعويض، والياء مقدرة بعد التاء.

لكن يرد عليه عدم ورود «يا أبتى» أصلاً، والكسرة فى التاء قال ابن الحاجب[1]: لمناسبة الكسرة الياء المعوض عنه.

وقال جار الله[2]: هى الكسرة المزحلقة من الياء إلى التاء لأن حروف التأنيث تقتضى فتح ما قبلها فلما فتحت الباء زحلقت كسرتها إلى التاء.

ووقف القراء الخمسة عليها بالتاء بالنظر إلى التعويض فقط كأخت وبنت ولذا طولت فى الخط.

﴿إِنِّى رَأَيْتُ﴾: فى المنام من الرؤيا لأنه يقال: رأى فى المنام يرى رؤيا، ورأى ببصره يرى رؤية، ورأى بقلبه يرى رأيا.

والدليل على كونه فى المنام قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ (يوسف: ٥) وقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: وما روى فى أسماء الكواكب من الأحاديث ضعيف لأن كله يرجع إلى حكم بن ظهير وهو غير ثقة وساقط عند أهل الحديث.

قال ابن كثير: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا على بن سعيد الكندى، حدثنا الحكم بن ظهير عن السدى، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر ـ ﷺ ـ قال: أتى

---

(١) (ابن الحاجب): المحدث البارع مفيد الطلبة: عز الدين عمر بن محمد بن منصور الأمينى الدمشقى، ابن الحاجب الجندى صاحب المعجم الكبير، من أذكياء الطلبة وأشدهم عناية، سمع هبة الله بن طاوس وموسى بن عبد القادر والموفق والفتح وطبقتهم، وكتب الكثير وصنف ولم يبلغ الأربعين، سمع منه أبو حامد ابن الصابونى وجماعة، قرأت بخط الحافظ الضياء: وفى شعبان سنة ثلاثين وست مائة توفى صاحبنا الشاب الحافظ ابن الحاجب، قال: وكان دينًا خيرًا ثبتًا متيقظا. انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٣٧٠ الترجمة رقم (٢٣٦).

(٢) (جار الله) أى: محمود بن جار الله الزمخشرى، مؤلف الكشاف، وتقدمت ترجمته.

النبى - ﷺ - رجل من يهود يقال له: بستانة اليهود، فقال: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبى - ﷺ - فلم يجبه بشىء ونزل عليه جبريل - عليه السلام - فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله - ﷺ - فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها، فقال: نعم، قال: جريان، والطارق والذيال، وذو الكتفين[١]، وقابس، ووثاب، وعمودان، والغليق والمصبح، والضروع، والفروغ[٢]، والضياء، والنور، فقال: إى والله إنها لأسماؤها)[٣].

ورواه البيهقى[٤] فى الدلائل من حديث سعيد بن منصور، عن الحكم بن ظهير[٥].

---

(١) فى ابن كثير: التفسير: (ذو الكنفات) ٢/ ٤٦٨.

(٢) فى تفسير ابن كثير: (وذو الفرغ).

(٣) حديث: (أتى النبى (ﷺ) رجل من يهود فقال: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف (عليه السلام) أورد السيوطى فى الدر المنثور، وقال: أخرج سعيد بن منصور، والبزّار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والعقيلى وابن حبان فى الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقى معًا فى دلائل النبوة، كلهم عن جابر (رضي الله عنه) قال: (جاء بستانى يهودى إلى النبى (ﷺ) ثم ذكر الحديث.
انظر: السيوطى: الدر المنثور ٤/ ٤٩٨ وابن كثير: التفسير: ٢/ ٤٦٨.

(٤) (البيهقى) تقدمت ترجمته.

(٥) **(الحكم بن ظهير الفزارى)**: روى عن عاصم والسدى، روى عنه عمرو بن محمد العنقزى والمقدمى وأحمد بن إبراهيم الموصلى وسهل بن عثمان سمعت أبى يقول ذلك، قال أبو محمد: وروى عنه أحمد بن يونس والحسن بن عرفة، وروى هو عن ابن أبى ليلى حدثنا عبد الرحمن أنا بن أبى خيثمة فيما كتب إلىّ قال: سمعت يحيى بن معين يقول: الحكم بن ظهير ليس حديثه بشىء، سمعت أبى يقول: قال، ابن أبى شيبة وذكر الحكم بن ظهير فقال: لو كان فيه طباخ لحدثتكم عنه، حدثنا عبد الرحمن أنا حرب بن إسماعيل فيما كتب إلىّ قال: قلت: حصول بن حنبل الحكم بن ظهير كيف حديثه، فكأنه ضعفه، حدثنا عبد الرحمن قال: سمعت على بن الحسين بن الجنيد يقول: رأيت ابن أبى شيبة لا يرضى الحكم بن ظهير ولم يدخله فى تصنيفه، حدثنا عبد الرحمن سمعت أبى يقول: الحكم بن ظهير متروك الحديث لا يكتب حديثه، حدثنا عبد الرحمن قال: سئل أبو زرعة عن الحكم بن ظهير فقال: واهى الحديث.
انظر: ابن حبان: الجرح والتعديل: ٣/ ١١٨ الترجمة رقم (٥٥٠)

وقد روى هذا الحديث الحافظ ابن يعلى الموصلى وأبو بكر البزار فى تفسيره.

أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن حكم بن ظهير وزاد: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب ـ عليه السلام ـ فقال له أبوه: هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد، قال: والشمس أبوه، والقمر أمه.

تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى.

وقد ضعفه الأئمة فتركه الأكثرون.

وقال الجرجانى: ساقط وهو صاحب حديث رؤيا يوسف عليه السلام.

وقال الإمام الرازى: لا يوجد أكثر هذه الأسامى فى كتب الهيئة، وفى الكتب المؤلفة فى بيان صور الكواكب.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: كان الظاهر أن يقول: ثلاثة عشر كوكبًا بإدخال المنيرين فى الكواكب لأهم الكوكب يطلق عليهما كما يقال: الكواكب السبعة السيارة ومنها النيّران لكن لم يقل هكذا، بل قال: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ولم يدخلهما فيها لمزية فضلهما عليها وشرفهما لأنهما من جنس غير جنس الكوكب، فيكون مثل قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ (القدر: ٤): على تقدير أن يكون المراد من الروح جبريل أو غيره من الملائكة.

واختلفت الجهتان، لأن فيه إخراج بعد الدخول وهنا عبر على وجه لم يكونا داخلين، كان مقتضى الظاهر إدخالهما على التعبير بوجه آخر كما مر.

وقانون البلاغة يقتضى نكتة فى أمثال هذا.

ثم لما ورد سؤال كيف رأيتهم؟ فأجاب:

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: أى: شاهدتهم فى المنام على هذه الحال، وهى حال السجود.

فالأول: لبيان مطلق المشاهدة.

والثانى: لبيان الحال، فلا تكرار.

وضمير العقلاء فى ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ و ﴿سَاجِدِينَ﴾ مع أن الكواكب جمادات وكان الظاهر «رأيتها لى ساجدات» لأنه لما وصفوا بالسجدة وهو فعل العقلاء، نزلوا منزلتهم، روى أن إسحاق ـ عليه السلام ـ تزوج رفقاء بنت عمه تاهور أخى إبراهيم،

فولدت له يعقوب وعيصا فى بطن واحد، وكان يعقوب أكبر فى بطن أمه والعادة خروج الصغير أولاً فخرج عيصا ثم يعقوب أخذ بعقبه فسمى يعقوب لأن اللغة العبرانية من لغة العرب، فلما كبرا وشبا وعمى إسحاق ـ عليه السلام ـ قال يومًا لعيص: يا بنى اطلب عنك لحم الصيد فجئنى به أدعو لك بأن يكون الأنبياء من ذريتك، فذهب عيص إلى الصيد وأمهما رفقاء بنت تاهور كانت تحب يعقوب أكثر من عيص وأبوهما إسحاق ـ عليه السلام ـ يحب عيصا أكثر من يعقوب، فقالت رفقاء: يا يعقوب اذبح عناقًا واشوه ثم أطعمه أباك وخذ أنت دعاءه بتناسل الأنبياء، ففعل ذلك وجاء به أباه وجعل جلد العناق فى ذراعيه لأن عيصا كان أشعر الذراعين فمسح إسحاق ذراعيه وظنه عيصا فأكل من لحم العناق، ثم دعا ليعقوب فخرج يعقوب ثم جاء عيص بلحم الصيد ووضعه بين يديه قال: كل يا أبى، فقال أبوه: قد ذهب بالدعاء يعقوب فوقع الشربين الأخوين، فقالت رفقاء ليعقوب: اذهب إلى خالك لباس بن تاهورر وكن عنده تزوج بنته فارتحل يعقوب ـ عليه السلام ـ من مدينة الخليل مسكن أبيه وجدّه، إلى وادى الكنعان قرب بحيرة طبرية التى يقال لها اليوم غدير منية، وهناك جسر يقال له جسر يعقوب وهناك بئر يوسف ـ عليه السلام ـ كما هو المشهور.

وفى قرية بالجبل بيوب يعقوب ـ عليه السلام ـ تزورها اليهود اليوم أو بقى عند خاله لبان ابن تاهور ـ أخى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتزوج بنته الكبيرة ليان أولاً فولدت ستة بنين ونبيّا سيجىء أسماؤهم، ثم تولد من جاريتين أربعة بنين ثم تزوج يعقوب ـ عليه السلام ـ أخت ليا والجمع بين الأختين كان جائزًا فى شرعهم، فولدت له يوسف ـ عليه السلام ـ وابن يامين فبلغ أبناء يعقوب مبلغ اثنى عشر؛ فأحب يعقوب ابنه يوسف ـ عليه السلام ـ غاية ما يكون فى نوع البشر كماله الظاهرى الخارج عن عادة الإنسان على ما أخبر عنه التنزيل بقوله: ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ (يوسف: ٣١) ولكما له الباطنى وكان يرى فيه مخايل السعادات وكان لا يفارقه لحظة فى الليل ولا فى النهار وكان يوسف ينام عند أبيه ففى ليلة من الليالى، وكانت ليلة الجمعة ليلة القدر انتبه يوسف ـ عليه السلام ـ فزعا مرعوبًا وكان أبوه يصلى فسأله عن فزعه فقال: يا أبى رأيتنى كأنى على جبل شامخ وحول الجبل من الأنهار والأشجار، والأزهار، والثمرات، والأنوار ما لا يعلمه إلا الله فعند

ذلك رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر نزلوا من السماء فسجدوا إلىَّ، فعلم يعقوب ـ عليه السلام ـ تعبير رؤياه وما يصيبه من الفراق فقال: يا بنى أرى أمرك مشتتًا فيجمع الله لك أمرك بعد دهر طويل، لأن نزول الكواكب من السماء إشارة إلى وصول أبيه وأمه وإخوته إليه بعد زمان طويل للبعد الكامل بين الأرض والسماء، ثم بعد ذلك ﴿قَالَ﴾: يعقوب ﴿يَا بُنَيَّ﴾: التصغير للشفقة ولصغر سنه إذ كان فى سن اثنى عشر.

﴿لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا﴾: محتالين ﴿لَكَ﴾: لإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾: والمعنى فيحتالوا لك كايدين على القاعدة المشهورة فى التضمين فزيادة اللام فى لك لتضمين معنى الاحتيال للتأكيد للاهتمام، كما يدل عليه التأكيد بالمصدر وتعليله بقوله:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾: وسبب حملهم على الكيد هو الشيطان كما قال:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر العداوة أخرج أباهم آدم من الجنة، وقال: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٦٢) فعلم يعقوب ـ عليه السلام ـ أن إخوته عالمون بتعبير المنامات فيعبرون هذه الرؤيا على وجهها فيزيد حسدهم ليوسف ـ عليه السلام ـ فنهاه عن الاقتصاص لهم لكن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فسمعت «ليا» أم الأبناء هذه الرؤيا وأخبرت بنيه وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

واعلم أن العلماء اختلفوا فيما يرى في المنام بعد إجماعهم على صحة الرؤيا لدلالة الآيات القاطعات والسنن الثابتات على صحتها بحيث لا مجال للإنكار.

وسبب الاختلاف النزاع فى إثبات القوى الباطنية التى هى الحس المشترك والخيال والمتخيلة التى يقال لها المتصرفة والمفكرة أيضًا والواهمة والحافظة فأنكرها أكثر المتكلمين وأثبتها الحكماء الإسلاميون مثل الإمام الغزالى والإمام الرازى والقاضى البيضاوى وغيرهم.

فأورد البيضاوى هنا كلامًا لطيفًا لبيان حقيقة الرؤيا فأوردته بعينه قال: الرؤيا هى انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت كما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتصور بما فيها مما يليق بها من المعانى الحاصلة هناك ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك

المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية، استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا لاحتاجت إليه. انتهى.

ومن أنكر القوى الباطنة من المتكلمين يقول:

إن النفس تسمع من الملك أمرًا من المغيبات الآتية ثم يصوره العقل للحفظ به، فالقوى ترجع إلى العقل عندهم.

ثم عبر نبى الله يعقوب ـ عليه السلام ـ رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ تعبيرًا إجماليًا ولم يصرّح كمال التصريح لخوفه على ولده الشريف فقال:

﴿وَكَذَلِكَ﴾: أى: اجتباك ربك لهذه الرؤيا الدالة على كمال العز والشرف فى الدنيا والآخرة.

﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: لأمور عظام من جملتها النبوة والرسالة وأى أمر عظيم من إنجاء يوسف ـ عليه السلام ـ أكثر من على وجه الأرض من الهلاك فى سنى القحط بسبب تعبيره منام الملك وتدبيره أمر خزائن الأرض، والاصطفاء افتعال من جبى الشىء إذا جمعه ومنه جبى الماء فى الحوض، أى جمعه، ومنه الجابى لجامع أموال الوقف.

ومعنى الاصطفاء هو أن يجعل الملك رجلاً من الناس مختصًا بنفسه فيفشى إليه أسراره ويعطيه مفاتيح خزائنه ويسلم إليه تدبير ملكه.

فالمعنى إن الله يجعلك مقربًا عنده وخالصًا له بحيث لا يستويك ذكر غيره، فيعطيك مفاتيح بعض أسراره وتدابير بعض أقداره، ويخلق على يديك أمورًا عظامًا مثل ما مر من إنجاء الناس زمان القحط وغير ذلك.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾: الظاهر أنه غير داخل فى التشبيه لأن التعليم غير الاجتباء.

وما قال البعض من أن التعليم نوع من الاجتباء فلا خير فى تشبيهه بنوع آخر منه وهو الاجتباء بالرؤيا تكلف خلاف الظاهر لأنه لا شك فى سماجة قولنا كما اجتباك بهذه الرؤيا، يعلمك بل الظاهر أنه حذف المبتدأ وليس بداخل فى الاجتباء أى وهو يعلمك.

﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾: وهذا التعليم لا يفهم من الرؤيا وإنما هو بالوحى إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ.

ويجوز أن يقال: لما ظهر أولاً ما ظهر فى يوسف ـ عليه السلام ـ فى أمر الرؤيا

ودلت رؤياه على كماله وعزه وسلطانه استدل يعقوب أن علم تعبير المنام يعطى له لكن لا يخفى بعده.

والتأويل من آل بمعنى رجع فتأويل الأحاديث هو المعرفة بما يؤول إليه أمر الأحاديث وهو اسم جمع للحديث كالأباطيل للباطل، والأراهط للرهط، لا جمع للأحدوثة لأنها ما يتلهى به من الأحاديث كالأضحوكة والأعجوبة ولا يليق ذلك بشأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والمراد من الأحاديث.

الرؤى هى جمع رؤيا كالرعى فى جمع رعيا وهى الحفظ لأن الرؤيا إما حديث ملك إن كانت صادقة كما مر من البيضاوى من أن الروح تتصور بما فى المفارق وهذا التصور هو حديث الملك لأن حقيقة الحديث ما يلقى المعنى فى الروع من الكلمات ولما كان هذا التصور سببًا لإبقاء المعنى فى الروع بطريق القبض صار كالحديث.

وأما حديث الشيطان أو النفس إن كانت كاذبة.

وقيل: المراد منها كلمات الله فى الكتب المنزلة من قبل كصحف إبراهيم وغيره من الأنبياء المتقدمة فى ما يروى من سننهم وكلمات الحكماء، أى يعلمك تأويل غوامض تلك الكلمات فسجود الهداة الذين أمثلتهم فى عالم المنام الكواكب والنيران ليوسف ـ عليه السلام ـ يدل على كونه أهدى منهم فدلت الرؤيا على تعليم تلك الكلمات، بل على تعليم تأويل الرؤى أيضًا وهذا هو الوجه فى فهم التعليم المذكور من الرؤيا المذكورة.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: بإعطائك السعادتين: الروحانية بتكثير العلوم وجمع الأخلاق الفاضلة والاستغراق فى مطالعة آثار قدرة الله وما يقرب إليه من قول وعمل، والجسمانية بتكثير الأولاد، وسعة الرزق، والمال، وتكثير الخدم والحشم، وإعطاء القبول فى القلوب ومدح الناس وثنائهم.

وقيل: يوصل سعادة الدنيا بسعادة الآخرة.

﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾: من إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ فاستدل بضياء الكواكب التى هى أمثلتهم فى علم المنام على كونهم علماء هداة.

قيل: على نبوتهم، فإن ما صدر منهم فى حق يوسف ـ عليه السلام ـ كان قبل نبوتهم، وعندنا العصمة بعد النبوة.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾: أى على جديك فإن الجد يطلق عليه الأب.

﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل ولادتك، أو من قبل هذا الوقت.

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: قدمه لفضله وشرفه.

﴿وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٦) بمن يستحق الاجتباء المذكور استحقاقًا يعليه يجعل الله تعالى لا ذاتيًا فلا يتافى مذهب أهل الحق.

﴿حَكِيمٌ﴾: لا يفعل إلاَّ ما فيه حكمة فيفعل اجتباءك للأمور العظام كما فعل اجتباءك لهذه الرؤيا لأنه جعل وخلق فيك الاستحقاق لهذا الاجتباء فيه حكم له لا تحصى. والله أعلم بمراده.

مجلس في:

بيان مشاورة إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ
في أمر الكيد له ومراودتهم له عن أبيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس في بيان مشاورة إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ في أمر الكيد له، ومراودتهم عن أبيه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف: ٧) اللام تفيد التأكيد في الكلام.

وبعضهم يقدر القسم فالمعنى، والله حقا حقا كان دائمًا لأن كان دائمة في قصة يوسف وإخوته أي في نفس قصتهم بأي لسان كان أو في هذه السورة المشتملة على قصتهم بلسان عربي مبين.

﴿آيَاتٌ﴾: أي: دلائل دالة على قدرة الله وكمال حكمته.

أمَّا على الأول: فلأن عقوق إخوته أباهم رسول الله وإيذائهم أشد ما يكون لأخيهم المعصوم وصبر أبيهم أكمل صبر، وتقوى يوسف ـ عليه السلام ـ أحسن ما يكون وما آل إليه أمرهم إلى آخر القصة دلائل دالة على أن الإنسان أسير التقدير وعلى أنه ما شاء الله كان، أو على أنه لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

وأمَّا على الثاني: فلأن مثل أقصر سورة من القرآن معجز فيكون في هذه السورة معجزات كثيرة دالة على قدرة الله ـ تعالى ـ وحكمته، فالذين سألوا عن الحكيم وعرفوا ذلك لهم آيات فيها.

أو نقول: المعنى أن فيها آيات أي: دلائل دالة على صدق سيدنا محمد ـ ﷺ ـ

ونبوته لمن سأل عنها من كبراء قريش، حيث سألوا بتعليم اليهود على ما مر فى أول السورة، وأخبرهم بالكلام المعجز نظمه على وجه يوافق ما عندهم من الكتب السماوية من غير تعلم من أحد ولا مطالعة كتاب، فإنه كان من الأميين، فالسائلون هم كبراء قريش أولاً واليهود ثانيًا.

فال فى التفسير: وقال الإمام القشيرى[1] ـ رحمه الله ـ فى قصة آيات لكل ذى محبة حتى يعلم أنه كيف يصبر، وكل ذى نعمة حتى يعلم أنه كيف يشكر.

قال: ويقال: فى قصته دلالات كيفية العفو عن الزلة وكيف الخجلة عند اللقاء لأهل الجفوة.

وقيل: فى قصته دلالات لطف الحق سبحانه لأوليائه بالعصمة وآيات على أن المحبة لا تخلو عن المحبة.

وقيل: فيها آيات على أن من صدق فى رجائه يخلص يومًا من بلائه.

وقيل: آيات أى: عجائب.

قال الشاعر:

آيةٌ فى الجمال ليس له فى الـ ... ـحُسن شبه وما له نظير

وقيل: السؤال أنواع والفوائد للسائلين كذلك.

وإذا جالست العلماء فاسأل بلسانك.

وإن جالست الحكماء فاسأل بعينك.

وإن جالست العارفين فاسأل بقلبك.

---

(١) **(الإمام القشيرى)**: القشيرى (٣٧٦ - ٤٦٥هـ = ٩٨٦ - ١٠٧٢م) عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القشيرى، من بنى قشير بن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام: شيخ خراسان فى عصره، زهدًا وعلمًا بالدين، كانت إقامته بنيسابور وتوفى فيها، وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه، من كتبه لطائف الإشارات ويقال له: «التفسير الكبير» ومن تصانيفه أيضًا: التيسير فى التفسير، حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح، الرسالة القشيرية فى التصوف، الفصول فى الأصول، وأربعون حديثًا، (خ) الذهبى: سير أعلام النبلاء ١١: ١٩٨، وفى التاج ٨: ١٩٩: «الدرر الكامنة ١: ٤٠١» أكرم بن هبة الله» ثم ٢: ٤٠١» عبد الكريم، وفوات الوفيات ٢: ٤، و «لطائف الإشارات ـ المقدمة) ثلاثة أجزاء منه، فى التفسير أيضًا، و «الرسالة القشيرية ـ المقدمة» انظر: الزركلى: الأعلام: ٤/ ٧٣، وكحالة: معجم المؤلفين ٦/ ٤.

وإن جالست المحبين فاسأل بسرك.

فإذا لقيت العالم فقدم لسانك.

وإذا لقيت الحكيم فقدم عينك.

وإذا لقيت العارف فقدم قلبك.

وإذا لقيت المحب فقدم سرك.

وإن اطلعت على غيب فقدم روحك.

وقال بعض أهل العلم: يمكن تمشية الآية فى كل سائل فكأنه قال:

إن سألك العصاة ما يفعل الله بهم؟ فاقرأ عليهم قصة يوسف، وقل: يغفر الله لكم كما غفر لإخوة يوسف.

وإن سألك الذين يؤذون الآباء ويعقونهم ما يفعل الله بهم إذا تابوا؟ فقل: يعفو عنهم كما عفى عن أولاد يعقوب.

وإن سألك الممتحنون ما عاقبة أمرهم؟ فقل: الفرج كما فرج الله عن يعقوب.

وإن سألك المحبون كيف حالهم؟ فقل: يصلون إلى الحبيب كما وصلت زليخا إلى يوسف ـ عليه السلام ـ.

وإن سألك المهمومون الواقعون فى القحط وكذا وكذا فأجبهم بهذه القصة على التفصيل.

وقيل: آيات للسائلين لأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ حيث سألوا رسول الله لِمَ سمى الله ـ تعالى ـ هذا أحسن القصص؟ قال: (لأن المخبر هو أحسن القائلين قولاً، والمخبر عنه أحسن الناس وجهًا، فإن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن بعده أحسن فى الحسن مثله، فقالت عائشة: هو أحسن أم أنت يا رسول الله؟ قال: هو أحسن خَلْقًا وأنا أحسن خُلُقًا، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لِمَ لَمْ تخبر الناس به؟ قال: إن لم أقل أنا فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ وقال: أخبر الناس أن نورك ونور يوسف افترعا فى صلب آدم فصار الحسن والجمال ليوسف، والذكر والشرف، والنور، والحبور، والضياء، والبهاء، والعفاف، والكفاف، والهمة، والرفعة، والعلم، والحلم، والفضل، والعدل، والعزل، والحزم، والسيادة، والسعادة، والحوض، والشفاعة، والدعوة، والإجابة، والغضب والناقة، والتاج، والعمامة،

والسيف، والهراوة، والصبر، والقناعة، والنسك، والإنابة، والرحمة، والرأفة، والوقار، والسكينة، والشريعة، والأحكام الحنيفية، والصلاة المكتوبة، والزكاة المفروضة، والسمع، والطاعة، والصف، والجماعة، والتأذين، والإقامة، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، والتقديس، والتحميد، والحج والعمرة، والبلد المعظم والزمزم، والمقام، والمشعر الحرام، والقرآن الحكيم، والخلق العظيم، والآيات المفصلات، والكلمات المتلوات، والأزواج الطاهرات والعلو فى الدرجات، والبراق، والمعراج، والمقام المحمود، والحوض المورود، والمحض المشهود، والأفق الأعلى، والمقام الأدنى، وسلام الله الأعلى، هذه كمالك). انتهى.

وذكر فى المقام أن أسماء إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ روبيل، وقيل: روبين بالنون وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى، ويهوذا، وريالون، ويشجر، وأمهم ليًّا بنت ليان وهى بنت خال يعقوب ـ عليه السلام ـ وولد له من سرس له اسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة أربعة أولاد دان وبغثالى وجاد وأشر، ثم توفيت ليّا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف ـ عليه السلام ـ وبنيامين وكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً. انتهى.

﴿إِذْ قَالُوا﴾: أى اذكر وقت قولهم إلى آخر ما ذكر حتى تعلم تلك الآيات.

﴿لَيُوسُفُ﴾: اللام تفيد التأكيد كما مر.

﴿وَأَخُوهُ﴾: لأبيه وأمه وإن كانوا كلهم إخوة له لكن من الأب فالقائلون بنو علاته.

﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾: وإلى بعد أحب يدخل على المحب فالمعنى إن أبانا يحب كثيرًا يوسف لذاته وأخاه لأمه لنسبته إليه بالإخوة من الطرفين فلا يحسدون أخاه مثله.

و (أحب) أفعل التفضيل بمعنى المفعول فاستعمل بمن فلذا لم يطابق موصوفه فى التثنية فإن أفعل من مفرد مذكر أبدًا سواء كان موصوفه مفردًا أو متعددًا مذكرًا أو مؤنثًا بخلاف أخويه فإن المحلى باللام مطابق دائمًا ويجوز الوصف فى المضاف بمعنى الزيادة على من أضيف إليه بخلاف المضاف بمعنى الزيادة المطلقة.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: فلمحبة يعقوب يوسف أكثر منهم حسدوا، والحسد يغطى العين ويقهر العقل فلذا قالوا:

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: فى تدبير المنزل لا فى الدين وإلا لكفروا فأكدوا

ضلاله فى أمر المعاش وتدبير المنزل[1] وهو قسم من أقسام الحكمة العملية بأن واللام واسمية الجملة، وجعلوا الخطأ محيطًا بأبيهم ووصفوا الخطأ بالظهور، وكل ذلك لأنهم زعموا أن أباهم فضل المفضول وترك التسوية بين الأولاد وهما خلاف الحكمة وهى تدبير المنزل لكن المساكين لم يعلموا أن الحب وهو ميل القلب إلى كمال يدركه فى شخص ليس اختياريًا داخلاً تحت التكليف وهو بقدرة الله، يقلب العبد كيف يشاء ولذا سمى القلب قلبًا.

وحقيقة الأمر أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان خارجًا عن عادة البشر، فكان فارحًا والميل إلى الخوارق ضرورى.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: داخل تحت القول، والقائلون كلهم إلا القائل لا تقتلوا يوسف... إلخ.

ففى الكلام استثناء بقرينة اللاحق.

وقيل: القائل بعضهم: دان وشمعون أو غيرهما لكن لما رضى الكل غير القائل لا تقتلوا، جعلوا القائلين بذلك، فالحاصل قال تسعة منهم صريحًا أو دلالة ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وقيل: ظهر لهم إبليس فى صورة الشيخ كما ظهر لصناديد قريش عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى إيذاء رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: أنا الشيخ النجدى، فكذلك ظهر لإخوة يوسف عند مشاورتهم فى أمر يوسف وقال: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾.

﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: منكورة بعيدة عن العمران فلذا ـ أى لإبهامها ونكرتها ـ نصبت بتقدير فى كما نصبت الظروف المبهمة من الجهات الست وملحقاتها.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أى يقبل عليكم أبوكم، ففى الكلام كناية تلويحية إن أريد بالوجه العطف المخصوص[2] لأن إقبال أحد على أحد بقلبه يستلزم إقبال كل قالبه إليه وإقبال كل قالبه يستلزم إقبال وجهه إليه فتكرر الواسطة فذكر إقبال الوجه وأريد إقبال الذات، أى إقبال كل القالب، ثم أريد منه إقبال القلب.

ويجوز أن يراد بالوجه الذات كما فى قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾

---

(١) ومن أجمل ما قيل عن الضلال وتفسيره: (إنه الهيام والحب الذى وقع فيه نبى الله يعقوب فى ابنه يوسف، وكأنه هام به حبًا ظاهرًا أى: مبين) (المحقق).

(٢) وطلب العطف المخصوص هنا يعنى تأكيد معرفتهم بشدة حب يوسف عليهما السلام.

(الرحمن: ٢٧) فيكون الواسطة واحدة فتكون كناية إيمائية ويجوز أن يكون المعنى يفرغ لكم وجه أبيكم على الكناية كما مر.

فالمعنى يفرغ لكم قلب أبيكم لفراغ ذاته ووجهه لكم.

﴿وَتَكُونُوا﴾: عطف على ﴿يَخْلُ﴾ مجزوم مثله أو منصوب على تقدير إن جوابًا للأمر، والواو بمعنى مع، أى يحصل الإقبال أو الفراغ المذكوران مع أن تكونوا فيما يستقبل فإن إن يخصص المضارع بالاستقبال.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: أى بعد قتله أو طرحه ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: فيما بينكم وبين الله - تعالى - بالتوبة عما جنيتم على يوسف فتصوروا التوبة قبل الجناية فدل ذلك على عرفانهم وإيمانهم لكنهم فى حكم المسوفين.

وورد فى الحديث: (هلك المسوفون) حيث كان يجب عليهم التوبة عن عرفهم ذلك فأخروا التوبة عن وقتها، أو ﴿صَالِحِينَ﴾: فيما بينكم وبين أبيكم، بتمهيد عذر كاذب له، أو ﴿صَالِحِينَ﴾: فى أمر معاشكم حيث يتم لكم بإقبال أبيكم عليكم(1).

---

(1) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدى ﷺ قال: كان يعقوب - عليه السلام - نازلا بالشام، وكان ليس له هَمٌّ إلا يوسف وأخوه بنيامين، فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له، ورأى يوسف عليه السلام فى النوم رؤيا أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له، فحدث أباه بها فقال له يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فبلغ إخوة يوسف الرؤيا فحسدوه، فقالوا ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ كانوا عشرة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ قالوا: فى ضلال من أمرنا ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يقول: تتوبون مما صنعتم به ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ...﴾ وهو يهوذا ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فلما أجمعوا أمرهم على ذلك أتوا أباهم فقالوا له: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال: لن أرسله معكم إنى ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فأرسله معهم فأخرجوه وبه عليه كرامة، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العدواة، فجعل يضربه أحدهم فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه، يا يعقوب، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا يقتلونه قال يهوذا: أليس قد أعطيتمونى موثقًا أن لا تقتلوه؟... فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه، فجعلوا يدلونه فى البئر، فيتعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، ردوا علىَّ قميصى أتوارى به فى الجب، فقالوا له: ادع الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يؤنسوك، قال: فإنى لم أر شيئًا، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، فكان فى البئر ماء، فسقط فيه فلم يضره، ثم أوى =

= إلى صخرة فى البئر فـقام عليها، فجعل يبكى، فنادته إخوته: فظن أنها رقـة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة، فقام يهوذا فمنعهم وقال: قد أعطيتمونى موثقًا أن لا تقتلوه، فكان يهوذا يأتيه بالطعام، ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم فأخذوا جديًا من الغنم فذبحوه ونضحوا دمه على القميص، ثم أقبلوا إلـى أبيهم عشاء يبكون، فلما سمع أصواتهـم فزع وقال: يا بنى، ما لكم؟ هل أصابكم فى غنمكم شيء؟! قالوا: لا، قال: فما فعل يوسف؟ ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا** ﴾ يعنى بمصدق لنا ﴿ **وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** ﴾ فبكى الشيخ وصاح بأعـلى صوته، ثم قال: أين القميص؟ ثم جاءوا بقمـيصه وعليه دم كذب، فأخذ القميص وطـرحه على وجهه، ثم بكى حتى خضب وجهـه من دم القميص، ثم قال: إن هذا الذئب يا بنى لرحيم، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟!.

﴿ **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ** ﴾ فتعلق يوسـف عليه السلام بالحبل، فـخرج، فلما رآه صاحب الدلو دعا رجلا من أصحابه يقال له بشراى فقال: ﴿ **يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ** ﴾ فسمع به إخوة يوسف عليه السلام فـجاءوا فقالوا: هذا عبد لنا آبق، ورطنوا له بلسـانهم، فقالوا: لئن أنكرت أنك عبد لنا لـنقتلنك، أترانا نرجع بك إلى يعقـوب، عليه السلام، وقد أخبـرناه أن الذئب قد أكلك؟ قال: يا إخوتاه، ارجعوا بى إلى أبى يعـقوب، فأنا أضمن لكم رضاه ولا أذكر لكم هذا أبدًا، فأبوا، فقال الغلام: أنا عبد لهم، فلما اشتراه الرجلان فرقا من الرفقة أن يقولا: اشتريناه، فيسألونهما الشركة فيه، فقالا: نقول إن سألونا ما هذا؟ نقول هذه بضاعة استبضعناها من البئر، فذلك قوله: ﴿ **وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً** ﴾ ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ** ﴾ وكانت عشرين درهمًا ـ وكانوا فى يوسف من الزاهدين.

فانطلقوا به إلى مصـر فاشتراه العزيز ـ ملك مصر ـ فانطلق به إلى بيـته فقال لامرأته: ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ فأحبته امرأته فقالت له: يا يوسف، ما أحسن شعرك؟ قال: هو أول ما يتناثر من جسـدى، قالت: يا يوسف، ما أحسن عينيك؟ قال: همـا أول ما يسيلان إلى الأرض من جسدى، قالت: يا يوسف، ما أحسن وجهك؟ قال: هو للتراب يأكله ﴿ **وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ** ﴾ قالت: هـلم لك؟ وهى بالقبـطية ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي** ﴾ قال: سـيدى ﴿ **أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ فلا أخونه فـى أهله، فلم تزل به حتى أطمعـها به وهم بها، فدخـلا البيت ﴿ **وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ** ﴾ فذهب ليحل سراويله فإذا هو بصورة يعقوب، عليه السلام، قائمًا فى البيت قد عض على أصبـعه يقول: يا يوسف، لا تواقعـها، فإنما مثـلك مثل الطير فى جو السـماء لا يطاق، ومثلك إذا وقعت عليها مثله إذا مات فـوقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك مثل الثور الصعب الذى لا يـعمل عليه، ومثلك إذا واقعتها مثـله إذا مات فدخل الماء فى أصل قرنيه لا يـستطيع أن يدفع عن نفســه، فربط سراويله وذهب ليخـرج، فأدركته فأخـذت بمؤخر قميصه من خلفه فخرقته حتى أخـرجته منه وسقط وطرحه يوسف، واشتد نحو الباب، ﴿ **وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا** ﴾ جالسا عند الباب هو وابن عم المرأة، فلما رأته المرأة ﴿ **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ**=

=سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنه راودنى عن نفسى فدفعته عنى فشققت قميصه، فقال يوسف: لا بل ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ فأبيت وفررت منها فأدركتنى فأخذت بقميصى فشقته على، فقال ابن عمها: فى القميص تبيان الأمر، انظروا إن كان القميص قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين، فلما أتى بالقميص وجده قد قُدَّ من دُبُرٍ فقال لها: تَعَوَّذى لذنبك إنكِ كنت من الخاطئين.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ والشغاف جلدة على القلب، يقال: لها لسان القلب، يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ يقول بقولهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ يتكئن عليه، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وأترجا تأكله وقالت ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فلما خرج ورأى النسوة يوسف، أعظمنه وجعلن يحزن أيديهن وهم يحسبن أنه يقطعن الأترج، ويقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ بعدما كان حل سراويله، ثم لا أدرى ما بدا له، قال يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من الزنا.

ثم إن المرأة قالت لزوجها: إن العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس، إنه يعتذر إليهم ويخبرهم أنى راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذرى، فإما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر كما يعتذر، وإما أن تحبسه كما حبستنى، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ...﴾ وهو شق القميص وقطع الأيدى ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ...﴾ غضب الملك على خبازه، أنه يريد أن يسمه، فحبسه وحبس الساقى، وظن أنه مالأه على السم، فلما دخل يوسف عليه السلام السجن قال: إنى أعبر الأحلام، قال أحد الفتيين: هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى، فتراءيا ـ من غير أن يكونا رأيا شيئا ـ ولكنهما خرصا فعبر لهما يوسف خرصهما فقال الساقى: رأيتنى أعصر خمرًا، وقال الخباز: رأيتنى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه، قال يوسف، عليه السلام: ﴿لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ فى النوم ﴿إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ فى اليقظة، ثم قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ فيعاد على مكانه ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ ففزعا وقالا: والله ما رأينا شيئًا، قال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ إن هذا كائن لا بد منه، وقال يوسف عليه السلام للساقى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

ثم إن الله أرى الملك رؤيا فى منامه هالته، فرأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر يأكلهن سبع يابسات، فجمع السحرة والكهنة والعافة ـ وهم القافة ـ والحاذة ـ وهم الذين يزجرون الطير ـ فقصها عليهم فقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن السجن فى المدينة، فانطلق الساقى إلى يوسف عليه السلام فقال: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ=

=بقرات﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ قال هو أبقى له ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ قال: مما ترفعون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قال: العنب، فلما أتى الملك الرسول وأخبره قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ فأمره أن يخرج إلى الملك، أبى يوسف وقال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال السدى: قال ابن عباس ﷺ: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه، ما زالت فى نفس العزيز منه حاجة، يقول هذا الذى راود امرأته، قال الملك ائتونى بهن ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه ودخل معها البيت وحل سراويله ثم شده بعد ذلك، ولا تدرى ما بدا له، فقالت امرأة العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ قال تبين ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ قال يوسف ـ وقد جىء به ـ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فى أهله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، فقالت امرأة العزيز: يا يوسف، ولا حين حللت السراويل؟ قال يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فلما وجد الملك له عذرًا قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فأستعمله على مصر، فكان صاحب أمرها هو الذى يلى البيع والأمر، فأصاب الأرض الجوع وأصاب بلاد يعقوب التى كان فيها، فبعث بنيه إلى مصر وأمسك بنيامين أخا يوسف، فلما دخلوا على يوسف ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، فلما نظر إليهم أخذهم وأدخلهم الدار ـ دار الملك ـ وقال لهم: أخبرونى، ما أمركم؟ فإنى أنكر شأنكم، قالوا: نحن من أرض الشام، قال: فما جاء بكم؟ قالوا: نمتار طعامًا، قال: كذبتم، أنتم عيون، كم أنتم؟ قالوا: نحن عشرة، قال: أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف، فأخبرونى خبركم، قالوا: إنا أخوة بنو رجل صديق، وإنا كنا اثنى عشر فكان يحب أخا لنا وإنه ذهب معنا إلى البرية فهلك منا، وكان أحبنا إلى أبينا، قال: فإلى من يسكن أبوكم بعده؟ . . . قالوا: إلى أخ له أصغر منه، قال: كيف تحدثونى أن أباكم صديق وهو يحب الصغير منكم دون الكبير، ائتونى بأخيكم هذا حتى أنظر إليه ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ قال: فإنى أخشى أن لا تأتونى به، فضعوا بعضكم رهينة حتى ترجعوا، فارتهن شمعون عنده، فقال لفتيته وهو يكيل لهم: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى، فلما رجع القوم إلى أبيهم كلموه فقالوا: يا أبانا، إن ملك مصر أكرمنا كرامة لو كان رجلا منا من بنى يعقوب ما أكرمنا كرامته، وإنه ارتهن شمعون وقال: ائتونى بأخيكم هذا الذى عطف عليه أبوكم بعد أخيكم الذى هلك حتى أنظر إليه، فإن لم تأتونى به فلا تقربوا بلادى أبدًا، فقال لهم يعقوب عليه السلام: إذا أتيتم ملك مصر فأقرؤوه منى السلام، قولوا: إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ولما فتحوا رحالهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، أتوا أباهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فقال أبوه حين =

= رأى ذلك: ﴿وَلَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فحلفوا له ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قال يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ورهب عليهم أن يصيبهم العين إن دخلوا مصر فيقال: هؤلاء لرجل واحد، قال: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ - يقول: من طريق واحد - فلما دخلوا على يوسف عرف أخاه فأنزلهم منزلا وأجرى عليهم الطعام والشراب، فلما كان الليل أتاهم بمثل، قال: لينم كل أخوين منكم على مثال حتى بقى الغلام وحده، فقال يوسف عليه السلام: هذا نام معى على فراشى، فبات مع يوسف، فجعل يشم ريحه ويضمه إليه حتى أصبح وجعل يقول روبيل: ما رأينا رجلا مثل هذا! إن نحن نجونا منه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾، والأخ لا يشعر، فلما ارتحلوا ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قبل أن يرتحل العير: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فانقطعت ظهورهم ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ يقولون: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ يقول: تأخذونه فهو لكم ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فلما بقى رحل أخيه الغلام قال: ما كان هذا الغلام ليأخذها، قالوا: والله لا يترك حتى تنظروا فى رحله ونذهب وقد طابت نفوسكم، فأدخل يده فى رحله فاستخرجها من رحل أخيه، يقول الله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يقول: صنعنا ليوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يقول: فى حكم الملك ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ولكن صنعنا لشأنهم، قالوا: فهذا جزاؤه، قال: فلما استخرجها من رحل الغلام انقطعت ظهورهم وهلكوا وقالوا: ما يزال لنا منكم بلاء يا بنى راحيل، حتى أخذت هذا الصواع، قال بنيامين: بنو راحيل، لا يزال لنا منكم بلاء، ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية، وما وضع هذا الصواع فى رحلى إلا الذى وضع الدراهم فى رحالكم، قالوا: لا تذكر الدراهم فتؤخذ بها، فوقعوا فيه وشتموه، فلما أدخلوهم على يوسف دعا بالصواع، ثم نقر فيه، ثم أدناه من أذنه ثم قال: إن صواعى هذا يخبرنى أنكم كنتم اثنى عشر أخا، وإنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه (تابع الأيات ٨ - ٩) فلما سمعها بنيامين قام فسجد ليوسف وقال: أيها الملك، سل صواعك هذا، أحىٌّ أخى ذاك أم لا؟ فنقرها يوسف ثم قال: نعم هو حى، وسوف تراه، قال: اصنع بى ما شئت، فإنه أعلم بى، فدخل يوسف عليه السلام فبكى ثم توضأ، ثم خرج، فقال بنيامين: أيها الملك، إنى أراك تضرب بصواعك الحق، فسله من صاحبه؟ فنقر فيه ثم قال: إن صواعى هذا غضبان، يقول: كيف تسألنى من صاحبى وقد رأيت مع من كنت، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يُطاقوا، فغضب روبيل فقام فقال: أيها الملك، والله لتتركنا أو لأصيحن لا تبقى امرأة حامل بمصر إلا طرحت ما فى بطنها، وقامت كل شعرة من جسد روبيل، فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابنه مرة: مر إلى جنب روبيل فمسه فذهب غضبه، فقال روبيل: من هذا؟! إن فى هذه البلاد لبزراً من بزر يعقوب، قال يوسف عليه السلام: ومن يعقوب؟ فغضب روبيل فقال: أيها الملك، لا تذكرن يعقوب، فإنه بشرى الله ابن إسحاق ابن خليل الله، فقال يوسف عليه السلام: أنت إذا كنت صادقًا، فإذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه منى السلام وقولوا له: إن ملك =

....

= مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ابنك يوسف، حتى يعلم أبوكم أن فى الأرض صديقين مثله، فلما أيسوا منه وأخرج لهم شمعون وكان قد ارتهنه خلوا بينهم نجيا يتناجون بينهم، قال كبيرهم ـ وهو روبيل ولم يكن بأكبرهم سنا ولكن كان كبيرهم فى العلم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فأقام روبيل بمصر، وأقبل التسعة إلى يعقوب، عليه السلام، فأخبروه الخبر فبكى وقال: يا بنى، ما تذهبون من مرة إلا نقصتم واحدًا، ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم الثانية فنقصتم شمعون، ثم ذهبتم الثالثة فنقصتم بنيامين وروبيل ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ من الغيظ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ الميتين ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: أتى يوسف جبريل عليه السلام ـ وهو فى السجن ـ فسلم عليه وجاءه فى صورة رجل حسن الوجه طيب الريح نقى الثياب، فقال له يوسف: أيها الملك الحسن الوجه الكريم على ربه، الطيب ريحه، حدثنى كيف يعقوب؟ قال: حزن عليك حزنًا شديدًا، قال: فما بلغ من حزنه، قال حزن سبعين مثكلة، قال فما بلغ من أجره؟ قال: أجر سبعين شهيدا، قال يوسف عليه السلام: فإلى من أوى بعدى؟ قال إلى أخيك بنيامين، قال: فترانى ألقاه؟ قال: نعم، فبكى يوسف عليه السلام لما لقى أبوه بعده، ثم قال: ما أبالى بما لقيت إن الله أرانيه، قال: فلما أخبروه بدعاء الملك أحست نفس يعقوب وقال: ما يكون فى الأرض صديق إلا ابنى، فطمع وقال: لعله يوسف، قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بمصر ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ قال: من فرج الله أن يرد يوسف، فلما رجعوا إليه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ بها، كما كنت تعطينا بالدراهم الجيدة، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ تفضل ما بين الجياد والرديئة، قال لهم يوسف ـ ورحمهم عند ذلك ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾ فاعتذروا إليه ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا أذكر لكم ذنبكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم قال ما فعل أبى بعدى؟ قالوا: عمى من الحزن، فقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فقال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص إلى يعقوب عليه السلام وهو متلطخ بالدماء وقلت: إن يوسف قد أكله الذئب، وأنا أذهب بالقميص وأخبره أن يوسف عليه السلام حى فأفرحه كما أحزنته، فهو كان البشير، فلما ﴿فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ من مصر منطلقة إلى الشام وجد يعقوب، عليه السلام، ريح يوسف عليه السلام فقال لبنى بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال له بنو بنيه: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ من شأن يوسف ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا، ألقى القميص على وجهه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ قال لبنيه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم حملوا أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا =

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾: يهوذا أو غيره[١].

﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: فإن القتل عظيم وهو أغم من الطرح المذكور فإنه قتل فى المال بحسب الغالب فى الحال بل أشد من القتل لأنه يموت جوعًا وعطشًا أو يأكله السباع، فلذا لم يذكره.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾: هو البئر الغير المطوى فإنه جب أو شق فقط ولم يبن بالحجارة[٢].

وغيابته: قعره، أى: ألقوه فى قعر بئر قليل الماء بحيث لا يغمره فيقتله.

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾: يأخذه بغير طلب حيث لا يحتسب.

﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾: هذه الصيغة للمبالغة، وأدخلت عليها تاء المبالغة للتأكيد، أى يأخذه بعض الذين يسيرون إلى بعيد من الديار فيغربون، ويذهبون به إلى ناحية بعيدة.

= مصر كلم يوسف عليه السلام الملك الذى فوقه، فخرج هو والملك يتلقونهم، فلما لقيهم قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه: أباه وخالته ورفعهما ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال: السرير، فلما حضر يعقوب الموت أوصى إلى يوسف أن يدفنه عند إبراهيم فمات فنفع فيه الأمر، ثم حمله إلى الشام، وقال يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس ﷺ: هذا أول نبى سأل الله الموت، وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم مفرقًا فى السورة وأخرج ابن جرير ثنا وكيع ثنا عمرو بن محمد العبقرى عن أسباط عن السدى، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث ثنا الحسين بن على ثنا عامر بن الفرات عن أسباط عن السدى به، وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﷺ فى قوله: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ يعنى بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه، وفى قوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قال: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﷺ فى قوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قال: العصبة: الجماعة، وفى قوله: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال: لفى خطأ من رأيه.

(١) أخرج عبد الرزاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ، كلهم عن قتادة (ﷺ) فى قوله تعالى ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال: كنّا نحدّث أنه «رُوبيل» وهو أكبر إخوته وهو ابن خالة يوسف، وأخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (ﷺ) فى هذه الآية قال: هو شمعون.

(٢) أخرج عبد الرزّاق، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة (ﷺ) قال: الجب هى بئر ببيت المقدس، يقول فى بعض نواحيها، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد (ﷺ) قال: الجُبّ الذى جعل فيه يوسف (عليه السلام) بحذاء «طبرية» بينه وبينها أميال. انظر: السيوطى: الدر المنثور ٤/ ٥٠٩.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾: ما تفرقون بينه وبين أبيه.

فهذا هو الرأى لأنه يحمل غرضكم بدون قتل محرم فأجمعوا على ذلك ثم جاءوا يوسف فوجدوه خارج البيت فتملقوا إليه وأظهروا خبه ثم لعبوا بالاستئناف والتناصل لا باللعب المحرم عنده، فانبسط يوسف إليهم على ما هو عادة الإنسان وقال: يا اخوتاه هكذا حالكم فى مراعيكم قالوا: نعم وأنت بقيت داخل الدار كالمسجون اذهب بنا إلى المرعى نلعب ونرتع وكيت وكيت.

قال: اطلبونى من أبى إن رضى ذهبت، فجاءوا أباهم ثم بعد ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ﴾: أى شىء يحصل.

﴿لَكَ لا تَأْمَنَّا﴾: ففى مرفوع حال عن ضمير لك أى أىّ نفع يحصل لك غير، أى: من إيانا.

﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: وقرأ بعض القراء من السبعة بإخفاء النون من غير إدغام صحيح مع اختلاس الحركة وهو المراد من الإشمام على تقدير الإخفاء لا تحريك العضو.

وقرأ البعض منهم بالإدغام الصريح، والإشمام بمعنى ضم الشفة وتحريك العضو للدلالة على الضم.

وبعضهم قرأ بالإدغام بلا إشمام.

وهذا الخلاف بين المخرجين كالشاطبى، والدانى، والجعيرى فأنكروا يستبعدوا عدم أمنه أباهم على يوسف ـ عليه السلام ـ وعللواالإنكار بالجال وهى قولهم:

﴿وَإِنَّا لَهُ﴾: قدم للاهتمام ولرعاية الفاصلة.

﴿لَنَاصِحُونَ﴾: أى نريد خيره ونحبه ولم تر منا إلاَّ المحبة والهمة والنصح أكدوا نصحهم له بمؤكدات كما ترى.

﴿أَرْسِلْهُ﴾: عن قيد إمساكك فى داخل البيت كالمسجون إلى الصحراء.

﴿مَعَنَا﴾: ونحن إخوته وبنوك.

﴿غَدًا﴾: يوما واحدًا فقط وليس بكثير.

﴿يَرْتَعْ﴾: يكثر أكل الفواكه ولحوم الحملان وغير ذلك، فإن الرتع السعة فى الأكل.

﴿وَيَلْعَبْ﴾: لعبا مباحًا كالاستئناف على الأرجل أو الدواب والتناصل بالسهام

لأجل الجهاد وإلا لنهاهم عنه نبى الله، فالحاصل لا يجوع بل يرتع ولا تكلف له خدمه بل يلعب، ولا تخاف عليه ضيعة وعللوه بالحال وهى قولهم:

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: عن جميع ما يؤلمه.

﴿قَالَ﴾: أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾: الآن، لأن اللام تخلص المضارع للحال.

﴿أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾: فى الاستقبال يعنى غداً فقدرنا التصور لئلا يكون وجود الفعل قبل وجود فاعله، أظهر نبى الله غاية حبه ليوسف واعتذر به حيث بين لهم أن حبى وعشقى ليوسف - عليه السلام - فى مرتبة أن الحزن وهو تألم القلب لفوات محبوب لحق فى الآن عند تحلمكم بذهابه لتصورى ذهابه غداً، وهذا هو الغاية فى الحب ليس وراءه حب، ثم اعتذر بعد هذا العذر، بعذر آخر وهو قوله:

﴿وَأَخَافُ﴾: عطف على: ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ والخوف تألم القلب عند نزول مكروه.

﴿أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾: سمى به لتذاؤبه وهى المجىء من كل مكان عند اصطياده، فالتذاؤب مشتق من الذئب لا على العكس، علمهم يعقوب - عليه السلام - العذر الكاذب حيث قالوا بعد ذلك: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾: وكانوا منجزين فى الغدر إلى أن قال ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾.

فلذا قيل: (البلاء موكل بالمنطق)[1].

---

(١) حديث: (البلاء موكل بالمنطق...) البلاء موكل بالقول، وفى لفظ: (بالمنطق)، رواه القضاعى عن حذيفة وعن علىٍّ مرفوعًا، ورواه ابن لال عن ابن عباس رفعه، وأوله: ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء... إلخ، وذكره البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى حديث عرض النبى ﷺ نفسه على القبائل من قول الصديق لما قال له علىٌّ: لقد وقعت من الأعراب على «باقعة» يعنى الذى دقق عليه فى سؤاله عن نسبه بعد أن كان دقق فى سؤال واحد منهم عن نسبه بلفظ: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة والبلاء موكل بالقول، ورواه الديلمى عن ابن مسعود رفعه بلفظ الترجمة، وزاد: فلو أن رجلا عير رجلا برضاع كلبة لرضعها، ورواه ابن أبى شيبة فى الأدب المفرد عن ابن مسعود بلفظ البلاء موكل بالمنطق، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا، وعند الخرائطى فى المكارم عن أبى مسعود من قوله: ولا تستشرفوا البلية فإنها مولعة بمن يشرف لها، إن البلاء مولع بالكلم فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم، ورواه الديلمى عن أبى الدرداء مرفوعًا بلفظ البلاء موكل بالمنطق، ما قال عبد لشىء والله لا أفعله إلا ترك الشيطان كل شىء وولع به حتى يؤثمه، وأخرجه ابن أبى الدنيا عن إبراهيم النخعى أنه قال: إنى لأجد نفسى تحدثنى بالشىء فما يمنعنى أن أتكلم به إلا مخافة =

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: فى تسابقكم وتناضلكم.

قيل: كانت أرضهم مسبعة، فلذا خاف الذئب.

وروى عن ابن عباس ـ ﷺ ـ أن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ قالوا: يا أبانا ما سمعنا أحدًا يأكله الذئب، فمن أين قلت: أخاف أن يأكله الذئب؟ قال: رأيت ليلة فى هذه الليالى أنى على رأس جبل شامخ ويوسف فى الوادى أسفل منى، وقد أحاطه عشرة ذئاب، فاجتهدت فى النزول إليه فلا أجد طريقًا إليه فبينا أنا كذلك فشق الأرض ودخل يوسف فيها فانتبهت جزعًا، فوجدت يوسف عندى فحمدت الله.

قال ابن عباس ـ ﷺ ـ: والذئاب أخوة يوسف ـ عليه السلام ـ ودخوله فى الأرض دخوله فى الجب، قالوا: يا بن عباس ألم يعلم يعقوب ـ عليه السلام ـ هذا التأويل؟ قال: بلى، ولكن إذا جاء القدر عمى البصر، كذا فى التيسير.

فلما اعتذر نبى الله بعذرين: إفراط الحب والعشق بحيث لا صبر له على الفراق ولو لحظة، والخوف من الذئب وكان العذر الأول هو الباعث لهم على الكيد بيوسف، وكان قاحم ظهورهم وكاسر قلوبهم فأعاروه آذانًا صمّا فكأنهم ما سمعوه، فلم يشتغلوا بالجواب عنه وأجابوا عن عذر الخوف عن الذئب حيث قالوا:

﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: جماعة رماة كفاة أشداء إمّا على الأعداد بحيث يعد واحد منّا بألف تعصب وتشد بنا الأمور وتحكم بنا الخطوب.

= أن أبتلى به، وأورده الصغانى بلفظ: البلاء موكل بالمنطق أو بالقول، وحكم عليه بالوضع، وأورده ابن الجوزى من حديثى أبى الدرداء وابن مسعود فى الموضوعات، قال فى المقاصد: ولا يحسن بمجموع ما ذكرناه الحكم عليه بالوضع، ويشهد لمعناه قوله ﷺ: هلم للأعرابى الذى دخل عليه يعوده وقال له: لا بأس، فقال له الأعرابى: بل حمى تفور... الحديث قال: فنعم إذًا، وأنشد ابن بهلول:

لا تنطقن بما كرهت فربما عبث اللسان بحادث فيكون

ويروى:

* لا تعبثن بحادث فلربما *

وأنشده غيره:

لا تمزحن بما كرهت فربما ضرب المزاح عليك بالتحقيق

انظر: العجحلونى: كشف الخفاء: ١/ ٣٤٣ الحديث رقم (٩٢٦).

﴿ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾: أى: ميِّتون يكنون به عن الضعف والخور فى الغاية أو مستحقون لأن يدعى لنا بالخسار، فيقال: خسرهم الله وأهلكهم حيث ضيعوا أخًا لهم وهو بمحضرهم أو مغبونون فى الأمور لأنَّا إذا لم نقدر على حفظ أخينا من الذئب فكيف نقدر على الأموال، فبعد ذلك أحضر يعقوب يوسف ـ عليهما السلام ـ فاستطلع رأيه فى الذهاب فلما فهم ميله إلى الصحراء وإلى الرتع، واللعب فى صحبة إخوته بكا بكاء كثيرًا، ثم أذن له لتحصيل مراده، فإن العاشق يرجح مراد المعشوق على مراد نفسه ويتجرع غصص الهجران وإن كان مرّا عليه لأجل راحته، فبعد ذلك هيَّأ أسباب سفر يوسف ـ عليه السلام ـ على ما سيجىء إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال النيسابورى فى تأويل ﴿ الٓر ﴾ تلك الآيات دلالات كتاب المحبوب إلى المحب للهداية إلى طريق الوصال، ولهذا كانت أحسن القصص لأنها أتم قصص القرآن مناسبة ومشابهة بأحوال الإنسان إذ قال يوسف «القلب» لأبيه يعقوب «الروح» إنى رأيت أحد عشر كوكبًا، هذه الحواس الخمس الظاهرة والخمس الباطنة.

أى: المذكِّرة، والحافظة، والمتخيلة، والمتوهمة، والحس المشترك مع المفكرة.

ولكل من هذه إضاءة لإدراك المعنى المناسب أو هم إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ القلب لأنهم تولدوا بازدواج يعقوب الروح وزوج النفس والشمس والقمر: الروح والنفس ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾: وهذا مقام كمال الإنسان أن يصير القلب سلطانًا تسجد له الروح والنفس والحواس والقوى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾: على سائر المخلوقات وهذا كمال حسن يوسف ـ عليه السلام ـ

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾: العلم اللدنى المختص بالقلب.

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾: يتجلى لك ويستوى عليك إذ القلب عرش حقيقى للرب.

﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾: إلى متوالدات الروح من القوى والحواس ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾: السِّرّ ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾: الخفى، وبهما يستحق القلب لقبول فيض التجلى، وهناك ألطاف خفية لا يسع الإنسان فيه ملك مقرب، ولا نبىّ مرسل ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ عن طريق الوصول إلى الله.

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾: «بنيامين» الحس المشترك فإن اختصاصًا بالقلب ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰ

أَبِينَا مِنَّا ﴾: لأن القلب عرش الروح ومحل استوائه عليه، والحس المشترك بمثابة الكرسى للعرش.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾: القلب بسكين الهوى، وسم الميل إلى الدنيا.

﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ ﴾: فى أرض البشرية.

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾: يقبل الروح بوجهه إلى الحواس والقوى لتحصيل شهواتها.

﴿ وَتَكُونُوا ﴾: بعد موت القلب.

﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾: للتنعم الحيوانى والنفسانى.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾: هو يهوذا القوة المفكرة.

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾: القلب البشرية.

﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾: الحواس النفسانية.

﴿ يَرْتَعْ ﴾: فى المراتب البهيمية، ونلعب فى ملاعب الدنيا.

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾: من فتنة الدنيا، وآفاتها.

﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾: الشيطان.

﴿ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾: لأن خسران جميع أجزاء الإنسان فى هلاك القلب وريحها.

مجلس في:

بيان ذهاب إخوة يوسف به وإجماعهم أن يجعلوه في غيابة الجب

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ...

فهذا مجلس فى بيان ذهاب إخوة يوسف به، وإجماعهم أن يجعلوه فى غيابة الجب، ومجيئهم أباهم بالبكاء، بل بالتباكى وبدم كذب على قميصه والتزام يعقوب رسول الله الصبر الجميل واستعانته بربه فيه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ (يوسف: ١٥): الفاء فصيحة، أى: فأذن يعقوب ـ عليه السلام ـ بذهاب يوسف معهم وأرسله إلى الصحراء فلما ذهبوا به رُوِىَ أَنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ ما نام فى تلك الليلة بل بكى إلى الصبح، فلما أصبحوا رجَّل يوسف ـ عليه السلام ـ وطيبه وزينه بأحسن اللباس وجمله بغاية ما يمكن ثم قال لإخوة يوسف: يا بنى لا تلومونى على حبى ليوسف فإنى أرى فيه آثار أبى وجدى وأتوقع فيه الكمالات التى كانت فيهما، ثم توجه إلى يوسف وقال: يا ثمرة فؤادى، ويا قرة عينى، لا تنس الله فى كل حال فإذا وقعت فى مصيبة فأكثر الاستغفار، وإذا أصابك ما لا طاقة لك به، فقل: حسبى الله ونعم الوكيل فإنَّ جدك خليل الله قاله حين ألقى فى النار، ولا تنسنى، فإنى لا أنساك، ولا تضحك ما لم تلقنى، فإنى لا أضحك ما لم ألاقك، ثم قال لإخوته: احملوه واسقوه وأطعموه وأجملوا معه، ثم شيعهم إلى شجرة الوداع شجرة كانت خارج البلدة يشيع الناس مسافريهم إليها ويستودعونهم عندها، واستودع الله يوسف ـ عليه السلام ـ فبقى هناك وذهبوا بيوسف وحمله «روبيل» على عاتقه فلما غابوا عن عين يعقوب ـ عليه السلام ـ طرحه إلى الأرض فقال: امش كما نمشى، فمشى معهم ساحة فغيى، فجلس واستقى فضربوه وأزعجوه فقالوا: ليحملك وليسقك

الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ثم بعد ذلك فعلوا به ما فعلوه من الانداء والضرب، واللكم والجر، والسحب، على وجهه ما يقدرون عليه وكادوا يقتلونه فصاح يهوذا: ألم تعطونى موثقًا أن لا تقتلوه فتركوه، ويوسف ـ عليه السلام ـ فى جميع ذلك يستغفر الله ويقول: حسبى الله ونعم الوكيل كما وصى به أبوه حتى ذهبوا به إلى «جب» عند الطريق على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ـ عليه السلام ـ فى وادى كنعان فى أرض الأردن، وقد مررت به فى ذهابى من الشام إلى مصر قرب منزل يقال له جسر يعقوب ـ عليه السلام ـ يرتحل منه إلى قرية يقال لها: منية، وبيوت يعقوب فى الجانب الأيمن ترى من بعيد.

وما قيل: إنه بئر بيت المقدس، وبئر بين مدين ومصر وغير ذلك فلا وجه له.

فلما وصلوا إلى الجب نزعوا لباس يوسف ـ عليه السلام ـ الذى كان عليه فلما نزعوا قميصه قال: اتركوه أتوارى به قالوا: ادع الكواكب والشمس والقمر تلبسك وتؤنسك فى البئر وهو يقول: حسبى الله ونعم الوكيل، ثم شدوا به الحبل فدلوه إلى البئر فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه فلما وصل نصف الطريق فى البئر قطعوا الحبل حتى يسقط ويموت فسقط فى الماء ولم يكن غامرًا ثم صعد على صخرة كانت فيه يقال لها: راعوفة تكون فى الآبار للتطهير، فجلس على الصخرة، ثم نادته الهوام فى البئر ادخلوا مساكنكم حتى لا يتأذى منكم نبى الله فدخل الهوام حجورها فلم يخرجوا ما دام يوسف فيها ثم بعد ذلك ناداه يهوذا ليعلم هل هو حى أم ميت فأجاب ظانًا أنه أخذتهم الرحمة، فعمدوا ليرضخوا رأسه بالحجارة فمنعهم يهوذا فوضعوا على فم البئر صخرة كانت هناك فأظلم البئر على يوسف فهناك ضاق قلبه ودعا بدعائه[١] قال فى التيسير:

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: (لمَّا أُلقى يوسف فى الجُب أتاه جبريل (عليه السلام) فقال له: يا غلام، من ألقاك فى هذا الجب؟ قال: إخوتى، قال: ولِمَ؟ قال: لمودة أبى إيَّاى حسدونى، قال: تريد الخروج من هنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب، قال: قل: «اللهم إنى أسألك باسمك المخزون والمكنون، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تغفر لى ذنبى وترحمنى، وأن تجعل لى من أمرى فرجًا ومَخْرجًا، وأن ترزقنى من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب» فقالها، فجعل الله له من أمره فرجًا ومَخْرجًا، ورزقه مُلْك مصر، من حيث لا يحتسب، فقال النبى (ﷺ) ألِظُّوا بهؤلاء الكلمات، فإنهن دعاء المصطفين الأخيار). انظر: السيوطى: الدر المنثور: ٤/ ٥١١.

دعا يوسف ـ عليه السلام ـ إذ ذاك وقال: وقال: اللهم يا كاشف كل كربة، ويا مجيب كل دعوة ويا جابر كل كسير، ويا ميسر كل عسير، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، لا إله إلا أنت سبحانك أسألك أن تجعل لى فرجًا ومخرجًا وأن تقذف حبك فى قلبى حتى لا يكون هم، ولا ذكر غيرك وأن تحفظنى وترحمنى يا أرحم الراحمين.

قال الشاعر:

الدهرُ لا يَبْقَى على حَاله كَذَلكَ حَالُ العَبْد فى العُسْر
أَمَا تَرَى يُوسُفَ فى جُبِّه فى ضَيق أَمْر ثُمَّ فى اليُسْر

فعند ذلك أرسل الله ـ تعالى ـ إليه جبريل ـ عليه السلام ـ وجعله نبيًا مرسلاً، وإن لم يكن هناك أحد يدعوه إلى الله تطبيًا لقلبه وإيناسًا به، ودفعًا لوحشته وأوحى إليه ما أوحى فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا﴾ بيوسف.

﴿وَأَجْمَعُوا﴾: أوقعوا أو اتفقت آراؤهم، واجتمعت دواعيهم ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾: والإجماع متعد بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ (يونس: ٧١).

والجعل هنا أحسن من الإلقاء، لأن مرادهم الخروج منها.

﴿فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: فى قعره، وجواب لما محذوف للتهويل أى فعلوا به ما فعلوا من أنواع الأذى.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾.

قال ابن كمال: الواو هنا فصيحة كالفاء فى ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾.

والمحذوف الجواب المذكور، أى فعلوا به ما فعلوا من أنواع الأذى وطرحوه فى البئر، وشدوا رأسه، وضيقوا قلبه وأزعجوه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾: تطبيبًا لقلبه كما مر.

وقال الإمام القشيرى ـ رحمه الله ـ:

لما انقطع عنه ملاطفة أبيه جاء الوحى من بادئه، وهكذا سنته جل جلاله لا يفتح على نفوس أوليائه بابًا من البلاء إلا فتح على قلوبهم أبواب الصفاء، وفنون اللطائف والولاء فأوحى إليه من جملة ما أوحى إليه:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾: مؤكدًا بالقسم واللام والنون للتحقيق.

﴿بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾: أى بإيذائك وإلقائك فى الجب وسائر ما فعلوا بك.

والمعنى: والله إنك تصل إلى مرتبة عالية فى الدنيا فيجىء إخوتك فيدخلون تحت قهرك وتخضع أعناقهم لك بعد الصعوبة وتخبرهم بما فعلوا بك فى هذا الوقت.

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾: وقت إنبائك أنك يوسف لعلو شأنك وارتفاع سلطانك ولبعد الزمان المغير للحلى والهيئات فلا يخطر ببالهم وقت إنبائك أنك يوسف.

وفى بيان هذا الإنباء قيل: هو قوله فى دخولهم عليه فى المرة الثالثة ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (يوسف: ٨٩) موبخًا عليهم لكن يرده قوله تعالى هنا: ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

لأن المفهوم منه أنهم لا يعلمون وقت إنبائه وقد علموا وقت قوله: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم ﴾ ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ (يوسف: ٩٠).

فالحق ما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال ابن كثير: قال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة، بن عبادة الأسدى، عن أبيه سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون قال لأمينه: جئ بالصواع، فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال: إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف بدينه دونكم وإنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب قال: ثم نقره فطن قال: فأتيتم أباكم فقلتم إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب.

قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبركم.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فلا نرى هذه الآية إلا نزلت فيهم ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

فعلى هذا التفسير يتعلق قوله ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بقوله: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم ﴾.

وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾: أى: جاء وحينا إلى يوسف ـ عليه السلام ـ مع الملك تطييبًا لقلبه وإيناسًا به ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنا أوحينا إليه وآنسناه وطيبنا قلبه بل يظنون أنه فى غصة ووحشة، والقميص الذى جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ يوم ألقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى النار وألبسه إياه، وقد أعطاه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إسحاق، وإسحاق يعقوب ـ عليه السلام ـ وجعله يعقوب فى تميمة علقها على يوسف ـ عليه السلام ـ أخرجه عن تميمته فألبسه إياه، وأحضر أطعمة الجنة وريحها وكان مؤنسًا إلى ثلاثة أيام ويوسف فى هذه اللذة والكمال.

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ وقت الظلمة لئلا تظهر أمارات الكذب على وجوههم.

﴿يَبْكُونَ﴾: يتباكون لأن البكاء إنما يحصل من الحزن فى القلب وفى قلوبهم السرور فهو التباكى.

قال فى التيسير وفى القصة:

إنهم لما أبطئوا على يعقوب ـ عليه السلام ـ كانت له جارية يقال لها: صفراء، فقال لها: خذى بيدى وانطلقى بى نستقبل يوسف، فخرجا من كنعان فصعدا تلاً ينظران فلما أظلم الليل قال لها: صيحى بأولادى، فقالت: يا أولاد يعقوب فهلموا أبوكم ينتظركم، فسمعوا بذلك وهم فى واد فمزقوا ثيابهم وجعلوا يصيحون يا يوسفاه! ويا نبياه! فقال يعقوب: ما هذه الصياح فأخبرته بما يقولون فخر مغشيًا عليه فنادتهم صفراء: أسرعوا فقط سقط الشيخ فجاءوا ورأوه كذلك فقالوا: بئسما فعلنا ضيعنا أخانا وقتلنا شيخنا، واحتملوه إلى بيته فافاق عند السَّحَر فقال لهم: أين يوسف؟.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: نتسابق لأن الافتعال بمعنى التفاعل كالانتضال بمعنى التناضل، والتسابق إما فى العدو أى أينا يسبق، أو فى الرمى أى أينا يصيب الغرض أو أينا يرمى بعيدًا، وكل ذلك لأجل التمرين فى الحرب، قال: ثم ماذا قالوا؟.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾: أثوابنا.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾: فخر مغشيًا عليه ثم أفاق، فقال: أى ذئب أكله؟.

وفى الرواية كانوا أخذوا ذئبًا فأحضروه فقالوا: هذا الذئب، فقال للذئب: لمَ أكلت ولدى؟ فتكلم الذئب وقال: إنا لا ندور حول غنمك فكيف نأكل ولدك؟ فقال: هو هو فى الأحياء؟ قال: نعم، قال: أين هو؟ قال: سل جبريل، قال: إنه لا يخبرنى، فقال: وإذا لم يخبرك هو فكيف أخبر، فقال لأولاده: أسمعتم؟ قالوا: تصدق ذئبًا وتكذبنا ونحن عشرة، فقال: جيئونى بشىء يدل ذلك ويكون تذكرة لى عنه، فذهبوا وعادوا عشاء، وقد حملوا قميصه ملطخًا بدم شاة، فأخذه ونظر فيه فإذا هو صحيح لم يخرق، فقال: هل كان يوسف فى هذا القميص؟ قالوا: نعم، قال: كيف وصل إليه ولم يخرق بهذا، فخجلوا، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ثم توجه إلى الوادى فهو يقول: يا ولدى وقرة عينى وثمرة فؤادى فى أى جب طرحوك، فى أى بحر أغرقوك بأى

سيف قتلوك، بأى أرض دفنوك، فبكى لبكائه الملائكة فجاء جبريل وقال: قد أبكيت بكائك الملائكة، فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨). انتهى.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾: أى بمصدق ﴿لَّنَا﴾: سوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف ـ عليه السلام ـ ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: عندك حال أى: مفروض صدقنا.

قال التفتازانى فى شرح التلخيص: أما الواو الداخلة على الشرط المدلول على جوابه بما قبله من الكلام، وذلك إذ أن ضد الشرط المذكور أولى باللزوم، لذلك الكلام السابق الذى هو كالعوض عن الجزاء من ذلك الشرط كقولك: أكرمه وإن شتمنى واطلب العلم ولو بالصين.

فذهب صاحب الكشاف إلى أنها للحال والعامل فيها ما تقدمه من الكلام وعليه الجمهور.

وقال الجنزى: إنها للعطف على محذوف هو ضد الشرط المذكور أى أكرمه إن لم يشتمنى وإن شتمنى، واطلب العلم لو لم يكن بالصين ولو كان بالصين. انتهى.

فيكون معنى الآية على كون الواو للعطف: ما أنت بمؤمن لنا لو لم نكن صادقين ولو كنا صادقين.

وروى أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت وقال له الشعبى: يا أبا أمية أما تراها تبكى؟ قال: جاء إخوة يوسف وهم ظلمة ولا ينبغى لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية[(١)].

كذلك فى الكشاف وغيره من التفاسير.

﴿وَجَاءُو﴾: أى إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِ﴾: حال من الدم فى قوله: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ولا يضر تقدمها على ذى الحال المجرور، لأن الظروف يتسع فيها.

وقيل: ظرف لجاءوا لكن لا باعتبار تعلقه بفاعله بل باعتبار تعلقه بمفعوله أى جاءوا بالدم فوقه فيكون مثل قولك: ضربت زيدًا على الجمل وزيد على الجمل وأنت

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وقال: أخرج ابن المنذر عن الشعبى (رضي الله عنه) قال: جاءت امرأة إلى شُريح (رضي الله عنه)... الحديث، انظر: الدرالمنثور ٤/ ٥١٢.

على الأرض، و ﴿كَذِبٍ﴾ مصدر حمل على الدم للمبالغة كقولهم: رجل عدل.

أى: ﴿بِدَمٍ﴾ هو عين الكذب، وهذا أولى.

وقيل: على حذف المضاف أى ذى كذب بمعنى مكذوب فيه.

روى أنهم جاءوا بقميصه أخذه وألقاه على وجهه وبكى فخضب وجهه بالدم، ثم نظر إليه فوجده صحيحًا لم يخرق، وقد ذهب عنهم خرقه وقال: أكان هذا القميص على ابنى حين أكله الذئب؟ قالوا: نعم، قال: فما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه.

قال الشعبى: كانت قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كلها فى قميصه أى فى جنس قميصه وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٢٧) وقوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ (يوسف: ٩٣).

فلما تحقق كذبهم عنده بشهادة القميص والذئب.

﴿قَالَ بَلْ﴾: أى تحققت أنه ما أكله الذئب.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾: أى: سهّلت وهونت من السؤال وهو الاسترجاء.

﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: عظيمًا.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أجمل أو أمرى صبر جميل هو الذى لا شكوى فيه إلى أحد من الخلق.

ويجوز أن الشكوى إلى الله لقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦).

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ﴾: احتماله.

﴿مَا تَصِفُونَ﴾: أى: تقولون بأفواهكم من هلاك يوسف ـ عليه السلام ـ فإنه أمر عظيم، تيسر الصبر عليه فأستعين بالله على الصبر على ما يفهم من قولكم من هلاكه.

قال الإمام الرازى: الصبر على قضاء الله واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين فغير واجب، بل الواجب إزالته لا سيما فى الضَّرر العائد إلى الغَيْر.

وههنا إن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ لمَّا ظهر كذبهم وخيانتهم على يعقوب ـ عليه السلام ـ فلم صبر على ذلك ولمَ لمْ يبالغ فى التفتيش والبحث سعاية فى تخليص

يوسف ـ عليه السلام ـ من البلية والشدة إن كان حيًا، وفى إقامته القصاص إن صح أنهم قتلوه فثبت أن الصبر فى هذا المقام مذموم(١).

ومما يقوى هذا السؤال أنه ـ عليه السلام ـ كان عالمًا بأنه حى سليم، لأنه قال له: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف: ٦).

والظاهر أنه إنما قال ذلك الكلام من الوحى فإذا كان عالمًا بأنه حى سليم فكان من الواجب أن يسعى فى طلبه.

وأيضًا إن يعقوب ـ عليه السلام ـ كان رجلاً عظيم القدر فى نفسه وكان من بيت عظيم شريف وأهله العالم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ فى الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر وأزال وجه التلبيس فما السبب فى أنه ـ عليه السلام ـ مع شدة رغبته فى حضور يوسف ـ عليه السلام ـ ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات فثبت أن هذا الصبر مذموم عقلاً وشرعًا(٢).

والجواب عنه أن نقول: لا جواب عنه إلا أنه يقال إنه ـ سبحانه وتعالى ـ منعه عن الطلب الشديد للمحنة عليه وتغليظًا للأمر عليه.

وأيضًا لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص وإنه لو بالغ فى البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله(٣).

---

(١) أىَّ ذمٍّ يقصد؟ وهذا نبى الله المعصوم والذى يقول لكى يفهم الفاهمون: ﴿ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ـ أىَّ ذمٍّ، وهو يقول: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

ـ أىَّ ذمٍّ، وهو يقول: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

ـ أىَّ ذمٍّ، وهو يقول: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

ـ أىَّ ذمٍّ، إذا نظرنا إلى قول الحبيب المصطفى (ﷺ): (أشد الناس بلاء الأنبياء...) وهذا من بلاء الأنبياء لسيدنا يوسف وسيدنا يعقوب (عليهما السلام).

ـ أىَّ ذمٍّ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إبراهيم...) ولو تركنا للقلم العنان لكتب الكثير، والكثير، فهل بعد كل هذا يكون صبر الأنبياء مذمومًا فى هذا المقام، أو فى غيره؟!! كيف هذا؟ (المحقق).

(٢) سامحكم الله على هذه الجرأة على الأنبياء. (المحقق).

(٣) هذه حلول عقلية سقيمة لا تقف أمام لفظة واحدة أطلقها نبى الله يعقوب (عليه السلام) وهى: ﴿ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وأيضًا لعلَّهُ ـ عليـه السلام ـ علم أن الله ـ تعالى ـ يصون يوسف ـ علـيه السلام ـ عن البلاء والمـحنة وإن أمره سيـعظم بالآخرة ثم لم يرد هتك ستـر أولاده، وما رضى بإلقائهم فى ألسنة الناس، وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب فى العذاب الشديد لأنه إن لم ينتـقم يحترق قلبه على الـولد المظلوم، وإن انتقم فإنه يحتـرق قلبه على الولد الذى ينتـقم منه، فلما وقع يعقـوب ـ عليه السـلام ـ فى هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: يدل على أن الصبر على قسمين: ما يكون غير جميل: فالصبر الجميل من وجوه:

أحـدها: هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعـالى ثم يعلم أنه تعالى مالك الملك، ولا اعتراض على المالك فى أن يتصرف فى ملك نفسه.

فيصير استغراق قلبه فى هذا المقام مانعًا له من إظهار الشكاية.

الوجه الـثانى: أن يعلم أن مُنزل هذا البلاء حكيم لا يجهل، عالم لا يغفل، عليم لا ينسى، رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك فكان كل مـا صدر عنه حكمة وصوابًا فعند ذلك يسكت ولا يعترض.

الوجـه الـثـالـث: أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق فـاستغراقـه فى شهود نور المبتلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء.

ولذلك قيل: المحبة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لأنها لو زادت بالوفاء لكان المحبـوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محـبوبًا بالذات، بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل.

وأما إذا لم يكن الصبر لأجل الرضاء بالقضاء بل كان لسائر الأغراض فذلك الصبر لا يكون جميـلاً، والضابط فى جميع الأحـوال والأقوال والاعتقادات كلـما كان لطلب عبودية الله ـ تعالى ـ كان حسنًا وإلاَّ فلا.

وههنا يظهر صدق ما روى فى الأثر: (استفت قلبك ولو أفتاك المفتون)[١].

---

(١) حـديث: (**استفت قلـبك ولو أفتـوك**) استفت قـلبك وإن أفتاك الناس وأفتـوك، رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى وأبو نعيم عنه، وابصة مرفـوعًا، وفى الباب النواس ووائلة وغيرهما. انظر العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ١٣٦ الحديث (٣٤٥).

فليتأمَّل الرجل تأملاً شافيًا أن الذى أتى به هل الحامل والباعث عليه، وإليه العبودية أم لا؟

فإن أهل العالم لو أفتوه بالشىء مع أنه لا يكون فى نفسه كذلك لم يظهر منه نفع ألْبتّة.

ولما ذكر يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨) والمعنى أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله ـ تعالى ـ لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهى قوية، والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضاء فكأنه وقعت المحاربة بين الصفين فلما لم يحصل إعانة الله لم يحصل الغلبة فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجرى مجرى قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٥) و ﴿الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجرى مجرى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥). انتهى.

مجلس في:

بيان مجيء السيارة إلى الجب وإخراج يوسف ـ عليه السلام ـ وذهاب السيارة به إلى مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان مجىء السيارة إلى الجب وإخراج يوسف ـ عليه السلام ـ وذهاب السيارة به إلى مصر وشراء العزيز له، وبلوغه أشدّه، وإيتاء الله له الحكم والعلم وفى بيان ذلك كله قال الله تعالى:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: أى رفقة يسيرون ويجيئون من بعيد على ما يدل عليه صيغة المبالغة وتاؤها أيضا.

قيل: كانوا يجيئون من الشام يذهبون إلى مصر فنزلوا قريبًا من بئر يوسف ـ عليه السلام ـ وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً بعدد أصحاب بدر.

وقيل: كانوا يجيئون من مدين فضلوا الطريق فنزلوا قريبًا من الجب، والأول أظهر.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لأجل تخليص يوسف ـ عليه السلام ـ من الجُب وإيصاله إلى العزة فى مصر خلق الدواعى فى قلوب هؤلاء الرفقة للسفر كما قيل: رب ساع لقاعد، وكما قيل: تشويش فى العالم لسكون واحد.

فلما نزلوا قريبًا من الجب قال رئيسهم مالك بن عزقيل ـ من خزاعة من العرب وقيل: من أولاد مدين ـ: إنى أعلم هنا بئرًا.

﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾: وارد القوم هو الذى يتقدم إلى الماء فيصلح الدلاء والرشاء.

قيل: هو كان عبد المالك اسمه بشير.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾: أى أرسلها إلى البئر ليستقى ـ يقال: أدلى دلوه أى أرسلها ودلاها

بمعنى، فأشار جبريل ـ عليه السلام ـ إلى يوسف ـ علية السلام ـ بالتعلق بالدلو فتعلق بالحبل ودخل فى الدلو، فلما أخرجه الوارد:

﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾: نادى بشراه بدليل قراءة: «يا بشراى» بالإضافة إلى ياء المتكلم، أى تعال فهذا أوانك تقول العرب: يا عجبًا أى اعجبوا، وتقول: يا بشراى أى أبشروا.

ثم علله على طريق الاستئناف بقوله:

﴿هَذَا غُلامٌ﴾: كفلق القمر وقطعة الشمس فجاء به الوارد أصحابه إلى الرفعة.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾: أى أسروا أمره، على حذف المضاف، بأن قالوا: أودعنا بعض أهل الماء هذا الغلام نبيع لهم بمصر، ولم يقولوا: إنا وجدناه فى الجب، لئلا يشاركهم أهل العير كلهم.

﴿بِضَاعَةً﴾: حال من الضمير المنصوب أى: أسروا أمر يوسف ـ عليه السلام ـ حال كونه بزعمهم بضاعة، أى متاعًا للتجارة، فإنها قطعة من المال قطعت وأخرجت من المال للتجارة، من البضع وهو القطع، فضمير أسروه وكذا ما بعده للوارد وأصحابه، وهذا هو الظاهر.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾: أى إخوة يوسف قال: كانوا يدورون هناك ويتفقدون أمر يوسف، فلمًا لم يجدوه فى البئر جاءوا إلى الرفقة فوجدوا يوسف ـ عليه السلام ـ هناك وأوعدوه بلسانهم العبرانى بالقتل إن صدق فى القول ثم قالوا للرفقة: هذا عبدنا أبق منا فاشتروه، فقال مالك: ليس فيه علامة الرق بل هو حر كريم، فقالوا: هو ابن أمة لنا ولد فى بيتنا ويربى فيه وأبونا أحبه أكثر منا فأدركتنا الغيرة وأعطته أمه إيانا وقالت: بيعوه ليخلو وجه أبيكم لكم، فسكت يوسف ـ عليه السلام ـ مخافة القتل، فصدقهم مالك فقال: ما عندى إلا ثمن النفقة عشرون درهمًا، فقالوا: ما لنا فى ثمنه من حاجة وإنما مرادنا تغريبه من بلدنا فأت بالعشرين، فباعوه بعشرين درهمًا فأسروا أمر يوسف وكونه أخاهم وجعلوه متاعًا للتجارة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: من الأسرار وكان قادرًا على إنجائه لكن له فى أمره حكمة.

ويجوز أن يكون وعيدًا للمسرين.

﴿وَشَرَوْهُ﴾: أى باعوه.

والظاهر أن البائعين الوارد وأصحابه.

فعلى هذا لا يكون من إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ البيع والإسرار بل قد تم أمرهم بإلقائه فى الجب وكذبهم لا بهم.

وعلى قول ابن عباس ـ ﭬ ـ البائعون إخوة يوسف كالمسرين.

قال صاحب الكشاف: هذا وإن كان خلاف الظاهر لكن لا بعد فيه كل البعد لأنه يجوز أن يكون قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ وكذا قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ من أفعال إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ فيكون عطفها على ﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾: من عطف حكاية حالهم على حكاية قول الزائد.

والجامع التعلق بيوسف، أى: قال واجده كذا وفعل إخوته كذا.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: أى ناقص من حيث العدد لأنه كان عشرين أو من حيث القيمة لأنه كان زيوفًا، أو حرام لأن ثمن الحر حرام.

﴿دَرَاهِمَ﴾: لا دنانير.

﴿مَعْدُودَةٍ﴾: أى قليلة، لأن العرب كانوا الكثير وهو أربعون، وما فوقه، ويعدون القليل وهو ما دونه فالعدد كناية عن القلة.

﴿وَكَانُوا﴾: أى الوارد وأصحابه على ما هو الظاهر.

﴿فِيهِ﴾: أى فى شأن يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: من الراغبين عنه لأنهم التقطوه، والملتقط للشىء متهاون به يبيعه بأول مساوم بأول ثمن لأنه يخاف إذ يخرج له مستحق فيأخذه من يده.

وعلى قول ابن عباس ـ ﭬ ـ: كان إخوة يوسف فيه من المعرضين عنه، فلذا باعوه بالثمن البخس.

قيل: اشتراه مالك بن ذعر وطلب من إخوة يوسف الوثيقة فكتب له «روبيل»: هذا ما اشتراه مالك بن ذعر من أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ عبدًا لهم ولدًا منهم بعشرين درهمًا نصفه عشرة وأعطى لهم ميثاقه أن لا يطلقه عن القيد حتى يدخل مصر ولا يلبسه إلا المسح ولا يعطيه إلا القوت، ولا يركبه إلا على بعير بغير وطاء والشهود جماعة العير والسلام، فى التيسير.

وقيل: كانوا ـ أى: أهل العير ـ فيه ـ فى نفس يوسف ـ عليه السلام ـ من الزاهدين أى الراغبين عنه أى لم يخطر ببالهم ريب ولا فسق مع صباحة وجهه وملاحة وجنته.

ومنع من عمل قوله ﴿الزَّاهِدِينَ﴾ فى كلمة فيه مانعان:

أحدهما: كلمة من لأن المجرور لا يعمل فيما يتقدم على الجار.

وثانيهما: اللام لأنها الموصولة لأحرف التعريف وإلا لم يمكن العمل للزاهدين لأنه للمضى بقرينة كان واسم الفاعل إذا كان للمضى لا يعمل، وأما إذا كانت اللام اسمًا موصولاً فاسم الفاعل يكون فعلاً ماضيا فى التقدير فيصلح للعمل لكن الصلة لا تعمل فيما يتقدم على الموصول.

فأجاب الكشاف: بأن كلمة ﴿فِيهِ﴾ بيان كقوله تعالى حيث لك كأنه لما قيل: من الزاهدين، قيل: فيمن؟ قيل: فيه، لكن يرد عليه أن البيان كيف يستقيم قبل ورود منشأ السؤال.

وأجاب البيضاوى: بأنه من قبيل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ (التوبة: ٦) فإن التقدير: وكانوا من الزاهدين فيه، فحذف أولاً وفسر ثانيًا للتأكيد.

والصحيح أن كلمة ﴿فِيهِ﴾ ظرف والظرف مما يتسع فيها فيكفى فيه رائحة الفعل فلا مانع عن العمل فيه أصلاً، قالوا: العجب ممن يبيع يوسف ـ عليه السلام ـ بثمن بخس والأعجب منه من يبيع وقته العزيز بمتاع الدنيا، فالحرمان لا غاية له، والبخس لا نهاية له.

فذهب مالك به إلى مصر فأدخله السوق، تزايد الناس فى ثمنه حتى بلغ وزنه ذهبًا وفضة ومسكًا وحريراً وكان وزنه أربعمائة رطل، فاشتراه عزيز مصر الذى هو على خزائن مصر وكان رجلاً مؤمنًا متفرسًا اسمه قطفير أو أطفير، ونقد الثمن ثم ذهب به إلى بيته وحفظه فى داخل حرم، ووصى به امرأته على ما قال تعالى: ﴿وَقَالَ﴾: فالواو فصيحة أى كان كيت وكيت على ما مر. ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ﴾: أى العزيز.

﴿مِن مِّصْرَ﴾: لا من أهل الغافلة فهذا الشراء هو الشراء الثانى فى مصر ﴿لامْرَأَتِهِ﴾ متعلق بقال لا باشترى أى قال العزيز لامرأته بعدما اشتراه لنفسه على ما يدل عليه رجاء نفعه له واتخاذه ولداً.

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: أى أكرميه أشد الإكرام، فإكـرام المثوى كناية يستعملونها فى السلاطين يقولون: إلى المجلس العالى، وفى الكناية فائدتان:

جعل المثـوى حسنًا مرضيًـا كريمًا، وإكرام المثـوى إنما ينفع بعد كون جـميع ما يحتاج إليـه من الأطعمة والأشربة وإلاً لشبه جـميلاً حسنًا مرضيًـا فكأنه وصاها بجعل مقامه وطعامه وشرابه ولباسه حسنًا مرضيًا كريمًا.

والفائدة الأخرى: إكرام ذاته ففيه مـبالغة وتصوير حسن الإكرام، فلذا أوثرت على التصريح ثم علل أمرها بإكرامه.

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾: فى مهماتنا، إذ اداب فيها وجـربها تفرس العزيز فيه الكفاية والأمانة، وهما ركنا الـقيام بالأمور قلَّ من يوجدان فـيه، ثم ترقى إلى الأعلى من أنفع فى المهمات بقوله:

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾: والظاهر أنه كان عقيمًـا لا يولد له وإلا لما احتاج إلى اتخاذه ولدًا.

وقيل: أفـرس الناس ثلاثة: عزيز مـصر حـيث تفرس فى يوسف ـ عليـه السلام ـ الكفاية والأمانة فقال: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

وبنت شعيب ـ عليه السلام ـ فى مـوسى ـ عليه السلام ـ حيث قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حين وصى بالخلافة لعمر ـ رضي الله عنه ـ.

قال ابن كثير فى آخر سورة الشعراء: (قال ابن أبى حاتم: ذكر عن يحيى بن زكريا ابن يحيى الواسطى، حدثنى الهيثم بن محفوظ أبو سعيد النهدى، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن المحبر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كتب أبى ـ رضي الله عنه ـ وصـية سطرين: بسم الله الـرحمن الرحـيم هذا مـا وصى به أبو بكر بن أبى قحـافة عند خروجـه من الدنيا حين يؤمن الكافـر ويتوب الفاجـر ويصدق الكاذب إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فـإن يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه، أوان يجير ويبدل فلا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)[1]. انتهى.

---

(١) حديث: (هذا ما وصَّى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا...) فى الصحيح الحديث رقم (٢٤٤٧) و (٢٥٧٨) و (٢٥٧٩) أن رسـول الله ﷺ قال: «إياكم والـظلم فإن الظلم =

وأقول: وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون حين قالت لموسى ـ عليه السلام ـ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (القصص: ٩) بل هى أفرس الكل لأنها تفرست فى صبى رضيع.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أى كما أنجينا يوسف ـ عليه السلام ـ من قتل إخوته، ومن الجب، وعطفنا قلب العزيز عليه.

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾: فى أرض مصر، وهذا التمكين كان بعد مدة مديدة، وإنما ذكر هنا لفائدتين:

إحداهما: أن عطف قلب العزيز كان سببًا له فكأنه وجد.

والأخرى: بيان أن اليوم بيومه وبيانه أنه تعالى يقول: وإن مرَّ على يوسف بمصر يوم نادوا عليه بالشراء وتزايد الناس فى ثمنه فقد مر عليه يوم تمكن فى أرض مصر وتملك أموال الناس فى سنتى القحط، ثم رقابهم ورقاب أولادهم، فاليوم باليوم.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾: عطف على علة محذوفة أى هذا العطف ثم التمكين فى الأرض ليتصرف يوسف ـ عليه السلام ـ فى أرض مصر بالعدل وليعلم تعليمنا.

= ظلمات يوم القيامة» قال قتادة بن دعامة فى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ يعنى من الشعراء وغيرهم، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا إياس بن أبى تميمة قال الحسن ومر عليه بجنازة نصرانى فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان بن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول قد اندق قضيب زوره ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وقال ابن وهب أخبرنى ابن سريج الاسكندرانى عن بعض المشيخة أنهم كانوا بأرض الروم، فبينما هم ليلة على نار يشتوون عليها، أو يصطلون، إذا بركاب قد أقبلوا فقاموا إليهم، فإذا فضالة بن عبيد فيهم، فأنزلوه والحاصل معهم قال: وصاحب لنا قائم يصلى حتى مر بهذه الآية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ قال فضالة بن عبيد هؤلاء الذين يخربون البيت، وقيل: المراد بهم أهل مكة، وقيل الذين ظلموا من المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة، كما قال ابن أبى حاتم: ذكر عن يحيى بن زكريا ابن يحيى الواسطى حدثنى الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المخبر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ﵂ قالت: كتب سطرين بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب: إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ آخر تفسير سورة الشعراء... والحمد لله رب العالمين. انظر ابن كثير: التفسير: ٣/ ٣٥٦.

﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾: بعض تأويل الأحاديث، من الأحاديث الإلهية من الكتب السماوية نزلت على الأنبياء قبله، ومن الأحاديث النبوية للرسل.

قيل: من غوامض كلمات الحلماء قبله، ومن أحاديث الملك وهى الرؤى الصادقة والمنامات المطابقة كما فى نفس الأمر، ومن أحاديث الشيطان أو النفس وهى المنامات الكاذبة فيقول تعالى: نفع التمكين بحسب القدرة التصرف بالعدل وبحسب العلم، علم تأويل هذه الأحاديث، ثم تأويلـه من القسم الثانى للتـذييل وهو التأكيـد للكلام السابق على وجه العموم بقوله: **﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾**: أى أمر ذاته ـ تعالى ـ وكل ما أراده يكون لا محالة بلا دافع ولا مانع أو على أمر يوسف ـ عليه السلام ـ فإنه أوصله إلى ما أراد به من العزة، ولم يدفعه كيـد إخوته أرادوا أن لا يكون له فضل عليهم على ما دل عليه حـديث رؤياه من سجود الكواكب والله أراد وقـوع هذا الفضل فمـا أراد الله كان وأراد إخوته بقاءه فى الجب، وأراد الله جلوسه على السرير، فما أراد الله كان وارداً أراد إخوته ذل العبودية، وأراد الله إرتقاءه إلى العزة التامة، فما أراد الله كان فالله غالب على أمر يوسف إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾: أن الكل بيد الله وأن الوسائط ملغاة فى الحقيقة.

﴿وَلَمَّـا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: أى: كماله فى القـوة الجسمانية والأشد قـيل: إنه مفرد لا جمع، وقـيل: إنه جمع شـدة أى قوة كنعـمة وأنعم، أو جـمع شد بالفتح كـالكلب، والأكلب، أو جمع شد بالكسر كذئب، وأذؤب، فالمقصود كمال القوة الجسمية.

قيل: هو يكون فى سن ثمان عشرة وما فوقه.

وقـيل: عشرين، وقيل خمس وعـشرين، وقيل: ثلاثين أو ثلاث وثلاثين، وقيل: أربعين، وقيل: اثنتين فهى منتهاه.

فمعنى الآية لمـا بلغ أشده أى ثمانى عشرة سنة فـإنه ألقى فى الجب فى سن سبع عشـرة ومكث ثلاثة أيام، ومكث فى بيت العـزيز فى صحـبة امرأته ـ اسـمهـا: راعيل وقيل: زليخـا ـ سنة وهو أشد ما مر عليه من الأيـام لأنه وإن كان فى عز ودولة، لكن اجتمـاعهما فى بيت كاجتـماع النار والقطن فى حقة، فنبى الله ـ عليـه السلام ـ جاهد نفـسه أشـد الجهـاد فى تلك السنة لأنه قـد أعطاه فى هذه السنة مـا أعطاه من الحكم والعلم على ما قال.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾: أى حكمًا على نفسه بأن ضبط نفسه وملكها وقهرها فما لم يحكم الإنسان على نفسه لا يحكم على غيره.

﴿وَعِلْمًا﴾: علمًا بالغوا فيه.

فالمراد بالحكم هو الحكم على النفس وبالعلم هو العلم بالعواقب، وقيل: الحكم هو الحكمة العملية التى هى تهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدينة.

والعلم هو الحكمة النظرية التى هى الإلهيات والرياضيات والطبيعيات وإنما قدم الحكمة العملية هنا على الحكمة النظرية لأن أصحاب الرياضيات والمجاهدات يصلون إلى الحكمة العملية، ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية، وأما أصحاب الأفكار العقلية يصلون إلى الحكمة النظرية أولاً ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية وطريقة يوسف ـ عليه السلام ـ كانت هى الأول، كذا ما قال الإمام.

أى لما بلغ ثمانية عشر أعطيناه الحكمتين بأقسامهما.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾: أى كما أعطيناه الحكم والعلم جزاء على إحسانه نجزى المحسنين بهما.

والإحسان إما فى العمل بأن يكون على وجه السنة وطريق الإخلاص، وإما على الناس ببذل النصيحة وكف الأذية، وإما على النفس بتخليصها عن العذاب السرمد.

فدلت الآية على أن الحكم والعلم مكتسبان وهما جزاء الإحسان لكن النبوة غير مكتسبة بل هى موهوبة فأعطى الله يوسف ـ عليه السلام ـ النبوة فى الجب حين أوحى إليه فى سن سبعة عشر وأعطاه الحكم والعلم فى سن ثمانية عشر وبقى فى بيت العزيز سنة، وفى السجن اثنتى عشرة سنة واستوزره الريان بن الوليد العملاقى وهو ملك مصر يومئذ وهو فى سن ثلاثين وتوفاه الله ـ تعالى ـ فى سنة مائة وعشرين.

قال الإمام الرازى ـ رحمه الله ـ: هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا: الإنسان يحدث فى أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئًا فشيئًا إلى أن ينتهى إلى غاية الكمال فيأخذ فى التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شىء، وكانت حالته شبيهة بحال القمر فإنه يظهر هلالاً ضعيفًا، ضعيفًا لا يزال يزداد إلى أن يصير بدرًا تامًا، ثم يتراجع إلى أن ينتهى إلى العدم والمحاق.

وإذا عرفت هذا فنقول: مدة دورة القمر ثمانية وعشرون يومًا وكسر، وإذا جعلت

هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة أيام فلا جرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلفة بخسب التركيب إلى أن يتم له سبع سنين ثم إذا حصل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال فى الترقى إلى أن يتم له أربع عشرة سنة، فإذا دخل فى السنة الخامسة عشر دخل فى الأسبوع الثالث، وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة ثم لا يزال يترقى على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادثة والعشرين وههنا يتم الأسبوع الثالث، ويدخل فى السنة الثانية والعشرين، والأسبوع آخر سوابع النسق والنماء، فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد ثم مدة النشوء والنماء وينتقل الإنسان والنماء منه إلى زمان الوقوف.

وهذا الزمان الذى يبلغ الإنسان فيه أشده، وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للإنسان خمس وثلاثون سنة، فهذا الأسبوع الخامس الذى هو أسبوع الشدة والكمال يبتدئ من السنة التاسعة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين وقد يمتد إلى الخامسة والثلاثين فهذا هو الطريق المعقول فى هذا الباب.

والله أعلم بحقائق الأشياء. انتهى.

والحمد لله رب العالمين

مجلــــس فـــى:

بيان مراودة امرأة العزيز يوسف ـ عليه السلام ـ عن نفسه وتغليق الأبواب وفتح الله عليه باب العصمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان مراودة امـرأة العزيز يوسف ـ عليه السلام ـ عن نفسه وتغليق الأبواب وفتح الله عليـه باب العصـمة واستـباقهـا إلى الباب، وقدهـا قميـصه من دبر ووجدانهما بعلها لدى الباب، وشهادة الشاهد وغير ذلك.

قال الله تعالى:

﴿ وَرَاوَدَتْــهُ ﴾ (يوسف: ٢٣): مفـاعلة من راود يراود إذا جاء وذهب، ومنه الرائد للرحى ولطالب الماء والكلأ، والمفاعلة إما للمبالغة بأن يكون من طرف واحد.

فالمعنـى: جاءت وذهبت زليخا إلى يوسف ـ عليـه السلام ـ على سبيل المـبالغة والكثرة والشدة لطلب الوقـاع والمجىء والذهاب كناية عن أشد الطلب ومحل فـيه إما زليخا فللوقاع ويوسف فى دفعه.

﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِـهَا ﴾: يعنى امرأة العزيز ولم يصرح يـذكرها باللاتى بالموصول والصلة إما اسـتهجـانًا بذكرها لكونها طالبـة للحرام، وإما لتـقرير الغرض المـسوق له الكلام وهو نزاهة يوسف ـ عليه السلام ـ فإن كونه فى بيتها وخلطته لها وتمكنه منها مع امتناعه من الفعل الحرام يدل على كمال عصمته، وإما لتقرير المسند فإنه فى بيتها يؤكد المراودة ويقررها على ما لا يخفى.

وإما لتقرير المسند إليه فإنه يحتـمل اشتراك اسم «زليخا» وكون امرأة أخرى للعزيز بخلاف التى فى بيتها وإضافة البيت إليها تدل على أن المرأة جناح البيت يدل عليه قول الشاعر:

* يا ربَّة البيت قومى غير صاغرة *

﴿عَن نَّفْسِهِ﴾: أى: لأجل نفسه كقوله: ينتهون عن أكل وعن شرب.

قال أبو عبيدة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم: ٣) أى بالهوى.

والأولى أنها بمعناها، والجار والمجرور صفة للمصدر، أى نطقًا صادرًا عن الهوى، فعن فى مثله يفيد السببية كما فى قولك: قلت هذا عن علم.

كذا فى الرضى.

﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾: قيل: كان سبعة، والتفعيل إما للتكثير فى المفعول، وإما للمبالغة فى الاساف بناء على أنه كان يمكن أن يقول: أغلقت، فإن التعدية تحصل بالأفعال، وإن كان غلقت الباب لمجرد فكرة قبيحة فالعدول إلى التفعيل للتكثير.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ﴾: اسم فعل أى أقبل وبادر.

وقرئ فى التاء بالفتح، كاين، وبالكسر كجير وبالضم كحيث.

﴿لَكَ﴾: اللام للبيان: كسقت لك، كأنه لما قالت: هيت، قيل: لمن تقولين هذا؟ قالت: أقول لك، وهاذ معنى البيان.

قال فى التيسير: ذكروا أن زليخا هوت يوسف ـ عليه السلام ـ وهانت بحبه فنحل بدنها وتغير لونها وذهب مرارها ونومها وأرباب أهل بيتها تحيروا فى أمرها فسألتها النظر عن ذلك فبينت لها حالها واستعانت بها على بلوغ مرادها من يوسف ـ عليه السلام ـ فقالت لها: أخبريه عما فى قلبك واعرضى عليه جمالك، قالت: إنه لا يدنو منى، فلا ينظر إلى ولا يفتح عينيه إذا دخل الدار، قالت: فاتخذت بيتا من رخام مملس ونقشت على سقفها وحوائطها صورة يوسف وزليخا ولما تم ذلك، هيأت البيت بألوان الفرش وزينتها بالأوانى والحلى ولبست الحلل وتتوجت بتاج مرصع وجلست على نسيج من ذهب مرصع باليواقيت وعليها أنواع الحلى ثم دعته فجاء وهو لا يعلم، فلما دخل البيت أغلقت عليه الأبواب وهى سبعة بيوت بعضها فى بعض، وقالت له: يا يوسف ما أحسن شعرك؟.

قال: هو أول شىء يسقط منى فى قبرى.

قالت: ما أطيب رائحتك؟

قال: لو شممت بعد ثلاثة أيام فى قبرى لفررت.

قالت: يا يوسف ما أحسن عينك؟.

قال: بهما أنظر إلى ربى.

قالت: يا يوسف ارفع بصرك، فانظر إلى.

قال: أخشى أن أعمى فى آخر عمرى.

قالت: يا يوسف لم تباعد عنى.

قال: أريد بذلك الاقتراب من ربى.

قالت: يا يوسف القنطون فادخل معى.

قال: ليس بشىء يسترنى من ربى.

قالت: يا يوسف فراش الحرير مهد لك قم فاقض حاجتى.

قال: إذًا يذهب من الجنة نصيبى.

قالت: يا يوسف بدلت محبتى على سخطى.

قال: أرجو بذلك مرضاة ربى.

قالت: يا يوسف أنت عبدى اشتريتك فأنت تتعظم علىَّ.

قال: بجرمى وخطيئتى اشريتنى.

قالت: يا يوسف ليتنى لم أعرفك.

قال: ذلك فعل إخوتى بى.

قالت له: يوسف ضع يدك على صدرى.

قال: لا صبر لى على احتراق جسدى.

قالت: يا يوسف الجنينة قد عطشت فقم فاسقها.

قال: الذى بيده مفاتيحها أحق أن يسقيها منى.

قالت: يا يوسف اشتريتك فجعلتك بمنزلة روحى.

قال: وكيف أزرع فى أرض غيرى.

قالت: يا يوسف لأسلمنك إلى أيدى المعذبين فيسلمون جسمك كما سللت جسمى.

قال: لا بأس إذا كان ربى راضيًا عنى.

قالت: يا يوسف بأى علة امتنعت منى.

قـــال: بحقـين اثنين: بحق إلهى الذى فى السماء ملكه، وبحق سـيدى الذى فى الأرض سلطانه علىَّ وعليك.

قـالت: يا يوسف: أما سيدك الذى فى الأرض سلطانه فـإنى آخذ الزجرى بيمينى وإبريق الدر بشمـالى فأسقيه الكـأس الأولى فيسقط لحمـه بين يديه فأجعله فى قـبضة فأدفنه تحت أساس بيتى، وأما إلهك الذى فى السماء ملكه، فإن لى من الجواهر ما لا تطيق حمله دوابى فأتصدق به عنك فيغـفر لك إلهك الذى به تخوفنى، فغلبته بالكلام، فلم يدر جوابًا.

فـقـال: معاذ الله إن من ارتكب حرامًا سود الله وجـهه فى يوم القيامة وهتك على رءوس الأشهاد ستره، أوأحرق بالنار جسمـه فلا تظلمينى ولا تسودى فى القيامة وجهى ولا تخجلينى يومـئذ عند أبى وأمى ولا تسخطى علىَّ ربى ولا تـسلطى نار جهنم على جسمى، فعند ذلك غلقت الأبواب وأرخت الحجاب.

وقال الإمام القشيرى: لما غلَّقت عليه أبـواب الحجرة فتح الله عليه أبواب العصمة فلم يضره ما أغلقت بعدما أكرمه بما فتح.

وقيل: إن يوسف ـ عليه السلام ـ قال لها: إن العزيز أمل منى أن أنفعه حيث قال: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ فلا أخونه فى حرمه بظهر الغيب منه.

وقيل: لمـا حفظ حـرمة المخـلوق بظهر الغيـب منه أكرمه الله سـبحـانه بإمداده بالعصمة فى الحال ومكنه من مواصلتها فى المال على وجه الحلال.

انتهى كلام التيسير.

وقد جمع الله هذه المـعانى الكثيرة والإبرامات والإلحاحـات والأسولة العديدة فى ثلاث جمل، وجمع أجوبة يوسف ـ عليه السلام ـ لهـا مع كثرتها فى ثلاث جمل أيضًا وهى قوله تعالى مستأنفًـا جوابًا عن سؤال ماذا قال يوسف؟ فقال: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾: أى أعوذ بالله معـاذًا فهو مصـدر متروك ذكر فـعله لا يستعمل إلا بدون فـعله، ومعنى تعوذه بالله هـنا طلبه، وسؤالـه من الله أن يزيل داعية الـمعصـية ويثـبت مكانها داعـية الطاعة، فمعناه أطلب من الله الهداية أى خلق الاهتداء، أى خلق داعية الطاعة بعد إزالة داعية المعصية، وهكذا فى سائر مواضع استعمالاته.

وقوله هذا جواب عن المراودة فكلما طلبت المرأة وابتهلت وعرضت جمالها التجأ يوسف ـ عليه السلام ـ إلى ربه بطلب الهداية كما مر.

وهكذا الكلام أيضا رعاية جانب الخالق ومحافظة حقه ثم قال: ﴿إِنَّهُ﴾ إذ الشأن ﴿رَبِّي﴾: سيدى بزعمك يا زليخا وإن كنت حرًا فى الواقع لا سبيل على بالسيادة لأحد وهو قطفير زوجها.

﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾: أى عظمنى غاية التعظيم حيث قال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾.

فلا يجوز أصلاً خيانتى فى حرمه.

وهذا الكلام رعاية جانب الخلق ومحافظة حقه، وجواب عن تغليق الأبواب أى لا نفع لك فيه لأنى راع حق سيدى كما لا نفع لك فى المراودة لأنى أراعى حق الله كما مر.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأن ﴿لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: أى الزناة فإن الزنا ظالم على الزانى لعرضه بالعذاب، وعلى المزنى بأهله، أو جنس الظالمين فيدخل الزناة فيه دخولاً أوليًا.

وهذا الكلام رعاية حق نفسه بأنى كيف أعرض نفسى للعذاب الشديد للذة ساعة محذجة.

وأيضًا جواب لقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بأنى كيف أقبل وأبادر إليك مع أن عذاب الله أشد وأبقى، فهذه الجمل مرتبة أحسن الترتيب.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾: الهم هو القصد والعزم والإرادة.

اعلم أن مبادئ الأفعال الاختيارية أربعة: القصور الجزئى بأن يبصر ويسمع أو يتخيل شيئًا ملائمًا له.

ثم الميل أى: الشهوة فإنه يقع فى الطبع عند إدراك شىء ملائم له إدراكًا جزئيًا بخصوص ميل وانجذاب إلى ذلك الشىء وهو المسمى بالشهوة.

ثم إن حصل هناك مانع من التلذذ بذلك حى كالحياء من أحد هناك أو طبيعى كضرره بالمرض، أو شرعى كالصوم أو التحريم المطلق لا يتأكد ذلك الميل، بل يترك ذلك الشىء البتة، فلا يحصل وإن لم يحصل هناك مانع أصلاً يتأكد ذلك الميل وهو أى الميل المتأكد هو الإرادة فإذا حصلت الإرادة وتم الباعث وهو التصور والميل والإرادة فذلك المجموع هو الباعث المسمى بالقوة الباعثة فعند ذلك تحرك القوة الفاعلة المودعة فى الفضلات إياها فيحصل الفعل، فإذا كان كذلك ففيما نحن فيه حصل للمرأة الكاذبة

التصور الجزئى بجمال يوسف ـ عليه السلام ـ وميلها، وانجذاب طبعها إليه وهذا فى سنة كاملة لكن كان المانع هو الحياء من الناس يمنعها فلم تحصل لها إرادة إلى الآن والآن لما كنت الأبواب مغلقة، والستور مرخاة والحياء من الناس مرتفعًا حصلت لها الإرادة فإنها ما كانت اليوم مؤمنة بالله وباليوم الآخر، وإن آمنت بعد ذلك معنى قوله تعالى مؤكدًا بالقسم واللام وقد ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾: أى والله لقد حصلت لها الإرادة، والعزم والقصد بمخالطة يوسف ـ عليه السلام ـ فإن الهم لا يتعلق بالأعيان، بل إنما يتعلق بالمعانى كالمخالطة هنا ذلك أى حصول القصد والعزم والإرادة لها الارتفاع الموانع بزعمها، ولذا بنت البيوت وغلقت الأبواب، فهمُّها هو القصد الاختيارى التابع له العقل، فعزمت على الفعل الشنيع عزمًا باتًا لم يمنعها عنه مانع أصلاً.

فعلى هذا يحسن الوقوف على همته به ثم يبدأ بقوله ﴿وَهَمَّ﴾: يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿بِهَا﴾: أى بمخالطتها ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

اعلم أنه (لولا) هذه يقال لها: لولا الامتناعية.

قال «جار الله» فى مقدمته المسماة بأنموذج:

ولولا ما يكون لامتناع الشىء لوجود غيره فيختصان بالاسم نحو: لولا علىٌّ لهلك عمرو.

وقال الرضى: وقد يجىء الفعلية بعد لولا غير التحضيضية قال:

ألا زعمت أسماء أن لا أحبها فقلت: بلى لولا ينازعنى شغلى

فتؤول بلو لم، فهى إذن لو التى لامتناع الثانى لامتناع الأول، وقيل: هى لولا المختصة بالاسمية والفعل صلة لأن المقدرة كما فى قوله:

(تسمع بالمعيدى خير من أن تراه)(١).

أى أن تسمع. انتهى.

فلولا هذه تقتضى جملتان كحروف الشرط:

---

(١) المثل: (تَسْمَعُ بالمَعْيِدىُّ خَيْرٌ مِنْ أنْ تَرَاهُ) ويروى «لأنْ تَسْمَعَ بالمعيدى خير» و «أنْ تَسْمَعَ» ويروى «تسمع بالمعيدى لا أن تراه» والمختار أن تسمع» يُضْرب لمن خَبَرُه خَيْرٌ من مرْآه، ودخل الباء على تقدير: تُحَدَّث به خير، قال المفضل: أولُ مَنْ قال ذلك المنذر ابن ماء السماء، وكان من حديثه أن كُبَيْش بن جابر أخا ضَمْرَةَ بن جابر، من بنى نَهْشَل كان عَرَضَ لأمةٍ لزرارة بن عُدُس يقال لها: رُشَيَّة كانت سَبِيَّة أصابها زُرَارة من الرُّفَيْدَات، وهو حى من =

إحداهما بمنزلة فعل الشرط، والأخرى بمنزلة فعل الجزاء، واختلف هنا فى جواب لولا:

فعند الكوفيين قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب لولا إذ يجوز عندهم تقدم جواب الشرط، فكذا ما يؤول به.

فعلى هذا يكون المعنى: لولا رؤية برهان ربه موجودة لهمَّ بها، لكن رأى البرهان فما همَّ بها.

فإن مع صلة مبتدأ.

وعند البصريين: الجواب محذوف يدل عليه ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ فالتقدير: لولا رؤية البرهان لهمَّ، فحذف الجواب مع اللام، وجعل ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ دليلاً عليه وليس هو جوابًا لعدم اللام الذى شرط جواب لولا هذه ولعدم جواز التقدم، وقال صاحب الكشاف فى قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان: ٤٢).

= العرب، فولدت له عمرا وذُؤَيبا وبرْغوثا فمات كُبَيْش، وترعرع الغلْمَة فقال لقيط بن زرارة: يا رُشَيَّة مَنْ أبو بَنيكِ؟ قالت: كُبَيْش بن جابر، قال: فاذهبى بهؤلاء الغلْمة فغَلِّسى بهم وجه ضمرة وخبِّريه مَنْ هم، وكان لقيط عدوا لضمرة، فانطلقت بهم إلى ضَمْرة فقال: ما هؤلاء؟ قالت: بنو أخيك فنزع منها الغلْمَة وقال: الْحَقى بأهلك، فرجعت فأخبرت أهلها بالخبر، فركب زُرَارة وكان رجلا حليمًا حتى أتى بنى نَهْشَل فقال: رُدُّوا على غلْمتى فسبه بنو نهشل وأهْجَرُوا له فلما رأى ذلك انصرف فقال له قومه: ما صنعت؟ قال: خيراً ما أحْسَنَ ما لقينى به قومى، فمكث حولا ثم أتاهم فأعادوا عليه أسْوأ ما كانوا قالوا له فانصرف فقال له قومه: ما صنعت؟ قال: خيرا قد أحْسَنَ بنو عمى وأجملوا، فمكث بذلك سبعَ سنين يأتيهم فى كل سنة فيردونه بأسوأ الرد، فبينما بنو نهشل يسيرون ضُحًى إذ لحق بهم لاحقٌ فأخبرهم أن زرارة قد مات، فقال ضمرة: يا بنى نهشل إنه قد مات حليم إخوتكم اليوم فاتقوهم بحقهم، ثم قال ضمرة لنسائه: قِفْنَ أقْسِمْ بينكن الثكل، وكانت عنده هند بنت كرب بن صفوان، وامرأةٌ يقال لها: خُلَيْدَةَ من بنى عجل، وسَبِية من عبد القيس وسَبِية من الأزد من بنى طَمَثان، وكان لهنَّ أولاد غيرَ خُليدة فقالت لهند ـ وكانت لها مُصَافية: ولى الثكلَ بنتَ غيرِك، ويروى: وَلّى الثكل بنت غيرك على سبيل الدعاء، فأرسلَتْها مثلا، فأخذ ضمرة شقَّةَ بن ضمرة وأمه هند وشهابَ بن ضمرة وأمه العبدية وعَنْوَة بن ضمرة وأمه الطمثانية فأرسل بهم إلى لَقيط بن زُرَارة وقال: هؤلاء رُهُن لك بغلْمَتك حتى أرضيك، فلما دخل عليه الغلْمة وكان يسمع بِشقَّةَ ويعجبه ما يبلغه عنه، فلما رآه قال: تَسْمَعُ بالمعيدىِّ خَيْرٌ من أن تراه، فأرسلها مثلا. انظر: الميدانى مجمع المثال: ١/ ١٢٩.

ولولا فى مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى لا من حيث الصنعة مجرى التقييد للحكم المطلق. انتهى.

فكذا هنا فيكون المعنى: وهم بها لو لم ير برهان ربه.

فعلى كل تقدير لا يكون فى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ حكم وإفادة بل يكون مقيداً بعدم رؤية البرهان.

فالمعنى: لو لم ير يوسف ـ عليه السلام ـ برهان ربه لكان قد هم، أى بمخالطتها، لكنه رأى برهان ربه فلم يهم أصلاً بمخالطتها، فلم يوجد من يوسف ـ عليه السلام ـ ما يدخل تحت الاختيار من الهم، والقصد، والعزم كما وجد من المرأة.

وأما التصور الجزئى والميل الطبيعى لا يدخلان تحت الاختيار وإن حصلا منه.

وهذه التوجيهات أحسن ما يكون.

وقال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ معناه: حصل فى يوسف ـ عليه السلام ـ ميل طبيعى شديد يشبه الهم والقصد ففى الكلام استعارة أو مشاكلة ولو لم يحصل هذا الميل الطبيعى لما استحق المدح.

مثاله: رجل صالح صائم فى صيف صائف عطشان رأى حلا بالمبرد بالثلج فيميل إليه بالطبيعى ميلاً شديداً ثم يكف نفسه لحرمة الشرب بالصوم فيحصل له بالكف المذكور عند الميل الشديد ثواب عظيم، فلو لم يحصل له ميل ثم كف لم يحصل له هذا الثواب، فشدة الميل يزيد الثواب فكذا هنا حصل الميل الطبيعى فى يوسف ـ عليه السلام ـ بمقتضى الشباب والبشرية وكف نفسه عن كل ما يدخل تحت الاختيار من القصد والإادة والنظر بالشهوة أو المس والقبلة وغيره كفّا شديداً مع الشديد فحصل له الثواب والقرب إلى الله أضعاف المضاعفة، فلو لم يحصل هذا الميل ثم بعده هذا الكف لم يحصل له هذا الثواب، وهذا القرب، فأخبر الله عن جميع ذلك بقوله:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾: أى أرادت المرأة وعزمت وهمت بمخالطة يوسف ـ عليه السلام ـ من غير أن يمنعها حياء ولا إيمان فحصل لها الوزر بهما، وإن لم يحصل الوقاع.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: أى مال طبع يوسف ميلاً طبيعيّا الذى هو مناط الثواب من غير أن يكون هناك قصد ولا هم لأن الحياء من الله ـ تعالى ـ والإيمان بالله قد منعه.

فالهمّان مـختلفان، فلذا لم يجمعهـما بأن يقول: «ولقد هما» فبعـد حصول الميل الطبيعى الغير الجازم.

﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾: لخالطها، لكن لما رأى البرهان كف نفسه عن هواها وهو المـخالطـة والمـراد ببرهان ربه هو دليل وجـوب اجتناب الزنا مـثل قوله تعـالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢) فكذا فى دينهم.

والمراد برؤيته علمه علمًا يقينيًا بالغًا مقام المشاهدة وملاحظته وتذكره فى مثل ذلك المقام المدحض، وأما ما قيل: من أنه رأى جبـريل أو يعقوب ـ عليهما السلام ـ عاضًا على أنامله قائلاً: تعمل عمل الـسفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء وغيـر ذلك فغير لائق إيراده لأن الكف على هذا يكون اضطراريًا يكف مـعه أوقح الناس، فالحق مـا مر من دليل اجتناب المحارم، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أى ثبتناه تثبيتًا كذلك وهو يدل على أن ما صدر عنه زلة هناك أصلاً.

﴿لِنَصْرِفَ﴾: علة للتثبيت عنه.

﴿عَنْهُ السُّوءَ﴾: أى جنسه وهو مقدمات الزنا من الهمّ وغيره.

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾: عين الزنا، علله بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: فالإضافة للتشريف.

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: الذين أخلصهم الله لطاعته واجتناب مـحارمه فلا يجد الشيطان عليه سبيلاً لقوله: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٣).

فمن فى ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾: للتبعيض أى هو من جملتهم ويجوز أن يكون للابتداء أى ناشئًـا من المخلصين، أى من نسلهم المخلصـين وذريتهم وهم: إبراهيم، وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وما كتـبه بعض المفسـرين من وقوعه فى بعض الصغائـر ـ حاشاه من ذلك ـ يرده مدح الله ـ تعالى ـ له بعد حكاية همّه ورؤية برهان ربه خمسة مدحات بقوله:

﴿كَـذَٰلِكَ﴾: وقـوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ وقوله: «لنصرف عنه الفـحشاء» وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ ولو كان صدر منه زلة لنفى عليه كما على آدم وداود ويونس عليهم السلام.

وقـد كتب الإمـام كـلامًـا طويلاً نقلناه بعينه هو أنه: قـال الواحـدى فى كتـاب «البسيط»: قال المفسرون الموثوق بعلمهم، المرجوع إلى روايتهم:

همَّ يوسف عليه السـلام ـ أيضًا بهذه المرأة همًّـا صحيحًا وحـبس منها الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه.

قال أبو جعفر الباقر[1] ـ رضي الله عنه ـ بإسناده عن على ـ رضي الله عنه ـ طمعتْ فيه وطمع فيها إنه هم بحل التكة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حل الهميان وجليس منها مجلس الخاتن.

وعنه أنها استسلمت له وجلس رجلها لنزع ثيابه، ثم إن الواحدى طول فى كلمات عديمة الفائدة فى هذا الباب.

وما ذكره فيما يحتج به حديثًا صـحيحًا، نقول عليه فى هذا الباب فى تصحيح هذه المقالة، ولما امعنى فى تلك الكلمات العارية عن القائلة.

روى أن يوسـف ـ عليـه السلام ـ لمـا قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢) قال جبريل: ولا حين هممت يا يوسف؟ فقال يوسف ـ عليه السلام ـ عند ذلك: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٣) ثم قال: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف ـ عليه السلام ـ كانوا أعرف بحقوق الأنبياء وارتفاع منازلهم عند الله من الذين نفوا الهمَّ عنه.

فهذا خلاصة كلام فى هذا الباب.

والقـول الثـانى: أن يوسف ـ عليه السـلام ـ كان بريئًا عن العـمل الباطل والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب.

---

(١) (أبو جـعفـر البـاقـر): هو السيد الإمـام أبو جعفر محمد بـن على بن الحسين بن على العلوى الفاطمى المدنى، من ولد زين العـابدين وُلِدَ سنة ست وخمسين فى حيـاة عائشة وأبى هريرة، أرخ ذلك أحـمد بن البـرقى، روى عن جـديه النبى ﷺ وعلى رضي الله عنه مـرسلا، وعن جـديه الحسن والحسين مرسلا أيضًا، وعن ابن عباس وأم سلمة وعائشة مرسلا، وعن ابن عمر وجابر أبى سعـيد وعبد الله بن جـعفر وسـعيد بن المسـيب وأبيه زين العابدين ومـحمد بن الحنفـية وطائفة، وليس هو بالكثيـر. . . وشهر أبو جعفـر بالباقر من بقر العلم أى: شقـه فعرف أصله وخفيه، ولقد كان أبو جعفر إمامًا مجتهدًا تاليًا لكتاب الله كبير الشأن، وعن أبى جعفر قال: من دخل قلبه مـا فى خالص دين الله شغله عمـا سواه، ما الدنيا ومـا عسى أن تكون؟ هل هو إلا مركب ركبته أو ثوب لبسته أو امرأة أصبـتها. . . زوجه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق هى صـاحبة أبـى جعفـر الباقر وأم ولده جـعفر الصـادق، وعن أبى جعفـر قال: الصواعق تصيب المؤمن، وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر، وعنه قال سلاح اللئام قبح الكلام، مات أبو جـعفر سـنة أربع عشرة ومـائة بالمدينة، أرخـه أبو نعيم وسعـيد بن عـفير ومـصعب الزبيـرى، وقيل: توفى سنة سـبع عشرة ومـائة. انظر: الذهبى سـير أعلام الـنبلاء: ٤/ ٤٠١ الترجمة (١٥٨).

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد تقدمت فلا نعيدها إلا أن تريدها هنا وجوهًا:

الأول: إن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة فى معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا الصبى إذا ربى فى حجر الإنسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبى على إيصال أقبح القبائح وأسوأ أنواع الفضائح إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال، إذا ثبت هذا فنقول:

إن هذه المعصية التى نسبوها إلى يوسف ـ عليه السلام ـ كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

الثانى: أنه ـ تعالى ـ قال فى عين هذه الواقعة ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف: ٢٤) وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ولا يشك أن المعصية التى نسبوها إليه أعظم أنواع السوء والفحشاء.

وأيضًا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر وذلك لأن نقول: هب أن هذه الآية لا تدل على نفى هذه المعصية عنه إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله ـ تعالى ـ أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثنى عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح والثناء البالغ عقيبه، فإن ذلك يستنكر جدًا، فكذلك هاهنا.

الثالث: الأنبياء ـ عليهم السلام ـ متى صدرت عنهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك واتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع ولو كان يوسف ـ عليه السلام ـ أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار، ولو أتى بحكم الله ـ تعالى ـ عنه إتيانه بها كما فى سائر المواضع وحيث لم يوجد شىء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه فى الواقعة ذنب ولا معصية.

الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف ـ عليه السلام ـ عن المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف ـ عليه السلام ـ وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين، وكلهم شهدوا ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر أيضًا أنه برىء عن المعصية، فإذا كان كذلك، لم يبق للمسلم توقف فى هذا الباب.

أما بيان يوسف ـ عليه السلام ـ ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله ـ عليه السلام ـ ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: ٢٦) وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣).

وأما بيان المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢) وأيضًا قالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

أما بيان أن زوج المرأة آمن بذلك فهو قوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ (يوسف: ٢٨، ٢٩).

وأما نسوة مصر فقوله تعالى: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ (يوسف: ٥١).

وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ (يوسف: ٢٦) إلى آخر الآية.

وأما شهادة الله بذلك فقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤).

فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته أربع مرات:

أولها: قوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

والثانى: قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾: أى كذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

والرابع: قوله ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾.

وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول، وهذا يدل على أن الله ـ تعالى ـ استخلصه لنفسه واصطفاه وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عن ما أضافوه إليه.

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته فلأنه قال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة ص: ٨٣) فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف ـ عليه السلام ـ من المخلصين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤) فكان هذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى.

وعنه هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف ـ عليه السلام ـ هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع الله فليقبلوا شهادة الله على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلهم يقولون:

كنا فى أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا فزدنا عليه فى السفاهة.

كما قال الحرورى:

وكنت امرأ من جند إبليس فانتهى ... بى الأمر حتى صار إبليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده ... طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

بهذه الدلائل إن يوسف ـ عليه السلام ـ برىء مما يقول هؤلاء الجهال.

المسألة الثانية: فى المراد بذلك البرهان ما هو: أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه:

الأول: إنه حجة الله ـ تعالى ـ فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العذاب.

الثانى: إن الله ـ تعالى ـ طهر نفوس الأنبياء عن الأخلاق الذميمة، بل نقول إنه ـ تعالى ـ طهر نفوس المضلين بهم عنها كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣).

فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكر الأحوال الداعية لهم على الإقدام على الطيبات والمانعة عن اللغط على المنكرات.

الثالث: إنه رأى مكتوبًا فى سقف البيت: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢).

الرابع: أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، والدليل عليه أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بُعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢، ٣) وأيضًا أنه

ـ تعالى ـ عير اليهود بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤) وما كان عيبًا فى حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات، وأما الذين نسبوا المعصية ليوسف ـ عليه السلام ـ فقد ذكروا فى تفسير ذلك البرهان أموراً:

الأول: قالوا: إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف ـ عليه السلام ـ ولم؟ قالت: أستحى من إلهى هذا أن يرانى على معصية، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ تستحين من صنم لا يعقل ولا يبصر ولا أستحى من إلهى القائم على كل نفس بما كسبت، فوالله لا أفعل ذلك أبدًا، قالوا: فهذ هو البرهان.

الثانى: نقلوا عن ابن عباس ـ ﷺ ـ أنه مثل له يعقوب فرآه عاضًا على أصابعه ويقول له: أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب فى زمرة الأنبياء؟ قالوا: فاستحيا منه.

وهو قول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير ومقاتل، وقتادة، والضحاك، وابن سيرين ـ ﷺ ـ قال سعيد بن جبير:

تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت شهوته من أنامله.

الثالث: قالوا: إنه سمع فى الهواء قائلاً يقول: يا بن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنى ذهب ريشه.

الرابع: نقلوا عن ابن عباس ـ ﷺ ـ أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يزجر برؤية صورة يعقوب ـ عليه السلام ـ حتى ركضه جبريل ـ عليه السلام ـ فلم يبق فيه شىء من الشهوة إلا خرج.

ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال: هذا الذى ذكرناه قول أئمة المفسرين الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل، فيقال له: إنك لا تأتينا ألْبتة إلا بهذه التصلفات التى لا فائدة فيها، فأين هذه من الحجة والدليل.

وأيضًا فإن ترادف الدلائل على الشىء الواحد جائز وأنه ـ عليه السلام ـ لو كان ممتنعًا عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية فلم يضاف إليها هذه الزواجر.

وأيضًا فقد روى أن كلبًا دخل حجرة لرسول الله ـ ﷺ ـ وبقى هناك بغير علمه، قالوا: فامتنع جبريل ـ عليه السلام ـ من الدخول عليه أربعين يومًا وههنا زعموا أن يوسف ـ عليه السلام ـ حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبريل ـ عليه السلام ـ

والعجب أيضًا أنـهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العـمل بسبب حضور جـبريل ـ عليه السلام ـ ولو أن أفسق الـخلق وأكفرهم كان مشـتغلاً بفاحشـة فإذا دخل رجل على زى الصالحين استـحيا منه وفر وترك ذلك العمل، وههنا إن يعـقوب ـ عليه السلام ـ عض أنامله فلم يلتفت ثم إن جـبريل ـ عليه السلام ـ على جلالة قـدرة دخل عليه فلم يمتنع عليه أيضًا من ذلك القبح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل ـ عليه السلام ـ ركضه على ظهره.

نسـأل الله أن يصوننا عن العـمى فى الدين والخـذلان فى طلب اليقـين فهـذا هو الكلام الملخص فى هذه المسألة. انتهى.

﴿وَاسْتَبَقَا﴾: أى تسابقا.

﴿الْبَابَ﴾: إلى الباب على الحذف والإيصال كقوله تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ (الأعراف: ١٥٥).

وهو الباب البرانى.

قيل: لما همت زليخـا به ومرت يدها لتضمه إليها فـر منها وكلما وصل إلى باب من الأبواب المغلقة انفتـح وتناثر فراش الأفول وتبعته زليخـا حتى إذا وصلا إلى الباب البرانى لحقته وجذبته من خلفه.

﴿وَقَدَّتْ﴾: شقت، والقد الشق طولاً والقط الشق عرضًا.

﴿قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾: من جهة الخلف المسماة بالدبر.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾: زوجها ولما لم يكن سيد يوسف ـ عليـه السلام ـ فى الحقيقة لم يقل سيدهما.

﴿لَدَا الْبَـــابِ﴾: حاضـرًا مع رجل حكيم ابن عم للمرأة وقـد سمعـا حلية شق القميص فى داخل الباب فلما رأته المرأة كادت جعلت بتبرئة ساحتها ولأخذ الانتقام من يوسف ـ عليه السلام ـ ولتخويفه ليطيعها مرة أخرى حيث قالت:

﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾: من الزنا أو مقدماته و (ما) نافيـة أو استفهامية للإنكار، أى ليس جزاء كل أحد قصد بأهلك فاحـشة سواء كان يوسف ـ عليه السلام ـ أو غيره.

﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾: أيامًا قلائل، فلذا لم تقل أن يجعل من المسجونين.

﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هو الضرب بالسياط فعرضت إلى يوسف بالسوء لكن جاءت بالكلام العام ولم تصرح لأن عصمة يوسف ـ عليه السلام ـ كانت قد أعجبت المرأة فلم تقدر على الكذب الصريح ولأنها كانت عاشقة فسترت ولم تكذب صريحًا ثم لما خافت عليه القتل تداركت بأن أفتت بأن جزاءه ليس إلا السجن قليلاً أو ضربًا بالسياط أيضًا قليلاً، بدلالة التنكير فى ﴿عَذَابٌ﴾ وكانت آمرة مطاعة عند زوجها، فلما عرضت بهتك عرض يوسف ـ عليه السلام ـ ووجب الدفع عليه: ﴿قَالَ هِيَ﴾: أى لا أنا.

﴿رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾: فتقديم الضمير للاختصاص كقولك: أنا سعيت فى حاجتك أى لا غيرى.

وطلب العزيز أمارة تدل على أن أيهما صادق.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾: هو الرجل الحكيم الذى كان مع العزيز وهو ابن عم لها من أهلها، وإنما جعل من أهلها لأنه ألزم للمرأة وأقطع لكلامها سواء كان رجلاً حكيمًا أو صبيًا معجزة كما سيجىء.

وتسمية قوله بالشهادة لأدائه مؤداها حيث دل آخرًا على براءة يوسف ـ عليه السلام ـ والشهادة نوع من القول، فلذا وقع على الجملة المحكية بقوله ﴿إِن كَانَ﴾ أى أن يعلم أنه كان فلهذا التأويل اجتمعت ﴿إِنْ﴾ التى للاستقبال مع كان التى للمضى كقولك: إن أحسنت إلى الآن فقد أحسنت إليك أمس أى إن تمنن بإحسانك الآن أمنن بإحسانى إليك أمس.

﴿قَمِيصُهُ﴾: الذى سمعنا جَلَبَةَ شقه.

﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾: من جهة.

﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: لأنه يدل على أنها فرت منه وتبعها من خلفها فرجعت فدفعته من القبل فشقت أو حين اللحوق فى قدامه فانشق منه.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: لأنه يدل على العكس بأنه هرب منها فلحقته من خلفه فقدت القميص من دبره ولما كانت أمثال هذه الأمارات التى تكتفى بها فى الإقناعيات مثل هذا المقام لا من البراهين لم يضر هنا وجود بعض الاحتمالات على ما فى التفاسير لأن الاحتمال لا ينقطع فى الأمارة فلا يليق التعرض بالأجوبة عنها، بل الجواب الإجمالى أن كلها الظاهر فلا يلتفت إليه.

وقيل: إن الشاهد كان صبيًا ابن خال لها.

وقد روى ابن كثير: حدثنا مرفوعًا حيث قال: حدثنا ابن جرير، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنى عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (تكلم أربعة وهم صغار: فذكر فيهم شاهد يوسف ـ عليه السلام).

ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: (تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف ـ عليه السلام ـ وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، صلوات الله على نبينا وعليه).

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾: أى العزيز والشاهد.

﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾: وحصل أمارة صدق يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿قَالَ إِنَّهُ﴾: أى مقول ما جزاء من أراد إلى أخره.

﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾: أى من كيدك يا زليخا، وكيد جواريك، وخدامك أو كيدك وكيد أمثالك من سائر النساء حيث قصد تبرئة الساحة مع لومها وتعذيب المعصوم للانتقام والتخويف ليطيعك مرة أخرى.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: من كيد الرجال، ومن كيد الشيطان فإنه سرى.

وعن بعض العلماء: أخاف من كيد النساء أكثر مما أخاف من كيد الشيطان لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦).

وقال فى النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٨).

وهذا وإن كان قول العزيز والشاهد لكن لما حكاه الله ولم يرده حصل العلم بأنه كذلك عند الله.

وقيل: إن كيد القصر بان خصوصًا إذا كن مخدمات تعينهن المكادات من النساء أشد وأعظم من كيد البدويات.

أعاذنا الله منه.

﴿يُوسُفُ﴾: أى قال العزيز أو الشاهد: يا يوسف، فحذف حرف النداء للتقريب وتلطيف المحل يعنى أنه لما كان يوسف ـ عليه السلام ـ قريبًا غير بعيد ومفاطنًا للحديث غير غافل عنه حذف حرف النداء للدلالة على ذلك ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾: الأمر واكتمه ولا تفشه.

﴿وَاسْتَغْفِرِى﴾: يا زليخا لربك وتوبى فإنها وإن كانت كافرة فى الوقت لكن كانت مشركة تعبد الله والصنم للتقرب إليه وأيضًا كان العزيز مؤمنًا بالله كما مر.

﴿لِذَنْبِكِ﴾: الذى فعلت من الهم والقصد بالمواقعة مع يوسف المعصوم الملكى الصورة والمرسلى الصفة ثم وجود الذنب منها بقوله:

﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾: فى الأزمنة السابقة ﴿مِنَ﴾ جملة القوم ﴿الْخَاطِئِينَ﴾: فالتذكير للتغليب لأن القوم مختص بالذكور والخاطئ من تعمد الخطأ بخلاف المخطئ فإنه يريد الصواب ويقع فى الخطأ.

يقال للمجتهد الغير مصيب: هو مخطئ، ولا يقال: هو خاطئ، فيقول العزيز: إن عادتك هى تعمد الخطأ فلا يبعد منك هذا لكن توبى وارجعى عن عادتك فعلى هذا ﴿مِنَ﴾ فى ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾: للتبعيض أى كنت بعضًا منهم.

وقيل: لابتداء الغاية، أى أنت ناشئة كائنة من نسل الخاطئين ومن ذريتهم، فإن آباءك وأجدادك وجداتك وأمهاتك كلهم خطاءون أى فاعلون الذنب عمدًا لا يستحيون من الله ولا من الناس لجبروتهم وتسلطهم فلا يبعد منك هذا.

بخلاف يوسف ـ عليه السلام ـ فإنه من نسل المرسلين المخلصين كما مرَّ.

فإنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ـ عليه السلام ـ ابن إسحاق بن إبراهيم(١) صلوات اللهم عليهم أجمعين... آمين.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث.

مجلس فى:

بيان اغتياب النسوة فى مدينة مصر لزليخا فى حب يوسف ـ عليه السلام ـ وإرسالها إليهن وإخراجها يوسف عليهن فقطعن أيديهن وغير ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب:

فهذا مجلس فى بيان اغتياب النسوة فى مدينة مصر لزليخا فى حب يوسف ـ عليه السلام ـ وإرسالها إليهن وإخراجها يوسف ـ عليه السلام ـ عليهن، فقطعن أيديهن وغير ذلك، فقال الله فى ست آيات: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾[1] النّسوة اسم جمع لامرأة لها لعدم صدق تعريف الجمع عليها وهو ما يدل على آحاد مقصوده بحروف مفردة بتغيير ما وكل جمع واسم جمع سواء كان مفرده مؤنثًا حقيقيًا أو إذا أسند إلى ظاهره الفعل جاز إلحاق التاء بالفعل وعدمه كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ (الممتحنة: ١٢).

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ لكن الترجيح لأن المؤمنات بمجيئهن للإيمان، وكذا النّسوة لتعييرهن زليخا على الفعل الشنيع ألحقن بالرجال فى كمال العقل.

﴿فِى الْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أى: قلن وأشعن الحكاية فى المدينة والقول فيها

---

(١) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾.

يستلزم كونهن فيها فهو أولى من جعله صفة للنّسْوة، وكن خمس: امرأة الساقى، والخباز، وصاحب الدواب، والسَّجَّان، والحاجب.

﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وهو الملك مطلقًا والمراد هنا وزير حيَّان وهو «قطفير» وإضافتها إليه لتربية اللوم لأن المرأة إذا لم تكن ذات زوج أو كان زوجها دنيًا لا عزيزًا إذا مالت إلى عزيز تعذر عند أمثالها وإن لم تكن معذورة فى الشرع فيقلن إن زليخا مع كونها ذات زوج، وكون زوجها عزيزًا.

﴿تُرَاوِدُ﴾ تطالب طلبًا فى الغاية على الدوام والاستمرار بشهادة صيغة المضارع.

﴿فَتَاهَا﴾ أى عبدها، واختياره عليه من آداب القرآن كما قال ﷺ: «لا يقُل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى»(١).

مع كونه غير قولها وليس من أمثالها وأقرانها.

«عن نفسه» لأجل نفسه ليواقعها.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ خبر بعد خبر، أو حال، أى دخل حب الفتى شغاف قلبها، وهو على وزن سحاب جلدة رقيقة على القلب، فشغف بمعنى دخل الشغاف ككبده بمعنى دخل الكبد، ورأسه، وبطنه بمعنى أصابه هذه الأعضاء، ودخول الحب فى الشغاف كناية عن الوصول إلى حبة القلب وسوائدته.

﴿حُبًّا﴾ تميز عن الفاعل فيكون فى المعنى فاعلاً.

فمرادهن أنَّه أثر حب الفتى فى قلبها بحيث لا تكاد تَصبر عنه، والحب هو المحبة وهو الوجدانيات التى لا يكشف عنها التعريف والمقال غير الخيال، بل يعرفها كل واحد لكن رسمت بأنها ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركت فيه بحيث تطلب التقريب إليه، أولا تكاد تصبر، بل أحرق الميل المذكور صبرها عنه فيقلن: قد دخل هذا الحب سويداء قلبها وأحرق صبرها عنه فلذا تراوده دائمًا.

---

(١) حديث: (**لا يقُل أحدكم عبدى وأمتى، وليقُل فتاى وفتاتى**) أورده السيوطى فى جامع الأحاديث وقال: ما لفظه (لا يقل أحدكم أطعم ربك، وضئ ربك، واسق ربك، ولا يقل أحد ربى، وليقل سيدى ومولاى، ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى، وليقل فتاى وفتاتى، وغلامى) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ومتفق عليه بين البخارى ومسلم، وكلهم من رواية أبى هريرة (رضي الله عنه). انظر: السيوطى: جامع الأحاديث الحديث رقم (٢٦٥٤٣) ٧/ ٤٣٠.

فالمراودة فعل قالبها وشغف الحب قلبها فعل قلبها فيلمن على فعل جوارحها وفعل القلب وإن كان مقدمًا فى الوجود لكن لا يعلم إلا من فعل الجوارح.

وفى قراءة شاذة: «شعفها» بالعين المهملة، وحقيقة الشعف أن يطلى الرجل إبله بالقطران فيحرقه إحراقًا يلتذ الإبل به، فيقلن قد شعف وأحرق حب الفتى قلبها مع أنها تلتذ به كالأجرب يلتذ مع أنه يدميه ويضره.

ثم ورد سؤال كيف تزينها فى الحب الشديد والمراودة الدائمة؟ فأجبن بقولهن:

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ منغمسة.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وغى عن الرشد والصواب.

﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر كونه ضلالاً وغيًا: فيكون هذا الاستئناف مثله فى قول الشاعر:

تظن سمى أننى أبغى بها بدلاً ... أراها فى الضلال تهيم

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾[1]: اغتيابهن المذكور، وإنما سمى مكرًا لأنه كان فى خفية عنها وإن شاع فى المدينة مع أن قصدهن من هذا الاغتياب أن تريهن زليخا جمال يوسف لدفع المقالة وللعذر.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن مع سائر نساء الأشراف فى مصر فصرن أربعين.

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أحضرت وهيأت.

﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، وقيل: مجلس طعام، وقيل: نفس طعام كتابة لأن عادتهم الاتكاء على الطعام لكونهم جبابرة.

فلهذا نهى رسول الله ﷺ عنه بقوله: (لا يأكلن أحدكم متكئًا ولا بشماله)[2].

﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ هادا لتعالج به فى قطع اللحم والأترج وغير ذلك فلما شرعن فى الأكل وأخذت السكاكين بأيديهن وقعدن متكئات على الوسائد ـ على

(١) ابتداء الآية رقم ٣١ من سورة يوسف ونصها: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

(٢) حديث: (لا يأكلنّ أحدكم متكئا ولا بشماله) أورده السيوطى فى جامع الأحاديث وقال زيادة عليه: (ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله) رواه الترمذى، ومسلم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) انظر: جامع الأحاديث ٧/ ٣٩٧ الحديث رقم (٢٦٣٢٠).

عادتهن ـ أرادت زليخا بهن المكر بهذه الهيئة، أى: هيئة الاتكاء والسكاكين بأيديهن كما مكرت فى رؤية يوسف ـ عليه السلام ـ باغتيابها.

و ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف ـ عليه السلام ـ ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: فخرج امتثالاً لأمر سيدته فى المعروف إذ ما كان الحجاب فى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ بغتة قد أقبل إليهن بصورة حسنة خارجة عن نطاق الوصف وسيرة كاملة من الخضوع والإخبات والتواضع وسماء الرسالة والنبوة ظاهرًا فى مرأى العين عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الوهم والخيال.

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أى: عظّمنه فى قلوبهن يحدث لهن الدهشة وهى نهبة عند الصوفية تأخذ السالك إذا فجأه ما يغلب على عقله وعلمه وصبره.

والهميان: وهو كمال تلك النهبة عندهم.

والسكر: وهو عندهم سقوط التمالك فى الطرب.

والصفا: وهو البراءة من الكدر وسقوط التلوين عندهم.

والبرق: عندهم باكورة تلمع للعين فتدعوه إلى الدخول فى السير، وهو قبل الوجد وبعد اليقظة والوجد، وزاد والبرق أذن.

والذوق: أبقى من الوجد وأجلى من البرق.

والسرور وهو الاستبشار الجامع.

والغربة: وهى عندهم الانفراد عن الأكفاء.

والفرق: وهو عندهم مجاوزة حد التفرق بالاستغراق.

والتمكن: وهو عندهم غاية الاستغراق.

والوقت: وهو عندهم اسم لظرف كائن من الوجد الصادق أو تلهب الشوق.

واللحظ: وهو عندهم المحبة مسترق.

والوجد: وهو عندهم لهب يتأجج من مشهود عارض تعلق.

والقلق: وهو عندهم اضطراب فى القلب عند الشهود.

وغير ذلك من منازل الصوفية كلها من نتائج المحبة(١).

---

(١) **فالمحبة عند الصوفية على أربعة أقسام:**

القسم الأول: محبتهم روحانية، ذاتية، مستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل لقربها فى =

ولما حصل فيهن الأحوال المذكورة وغيره من الحس وغلب علقهن لم يفرقن بين الأترج والأيدى.

﴿وَقَطَّعْنَ﴾ قطعًا غير واصل إلى حد الإبانة لكن كان متكثرًا.

﴿أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ﴾ قولاً ناشئًا من المشاهدة وهى عندهم سقوط الحجاب، وهنا من مشاهدة جمال يوسف ـ عليه السلام ـ ومن المعاينة وهى عندهم معاينة القلب بمعرفة الشىء على نعته علمًا بقطع الوساس وهى هنا معاينة نعوته الملكية كما سبق، ومن الاتصال وهو عندهم اتصال لا يدرك له نعت ولا مقدار، وهنا اتصالهن إلى ما أدركن منه صورة وسيرة من الانفصال وهو عندهم الانفصال عن الكونين، وهنا انفصالهن عن كل ما سوى يوسف ـ عليه السلام ـ حتى أنفسهن وغير ذلك من الأحوال القلبية المبينة

= الحضرة الأحدية، وتساويها فى الحضرة الواحدية التى قال فيها الصادق المصدوق (ﷺ): (فما تعارف منها ائتلف)، فهم إذا ظهروا فى هذه النشأة اشتاقوا إلى أوطانهم فى القرب، وتوجهوا إلى الحق، وتجردوا عن الملابس (فناء الأجساد) فلما تلاقوا تعارفوا، وإذا تعارفوا تحابُّوا لتجانسهم الأصلى، وتماثلهم الوصفى، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة، وانتفع كل منهم بالآخر فهذه المحبة تامة حقيقة لا تزول أبدًا كمحبة الأنبياء والأولياء والأصفياء والشهداء.

والقسم الثانى: محبتهم قلبية مستندة إلى تناسب الأوصاف، والأعلاق، وتشابه العقائد، والأعمال الصالحة، كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم، ومحبة العرفاء والأولياء إياهم، ومحبة الأنبياء لعامة أممهم.

القسم الثالث: محبتهم نفسانية مستندة إلى الذات الحسية والأغراض الجزئية كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة، ومحبة الفجار، والفسَّاق، وأهل الضلال متعاونين فى اكتساب الشهوات، واجتلاب الأموال.

والقسم الرابع: محبتهم عقلية، مستندة إلى تسهيل أسباب المعاش، وتيسير المصالح كمحبة التجَّار، والصنَّاع ومحبة المُحسَن إليه للمُحسِن.

فالقسمان الأخيران من المحبة فى حيز الزوال والفناء لاستنادهما إلى عرض فانٍ، وسبب ذلك أن كل محبة استندت إلى سبب زائل، وغرض باطل زالت عند زوال سببها، وانقلبت عداوة: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧/ الزخرف) وأمَّا المتقون الكاملون فى التقوى الواصلون إلى غاية القصوى فقد اجتنبوا أولا من المعاصى، ثم الفضول، ثم الأفعال، ثم الصفات، ثم الذوات، فما بقيت منهم بقايا حتى يتنافسوا فيها، فتتجلى محبتهم، بل لم يبق منهم إلاَّ نفس الحب انظر: محمود بن فضل الله الإسكُدارى: حبة المحبة بتحقيقنا: مكتبة الثقافة الدينية صـ٨١ – ٨٣.

فى كتب الصوفية ومآخذ ذلك كله أحوال هؤلاء النساء محكيا فى القرآن العظيم فقلن قولاً ناشئًا من أحوال القلب المار ذكرها وغيرها.

﴿حَاشَ﴾ كلمة حاش أصلها حاشا حرف جر وضعت للاستثناء والإخراج عن شىء قبيح.

فيقال: أساء القوم حاشا زيد، ولا يقال: قام القوم حاشا زيد، إلا أن يكون قيامهم لأمر مكروه، ثم حذف منه الألف الأخيرة للخفة لكثرة استعماله، ثم استعمل فى معنى المصدر، أى تنزيهًا وبراءة فصار اسمًا بالنقل ولم ينون بعد كونه اسمًا رعاية لأصله وهو الحرف كعن.

وعلل مع كونهما اسمين بمعنى الجانب والفوق، فالمعنى تنزيهًا وتبرئة.

فقيل عن فبين بقوله ﴿لِلَّهِ﴾ فنزهن الله عن العجز من خلق الجميل والكامل مثله، وتعجبن عن قدرته على خلق جميل فى الصورة وكامل فى السيرة مثله ثم أكدن كلامهن بقولهن ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأنه غير معتاد فى البشر هذه الصورة، وهذه السيرة.

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بين الحكم بالملكية لما ركن فى العقول واشتهر فى جميع أهل الأديان أن كمال الجمال فى الصورة وكمال الأخلاق والاستغراق فى معرفة الله وطاعته فى الملك ولا نزاع فيه لأنهم مبرءون عن الشهوة والغضب والوهم والخيال فإنما النزاع فى الأفضلية بمعنى كثرة الثواب وهى فى الإنسان الكامل من الأنبياء والصلحاء فإن المرسلين من البشر أفضل من الملأ الأعلى من الملائكة والصلحاء أفضل من عامة الملائكة لأن المعرفة والعبادة مع العوائق البشرية من الشهوة والغضب والوهم والخيال أحمد وأفضل الأعمال أحمدها.

روى البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وذريته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، قال: لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان)[1].

---

(١) حديث: (لمَّا خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) وذريته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون...) أورده الإمام السيوطى بلفظه وقال: رواه الديلمى فى مسند الفردوس ورواه ابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عروة بن زويم الأنصارى (رضي الله عنه) الحديث رقم (١٧٤٦٤) ٥/ ٣٥٧.

وفى هذا الحديث دلالة على تفضيل البشر على الملائكة.

كذا فى شرح العقائد النسفية[١].

فلا يقيد كون الملك أجمل من حيث الصورة، وأكمل من حيث السيرة أفضليتهم من كثرة الثواب والنزاع فيه فاشتغلت النسوة الأربعون بثمرات المحبة ليوسف ـ عليه السلام ـ إما بالقلب فبالإعظام والإكبار مع سائر أحوال القلب كما مر ذكره، بمقابلة شغف حبه فى قلب امرأة العزيز وإما بالغالب فبقطع الأيدى الصادر عما ذكر من الأحوال بمقابلة مراودتها، وإما باللسان فبالتنزيه والتبرئة لله خالقه، وبالشهادة بالملكية له بمقابلة وصف امرأة العزيز بضلال مبين أى الإضلال فيها بحبها ملكًا من الملائكة فالنساء وصلن إلى الله من جمال يوسف[٢] ـ عليه السلام ـ بالتنزيه المذكور فوقعن فى بحر التوحيد بعد كونهن مشركات مغتابات، فللَّه در الجمال والكمال يوصل إلى الحق باللحظ قبل أن ينطق صاحبهما اللفظ.

كما قيل: من لم ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه.

فجميع علوم الصوفية، واصطلاحاتهم يستفاد من هذه الآيات لأن منشأ كل ذلك أحوال القلب وليس أكل فى بيانها من تلك الآيات.

تم إن زليخا لما رأت أن النساء تغيرن وتلون ولم يصبرن بل وقعن فى أحوال شتى من أحوال القلب بنظرة واحدة وهى بطول صحبتها معه فى مقام الصحو من منازل الصوفية وهو منزل فوق السكر صاعد عن الانتظار مغن عن الطلب ظاهر من الحرج.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ (يوسف: ٣٢) أى: به وبسببه، و«ذلك» للإشارة إلى البعيد ويوسف ـ عليه السلام ـ حاضر، فالتأويل فهو دون هذا لئلا يجتمع الإشارة بأن المتباينان ذلك العبد الكنعانى الذى تصورته بغير صورته ولمتننى فيه ولو كنتن تصورتنه حق تصوره ما كنتن لمتننى فيه.

---

(١) تقدمت إشارته.

(٢) أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة (رضي الله عنه) قال: (كان فضل حُسن يوسف على الناس كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء)، وأخرج الحاكم عن كعب (رضي الله عنه) قال: قسم الله ليوسف (عليه السلام) من الجمال الثلثين، وقسم بين عباده الثلث، وكان يشبه آدم (عليه السلام) نزع منه النور، والبهاء، والحُسْن، ووهب له الثلث من الجمال مع التوبة، فأعطى الله تعالى ليوسف (عليه السلام) وأعطاه تأويل الرؤيا، وإذا تبسّم رأيت النور من ضواحكه. انظر: السيوطى: الدر المنثور: ٤/ ٥٣٣.

«فذلك» على هذا خبر مبتدأ محذوف.

أو يقال: «ذلك» مبتدأ والموصول مع صلته خبره والإشارة به لرفع منزلة يوسف ـ عليه السلام ـ وتعظيمه.

وقيل: لما رأى يوسف ـ عليه السلام ـ تهالكهن تباعد عنهن إبقائهن فبعد غيبته قالت ذلك.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أخبرتْ على نفسها بعد أن ظهر عذرها عندهن.

﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أى زاد فى العصمة وثبت فيها، فالسين للطلب مراداً به استزادتها.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ أى يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿مَا آمُرُهُ﴾ الضمير لما أى أمر به، فخذف الجار كما فى قوله: أمرتك الخير، وضمير يوسف ـ عليه السلام ـ محذوف، لأن الضمير فى «لم يفعل» مغنى عنه لأنه لا أحد بما أمر به غيره، فأصل الكلام ما آمره به، حذف ضمير المأمور مع الجار من ضمير المأمورية.

وهذا أولى من جعل الضمير ليوسف ـ عليه السلام ـ وحذف الجار والمجرور كقوله ـ تعالى ـ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ للاستغفار المذكور.

﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ من الأذلاء، جمع صاغر من بالكسر صغراً محركة دون صغير من صغر بالضم ككتب فى الدارك من العراق والسفاك والإباق لأنه سرق قلبى وأبق منى وسفك دمى بالفراق، فلا يهنأه الطعان والشراب والنوم.

هنالك كما منعنى هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلى على السرير فى الحرير أميراً حصل فى الحصير على الحصير حميراً وقيل: لما بغت ذلك فى التيسير.

وقيل: لما بغت عليه واتهمته بما فيها ابتلاها الله بأن هتكت بلسانها سترها وكشفت أمرها.

وقال الإمام القشيرى ـ رحمه الله ـ: كانت زليخا أتم حالاً فى أمر يوسف ـ عليه السلام ـ وفى الافتتان به من النسوة فأثرت رؤيته فيهن ولم يؤثر فيها كما أثرت فيهن حيث قطعن أيديهن وذلك لأنه قوى حالها بطول الصحة، فصارت رؤية يوسف ـ عليه السلام ـ غذاءها فلم يؤثر فيها، والتغير صفة أهل البداية، فإذا دام المعنى زال التغير، فقال أبو بكر الصديق ﷺ، وقد رأى رجلا يبكى وهو قريب العهد بالإسلام: هكذا

كنا حتى قست القلوب أى قويت وصلبت وكذا الحرق أول ما يجعل فيه الماء يسمع له نشيش فإذا تعود بتشرب الماء سكن فلا يسمع له بعد ذلك.

قال وهب: ولما ظهر هذا فتحت المقالة فيها وعيرها نساء الملوك وقلن: إنها تراود فتاها عن نفسه قد فضحها وشغفها حبا وأزرى بها وهو كاره لها يبغضها ويمقتها ويهرب منها، ولو رأى فيها خيراً لطاوعها ولو كان لأحدنا لأذلته فلما سمعت بسُوء قولهن وإزرائهن عليها احتالت لفضيحتهن وأرادت أن تصغر إليهن أنفسهن فبعثت إلى أربعين امرأة من عظمائهن لم تدع فيهن أشرف ولا أعظم منهن، فصنعت لهن مأدبة عظيمة فلما فرغت من ذلك فرشت لهن متكئًا ووضع بين أيديهن الأترج والبطيخ والموز وأعطت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به ما وضعت قدامها فلما أنشأن فى قطع ذلك قالت: ألا أريكن عبدى الذى عيّرتننى به؟ قلن لها: بلى فإن كان لك فيه عذر أعذرناك وشايعناك، وإن أخطأت أو قصر رأيك عرفناك ودللناك على الرشد والسداد، فاغتنمت ذلك من قولهن وقالت: اخرج عليهن يا يوسف، فلما وقف عليهن أعظمنه وبهتهن، وفى أيديهن السكاكين فأنساهن أيديهن وعيونهن وعقولهن، فقطعن أيديهن وأبن الأنامل وقسمن بالله جهد أيمانهن ما هذا بشراً ولا ولد بشر وإنه لملك كريم من رءوس الملائكة.

قال وهب: بلغنى أن يوسف عليه السلام أعطى ثلث حسن الدنيا، وسارة السدس، وسائراً الخلق النصف، وأعطى الله تعالى عليه السلام من الحسن وصفاء اللون، ونقاء البشرة، ما لم يعط لأحد إن كان يأكل البقل والشيء الأخضر من الفاكهة فيرى حين تردده فى حلقه وصدره حتى يصل إلى بطنه، فقالت لهن: فهل عليَّ بعد هذا من لوم؟ قلن: معاذ الله بل أنت معذورة من نحوه ومظلومة، وقلت ليوسف ـ عليه السلام ـ اتق الله فى ربتك، واقبل كرامتها وأطعها وأجبها إلى ما دعتك إليه، ولئن لم تفعل ذلك إنك إذًا لمن الظالمين.

قالت امرأة العزيز: **﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾** (يوسف: ٣٢).

قالت النسوة: قد استحق ذلك، وأى عبد عصى سيدته لأهل أن يسجن ويقتل ويعذب وتمالأن عليه وأحببنه وشغفهن كما شغفها وأشرن عليها بحبسه رجاء أن يستهوينه حتى يخلو لهن فى السجن.

وقلن: سيدنه إنك متى استجنه، قطعت عنك قالة السوء التى قد شاعت عليك، ورأى أنك تبغضينه وتطرحين قربه، ويطبعه عليك ويلينه لك، ثم انصرفت النسوة عنها على ذلك وتركتها، وراودته عن نفسه وجهدت عليه ولم يزدد منها إلا بعدًا فلما يئست منه قالت لسيدها إنه قد شاع على أمر هذا العبد قالة قبيحة وقد فضحنى ذلك وقد كرهت قربه وأبغضت رؤيته فأذن فى سجنه حتى يكون سجنه فى تحت يدى فإنه أقطع للمقالة وأبين للعذر، فقال لها سيدها: قد أذنت لك فى سجنه. انتهى كلام التيسير.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣).

وهو جواب عن وعيدها لكن دعا ربه وخاطبه لأنه اختار السجن على الحرام، ولا يعتمد على وعيد المرأة مع جهالة لأنه يخاف أن يقول عنه حبًّا ليوسف فيطلب من ربه أن ينجزه والسجن وحبه وإن كان مكروهًا لأنه إلقاء للنفس فى التهلكة وهو حرام لكنه أهون الشرين، فإذا توجه الشران ولا مخلص عنهما للإنسان، فاختيار الأهون هو الحكمة.

فالمعنى: يقول يوسف ـ عليه السلام: إن الزنا لذة الساعة وبعدها لوم فى الدنيا إلى آخر الدهر وعذاب فى العقبى إلى ما شاء الله، والصبر على السجن محنة وعاقبتها المدح فى الدنيا والثواب فى العقبى، فتوجه الشران والأهون السجن، فلذا اختاره.

وضمير «يدعوننى» الظاهر أنه للنسوة المذكورة لكن قولهن (حاشا لله) إلى آخره ينافيه فيحتمل أن يكون الضمير لمضى زليخا وجوارها لإنعامهن من أفعال زليخا.

ويحتمل أن يكون الضمير لأن النساء ناقصات العقول فيمكن أن ينصحن له بزعمهن لئلا يلقى نفسه إلى التهلكة ثم دعا ربه بطلب التوفيق والهداية منه والتبرئ من حوله وقوته كما هو عادة الصالحين فقال: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ بإزالة داعية المعصية عني وخلق داعية الطاعة فى.

﴿أَصْبُ﴾ فإن الصبوة هى الميل إلى ما يشتهى.

ومنه الصبا لميل النفوس إليه لطيب نعيمه.

﴿إِلَيْهِنَّ﴾ إلى ما يدعونني إليه وهو مؤتاة زليخا أو مواقعتهن كما يدل عليه فيما سيجىء ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾.

إلا أن يكون من إسناد حال البعض إلى الكل لوقوعها بينهن.

﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى: السفهاء الغير العالمين، أو من الذين لا يعملون بعلمهم فإنهم جهال فى الحقيقة.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ دعاءه المفهوم من قوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ﴾ كما سبق، واستجاب أخص من أجاب فإن الاستجابة الإجابة وإيصال الطلبة والإجابة، إما بإيصال الطلبة أو بالرد وتعدى بنفسه وباللام.

وقال التفتازانى: تعديته بنفسه إلى الدعاء أى باللام على الداعى فاستشهد على الأول بقول كعب:

الفتوى وداعى ما من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب أى لم يستجب الدعاء، وأخرى.

فقلت: ادع أخرى وارفع الصوت جاهر العلا بالمعمور منك قريب.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بخلق الاهتداء ودواعى الطاعة فيه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل من يدعوه بالإخلاص.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بالنية.

﴿ثُمَّ بَدَا﴾ أى ظهر رأى ﴿لَهُم﴾ للعزيز وأهله.

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ قد القميص وشهادة الصبى وقطع النساء أيديهن وإقرار زليخا بعصمته ومراودتها فإنه قد وصل هذا عزيزاً وأهله.

ويفسر ذلك الدامى بقوله:

﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ إذ التقدير قائلين ليسجننه البتة مؤكدًا بالقسم والنون.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ينقطع قالة الناس.

روى أن زليخا بعد ذلك المجلس قالت: يا يوسف ذهبت عنى المينة والحينة، فأعط مرادى وإلا لأسجننّك، قال: أختار السجن ولا أصبر على النار، فلما رأت إصراره على الحق، دخلت على العزيز، فقالت: إن الناس يلومونني بهذا العبد العبرانى فاجعله فالسجن حتى يقول الناس: إنه مجرم، أو ائذن لى أن أبرز للناس فأتكلم بعذرى، فظهر رأى العزيز وهو أن إبعاده عنها خير للطرفين، فأذن لها فدخلت على يوسف عليه السلام فراودته فأبى واستعصم، فأمرت بنزع النفيسة وألبسته ثيابًا خسيسة وقيدوه للذهاب به إلى السجن، ثم أمرت السجان بتطهير حجرة فى السجن له،

وتطييبها بالروائح الطيبة وتفريشها بالفرش اللطيفة، ثم إن منع العزيز والملك بإلقاء بعض الآراء فيها عن إخراجه، واحترقت المرأة وعيل صبرها، فكان لها منظرة فى بيتها تنظر إلى السجن فى النهار، وكانت تذهب فى الليالى إلى السجن فتنظر من ثقب هناك إلى يوسف فكانت تبكى طول النهار والليل على فراق يوسف وتمكث بخياله والنظر إلى مكانه، والنسوة تبكين لكنهن ملامات يلومهن كل من يعرف حالهن، ونبى الله يعقوب، عليه السلام، فى وادى كنعان مع كل من عنده، بل مع أهل كنعان لكنهم مرحومون يرحمهم كل أحد، فأحوال يعقوب ومن يليه مثال لأهل الشرع من حيث السلامة من اللوم من حيث طول المسافة والمدة لا لأنهم وصلوا بعد أربعين سنة:

فأهل الشرع واصلون فى آخر الأمر مع السلامة فى طريقهم وإن طالت المدة.

وأحوال زليخا والنسوة مثال للصوفية رحمهم من حيث إنهم ملومون فى أكثر الأحوال ولا يرض لأحوالهم إلا من هو فى أحوالهم لزليخا بالنسبة إلى النسوة فالملامة لهم والسلامة لأهل الشرع.

وأيضًا ما حكى الله عن يعقوب عليه السلام فى حب يوسف عليه السلام إلا الحزن فى قوله ﴿لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ والبكاء معه فى قوله: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

ولم يذكر عنه الشفق والقلق والدهش بقطع الأيدى من أحوال القلب بل حكاها عن النساء وعن زليخا فناسب أحوال يعقوب عليه السلام ومن يليه أحوال أهل الشرع المتهمين بأعمال الجوارح.

وناسب أحوال زليخا والنسوة أحوال الصوفية.

وأيضًا طريق يعقوب عليه السلام طريق البقاء لبقاء العقل والعلم والصبر كطريق أهل الشرع.

وطريق زليخا والنسوة طريق الفناء لزول العقل والعلم والصبر كطريق الصوفية.

حكى الله تعالى أحوال يعقوب عليه السلام من الأول إلى الآخر من الوصال ثم الفراق ثم الوصال، ولم يذكر من النساء إلا الملامة هنا وفى مجلس الملك بقوله: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ عيه السلام ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ بقولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا

عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وبقول زليخا: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

ثم قطع الكلام عن ذكرهن، فدل على أن الأحب عند الله تعالى أحوال يعقوب عليه السلام المقرونة بالسلامة وهى مثال لأحوال أهل الشرع، وأما أحوال النساء فليست بتلك المرتبة لأنها مقرونة باللوم.

فالواجب على العاقل التدرب فى الأعمال الشرعية وملازمتها والمجانبة عما يدخله فى اللوم من الأعمال التى تنشأ من أحوال القلب كالدور والرقص وشطحات الصوفية وإن كانت أحوالهم سنية صادقة عن الحب الشديد وإدمان الذكر والفكر فالإشارة إلى أن أرباب الأحوال يجب عليهم الاجتهاد فى دفع الأفعال المذمومة فى الشرع والأقوال الباطلة أشد الاجتهاد حتى لا يدخلوا فى اللوم.

كما قال صاحب الشرع المطهر ﷺ: «اللهم إنى أسألك شوقًا إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»[1].

فالضراء فى البدن والفتنة فى الدين.

جعلنا الله وإياكم من الكاملين فى اليقين والواصلين إلى العين من غير ضراء مضلة ولا فتنة آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) حديث: (اللهم إنى أسألك شوقًا إلى لقائك فى غير ضرَّاء مضرّة، ولا فتنة مضلة...) وعن أم الدرداء قال كان فضالة بن عبيد يقول: اللهم إنى أسألك الرضا بالقضاء والقدر وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وزعم أنها دعوات كان يدعو بها رسول الله ﷺ، رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ورجالهما ثقات، وعن السائب الثقفى قال كنت عند عمار وكان يدعو بدعاء فى صلاته فأتاه رجل فقال له عمار: قل؟ اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرًا لى، واقبضنى إذا علمت الوفاة خيرًا لى، اللهم إنى أسألك الخشية فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر، وأسألك الرضا بالقضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك شوقًا إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنى بزينة الإيمان واجعلنى من الهداة المهتدين، ثم قال: ألا أعلمك كلمات هن أحسن منهن، كأنه يرفعهن إلى النبى ﷺ، قال: إذا أخذت مضجعك من الليل فقل اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، آمنت بكتابك المنزل ونبيك والجواب إن نفسى نفسٌ خلقتها لك محياها ولك مماتها، فإن أمتها فارحمها وإن أخرتها فاحفظها بحفظ الإيمان. رواه النسائى باختصار ورواه أبو يعلى ورجاله ثقات إلا أن عطاء بن السائب اختلط. انظر: ابن حجر الهيثمى: مجمع الزوائد: ١٠/ ١٧٧.

مجلس في:

بيان دخول فتيين السجن مع يوسف عليه السلام وتعبيره منامهما وإرشادهما ودعوتهما إلى التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان دخول فتيين السجن مع يوسف عليه السلام وتعبير منامهما وإرشادهما ودعوتهما إلى التوحيد وغير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾[1] مع يوسف - عليه السلام - مُقارنًا دخولهما دخوله.

﴿السِّجْنَ﴾ فى الزمان فإن أصل (مع) ظرف، وقد يستعمل للحال ومعناه مصاحبة فاعله، وهو هنا.

﴿فَتَيَانِ﴾ مدخوله وهو هنا ضمير يوسف - عليه السلام - فى الفعل المسند إلى الفاعل وهو دخل هنا فى الزمان بأن يكون تعلقه إلى فاعله وتعلقه إلى ما أضيف إليه

---

(١) انظر الآيات من الآية رقم (٣٦) إلى الآية رقم (٤٢) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

(مع) فى زمان واحد ولا يرد عليه قوله تعالى ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤) فإن (مع) فى هذه الآية قيد للمفعول بمعنى أسلمت لله مع سليمان، أى: أسلمت لله ولرسوله، وقدم لأن قوم بلقيس[1] كانوا يعرفون الله ولكن يشركون به، ولا يعرفون سليمان فقدم للاهتمام به.

وقيل: المعنى مع وصول دعوة سليمان عليه السلام السجن فتيان، وتقديم الحال وهى لفظة معه لتنكير الفاعل ذى الحال، وتقديم المفعول للاهتمام بشأن يوسف ـ عليه السلام ـ.

ذكر فى التيسير: أن مع هنا بمعنى بعد كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٦).

فعلى هذا يكون دخولهما بعد دخول يوسف ـ عليه السلام ـ وهذان الفتيان كانا عبدين للملك الأكبر إذ ذاك بمصر وهو «ريان بن الوليد» العملاقى[2] فرعون عصره بقرينة قوله: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ (يوسف: ٤١) وقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢).

---

(١) (بلقيس): بلقيس ملكة سبأ التى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، قال ابن مكى: الأجود والأكثر كسر الباء من بلقيس وقيل بفتحها، قال فى تاريخ دمشق: هى بلقيس بنت شرحبيل، قال: وقيل: «بلقس» بغير ياء، وقال ويقال «تلمص» مشددة الميم من ولد صيفى بن زرعة بن عفير ذكر نسبها متصلا إلى أيمن بن الهميسع بن الحمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ملكة سبأ قال: بلغنى أنها ملكت اليمن تسع سنين ثم كانت خليفة عليها من قبل سليمان بن داود، عليه السلام، أربع سنين، ثم روى بإسناده أن سليمان تزوجها، وعن قتادة قال: ذكر لنا أن ملكة سبأ كانت ملكة ظاهراً كانت فى بيت مملكة يقال لها: بلقيس بنت شرحبيل، ثم هلك ملكها فملكها قومها، وبإسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال كان أحد أبوى بلقيس جنيا، وعن الحسن أنه أنكر هذا وقال لا يتوالدون يعنى أن المرأة من الإنس لا تلد من الجن. انظر: النووى، تهذيب الأسماء: ٢/ ٦٠١.

(٢) الفرعون أيام نبى الله (يوسف) (عليه السلام) هو: (الرَّيان بن الوليد العملاقى) كما فى كثير من الكتب، وتذكر بعض كتب التاريخ اسمه (خيان) أمَّا الفتيان فكانا غلامين للملك أحدهما كان خبازاً، وصاحب طعامه، والآخر ساقيه وصاحب شربه (كما ذكرت الآيات فى ذلك)، فلما غضب عليهما الملك لتورطهما فى مؤامرة وضع السُّمّ له دخلا السجن، وناسب ذلك أن يوسف (عليه السلام) دخل فوجدهما لتكون قصته معهما، فقد ذُكِر: أن جماعة من هؤلاء المعترضين على حكم الملك الذى هو من الهكسوس، استمالوا الخباز، والساقى وقدّموا لهما المال على أن يضعا السُّمَّ فى طعام الملك وشرابه ـ فأجابا لهم ذلك الأمر، ثم إن الساقى =

فعلم انتسابهما إلى الملك فى الجملة فإنهما بقصد سم الملك فأدخلا السجن.

روى أن أهل مصر رسموا الرشوة لهذين على أن يعطى السم للملك وكان أحدهما شرابيه، والآخر خبازه فأبى الشرابى وأخذ الطعامى، فعند حضور الطعام المسموم قال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للشرابى: اشرب شرابك، فشرب فلم يضره، وقال للطعامى: كل، فأبى وأعطى منه هرة فماتت فأمر بهما إلى السجن، فلما دخلا السجن وجدا يوسف ـ عليه السلام ـ هناك وكان ـ عليه السلام ـ يعقوب المرضى ويقوم عليهم مما فى ذات يده وعلى سائر أهل السجن ويبشرهم ويقول لأهل السجن: أبشروا اصبروا، ويعلمهم ويذكرهم ويعبر رؤياهم ويوسع على من ضاق مكانه ويجمع للمُحتاجين ومع ذلك كان يعبد ربه آناء الليل وأطراف النهار وكان أهل السجن يقولون: قد بشر فتاه بقدمك وذهبت أحزاننا فمن أنت يا فتى، فقال: أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن نبى الله إسحق بن خليل الله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال السجان: يا فتى لو قدرت لأخرجتك لكى أواسيك، فأى موضع من السجن شئت اسكن فيه، فكان السجان يواسيه.

فاتفق أن رأى الفتيان شرابى الملك وخَبَّازه.

أى: رآهما يطعمه فقصاهما عليه طلبًا للتعبير على ما قال تعالى:

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ أى: شرابى الملك الذى يتولى شرابه لأن رؤيا كل أحد غالبًا تناسب حرفته.

= ندم فرجع عن ذلك دون أن يخبر صاحبه وقبل الخَبَّاز الرشوة ووضع السم فى طعام الملك، فلما حضرا بين الملك ليقدما الطعام والشراب صاح الساقى قائلا: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، فقال الخباز: لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم، فأمر الملك الساقى بالشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز: كل من طعامك فأبى فأطعم منه دابة فهلكت، فأمر الملك بحبسهما هما الاثنين لحين التحقيق فى المؤامرة والوصول إلى حكم بشأنهما، فكان معهما نبى الله (يوسف) عليه السلام فقال: أمَّا أحدكما (فيسقى ربه خمرًا) أى: سيعود لوظيفته فى الشرب عند الملك، ولذلك قال له نبى الله يوسف (عندما تعود للعمل اذكرنى عند ربك، أى عند الملك، فأنساه الشيطان ذلك حتى أذن الله لهم فأرسل للملك الحلم، ليطلبوا من يفسره، فيذكر الساقى نبى الله (يوسف) عليه السلام للملك، فيعيده من السجن مرة أخرى، أمَّا الخباز فقال فيه ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ دلالة هلاكه وقتله بيد الملك. انظر: دكتور رشدى البدراوى: قصص الأنبياء والتاريخ ٣/ ٤٧٦.

﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أى فى المنام بدلالة قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾.

﴿أَعْصِرُ﴾ وصيغة المضارع فى الرؤية والعصر لحكاية الحال الماضية.

﴿خَمْرًا﴾ أى: عنبًا تسمية للشىء باسم ما يؤول إليه.

وقيل: فى بعض لغات العرب وهى لغة عمان الخمر هو العنب.

﴿وَقَالَ الآخَرُ﴾ أى: الخباز.

﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ فى المنام.

﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

وتفصيل المنامين:

قال الشرابى: إنى رأيت كأنى فى حديقة بأصل كرمة عليها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من العنب فأخذت العناقيد فعصرتها فى كأس الملك.

وقال الطعامى: رأيت كأنى خرجت من مطبخ الملك وعلى رأسى ثلاث سلال من الخبز والأطعمة فأكلته سباع الطير، ثم قالا:

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أى بتأويل ما رأيناه.

وإفراد الضمير بهذا التأويل لأنه فى مكان ذلك لأن الشائع فى المتعدد الإشارة إليه بذلك كما فى قوله تعالى: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة: ٦٨) فوضع الضمير موضعه.

كما فى قول «رؤبة»[١]:

* كأنه فى الجلد توليع البهق *

ثم علّلا سؤالهما بقولهما:

﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ رؤية مستمرة.

﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المجودين تعبير المنامات لأهل السجن، أو من المنعمين على أهل السجن بالإنعامات المتكثرة فإن كان لك يد فى التعبير فأحسن علينا بتعبير ما رأينا، أو من المحسنين فى الأعمال والعبادات الذين هم مظان الكرامات.

ومنها التعبير للمنامات فعبر منامنا.

أو من العلماء مطلقًا فأعلمنا التعبير كذا قيل.

---

(١) (رؤبة) تقدمت ترجمته.

لكن لا يخفى بعده فلما قال ذلك واستفتياه فى المنام ورأى ـ عليه السلام ـ إقبالهما عليه وحسن ظنهما به افترض ـ عليه السلام ـ فى الدعوة إلى التوحيد الذى هو الأهم لهما من التعبير فتخلص إلى الدعوة والتخلص أن يؤتى بكلام بين كلامين متباينين له مناسبة لهما فيخرج من أحدهما إلى الآخر بتوسله.

وهنا الاستغناء فى التعبير للدعوة إلى التوحيد فجاء ـ عليه السلام ـ بدعوى علم الغيب التى تناسب أيضًا الدعوة إلى الحق كما قال الله ـ تعالى ـ قال يوسف:

﴿لا يَأْتِيكُمَا﴾ فى الليل والنهار.

﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ من بيوتكما أو بيوت أصدقائكما أو من عند الملك.

﴿إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ ببيان ماهيته وكيفيته ولونه ونفعه وضرره فإنهما كانا يخافان السم من الملك، والتأويل بيان المشكل فذكر هنا إما مشاكلة لما مر فى قولهما أو استعارة.

﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ فقالا: لعلك تعرف بالتكهن، أى بخبر الجن أو بالتنجيم، أى بدلالة النجوم فقال: ﴿ذَلِكُمَا﴾ أى العلم بالغيب.

﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بوحيه إلىَّ فادعى النبوة لأن الوحى لا ينفك عنها وأظهر المعجز وهى علم الغيب فقالا ذلك العلم من أين لك؟ أجاب بقوله:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ أى؟ ولم أتعرض لأن الترك كما يكون بعد الدخول ـ وهو الشائع ـ يكون بعد الدخول.

﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ هم أهل مصر.

﴿لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أى إيمانًا معتدًا به لأنهم مشركون.

﴿وَهُم بِالآخِرَةِ﴾ قدم رعاية للفاصلة.

﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ كررهم وقدم ولم يجعل تأكيدًا للمستتر فى كافرون ليدل على الاختصاص بالتقدم كقولك: أنا ساع فى حاجتك، أى لا غيرى.

وليدل على تقرير الحكم بالتكرير وأدمج فيه بأن كفرهم بالآخرة تسبب لإدخاله السجن بعد ظهور الآيات.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ صرح بآبائه لتقوية داعى الاتباع لأن صاحب المعجزة إذا كان من بيت النبوة قوى دواعى اقتدائه.

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ جديه، وإطلاق الأب عليهما بالتغليب.

﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ أبيه، ثم بين ملة آبائه على طريقة الاستئناف بقوله:

﴿ مَا كَانَ ﴾ ما صح وما استقام ﴿ لَنَا ﴾ معشر الأنبياء ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ سماوى كنفوس الكواكب والملائكة، أو أرضى كالأنبياء والأولياء والهياكل الموضوعة لهم، ثم بين أن عدم الإشراك أى التوحيد من أين حصل لهم فقال.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى عدم الإشراك والتوحيد ناشئ.

﴿ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ وإحسانه علينا معشر الأنبياء بالوحى والإرسال.

﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ المبعوث إليهم بهداية الأنبياء، وإرشادهم وتنبيههم.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ أعاده معرفة لئلا يدخل الأنبياء فيهم إذا أضمر.

﴿ لا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة بعث الأنبياء إليهم وهدايتهم وإرشادهم، أى لا يقرون بتلك النعمة ولا يشكرونها بالاعتقاد والعمل.

ويجوز أن يكون المراد بالفضل نصيب الأدلة فى الأنفس والآفاق وذلك عام للأنبياء وغيرهم.

وأن يكون المراد بعدم الشكر عدم النظر فيها ثم ضرب الصديق لهما مثلاً يقرب المقصود من العقل فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أى: يا صاحبى فما السحن، فحذف ياء المتكلم وأضيف إلى المفعول فيه للتوسع وأجراه مجرى المفعول به كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، وقيل: المعنى ياساكنى السجن، كقوله أصحاب الجنة وأصحاب النار لسكانهما.

﴿ أَأَرْبَابٌ ﴾ أى سادات.

﴿ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ فى العدد والأخلاق والأعمال.

﴿ خَيْرٌ أَمِ ﴾ رب سيد واحد لا يشاركه أخد فى ملكه وفعله.

«قهار» غالب على كل أحد فوضع موضع الرب المذكور كلمة «الله» لأن الرب بهذه الصفة ليس إلا الله الواحد لوجوب وجوده مكان جميعى ما عداه.

﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لأن كل ما سواه مخلوق له فيقدر على نفعه وخيره ثم بين على الاستئناف عدم استحقاق آلهتهم للألوهية عقلاً بقوله:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله لأنهم كانوا مشركين.

﴿إِلاَّ أَسْمَاءً﴾ هى لفظة الآلهة ليس تحتها مسمياتها أى: معنى الألوهية لعدم قدرتهم استقلالاً على شىء أصلاً، وإما كونهم أسبابًا وآلات فلا تدل على الألوهية كالفأس، والمنشار، والسكين.

﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من عند أنفسكم مكابرة بدون دلالة العقل ولا شرعًا إذ لا دليل شرعيًا وسمعيًا أيضًا لقوله:

﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أى بألوهيات.

﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة سمعية قاطعة.

﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ فى أمر العبادة و الدين.

﴿إِلاَّ لِلَّهِ﴾ ثم بين على الاستئناف بقوله:

﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ذلك التوحيد الدين القيم الذى يدل عليه العقل والنقل.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ من الكفرة.

﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيتركونه ويأخذون بغيره.

ثم شرع فى الجواب بعد بيان الأهم وهو الدعوة إلى التوحيد عما استغنيا عنه وهو تعبير منامهما فأدمج فيه أن الواجب على كل عالم الاقتداء بالصديق وغيره من الأنبياء بأن يبينوا إذا جاءهم المستفتون دينهم ثم يجيبون عما استفتوا عنه فهذا ديدن الأنبياء والصلحاء، فقال الصديق فى بيان تعبير منامهما:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ أى الشرابى.

﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أى: الملك ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقى من قبل وتفصيله قال ثلاثة أيام والكرمة حسن حالك وإقبال دولتك فبعد الثلاثة يخرجك الملك فيعيد إلى الأولى.

﴿وَأَمَّا الآخَرُ﴾ أى: الخباز الطعامى، فبعْد ثلاث ليال السلال يخرج.

﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ أم دماغه ثم قرر وآكد أمر التعبير بقوله:

﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

والمراد بالأمر عاقبة منامهما نجاة أحدهما وهلاك الآخر فباعتبار العاقبة أفرد الأمر واستفتائهما وإن فيما رأيا فى الظاهر، لكن نزل ما رأيا من العصر وأكل الطير منزلة مآلها وما يدلان عليه وهو النجاة والهلاك، وكأنهما استفتيا عن النجاة والهلاك، قال يوسف عليه السلام:

﴿لِلَّذِي﴾ أى للشرابى الذى ﴿ظَنَّ﴾ يوسف عليه السلام أى أيقن وعلم كقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٠).

﴿أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ أو الشرابى الذى ظن ذلك الشرابى أنه ظن نفسه ناج والظن بمعنى اليقين أيضًا، إن آمنا به وبمعنى التخمين والظن إن لم يؤمنا به بل أحسن به الظن.

وما قيل على تقدير كون الظان يوسف يجوز أن يكون بما فى علم التعبير من ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وقوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ بأنى مظلوم من جهة إخوتى ببيعهم إياى ومن جهة امرأة العزيز سجنها إياى بعدما رأوا الآيات.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى: صار قول يوسف ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ سببًا لإنساء الشيطان الشرابى ذكر ربه أى: ذكر يوسف ـ عليه السلام ـ عند ربه أو لربه.

والإضافة لأدنى الملابسة لأن المصدر لا يضاف إلا إلى الفاعل أو المفعول، ورب الشرابى ليس واحد منهما لذكر، لكن المعنى ما سمعت، فحذف عند أو اللام وأضيف لهذه الملابسة، ورجع الضمير فى أنساه أى البارز المفعول إلى الشرابى خير من إرجاعه إلى يوسف ـ عليه السلام ـ على ما قيل من أن الشيطان أنسا يوسف ذكر الله فلذا قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لعصمة يوسف ـ عليه السلام ـ وكون الشرابى من خدم الملك الكافر وقتئذ ولقوله فيما سيأتى ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

والإنساء إزالة العلم عن القلب ولا يقدر الشيطان عليها وإلا زال الإيمان وجميع العلوم عن قلوب المؤمنين.

فالمراد وسوس إلى الشرابى وأشغله بأشياء من أموره فصارت تلك الوسوسة والإشغال سببًا لإزالة الله ذكر يوسف ـ عليه السلام ـ عن قلبه كلمة خفية يدل عليه: «فلبث يوسف» عليه السلام بسبب الإنساء المذكور المتسبب عن قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع من البضع أى القطع بمعنى القطعة أى لبس قطعة من الزمان وهى السنون بين ثلاث وبين تسع.

وقيل: هنا سبع سنين وظاهر القرآن يدل على أنه ما لبث فيه إلا هذا البضع من السنين أى السبع.

وقيل: لبث فى السجن خمسًا قبل قوله المذكور وسبعًا بعده فصار اثنى عشر.

والاستعانة بغير الله بأن يعتقد أن الخالق والفاعل والمؤثر هو الله تعالى لكن يستعين بغيره كالاستعانة بالعلم والناس جائزة فى الشرع وإن كان بالكافر كما فى دفع الظلم وإطفاء أو الإنجاء من الغرق لكن «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[١].

فما كان يليق بمنصب نبوة يوسف[٢] ـ عليه السلام ـ خصوصًا عندما ادعى فيما سبق أنه على ملة إبراهيم وهو حين ألقى فى النار قال جبريل ـ عليه السلام ـ ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

وقد قال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩).

وقد قال: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ (يوسف: ٣٨).

أن يستعين بالساقى وربه.

وقال فى تفسير التيسير:

روى أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتاه فى السجن فلما رآه يوسف ـ عليه السلام ـ عرفه فقال: يا أخا المنذرين ما لى أراك فى منزل الخطَّائين، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك: أما استحييت منى حين استعنت بالآدميين فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين، قال يوسف ـ عليه السلام ـ وهو بعد ذلك عنى راض؟ قال: نعم، قال: أنا لا أبالها.

---

(١) (حسنات الأبرار سيئات المقربين): هو من كلام أبى سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر فى ترجمته، وهو من كبار الصوفية، مات فى سنة مائتين وثمانين، وعده بعضهم حديثا وليس كذلك، وقال النجم رواه ابن عساكر أيضا عن أبى سعيد الخزاز من قوله، وحكى عن ذى النون وعزاه الزركشى فى لقطته للجنيد، وقال شيخ الإسلام فى شرحها الفرق بين الأبرار والمقربين: أن المقربين هم الذين أخذوا عن حظوظهم وإرادتهم واستعملوا فى القيام بحقوق مولاهم عبودية وطلبًا لرضاه، وإن الأبرار هم الذين بقوا مع حظوظهم وإرادتهم وأقيموا فى الأعمال الصالحة ومقامات اليقين ليجزوا على مجاهدتهم برفع الدرجات. انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ٢/ ١٢٢ الحديث رقم (١١٣٧).

(٢) هذه جرأة على الأنبياء لا تصح من عالم مثله ومعلوم أن الأنبياء معصومون ولكن الله تعالى يفعل بهم ذلك لنتعلم منهم ما يجب وما لا يجب. (المحقق).

وقال كعب الأحبار[١]: قال جبريل ـ عليه السلام ـ إن الله يقول: من خلقك؟ قال: الله تعالى، فمن ألبثك فى البئر؟ قال الله: فمن نجاك من كرب البئر، قال: الله، قال: فمن علمك تأويل الرؤيا؟ قال: الله، قال: فلم استعنت بآدمى مثلك.

وقال الشيخ أبو الحسين محمد بن يحيى الساعدى[٢] فى كتاب (عصمة الأنبياء)[٣]:

قال بعض الناس: إنه استغاث بغير الله فعوتب ببقائه فى السجن وهذا وحشى من الكلام.

وقال الإمام أبو منصور ـ رحمه الله ـ : إنه صلوات الله وسلامه عليه لم يستعن بغير الله وإنما استعمال الأسباب كاستعمال العبد فى معاشر الأسباب التى هو بها متعبد من نحو المكاسب وأخذ الأسلحة، وسائر ما يعمل المرء بإمساك تلك الأسباب فهو وإن أمره بالذكر عند ربه يعنى سيده إنما رآه سببًا لخروجه من السجن وهو معتقد بأن الله هو المخرج لكن ربما يجرى على الذى ملكه فلذلك قاله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ولا بأس بهذا.

والثانى: أنه أظهر رسالته إليه رجاء إجابة منه حتى إذا أجاب هو أجاب أتباعه ولا تكون رسالته مقصورة على أصحاب السجن، بل تكون نافذة فى القوم كلهم فربما وقع عند يوسف ـ عليه السلام ـ أن سجنه من غير علم الملك فإذا أخبر بحاله أخرجه ليس هذا منه استعانة بغير الله ولكنه اجتهاد لصالح العيش كسائر المكاسب.

وقال الشاعرى:

ويحتمل قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أى اذكر علمى الذى علمنى الله من تأويل الأحاديث، وحكم الرؤيا له لعله يرغب فيخرجه من السجن حتى يتخلص وينجو شفقة منه عليه إذ هو كان عالمًا بالفراعنة المتقدمين كيف هلكوا بصنعهم على الأنبياء، فأحب

---

(١) (كعب الأحبار) تقدمت ترجمته.

(٢) الشيخ أبو الحسين محمد بن يحيى الشاعرى: لم أقف عليه.

(٣) كتاب (عصمة الأنبياء) تأليف فخر الدين الرازى، أوله: (الحمد لله المتعالى بجلال أحديته عن مسارح الخواطر... إلخ، وهو: مختصر... مرتب: على فصول...: حاجى خليفة: كشف الظنون: ٢/ ١١٤١.

أن يقف على حاله فيخرجه ليزول محنته فلا يهلك كما هلك من تقدمه ممن تعدى على الأنبياء.

ودليله أنه لا يجوز صرف الآية إلى استعانة يوسف - عليه السلام - بغير الله - تعالى - إذ لو كان هكذا لم يتكلف الشيطان إنساءه والاستعانة بغير الله من غير رؤية تسبيب الله إياه شرك والشيطان يعين على إقامة الشرك فلما أنساه علم أنه يذكره بالتوحيد ويجعله رسولاً إلى الملك بإخباره عن دينه الخالص لله، وأحب الشيطان أن لا يعلم الملك من حاله ودينه فيجيبه فأنساه وحقيقة الإنساء من الله - تعالى - إذ هو المقدر لكن أضاف إلى الشيطان على ما قلنا من إضافة القبائح إلى الشيطان لتكلفه فى تحصيلها.

وقد يضاف إلى المتكلف للشىء وإن لم يكن هو المحصل فى الحقيقة.

وما روى فى الخبر أن جبريل - عليه السلام - قال له فى السجن: يقول الله: أما استحييته حين استعنت بغيرى فقد حكمت عليك بالسجن بضع سنين، فقال يوسف - عليه السلام -: يا جبريل أهو عنى راض؟ فقال: نعم، فقال: ما أبالى بالسجن بعد أن يكون الله عنى راضيًا.

وروى عن النبى ﷺ «أخى يوسف - عليه السلام - لو لم يستعن بصاحب السجن ما أغلق باب فسجن ساعة»[1].

---

(١) حديث: (أخى يوسف - عليه السلام - لو لم يستعن بصاحب السجن) رحم الله أخى يوسف لو أنا كنت محبوسًا تلك المدة وأتانى الرسول يدعونى إلى الملك بعد طول الحبس لأسرعت الإجابة أى إجابة، رسول الملك الذى أخبر الله عنه بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ حين قال له ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى سيدك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ إلى آخر الآية، وهذا من حسن تواضعه وثنائه على يوسف عليه السلام، كما تقرر، لا أنه كان عليه إثم أو تقصير لو كان محل يوسف عليه السلام لخرج مع الرسول، وإنما أراد: لم يكن يستثقل محنة الله فيعجل، بل كان صابرًا محتسبًا مع طول أمد الحبس عليه تعليمًا لنا وتأديبا، قال فى الكشاف: إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما سجن فيه، لئلا يتسلق له الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلونه سلمًا إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خلد فى الحبس سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير، فإن قيل: إنما هذا على جهة المدح ليوسف، فما باله يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ قلنا: إنما أخذ لنفسه وجها آخر، من أن الرأى وجه آخر أى لو كنت أنا لبادرت الخروج ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك، وذلك أن هذه النقيصة =

إن صحت هذه الأخبار فإنا لا نشهد عليها بصحتها ليس فى القرآن شاهد لهذه الأخبار، وإن صحت فمعناه أنه عوتب بالتقصير فى الدعوة كان الكلام فى دعوته تقصيراً لم يقف عليه الذى نجا من السجن وتوهم أنه مستعين لسيده وإن كان هو حمل إياه رسالته إليه فى التوحيد فعوتب أنك لم تشرح عليه الكلام فقصرت الدعوة لأنك أخطأت موقعها.

دليله قول جبريل: بأن الله عنك راض، لو كان فى باطنه، وظاهره مستعيناً بغير الله لم يكن الله عنه راضياً.

وأخبر النبى ـ ﷺ ـ أما يوسف ـ عليه السلام ـ حيث حمل الناجى من السجن دعوته حملها غير مكشوفة حتى فهم منه الناجى الاستعانة لسيده لتخليصه وإخراجه فعوتب بقصور الدعوة لا للخطأ من جهة الاستعانة.

ومعنى قوله ـ عليه السلام ـ (لو لم يستعن) يعنى: لو لم يتكلم بكلمة الاستعانة وإن لم يكن مستعيناً فى الحقيقة إذ الأنبياء كانوا مطالبين فضل الأعمال وأشرفها وأطيب الكلام وأحلاه.

والله الموفق. انتهى.

= والنوازل إنما هى معرضة ليقتدى الناس بها إلى يوم القيامة، فأراد عليه السلام حمل الناس على الأحزم من الأمور دون التعمق فى مثل هذه النازلة، التارك فرصة الخروج من ذلك السجن بما يفتح له ذلك من البقاء فى سجنه، وإن كان يوسف أمن من ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأمن ذلك، وقال بعضهم: خاف يوسف أن يخرج من السجن فيناله من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً فيراه الناس بتلك المنزلة ويقولون هذا الذى راود امرأة مولاه فأراد بيان براءته وتحقيق منزلته.. رواه أحمد بن حنبل فى كتاب الزهد وابن المنذر عن الحسن البصرى مرسلا.

مجلس في:

بيان رؤيا الملك وتعبير يوسف ـ عليه السلام ـ له إياها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس في بيان رؤيا الملك وتعبير يوسف ـ عليه السلام ـ له إياها[1].

قال في التيسير: قال الإمام القشيري:

كان ابتداء ابتلاء يوسف ـ عليه السلام ـ في رؤيا رآها وأظهرها وجعل الله سبب نجاته أيضًا في رؤيا رآها الملك وأظهرها ليعلم الجميع أن الله يفعل ما يريد.

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ :

أفرد يوسف ـ عليه السلام ـ من بين أشكاله بشيئين: بحسن الخلق وبزيادة العلم، فصار مجاله سبب بلائه وصار علمه نجاته، ليعلم مزية العلم على غيره.

---

(١) الآيات التي ذكرها من الآية رقم (٤٣) إلى الآية رقم (٥٧) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ولهذا قيل: العلم يعطى وإن كان يبطئ.

وروى أنه لما انتهت مدة اللبث فى السجن ضاق عليه وقته ليلة فبكى ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهى أنت الرب، وأنا العبد وأنت الخالق وأنا المخلوق وأنت العزيز وأنا الذليل أسألك بحق إبراهيم خليلك، وبحق إسحق نبيك وبحق يعقوب إسرائيلك أن تعيننى وترحمنى يا أرحم الراحمين، فإذا هو بشاب جميل نقى الثياب بين يديه يقول له: السلام عليك يا يوسف، فقال: من أنت ومن أدخلك السجن فوالله إن جداره تحصين وإذبابه لوشق وليس ينبغى لمثلك أن يحبس، قال: أنا الروح الأمين ورسول رب العالمين، قال: يا أطيب الطيبين، ورئيس المقربين، ورسول رب العالمين، ما أدخلك مدخل المذنبين الخاطئين، وقال: كيف يكون منزل الخاطئين وأنت فيها يا أطهر الطاهرين وقرة عين الصديقين، قال يوسف ـ عليه السلام ـ كيف تشبهنى الصالحين وتعدنى من الصديقين وقد أدخلت مدخل المذنبين وشبهت بالظالمين وحبست فى سجن المجرمين، قال جبريل ـ عليه السلام ـ بحبك رب العالمين وصبرك على كيد المصريين وسمّاك الله من الصديقين وألحقك بآبائك الصالحين وأوجب لك ثواب الصابرين، قال: هل تعرف حال أبى وإخوتى؟ قال: أما أبوك فباك محزون، وأما إخوتك، فخجلون نادمون، قال: وما بلغ من حزن أبى؟ قال: مائة ثكلى، وبلغ من صبره على ذلك ما استحق به أجر مائة شهيد وهذا وقت فك عتقك وزوال رقك، ونشر رحمتك وتصديق رؤياك، ويهب الله تعالى لك مصر وعزها، ويلقى الله ـ تعالى ـ لك المودة فى قلوبهم ويزكيك ربك حتى يبلغك برحمته ما بلغ آباءك الصالحين.

ويرى الملك الرؤيا يفزع منها وتعبر رؤياه أنت عليه وأبشر أيها الصديق بأنك صفى الله وابن صفيّه وابن نبيّه وابن خليله.

وبين له تمام الروايات وتأويلها وانصرف عنه فلم يلبث يوسف ـ عليه السلام ـ فى السجن إلاّ ذلك اليوم فلما جن الليل، نام الملك فرأى فى تلك الليلة رؤيا فلما أصبح جمع ملأ عظيمًا من قومه فقصها عليهم فقال: إنى أرى سبع بقرات سمان وسبع عجاف فابتعلت العجاف السمان وأكلتها فلم تستبن فى بطونها شىء ورأيت سبع سنبلات يابسات على بين كيفية حالها فى بيان تعبير هذه الرؤيا إن شاء الله تعالى.

انتهى كلام التيسير.

وقال النيسابـورى: اعلم أن الله سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث مسكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ومطالعة اللوح المحفوظ إلا أن المانع لها عن ذلك فى اليقظة هو استعمـالها بتدبير البدن وما يرد عليـها من طريق الحواس وفى وقت النوم تقل تلك الشـواغل فتـقوى الـنفس على تلك المطالعـة فإذا وقـفت الروح على حـالة من تلك الأحوال، فـإن بقيت فى الخـيال كمـا شوهدت لم يحتج إلى الـتأويل، وإن نزلت آثار مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحانى إلى عالم الخـيال فهناك يفتقر إلى المعبر ثم منها مـا هى متسقـة منتظمة سهل على المـعبر الانتـقال إلى من تلك المتخـيلات إلى الحقائق الروحانيات.

ومنها ما يكون مختلطة مضطربة لا يضبط تحليلها وتركيبها تشويش وقع فى ترتيبها وتأليفهـا فهى المسماة بالأضـغاث وبالحقيقـة الأضغاث ما يكون مبـدأها تشويش القوة المتخـيلة لفساد وقع فى القوى البـدنية ولورود أمر غريب عليه مـن خارج لكن القسم المذكور قد بعد من الأضغاث من حيث إنها أعيت المعبرين عن تأويلها. انتهى.

قال الله تعـالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ ريان بن الوليد العملاقى فـرعون مصر فى زمن يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾ أى: فى المنام بقرينة قوله فيما بعد: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾.

وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية للاستغراب ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سمينة ويكون أيضًا جمع سمين، ككرام فى كريم وكريمـة، وهى ما كثر لحمه وشحمه فى الغاية وعدم كونها صفة سبع مثل سـبع عجاف، بل صفة المميز وهو بقرات ليكون تميز العدد بالنوع لأنه أكمل من التميز بالجنس.

والمقصود من التميز رفع الإبهام.

﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ صفة ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ وهى جمع عجفاء وقياسه عجف كأحمر حمراء وحمر، لكن حمل سمان حمل النقـيض لأنه من دأب العرب كحمل النظير على النظير والعجيفة غاية الهزال وإنما لم يضف سبع إلى عـجاف لأن بقرات حذفت اختصاراً كما عملت فيما قبل.

وكان عجـاف صفة بقرات فبـعد حذفها جـعل صفة للعدد إبقاء لـها على أصلها، وهى الوصفـية، وقولهم: ثلاثة فرسـان وأصحاب وركب بالإضـافة مع كونها أوصـافًا

فلجرى هذه الأوصاف مجرى الأسماء وعدم الاشتباه فإنها أوصاف الرجال بخلاف قولك: ثلاثة ضخام وغلاظ، الجرى مجرى الأسماء وللاشتباه.

وفى سبع عجاف وإن كان الاشتباه مندفعًا بما تقدم من ذكر البقرات لكن جرى عجاف مجرى الأسماء غير معلوم، فبقى على الوصفية، هذا إذا كان حذف بقرات للاختصاص فقط بدون إنابة العدد أو الوصف منابها.

فأما إذا أنيب العدد منابها فلا يجوز أيضًا الإضافة إلى عجاف لأن فيه شائبة إضافة الموصوف إلى الصفة.

وأما إذا أنيب الوصف منابها ففى عدم الإضافة نكته جليلة وهى أنه ورد فى الحديث القدسى: (سبقت رحمتى غضبى)[1].

فروعى ذلك السبق والغلبة فى جانب الرخاء وهو الرحمة فى المنام والتعبير، حيث ذكر العدد والتمييز والوصف له بقوله ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ وبقوله فى التعبير ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾.

وذكر فى جانب الشدة وهى الغضب العدد والوصف له وجعل ذكر الجنس وهو التمييز ملغى لأن المقصود الابتلاء بالشدة.

فقيل: سبع عجاف على التوصيف لأن ذكر الجنس غير ملتفت إليه.

وقيل: يأتى بعد ذلك سبع شداد بالتوصيف أيضًا، فطابق التعبير المعبر أشد الإطباق ولو أضيف لصار مثل قوله: ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ ولفاتت الإشارة إلى تلك النكتة الجليلة.

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ فذكر العدد والجنس والوصف له حتى صار نوعًا تكميلاً للتمييز.

﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ بالاقتصار على ذكر العدد والوصف له وهو معطوف على «سبع سنبلات خضر» فالتقدير وسبعًا أُخر يابسات وصفا للعدد على طبق سبع عجاف.

---

(١) حديث: (سبقت رحمتى غضبى): إن رحمتى تغلب غضبى، متفق عليه عن أبى هريرة رفعه أنه قال: (لما قضى الله) وفى لفظ لمسلم: (لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت) وفى لفظ (تغلب غضبى) ورواه مسلم من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ قال الله: (سبقت رحمتى غضبى) وفى لفظ لمسلم عن أبى هريرة (أن الله كتب كتابًا قبل أن أصحهما الخلق: إن رحمتى سبقت غضبى) انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ٢٦٣ الحديث رقم (٦٩٧).

ولا يجوز عطفه على «سنبلات خضر» لأنه يلزم التدافع سواء.

قيل: المختار فى العطف الانسحاب أو تكرير العامل لأن الاختلاف فى تقدير العامل وعدمه.

والمعنى على كلا التقديرين واحد فلو عطف على سنبلات لزم كون سنبلات خضر ويابس مجموعها سبعًا كقولهم: عندى سبعة رجال قيام وقعود، فالكل سبعة بعضهم قيام وبعضهم قعود.

ولفظة «أخر» تقتضى كون يابسات أخر فيكون المجموع أربعة عشر، لأن هذه اللفظة تدل على المغايرة والاشتراك فى السنبلية محققة مفروضة فليست المغايرة فيها والمغايرة فى الوصف منطوق القرآن فلا حاجة إلى ما يدل عليها فلم يبق إلا المغايرة فى العدد فأخر يدل عليها.

فعلى تقدير العطف على سنبلات لزم التدافع كقولهم: عندى سبعة رجال قيام وآخرين قعود، فالصواب آخرون ليكون عطفًا على سبعة فلفظة أخر عطف على سبع سنبلات ويكون المعنى سبعًا أخر يابسات.

قال الرضى: وأما الكلام فى عامل التوابع ففيه تفصيل أما الصفة والتأكيد وعطف البيان ففيها ثلاثة أقوال: قال سيبويه: العامل فيها هو العامل فى المتبوع.

وقال الأخفش[1]: العامل فيها معنوى كما فى المبتدأ والخبر وهو كونها تابعة.

وقال بعضهم: إن عامل الثانى مقدر من جنس الأول، ومذهب سيبويه أولى لأن المنسوب إلى المتبوع فى قصد المتكلم منسوب إليه مع تابعه، فإن المجىء فى جاءنى زيد الظريف، ليس فى قصده منسوبًا إلى زيد مطلقًا بل إلى زيد المقيد بقيد الظرافة، وكذا فى جاء فى العالم زيد، وجاءنى زيد نفسه، فلما انسجب على التابع حكم العالم المنسوب معنى حتى صار التابع والمتبوع معًا كمفرد منسوب إليه.

وكان الثانى هو الأول فى المعنى كان الأولى انسحاب عمل المنسوب عليهما معا تطبيقًا للفظ بالمعنى.

أما إذا قلت: جاءنى زيد، فالمنسوب إليه وإن كان الغلام مع زيد إلا أن الثانى ليس هو الأول معنى فلم يعمل العامل فيهما معًا وجعل العامل معنويًا.

---

(١) (الأخفش) تقدمت ترجمته.

كما ذهب الأخفش خلاف الظاهر إذا العامل المعنوى فى كلام العرب بالنسبة إلى اللفظ كالشاذ والنادر يحمل عليه المتنازع فيه.

وتقدير العامل خلاف الأصل أيضًا فلا يصار إلى الأمر الخفى إذا أمكن العمل بالظاهر الجلى، وأمَّا البدل فالأخفش والرمانى والفارس وأكثر المتأخرين أن العامل فيه مقدر من جنس الأول استدلالاً بالقياس والسماع فنحو قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ (الزخرف: ٣٣) الآية.

وغير ذلك من الآى والأشعار.

وأما القياس فلكونه مستقلا ومقصودًا بالذكر.

وكذا لم يشترط مطابقته للمبدل منه تعريفًا وتنكيرًا.

والجواب أن «لبيوتهم» الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور والعامل وهو «جعلنا» غير مكرر، وكذا فى غيره.

فإن قيل: لو لم يكن المجرور وحده بدلاً من المجرور ولم يتم هذا بدل الاشتمال لأن الجار والمجرور ليس بمشتمل على الجار والمجرور، بل البيت مشتمل على الكافر.

قلنا: [ـ][1] من اللام فائدة إلا التأكيد جاز لهم أن يجعلوه كالعدم ويسموه بدل الاشتمال نظرًا إلى المجرور، ولا يكرر فى اللفظ فى البدل من العوامل إلا حرف الجر لكونه كبعض حروف المجرور.

والجواب عن القياس أن استقلال الثانى وكونه مقصودًا يؤذنان بأن العامل هو الأول لا مقدرًا آخر لأن المتبوع إذن كمال قط فكان العامل لم يعمل فى الأول ولم يباشره بل عمل فى الثانى.

ومذهب سيبويه[2] والمبرد[3] والسيرافى[4] والزمخشرى[5] والمصنف: أن العامل فى البدل هو العامل فى المبدل منه إذ المتبوع فى حكم الطرح، فكان عامل الأول باشر الثانى.

---

(١) ما بين المعقوفتين (غير واضحة فى المخطوط).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) (المبرد) تقدمت ترجمته.

(٤) (السيرافى) تقدمت ترجمته.

(٥) (الزمخشرى) تقدمت ترجمته أول الكتاب.

هذا وستعرف فى باب عطف البيان أنه فى الحقيقة هو البدل فحكمه فيما ذكرنا حكم البدل وأما عطف النسق ففيه ثلاثة أقوال:

قال سيبويه: العامل فى المعطوف هو الأول بواسطة الحرف.

وقال الفارس[١] فى الإيضاح الشعرى وابن جنى[٢] فى سر الصناعة[٣]: إن العامل فى الثانى مقدر من جنس الأول كقولك: يا زيد وعمرو.

أقوال لا دليل فيه إذ علة البناء فى الثانى وقوعه مع الكاف كالمعطوف عليه مع عدم المانع من البناء كما كان فى: يا زيد والحارث، أعنى اللام وإنما كان اللام مانعًا لامتناع مجامعته بحرف النداء المقتضى للبناء فلما ارتفع المانع صار كان حرف النداء باشر التابع لا أن تقدر له حرفًا آخر.

واستدل أيضًا بقولهم: قيام زيد وعمرو.

---

(١) (الفارسى) فى كتاب (الإيضاح الشعرى) تقدمت ترجمته.

(٢) (ابن جنى): عثمان بن جنى، أبو الفتح الموصلى النحوى اللغوى، له كتب مصنفة فى علوم النحو أبدع فيها وأحسن، منها: التلقين، واللمع، والتعاقب فى العربية، وشرح القوافى، والمذكر والمؤنث، وسر الصناعة، والخصائص وغير ذلك، وكان يقول الشعر ويجيد نظمه، وأبوه جنى كان عبدًا روميًا مملوكا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدى الموصلى، أنشدنى يحيى ابن على التبريزى لعثمان بن جنى من قصيدة طويلة:

فــان أصــبح بـلا نـسـب فــعـلمى فى الورى نـسـبى

أولا: دعا النبى لهم كفى شرفًا دعاء نبى، سكن ابن جنى بغداد ودرس بها العلم إلى أن مات، وكانت وفاته ببغداد ـ على ما ذكر لى أحمد بن على بن التوزى ـ فى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من بنو سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. انظر: تاريخ بغداد: ١١/ ٣١١ رقم (٦١١١)، وانظر: سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٧.

(٣) كتاب (سر الصناعة أو سير الصناعة) لابن جنى أبى الفتح: عثمان، المتوفى: سنة ٣٩٢، اثنتين وتسعين وثلاثمائة فى: الحروف المفردة، وعليه حاشية لأبى العباس: أحمد بن محمد الإشبيلى المعروف بابن الحاج... المتوفى: سنة ٦٤٧هـ، سبع وأربعين وستمائة، قال ابن جنى: بعد الحمد هديت ـ أطال الله تعالى بقاءك ـ كتابًا يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها الواقعة فى كلام العرب وأتبع كلا منها: مما رويته على حذاق أصحابنا وحذوته على مقاييسهم، وأذكر فرق ما بين: الحرف والحركة وأين محل الحركة من الحرف؟ إلى غير ذلك... وأفرد لكل حرف منها: بابا... انظر: حاجى خليفة: كشف الظنون ٢/ ٩٨٨.

وقيل: العرض الواحد لا يقوم بمجلس.

والجــواب: أن القيام ههنــا ليس بعرض واحد بل هو مصدر، والـمصدر يصلح للقليل والكثير بلفظه واحد والمراد ههنا القيامان بقرينة قولك: وعمرو، كذا لا حجة له فى مقام زيد وعمرو، إذ هو متضمن للقيام الصالح للقليل والكثير.

ولو كان العامل مقدرًا لوجب تعدد الغلام فى: جاءنى غلام زيد وعمرو، هو متحد ولو كان معـنى كل شاة وسخلتهـا بدرهم كل شاة بدرهم وكل سخلتهـا بدرهم والمراد هما معًا بدرهم.

وأيضًا لم يجز: يا زيد والحـارث، ولم يجز: يا زيد قائمًا ولا عمـرو قاعدًا وليس زيد ولا عمرو ذاهبين.

إذا لا يجوز تقدير ما وليس بعد لا.

وأيضًا لم يجـز: زيد ضربت عمـرًا وأخاه، إذ يبـقى المبتـدأ بلا ضميـر مع كونه جملة.

وقلل بعضهم العـام حرف العطف بالنيابة وهو بعد لعدم لزومه لأحـد العسس كما هو حق العامل.

وفائدة الخـلاف فى هذا كله جواز الوقف على المـتبوع دون التـابع عند من قال: العامل فى الثـانى غير الأول وامتناعه عنـد من قال: العامل فيهـا هو الأول، هذا انتهى كلام الرضى.

﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ**﴾ أى الأشراف من العلماء والحكماء والكهنة والمنجمين.

﴿**أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ**﴾ أى أعطونى فتوى أى جوابًا جديدًا.

﴿**إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا**﴾ مفعول لقوله: ﴿**تَعْبُرُونَ**﴾ قدم لرعاية الفاصلة، واللام لتقوية العمل لأن تأخير الفعل يضعفه، وقيل: للبيان وفيه أنه يلزم كون البيان.

وقيل: ذكر منشأ السؤال.

وقيل: للرؤيا كقول الشاعر:

داهيــة الدهر وصـــمــاء الغـبــر أنت لهـا أحــمــد من بين البــشــر

وتعبرون خـبر آخر أو حال و إلا ثبت عند الإثبات عـبر يعبر عبارة فـهو عابر دون عبر يعبر تعبيرًا فهو معبر، وعبر مأخوذ من العبر بالكسر وهو جانب النهر، فالعابر يعبر

من جانب النهر إلى جانب آخر منه، فكذا فى الرؤيا يعبر أى المعبر من الصورة الخيالية المشاهدة فى النوم على ما مر من النيسابورى، وفى أول السورة من البيضاوى إلى المعانى النفسانية الحقيقية.

﴿قَالُوا﴾ أى الملأ: هذه الرؤيا.

﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ والأضغاث جمع ضِغث بالكسر وهو الحزمة من الحشيش تجمع أنواعًا مختلفة منه فاستعيرت للمنامات الكاذبة.

هذا على تقدير الأحلام عامة فى الصادقة والكاذبة والإضافة بمعنى من لأنهما تصادقا فى الرؤيا الكاذبة وتفارقا فى الحشيش والرؤيا الصادقة فوجد شرط هذه الإضافة وهو العدم من وجه وقيل: الأحلام مختصة بالكاذبة لقوله ﷺ: (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان).

فالإضافة من قبيل: لجين الماء، هو الأصح.

وقيل: الإضافة على هذا أيضًا بمعنى من كما قيل: فى بهيمة الأنعام على وجه.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ﴾ أى الكاذبة لأن اللام للعهد المعهود الأضغاث منها على تقدير العموم أو الشيوع الأحلام فى الكاذبة على ما مر فى الحديث، على تقدير الخصوص، فكيف وضع الظاهر موضع الضمير لأن الظاهر على تقدير الخصوص، وما نحن بتأويلها للتنصيص على بطلانها.

﴿بِعَالِمِينَ﴾ أى لأنا ولا تأويلها ولا علم بها إذ هما للصادقة، فيكون من قبيل: على لاحب لا يهتدى بمنار، ولا اهتداء وقولهم: هذا قياسى مؤلف من مقدمتين وتصويرى هذه الرؤيا أضغاث أحلام وكل ما كان كذلك لا تأويل لها ولا علم بها فهذه كذلك.

وقيل: هما جوابان متباينان، وعذران مختلفان:

أحدهما: من جهة بالرأى أى رؤياك مختلطة أضغاث لغلبة بعض الأخلاط فيك أيها الملك فلا تغتم برؤياك تلك، وكان الملك مغتمّا غاية الاغتمام لظنه أن رؤياه تدل على خروج بعض الخوارج الضعيفة الحال كالبقرات العجاف على دولته السمينة القوية كالبقرات السمان فيهلكها وكان لذلك جمع الملأ واستفسر تعبير بالمنام فدفعوا بقولهم أضغاث أحلام هذا الوهم والظن بأن هذا الحلم وإن كان واحدًا لكنه فى البطلان كجمع

من المنامات الباطلة، ولاشتمالها على أشياء متعددة من البقرات والسنبلات كجمع منها، فلذا جمعوا الأضغاث، ثم بعد ذلك اعترفوا بقصورر علمهم وجاءوا بعذر من قبلهم بأنا لسنا أهل تأويل بل أصحاب تدبير لكن لا يلائم هذا الوجه المقام لأن الخطاب كان للإشراف من العلماء ولا يدل أيضًا على شدة الاحتياج ليوسف ـ عليه السلام ـ والمقصود ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ من الفتيين.

﴿وَادَّكَرَ﴾ حال بتقدير قد، ولا يجوز عطفه على (نجا) لأن الصلة يجب أن يكون معلوم الثبوت ولا علم للادكار إلى هذا الآن، لكن يجوز عطفه على قال لأن الواو لا يدل على الترتيب، فيجوز أن يدكر ثم يقول وادكر أصله اذتكر قلب الذال دالاً للتاء ثم التاء دالاً فأدغم.

﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ مدة طويلة، ظرف للادّكار فإنه بين يدى الملك وقال: أيها الملك إن فى السجن شابًا صالحًا عالمًا نبيًا كاملاً من أولاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ حبس بغير ذنب يعبر المنامات تعبيرًا ليس وراءه وله يد طولى فى هذا العلم وقد رأيت أنا وصاحبى الخباز منامين فأولهما لنا وخرج كما قال في التعبير، فإذا كان كذلك.

﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ آخذ التأويل من هذا الشاب الكامل.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إليه لأجىء بالتأويل من عنده فأرسلون، وقال الملك: إن جئتنى بتأويل هذا المنام وخلصتنى من الغم أقربك تقريبًا ليس وراءه، فجاء إلى السجن فدخل على يوسف ـ عليه السلام ـ فقال ﴿يُوسُفُ﴾ حذف حرف النداء للتقريب وتلطيف المحل.

﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ كثير الصدق الملازم له لأنه كان قد جربه ولم يجد له غير الصدق.

﴿أَفْتِنَا﴾ أجبنا ﴿فِى﴾ رؤيا ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ما غير نقطة من لفظ الملك إذ التعبير ينوط باللفظ ولما كان جرب صدقه وكان قد علم أنه لا ينفذ فى مجلس الصديق إلا الصدق ماحث الحاكم بالرجوع بل ذكره على الاحتمال لأنه يمكن أن يموت فى الطريق فلا يرجع إليهم خصوصًا إذا كان السجن خارج المدينة على ما قيل.

فلذا قال بكلمة الترجى ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ إلى أهل مجلس الملك أو أهل مصر.

وكان يحتمل إذا رجع إليهم وأخبرهم أن لا يفهموا التأويل أو فضله يوسف ـ عليه السلام ـ فلذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التأويل أو فضلك، وعلمك، وحالك، فلما دعى السائل الأدب حيث وصفه بوصف بليغ وهو السنة فى كل من رجع إلى عالم المهم، رأى يوسف ـ عليه السلام ـ أيضًا الكرم حيث لم يوبخه نسيانه مدة طويلة ولم يشترط الخروج على التأويل فحينئذ.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ خبر (حقيقى)[1] لأنه تأويل للرؤيا وبيان لما سيقع فلا يجوز غير الخبر.

وما قيل: إنه الأمر بقرينة قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾ مردود بما مر وبقوله فى قسيمه ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ فإنه لا يمكن اعتبار الأمر هنالك.

﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾ تدأبون ﴿دَأَبًا﴾ قرئ فى السبع بالتحريك والسكون أى: تجتهدون جهدًا بليغًا.

والجملة حال، وقيل: دائبين.

وقيل: أى على عادتكم المستمرة، ثم جاءت الجملة معترضة مصدرة بالفاء للاعتراض كقول الشاعر:

واعلم فعلم المرء ينفعُه أن سوف يأتى كل ما قُدرا

تعليمًا لتدبير إبقاء الحنطة خصوصًا فى أرض مصر فإنه لا ينفى حنطة سنتين إلا حيلة أخذا هذا التدبير من رؤيا سنبلات أى فى سنى الخصب ويابسات أى فى سنى القحط.

فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ فى سنى الخصب.

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ لئلا تأكله السوس.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ مقتصرًا على القوت.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ السبع للرخاء.

﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أى من سنى القحط.

---

(١) غير واضحة فى المخطوط.

﴿يَأْكُلْنَ﴾ أى يأكل أهلهن ومن فى هذه السنين، فالإسناد مجازى كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

﴿مَا قَدَّمْتُمْ﴾ بالتدبير المذكور وهو تركه فى سنبله.

﴿لَهُنَّ﴾ لأهلهن.

﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون بجهد جهيد واهتمام أكيد للبذر فى السنين الآتية بعد القحط.

﴿ثُمَّ يَأْتِى﴾ وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا وفيما قبل للتراخى الرتبى وهو كونه على خلاف المعتاد أو للزمان بالنسبة إلى أول تقدمه لا آخره، إذ لا فصل بينهما.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ أى: سنة، وتعبير التعبير لأن فى المشهور تطلق السنة مطلقة على زمان القحط.

﴿فِيهِ﴾ تقديمه للقصر كأنه بالنسبة إلى ما فيه من البركات بركات غيره من الأعوام كالعدم أو للاهتمام بشأن العام المذكور.

﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يمطرون من الغيث، من غاث يغيث، أو يغاثون من الغوث من أغاث يغيث، وفيه لا فى غيره ادعاء أو قدم للاهتمام أو لرعاية الفاصلة.

﴿يَعْصِرُونَ﴾ من الزيتون والعنب والسمسم وغيرهما من الحبوبات المقصورة، ومن ضروع الحيوانات كالغنم والبقر والإبل والمعز لإخراج اللبن وزيادة هذا العام ليست من الرؤيا بل من الوحى لأنه وإن كانت السنة الآلهة حادثة على أن تعقب السنة الخصيبة السنة المجدبة لكن هذه المبالغة والكثرة على ما علم من تقديم الضمير لا يعلم إلا بالوحى.

فأول سبع بقرات سمان، سبع سنين مخصبات كثيرة الزرع سبعًا عجافًا من البقرات سبع شداد من السنين وسبع سنبلات خضر مما وقع فى سنى الخصب من الزرع وسبع سنبلات يابسات مما وجد من السنبلات فى سنى القحط.

وأول أكل سبع عجاف لسبع سمان بأكل ما قدموه لسنى القحط بتدبير حفظ السنبلات فتم التأويل ثم بشرهم بسنة بعد القحط كثيرة البركات عظيمة الخيرات بحيث تكون بركات سائر الأزمان بالنسبة إليها كالعدم وإنما ذلك بالوحى، والحمد لله على نعمائه فى سرائه وضرائه.

مجلس في:

بيان إخراج الملك يوسف ـ عليه السلام ـ من السجن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده
الذين اصطفى أما بعد:

فهذا مجلس في بيان إخراج الملك يوسف ـ عليه السلام ـ من السجن، قال الله تعالى:

﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ** ﴾ (يوسف: ٥٠) يعني بعدما جاء الرسول بالتعبير من عند يوسف ـ عليه السلام ـ قال الملك لوزرائه وامرأته وأهل مجلسه.

﴿ **ائْتُونِي بِهِ** ﴾ بيوسف ـ عليه السلام ـ لأسمع رؤياي، وتعبيرها منه شفاهًا.

﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ** ﴾ الظاهر أنه الشرابي أيضًا، وقال: أجب الملك.

﴿ **قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ أي: الملك.

﴿ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ فلم يخرج بل تأنى وتشبث وتشمر لإظهار طهارته.

قال في التيسير، وفي كتاب عصمة الأنبياء في قوله: ﴿ **قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ أن يوسف ـ عليه السلام ـ أظهر السكينة والوقار في الخروج من السجن كالضجر القلق إذا وجد الخلاص بادر للخروج ليتميز الراضي بالقضاء، والمسلّم للحكم والمفوض من الساخط للقيوم من المكاره.

والثاني: جرى على انتظار الوحي لئلا يكون مستبدًا برأيه.

والثالث: أنه علم استخلاص الملك إياه فأحب أن لا يبقى أثر تهمة من تلك الحادثة التي كانت جرت حتى ينظر إليه بعين الأمانة ويعده من أهل الصيانة فيضيعوا له استخلاصه.

وقول النبي ﷺ: (رحم الله أخي يوسف لو كنت أنا مكانه لبادرت الباب)[1]

---

(١) حديث: (**رحم الله أخي يوسف لو كنت أنا مكانه...**) تقدم تخريجه هذا الحديث.

أى: ما كنت منتظرًا للعذر بل كنت أرى الإدخال والإخـراج من الله، فتكلم عن مقامه من الفراغ عن الأفكار فى المخلوقين مدحًا منهم، وذمًا.

وإن كان ليوسف ـ عليه السلام ـ هذا المـقام، وذلك مقام رسول الله ﷺ أعلى وأكمل، فـليس هذا عيبًا على يوسف ـ عليـه السلام ـ وإنمـا هو كإبانة لمـقدار وسع يوسـف ـ علـيه السلام ـ فى التسليم للحاكم.

والرابـع: أن يوسف ـ عليه السلام ـ أحب ظهور براءته (ولصافته)[1] ليكون زوج المرأة ملاحظًا له بعين الإجلال لا بعين الاستثقـال كالمسجون من جهة الإنسان يخرجه السلطان لحاجة إليـه وخصمه كاره لخروجـه، فالخارج من السجن يكون قلبه منقـسمًا خاطره متوزعًا بما يتفكر من استثقال خصمه وكراهته لخروجه واحتياله ثانيًا لإعادته إلى السجن إذا أخرج بغير رضاه.

فأراد أن يكون خـاطره لإقامة ما يفـوض إليه من الأمانة من غيـر تشويش يقع فى خطرته ولأنه كان الكريم بن الكريم، وكان لا يكفر صـانع زوج المرأة فأحب أن يصفو قلبـه إذا خامره شىء من مـقالات امـرأته بظهور مـقدمـة مشاهدة، وهذا فـى المروءة الإنسانية مندوب إليه.

وما قاله الرسـول ﷺ فهو من أعلى درجات الغبـودية وأشرف مقامات الاكـتفاء بالله بإرضاء عباده عنه من غير تكلف وكل جزى على ما كشف له.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢) فيه دليل على أن الخصْم يحب إرضاءه وإن كـان الله عنه راضيًا وإن إرضـاءه بإظهار ما جـرى بينه وبين الخصم فأحب أن يرضى الرجل فلا يدخله شىء من حديثـها تكرمًا من يوسف ـ عليه السلام ـ واستعظامًا لحقه.

وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى﴾ الآية، إبانة من أن امتناعه عن إجابتها لم يكن من قوة نفسه وإنما الحـول والقوة بالله، وقوله: ﴿إِلاَّ مَـا رَحِمَ رَبِّى﴾ أى لو تركت أنـا وطبع البشرية لكنت عاملاً بطبعى كما عملت هى لكن لما أقيم مقام العصمة عامله الله بوجهه فزالت طباع النفس الأمارة بالسوء وهو ذكر منة الله ـ تعالى ـ عليه فى التوفيق والعصمة وإقامته مقام العز الذى بين للناس أنه عبد برىء.

وفيه دليل على أن معاملة الناس على الاستقامـة تستتبع الرفعة والعز والثناء الجميل

---

(١) ما بين المعقوفتين غير واضحة فى المخطوط.

وذلك نعمة من الله وليس بنقص فى مقام النزاهة والصفـوة، وإن الاستقامة فى المعاملة أفضل منها فى الخلق.

انتهى كلام التيسير.

وقال ابن كـثير: ففى المسـند والصحيـحين من حديث الزهرى عن سـعد بن أبى سلمـة عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قـال: قـال رسول الله ﷺ: (نـحن أحق بالشك من إبراهيـم إذ قـال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

[ورحم][2] الله لوطًا (لقد كان ياوى إلى ركن شديد) و (لو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف ـ عليه السلام ـ لأجبت الداعى)[3].

وقال الإمام أحمد: حـدثنا عفان: حدثنا حماد بن سلمة حدثنا مـحمد بن عمرو، عن سعد بن أبى سلمة، عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فقال رسول الله ﷺ: (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر)[4].

---

(١) حديث: (نحن أحق بالشك من إبراهيم...) حديث صحيح البخارى يجمع هذه الثلاثة: (حدثنا أحمد بن صـالح حدثنا ابن وهب قال: أخبـرنى يونس عن ابن شهاب عن أبى سلمـة بن عبد الرحمـن وسعيـد بن المسيب عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «ثم نحن أحق بالشك من إبـراهيم إذ قـال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحم الله لوطا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولـو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى). انظر: صحيح البخارى: ٣/ ١٢٣٣ الحديث رقم (٣١٩٢).

(٢) غير واضحـة فى المخطوط ما بين المعقوفتيـن، (رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد) حديث صـحيح البـخارى يجـمع هذه الثلاثة: (حـدثنا أحمـد بن صالح حدثنـا بن وهب قال أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نـحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحم الله لوطا لقـد كـان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى) انظر: صحيح البخارى: ٣/ ١٢٣٣ الحديث رقم (٣١٩٢).

(٣) حديث: (لو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى..) انظر الحديث قبل السابق وتخريجه

(٤) حديث: (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر...) فى قوله ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ تقدم تخريجه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: (لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى، ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر)[1].

هذا حديث مرسل. انتهى.

وقال الإمام الرازى فى التفسير الكبير:

ويحتمل أنه لم يخرج أول ما جاءه الرسول ليخرج للتلاقى لما قال أولاً: اذكر فى عند ربك.

وقوله: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾.

المراد بالبال الشأن والحال أى فاسأله ما شأنهن معى هل وجدن ميلاً منى إليهن أو التفاتًا أو غير ذلك مما لا يجوزه الشرع والمروءة حتى سعين فى سجنى.

فالمراد من «بالهن» وجدانهن عيبًا فيه مما يوجب السجن فى المروءة أو الشرع.

وكان الظاهر أن يقول: فاسأل الملك وقل فتش عن بالهن، لكن عدل عن هذا لأن فيه خللين:

أحدهما: الأمر للملك بالتفتيش لعل غرور السلطنة يمعنه عنه ويتأذى من أمره.

والثانى: لعله إن فتش لا يصل إلى الكنه.

فعدل عنه فقال: فاسأله ما شأن النسوة أى ما حقيقة الأمر.

والإنسان إذا سئل عن شىء يحمله السؤال على الطلب، والتفحص والاستكشاف عنه فإذا سئل عن حقيقة الأمر استكشف عن الحقيقة ولا يقع ما لم يصل إلى الكنه فيحمله هذا السؤال خصوصًا إذا كان طالبًا لخروج يوسف ـ عليه السلام ـ على وصوله كنه الأمر.

وفيه فائدة أخرى: وهى أنه كان الواجب على الملوك العادلين فى كل ما جرى فى ملكه فى القياسات الوصول إلى كنه الأمر فكأنه عرض على الملك إن كان عادلاً، فكنه

(١) حديث: (ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر) تقدم تخريجه.

هذا الأمر عنده فسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن وهن أربعون نسوة من نساء الأكابر غير امرأة العزيز لأنها ما قطعت يدها، بل هتكت سترها بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فستر عليها لكونها سيدته ولم يذكر من صفات النسوة من مكرهن غير تقطيع أيديهن سترًا عليهن أيضًا.

لأن التقطيع كان غير اختيارى فلا يلام صاحبه به، ومقصوده دفع التهمة عن نفسه بعدما حلت به لأنه كما يجب على المؤمن رفع التهمة عن نفسه ابتداء.

ولذا قال النبى ﷺ: (اتقوا مواقع التهم) وكان فى معتكفه مع بعض نسائه، فمر عليه رجلان فأسرعا فناداهما أن هذه فلانه زوجتى، قالا: يا رسول الله من يظن بك سوءًا قال: اتقوا مواقع التهم.

فكما يجب عليه الاتقاء من مظان التهم، كذلك يجب دفعها بعدما حلت.

ولذا استكشف الملك عن بالهن.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة تتميمًا لما قبلها.

ويحتمل أن تكون تذييلاً، بيان ذلك أن التتميم هو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود أو بعده بفضله كالحال أو واحد من المفاعيل وغيرها للمبالغة كقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى مع حب الطعام، وفيه من المبالغة ما لا يخفى.

وهنا كان المقصود من السؤال بعث الملك وتشويقه إلى الوصول إلى الكنه فتم ذلك بأن الله وحده لا غيره يعلم كنه كيدهن أى كنه ما كده، لأن كنه كيدهن عميق لا يصل غيره إليه لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

فالواجب على الملك الفحص عنه حتى يصل إلى ما فى وسع البشر من كيدهن مع قوله (كدن) به من قولهن فى الخلوة عن الناس: أطع مولاتك، وفى حالة اليأس عن إطاعته لها من قولهن تعزيزًا حبسه فى السجن حتى تنقطع مقالة الناس عن امرأتك ويقولوا: الجرم للغلام.

ومقصودهن تليين شكيمته لمولاته بالحبس أيامًا.

ولا يخفى ما فى هذا القول من المبالغة فى طلب الفحص للوصول إلى الكنه، هذا بيان التتميم.

وأما التخصيص فمن مقامين.

أحدهما: أن مذهب الكشاف وتبعه البيضاوى هو أن بناء الجزء الفعلى على المبتدأ المعرف يفيد الحصر صرحا به فى قوله تعالى فى سورة المزمل: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهنا الخبر وإن لم يكن فعلاً لكنه وصف مشتق.

والمقام الآخر: أن التخصيص الذكرى قد يفضى بمعونة المقام إلى التخصيص الحصرى، فعلم الله بكيدهن لا ينكره أحد.

ففائدة هذا الكلام أن كيدهن من عظمه وبعد غوره وصل إلى حد لا يعلمه إلا عالم السر والخفيات لكن يقع هنا إشكال وهو أن التتميم يكون بفصله وهى جملة مستقلة إلا أن يقال إنها حال لأن كون الجملة الاسمية حالاً بدون الواو وإن ضعف عند علماء النحو.

لكن قال فى شرح التلخيص: والمشهور ـ أى عند علماء المعانى ـ جواز تركها الواو.

فعلى هذا الأخير فى كونها تتميمًا كما اختاره نحو الكشاف والبيضاوى.

وأما بيان التذييل: فهو إنه لما حمل الملك عن الوصول إلى الكنه ليظهر له براءته وهو مقصوده والملك أعلم أن ما فعلن فى حقه كيد فلا أصل له فتظهر براءته فأكد براءته المعلومة، فالحمل على الوصول إلى الكنه بالاستشهاد بعلم الله على أنه كيده، فإذا كان كيدًا يبطل وتظهر براءته ولا يخفى تأكيد سابقه.

وقيل: إن هذا الكلام وعيد منه ـ عليه السلام ـ لهن بأن الله يعلم كيدهن ويحاربهن عليه.

والمقصود حمل الملك على أخذ الانتقام له منهن لكن هذا لا يليق بكرمه ـ عليه السلام ـ.

فالوجه هو الأول ثم الثانى، والكيد على الاحتمالين الأخيرين هو الحدث.

وعلى الأول: ما كدن فلما وصل الرسول إلى الملك وأخبره بقول يوسف ـ عليه السلام ـ خاطب النساء وكن فى المجلس لأن عادة الكفار نساء الأكابر مع أزواجهن فى ديوان ملكهم على ما قال الله تعالى:

﴿قَالَ﴾ أى الملك للنسوة المقطعات ولامرأة العزيز أيضًا لأنها كانت للمعصية أمها بل كان عندها طمها ورمها.

﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أى شأنكن الذى يخفى أن تخاطبن لأجله والمراد من الشأن شأنهن مع يوسف ـ عليه السلام ـ.

وهو وجدانهن قصوراً ما فيه، أى هل وجدتن ميلاً منه إليكن، والميل أول كل شيء من الدواعى فإذا انتفى انتفى الكل.

﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ والمراودة فى الحقيقة زليخا وسائرهن كن معينات لها فى المراودة فكأن الكل مراودات فعند ذلك.

﴿قُلْنَ﴾ أى: النساء غير زليخا ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له عن العجز وتعجبًا من قدرته على خلق عفيف وتعجبًا من طهارة يوسف أقصى ما يكون.

﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ﴾ علمًا ما، لا يقينًا ولا ظنا ولا وهمًا ولا شطًا.

﴿مِن سُوءٍ﴾ أصلاً من النظر والميل ولا سائر دواعى الزنا.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ﴾ أى فى هذه الساعة.

﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أى ثبت واستقر فى القلوب كلها.

من حصحص البعير إذا ألقى شفاته، أى مباركه الخمس: الصدر والركبتين والرجلين فى الأرض واستقر، قال الشاعر:

وحصحص فى صُمّ الحصا ثفناته ورام القيام ساعة ثمَّ صمّما[١]

أو ظهر الحق من حص شعره إذا استأصله بحيث يظهر بشرة رأسه، ثم بيَّنت الحق المذكور المحصحص بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١) فى قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ثم بعد إقرارهن على طهارته رجع الرسول إليه وأخبره بما جرى فى مجلس الملك من ظهور طهارته على وجه الكمال فأرسله يوسف ـ عليه السلام ـ إلى مجلس الملك بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى آخر ما قال، أى ذلك الثبت.

والثانى فى الخروج والتشمر لإظهار البراءة.

﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز.

---

(١) تَمَّ ضبط هذا البيت على ما فى لسان العرب لابن منظور، ولكن الضبط الأول كان المصنف قد أورده، فوجدته عند صاحب الصحاح، ومع ذلك فيه اضطراب هنا عمّا أورده صاحب الصحاح ففيه أنشد:

فحصحص فى صمّ الصفا ثفناته وناء بسلمى نوأةً ثُمَّ صَمَّما

(انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة: حصص).

﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى حرمه وزوجته.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ أى فى المكان الغيب على حذف الموصوف وإقامة صفة مقامه.

وهذا المكان هو وراء الأستار والأبواب السبعة المغلقة.

أو كلمة الغيب حال عن الفاعل أو المفعول، أى أنا ملتبسًا بالغيب أو هو ملتبسًا به، وليعلم العزيز ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي﴾ لا ينفذ ولا يسدد.

﴿كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ كما لم يسدد ولم ينفذ زليخا بل أقرت بنفسها ببطلان كيدها وقد كانت خائنة فى حق الله وحق زوجها وكما لم يسدد كيد العزيز وقد كان علم بالشواهد براءتى ثم خان أمانة الله فى حقى فحبسنى بمجرد أقوال الكائدات بعد قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ولو كنت خائنًا فى حق الله، وحرم سيدى لما نفذ الله كيدى هذا وتشمرى فى إظهار براءتى.

وسماه كيدًا استعارة لما كان فيه من الخفاء أو مشاكلة فهذا الكلام فيه تعريفان لزليخا وللعزيز وتأكيد لأمانته المفهومة من قوله: ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾.

وقد كان العزيز تغرس فيه الأمانة والكفاية حيث قال: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فأثبت الصديق خلفه فيه ثم لما أوهم كلامه التزكية والإعجاب بنزاهته دفعه بقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فهذا الكلام تكميل واحتراس لسابقه وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود أو بعده بشيء سواء كان مفردًا أو جملة بدفعه، فهذا كقول الشاعر:

وما مات منا سيد فى فراشه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

فإن المصراع الثانى تكميل ودفع لوهم عجزهم وخورهم.

﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ استئناف للجواب عن السؤال الخاص أى هل النفس أمارة بالسوء، فأجاب أن النفس.

﴿لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فى جميع الأوقات.

﴿إِلاَّ﴾ وقت ﴿مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أى وقت رحمته فما مصدرية أو إن جميع النفوس لأمارة بالسوء إلا ما أى من كقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أو الاستثناء منقطع أى النفوس كلها لأمارة بالسوء لكن رحمة ربى تدفعها فى بعض النفوس.

والمراد من الرحمة على كل حال هدايته وخلقه الاهتداء وترجيحه دواعى الطاعة على دواعى المعصية.

وقيل: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من قول زليخا أى ذلك الإقرار على نفسى بطهارة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ (يوسف ٥٢) فى هذا المجلس أى لم أكذب عليه.

ففيه أن الخيانة بمعنى الكذب غير معروف وكلمة «لم» أيضًا ليست فى محلها على هذا لأن الظاهر: ما أخون على الحال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ كما لم يهد كيدى.

وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ اعتراف منها على ذنبها أولاً حين راودت وآخرًا حين حبسته بلا جرم ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف ٥٣) تعنى مثل نفسى.

﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ تعنى نفس يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ لما فرط منى من الميل الطبيعى الذى لا يدخل تحت الاختيار، لكن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿رَّحِيمٌ﴾ يعصمنى فى جميع عمرى، هذا على كونه كلام يوسف عليه السلام.

وعلى تقدير كونه كلام زليخا استغفار منها لذنوبها واسترحام، وطلب للطف الله ـ عز وجل ـ لما ظهر براءته وعلمه وحلمه، وثباته اشتاق الملك وجميع أهل مجلسه إلى رؤيته ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ (يوسف ٥٤) وزاد هنا لظهور صفاته السابقة بعد ظهور علمه قوله: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أجعله خالصًا.

﴿لِنَفْسِي﴾ لا يشاركنى فى صحبته غيرى، كأنه استقصر يد العزيز وامرأته عن يوسف ـ عليه السلام ـ لأنه ظهرت حريته وكونه من أولاد الأنبياء ومن عادة الملوك جعل الشىء النفيس خالصًا لنفوسهم ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أى كلم الملك يوسف، عليه السلام.

لأن من دأب الملوك أنه لا يكلم أولاً فى مجلسهم غيرهم، أو كلم يوسف الملك لأنه عالم والعلماء حكام على الملك كما أن الملوك حكام على الناس، وتفصيل التكليم سيجىء إن شاء الله تعالى.

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة وشرف وزلفى وقربى لا يرد كلامك ولا يدفع مطلوبك.

﴿أَمِينٌ﴾ صاحب الأمانة اعتمدنا على أمانتك.

وهذا الكلام يدل على إسلامه.

كما روى عن مجاهد أنه أسلم الملك على يديه وكثير من أهل مصر لأنه مطلوب للنبى أعظم من إيمان من بعث إليهم ثم لما قال الملك: إنك مكين لا يرد سؤلك «أمين» اعتمدنا على أمانتك سار منه عملاً ينفع الكافة وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٥٥) أتولى تصرفها فى الجمع والتفريق.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ غاية الحفظ فسأجمع وأحفظ.

﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التفريق أفرق على القسط والعدل، وبعد ذلك بين الله ـ تعالى ـ توليته يوسف ـ عليه السلام ـ صارت من قبله ـ تعالى ـ وأسقط الواسطة أى الملك من البين فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أى: كما «مكنَّا» فى قلب الملك «مكنَّا» أى أعطينا الملك والاقتدار على الجمع والتعريف ليوسف، وفعل «مكن» يعدى بنفسه وباللام كنصحته ونصحت لك.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر، ثم بين تمكينه فيها على وجه الإجمال والإيجاز الذى هو أعلى من التفصيل بقوله:

﴿يَتَبَوَّأُ﴾ حال أو استئناف أى ينزل ويبيت ويقيم ويرتحل.

﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ هو وهذا على وجه التمكين.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ فى الدنيا بإعطاء المال والجاه وفى الآخرة بإعطاء الجنان من نشاء.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦) فى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ من الجنان والرضوان واللقاء والنظر إلى ربهم الكريم.

﴿خَيْرٌ﴾ لدوامه وخلوصه، وتفعل التام من أجر الدنيا لزواله وعدم خلوصه، وعدم تمامه، ثم بين لمن هو فقال: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى للعالم العالم لأن الإيمان علم والتقوى أس الأعمال رزقنا الله وإياكم.

قال فى التيسير:

قال الإمام القشيرى ـ رحمه الله: لما اتضح للملك طهارة جيبه ونزاهة عينه استحضره لاصطفائه واختصاصه لأنسه، فلما كلمه وسع بيانه رفع

محلـه ومكانه وضمن بره وإحـسانه فقـال: إنك اليوم عنـدنا ذو جاه وحال أمـين على خزائن الأموال.

وفى القصة أنه بعث سـبعين حاجبًا وسـبعين مركبًـا لاستحضاره وبعثـه إليه لباس الملوك وتاج الملوك، فلبس الثياب وتتوج بالتاج، وخـرج ليركب فقام إليه أهل السجن يبكون لفقـده وكانوا أنسوا به وألفوا بره وإحـسانه فدعا لهم وقال: أعطـاكم الله الصبر واليقين، وثواب الشاكرين.

وطهركم من الذنوب وآمنكـم من الهوام والعقارب والـحيات، وقال حـين خرج: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخبار وقصر عليهم النهار ولا تقطع عنهم الأخيار.

ولما خرج كتب على باب السجن: هذه منازل البلوى وحسهم الدنيا وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء.

ولمـا دخل على الملك قـال: اللهم إنى أسألك بخيـر من خيـره وأعوذ بعـزتك وقدرتك من شـره فلما كلمـه وكان الملك يتكـلم بسبعـين لسان وكلم يوسـف ـ عليه السـلام ـ بكل لسان فـأجـابه يوسف ـ عليه السـلام ـ بكل ذلك حـتى إذا فرغ دعـا له بالعبـرانية ولم يكن الملك مـحسنها قال: مـا هذا اللسان يا يوسف؟ قـال: لسان آبائى إبراهيم وإسحق ويعـقوب، فلما خـرج من عنده سلم عليه بالعبـرانية ولم يكن الملك يحسنها فقال: ما هذا اللسان يا يوسف؟.

قال هذا لسان عمى إسماعيل وازداد الملك محبًا مما سمع يوسف ـ عليه السلام ـ وأعجبه حلمه وعلمه وحكمه، وقـال: اقصص رؤياى فإن أحب أن أسمعها منك، قال يوسف ـ عليه السلام ـ رأيت سبع بقرات سمانًا عظامًا شهباء عزًا كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شخب أخلاقهن لبنًا فبـينا أنت تنظر إليهن ويعجبك حسنهن إذ نصب النيل فغـار ماؤه وبدأ يبســه فخرج من حمـائه ووحله سبع بقـرات عجاف شعث غـير ملتصـقات البطون ليس لهن ضـروع ولا أخلاق ولهن أنياب، وأضـراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخـراطيم السباع فاختلطن بالسمـان فافترسهن افتـراس السباع وأكلن لحومـهن ومزقن جلودهـن وحطمن عظامهن وتمـصمـصن فهشـمن، فبـينا أنت تنظر وتتعـجب إذ سبع سنابل خضـر وسبع سنابل أخـر سود فى منبت واحد وعـروقهن فى الثرى والمـاء فبينا أنت تقـول فى نفسك أيا هذا وهؤلاء خضـر مثمـرات وهؤلاء سوء

يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الماء أذهبت ريح فذرت اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سوداً متغيرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثم انتبهت من نومك مذعوراً مرتاعًا، فقال الملك: والله بشأن هذا الرؤيا وإن كان عجبًا بأعجب مما سمعت منك فما ترى فى رؤياى أيها الصديق يوسف ـ عليه السلام ـ أرى أن تجمعوا الطعام فى سنى الخصب وتبنى الأهرام والخزائن فتكبسه فيها بعصفه وسنبله فيكون عصفه وسنبله علفًا للدواب ويكفيك وأهل مصر ومن حولها الطعام فى الجدب فيأتيك الخلق من النواحى فيمتارون منك بحكمك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك وقال الملك: ومن لى بهذا ومن يجمعه ومن يبيعه ويكفى الشغل منه؟ قال يوسف ـ عليه السلام ـ إن الله آل إلىَّ أنى أقوم به وأكفى الشغل فيه، قال الملك: ومن أحق به منك.

انتهى كلام التيسير.

وقال فى التيسير أيضًا: قال الإمام القشيرى: لمَّا لم يمكن يوسف دواعى الشهوات من نفسه مكنه الله من ملكه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ﴾ (الشورى: ٢٣) وقال ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦).

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد وبين أن ما يؤتى عباده عن ألطافه فبفضله لا بفعلهم وبرحمته لا بخدمتهم فقال ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾[1] ثم رقى مهمهم عما أولاهم من النعم فقال: ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ (يوسف: ٥٧) وفيه جواز وصف الإنسان نفسه بما هو موصوف به فإنه قال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ إذا لم يكن فيه ثناء على نفسه، بل بيان ما يتعلق به من مصالح الناس وفيه أنه لا بأس بالعمل للكافر والفاسق إذا مكن العامل من وضع الشىء موضعه وإعطاء شىء من العدل قسطه وكان فيه صالح العامة والخاصة وقيل فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ الآية قال للملك ما بالك الملك يتقلد بسيف لا يقطع وما باله يمسك على بابه حرَّاسًا عميًا بكمًا صمّا، وما باله يزرع فى أرض سبخة أما يعلم أن من زرع فى أرض سبخة فقد ضيع بذره، وعذب بقره، وأبطل أيامه، فقال الملك: ما أدرى ما تقول؟ قال: أما التلقد بسيف لا يقطع فهو الاعتماد فى الأعمال

---

(١) هذا الجزء الأول من الآية رقم (٥٦) من سورة يوسف ونصها: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

على عمال لم تجربهم، وأما إمساك العميان، والبكم، والصم على الباب فهو استعمال قوم لا يرون عيوبك فلا يذكرونها لك.

وأما الزرع فى السبخة فالبذر العمر، والسبخة الدنيا والثوران الليل والنهار فأعجب بكلامه فقال: إنك اليوم لدينا مكين أمين.

وقال وهب: ولما ولى يوسف ـ عليه السلام ـ مصر مات العزيز وزوجه الملك امرأة العزيز فلما دخلت وجدها عذراء فقال لها: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين، فقالت: لا تلمنى يا نبى الله فإن الله كساك من الحسن والجمال ما لا يصبر عليه أحد، وكان صاحبى لا يمس النساء، وكنت ناعمة فى ملك الدنيا وغلبتنى شهوتى يا يوسف، إذ الحرص والشهوة صيَّر الملوك عبيدًا، وإن الصبر والتقوى صيَّر العبيد ملوكًا وتزوجها وهو ابن ثلاثين سنة.

فولدت لـه آخرا ثم وميشا ابنى يوسف ـ عليه السلام ـ فى أربع سنين من سنى الخصب.

هذا القدر مذكور فى حديث تزوجها فى كتاب وهب وذكر فى القصص زوائد:

أنها افتقرت وضعفت وعميت وأتته وهى بتلك الحالة فرحمها وقال: ما تشتهين؟ فقالت: أن أفتح عينى مرة فأراك، وبكت فبكى يوسف ـ عليه السلام ـ وأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وقال: إن الله يرد إليها بصرها وشبابها فتزوجها ففعل وأعادها الله إلى جمالها وشبابها.

ونذكر ههنا أشياء ولا ضرورة إلى ذكرها:

ولما مضى تمام سنى الخصب أمر الله ـ تعالى جبريل سحرًا[(١)] فقال له: يا جبريل: ألا تنظر إلى ديارى وإمائى من أهل مصر وغيرهم كيف يأكلون رزقى ويعبدون غيرى اهبط وقد سلطت عليهم الجوع والقحط سبع سنين، فهبط جبريل ـ عليه السلام ـ وصاح فى الهواء: يا أهل مصر جوعوا سبع سنين، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون: الجوع.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكن فى تلك السنين اليابسة مصر ولا نبات ولا ريح تهب [....][(٢)] ولا حمار ينهق ولا ثور يصيح ولا دابة تحمل ولا طير يتخذ عشًا

---

(١) أى: فى منتصف الليل.

(٢) ما بين المعقوفتين غير واضح فى نسخة المخطوط.

ولا تفـرخ، وجاءت [....](١) الناس مثله وقصد الناس مـصر من كل أوب وناحية يمتارون، فجـعل يوسف ـ عليه السلام ـ لا يمكن أحدًا منهم وإن كان عظيـمًا أكثر من حمل بعير، وتـزاحم عليه أهل مصر فباعهم أول الـسنة بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قـبض عليه، وباعهم السنة الثانية بـالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصـر فى يد الناس منها شىء، وباعهـم السنة الثالثة بالمـواشى والدواب والأنعام حتى احتوى أجـمع، وباعهم السنة الرابعة بالعبيد والإماء حـتى لم يبق عبد ولا أمة فى يد أحد، وباعهم السنة الخـامسة بالضياع والعـقار والدور حتى احتوى عليـها، وباعهم السنة السادسـة بأولادهم حتى استـرقهم، وباعهم السنـة السابعة برقـابهم حتى لم يبق بمصر حـر ولا حرة إلا صار عبـدًا له فقال الناس: تالله ما رأينا كـاليوم ملكًا أجل ولا أعظم من هذا، ثم قال يوسف ـ عليه السلام ـ للملك: كيف رأيت صنيع الله بى، وما خولنـى من الملك فمـا ترى لى؟ قال الملك: الرأى رأيك ونحن لك تبـع وأنا خوَّل، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ إنى لم أهلك مصر بأهلها لأضر بها وأهلكهم، ولم أوسع عليهم الطعام لأضيّقه، ولم آمرهم لأجفوهم أو تقر لى بأنك لى عبد ولى خول، قال: نعم، قال: فإنى أشـهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصـر عن آخرهم ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم وردت عليك ملكك على شـريطة أن لا تخالفنى وتستن بسنتى، قال الملك.

انتهى كلام التيسير والحمد لله رب العالمين.

(١) ما بين المعقوفتين مقدار كلمة غير واضح فى نسخة المخطوط.

مجلس في:

بيان مجيء إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ إليه للمرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس في بيان مجيء إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ إليه للمرة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (يوسف: ٥٨) قال في التيسير: قال وهب: وكان اشتدّ على يعقوب وولده وأهل الشام القحط فقال يعقوب ـ عليه السلام ـ لولده: إن بمصر طعامًا يباع وإن هذا الرجل الصالح الذي هو ملكهم بلغني عنه خير وصلاح وحسن سيرة فامتاروا منه فإن له سيرة تشبه سيرة آل يعقوب، وسيحسن أباكم إن شاء الله، وانطلقوا وامتاروا منه، فانطلقوا فلما دخلوا على يوسف ـ عليه السلام ـ مع الناس وكان يوسف ـ عليه السلام ـ يحسن إلى كل من أتاه ويعطيه قدر ما يكتفي به عياله على عددهم فلما دخلوا عليه عرفهم وهم له منكرون، وكان الله أعمى عليهم خبر يوسف ـ عليه السلام ـ وما صار إليه من الملك فأنكروه لتغير لونه وكلامه، وهيئته، ولتقادم العهد وتطاول المدة.

وقيل: إنما لم يعرفوه لأنه كان منتقبًا.

وقيل: لم يعرفوه لأنهم كانوا جياعًا، وعين الجائع تحار فلا تعرف ما تبصر.

وقيل: لأنهم جاءوا طامعين والطمع يغطي العين.

وقيل: لأنهم كانوا جفوة والجفاء يزيل المعرفة.

وقيل: لأن الله ـ تعالى ـ أخفى عليهم ذلك بلطفه وكان فيه سر.

وقيل: لأنهم نكسوا رءوسهم محترمين له فلم ينظروا إليه.

فلذلك لم يعرفوه.

قال وهب: ولما عرفهم أمر فتيانه بإنزالهم فى منزل وأكرمهم ومكث ثلاثًا لا يكلمهم، ثم قال بعد ثلاثة: من أنتم؟.

قالوا: نحن أولاد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم من أهل كنعان، فنظر إليهم فأكثر وأدام فيهم النظرِ وصعد وصوب فيهم البصر ونظر إليهم جميعًا وأشتاتًا كلما فرغ من واحد نظر إلى الذى يليه ثم قال: اعتزلوا عنى حتى أفرغ لكم، وكان لا يصنع ذلك بأحد وكان يعجل سراح الممتارين فلما اعتزلوا عنه استرابوا من نظره إليهم وقال بعضهم لبعض: لقد نظر إلينا هذا الملك نظرًا ما نظر غيرنا كذلك، فإما أن يكون [. . .][1] وجلدنا وقوتنا، وإما أن يكون تفرس فينا النبوة من بعد آبائنا ولوراثه لهم من بعدهم وإما أن يكون بلغته فعلتنا بأخينا وتلك قاصمة ظهورنا وسبب حزننا، وتشاغل عنهم يوسف ـ عليه السلام ـ يوجه ذلك وأمر بهم فأنزلوا فى ضيافة وأوصى بهم خدمه، وهم يغدون عليه ويروحون وهو كالمعرض عنهم والمتهجم لهم، فإذا صاروا إلى ضيافة أكرموا وإذا دخلوا عليه أعرض عنهم فيقولون: ومن العجب شأن هذا الملك وعمله بنا إذا حضرناه تجهم لنا وأعرض عنا، وإذا صرنا إلى منزله أوصى بنا فى الغيب فلبثوا بذلك حينًا.

ثم إنهم دخلوا على يوسف يومًا قال لهم: من أنتم؟ قالوا: قد أخبرناك أول يوم سألتنا إنا أولاد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال يوسف ـ عليه السلام ـ والدكم ثلاثة أنبياء: الخليل والذبيح والصديق؟ قالوا: نعم، قال: ما أنتم لذلك بأشباه ولا لذلك بخلقاء وما أنتم موسومون بسيماهم وما أرى من أحلام ولا وقار ولا سكينة ظاهرة ولا خشوع، ولأنتم بأن تكونوا لصوصًا أشبه أو جواسيس دسكم بعض الملوك فجئتم مرتارين تنظرون لهم فى العدة، والقوة، ثم تأتونهم بخبر ذلك فتسيرون إلينا لتقاتلونا حسدًا لما أنعم الله علينا وأحبنا فلأنتم بهذا أشبه ولأيم الله لا تنفكون من جنبى أبدًا حتى أعلم علمكم، فأشفقوا أن يبحث عنهم حتى يبلغ به البحث فعلتهم التى فعلوها بأبيهم فقالوا له: إنا نسألك أيها الملك بالذى بلغك هذه المنزلة وفضلك بهذه الفضيلة، وأكرمك بهذه الكرامة، وأنعم عليك بهذه النعمة لما عجلت سراحنا إلى أبينا فإنه اليوم أعظم أهل الأرض حقًا عليك وعلى جميع أهل الأرض لأنه

---

(١) حوالى سطر تقريبا غير واضح بالمخطوط لسوء الأحبار والتصوير. . . (المحقق).

نبى الله، وابن نبيّه وابن خليله، فلا تستحق بحقه ولا تقصر فى شىء من أمره فإنك لو تعلم علمه وعلم كبره، وضعـفه، وحزنه على ابن له هلك منذ حين وكان أحب الناس إليه وأقرهم لعـينه وعلم ما يهون ويقول، ويتـصدق، ويضيف إذًا لاشتـدت له رحمتك ولدمعت عينك وحزن له قلبك، قال يوسف عليه السلام: ما أحد اليوم أعظم حقّا علىَّ وعلى أهل الأرض من يعقـوب ـ عليه السلام ـ ولو حملتـه على ظهرى مقبـلاً ومدبرًا حتى أعيـنه وعياله ما بلغت بذلك حـقه، ولا حقَّ آبائه علىَّ فحدثونى مـا الذى أحزنه وهو فى منزل الفـرح والغبطة، أليس نبى الله وابن أنبـيائه؟ أوليس ينظر إليكـم فى مثل عددكم وجمالكم وجلدكم، أليس الجنة مع ذلك يشـربه ونصب عينه يأملها، فما الذى يحزنه بعد هذا فعل حزنه إنما كان من قبل سفهكم وجفائكم وكذبكم، قالوا: حاش لله ما نحن كذلك ولكن كان له ابن أصغرنا وأحبنا إليه فهلك، فلم يزل بعده واهن العظم، باكيًا، محزونًا، قال يوسف ـ عليه السلام ـ: أوكلكم لأم واحدة؟ قالوا: لا، قال: فما الذى حمل إياكم على أن أرسل كلـكم هلا احتبس رجلاً منكـم يسكن إليه ويأنس به؟ قالوا: قد فعل، قد احتبس منا ولدًا هو أصغر ولده وأحبهم إليه بعد الأول، قال يوسف ـ عليه السلام ـ لولا مخافته أن يكونوا صادقـين حبستكم حبسًا أطول من هذا ولعذبتكم عذابًا شـديدًا فإن كنتـم صادقين فـارجعـوا إلى أبيكم فبلغـوه منى السلام وقـولوا له: فليخبرنى ما الذى أحزنه، وأبكاه وأوهن عظمه، وما الذى شيبه قبل أوان شيبه؟ وليبعث إلىّ بجواب هذه الرسالة مع ابنه الأصغر الذى احتبسه.

وفى كتاب «عـصمة الأنبيـاء» قال: هلا أخبرهم بحـاله وعرفهم من نفسـه ليعظم سرورهم بوجوده.

وقد علم أن إدخال السرور فى قلب المؤمن ما محله من الثواب عند الله خصوصًا فى قلوب إخوته وفى ذلك صلة الرحم [...][1] إلى أبيه مفزع من حزنه.

فالجواب عنه أنه لم يقدر أن يفعل من غير وحى.

والثـانى: أنه علم أن انقضاء المحنة بعـد لم يأت وقته فلذلك تربص وامض إلى وقته، وقال فى وقته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٩).

والثـــالث: أنه لو أخبـرهم ساعة دخولهم عليـه وهو كان يلاطفهم فى المـعاملة

(١) مقدار كلمة ما بين المعقوفتين غير واضحة بالمخطوط.

ويسامحهم فى تلك المبرة ويرد عليهم بضاعتهم ربما لم يستطرفوا صنيعه بمكانهم معتلين بالأخوة أنها موجبة لخصائص المعاملة، فأحب أن ينصرفوا وألسنتهم رطبة بالثناء عليه متعجبين من حسن معاملته فى عام السنة خصوصًا ليتعلموا منه السخاوة بما يحملونه من الطعام بالبذل لغيرهم واستعطفوا غيرهم بالرغبة إليه بالامتياز.

والرابع: أن عام السنة لم يكن منقضيًا يدل حوائج الناس إلى الطعام قائمة فلو أحسوا بمكانه رجعوا بنشر الخير إلى أبيهم، فكانت تنقطع المعاملة فلغلبة الإشفاق على الناس أحب أن لا يحس بمكانه حتى ينقضى السنة، ويتفرغ قلبه عن هموم الجائعين ثم يستوفى حظه من السرور فى الاجتماع مع أبيه وإخوته وقالوا فى قوله: ﴿**ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ**﴾ (يوسف ٥٩) كيف استجاز زيادة الحزن لأبيه وشغل قلبه بسبب وهو عالم أنه ممتحن بفراقه متهم لفقده؟.

قيل: بأنه قال ذلك وحيًا من الله ولم يقله جزافًا، وعلم أن الله تعالى أراد استكمال صفاء قلب يعقوب عن ميل الطبع إلى أخيه فعامله على ما علم من الله.

قال وهب: فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا جئناك من عند أعظم ملك على ظهر الأرض ما رأينا وما سمعنا مثله ولا يرى أنه كان فى الأرض أعظم منه حلمًا وعلمًا وأشد هيبة وأرحب ذرعًا، وأعظم سلطانًا وأرق قلبًا، وأكرم أخلاقًا، وأكثر رفقًا، وأجزل نائلاً لقد نظرنا فى حكمه فما شبهنا إلا بحكمك، وفى وقاره فما شبهنا إلا بوقارك، وفى حلمه فما شبهنا إلا بحلمك ولكنا أهل بيت خلقنا للبلاء فبلينا به فاتهمنا وكذبنا ومنع منا الكيل وزعم أنه لا يصدقنا حتى ترسل معنا برسالة منك تخبره فيها عن حزنك، ووهن عظمك، وعن سرعة الكبر إليك قبل أوانه، وما الذى أورث ذلك، فحزن يعقوب ـ عليه السلام ـ حين سمع هذا منهم، واتهمهم وكذبهم وظن أنه مكر منهم ليفعلوا به ما فعلوا بأخيه، فقال ﴿**هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ...**﴾ الآية.

انتهى كلام التيسير.

قال فى التيسير فى تفسير ابن كثير: كان يوسف ـ عليه السلام ـ يبيع لكل رجل يأتى إليه للميرة من أهل مصر أو غيرهم فى كل سنة حمل بعير ولا يزيد على ذلك تقسيطًا بين الناس وفى قوله: ﴿**فَدَخَلُوا عَلَيْهِ**﴾.

الفاء إشارة إلى أنه كان لا حاجب له فكل من يجيء يدخل أول ما يجيء.

وفى قوله: ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ إشارة إلى أنه حينما دخلوا عليه عرفهم بلا تراخ بنور النبوة.

أو لأنه حين فـارقهم كانوا مـلتحين وكـانوا حينما دخلوا عليـه على زيهم الأولى فعرفهم.

أو لأن همته كانت مصروفة إليهم وكان يتفقدهم ويتربص لهم وينتظر قدومهم وهم ليسوا كذلك لأنه حين فـارقوه كان أمرد والآن ملتح ولم يكن على زيه الأولى بل كان، لأنه فى زى فراعنة مصر مستـغرقًا فى الحلى وفى عنقه الطوق من الذهب، وعلى رأسه التاج المـرصَّع، وعليه الحلل من الحرير، ولأنهم كـانوا قد نسوه لطول مـدة الفراق، ولأنهم قامـوا من بعيد كسـائر أصحاب الاحتـياج، ولأنهم ما قـدروا النظر إليه لهيبتـه وسلطانه، ولأنهم توهموا أنه قد مات، ولو تخيل إليهم أنه يوسف كذبوا أنفسهم ولغير ذلك قال:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى أصلح عدتهم للسفر وأوقر ركائبهم بالحنطة.

والجهاز بالفتح والكسر.

وقد قرِئ به يكون للمسافر وللعروس، وهو ما يهيأ لهما فى العادة من آلات السفر ومهماته ومما يكون للعروس.

﴿قَـالَ ائْتُـونِى بِأَخٍ لَّكُم﴾ نكرة إيهامًا بأنه لا يعرفه إلا من كـلامهم، كما ذكر فى التيسير ونقلناه آنفًا.

﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ثم رغب فى إتيان الأخ بقوله: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى﴾ أى أتم.

﴿الْكَـيْـلَ﴾ أى المكيل من الحنطة ولا أنقص هو مطلوب كل من يجيء للـميرة وفيه التسوية بين الممتارين.

﴿وَأَنَا خَـيْـرُ الْمُنزِلِينَ﴾ للضيف أى خير المضيـفين لأنه أنزلهم خير إنزال واكرمهم أحسن إكرام، ثم رهبهم فى ترك الإتيان بالأخ بقوله:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ (يوسف: ٦٠) أى تحرموا من الطعام.

﴿وَلا تَقْـرَبُونِ﴾ (يوسـف: ٦٠) نفى معطوف على الجزاء أى لا تقدروا على القرب من ديارى.

فحـاصله: إن لم تأتونى بأخيكم أمنعكم من الكيل، بل من القرب من مصر، ففيه إنذار من الطعام وحكم به.

وقيل: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهى داخل فما حكم الجزاء.

والأحسن الأول

﴿قَالُوا﴾ أى إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿سَنُرَاوِدُ﴾ سنطالب وسنجتهد ونحتال ﴿عَنْهُ﴾ لأجل انتزاعه ﴿أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ المراودة أو الانتزاع البتة بدلالة أنَّ واللام، أو القادرون على المراودة أو الانتزاع من قبيل ذكر المسبب وإرادة السبب وعلى كل تقدير هو تذييل كما سبق.

﴿وَقَالَ﴾ أى وقد قال، حال من فاعل جهزهم حتى يكون القول قبل التجهيز وهذا أولى كما لا يخفى.

﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ جمع فتى وهو اسم المملوك شيخًا كان أو شابًا، جمع كثرة اختير لمقابلة رحال، وهو جمع كثرة فإنه وكل لكل رحل آلات المسافر وأحماله فتى يخفى فيه بضاعته كل منهم.

وقرئ: «الفتية» وهى جمع قلة ووجهه أن الإخفاء، والإسرار يناسب القلة.

﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ وهى ما قطع من المال كالتجارة من البضع، وهو القطع.

﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ وكانت اثنى عشر رحلاً للأخوة العشرة ولبنيامين ولأبيهم، فكانت الرحال كثيرة فيناسبها جمع كثرة لأنه لما رفق العشرة بلا قرينة فجعلوا دراهم كل من الأخوة وأبيهم فى رحله بأن يوسف ـ عليه السلام ـ لأنه لم يجوّز ولم يسوّغ على نفسه أخذ الثمن من أبيه وإخوته خصوصًا فى زمن الغلاء، ولأنه خاف أن لا يكون عندهم ثمن يأتون به فى السنة الآتية مع أخيهم بنيامين مع أنه مطلوبه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ (يوسف: ٦٢) أى يجدونها فيعرفونها.

﴿إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ وأفرغوا أحمالهم للطحن والخبز أو يعرفون حق الكرم فى ردها مع المثمن لأنه إعطاء للبدلين، ولا كرم للمشترى فوق ذلك.

وإنما ترجى لأنه يحتمل أن لا يجدوها، بل تضيع فى الطريق للسرقة أو لغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الرجوع لازم، أى يرجعون إلى يوسف ـ عليه السلام ـ مع البضاعة فى السنة الثانية لأنهم أصحاب الثمن أو يحملهم معرفة الكرم بإعطاء البدلين على الرجوع مرة أخرى، أو من الرجع متعد، أى لعلهم يرودن البضاعة لاحتمال وضع الفتيان سهوًا، وهم أصحاب الديانة فتحملهم ديانتهم على رد البضاعة.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ (يوسف: ٦٣) أى حكم بمنع الكيل منا فى السنة الآتية وأنذرنا به.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين نرفع المانع.

﴿نَكْتَلْ﴾ فالجزاء جزاءان مرتبان: رفع المانع والاكتيال، ذكر الجزاء الأخير لدلالته على الأول.

وقرئ (يكتل) أى يكتل أخونا على الإسناد المجازى أن يكون سببًا لاكتيالنا، أو على الإسناد الحقيقى أى يكتل لنفسه.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من المؤذيات فى السفر والحضر.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ أبوهم.

﴿هَلْ آمَنُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار.

﴿عَلَيْهِ﴾ بنيامين.

﴿إِلَّا﴾ أيضًا ﴿كَمَا أَمِنتُكُمْ﴾ مثل ابنى لكم، فما مصدرية والكاف اسم بمعنى المثل.

﴿عَلَىٰ أَخِيهِ﴾ يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿مِن قَبْلُ﴾ وقد قتلم فيه ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثم بعد ذلك ضيعتم الأمانة وما حفظتم فالآن أيضًا كذلك لأنكم تغويتم بهذه الكلمة أى بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ كما تغويتم فى يوسف بهذه الكلمة أيضًا فلا أعتمد على قولكم ودعواكم، وإنما أعتمد على حفظ الله، فأرسله معكم لأجل الميرة لنفع الأولاد والفقراء وأفوض أمرى إلى حفظ الله.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ (يوسف: ٦٤) تمييز أى من حيث إنه حافظ.

ومن جهة أنه حافظ، ويحتمل الحال، أى هو خير حال كونه حافظًا ولما كانت هذه الحال دائمة ولازمة ولا تنفك أصلاً فلا إيهام أصلاً.

وقال الرضى:

قال الأكثرون: نحو: لله دره فارسًا تميز.

وقال بعضهم: هى حال أى: ما أعجبه فى حال فروسيته.

ورجح المصنف الأول لأن المعنى مندحه مطلقًا بالفروسية فإذا جعل حالاً اختص المدح بحال فروسيته.

وأنا لا أرى بينهما فرقًا لأن معنى التميز ما أحسن فروسيته قد يمدحه فى حال الفروسية إلا بها.

وهذا المعنى هو المستفاد من ما أحسنه فى حال فروسيته.

وتصريح بمن فى: لله درك فارس، دليل على أنه تمييز.

وكذا قولهم: عز من قائل، والتميز عن المفرد مقدر بمن وكذا إن كانت عن نسبة وكان التميز نفس ما انتصب عنه بدليل تصريحهم بها فى نحو: بالك، وعز من قائل، وقاتله الله من شاعر، ومررت برجل هدك من رجل، فحسبك من رجل أى هدك هو وحسبك هو، فالضمير هو ما انتصب عنه التمييز فى هذه المواضع.

وقد تكلف بعضهم تقدير من فى جميع التمييز عن النسبة نحو: طاب زيد دارًا وعلمًا، وليس بوجه.

وأما معنى قولهم: لله درك، فالدر فى الأصل ما يدر أى ينزل من الضرع من اللبن ومن الغيم من المطر، وهو ههنا كناية عن فعل الممدوح الصادر عنه.

وإنما نسب فعله إليه ـ تعالى ـ قصدًا للتعجب منه، لأن الله ـ تعالى ـ منشئ العجائب فكل شيء عجيب يريدون التعجب منه ينسبونه إليه ـ تعالى ـ ويضيفونه إليه نحو قولهم: لله أنت، ولله أبوك، فمعنى لله دره، ما أعجب فعله.

انتهى.

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ لأنه يرحم لا لعوض ولا لغرض بخلاف سائر الراحمين لأن رحمتهم معللة بالغرض الدنيوى كدفع الألم الناشئ من رقة القلب للتوالد والقرابة وللمناسبة الطبية أو الدينية أو كسب الثناء الجميل أو بالغرض الأخروى ككسب الثواب أو الخلاص من النار.

أو معللة بالعوض كالعطاء السابق واللاحق المرجو والله تعالى منزه عن ذلك كله لأن رحمته ذاتية تقتضيه حكمته وإرادته.

وأيضًا هو الخالق للمعطى ولما يعطى وهو الخالق لآلات التلذذ بالنعم، وهو الخالق للتلذذ بها فيكون خيرًا قال تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧) فإذا كان أرحم الراحمين فأرجو أن لا يجمع علىَّ مصيبتين: مصيبة فراق يوسف، ومصيبة فراق أخيه، فعزم نبى الله على إرسال بنيامين لنفع الناس وتوكل على

الله فى حـفظه وفوض أمـر ابنه إليـه، ثم بعـد ذلك حين أرسله أخـذ منهم المـواثيق والأيمان ووصى بهم التـفرق حين يدخلون مـصر لئلا يعـانوا لأن مباشرة الأسـباب لا تنافى التوكل.

كما قال رسولنا ﷺ لرجل أرسل بعيره وتوكل (اعقلها ثم توكل)[1].

إشارة منه إلى أن مـباشرة الأسباب لا تنافى الـتوكل أيضًا كما أشـار، ويعـقوب ـ عليه السلام.

لما سيجىء ذلك مفصلاً إن شاء الله ـ تعالى ـ والله أعلم.

(١) حديث: (**اعقلها ثم توكل**) رواه الترمذى عن أنس وقال: غريب، ونقل يحيى بن سعيد القطان أنه منكر، والبيهقى وأبو نعيم وابن أبى الدنيا عن أنس أنه قال: قال رجل يا رسول الله، أعقلها وأتوكل أو أطلقهـا وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» يعنى النـاقة، وأخرجه ابن حبـان وأبو نعيم أيضًا عن عـمرو بن أمية الـضمرى أنه قال: قـال رجل للنبى ﷺ . . . وقيل: القائل عـمرو أرسل ناقتى وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» ورواه الطبرانى عن أبى هريرة: «قيدها وتوكل».
انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ١٦١ الحديث رقم (٤١٨).

مجلس في:

بيان مجيء إخوة يوسف بنيامين ودخولهم عليه وإيوائه أخاه إليه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان مجيء إخوة يوسف بنيامين ودخولهم عليه وإيوائه أخاه إليه.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ**﴾ (يوسف: ٦٥) هو ما يضع به الإنسان وينتفع به.

والمراد به هنا الأوعية وطعامهم فيها، أى لما فتحوا أوعيتهم وأفرغوا ما فيها من الحنطة.

﴿**وَجَدُوا**﴾ من الوجدان المتعدى إلى المفعولين.

﴿**بِضَاعَتَهُمْ**﴾ دراهمهم للتجارة.

﴿**رُدَّتْ إِلَيْهِمْ**﴾ ثانى مفعولى وجدوا، أى وجدوا دراهمهم مردودة إليهم موضوعة فى أوعيتهم.

﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي**﴾ وما استفهامية إنكارية مرجعها إلى النفى، بل هى أبلغ، أو نافية.

وعلى كل تقدير نبغى من البغى إما بمعنى الطلب أو بمعنى مجاوزة الحد.

والطلب إما فى أوصاف الملك أو فى البضاعة الأخرى ومجاوزة الحد إما فى مدح العزيز أو فى الرأى الذى أشاروا به إلى ذهاب أخيهم بنيامين.

فهذه أربعة ضربناها فى الاثنين صارت ثمانية، أى أىّ شيء نطلب زائدًا على هذا الكرم، أى رد البضاعة فى أوصاف العزيز زائدًا على ذلك.

أو أىّ شىء نطلب منك من بضاعة أخرى ولا نطلب منك بضاعة أخرى بعد رد البضاعة.

لكن قال صاحب الكشاف: فى الوجهين الأخيرين ضعف إيراد لأن قوله: ﴿ رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فى السابق واللاحق يدل على مدح الملك.

إذ الفائدة فى الكلام الفصيح راجع إلى القيد أو أى شىء نكذب مدح العزيز أو لا نكذب فى مدحه، أو أى شىء نكذب ونجاوز عن الصواب فى الرأى الذى أشرنا إليك بإرسال أخينا أو نجاوز عن الصواب فى هذا الرأى.

والعلة لجميع ذلك قوله: ﴿ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾.

فرد العزيز بضاعتنا بحيث لم ندر حتى لا يصل إلينا الضعة لأن يد المعطى عالية على يد الآخذ، فلذا الرد مجهول فى الموضعين بعد إحسانه علينا بالطعام يدل على كمال إحسانه.

فهذا دليل على جميع ما سبق من الاحتمالات.

وقوله: ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ مع جميع ما عطف عليه جميع التقادير إما عطف على مقدر، أى فنستظهر بها ونمير أهلنا، وإما عطف على «ما نبغى» والاستفهام الإنكارى لكونه راجعًا إلى النفى فى حكم الخبر.

صرح به صاحب الكشاف.

فلا يكون من عطف الإخبار على الإنشاء.

والجامع كونها مقولاً لهم مثل «ما نبغى» أى قالوا: ما نبغى . . . إلخ، وقالوا: ونمير . . . إلخ.

ويجوز أن يكون الجامع اشتراك الكل فى استنزال يعقوب عن رأيه فى إرسال بنيامين.

وإما غير معطوف على شىء بل هذه الجملة تذييلية اعتراضية والواو فى «نمير» واو الاعتراض كقوله: إن الثمانين ـ وبلغتها ـ.

أى: وينبغى بل يجب أن نمير أهلنا.

وكذا كقولك: سعيت فى حاجة فلان ويجب أن أسعى فيها، فبضرب هذه الثلاثة فى الثمانية تبلغ الوجوه فى هذه الآية أربعة وعشرين.

ولا يخفى على الفطن تفصيلها.

يقال: مار يمير ميرًا إذا جلب الطعام من بلدة إلى أخرى.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ لأن الملك إذا كان محسنًا فحفظ الأخ يسير فلهذه المناسبة عطف على ما سبق ووقع بين المتناسبين.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ باستصحاب أخينا.

﴿ذَلِكَ﴾ أى الكيل الزائد.

﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ لا يضايقنا العزيز فيه ولا يتعاظم عليه، أو ما جئنا به قليل لا يكفينا فينبغى أن ينضم إليه كيل أخينا.

وقيل: إن هذا أى قوله: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ قول يعقوب أى كيل لا يخاطر بمثله الولد.

ويرده تقدمه على: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ البتة.

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾ مصدر ميمى بمعنى المفعول أى: موثوق به، أى: حلفًا مؤكدًا بذكر الله.

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أى من جهته بأن يكون شرعيًا فيه الإذن من الله.

﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِ﴾ جواب القسم المفهوم من قوله: ﴿تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾.

﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ استثناء مفرغ من أعم عام الأوقات والعلل.

والكلام بالنفى إذ الاستقامة فى الإثبات.

فالمعنى لا تمتنعون من الإتيان به فى جميع الأوقات إلا وقت الإحاطة بكم.

أو لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا لعلة أن يحاط بكم بالهلاك أو بالغلبة وأصله من أحاط به العدو.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ (يوسف: ٦٦) ﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ.

﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من العهد واليمين.

﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع مجازيكم إن أخلفتم.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ﴾ حينما أرسلهم وتزينوا وتكحلوا ولبسوا أسلحتهم ونظر الأب المشفق إلى جمالهم وكمالهم وقامتهم وخاف عليهم أن يعانوا فى هذه المرة لأنهم اشتهروا فى مصر وصاروا ملتفتى العزيز فيقول الناس: انظروا إلى هؤلاء الفتيان كلهم

أبناء نبى الله من أنبياء الله ـ تعالى ـ والمقربون عند العزيز فتتسارع فيهم العين، بخلاف المرة الأولى لأنهم كانوا مضمونين بين الناس لا شهرة لهم فلذا وصى بهم وقال:

﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ (يوسف: ٦٧) فيتسارع فيكم.

﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ والعين حق، وجوده عندنا بأن يحدث الله ـ تعالى ـ عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصانًا فيه وخللاً.

وورد فيه الأحاديث.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: (العين حق فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا)[1]. رواه مسلم.

وعن أسماء بنت عميس[2] قالت: يا رسول الله ﷺ إن ولد جعفر تسرع إليهم العين فاسترق لهم، قال: نعم فإنه لو لكان شيء سابق القدر لسبقته العين)[3].

رواه أحمد والترمذى وابن ماجه.

---

(١) حديث: (العين حق، فلو كان شيء سابق القدر سبقته...) العين حق تدخل الجمل القدر والرجل القبر، رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعًا، وحديث العين حق بدون الزيادة متفق عليه عن أبى هريرة والزيادة كمال، وفى رواية حصول عن أبى هريرة أيضًا بزيادة، ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم، ورواه مسلم عن ابن عباس بزيادة «ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغتسلوا» رواه البزار بسند حسن عن جابر رفعه أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالعين، وعزى فى الدرر «العين حق» بدون زيادة العالمين عن ابن عباس، وعزى فيه لأبى نعيم عن جابر العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر، بدون لفظ حق فاعرفه وفى اللآلئ، وأما ما اشتهر العين حق تدخل الجمل. انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ٢/ ٩٩ الحديث رقم (١٧٩٧) انظر: صحيح مسلم: ٤/ ١٧١٩ الحديث رقم (٢١٨٨).

(٢) (أسماء بنت عميس): الخثعمية من بنى خثعم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث، وقيل: أنمار بن الأرت بن سعد بن عدنان، لها صحبة، وهى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبى ﷺ لأمها، روت عن النبى ﷺ، وروى عنها زيد الخثعمى، وسعيد بن المسيب، وعامر الشعبى وابنها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم، وكانت أولا تحت جعفر بن أبى طالب وولدت لجعفر عبد الله بن جعفر وعون بن جعفر ومحمد بن جعفر، وولدت لأبى بكر محمد ابن أبى بكر فى حجة الوداع، وولدت لعلى يحيى بن على، فهم إخوة لأم، وقال محمد بن إسحاق فى تسمية من هاجر إلى أرض الحبشة جعفر بن أبى طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وأمها: هند بنت عوف الجرشية، روى لها الأربعة انظر: المزى: تهذيب الكمال: ٣٥/ ١٢٧ الترجمة رقم (٧٧٨٤).

(٣) حديث: (إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقى لهم؟ قال: نعم، فإنه لو كان شيء سابق =

وعن أبى أمامـة، عن سهل بن حنيف[١] قال: (رأى عامـر بن ربيعة[٢] سـهل بن

= القدر لسبقتـه العين) حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيـان عن عمرو بن دينار عن عروة ـ وهو أبو حاتم بن عامر ـ عن عـبيد بن رفاعة الزرقى أن أسماء بنت عـميس قالت: يا رسول الله إن ولد جعفـر تسرع إليهم العين، أفأسـترقى لهم؟ فقال: نعم، فـإنه لو كان شىء سابق القدر لسبـقته العين» قال أبو عيسى: وفى الباب عن عمـران بن حصين وبريدة، وهذا حديث حسن صحيح، وقد روى هذا عن أيوب عن عمرو بن ديـنار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفـاعة عن أسماء بنت عميس عن النبى ﷺ ، حدثنا بذلك الحسن بن على الخلال حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب بهذا. انظر: الترمذى فى السنن: ٤/ ٣٩٥ الحديث (٢٠٩٥).

(١) (سـهل بن حنـيف): ابن واهب بن الحكيم بن ثعلبـة بن مجدعـة بن الحارث بن عـمرو ابن خنساء، ويقال: خـناس بن عوف بن عمرو بن عوف بن مـالك بن الأوس الأنصارى الأوسى، أبو ثابت، ويقـال: أبو سعـيد، ويقـال: أبو سعد، ويـقال: أبو عبـد الله، ويقال: أبو الـوليد المدنى، أخو عثمان بن حنيف ووالد أبى أمامـة بن سهل بن حنيف، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسـول الله ﷺ ، روى عن النبى ﷺ وعن زيـد بن ثابت، وروى عنه ابنه أبو أمـامـة أسعد بن سهل بن حنيف، وأبو وائل شقيق بن سلمـة، وابنه عبد الله، ويقال: عبد الرحمن بن سهل بن حنيف، وعـبد الرحمن بن أبى ليلى وغيرهـم، ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد، وكان بايعه يومئذ على الموت، فثبت مـعه حين انكشف الناس عنه، وجعل ينضح يومئذ بالنبل عن رسول الله ﷺ ، فقـال رسول الله ﷺ : «نبلوا سهلا، فإنه سـهل» ثم صحب عليا من حين بويع، وإياه استخلـف على حين خرج من المدينة إلى البصرة، ثم شـهد مع على صفين وولاه على فارس، وأخـرجه أهل فارس فوجـه على زيادًا فأرضوه وصالحـوه وأدوا الخراج، ومات سهل بن حنيف بالكوفة سنة ثمان وثلاثين، وصلى عليه على وكبر ستًا، زاد غيره وقال: هو من أهل بدر، روى له الجماعـة. انظر: المزى: تهذيب الكمال: ١٢/ ١٨٤ التـرجمة رقم (٢٦١٠).

(٢) (عامر بن ربـيعة) ابن كعب بن مالك بن ربيعة بن عامـر بن مالك، أبو عبد الله العدوى، وقيل غير ذلك فى نسبه، وهو والد عبد الله بن عـامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، من المهاجرين الأولين، أسلم قبل عـمر وهاجر الهـجرتين وشهـد بدرًا والمشاهد كلهـا مع رسول الله ﷺ وروى عن النبى ﷺ وعن أبى بكر الصديق، وعـمر بن الخطاب، روى عنه أبو أمامـة أسعد ابن سهل بن حنيف، وعبد الله بن الزبير، وابنه عبد الله بن عـامر بن ربيعة، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب، وعن يزيد بن رومان، قال: أسلم عامر بن ربيـعة قديمًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم وقبل أن يدعـو فيهـا، وقال فى موضع آخر: عن عـبد الله بن عمر بن حفص عن عاصم بن عـبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعـة عن أبيه، قال: ما قدم أحد المدينة للهجرة قبلى إلا أبو سلمة بن عـبد الأسد، وعن معمر عن الزهرى عن عبد الله =

حنيف يغتسل فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، قال: فلبط سهل فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله، هل لك فى سهل بن حنيف والله ما يرفع رأسه، فقال: هل تتهمون له أحدًا، فقالوا: نتهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامرًا فتغلظ عليه وقال: علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت، اغتسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صب عليه فراح مع الناس ليس به بأس)[(١)].

رواه فى شراح السنة.

ورواه مالك، وفى روايته قال: (إن العين حق توضأ له).

من مشكاة المصابيح فى كتاب الطب والرقى.

قال فى روايته الطبى قال معين الدين النووى: وصف وضوء العاين عند العلماء أن يؤتى بقدح ماء، ولا يوضع القدح على الأرض فيأخذ غرفة فيتمضمض ثم يمجها فى اللوح، ثم يأخذ منه ما يغسل به وجهه ثم يأخذ بشماله ما يغسل به كفه اليمنى، ثم بشماله ما يغسل به مرفقه الأيمن، ثم بيمينه ما يغسل به كفه الأيسر، ثم يأخذ ما يغسل به مرفقه الأيسر ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين، ثم يغسل قدمه اليمنى ثم اليسرى، ثم ركبته اليمنى ثم اليسرى على الصفة المتقدمة.

وكل ذلك فى القدح، ثم داخلته إزاره وإذا استكمل هذا صبه وفى حلقه على رأس.

وهذا المعنى لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه إذ ليس فى قوة وجهه: إذ ليس العقل الاطلاع على أسرار جميع المعلومات، والله أعلم.

= ابن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: ما قدمت ظعينة المدينة أول من ليلى بنت أبى حثمة ـ يعنى: زوجته، مات فى خلافة عثمان، وقال مصعب بن عبد الله الزبيرى وغير واحد: مات سنة اثنتين وثلاثين، وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام فيمن مات سنة اثنتين وثلاثين، ثم ذكره فيمن مات سنة سبع وثلاثين، قال: وأظن هذا أثبت، وقال خليفة بن خياط: مات حين نشب الناس فى أمر عثمان بن عفان، كأنه يعنى سنة ثلاث وثلاثين، وحكى أبو سليمان بن زبر عن المدائنى أنه مات سنة ثلاث وثلاثين، ثم ذكره فيمن مات سنة ست وثلاثين فى المحرم، روى له الجماعة. انظر: المزى: تهذيب الكمال: ١٤/ ١٧ الترجمة رقم (٣٧٣٠).

(١) حديث: (رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل فقال: والله ما رأيت اليوم...) تقدم فى العين حق.

قال القاضي عياض[١]: قال بعضهم: أنه ينبغى إذا عرف أحد بالإصابة بالعين أن تجتنب عنه وينبغى للإمام منعه من مداخلة الناس ويأمره بلزوم بينه فإن كان فقيراً رزقه ما يكفيه ويكفى أذاه عن الناس فضرره أشد من ضرر أكل الثوم والبصل، ومن ضرر المجذوم أيضًا، هذا ما ذكره الطيبى[٢].

---

(١) (القاضى عياض): عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض، القاضى العلامة، عالم المغرب، أبو الفضل اليحصبى السبتى الحافظ، مولده بسبتة، فى سنة ست وسبعين وأربع مائة، وأصله أندلسى، تحول جده إلى فاس ثم سكن سبتة، أجازه القاضى الحافظ أبو على الغسانى، وكان يمكنه السماع منه وهو ابن عشرين سنة، وإنما دخل القاضى إلى الأندلس بعد موته فأخذ عن محمد بن حمدين وأبى على بن سكرة وأبى الحسين بن سراج وأبى محمد بن عتاب وهشام بن أحمد وأبى بحر بن العاص، وخلق، وتفقه بأبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى والقاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله المسيلى، وصنف التصانيف التى سارت بها الركبان، واشتهر اسمه وبعد صيته، قال ابن بشكوال: هو من أهل العلم والتفنن والذكاء والفهم، استقضى بسبتة مدة طويلة حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة فلم تطل مدته فيها وقدم علينا قرطبة فأخذنا عنه، وله كتاب: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ﷺ).

وقد قمنا بتحقيقه وطبع الحمد لله عام ١٩٩٥م وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك.

توفى القاضى عياض مغربًا عن وطنه فى وسط سنة أربع وأربعين وخمس مائة، قال ولده محمد: توفى فى ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة ودفن بمراكش.

انظر: الذهبى: تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٠٤ الترجمة رقم (١٠٨٣) وانظر مقدمة تحقيقنا لكتابه (الشفا..).

(٢) (الطيبى) هو: حسن بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧٤٣، ثلاث وأربعين وسبعمائة، شرح كتاب مشكاة المصابيح، وسماه: (الكاشف عن حقائق السنن) أوله: الحمد لله مشيد أركان الدين الحنيف... إلخ) قال: وكنت قبل قد استشرت الأخ فى الدين بقية الأولياء قطب الصلحاء ولى الدين: محمد بن عبد الله الخطيب بجمع فى جمع أصل من الأحاديث فاتفق رأينا على: (تكملة المصابيح) وتهذيبه وتعيين روايته، فما قصر فيما أشرت إليه من جمعه فبذل وسعه، فلما فرغ من إتمامه شمرت عن ساق الجد فى شرح معضلة بعد تتبع الكتب معلمًا لكل مصنف بعلامة فعلامة (معالم السنن) وأحكامها: خط وعلامة (شرح السنة): حسن... و(شرح مسلم): مع... إلخ، وسلكت فى النقل منها: طريق الاختصار، وكان جل اعتمادى وغاية اهتمامى (بشرح مسلم): للنووى لأنه كان أجمعها فوائد وأكثرها عوائد وما لا ترى عليه علامة: فأكثرها من نتائج خاطرى وذكر فى أوله: مقدمة فى أصول الحديث... انظر: كشف الظنون ٢/ ١٦٩٨.

أيضًا فى شرح الآخر وهو حديث سهل بن حنيف فى كتاب الطب والرقى.

قال الإمام الرازى فى التفسير الكبير:

اعلم أن أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ لما عزموا على الخروج إلى مصر وكانوا موضعين بالجمال والكمال واحد قال لا تدخلوا من باب واحد ﴿**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**﴾ وفيه قولان:

الأول: وهو قول جمهور المفسرين: أنه خاف من العين عليهم ولنا ههنا مقامان.

المقام الأول: إثبات أن العين حق والذى يدل عليه وجوه:

الأول: إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك.

الثانى: ما روى أن رسول الله ﷺ (كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لأمة)(١).

ويقول: هكذا كان يعوذ إبراهيم عليه السلام إسماعيل وإسحق صلوات الله عليهم.

الثالث: ما روى عبادة بن الصامت(٢) قال: دخلت على رسول الله ﷺ فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى، فقال: (إن جبريل ـ عليه السلام ـ أتانى فرقانى فقال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال: فأفقت)(٣).

الرابع: روى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا علمًا بيضًا فقالت أسماء: يا رسول الله ﷺ إن العين إليهم سريعة أفأسترق لهم من العين؟ فقال لها: نعم.

---

(١) حديث: (**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**) انظر: ابن حبان: الصحيح: ٣/ ٢٩١، ٢٩٢ الحديث رقم (١٠١٢)، (١٠١٣) الحاكم فى المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٨٣ الحديث رقم (٤٧٨١) والترمذى ٤/ ٣٩٦ الحديث رقم (٢٠٦٠) والهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٧ باب الاستعاذة، وأبو داود فى السنن: ٤/ ٢٣٥، والسنن الكبرى للبيهقى ٤/ ٤١١، وابن أبى شيبة فى المصنف ٥/ ٤٧ ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ١/ ٢٣٦، وغير ذلك.

(٢) (**عبادة بن الصامت**) تقدمت ترجمته.

(٣) حديث: (**دخلت على رسول الله (ﷺ) أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه...**) انظر: صحيح مسلم ٤/ ١٩٩١ الحديث ٤ رقم (٢٥٧١) وصحيح البخارى ٥/ ٢١٤٣، الحديث رقم (٥٣٣٦) والدارمى فى السنن: ٢/ ٤٠٨ والبيهقى فى السنن الكبرى: ٤/ ٣٥٧.

الخامس: دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا: يا رسول الله: أصابته العين، فقال: (أفلا تسترقون له من العين)[١].

السادس: قال رسول الله ﷺ: (العين حق ولو كان شىء يسبق القدر سبقت العين القدر)[٢].

السابع: قالت عائشة ﵂: كان يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذى أصيب بالعين.

المقام الثانى فى الكشف عن ماهيته فتقول: إن أبا على الجبائى[٣] أنكر هذا المعنى إنكاراً بليغًا ولم يذكر فى إنكاره شبهة فضلاً عن حجة.

وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: قال الجاحظ: يمتد من العين أجزاء فتصل الشخص المستحسن فتؤثر فيه فتسرى كتأثير اللسع والسم والنار وإن كان مخالفًا فى وجه التأثير لهذه الأشياء قال القاضى:

وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال لوجب أن يؤثر فى الشخص الذى لا يستحسن كتأثيره فى المستحسن.

واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف، وذلك لأنه إذا استحسن شيئًا فقد يحب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه وقد يكره بقاءه كما إذا أحسن الحاسد بحصول شىء حسن لعدوه.

فإن كان الأول فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح فى داخل القلب ـ فحينئذ ـ يستحسن القلب والروح جداً ويحصل فى روح الباصرة كيفية قوية مستحسنة.

وإن كان **الثانى**: فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد، وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه، والحزن أيضًا يوجب انحصار الروح فى داخل القلب، وتحصل فيه سخونة شديدة فثبت أن عند الاستحسان القوى تسخن الروح جداً

---

(١) حديث: **(أفلا تسترقون من العين)** تقدم تخريجه فى: العين حق.

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث منذ قليل.

(٣) تقدمت ترجمته أثناء المجالس الأولى بالكتاب.

فيسخن شعاع العين، بخلاف ما إذا لم يستحسن فإنه لا يحصل فيه هذه السخونة فظهر الفرق بينًا.

ولهذا السبب أمر رسول الله ﷺ العائن بالوضوء ومن أصابته العين أن يبعد الله تعالى ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك الكلف متعلقًا به.

فهذا المعنى غير ممتنع ثم لا يبعد أيضًا أنه لو ذكر ربه فالله تعالى يبقيه ولا يفنيه.

ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل: العين الحق.

الثالث: وهو قول الحكماء قالوا: هذا الكلام مبنى على مقدمة وهو أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيًا محضًا، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق.

والذى يدل عليه أن اللوح الذى يكون قليل العرض إذا كان موضوعًا على الأرض قدر الإنسان على المشى ولو كان موضوعًا فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان على المشى عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه منه.

فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة.

وأيضًا أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيًا حصل فى قلبه غضب وتسخن مزاجه جدًا فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفسانى.

ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية.

ولما ثبت أن التصور النفسانى يوجب تغير بدنه الخاص لا يبعد أيضًا أن يكون بعض النفوس بحيث يتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان.

فثبت أنه لا يمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الأبدان.

وأيضًا جوهر النفس مختلف بالماهية، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر فى تغير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه.

فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت النصوص والنفوس وقد نطقت به. فعنده لا يبقى فى وقوعه شك وإذا ثبت أن الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية بإصابة العين كلام حق لا يمكن رده.

القول الثانى: وهو قول أبى على الجبائى.

إن أبناء يعقوب عليه السلام اشتهروا بمصر فتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم فقال: لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من الحلية والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس.

أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم.

واعلم أن هذا الوجه محتمل للإنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينًا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل.

والمفسرون أطبقوا عليه فوجب الصبر إليه.

ونقل عن الحسن أنه قال: خاف عليهم العين فقال: ﴿**لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ**﴾ (يوسف: ٦٧) ثم رجع إلى علمه وقال: ﴿**وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ وعرفت أن العين ليست بشيء.

وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين ويقول: ليس في قوله: ﴿**وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ إبطال له، لأنه وإن صح فالله قادر على دفع أثره.

والقول الثالث: أنه ـ عليه السلام ـ كان عالمًا بأن ملك مصر هو ولده يوسف عليه السلام إلا أن الله ـ تعالى ـ ما أذن له في إظهار ذلك، فلما أنبأه إليه قال: ﴿**لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**﴾.

وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف ـ عليه السلام ـ في وقت الخلوة.

وهذا قول إبراهيم النخعي[1].

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ**﴾ من قضاء الله وقدره.

﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ قال الإمام أيضًا:

فاعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضًا بأن يحرم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأما الحذر لا ينتفي من القدر فالإنسان

---

(١) (إبراهيم النخعي) إبراهيم بن سويد النخعي الكوفي الأعور... روى عن الأسود بن يزيد وأخيه عبد الرحمن بن يزيد، وعمهما علقمة بن قيس، النخعيين.. وروى عنه الحسن بن عبيد الله النخعي، وزبيد بن الحارث اليامي، وسلمة بن كهيل الحضرمي، قال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين: مشهور، وقال النسائي: ثقة، روى له الجماعة سوى البخاري، انظر: المزي: تهذيب الكمال: ٢/ ١٠٤ الترجمة رقم (١٨١).

مأمور بأن يحذر من الأشياء المهلكة والأغذية الضارة، ويسعى فى تحصيل ودفع المضار بقدر الإمكان ثم إنه مع ذلك ينبغى أن يكون جازمًا بأنه لا يصل إليه إلا ما قدر الله ـ تعالى ـ ولا يحصل فى الوجود إلا ما أراد الله تعالى.

فقوله: ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة فى هذا العالم، وقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والنزول عن كل شىء سوى الله.

وقول القائل: كيف السبيل إلى الجمع بين القولين؟ فهذا السؤال غير مختص به وذلك لأنه لا بد من إقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصى والسيئات مع أن نعتقد أن السعيد من سعد فى بطن أمه، والشقى من شقى من بطن أمه، فكذا ههنا نأكل، ونشرب ونحترز عن الغموم، وعن الدخول فى النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى.

فكذا ههنا فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر، بل الحق أن العبد يحب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السعى البليغ والجهد الجهيد، فإنه يعلم أن كل ما يدخل فى الوجود فلا بد وأن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئة سابق حكمه وحكمته.

ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى فقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ فاعلم أن هذا من أول الدلائل على صحة قولنا فى القضاء والقدر وذلك لأن الحكم عبارة عن الإلزام بعيداً، من النقيض سميت حكمة الدابة بهذا الاسم لأنها تمنع الدابة من الحركات الفاسدة والحكمة إنما سمى حكما لأنه يقتضى ترجيح أحد طرفى الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف ممتنع الحصول، فبين الله ـ تعالى ـ أن الحكم هذا التفسير ليس إلا لله تعالى.

وذلك يدل على أن جميع الممكنات تستند إلى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه إما بغير واسطة وإما بواسطة.

ثم قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ التوكل تفويض الأمر إلى الله ـ تعالى ـ والاعتماد عليه.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ومعناه أنه لما ثبت أن الكل من الله ـ تعالى ـ ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا فى رجحان وجود المرادات على عدمها

والرهبة ليست إلا من رجحان وجود المكروهات على عدمها، وذلك الرجحان المانع من النقيض هو الحكم وثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا لله ـ تعالى ـ فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله ـ تعالى ـ وذلك يوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال، ونحن قد أشرنا إلى ما هو البرهان الحق فيه.

والشيخ أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ أطنب فى تقدير هذا المعنى فى كتاب (إحياء العلوم)[1] فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب.

قال الله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾.

أى من الأبواب المتفرقة وكان يوسف ـ عليه السلام ـ فى مدينة الفرماء من أعمال مصر ولها أربعة أبواب فدخلوا متفرقين.

﴿مَّا كَانَ﴾ أى دائمًا ﴿يُغْنِى﴾ رأى يعقوب وهو دخولهم مفترقين.

﴿عَنْهُم﴾ عن أولاده ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ من قضاء الله ومن قدره ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أصلاً كما كان قد قال: ﴿وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

فهو تصديق له فى قوله هذا، وكون ما كان جوابًا لما يؤكد كونه حرفًا كما هو من كلام سيبويه لا ظرفًا كما هو رأى أبى على الفارسى.

لأن ما بعد ما النافية لا يعمل فيها قبلها ولو كان ظرفًا بمعنى الحين لكان معمولاً لقوله ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى﴾ وذا لا يجوز.

ذكره أبو حيان إلا أن يقال الظروف تتسع فى غيرها.

وتفصيل الكلام ما ذكره الرضى فى أواخر بحث الظروف المبنية حيث قال: ومنها لما كان وهو ظرف بمعنى إذ اسم عند أبى على يستعمل استعمال الشروط كما يستعمل كلما.

وكلام سيبويه محتمل فإنه قال: لما لوقوع أمر لغيره وإنما يكون مثل لو شبهها بلا ولو حرف.

---

(١) تقدمت ترجمة الإمام أبى حامد الغزالى قبلاً، أما كتابه فهو «إحياء علوم الدين» وهو من أهم كتب المواعظ والعلوم الإسلامية وأعظمها حتى قيل: لو ذهبت كتب الإسلام وبقى الإحياء لأغنى عمًا ذهب، وهو مرتب على أربعة أقسام: (ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات)، فى كل ربع منها عشرة كتب... انظر تفاصيل مهمة حول هذا الكتاب فى كشف الظنون لحاجى خليفة ١/ ٢٣.

فقال ابن خروف[1]: إن لما حرف وحمل كلام سيبويه على أنه شرط فى الماضى كلو إلا أن لو لانتفاء الأول لانتفاء الثانى، لما لثبوت الثانى لثبوت الأول.

وقال: لو كان ظرفًا لم يجز لما أسلم دخل الجنة فالجواب أنه على التأكيد والتشبيه وكأنه دخلها فى ذلك الوقت.

ومن قال: هو ظرف، قال: وضع كلمة الشرط مع جملتيها للعرض الذى ذكرنا فى إذا ويليه فعل ماضى لفظًا أو معنى هو لم يفعل وجوابه أيضًا كذلك أو جملة اسمية مقرونه بإذا المفاجأة.

قال: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ﴾ (النساء: ٧٧) أو مع الفاء وربما كان ماضيًا مقرونًا بالفاء وقد يكون مضارعًا. انتهى.

﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾.

قال فى التيسير: لكن اضطرابًا فى قلبه ودغدغة فى خاطره ﴿قَضَاهَا﴾ أزالها حتى لا يقول إذا أصيبوا بالعين: قصرت ولم أنصح لهم.

وقال فى سائر التفاسير: لكن شفقة على الأولاد قلب يعقوب قضاها أظهرها فإلا حاجة استثناء منقطع بمعنى لكن حاجة وخبرها: إما قوله: ﴿قَضَاهَا﴾ وإما محذوف.

وقوله: ﴿قَضَاهَا﴾ صفة وتفصيله ما ذكر الرضى بقوله: واختلف فى عامل النصب فى المستثنى فقال البصريون: العامل فيه الفعل المتقدم أو معنى الفعل يتوسط إلا لأنه شيء يتعلق بالفعل معنى إذ هو جزء مما نسب إليه الفعل وقد جاء تمام الكلام فشابه المفعول.

وقال المبرد والزجاج: العامل فيه إلا لقيام معنى الاستثناء به.

وأما المنقطع فذهب سيبويه أنه منتصب بما قبل إلا من الكلام، كما انتصب المتصل به وذلك قوله فى الكتاب فحمل على لكن وعمل فيه ما قبله كعمل العشرين فى الدرهم.

---

(١) (ابن خروف): هو: على بن محمد، بن على بن محمد، أبو الحسن بن خروف الأندلسى، النحوى المشهور روى عن أبى بكر بن خير وأبى عبد الله بن مجاهد وغيرهما، وكان عارفًا بالأصول والعربية شرح كتاب سيبويه وشرح الجمل للزجاج وعمل كتابًا فى الرد على السهيل وغيره فى العربية، قال ابن الأبار: وله كتاب فى الرد على أبى المعالى الجوينى لم يصب فيه، وأقرأ النحو بعدة بلاد، ثم اختل عقله ومات بعد ذلك بمدة سنة تسع وخمسين وست مائة. انظر: لسان الميزان: ٤/ ٢٥٧ الترجمة رقم (٧٠٢).

وأما بعد إلاّ عنده مفرد سواء كان متـصلاً ومنقطعًا فهى وإن لم تكن حرفًا إلا أنها كلكن العاطفة للمفرد فى وقوع المفرد وبـعدها، فلهذا وجب فتح أن الواقعة بعده نحو قولك: زيد غنى إلا أنه شقى.

والمتأخرون لمـا رأوها بمعنى لكن قالوا: إنها لناصبة بنفسـها نصب لكن للأسماء وخبرها فى الأغلب محذوف نحو قولك: جاءنى القوم إلا حماراً، أى لكن حماراً، لم يجئ خبرها ظاهراً نحو قوله تعالى: ﴿**إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ**﴾ (يونس: ٩٨) انتهى.

﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ**﴾ (يوسف: ٦٨) أى: عظيم.

﴿**لِمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ للذى علمناه أو لتعلمنا فمدح علموا أنه راعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ولم يهملهـا فإنه مخالف للحكمة وحزم واعـتقد، وعلم أولاده أنه لا يدخل فى الوجود إلا ما أراده الله وقضاه وقدره وهذا هو ما عليه الشرائع كلها.

﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (يوسـف ٦٨) فإما مهـملون الأسباب ويعطلونها ويخالفون من جهال المساكين الإباحيـين وإما منعمون فى عالم الأسباب قاصرون النظر عليها لا يلتفتون إلى أسرار القضاء والقدر كالمنجمين الإحكاميين سماهم الله الشياطين بقوله فى سورة الملك ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ (الملك: ٥).

قال البيضـاوى: وقيل: معناه: وجعلناها رجومًا لشيـاطين الإنس وهم المنجمون، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمى به ما يرجم به.

وكذا الأطباء من الطبـيعيين حيث بقـوا فى عالم الأسباب ولم يعرجـوا إلى مسبب الأسباب.

أعاذنا الله من شرورهم.

قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ نظر بنيامين إليه فقال لإخوته إن حماليق عينيه تـشبه يوسف، فقالوا لـه: يا مشئوم أخو المـشئوم لا تنظر إليه ونكـسوا رءوسهم وألقى عليهم الهيـئة فنظر يوسف ـ عليه السلام ـ إلى بنيامين فـأخذه البكاء، ثم أمسك لئلا يعلموا به، فبـدءوا بالتحية والإكرام فقالوا: هذا أخـونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فرد عليهم يـوسف فقال: أحسنتم وأحسبتم وسـتجدون ذلك عندى، ثم أمر

بالجلوس فقال لهم يوسف: هل بلغتم أباكم ما قلت لكم؟ قالوا: نعم وقد رد الجواب إليك مع ابنه هذا، قال يوسف إلى بنيامين: بما أرسلك أبوك؟ قال: إنه يقرئك السلام ويقول: إنك سألتنى عن حزنى وكبر سنى وشيبتى ووهن عظمى وإنى أطول الناس حزنًا وأحقهم بذلك وأخوفهم لديه وأذكرهم لمعاده وأكبرنى قبل أوان الكبر تذكر يوم القيامة، وشيبنى قبل أوان الشيب تذكر الناس، وأوهن عظمى قبل أوان الضعف الحزن على يوسف وأعمى بصرى بكائى، وأنا من أهل بيت أكرمنا الله بالبلاء، وشرفنا ورفعنا به فنحن مخصوصون بعظمته فلا تصفو لنا الدنيا ولا نزال فيها مروعين، وقد بلغنى بحزنك بى، واهتمامك بأمرى وعرفت حقيقة ذلك حين سألتنى عن حالى وسألت عنى فكفى بالك لك جازيًا ومسببًا واعلم أنك لن تكرمنى بكرامة أعظم فى صدرى، وأبلغ فى سرى من أن تعجل لى ما تشبع به عيالى ثم تعمل إلى سراح أولادى فتصل بهم وحدتى وتؤنس بهم وحشتى، فلما سمع يوسف عليه السلام قول أبيه ورسالته بكى سرًا، فاشتد بكاؤه وحزن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن بنيامين كان على ثوبه فى مواضع يوسف شعر قال إليه وتسليا بالنظر إلى اسمه مكتوبًا فى ثوبه فقال له يوسف: ما هذه؟ فقال هو اسم أخ لى أكله الذئب وفجعت به فجعلت اسمه تذكرة لى وتسكينًا لقلبى فقال: هل كنت هناك إذْ أكله الذئب؟ قال: لا ولكن هؤلاء الإخوة ذكروا ذلك لى، فقال لهم: أهو كذلك؟ قالوا: نعم، قال: سمعت أن فيكم من يقلع الشجرة بأصلها ثم يضربها برجله فيجعلها قطعًا قطعًا أهو كما سمعت؟ قالوا: نعم هو هذا، وأشاروا لى روبيل، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ أكله الذئب وأنت فيهم، هذا محال، ثم قال: سمعت أن فيكم من يدرك الأسد بعدوه فيشق لحيه أهو كما سمعت؟ قالوا: نعم هو هذا، وأشاروا إلى شمعون، قال: أكله الذئب وأنت فيهم هذا محال، ثم قال: سمعت أن فيكم من لو صاح على باب مدينة وضعت كل ذات حمل حملها، ولو صاح أخرى وضعت كل بهيمة حملها أهو كما سمعت؟ قالوا: نعم هو هذا، وأشاروا إلى يهوذا، قال: أكله الذئب وأنت فيهم هذا محال، فسكتوا وخجلوا نكبة، كذلك العاصى ينكسر وجهه ويخجل يوم القيامة إذا لزمته الحجة، ثم أمرهم ودعى لهم بالموائد فنصبت وقدم عليها كل حار، وبارد من لذيذ الطعام فى صحائف الذهب والفضة ثم قال لهم يوسف ـ عليه السلام ـ

ليجلس كل أخوين على مائدة، ففعلوا وبقى بنيامين وحده لم يأكل، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ ما لك لا تأكل؟ فقال: أيها العزيز حللته على إخوتى وحرمته علىَّ بقولك ولو كان أخي يوسف معى لم أبق منفرداً، فبكى وبكى معه يوسف سرّاً فقال: أترضى أن أكون أخًا لك؟ قال: لا لى أحد مقام أخى ولم تلدك راحيل، فقال: أترضى أن أكون لك فى الأكل صاحبًا، ومن يجد ذلك فضمه إلى نفسه وجلس يأكل معه، فذلك معنى قوله ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أى ضمه إلى نفسه وأنزل معه.

وقيل: أجلسه معه على سريره، قال: بينما هو كذلك إذا بصبى قد خرج من داخل القصر وهو ميشا بن يوسف ـ عليه السلام ـ فلما نظر بنيامين إليه بكى فسأله يوسف عن بكائه فقال له: أيها العزيز إن هذا الصبى يشبه أخى يوسف فلأجل ذلك بكيت، وقال له يوسف: هو ولدى، فقال: جعله الله بارّاً تقيًا وبارك الله لك فيه.

وجعل يوسف يلقمه ويأكل وهو لا يتهنأ بالأكل فقال له يوسف ـ عليه السلام ـ أراك لا تتهنأ بالأكل، فقال بنيامين: لما أخرجت يدك للأكل رأيت يدك تشبه يد يوسف، ووجهك يشبه وجهه، فقال له يوسف: اصبر فسوف تراه ويؤول أمره إلى خير، قال: فجعل أولاد يعقوب ينظر بعضهم إلى بعض فحسدوه وينظرون إليه سرّاً ثم أخذ يوسف ـ عليه السلام ـ صاعًا فيه عسل نحل وماء وجعل يشرب ويسقى أخاه، فقال بعضهم لبعض: ألا ترون ما حصل له من الكرامة، أى من رآه أكرمه وقربه ولا سيما العزيز والله ليفتخرن علينا، فلما سمع يوسف ـ عليه السلام ـ خشى عليه منهم، فأمر بالصاع فقربه إليهم فشربوا وجعلوا يقبلونه ويتعجبون له فقال لهم: كأنكم تحبون أن تسرقوا فقالوا: معاذ الله لكنا نتعجب من صنعته وحسن بهجته، ثم إن يوسف ـ عليه السلام ـ جلس إلى سرير وأخذه إلى جانبه وجعل يسأله عن حال أبيه وعن حاله وقال له: تزوجت؟ قال: نعم ولى ثلاث ذكور، قال: فما أسماؤهم؟ قال: ذئب، قال يوسف ـ عليه السلام ـ أنت نبى الله وابن نبى تسمى أسماء الوحوش، فقال: إن إخوتى زعموا أن الذئب أكل أخى فإذا صحت به ذكرته فأبكى، قال: صدقت، واسم الثانى دم، لم ذلك؟ قال: إن إخوتى جاءوا بقميص أخى مضمن بالدم فسميته بذلك فإذا صحت به ذكرته فأبكى، قال: فما اسم الثالث، فبكى قال: ما بكاؤك فلقد بكيتنى، قال: سميته يوسف ـ عليه السلام ـ فإذا صحت به ذكرت يوسف فبكيت قال: وبكى يوسف فلم

يملك نفسه دون أن قام ودخل إلى مخدع له وبكى بكاء شديدًا فتحرك دمه، واهتز قلبه حتى يكاد يصيح ويفشى السر فقال: يا فتى تجلو معى فى مخدعى فخلا به وأجاد الباب وأرخى أنسته وكشف القناع ورفع البرقع ثم قال: أتعرفنى؟ قال: لا، قال: إنى أنا أخوك وقرة عينك يوسف، فاعتنقا وبكيا بكاءً كثيرًا حتى ضجت الملائكة فى السموات بالبكاء لبكائهما وجزعهما فخر بنيامين مغشيًا عليه ثم أفاق واعتنقا فبكيا.

نكتة: قيل: إن أولياء الله سبحانه وتعالى إذا رفع الحجاب بينه وبينهم ونظروا إلى الله تعالى يبقون فى نظره والهين ثمانمائة ألف سنة فى سكرتهم وفى غالب شوقهم حتى تطلب الحور العين والولدان من الرحمن فيقولون: إلهنا وسيدنا طالت المدة بيننا وبين أحبتنا فكثيرًا كنا ننتظرهم ثم أخذتهم عنا فيرسل الحجاب على أولياء فيقولون: أولياء الرحمن: إلهنا وسيدنا دعنا ننظر إليك لحظة أو لحظتين ثم افعل بنا ما تريد، فيقول الله تعالى: كم أنتم مناجاتى وحضرتى، يقولون: لحظة، فيقول الله ـ تعالى ـ: أنتم على المشاهدة ثمانمائة ألف سنة أفلا تشبعون؟! فأريحوا من وراءكم فإن الحور والولدان ينتظرونكم.

ثم قال يوسف عليه السلام ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾.

قال ابن عباس: فلا تحزن.

وقال الضحاك: فلا تبالى.

قال قتادة: لا تكترث.

وحقيقته لا تظهر من نفسك البؤس بما نالك ولا تخبرهم بأنى أخوك ولا تغتم.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لك إخوتك من الجفاء والسبب والتغير والحسد أى لا تغتم بما عملوا فى حقنا فيما مضى من الحسد والحرص على صرف أبينا عنا وعلى ما أدخلوا عليك من الحزن بما فعلوا فقد جمع الله بيننا وبين الشيخ يعقوب، ثم قال: كيف حال أبى وشيخى يعقوب؟ فقال: يا أخى ذهبت عيناه من البكاء حزنًا، وانحنى ظهره وضعفت قوته ولا يشتهى إلا لقاءك، فبكى يوسف بكاء شديدًا وقال: ليت أمى ثم قال: فكيف حال أختى؟ قال: وحياتك يا أخى ما لبست منذ أربعين سنة سوى مسح بشعر وهى تصعد كل يوم على مفرق الطريق وسألت عن كل من مر بها عنك قال: فبكى بكاء كثيرًا وقال: إلهى وسيدى، هذا أخى أراه بهذا الحزن فكيف يكون حال

الشـيخ يعقـوب، اللهم اجمع بينى وبينه قـبل فراقى من الـدنيا، فقـال بنيامـين: وإذا وجدتك فلا أفارقك ولا أرجع مع أصحابى، فقال له يوسف: لقد علمت اغتمام الوالد بك ولا أذكر الغموم التى منذ فـارقتنى قبلك وإذا حبستك ازداد غمه ولا يتـهيأ لى وجه صـالـح إلا بعد أن أشـهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى مـا لا يحمل، قال: لا أبالى فافعل ما بدا لك، فـإنى لا أفارقك، قـال: فإنى أدس الصـاع هذا فى رحلك ثم أنادى عليك بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك، قال: فافعل، قال: ثم مسح يوسف وجهه وخرج وأقبل على إخوته فقـال لهم: تحبون السرعة إلى أبيكم؟ قالوا: نعم أيهـا العزيز، فأمر الكيال بكيل الطعام وقال له: زدهم حمل بعير وطلب ابنه وقال: خذ هذا الصاع واجعله فى ذلك الوعاء وأشار إلى وعاء بنيامين ولا يشعر بك أحد.

كذا فى التيسير وأحسن القصص.

انتهى والحمد لله رب العالمين

مجلس في:

بيان دس الصاع فى رحل بنيامين وأخذه عنده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد.

فهذا مجلس فى بيان دس الصاع فى رحل بنيامين وأخذه عنده، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ (يوسف: ٧٠) اعلم أن الله تعالى ذكر التجهيز الأول بكلمة الواو وهنا بكلمة الفاء.

قال بعض العلماء: الفاء هنا فصيحة منبئة عما ذكر من قبل، أى لما عرض أخاه بدس الصاع فى رَحْله ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ﴾ أو فإذا كان كذلك فلما جهزهم.

والأولى أن الفاء العاطفة للجملة على الجملة للدلالة على تعجيل تصريح إخوته ليتهيأ له أخذ أخيه بخلاف ما قيل.

والجهاز: عدة السفر مما يعده للمسافر من زاده وحمل راحلته وسائر ما يحتاج إليه، أى فلما أصلح عدتهم وأوقر ركائبهم مما جاءوا له من الميرة ﴿جَعَلَ﴾ بنفسه أو بنائبه.

﴿السِّقَايَةَ﴾ مشربة الملك بكسر الميم ما يشرب منه الملك وكانت من فضة أو من ذهب مرصعة بالجواهر النفيسة مستطيلة كالمكوك (ظرف للعمائم) يشربون جعله مكيلاً لعزة الطعام.

﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين أى فى وعائه ثم أمهل حتى خرجوا من العمارة ثم أمر أميرًا يحتمل أنه أمينه الذى ينقر الجام كما سيجىء ذكره، معه خمسمائة غلام فلحق بهم خارج العمارة فدفعهم وحبسهم ونادى بهم وذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أذنه علمه، أذنه أعلمه، أذن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة إعلامه.

فيحتمل مد صوته بقوله: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ هى الإبل التى تحمل الميرة لأنها تعير أى تجىء وتذهب.

وقيل: مطلق ما يحمل الميرة من الإبل والبغال والحمير.

وقيل: العير لأنها جمع عير وهو الحمار الوحش والأهلية فأصله بالضم كثعف بكسر العين لسلامة الياء، كما فعل بيض والمراد أصحابها إما على مجاز حذف أو المجاز المرسل من قبيل ذكر المركوب وإرادة الراكب كقوله عليه السلام: يا خليل الله اركب.

﴿لَسَارِقُونَ﴾ أكد المؤذن سرقتهم باسمية الجملة وإن والام دفعًا لتوهم المجازفة والكذب.

كما قيل: واعلم أن الله تعالى قد أخبر فيما سبق فى قوله ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١٥) بأنه قد أوحى إليه بأنه سيوجد من يوسف هذا الإنباء فتجزم أنه قد وقع وليس فى هذه السورة ما يدل على هذا صريحًا.

فزعم بعضهم أنه قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٩) فبقى إلى الآن غير معلوم لنا.

لهذا القول فالله سبحانه حين وصل درسنا إلى هذا المقام ألهمنا بلطفه أن هذا الإنباء هو هذا القول، فالأمين المؤذن كان قد سمع من يوسف تفصيل أخبارهم ولم يكن غيره صاحب سره فأذن بأمر يوسف وقال على سبيل التورية: إنكم يا إخوة يوسف لسارقون البتة.

والتورية ـ ويقال لها: الإيهام أيضًا ـ هى أن يذكر لفظ له معنيان: قريب وبعيد، وأراد البعيد وهى قسمان: تورية مجردة عن ملائمات المعنى القريب كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥) معناه المراد البعيد استوى ولم يذكر من ملائمات معنى اقريب ـ أى استقر ـ شىء.

وتورية مرشحة ملائمات المعنى القريب كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ فإن المراد من الأيدى القدرة المعنى البعيد.

وقد ذكر من ملائمات المعنى القريب أى الخارجة المخصوصة البناء وإرادة المعنى البعيد لا تكون إلا بقرينة خفية وهى فى الآيتين استحالة الاستقرار على العرش والجارحة المخصوصة على الله تعالى.

والتـورية فيما نحن فيه مجردة والمـعنى القريب سرقة شيء الآن والمعنى البعيد سرقة يوسف من أبيه وهو المراد، والقرينة الخفية هنا استحالة الكذب والبهت والافتراء بالسرقة للبراء منها على النبى المعصوم أى يوسف الصديق.

فاعرفه فإنه من مواهب الرحمن لله تعالى.

وفى قـوله: ﴿لَسَارِقُونَ﴾ استعارة تمثيلية شبـه معاملتهم مع يوسف وأبيه بسرقة والسراق الملك المحرز من حرز صاحبه وإخفائه فى موضع.

وفى قوله: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ دون أن يقول: أيها الركبان وما يجرى مجراه، تعريض لهم بأنهم كالحيوانات العجم خصوصًا إذا كان العير بمعنى الحمر فافهم.

قال فى التيسير: قال فى (عصمة الأنبياء) فى قوله: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فـإن قالوا: لم اسـتجـار يوسف هذا وهذا فـيمـا بعد بين الـناس من أسـباب الخيـانة والخديعـة؟ قلنا: إنه فعل ذلك بالوحى قـال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ والله تعالى أجرى فى أحوال يوسف وإخوته وأبيه عن الأعـجوبات ما ينقطع عنه علوم العباد ولا يقفون على كنه معانيها حتى يرجعوا إلى تسليم القدرة.

ووضعه ذلك فى رحله ابتلاء إمساكه له ذلك لأنه أخوه ولو حبسه من غير علة ربما كانت نفع المماكسة بين الإخوة ولم يكن وقت إظهار حـقيقة الحال ففعل ما لا يجدون السبيل إلى منعه إلى أن تنقضى الآيات فى حكم الله.

وقول المنادى: إنكم لسارقون، له وجوه: **أحدها**: ما قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أن المنادى ربه لم يكن من يوسف، وإنما كان من خدمه أو من القوم على أسباب مملكته وهم قلما يراعون حدود الكلام حتى يتكلف لتحسين كلامهم.

وقال الإمام البشاعرى[1]:

إن وضعه فى رحله كان فى منزل يوسف عليه السـلام فحيث خرجوا به صاروا هم مخرجين ذلك الوعاء فعلاً وإن لم يشعروا به جهته عين الفعل ليحمل ذلك الوعاء سموا سارقين لاجتماعهم على إخراج الرجال من داره.

---

(١) (البـشاغـرى): هو محمد بن يحيى البشاغرى، عـالم فاضل ترك من المؤلفات كتابًا هامًا هو: (كشف الغوامض فى أحوال الأنبياء) ابتداء بتأليفه سنه ٨٣٨هـ وهى السنة التى توفى فيها رحمه الله. انظر: كحالة: معجم المؤلفين ١٢/ ١٠٠، البغدادى: هدية العارفين: ٢/ ١٨٩، إيضاح المكنون: ٢/ ٣٦٣.

ألا ترى فى الأحكام من حلف لا يحمل من منزله ثوبًا وقد كان الثوب فى ظرف وحمله يحنث فى يمينه وإن لم يشعر به، وهو موجب للضمان إذا حمله إنسان.

ويوسف فيما جعله فى وعاء أخيه لم يأمره بإخراجه من الدار يرفع الرحل فى فعلوا فعلوا بغير أمره ومن أخرج متاعًا من دار إنسان فهو فى ضمن المخرج إذا كان بغير أمره، فلذلك سموا سارقين على هذا التأويل.

وقيل: هو على الاستفهام أى إنكم لسارقون، ولأن من الجائز أن يكون ظهر منهم عند يوسف من يرى أمرهم إلى ما يطاق تسميتهم به، وإن لم يكونوا سارقين هذا الوعاء.

وقيل: كان تعريفًا بإخراجهم يوسف من أبيه كاتمين ما قصدوا أن يفعلوا به من نفسه عنه.

انتهى كلام التيسير.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أى: إخوة يوسف.

﴿وَأَقْبَلُوا﴾ حال بتقدير قد دلالة على تأثرهم من نسبتهم إياهم إلى السرقة، مؤكدة، أى قالوا مقبلين.

﴿عَلَيْهِم﴾ لتأثرهم من قولهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (يوسف: ٧١) فى ماذا فى مثل هذا المقام أى فيما ذكر قبل، فعل متعد وجهان كون ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وإذا اسم موصول بمعنى الذى خبر ما مع صلته، أو بالعكس أى كونه ذا مع صلته مبتدأ وما خبرًا مقدمًا، وكون ماذا مركبا منصوبا بالفعل بعده فإذا ذكر جوابه منصوبًا جملة فعلية فالأصوب الثانى، أى كون ماذا استفهامية منصوبة بالفعل ليطابق السؤال الجواب كما ههنا فى كونهما فعليتين، وإن جاز الأول.

وإذا ذكر جوابه مرفوعًا فالأصوب الأول وإن جاز الثانى فقد يجىء بمعنى عدم وبمعنى طلب.

فإن كان المراد هنا الطلب فصيغة المضارعة فى السؤال والجواب على أصله أى ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب صواع الملك وإن كان المراد العدم، فالظاهر فقد تم فى السؤال، فقدنا فى الجواب، فالمضارع لاستحضار الحال الماضية.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ (يوسف: ٧٢) والصواع هو السقاية كما ذكر أنها جعلت مكيلاً لعزة الطعام.

﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ﴾ وإن كان نفس السارق.

﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام.

﴿وَأَنَا بِهِ﴾ أى بالحمل.

﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل، فكفل المؤذن أى الأمين صاحب سر يوسف ـ عليه السلام ـ وهى حمل بعير، فدلت الآية على جواز الكفالة فى دينهم كما فى ديننا لقوله ﷺ: (الزعيم غارم)(١).

ولا جهالة هنا لأن حمل بعير كان هو معلومًا عندهم.

﴿قَالُوا﴾ أى إخوة يوسف.

﴿تَاللَّهِ﴾ التاء للقسم عوض عن الواو، كما عوضت فى وراث، وتراث ووجاه وتجاه، وهى عن الباء لأن أصلها للإلصاق فيناسب القسم لأنه الصاق القسم بالمقسم به، فلكون الباء الأصل فى القسم يذكر مع فعل القسم نحو أقسم بالله، ومع حذفه نحو بالله لأفعلن، ويذكر فى القسم الطلبى نحو: بالله أخبرنى، وفى الغير الطلبى نحو: بالله لأضربن.

ويدخل على الظاهر من كل اسم الله نحو بالله، وبالرحمان وعلى الضمير نحو: به، وبك للقسم بخلاف الواو حيث لا يذكر مع فعل القسم، ولا يذكر فى القسم الطلبى، ولا يدخل على الضمير والتاء لكونه فرع والفرع لا يذكر مع الفعل ولا فى القسم الطلبى ولا يدخل على الضمير ولا يدخل على اسم سوى كلمة الله، وقد جاء:

---

(١) حديث: (الزعيم غارم) انظر هذه الأحاديث وفيها: عن شرحبيل بن مسلم عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «الزعيم غارم» قال المزنى: والزعيم فى اللغة هو الكفيل، عن عمرو بن مالك أنه سمع فضالة ابن عبيد يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول ثم أنا زعيم، والزعيم: الحميل لمن آمن بى وأسلم وهاجر ببيت فى ربض الجنة، عن عمرو بن مالك الجنى أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا زعيم ـ والزعيم الحميل ـ لمن آمن بى وأسلم وجاهد فى سبيل الله ببيت فى ربض الجنة، وببيت فى وسط الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بى وأسلم وهاجر ببيت فى ربض الجنة وببيت فى وسط الجنة، وببيت فى أعلى غرف الجنة، فمن فعل ذلك فلم يدع للخير مطلبًا ولا من الشر مهربًا يموت حيث يشاء أن يموت» وذكر المزنى ههنا حديث أبى سعيد الخدرى فى الضمان، وإسناد حديث أبى سعيد ضعيف، انظر البيهقى فى السنن الكبرى الأحاديث أرقام: (١١١٧٤، ١١١٧٥، ١١١٧٦).

ترب الله، وتربى، وفى التاء تعجب فى موارد استعمالاتها بحسب الاستعمال كما فى قوله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ وفى قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾.

وهنا فكأنهم تعجبوا من إسناد السرقة إليهم وقد علموا بالديانة فقالوا متعجبين:

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ (يوسف: ٧٣) فى ترنى مجيئنا للميرة ودخولنا على الملك من حسن سيرتنا فإنهم كانوا يجيئون للميرة كاتمين أفواه رواحلهم لئلا تتناول من زرع أحد أو طعام، وقد ردوا بضاعتهم لوهم النسيان من الخدام كيالين، وكانوا مشتهرين بالعبادة فى كل منزل، ولذا استشهدوا بعلمهم وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر إفسادًا مطلقًا سرقة أو غيرها فإذا لم يكن غرضهم الإفساد ما أدل عليه للام لم يعابوا بما صدر منهم على سبيل السهو والنسيان.

﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (يوسف: ٧٣) أى ما صح ثناؤنا استقام السرقة فى وقت قط.

﴿قَالُوا﴾ أى أصحاب يوسف، المؤذن وأتباعه:

﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ (يوسف: ٧٤) جزاؤه على قول الكوفيين أو دليل جزاء على مذهب البصريين لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أى إخوة يوسف.

﴿جَزَاؤُهُ﴾ أى سرقة الصالح على حذف المضاف مبتدأ خبره ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أى أخذها.

وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم وتكرير له والخبر الجملة الشرطية، أى قوله: من وجد فى رحله فهو أى من وجد هو أى جزاؤه، ثم أقيم الظاهر أى الجزاء مقام الضمير الثانى.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ إعادة لقوله المستغنى أى المسئول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (يوسف: ٧٥) أى السارقين من تمام قول إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ وكان فى شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ جزاء السارق استبعاده سنة.

﴿فَبَدَأَ﴾ أى المؤذن الأمين صاحب سر يوسف عليه السلام.

﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ الأكبر فالأكبر ولم يجد فيها.

﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف: ٧٦) فلما وصل النوبة إلى بنيامين قال المؤذن: الظاهر أنه ليس فى رحله لأنه أصلح منكم، قالوا: لا نرضى حتى تفتشه أيضًا.

﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أى السقاية المجعولة فى رحله كما ذكر فى قوله: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

فلذا أنث الضمير بعد تذكيره مرارًا.

وقيل: الضمير للصواع وهو يذكر ويؤنث.

﴿مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ﴾ الكاف مقحمة وذلك إشارة إلى مصدر.

﴿كِدْنَا﴾ بعده والتبعيد للتفخيم أى كدنا عظيمًا إخوة يوسف.

﴿لِيُوسُفَ﴾ لأجله ولتحصيل مراده لعدم مفارقة أخيه كما كادوه أول مرة إذ قال أبوهم ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فصار كقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ والكيد والمكر، هو أن توهم غيرك خلاف ما تضمر له، فإخوته أوهموا حفظه ونفعه بقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وأضمروا إلقاءه فى الجب.

وكذا أوهمهم يوسف أى منه بالاستفتاء منهم نفعهم وأضمر أخذ أخيه فهذا الكيد لما كان من الله نفد، وكيدهم لما كان من عند أنفسهم بطل كقولهم: إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

فمعنى ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ علمنا وأوصينا إليه دس الصاع والاستغناء منهم فى السارق لأجل حصول مرامه، ثم علل باستئناف قوله.

﴿مَا كَانَ﴾ يوسف مناسبًا ومستبعدًا وقادرًا ومتهيأ.

﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ وهذه اللام لام الجحود لام تأكيد بعد النفى لكاده مثل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الظاهر أن تقدير أيضًا بعد الكلام الزائدة التى تجىء بعد فعل الأمر والإرادة نحو: أمرت الأعول ويريه الله ليذهب، والتى لتأكيد النفى تخص من حيث الاستعمال بخبر كان المنفى إذا كان ماضيه لفظًا نحو: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ (الأنفال: ٣٣) ومعنى نحو: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٣٧) وكانت هذه اللام فى الأصل هى التى نحو قولهم: أنت لهذه الحنطة، أى مناسب لها وهى لا تليق إلا بك.

فمعنى: ما كنت لأفعل: ما كنت مناسبًا لفعله ولا يليق بى ذلك ولا شك أن فى هذا معنى التأكيد.

﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ وقانونه فى أمر السراق الضرب وتغريم الضعف، فلو لم يعلمه الله الكيد المذكور لم يقدر على أخذه فى قانون الملك فى وقت من الأوقات.

﴿إِلاَّ﴾ وقت ﴿أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أخذه على دين الملك بأن يجعل دينه دين يعقوب وقانونهم موافقًا شرعه أو لكن مشيئة الله أخذه بهذا الكيد صارت سببًا لأخذه.

﴿نَرْفَعُ﴾ تذييل لكدنا وصيغة المضارع للاستمرار، أى علمناه هذا الكيد ورفعناه درجة بهذا العلم نرفع ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أى فى درجات الكمال والفضل والعلم.

﴿مَّن نَّشَاءُ﴾ رفعه كائنًا من كان فصار بهذا التعميم كقوله: زهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من الخلائق.

﴿عَلِيمٌ﴾ منهم أيضًا إذا نظر إلى سلسلة الممكنات، أو عليم هو الله لأنه فوق كل ذى علم، وهو اعتراض تذييل لقوله: ﴿نَرْفَعُ﴾ يؤكد رفع كل من يشاء فى العلم على الأول لأنه إذا رفع شخص فيه يكون متفوقًا على آخر وهكذا أو يحقق كون الرافع هو الله على الثانى لأنه إذا كان الله عليمًا فوق كل ذى علم عالم، فيرفع إليه ليس عالمًا بالعلم إذ لو كان لزم أن يكون فوقه عليم لكونه ذا علم بل، عالمًا بذاته ساقط بما مر من التخصيص والدليل عليه كون الكلام فى الخلق كيوسف وإخوته وسائر النصوص مثل قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (الزخرف: ٨٥) وقوله: ﴿وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ (فاطر: ١١) وقوله: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وللمقابلة على المعنى الثانى إذ المراد من العليم هو الله فذو علم هو الخلق.

﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف.

﴿إِن يَسْرِقْ﴾ كلمة إن وصيغة المضارع مع أن السرقة تحققت عندهم لقولهم لأبيهم إن ابنك سرق توبيخ بنيامين وتصوير أن السرقة لوجود ما نقصها وهو كونهم أولاد الأنبياء تفرض كما تفرض المحال وتشك فى وجودها.

﴿فَقَدْ سَرَقَ﴾ (يوسف: ٧٧) دليل للجزاء، أى فلا تتعجب أيها العزيز لأنه قد سرق.

﴿أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف ـ عليه السلام ـ.

فبنيامين ليس على سيرتها وطريقة أخيه الهالك وبيان هذه السرقة الأظهر فيه ما قيل

إنه كانت منطقة لإبراهيم ورثتها عمة يوسف من أبيها الحق وكانت تحض وتحبه فلما ثبت أراد يعقوب انتزاعه منها فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها فتفحص عنها فوجدت محرمة عليه فصارت أحق به فى حكمهم.

وقيل: كان لأبى أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه فى الجيف.

وقيل: كان فى البيت عناق أو دجاجة فأعطى السائل.

﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أى الكلمة أو الجملة مبهمة يفسرها ما بعدها.

﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أى الكلمة.

﴿لَهُمْ﴾ عطف تفسيرى لأسرها له.

﴿قَالَ﴾ بدل من أسرها.

﴿أَنْتُمْ شَرٌّ﴾ أنتم ﴿مَكَانًا﴾ مفسر للضمير المنصوب فى أسرها، أى قال قولاً خفيفًا غير جهرى وأسره القول فى نفسه مع تكلم كلامًا خفيًا يعنى لم يبدأ القول لهم أنتم شر مكانًا عند الله، فهذه الجملة وهذه الكلمة بعد جعلها فى حكم المفرد باعتبارها جملة أى: مجموعًا وتصيرها كلمة أى مفردًا باعتبار هذا القول أى: أسر هذه اللفظة وهذه الكلمة.

وما قيل من أن تفسير الضمير بالجملة مختص بضمير الشأن غير وارد لأن الجملة مع اعتبار التركيب والحكم يكون تفسيرًا لضمير الشأن.

وهنا قد اعتبرت كلمة ولفظًا وقولاً من غير نظر إلى اعتبار التركيب والحكم فصار كقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٢) أى بكلمة وجملة ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ٧٧) من سرقة يوسف منك أى ذا أنتم تعرفون ظاهر الحال وهو وجود المنطقة فيه والله يعلم ظاهرها وحقيقتها إذ ما كان يصنع، قال فى التيسير:

قالوا: فافتحوا نفتش رحالكم فالأخوة واثقين بما يقولون من براءتهم، سديدة ألسنتهم وقلوبهم، فبدأ برحل أخيهم الأكبر ثم الذى يليه حتى بلغ رحل بنيامين، فوجد الصواع مدسوسًا فيه فلما استخرجه منه نكسوا على رءوسهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم وخلوا بأخيهم وقالوا: يا بن الميشوم ما هذا من مشوم أمك وشؤهم

ولدها [. . .][1] ولولا [. . .][2] فى أخيك أمرًا جازمًا لجرَّ علينا أعظم من حردتك فما الذى حملك على أن تسرق صواع الملك، فتفضحنا وتفضح نفسك وتزرى بأبيك الصديق، وليس هذا بأول ما سامتنا أمك بولدها حتى صرف وجه أبينا عنا فحملنا شؤمك على أن أحزنا أبانا وبعنا أخانا، ولو كنا فعلنا ذلك بك لاسترحنا ويخلو لنا وجه أبينا، فقال لهم بنيامين: اسمعوا منى يا إخوتاه ولا تعجلوا على ولا تشتمونى فإنى سآتيكم بوجه من الحق تعرفون به براءتى وعذرى، ألستم تعلمون أن بضاعتكم قد دست فى رحالكم يوم صدرتم من عند هذا الملك بغير علم منكم، فإن كنتم أنتم سرقتموها ودسستموها فى رحالكم كنت أنا سرقت الصواع فى رحلى وإلاَّ فاعلموا أن هذا الملك يريد بكم أمرًا فهو يمكر لكم من أجله، فلما قال لهم هذا نظروا فيما قال فأخذ بأنفسهم وتعلق بقلوبهم فصدقوه فلما رجعوا إلى يوسف ـ عليه السلام ـ ودخلوا عليه قال لهم: كيف رأيتم فراستى فيكم وعلمى بأمركم أليس قد أخبرتكم فى اليوم الذى رأيتكم أنكم سُرَّاق، فأنكرتم وحلفتم وايم الله لا ترجوا حتى أسأل الصواع عنكم فيخبرنى ما عندكم فإنه غضبان عليكم من أجل أنكم سرقتموه فهو خليق أن يفضحكم وأن لا يستر شيئًا من مساوئكم.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ (يوسف: ٧٧) يعنى أسوأ صنيعًا بما صنعتم بيوسف **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾** بما تقولون من الكذب بأن أخاه يوسف سرق.

وإنما عيروا يوسف بالسرقة لأنه كان لجد يوسف أبى أمه صنم كان يعبده فقالت أم يوسف، ليوسف: خذ هذا الصنم يعبده جدك فغيبه لعله يترك عبادة الأصنام ـ وكان صنمًا من ذهب ـ فغيبه يوسف فلم يقدروا عليه من أجل الصنم قالوا: **﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾** ثم قال يوسف لأمينه: سل هذا الصواع عن خبر هؤلاء القوم وحذره أن يكتم شيئًا من أمرهم فنقره الأمين الصواع ثم قال: أخبر الملك بالذى سألك عنه، فظن الصواع ساعة والأمين مُصْغٍ إليه بأذنه فلما سكت الصواع قال الأمين: إن الصواع يقول لك أيها الملك: إن هؤلاء القوم ليس هذا بأول ما سرقوا إنهم سرقوا قبل صواعك هذا غلامًا حرًا فباعوه قال: تزد، فاسأله عنهم وقل له يخبرنا من أخبارهم،

---

(١) ما بين المعقوفتين غير واضح فى المخطوط.

(٢) ما بين المعقوفتين غير واضح فى المخطوط.

فنقر الأمين الصـواع فطن وهو مصغ إليه بأذنه، فلما سكت الصـواع، قال الأمين: إنه يقول: إن أخاهم الذى أخبـروك أنه قد مات حى، ولكنه مغترب بأرض بـعيدة وهو بها حى سليم.

وزعم هذا الصـواع أنهم لم يصدقـوك عن هلاكـه كيف كـان هلك وأنه لا ينقص الأيام والليالى حتى يرجع الغلام فيخبر الناس أخبارهم، قال: زد فاسأله عنهم، وقل له يخبرنى من أخبـارهم، فنقر الأمين الصواع فقال: يا أيهـا الملك إن الصواع يقول: إن هؤلاء القوم أخبروك أنهم لأم واحدة كذبوا ولكنهم لعلات عليهم عذروا بها بابهم ولولا ذلك لكان بينهم ما يكون بين أولاد علات، قال: زد فـاسأله عنهم وقل له فليخبرنا من أخبـارهم، فنقره فطن، وهو مصغ إليه بـأذنه، فلما سكت الصواع، قال الأمـين: أيها الملك إن الصـواع يقول لك: مـا على ظهر الأرض من عـصابة هى أكـذب من هؤلاء القوم لقد كـذبوا أباهم كذبة ما استـقالوها بعد ولا عورف لهم، قـال: زد فاسأله عنهم وقل له: فليـخبـرنا من أخبـارهم، فنقره، فـطن الصواع وهو مـصغ إليه بأذنه، فلمـا سكت، قال الأمين: أيـها الملك إن الصواع يقول: ما دخل عـلى أب هؤلاء القوم قد عقلوهم وحزن ولا بلاء ولا بكاء إلا من جهتهم وسـببهم وعلى أيديهم وبحراهم، فلما خافوا أن يبلغ بـهم الخبر والمسائل شـأن يوسف وفعلهم الذى فعلوا به وبأبيـهم أكبوا على يوسف فالتزموه يقبلون رأسه وقدميه، ويسألونه بالله ويذكرونه به ويقولون: نسألك بالذى فضلك على العالمين وشبهك بالنبيين لما سرت العودة وأفلت العشرة وكنت عند حسـن الظن بك، والرجاء فـيك، وحفظت رسـالة أبينا يعقـوب إليك، ووصيـته فـينا ورحمت ضعفه وكـبره، ووحدته بعدنا، ووحشته بغيبتنا، فـرق حين ذكروا أباه وأدركته الرحمة لهم فقال: أمـا والله لولا حرمة يعقوب، وحقه ورسالتـه، ووصيته لنكّلت بكم من خلفكم وشردت بكم السراق واللصوص فانطلقوا قد عفوت عنكم فاغربوا فلا حاجة لى فيكم وعجلوا بميرتكم إلى أبيكم فإنه قد أوعن إلى أن أعجلكم.

انتهى كلام التيسير.

﴿قَالُوا﴾ أى إخوة يوسف.

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ انظر إلى بطلان كيدهم حيث جـعلوه فى الجب وباعوه ليذكوه فالآن نطقوا بعزه التام لأنه لا يذل من أعزه الله.

﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً﴾ (يوسف: ٧٨) أو المرحمة على الشيوخ ثابتة فى جميع الأديان، والخضوع للأنبياء والرسل ثابت فى الأهل الأديان السماوية، فلذا لم يقولوا: أبا بنيامين مرسلاً، لأن أهل مصر كان أكثرهم مشركين، وهذا الشيخ الكبير ثكلان بابن له مفقود مؤنس بهذا لكونه شقيقًا للمفقود.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ استعباداً أو رهنًا.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فاعم إحسانك أو نرى عادتك الإحسان فاجْرِ على عادتك ولا تغيرها، اعتراض تذييلى مؤكد لما قبله، بيان للموجب على التفسيرين.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ نعوذ بالله معاذ أمن.

﴿أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾ (يوسف ٧٩) أى السقاية.

﴿عِندَهُ﴾ ولم يقل إلا السارق إفادة لتحقيق الحال.

﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ جواب لقولهم ماذا يلزم إن أخذت أحدنا، أى يلزم الظلم، وجزاء الشرط لو أخذنا غير بظلمنا.

وهذا الكلام موجه أى ذو وجهين:

وجه له فى الظاهر ووجه له فى الحقيقة، فيكون تورية وإيهامًا كقول أبى بكر الصديق حين هاجر مع رسول الله لو أخذنا غيره لكنا ظالمين، بحسب فتواكم، لأن متاعنا وجد فى رحله.

ومعناه البعيد الحقيقى أنا آخذ بأمر الله ووحيه إلينا فلو أخذنا غيره لصرنا ظالمين عند الله.

مجلس في:

بيان رجوع إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ إلى أبيهم وشهادتهم عنده سرقة بنيامين وجوابه لهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان رجوع إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ إلى أبيهم وشهادتهم عنده سرقة بنيامين وجوابه لهم، قال الله تعالى[1]: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾ استيأس بمعنى انقطاع الطمع لكن فى استيأس مبالغة لأن السين للطلب فكأنهم كانوا فى بأس فطلبوا زيادة ذلك من أنفسهم.

حاصله يئسوا يأسًا شديدًا أى انقطع طمعهم.

﴿مِنْهُ﴾ أى يوسف ـ عليه السلام ـ ورد بنيامين، لقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ﴾ إلخ.

فاستعاذ بالله من أخذ غيره وعده ظلمًا بقوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾.

فلذا استيأسوا من يوسف عليه السلام فلهذا اليأس الشديد منه ﴿خَلَصُوا﴾ أى انفردوا واعتزلوا عن الناس جميعًا يقال: خلص الشىء أى ما بقى شوب فيه من غيره.

﴿نَجِيًّا﴾ إما صفة مشبهة بمعنى المناجى كالعشير بمعنى المعاشر والسمير بمعنى المسامر، حال من فاعل خلصوا وإفراده لكونه صفة للفظ مجموع المعنى مفرد اللفظ أى فوجًا مناجيًا.

أو لكونه فى زنة المصدر كالصهيل والنهيق، فكأنه مصدر.

---

(١) الآيات من (٨٠) إلى (٨٣) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وإما مصدر بمعنى النجوى والمضاف مقدر أى خلصوا ذوى.

والأحسن أن يكون من باب رجل عدل، فكأنهم صاروا صورة النجوى وحقيقة وعيته لما ادهمهم شيء عظيم لأنهم إذا ذهبوا إلى أبيهم ولم يكن بنيامين فيهم استحيوا من أبيهم وخجلوا خجلاً عظيمًا وإن بقوا فى مصر إلى آخر السنة حتى يذهبوا ببنيامين يبقى أبوهم وحيدًا ولا مؤنس له ولا خادم بل يظنهم هالكين فيشتد حزنه.

وأيضًا يجوز أولادهم فتشاوروا لذلك فعند ذلك قال: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أى كبيرهم فى السن وهو روبيل، أو فى القدر وهو رئيسهم شمعون، أو فى العقل وهو يهوذا، الذى قال: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ (يوسف: ١٠) مخاطبًا لإخوته ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ﴾ ملزمًا وموجبًا وألزم وأوجب أخذًا.

﴿عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عهدًا وثيقًا مبرمًا باليمين مأذونًا ﴿مِّنَ﴾ جهة ﴿اللَّهِ﴾ أى يمينًا مشروعًا لتأتننى به إلا أن يحاط بكم.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أى قبل هذا لأخذنا ﴿مَا﴾ زائدة.

﴿فَرَّطتُمْ﴾ أى قصرتم ﴿فِي يُوسُفَ﴾ فى شأنه وفى حفظه، والجملة حال من الضمير المجرور فى عليكم، أى وقد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف وحفظه من قبل أخذ الموثق على بنيامين، والتوجه هو الظاهر.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية وما فرطتم أى: تفريطكم مرفوعًا بالابتداء وخبره «من قبل» والجملة أيضًا حال ويرد عليه أن من قبل وكذا سائر الغايات أى من بعد ومن قدام، ومن خلف، بعد حذف المضاف إليه لا يقع خبرًا، ولا صلة، ولا صفة، ولا حالاً لنقصانه ومشابهة الحرف.

وأجيب بقوله تعالى فى سورة الروم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الروم: ٤٢) لأن الظاهر أن «من قبل» صلة.

ورد بأن «من قبل» فى هذه الآية ظرف لغو متعلق بقوله بعد ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾[1] وهو الصلة.

لكن إطباق أكثر المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئناف

(١) الآية (٤٢) من سورة الروم، وهى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفشو الشرك وغلبته فيهم أو كان للشرك فى أكثرهم، ولما دونه من المعاصى فى قليل منهم، فيكون (من قبل) صلة البتة.

فالظاهر أن هناك مذهبين:

فمذهب صاحب الكشاف أن الغايات بعد حذف المضاف إليه تكون خبراً وصلة وحالاً وصفة.

ومذهب أبى البقاء: أنه لا يجوز.

والحق هو الأول.

ويجوز أن يكون المصدر أى «تفريطكم» منصوبًا معطوفًا على مفعول «ألم تعلموا» أو اسم إن، أى ألم تعلموا تفريطكم فى حق يوسف من قبل هذا.

أو: ألم تعلموا أن تفريطكم واقع فى يوسف أو واقع من قبل هذا.

ويرده عليه أنه على هذا يكون الظرف أى: (من قبل) فاصلاً بين حرف العطف والمعطوف.

وكذا يلزم أن يتقدم معمول (ما) فى حيز ما المصدرية عليها وذا لا يجوز.

ويجاب عنهما جميعًا: أنه يتسع فى الظروف ما لا يتسع فى غيرها، لأن الظرف محرم الأشياء يقع غيره.

ويجوز أن يكون (ما) موصولة وأن يكون (فرطتم) بمعنى قدمتم وأن يكون الموصول مع صلته مرفوعًا أو منصوبًا كما مر فى المصدرية.

ويرد بعدما سبق أن المعنى حينئذ ومن قبل ما قدمتموه فى يوسف فيكون فى الكلام تكرار لاتحاد معنى «من قبل» معنى ما قدمتموه.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾ تامة بمعنى، فلن أنفصل.

﴿الأَرْضَ﴾ أى من أرض مصر.

قال الرضى ما معناه: إنَّ برح، وفتئ ونظائرهما قد تكون تامة متعدية يقال: لا يبرح الفلان من داره أى: ينفصل منها.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالرجوع إليه.

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بخلاص أخى، إما بأن يطلقه العزيز أو بأن تتم السنة أو سبب آخر.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه يحكم بالعدل دائمًا ولا يأخذ الرشوة ولا تأخذه الحشمة.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ﴾ بقول الكبير فى العقل لإخوته التسعة الباقية.

﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أكدوا سرقته بإن لجزمهم بها بدليل قولهم.

﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه بالسرقة.

﴿إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ أى: بالذى علمناه منه أى بسببه، وهو إنما رأينا أن الصواع استخرج من وعائه وهو أبين دليل على السرقة.

فإن كان المراد من العلم اليقين وهو العلم الحازم الثابت المطابق للواقع، فيكون هذا الكلام خبرًا فافهم.

لأن احتمال أن يدس غيره الصواع فى رحله يمنع الجزم ويقطعه وهو ليس بمطابقة للواقع أيضًا.

فيكون هذا الكلام ادعاء منهم للعلم مع أنهم كاذبون فيه فليس هذا بأول كذباتهم فيكون هذا الأمر المسئول لهم على ما قاله أبوهم.

وهذا المعنى هو اللائق بشأنهم وإن كان المراد من العلم الإدراك الراجح ليطلق على الظن بناء على أن الشهادة تجوز على استصحاب، وهو إبقاء ما كان على ما كان وهو لا يفيد إلا الظن ويطلق عليه العلم كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ (الممتحنة: ١٠) لأن الامتحان لا يفيد إلا الظن الغالب فالأمر ظاهر لأن التأكيد والشهادة وإطلاق العلم يجوز مع الظن.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (يوسف: ٨١) معناه على الأول: إنا لم نعلم أنه سيسرق وإنك ستصاب بمصيبته لأنا ما كنا عالمين بالغيب، أى: بأنه سيسرق أو إنك تصاب وإلا لم نذهب به أصلاً.

فالمراد من الحفظة على هذا العلم لأنه سببه.

وعلى الثانى: معناه ما رأينا فى الظاهر إلا خروج الصواع من رحله فلذا ظننا السرقة به وشهدنا بها وما ندرى أنه سرق على الحقيقة أم دس الصاع فى رحله لأنا ما كنا للغيب منا وهو الدس أو السرقة حافظين.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هى بلدة مصر وقرية وقع فيها التفتيش وإخراج

الصواع بعد لحوق المؤذن، والمراد من القرية أهلها إما على حذف المضاف أو المجاز المرسل.

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي ﴾ أى: أهلها إما على الحذف أو التجوز.

﴿ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وهذا العير إما من أهل الكنعان من جيران يعقوب ـ عليه السلام ـ وإما من أهل صنعاء على ما قيل.

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد لكلامهم بإن والام واسمية الجملة فى محل القسم، كأنهم أقسموا على صدقهم فلا يكون من إثبات صدقهم بصدقهم ليكون مصادرة على المطلوب فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ما قال لهم أخوهم الأكبر فعند ذلك قال أبوهم: بل ما سرق ابنى وما حصل لكم علم يقينى.

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زينت وسهلت.

﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ الأمارة بالسوء.

﴿ أَمْرًا ﴾ وهو ادعاؤكم العلم مع كذبكم فيه، وتحققكم بسرقته مع احتمال دس الغير صواع الملك فى رحل بنيامين كما دسوا بضاعتكم فى رحالكم فى المرة الأولى أو هو خبر أخبر بكم فى الفتوة حيث كنتم قلتم (جزاؤه من وجد فى رحله) وإنما الفتى الحق أن يقال جزاؤه من سرقه أو من أخذه متعمداً أو من وجد فى رحله بوضعه وأخذه.

وإلا فيجور أن يكون من وجد فى رحله غير عالم، بل يكون قد دس فى رحله.

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ الذى لا شكوى فيه لغير الله أجمل، أو فأمرى صبر جميل.

﴿ عَسَى اللَّهُ ﴾ أى أرجو من فضل الله وكرمه.

﴿ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ حال من الضمير المجرور وعدم مطابقته لكونه جمعًا فى المعنى أى أن يأتينى بهم جميعًا حال كونهم مجتمعين لا متفرقين بيوسف وبنيامين ويهوذا.

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ (يوسف: ٨٣) بحالى وبوجدى وحزنى.

﴿ الْحَكِيمُ ﴾ لا يفعل ذلك إلا لحكمة وهو إرادة الإثابة لى ثوابًا جميلاً وإيصال خيرات الدنيا والآخرة إلىّ، والمؤمن المحقق كلما اشتد بلاؤه زاد رجاؤه فلذا لما اشتد بلاء يعقوب رجاهم جميعًا فبعد ذلك بما علم يعقوب ـ عليه السلام ـ أن التوجه إلى غير الله ـ تعالى ـ لا ينفع بل كلما توجه إلى أبنائه نقص واحد منهم أوجب ذلك

الإعراض عنهم على ما قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى أعرض بينه إعراضًا تامًا ورجع إلى خالق الكل بشراشره وانقطع إليه بكليته إليه تعالى منه تعالى.

كما قال نبينا ـ ﷺ ـ (اللهم إنى أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1].

وقال عند شكايته لربه وعرض حاله لديه:

﴿يَا أَسَفَىٰ﴾ الألف عوض عن ياء المتكلم يعنى يا أسفى وأشد حزنى ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يقال أوانك، وهذا التأسف عند شكايته لربه جائز، فإن معناه: يا رب قد اشتد حزنى على يوسف، فهذا كقول أيوب ـ عليه السلام ـ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣).

وكقول نبينا ﷺ: (العين تدمع والقلب يحزن)[2] الحديث على ما نقل فى المصابيح ومشكاته.

عن أنس قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين، وكان طيرًا لإبراهيم، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا بن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال: (إن العين

---

(١) حديث: **(اللهم إنى أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت...)** الحديث رواه مسلم والأربعة عن عائشة رضي الله عنها، انظر: العجلونى: كشف الخفاء: ١/ ٢١٨ الحديث رقم (٥٧١) و (٥٧٥).

(٢) حديث: **(العين تدمع والقلب يحزن...)** انظر حديث: (لو عاش إبراهيم لكان نبيا) ورد عن ثلاثة من الصحابة، رواه ابن عساكر عن جابر عن النبى ﷺ وأخرج ابن عساكر أيضًا بسنده، وقال: فيه من ليس بالقوى عن على بن أبى طالب: لما توفى إبراهيم أرسل النبى إلى أمه مارية فجاءته وغسلته وكفنته، وخرج به، وخرج الناس معه فدفنه، وأدخل ﷺ يده فى قبره فقال: «أما والله أنه لنبى ابن نبى» وبكى المسلمون حوله حتى ارتفع الصوت ثم قال ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون» وروى أبو داود أنه مات وعمره ثمانية عشر شهرًا فلم يصل عليه رسول الله ﷺ، صححه ابن خزيمة، وقال النجم وأورده السيوطى فى الجامع الصغير بلفظ: «لو عاش إبراهيم لكان صديقًا نبيًا وقال: أخرجه البارودى عن أنس وابن عساكر عن جابر رضي الله عنه: انظر العجلونى: كشف الخفاء: ٢/ ١٠٩٧ الحديث رقم (٢١٠١).

تدمع، والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون).
متفق عليه.

وعن أسامة بن زيد[1] قال: أرسلت بنت النبى ﷺ إليه أن ابنًا لى قبض فأتنا فأرسل يقرئك السلام ويقول: (إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فليتصبر ولتحتسب) فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقال ومعه سعد بن عبادة[2] ومعاذ ابن جبل وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت[3] ورجال فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تقعقع فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[4].

متفق عليه مشكاة (من عينه صح).

لا نزاع فى جواز بل فى حسنه.

وما ذكر فى التفاسير أن الاسترجاع ـ أى: قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) لم يعط غير هذه الأمة والألم.

ولم يقُل يعقوب يا أسفى، ومرادهم أن هذا الذكر واللفظ لم يعط وإلا فالعلم بأن المبدأ والمعاد لله هو معنى الاسترجاع حاصل لكل نبى بل لكل مؤمن يخالف ما ذكرنا.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ (يوسف: ٨٤) من أجل كثرة البكاء الناشئة.

﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ فالحزن سبب السبب.

قيل: عمى فلم يبصر شيئًا.

وقيل: ضعف بصره لأن الدمع إذا كثر فى العين يضعف نورها ويضرب سوادها البياض.

قيل: طمع إخوة يوسف خلوص نظر أبيهم كما قالوا: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فمنع الله ذلك بأن لم يبصر شيئًا.

---

(١) (أسامة بن زيد) تقدمت ترجمته. (٢) (سعد بن عبادة) تقدمت ترجمته.

(٣) (زيد بن ثابت) تقدمت ترجمته.

(٤) حديث: (هذه رحمة جعلها فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) انظر: صحيح مسلم: ٢/ ٦٣٥ الحديث رقم (٩٢٣) وصحيح البخارى: ١/ ٤٣١ الحديث رقم (١٢٢٤) البيهقى فى السنن الكبرى: ٤/ ٦٥ الحديث رقم (٦٩٢١) وابن أبى شيبة ٣/ ٦٢ الحديث رقم (١٢١٢٣).

ولذا قيل: من طلب الكل فاته الكل.

وقيل: أشد الأشياء على العشاق النظر إلى الأغيار بعد ذهاب الأحباب فمنع الله ذلك عن يعقوب فإذا ما وجد يوسف، ونظر إليهم.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى مملوء من الحزن والأسف على ما دل عليه السياق من كظم القربة أى شدها على ملئها ولا يظهر وجه ما قيل مملوء من الغيظ على أولاده وإن كان له فى الجملة وجه.

وقيل: كاظم على حزنه وأسفه لا يظهره لغير الله.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه تعجب أى عدم نسيانك يوسف ما صار ترابًا ورميمًا على وعظيم أمر عجيب.

﴿تَفْتَأُ﴾ أى لا تفتأ، والقرينة على حذف لا عدم تلقى القسم بأدوات الإثبات، فإن القسم يتلقى بأن واللام فى الجملة الإسمية، وباللام والنون المؤكدة فى الجملة الفعلية.

فلما لم يجئ معناه اللام والنون علم أن المعنى على النفى أى: تالله لا تفتأ لا تزال.

﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ (يوسف: ٨٥) فاسد العقل والجسد أى مريضًا مشفيًا على الموت، والحرض مصدر فى الأصل ولذا يستوى فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ والميتين وأو لمنع الخلو والترتيب الوجود لأنه يتقدم المرض على الموت غالبًا فيكون كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

فلا يراد أن المبالغة فى العكس ولا حاجة إلى جعل (أو) بمعنى (بل) كقوله تعالى: ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو﴾ (يوسف: ٨٦) أى أظهر وأعرض.

﴿بَثِّي﴾ حزنى الشديد، مصدر بمعنى المفعول أى المبثوث، فإن الحزن إذا اشتد يبث ولا يمكن ضبط أو بمعنى الفاعل، فإن الحزن إذا كان شديدًا يكون باثًا، أى مفرقًا كل فكر وتخيل.

﴿وَحُزْنِي﴾ أى الضعيف لأن العام إذا ذكر فى مقابلة الخاص يكون المراد به ما وراء ذلك الخاص.

﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ولا أشكو غيره، والشكاية إليه مما فعله الأنبياء والمرسلون فبركة كون هذه الشكاية من فعل الأنبياء وكونها صحيحة شرعية لا تخل بالعقل ولا فى الجسد، فتكون كسائر الأذكار الواردة فى الشرع فلا خير فيها، بل الخير وكل الخير فيها.

وأما قولكم إن يوسف قد مات فهو باطل وإليه الإشارة بقوله ﴿وَأَعْلَمُ﴾ ﴿مِنَ﴾ جهة ﴿اللَّهِ﴾ وجهة إلىّ ﴿مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه السلام.

فـ «من» ابتدائية، أو أعلم بعضًا من لطف الله وكرمه وإنه لا يخبر الراجى منه وهو ما لا تعلمون فـ «من» تبعضية.

قيل: علمه بحياة يوسف، إما من رؤياه، ورؤيته أن أحد عشر كوكبًا مع الشمس والقمر سجدوا له، فعلم بالوحى أن هذا سيتم.

وقيل: أخبره ملك الموت بحياته على ما سيجيء من التيسير إلى الله تعالى.

ثم بعد ذلك جعل أبناءه التسعة الموجودين عنده وقال: ﴿يَا بَنِيَّ﴾ أضاف إلى نفسه للشفقة عليهم ولاستعطافهم الله حتى يتحسسوا من يوسف ـ عليه السلام ـ.

﴿اذْهَبُوا﴾ وكان قد قال ذلك فى حق يوسف: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾.

فكان قصدهم بذهاب يوسف بحزنه لحبه له حبًا شديداً.

وهنا قد أمر بنيه بالذهاب عنه فلم (بونا بينه)[1].

﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ بكل حاسة خبره، فالتحسيس طلب معرفة الشيء بالحواس أى اطلبوا بالبصر رؤية جماله وبالسمع سماع صوته، وبالشم شم رائحته ولم يكن إرادتهم ليوسف كإرادة أبيهم وحيث وجد أبوهم ريحه من مصر حين قال: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٩٤) وإخوته قد دخلوا عليه مراراً ولم يجدوا ريحه ولم يعرفوه حيث قال: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (يوسف: ٥٨).

﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (يوسف: ٨٧) وإنما ترك ذكر الثالث لأنه كان قد لبث باختياره فلم يكن الخروج من مصر عسيراً عليه.

﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ هو الراحة للأرواح والأجساد لكليهما التى تصل من الله بلطفه وكرمه بلا سبب ظاهر إلى العبد فيستريح من بعض ما فيه من الألم.

﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧) لأن اليأس منه ناشئ إما

---

(١) كلمة غير واضحة فى المخطوط ورسمت هكذا وربما كانت (فلم يكونا بينه).

من اعتقاد أن الله عاجز عن إيصال الروح إليه، أو إن الله غير عالم بحال، العبد وألمه، أو إن الله غير محسن، ولا جواد، ولا كريم وكل ذلك كفر شديد، فاليأس من روح الله لا يتصف به إلا الكافرون.

والعبرة فى هذه الآيات أن العبد بقدر إرادته ينتفع من مطلوبه الحقيقى، فإن آثار قدرته الكاملة قد ملأت العالم فكل ما نشاهد ونبصر، أو نسمع أو نشم، أو نعقل، أو نتخيل موجود بإيجاده باق بإبقائه لأنه قيوم القيوم من يقوم بنفسه ويقيم غيره، فقيام جميع الممكنات بقيوميته، وقدرته، وإرادته وتكوينه، وإيجاده.

فالعارف إذا نظر إلى شىء يخرج منه إلى مبدعه، وخالقه فله معراج فى كل حال معراجًا روحانيًا.

وإذا شرع فى الصلاة وقرأ كلام الله خرج إلى المتكلم به وترك ما سواه فيجد لذة المناجاة مع الله فيستغرق فى بحار أنوار الله.

جعلنا الله من الواصلين إلى العين دون السامعين للخبر (ليس الخبر كالمعاينة)[١].

وقال فى التيسير: قال وهب: ولما أراد الله أن يزيل المحنة ويرحمه، ويبلغه إلى بنيه أرسل إليه ملك الموت يشبه الوحى فى المنام فقال له يعقوب: من أنت أيها الجسد العظيم؟ قال له: أنا ملك الموت، قال: إنى أتمنى أن ألقاك منذ حين، قال له: ولم ذلك؟ قال: لأسألك عن شأن يوسف عليه السلام ـ قال: وعن أى شأنه تسألنى؟ قال: أنشدك وأسألك بالذى ملكك الأنفس وسلطك على الأرواح وأعطاك القوة فى الأجساد هل قبضت روح يوسف ـ عليه السلام؟ قال: لا والذى نشدتنى به، ما قبضت روحه، فاطلب ابنك فإنه حى سالم، فانتبه وأصبح وقال لبنيه: يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه.

وروى أنس عن النبى ﷺ قال: (كان ليعقوب أخ مواخى فقال له ذات يوم: يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك؟ وما الذى قوس ظهرك؟ قال: أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف، وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى؟ فقال يعقوب ـ عليه السلام ـ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله، فقال جبريل: الله أعلم بما

(١) مَثَل: (ليس الخبر كالمعاينة) تقدم.

تشكو يا يعقوب، ثم قال يعقوب: يا رب أما ترحم الشيخ الكبير: أذهبت بصرى، وقوست ظهرى فارد على ريحى ابنى أشمهما شمة قبل الموت، ثم اصنع بى ما شئت، فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب، إن الله ـ عز وجل ـ يقرئك السلام ويقول لك: أبشر فليفرح قلبك فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك، فاصنع طعامًا للمساكين فإن أحب عبادى إلىَّ المساكين وأتدرى لما أذهب بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف ما صنعوا لأنكم ذبحتم شاة فأتاكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها.

وكان يعقوب ـ عليه السلام ـ بعد ذلك إذا أراد الغواء أمر مناديًا ينادى ألا من أراد الغواء من المساكين فلينفق مع يعقوب، وإن كان صائمًا أمر مناديًا ينادى من كان صائمًا من المساكين فليفطر مع يعقوب.

وقيل: كان فصل عجولاً عن أمه أيامًا.

وقيل غير ذلك من الأسباب.

والصحيح أنه غير مبنى على سبب ولله أن يمتحن عباده وخواصه بما شاء ليرفع لهم بذلك درجاتهم ويظهر صدقهم وإخلاصهم.

قال وهب: لما قال لبنيه ذلك ـ أى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ـ قالوا: كيف تظننا أن نتحسس من أهل القبور، أما يوسف فقد أخبرنا خبره أول يوم أكله الذئب ولا نحسه اليوم إلا رميمًا تحت التراب وأما ابناك اللذان ذهبا معنا فقد أخبرناك أن أحدهما سرق فارتهن بسرقته وأما الآخر فمقيم يطلب فكاكه، قد أقسم بالله جهد يمينه على نفسه أن لا يبرح الأرض حتى يُأذن أو بقى لك توثقك، أو يحكم الله بما يشاء والله خير الحاكمين فنحن راجعون متحسسون عن إخوتنا. وستعرضون للملك. وإنا قد عهدناه لك رحيمًا، فلعل الله أن يكون قد أحدث له رأيًا وزاده لك رحمة.

قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: فبلغوا عنى السلام وقولوا له: إن أبانا يعقوب يقول لك: بيننا أنت مهتم بمصيبة محزون عليه، معنىٌّ بأمره، تبكى معه، وتدعو له، إذ فجعته بابنه ما هذا منك يشبه أول فعلك وارحم ترحم.

وقيل: إنهم قالوا له: اكتب إليه بشىء فأمر، فكتب: بسم الله، هذا كتاب من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق نبى الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر عبد الله أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا أسباب البلاء أما جدى إبراهيم فألقى فى النار فصبر لأمر

الله، وأما أبى إسحاق فابتلى بالذبح فصبر لأمر الله، وأما أنا فأضعفهم ركنًا وأقلهم حيلة وأعظمهم مصيبة، بكيت على فراق ولدى يوسف ـ عليه السلام ـ حتى عمى بصرى، والذى أخذته سارقًا فليس بسارق والله ما ولدت سارقًا فامنن علىّ برده أو حل سبيله واحذر دعوة المظلوم والسلام.

انتهى التيسير.

مجلس في:

بيان رجوع إخوة يوسف الرجعة الثانية وظهور يوسف ـ عليه السلام ـ لهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان رجوع إخوة يوسف الرجعة الثانية وظهور يوسف ـ عليه السلام ـ لهم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ (يوسف: ٨٨) الفاء فصيحة، أى: فذهبوا إلى مصر امتثالاً لأمر أبيهم فصادفوا فيه أخاهم يهوذا، فذهبوا معه إلى يوسف ـ عليه السلام ـ فلما دخلوا عليه.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أى: الملك القادر المنيع.

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا﴾ أولادنا ونساءنا وعيالنا.

﴿الضُّرُّ﴾ الجوع أو الهزال من شدة الجوع فتمسكنوا له أى أظهروا المسكنة له، وتضرعوا إليه من شدة القحط.

﴿وَجِئْنَا﴾ حال بتقدير قد، أو عطف على «مسنا».

﴿بِبِضَاعَةٍ﴾ قطعة من المال أعدت للتجارة.

﴿مُّزْجَاةٍ﴾ مدفوعة، من أزجاه أى دفعه.

ومنه الريح تزجى السحاب أى تدفعه.

ومنه أيضًا أزجى الزمان إذا دفعت بقليل من العيش، والمعنى: وقد جئناك ببضاعة يدفعها التجار لردائتها وقلّتها وقد كانت بضاعتهم دارهم ردية، وقليلة. فبعد إظهار مسكنتهم وفقرهم وحاجتهم وردِّ متاعهم وقلّته طمعوا فى كرم العزيز فقالوا ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ الذى نستحقه نظرًا إلى عادتك وكان من عادة يوسف ـ عليه السلام ـ إعطاء كل

من يجيء للميرة حمل بعير فطلبوا ذلك، فاللام فى الكيل للعهد الخارجى والفاء فى «فأوف» للتفريع على شدة الاحتياج الناشئة من شدة الجوع وهى الضرب ومن عدم الاقتداء على القيمة.

ثم لما كان عيالهم كثيرًا لا يفى الكيل المذكور لهم طلبوا التصديق وإن كان حرامًا على الأنبياء وأولادهم لأن الضرورات تبيح المحظورات وقد أحلت الميتة للمضطر فقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ طلبًا لمرضاة الله، وابتغاء الثواب وهذا هو الظاهر من التمهيد، أى قولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ ومن التوحيد أى الإثبات بالدليل وهو قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بذكر الله وجزائه وإن المتصدق عنده بمكان.

وقال سفيان بن عيينة[1]: التصدق على الأنبياء غير نبينا جائز وقرأ هذه الآية.

والتصديق النفل غير المفروضة جائز على أولاد نبينا عليه السلام فى أصح الأقوال.

فيجوز أن يكون ما طلبوه هو النفل.

وقيل: للذين لا يجزون التصدق مطلقًا على الأنبياء وأولادهم مطلقًا أن يفسروا التصديق بالتفضيل، بالمسامحة والإغماض عن ردائة بضاعتهم أو بالزيادة على ما استحقوا من حمل بعير، استعارة ووجه الشبه عدم اللزوم والتفضل والزيادة المذكورتان لا نزاع فى جوازهما للأنبياء وأولادهم.

فعند تكلم إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ بهذه الكلمات رق لهم غاية الرقة لفرط ضجرهم من الجوع واحتياجهم إلى الصدقة حتى نسوا ما قال لهم أبوهم: فتحسسوا من يوسف وأخيه.

وقيل: أظهروا احتياجهم إلى الطعام ونظروا إن رحمهم العزيز طلبوا أخاهم وإلا سكتوا.

وقيل: قوله ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ طلب لأخيهم أى تصدق علينا برد أخينا، وكل واحد من الوجهين الآخرين خلاف الظاهر، فلما رق لهم يوسف لجوارهم وتضرعهم إليه أظهر نفسه بعد أمر الله إياه به فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فهذا كلام فى غاية الإيجاز، و «من» لأجل البلاغة والاشتمال على المزايا

---

(١) (سفيان بن عُيَيْنة) تقدمت ترجمته.

والنكات فى الطرف الأعلى من الإعجاز وبيانه: أنه ـ عليه السلام ـ كان حليمًا يقدم حق الله وحق الأخوة بين الطينية من النصح لهم وإرشادهم إلى التوبة والرجوع إلى الله على حق نفسه من الانتقام والتشفى وأخذ الثأر فأرشدهم إلى التوبة من فعلهم الشنيع وهو عقوق الوالد المرسل من الله وقطع الرحم الأخ الصديق والعصيان للخالق الحى القيوم فقال: هل علمتم قبيح ما فعلتم «فما» مصدرية (بيوسف) بتفريقه عن أبيه وقومه وإخراجه عن مكانه وإلقائه فى الجب، ثم بيعه من السيارة وهذه كلها كبائر من الذنوب.

﴿وَأَخِيهِ﴾ لأبيه وأمه بنيامين من إفراده من أخيه يوسف ـ عليه السلام ـ وإيذائه كل يوم بعد ذلك ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بقبحه فلذا فعلتم.

والدليل على حذف القبح فى الموضعين وإرادته أن الفاعل بالاختيار يعلم فعلم الاختيارى ضرورة وهل الطلب التصديق فيكون طلب حصول الحاصل والجهل بالفعل الاختيارى محال فهذه القرينة حذف القبح لكونه قبحًا.

وأريد فى المعنى: هل علمتم قبح فعلكم هذا تبتم منه إلى الله حتى يغفر لكم أم أنتم مستمرون على جهلكم به، فمراده النصح لهم ليتوبوا.

والدليل على أنه نصح لهم دون انتقام سبقه بيان عذرهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أى فعلتم ذلك بجهلكم فأنتم معذورن، ولو كان مراده التوبيخ والانتقام لما ذكر، نعم فيه عتاب خفى إن كان لا يليق بكم ذلك الجهل لأنكم من بيت النبوة ومهبط الوحى، لكن صار ذلك الجهل مع ذلك عذرًا لكم.

وفى كلامه ـ عليه السلام ـ نوع الأسلوب الحكيم أى أنتم عرضتم وذكرتم ضركم الدنيوى العاجل بقولكم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ واللائق بكم والأهم لكم دفع الضر الأخروى وهو ما فعلتم بيوسف وأخيه، ودفعه يكون بالعلم بقبحه وبالتوبة عنه إلى بارئكم، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وما استحجّها[1]، ولله درّ عقولهم ما أوزنها وأرجحها.

رزقنا الله التخلق بخلقهم والاقتداء بهم.

---

(١) (استحجَّها): لعله يقصد أبينها للحُجَّة، لأن الألف واللام والسين هى للطلب. والمعنى هى للتبيين (المحق).

فلما أظهر يوسف ـ عليه السلام ـ نفسه بهذه الكلمات الدالة على أنه هو لأنها لا تصدر إلا من صديق مثله ﴿قَالُوا﴾ أى قال إخوته مصدقيه بأنه يوسف لأنه لا توجد هذه الأخلاق ولا هذه الكلمات إلا فى نسل إبراهيم.

﴿أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾ الاستفهام للتقرير، أى التحقق والتثبت أى حققنا وتبعنا وأن يؤكده واللام أفضل.

فالمعنى: علمنا يقينًا أنك يوسف لا تليق إلا بإبراهيم وذريته لا بأعزاء أهل مصر، وحين ما لم يعرفوه، خاطبوه بقولهم: «أيها العزيز» وحين ما عرفوه قالوا: أنت يوسف، لأن الألفة ترفع الكلفة ولما كان ظاهر كلامهم الاستفهام.

وإن كان مرادهم التقرير والتثبيت وذلك يقتضى الجواب أجاب: و ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ أتى به تأكيدًا لكونه يوسف، كأنه قال: أنا يوسف حق لا شبهة فيه لأنه يلزم كون هذا أخاه وإدخالاً لأخيه فى قوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالجمع بعد الفرقة وبالملك والعزة، وبالنبوة والرسالة.

ثم علل على المنّ المذكور بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ أى الشأن من الله بترك المعاصى وفعل الفرائض ويصبر على المكاره.

وقيل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

﴿مَن يَتَّقِ﴾ بترك الزنا ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على العزوبة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠) أى أجره، فوضع الضمير دلالة على إحسانه ففيه بحديث نعم الله عليه وعلى أخيه بأنه اتقى عن الزنا ومقدماته وصبر على أذى إخوته وغيرهم فأعطاه الله سيرة المحسنين أو أجرهم وتعريض بإخوته بأنهم يتقوا عن المحرمات مثل العقوق والوضيعة والعصيان ولم يصبروا على التفات أبيهم إلى يوسف، فلم ينالوا سيرة المحسنين وأجرهم فعند ذلك اعرف إخوة يوسف بفضله عليهم بتفضيل الله وبعصيانهم وخطئهم عمدًا، وتعمدهم الإثم فذلك قوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ متعجبين لأن التاء تستعمل مظان التعجب لأنهم تعجبوا من سيرته لأن أباهم وأبوه واحد وأم أكثرهم وأمه أختان وهما: ليا أمهم، وراحل أمه، بنتا لابان، فالبذر واحد والأرض واحدة.

فاختلاف السين والصورة فيهم وفيه ليس إلا من إيثار الله، ومن فعل الفاعل

المختار والقادر على الإطلاق ومن ثم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ﴾ أى اختارك واصطفاك بكمال السيرة وحسن الصورة.

﴿عَلَيْنَا﴾ وإن مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف عند صاحب الكشاف.

قال الرضى: منع أبو على فى إن المكسورة المخففة المهملة تقدير ضمير الشأن بعدها إضمار ضمير الشأن مع إن المكسورة المخففة.

وجوز ذلك بعضهم قياسًا على أن المفتوحة المخففة وقد مرَّ ذلك فى باب الضمائر.

وهو ما ذكر الرضى فى بحث ضمير الشأن حيث قال: المص[1] وحذفه منصوبًا ضعيف لا يجوز حذف هذا الضمير لعدم الدليل عليه إذ الخبر مستقل ليس فيه ضمير رابط ولا يحذف المبتدأ ولا غيره إلا مع القرينة الدالة عليه.

ويجوز حذفه منصوبًا ضعف صورته بالنصب فى صورة الفضلات مع دلالة الكلام عليه نحو قوله: إن من يدخل الحديقة يومًا يلق فيها جازا وظباء وقوله: إن من لام فى بنى حسان آلمه وأعصمه فى الخطوب.

وذلك الدليل أن نواسخ المبتدأ لا تدخل على كلم المجازات كما مر فى باب المبتدأ.

وقوله: إلاَّ مع إن إذا خفف فإنه لازم إذا خفف المفتوحة جاز إعمالها فى الكلم الظاهر واهمًا كالمكسورة على ما قال الجزولى.

قال ابن جعفر: لكن ترك إعمالها فى الظاهر أكثر.

وقال المص: كما يجيء فى باب الحروف إعمالها فى البارز شاذ كقوله:

*** فلو أنك فى يوم الرخاء سألتنى فراقك ***

والأكثر مع الإلقاء ظاهر إلا أنها تعمل فى ضمير شأن مقدر.

بخلاف المكسورة الملغاة فإنها إذا لغت ظاهر الغيب مطلقًا ولم تعمل تقديرًا وإنما أعملت المفتوحة الملغاة ظاهرًا فى ضمير شأن مقدر ليحصل بينها وبين الجملة التى تليها ربط مقدر من حيث اللفظ بسبب هذا الاسم لأنه يكون لها باسمها بالخبر ارتباط فيحصل بينها وبين الجملة التى هى خبر اسمها ارتباط، وإنما طلبوا الارتباط اللفظى

---

(١) اختصار كلمة (المصنف).

بهما لارتباط معنوى تام وذلك لأنها حرف موصول، وهى مع جملتها فى تقدير المفرد أى المصدر، إذ هى حرف مصدرى وكان إن وحدها بعض حروف ذلك المفرد.

بخلاف إن المكسورة فإنها مع جملتها ليست بتقدير المفرد.

هذا هو المشهور من مذهب القوم أعنى إعمال المفتوحة تقديراً فى حال إلغائها لفظًا، وقد أجاز سيبويه إلغاءها لفظًا وتقديراً كالمكسورة فيكون كما المصدرية وهى مع جملتها فى تقدير المفرد مع أنه لا ربط بينهما لفظًا ولا يضر ذلك.

وهذا المذهب ليس ببعيد. انتهى.

﴿كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١) واللام هى الفارقة إن المخففة والنافية و (الخاطئين) هم الذين يفعلون الإثم عمدًا، والمخطئ سهواً أى: نحن تعمدنا الإثم والفسوق، فاعترفوا بقبيح ما فعلوا لأنه لا يتم إلا بإقرار بصلاح المظلوم وهو قولهم: ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

وبتعميد الإثم للظالم وهو قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ مؤكد هذا التأكيد، فلما اعترفوا بذنوبهم وصحت توبتهم ووجد الندم التام فيهم، فوجد ما كان من حق الله وهو عدم الإصرار على الذنب، وقد كان عليه السلام جعلهم فى حل من حقه قبل ذلك على ما هو مقتضى خلقه الكريم.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٢) التثريب مأخوذ من الثرب وهو شحم الكرش للإزالة كالتخليد لإزالة الجلد، والتقريع لإزالة القرع بالحركة وهو يكون عاشقة الفصيل وكالتعدية لإزالة القذى، وكالتقرير لإزالة القراد، استعير تمزيق العرض وإزالة ماء الوجه ووجه الشبه إزالة ما به الكمال أو طربان النقصان بعده.

﴿عَلَيْكُمُ﴾ خبر لا.

﴿الْيَوْمَ﴾ متعلق بمحذوف أى لا أثرب عليكم اليوم لا تثريب، فإن اسم لا لنفى الجنس إذا عمل يشبه المضاف نحو: لا آمرًا يوم الجمعة.

ولا يفيد ما قيل: إذا لم يكن الاقتضاء فلا خير لما قال سيبويه فى لا آمرا يوم الجمعة من أنه معرب شبه المضاف ما قالت حزام.

أو متعلق بالفعل العام فى الخبر أى عليكم ولما كان اليوم مظنة التثريب والتشفى فإذا لم يوجد فى اليوم، ففى غيره أولى بالطريق فعلى هذا قوله:

﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم بالغفران أى سقط حقى وتثريبى، ولومى وتقريعى فأرجو من الله أن يغفر الله لكم، «فيغفر» مضارعًا دعاء.

وإن كان المشهور فى الدعاء صيغة الماضى فهو كقول المشمت على صيغة اسم الفاعل: يرحمك الله.

والتشميت على صيغة اسم المفعول، يهديكم الله ويصلح بالكم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأن رحمة كل راحم من رحمته وهو يرحم بلا عوض ولا غرض، ويغفر ما دون الشرك من الصغائر والكبير لما يشاء قبل التوبة وبعدها فإذا رحمت أنا مع عجزى وهو يرحم لأنه على كل شىء قدير.

أو نقول: متعلق فيغفر هو أخبار وبشير لهم بستر ذنوبهم يوم القيامة، فيقول: اليوم وهو يوم توبتهم يغفر الله لكم يوم القيامة فلا يرد ما قيل:

قولهم لأبيهم استغفر لنا ذنوبنا فى هذا التوجيه لأن إخبار الصديق بغفرانهم يوجب الجزم فطلب الغفران يوم القيامة فيكون هذا الطلب طلب ما علم حصوله لا طلب حصول الحاصل، فيكون مثل دعائنا نبينا ﷺ بالوسيلة مع علمنا بأنها ستحصل له يوم القيامة.

ويجوز أن يكون قولهم لأن النبى مستجاب الدعوة فالفرق تحكم، فبعدما تيقنت أيها الأخ الأعز النكات والمزايا الواردة فى هذه الآيات الخمس وربط الكلام واتساق النظام على وجه يعجز عنه الأديب من فصحاء عدنان، وبلغاء قحطان وأن لا حاجة فى الترغيب والترهيب وإسالة الدموع من العيون إلى الإسرائيليات المنقولة من الكتب السماوية وخصوصًا من التوبة لا بأس علينا فى أن نورد بعض ما نقل من المفسرين منها تعميمًا للفائدة فإن ما ذكر من الإسرائيليات يلزم ذكره عند نقل عالم ومفسر غير متدرب فى علمى البلاغة لأن تفسيره للقرآن لا يؤثر حينئذ أشد التأثير إلا بها، قال فى التيسير:

وكان يوسف ـ عليه السلام ـ سأل أخاه بنيامين عن ولده فقال: هم ثلاثة: اسم الأكبر يوسف، فقال له: ولم سميته يوسف؟ قال: أردت أن لا يذهب ذكرك من قلبى كلما دعى تحرك قلبى كذلك، قال: وسميت الآخر: ذئبًا، قال: ولم سميته ذئبًا؟ قال: أردت أن لا يذهب ذكرك من قلبى فقد زعم إخوتك أن الذئب أكلك، قال: وسميت الآخر: دمًا، قال: ولم سميته دمًا؟ قال: أردت أن لا يذهب ذكرك من قلبى كلما دعى

ذكرك فبكى يوسف عند ذلك حتى كاد يتصدع قلبه ثم رفع يديه ودعا ربه أن يجمع الله إياه وخالته، وإخوته فاستجاب الله تعالى له وقال لإخوته بعدما قالوا: يا أيها العزيز إلى آخره: كيف تركتم يعقوب؟ قالوا: تركناه باكيًا محزونًا كظيمًا، فقال يوسف: على أى ابنيه حزنه وبكاؤه أشد على هذا السارق المرتهن بسرقته أم على الأول الذى أخبرنا الصاع خبره؟ قالوا: أما الأول فقد يئس منه ونسيه، وذهب عنه حزنه، ولكن بكاءه على هذا المحبوس عندك وقد أرسلنا فيه إليك برسالة لولا مهابتك ومخافتك أن لا تصدقنا لبلغنا قوله، قال: فأخبرونى فإنكم آمنون، إن صدقتمونى فلما بلغوه رسالة أبيه لم يملك نفسه حزنًا وبكاء بأعلى صوته وعندها باح لهم بحاله وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم﴾.

وفى بعض القصص: أن يوسف أخرج إليهم كتابًا وقال: هذا كتاب بالعبرانية فهل أحد منكم يحسن قراءتها؟ قالوا: نعم، فأخرج كتاب بيعه من مالك بن ذعر نظروا فيه فبهتوا وقالوا فى أنفسهم: كنا بذلناه عند بيعه لمشتريه وهو من أهل مصر ولعله تداولته الأيدى فوقع عند الملك، فقالوا: هذا كتاب كتبناه فى بيع عبد لنا بعناه، فقال: اقرءوا، فقرأوا باسم إله إبراهيم.

هذا ما يشترى مالك بن ذعر الخزاعى من آل يعقوب غلامًا يقال له يوسف بعشرين درهمًا أو بقولهم الثمن وحمر الدرك وأشهدوا الله بذلك على أنفسهم وكفى بالله شهيداً.

فقال لهم يوسف عليه السلام: كنتم تقولون إن يوسف أخونا وقد أكله الذئب وقد سبقتم فى هذا أنه غلامنا وقد بعناه فقد ظهر لى أنكم استرققتم أخاكم، وعققتم أباكم، واستوجبتم عقوبة شديدة وأنا منتقم منكم لأبيكم ودعا بالسياف فصاحوا بأجمعهم يتضرعون ويبكون ويقولون له: إن كنت قتلتنا لا محالة فلطخ ثيابنا بدمائنا وابعثها إلى أبينا فلا حظ له من أولاده إلا الثوب الملطخ بالدم، ورق لذلك يوسف واضطراب الناس وجاء جبريل وقال: يا يوسف قد بلغ التخويف النهاية فى حق هؤلاء بحسبك وقد انقضت مدة المحنة فأظهر لهم نفسك، فقال: قل لهم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون، فنظروا فيه لما قال لهم أبوهم فتحسسوا من يوسف وأخيه، فعرفوه قالوا: أئنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخى.

انتهى كلام التيسير.

قال البغوى: عن عبد الله بن يزيد بن أبى فروة[١].

أن يعقوب كتب كتابًا إلى يوسف حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق نبى الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد:

فإنا أهل بيت وكل بنا البلاء، أما جدى إبراهيم فشدت يداه ورجلاه، وألقى فى النار فجعلها الله تعالى بردًا وسلامًا، وأمَّا أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلىَّ فذهبت به إخوته إلى البرية، ثم أتونى بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: قد أكله الذئب فذهبت عيناى من البكاء عليه، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتساءل به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق وإنا أهل بيت لا نَسْرِق ولا نلد سارقًا فإن رددْته إلىّ وإلا دعوت الله عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء، وعيل صبره فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

انتهى كلام البغوى.

قال فى التيسير: قال الله تعالى ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ (يوسف: ٩٣).

قال وهب: كسا يوسف إخوته وأجادهم وحملهم وبعث إلى أبيه بجائزة وكسوة ومائتى راحلة وجهازها، وجهاز أهلهم لنقلهم إليه وقال لإخوته اذهبوا بقميصى هذا.

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (يوسف: ٩٣) وكانوا سبعين إنسانًا وعجل سراحهم وحملهم وخرج يهوذا بشرًا مسرعًا بالقميص حافيًا راجلاً متشكرًا لله بالمشى والخفاء وكان ما بين مصر والشام وبينهما مسيرة ثمانية أيام ومع يهوذ القميص، وسبعة أرغفة بزورها فلم يأكلها حتى ورد على أبيه.

ولما فصل من مصر استروح يعقوب ريح القميص وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ (يوسف: ٩٤) انتهى كلامه.

قال الله تعالى: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ قال ذلك لما أوحى الله إليه أن عين يعقوب إنما تنفتح بإلقاء قميصه عليه والمراد القميص الذى عليه متقمصًا به وهو الظاهر من الإضافة أى قميصى الذى أنا متقمص به.

وقيل: كان قميصًا قد أتى به جبريل إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ألقى فى النار متجردًا فكساه به ثم أعطاه إبراهيم إسحاق، ثم أعطاه إسحاق يعقوب ثم جعله يعقوب

(١) (عبد الله بن يزيد بن أبى فروة) لم أقف عليه.

فى قصية من الفضـة وعلقها على يوسف ـ عليه السلام ـ دفعًا للعيـن وكان عليه حينما ألقى فى الجب، ثم كساه جبريل يوسف ـ عليه السلام ـ فى البئر ثم كان معه وكان من خواصه أنه إن جعل فى صندوق كـبير ملأه، وإن جعل فى أنبوبة صغيـره وسعها، وإذا ألقى على مريض عافـاه الله، فأرسل بأمر الله إلى أبيه: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ أمـر بالإلقاء على وجهه لأن يده عندما سمع ذكر يوسف لا تتحرك.

﴿يَأْتِ بَصِيراً﴾ أى يصير بصيرًا، مجاز كقولهم: جاء النبأ محكمًا أى صاروا.

والدليل عليه قوله: فـارتد بصيرًا، أو يأت إلينا حال كـونه بصيرًا أى سليمًا مـعافًا وهو موافق قوله:

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ أولادكم ونسائكم وسائر عيالكم من مواليكم وخدامكم الذين هم المرادون فى قولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾.

﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد، أى لا يشذ منهم أحد.

فإتيان أبيه فى الوجه الأول مسكوت عنه.

فالمعنى ألقوا القميص على وجهه يصير بصيرًا فإتيانه مفروغ عنه ومسكوت لوثوقه لمجيئه للمحبة لكن ائتونى بأهاليكم.

وفى الوجه الثـانى: صيرورته بصيـرًا مفروغ عنه لدلالة إتيانه بصـيرًا عليهـا فجزم بإتيانه إليه فلا أمر ولا جبر والاختيار إليه لأنه علم أنه سيجىء لقائد المحبة إليه لا لأنه داخل فى أهل.لعـدم قدرته على الركـوب والمشـى لأنه جل جناب النبى عن التبـعيـة ولأنهم حينئذ يكونون مأمورين بإتيانه ففيه نوع جبر له فالمعنى الثانى موافق للمقام لأن الكلام فى الإتيان.

والمـعنى الأول من الخـلافة لـلقبـول عـجل منيف تأمل بالإنصـاف الخـالى عن الإعتاق.

ولله الحمد والمنة

مجلس في:

ملاقاة يوسف ـ عليه السلام ـ مع أبيه يعقوب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب أما بعد:

فى مجلس ملاقاة يوسف عليه السلام مع أبيه يعقوب عليه السلام.

قال الله تعالى[1]: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ (يوسف: ٩٤) أى انفصلت وخرجت من عريش مصر أى عمرانها.

يقال: فصل فصولاً وفصل فصلاً متعد مثل وصل وصولاً، ووصل وصلاً ووقف وقوفًا ووقف وقفًا ورجع رجوعًا، ورجع رجعًا.

روى أن يهوذا قال: يوسف أنا ذهبت بقميصك ملطخًا بالدم وقلت لأبى أكل الذئب يوسف عليه السلام فالآن أنا أذهب بقميصك بشرًا لأغسل ذنبى من قبل، فلما أخذه بإذن يوسف ـ عليه السلام ـ وخرج مع العير من عمارة مصر وقت ذلك فأخذ القميص ونفضه وجمعه وجعله فى جيبه وشرع بعد فعند ذلك استأذن ريح الصبا من ربه لإيصال ريح القميص إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ فأذن له ربه فأخذ الصبا ريحه فأوصله بإذن الله يعقوب عليه السلام فعند ذلك:

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أى يعقوب.

---

(١) الآيات من (٩٤) إلى (١٠٠) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ ﴾ بحاسة الشم.

﴿ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ جعله الله واجدًا لريح يوسف من مسيرة ثمانين فرسخًا معجزة ليعقوب.

﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أى لولا تفنيدكم أى نسبتكم إياى إلى الفند، أى الهرم والخرفة ونقص العقل سبب الكبر لصدقتمونى.

﴿ قَالُوا ﴾ أى: أولاد أولاده ومن حضره من الخدام، لأن أبناءه كانوا كلهم غيبًا بمصر تسلية له وتعزية عن حب يوسف عليه السلام لأن فى اعتقادهم كان ميتًا لا قصدًا إلى إيذاء نبى الله، لكنهم لم يحسنوا التعبير كذا فى كتاب (عصمة الأنبياء).

﴿ تَاللَّهِ ﴾ تعجبًا عن فرط ذكره وشغفه بميت عندهم.

﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ آخذين هذا القول من آبائهم كقوله: إن بنى زملونى بالدم فى شنسة أعرفها من احزم لأنهم قالوا فيما مضى: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فقال أولادهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾.

أى خطائك وذهابك عن طريق الصواب فى أمر الدين لإفرادك فى حب يوسف وهمك به فحب الولد أمر ضرورى جبل عليه الإنسان غير اختيارى لكن إفراده يجر إلى التحريك السوداء فخافوا عليه من المرض فلذا قالوا ذلك ليكون نبى الله متسليًا بقولهم لكن أساءوا الأدب لعدم حسن التعبير.

قال بعض العلماء: العجيب أن يعقوب يجد الريح من مسيرة ثمانين مراحلاً لا يجده من حضره ولا حامل القميص فهكذا حال المؤمن يوم القيامة يجد ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام، والكافر لا يجده.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ الفاء فصيحة أى فذهب البشير ووصل إلى يعقوب، وأن صلة أى زائدة من حروف الزيادة وفائدتها تأكيد ما دل عليه لما فى وقوع الفعل الثانى عقيب الفعل الأول مرتبًا عليه فى وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان فكان ألقى القميص هنا وجد وقت مجىء البشير من غير ريث أى بطؤ، حققه الزمخشرى جار الله فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٣٣) فللدلالة على الإيصال زيدت أن فى قوله: ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ (يوسف: ٩٦).

﴿أَلْقَاهُ﴾ أى القى البشير القميص لقوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ لأن الخطاب لإخوته الحاملين القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِ﴾ وجه يعقوب عليه السلام.

﴿فَارْتَدَّ﴾ أى فصار لأن ارتد من الأفعال الناقصة مرادفًا لصار.

﴿بَصِيرًا﴾ بأن فتح الله عينه ورد إليها نورها وإبصارها معجزة ليوسف وجعل يعقوب يشم القميص ويمسحه على وجهه، وقال المبشر يهوذا: يا أبت إن مصر الذى ملكها وأهلها ابنك يوسف ـ عليه السلام ـ فقال يعقوب: كيف تركت يوسف؟ قال: على ملك عظيم، قال: ما أصنع بالملك، على أى دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، ثم أخرج يهوذا كتابًا كتبه يوسف إلى أبيه وفتحه ودفعه إليه فوضعه على عينيه وخديه وقال: وا طول شوقاه إلى كاتبك، فإذا مكتوب فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

أردت أن أزورك فأمرنى ربى أن أدعوك إلى حضرتى ومقامى ليكون لك فرحتان: فرحة اللقاء وفرحة العطاء.

وفيه مكتوب: نحن فى أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور، عيب ما نحن فيه يا أهل ودى وأنتم غيب ونحن حضور فجدوا بالسير، بل لو قدرتم إلى أن تطيروا مع الرياح فطيروا معها.

قال: وتحته مكتوب:

يا أبتاه قد بعثت إليك مائتى راحلة وثمانين دستًا من الثياب لأجل إخوتى وأولادهم، وعمائم مذهبة وللإناث قميصات مذهبات، وحمر مذهية، ولكل واحد منهم بغلة مسرجة من الذهب، ملجمة بلجام من الزبرجد والياقوت، ومع كل بغلة عبد أسود، ولكل واحد منهم عندى قرية عامرة وضيعة معمورة، ولك دست ثوب ملكى وعمامة ملكية طولها مائة ذراع ووزنها مائة وعشرون درهمًا وجبة ملكية عليها من الزبرجد والياقوت ما يساوى خزائن الملوك والطيلسان ملكى فأسألك ألا تزهد فى ثيابنا ولا تدخلوا المصر إلا على هيئة حسنة لكى لا تشمت بنا الأعداء والحاسدون فلا يعيبونى بفقرى ومسكنتكم فإن ههنا كفارًا قبطين مشركين فقال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤).

ثم خاطب يعقوب بنيه إن كان الخطاب بعد مجيئهم أو بنى بنيه إن كان قبل مجيئهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ أى قوله ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ (يوسف: ٨٧) على التقدير الأول.

وقوله: ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ (يوسف: ٩٤) على التقدير الثانى.

ثم ابتدأ مستدلاً عليه بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٩٦) من ألطاف الله وحكمه.

ويجوز أن يكون إنى أعلم فقول القول مشيراً به أى قوله: ﴿ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ولا يضر كونه بالواو، وكون الحكاية بأنى لأن المقصود والمعنى.

ثم بعد ذلك اعتذر أبناؤه بعد مجيئهم الله مستغفرين وتائبين على ما قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا ﴾ خاطبوا به ترقيقًا له لأن الأب على ابنه.

﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ (يوسف: ٩٧) اطلب المغفرة أيها الأب الرحيم ابن الأب الكريم، لأجلنا.

﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ متعمدين الإثم لا عذر لنا.

﴿ قَالَ ﴾ أبوهم.

﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ أخره إلى السحر ليلة الجمعة لأن الدعوة فيه مستجابة.

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ «سوف استغفر لكم ربى» يقول حتى يأتى ليلة الجمعة[1] وهو قول أخى يعقوب لبنيه.

كذا فى تفسير ابن كثير.

---

(١) هذه الأحاديث (حول آية استغفار نبى الله يعقوب لبنيه) أثناء الكلام على الآيات (٩٧ - ٩٨) من سورة يوسف: أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فى قوله ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ قال: إن يعقوب عليه السلام أخر بنيه إلى السحر وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فى قوله ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ قال: أخرهم إلى السحر، وكان يصلى بالسحر، وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبى ﷺ سئل: لم أخر يعقوب بنيه فى الاستغفار؟ قال: «أخرهم إلى السحر، لأن دعاء السحر مستجاب» وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبى ﷺ : «فى قصة قول أخى يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربى يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة» وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عمرو بن قيس ـ رضي الله عنه ـ فى قوله =

= ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ قال: فى صلاة الليل، وأخرج ابن جرير عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: إن الله لما جمع ليعقوب عليه السلام شمله ببنيه وأقر عينه خلا ولده نجيًا فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقى منكم الشيخ؟ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد قالوا: يا أبانا أتيناك فى أمر لم نأتك فى مثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله حتى حركوه - والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أرحم البرية - فقال: ما لكم يا بنى؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قالا: بلى، قالوا: أفلستما قد عفوتما؟ قالا: بلى، قالوا: فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئًا، إن كان الله لم يغن عنا، تدعو الله فإذا جاءك من عند الله بأنه قد عفا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرة عين فى الدنيا لنا أبدًا، قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، فدعا وأمن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة، حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام على يعقوب، عليه السلام، فقال: إن الله بعثنى أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة، وأخرج أبو الشيخ عن الحسن - رضي الله عنه - قال: لما جمع الله ليعقوب عليه السلام بنيه قال ليوسف: حدثنى ما صنع بك إخوتك؟ قال: فابتدأ يحدثه فغشى عليه جزعًا، فقال: يا أبت إن هذا من أهون ما صنعوا بى، فقال لهم يعقوب عليه السلام: يا بنى أما لكم موقف بين يدى الله تخافون أن يسألكم عما صنعتم؟ قالوا؟ يا أبانا قد كان ذاك فاستغفر لنا، وقال: وقد كان الله تبارك وتعالى عوَّد يعقوب، عليه السلام، إذا سأله حاجة أن يعطيها إياه فى أول يوم أو فى الثانى أو الثالث لا محالة - فقال: إذا كان السحر فأفيضوا عليكم من الماء ثم البسوا ثيابكم التى تصونوها ثم هلموا إلىَّ، ففعلوا فجاءوا فقام يعقوب أمامهم ويوسف، عليه السلام، خلفه، وهم خلف يوسف إلى أن طلعت الشمس لم تنزل عليهم التوبة، ثم اليوم الثانى، ثم اليوم الثالث، فلما كانت الليلة الرابعة ناموا فجاءهم يعقوب، عليه السلام، فقال: يا بنى تنامون والله عليكم ساخط؟ فقوموا، فقام وقاموا عشرين سنة يطلبون إلى الله الحاجة، فأوحى الله إلى يعقوب عليه السلام: إنى قد تبت عليهم وقبلت توبتهم، قال: يا رب النبوة قال: قد أخذت ميثاقهم فى النبيين.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عائشة قال: ما تيب على ولد يعقوب إلا بعد عشرين سنة، وكان أبوهم بين أيديهم فما تيب عليهم حتى نزل جبريل عليه السلام فعلمه هذا الدعاء: «يا رجاء المؤمنين لا تقطع رجاءنا، يا غياث المؤمنين أغثنا، يا مانع المؤمنين امنعنا، يا مجيب التائبين تب علينا» قال: فأخره إلى السحر فدعا به فتيب عليهم...» وأخرج ابن أبى حاتم عن الليث بن سعد أن يعقوب وإخوة يوسف أقاموا عشرين سنة يطلبون فيما فعل إخوة يوسف بيوسف لا يقبل ذلك منهم، حتى لقى جبريل يعقوب فعلمه هذا الدعاء: يا رجاء المؤمنين لا تخيب رجائى، ويا غوث المؤمنين أغثنى، ويا عون المؤمنين أعنى، يا حبيب التوابين تب علىَّ، فاستجيب لهم) انظر: السيوطى: الدر المنثور: ٤/ ٥٨٤، ٥٨٥.

وقال بعض المحققين: المراد الدوام وهو حسن لأن المضارع يدل على الاستمرار، وسوف على الامتداد والتنفيس أى أستمر على الاستغفار لكم فى الأزمنة المستقبل وإن طالت لأن حال الأنبياء يخالف أحوال غيرهم لأن الناس يتكاسلون فى الاستغفار بتطاول المدة وتستقر قلوبهم وتذهب ندامتهم ولا كذلك الأنبياء بل يديمون الاستغفار والحزن، والكائنة إلى آخر عمرهم.

ثم علل عليه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ الدائم المغفرة لمن داوم على الاستغفار والندم.

﴿الرَّحِيمُ﴾ كثير الإحسان لمن أكثر التوبة.

رزقنا الله دوام الحضور ودوام الذكر والاستغفار آمين يا رب العالمين.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الفاء فصيحة أى فارتحل يعقوب عليه السلام بأهله وقطعوا المراحل وقربوا من مصر وأخبر بذلك يوسف، فاستقبلهم وأنزلهم بخيمة هناك لنزول ساعة، فدخل فيه ولما دخلوا على يوسف الخيمة قبل دخلوهم مصر.

﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أى: ضمهما إلى نفسه واعتنقهما فدخلوا عام والأنواء خاص.

وكذا فى الجنة الدخول لكل المؤمنين والقرب والانبساط للبعض.

وفى بعض القصص: إن يعقوب ـ عليه السلام ـ وأولاده وأهاليهم توجهوا إلى مصر على رواحلهم، فلما قربوا إلى مصر وأخبر بذلك يوسف فاستقبله فلقيه ومعه ثلاثمائة فارس لكل واحد منهم جبة من فضة واية من ذهب، والأفراس مراكب، والفرسان غلمانه فتزينت الصحراء بهم، واصطفوا صفوفًا، ولما صعد يعقوب عليه السلام ومعه أولاده وحفدته ونظر إلى الصحراء مملوءة من الفرسان مزينة بالألوان نظر إليهم متعجبًا فقال: انظر إلى الهواء فإن الملائكة قد حضرت سرورًا بحالك كما كانوا باكين محزونين مدة لأجلك ثم نظر يعقوب إلى الفرسان فقال: أيهم ولد يوسف؟ فقال جبريل، هو ذلك الذى فوق رأسه ظلة، فلم يتمالك إلا أن أوقع نفسه من البعير فقال جبريل: يا يوسف إن أباك يعقوب قد نزل لك فانزل له، فنزل عن فرسه، وجعل كل واحد منهما يعود إلى الآخر حتى التقيا فقصد يوسف أن يسلم على أبيه فمنعه جبريل قال: دعه حتى يسلم عليك.

فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الإحسان فاعتنقا وبكيا سرورًا وماج الفرسان بعضهم فى بعض وجهلت الخيول وسجت الملائكة وضرب بالطبول والبوقات، فصار كأنه يوم القيامة.

وقيل: إن يوسف ـ عليه السلام ـ قال له لما التقيا: يا أبت بكيت عليَّ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك.

وقيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ويقاتلهم ست مائة ألف وخمسمائة وبضعة وستون رجلاً سوى ذريته والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف.

وفى كتاب عصمة الأنبياء:

وما روى أنه لم ينزل من السرير لأبويه أو من الدابة كلام لا معنى له لأنه قد تلقاهم بدليل قوله: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ وكذلك نزل عن الدابة على ما حكينا.

وما روى أن جبريل قال ليوسف: إنك لم تجزم لأبيك فقطع نسل نبى منك، فإنه كلام باطل لا يجوز أن يذكر ويعتقد فإن الأنبياء لم يكن من صفاتهم التعظم على أحد فضلاً على الأب وعلى أن الأنبياء من بعده كانوا من نسله كموسى وداود وسليمان، عليهم السلام.

ثم لما انتهوا إلى السرير «رفع أبويه» مكرمًا لهما أخذ بأيديهما على السرير ثم جلس هو معهما فهو على الجلوس كما يجلس الولد بين والده ولا يعد ذلك تركًا للحرمة خصوصًا إذا كان ولده نبيًا مرسلاً.

فإن قالوا: هلا صار إلى أبويه يقضى حقوقهما وما تحمل أبوه من الهم والحزن فى أمره حتى استدعاهم إلى حضرته.

قلنا: إنه لم يعقل ذلك من غير وحى.

والثانى: أنه أراد أن يأتوه جميعًا فيعرف أهل مصر وجاهته وأبويه منزلة ويعلموا أنه لم يصر ملكًا من غير أصل بل له أصل صميم وليعاين أهله نعمة الله عليه بعد انقضاء المحنة من إعطاء الملك ولو كان يترك الملك، لدار إليهم لم يقع موقع الإعظام من الأخبار إذ ليس الخبر كالمعاينة. انتهى. ولفظة (أبويه) تدل فى الموضعين على أن أمه حية ولا دليل فى القرآن ولا فى الحديث على مماتها فبل ملاقاة يوسف.

فالصواب الذهاب إليه.

وإن كان المشهور من أهل الكتاب مماتها.

وعلى قولهم فالمراد أبوه وخالته والخالة تسمى العمة أبًا فى قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

وإن يعقوب عندهم كان قد تزوجها بعد موت أم يوسف على قولهم.

والوالدة الموطوءة تسمى أما.

وقال يوسف لهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩) والاستثناء لدخول الكيف بالأمن فالأمر بالدخول راجع إلى الأمر بالأمن.

وقال الصبى: المراد الدعاء لكم بالأمن.

وقال صاحب الكشف: الدعاء ليس بمراد يقول: كونوا عند دخول مصر آمنين ولا تخافوا من الفراعنة أى من ملك مصر وجنوده فإنهم كانوا قبل ذلك خائفين منهم محتاجين إلى الإيجارة فى الدخول من جهتهم.

فإن بقول يوسف ـ عليه السلام ـ لا حاجة إلى الإيجارة من جهتهم بل مصر وأهله كلهم لكم وعبيدكم، فادخلوا مصر مع الأمن والسلامة والشكر لله تعالى.

وهذا الشكر مراد من الاستثناء فإن أصل الكلام: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، فحذف الجزاء بتمامه لأن ذكر الجزاء فى الاستثناء كالشريعة المنسوخة، ؟؟؟ ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله فاعترض بالاستثناء بين الجزاء الكلام السابق لأن حسن موقعه بالاعتراض بين أجزاء الكلام بنصب حكم على جميع أجزاء الكلام فدخلوا مصر، وجاءوا دار يوسف عليه السلام فاستوى على سريره وجلس عليه.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (يوسف: ١٠٠) أى أراد رفعهما وأمر به تعظيمًا لهما.

﴿وَخَرُّوا﴾ أى أبواه وإخوته جميعًا قبل أن يجلس أبواه على السرير.

﴿لَهُ﴾ أى ليوسف متعلق بقوله ﴿سُجَّدًا﴾ وقدم للاهتمام به فعندما رأى يوسف هذه الحالة العجيبة وهى سجود النبى المرسل أبيه له اقشعر جلده واضطرب قلبه فعند ذلك خطرت رؤياه فى صباه بباله وفهم صنع الله.

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ وهى التى قال ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أى فى حال صباى.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ الجملة حال، أو استئناف لتحقيق حقيقتها.

والمراد من السجود وضع الجبهة على الأرض لقصد التحية والتكريم، وقد كان سائغًا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة نبينا ﷺ فحرم هذا فى هذه الملة، وجعل السجود مختصًا بجانب الرب تعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفى الحديث (أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما دخل سجد لرسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[1].

من عظم حقه عليها.

وفى حديث آخر (أن سلمان[2] لقى النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة وكان سلمان أقرب عهد بالإسلام فسجد للنبى ﷺ فقال: لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت)[3].

هكذا قال ابن كثير.

وما قيل إن المراد بالسجود الانحناء فالحرور يبطله.

وما قيل: اللام فى (له) أجلية أى سجدوا لله لأجل يوسف ـ عليه السلام ـ أو اللام فى «له» بمعنى (إلى) كقول حسان فى على رضي الله عنه:

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف ... من هاشم ثم منه من أبى الحسن
أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن

---

(١) حديث: (لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها...) انظر الحاكم فى المستدرك: ٢/ ٢٠٤ الحديث رقم (٢٧٦٣) والترمذى: ٣/ ٤٦٥ الحديث رقم (١١٥٩) والدارمى فى السنن أيضًا: ١/ ٤٠٦ الحديث رقم (١٤٦٤) والهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٣١٠ والبيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٢٦١، وانظر العجلونى فى كشف الخفاء: ٢/ ٢١٠ الحديث رقم (٢١١٤).

(٢) (سلمان الفرسى) تقدمت ترجمته.

(٣) حديث: (لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحىّ الذى لا يموت) أورده ابن كثير فى التفسير ٢/ ٤٩٢، ٣/ ٣٢٤ وقال فيه: هذا مرسل حسن، وانظر أيضًا الديلمى فى مسند الفردوس (٥/ ٣٨٧ الحديث رقم (٨٥١).

فكأنهم جعلوا يوسف عليه السلام قبلة وسجدوا لله، أو الضمير في «له» عائد، إلى الله فكل هذه الوجوه خلاف الظاهر لا يصار إليه ما أمكن الحمل على الظاهر وقد أمكن كما مر.

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ يقال: أحسن بي وإليّ ولي وكذلك أساء الشيء قال:

الشيء بنا أو أحسن لا ملومة إليّ ولا مقلبة انتقلت، خص نفسه بالذكر لأن حضور أبيه كان في البعد عن الظلمة.

﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ قال يعقوب: أسجنت يا قرة عيني؟ قال: نعم.

لكن المراد ليس الشكاية بل الحمد على نعمة الله ولم يذكر الجب لئلا يكون منسوبًا على الإخوة.

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ أي: البادية فإنها من يكون فيها يبدو أي: يظهر لعدم السر، وإن آل يعقوب كانوا أصحاب مواش من الإبل والغنم وكانوا يرتادون النجع، أي: النبات وكانوا مع ذلك يسكنون في البيوت المبنية من الحجارة في القرى، في أكثر السنة فعندما تتولد المواشي يرتحلون إليها لأخذ محصولها من السمن والجبن والأقط وغير ذلك كما هو عادة بلادنا التي تولدنا فيها من ممالك وإن وسطان وخلاط، فإن أهل القرى فيها لهم مواش يرتحلون لأجلها في بعض السنة ويسكنون أكثرها في القرى وداري لكنعان وبلاد الشام في طيب كثرة المياه مثل بلادنا ولم يكونوا من أهل البوادي كالأعراب والتركمان والأكراد والراوتدية لا يسكنون قرية أصلاً، بل يرتحلون في الصيف والشتاء حتى يخالف قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ (يوسف: ١٠٩).

﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي نخس أي أفسد ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بأن ألقى في قلوبهم الحسد وذكر ذلك وإن فيه نوع تثريب لأن النعمة بعد البلاء والشدة أطيب وألذ وأحال ذلك إلى الشيطان لأنه قد كان أبوه قاله فيما سلف: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يوسف: ٥).

فكان أبوه قد أحال على الشيطان، فكذا هو أي يوسف ثم ذكر النعم التي صار هذا النزغ سببًا لها من الملك والعز فقال:

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ ﴾ أي لطيف التدبير، واللطف هو إيصال البر إلى الغير برفق وسهوله.

وقــيل: هو العلم بخفيات الأمـور ودقائقها، فالمعنى: موصل إحسـانه بتدبير فيه سهولة مثل مـا فعل بنا فإنه كان للوصول بهذا الملك والعز أسبـاب أسهلها ما وقع من نزغ بينى وبين إخـوتى وفـعلهم كذا وكـذا، ووصولى إلـى مصـر، وإلى مراد العـزيز [. . .][1] وصلت بالعزة والملك فالله لطيف التدبير.

﴿**لِمَـا يَشَـاءُ**﴾ أى لأجل ما يشـاء عزتى فى الدنيا والاخـرة، ثم علل على لطف تدبيره بقوله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**﴾ بالوجوه الممكنة من أسباب كل شىء، وأى سب منها أسهل الكل.

﴿**الْحَكِيمُ**﴾ الحاكم ما فعله، والمتقن ما يشاء بجعله مشتملاً على حكم وقواعد لا تحصى.

وهذا إشارة إلى ما قال أبوه فى آخر مـا يعبر منامه وقوله: ﴿**وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (يوسف: ٦).

أى: هو يعلم الأسباب المـوصلة إلى هذا الاجتباء وإتمام النعمـة كأن يعقوب نبى الله علم أن وصول يوسف إلى العز فى الدنيا والآخرة وصول له إليه بعد الفراق الممتد والهـجران المـسبق، ولم يعلـم كيف يصل، وبأى سـبب يصل ويحكم فـعله بالحكم والمصالح فلتلك الإشارة عرف ما نكر أبوه.

وروى أن يوسف عليـه السلام أخذ بيـد يعقـوب فطاف به فى خزائنه فـأدخله فى خزائن الورق والذهب وخـزائن الثياب وخزائن الـسلاح وغير ذلك فلمـا أدخله خزائن القرطاس قال: يا بنـى ما أعقل عندك هذه القراطيس، وما كنت إلـى على ثمان مراحل قال: أمرنى جبـريل، قال: أوما تسأله قال: أنت أبسط منى إليه فاسـأله، قال جبريل: أمرنى الله بذلك لقولك: ﴿**وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ**﴾ (يوسف: ١٣) فهلا خفتنى. انتهى.

---

(١) ما بين المعقوفتين غير واضح بالمخطوطة.

مجلس في:

بيان وفاة يعقوب عليه السلام
قبل وفاة يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان وفاة يعقوب عليه السلام قبل وفاة يوسف عليه السلام.

ذكر فى أحسن القصص قال وهب رحمه الله: فلبث معه إخوته من يوم وردوا عليه مصر إلى يوم مات أبوه أربعًا وعشرين سنة فى أغبط الغبط، وأسر السرور لا يأتى عليه يوم ولا ليلة إلا والله يحدث له فيه غبطة هى أفضل مما قبلها ورخاء هو أفضل مما قبله، فقد جمع الله ألفتهم، وأفنى عيوبهم، ودحر الشيطان عنهم فلبسوا بذلك ولا يقدر قدر ما أحسن الله إليهم، ونعمته التى أتمها عليهم.

وقال ابن عباس ﷺ ووهب رحمهما الله: فلما حضر يعقوب الوفاة جمع ولده، وولد ولده فأوصاهم وعهد إليهم فقال: يا بنى ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٢).

ثم قال لبنيه: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا**﴾ (البقرة: ١٣٣) وقال: يا بنى احفظوا عنى خصلتين: ما انتصرت من ظالم بقول ولا فعل ولا رأيت من أحد حسنة إلا أفشيتها ولا سيئة إلا كتمتها.

وقال له بنوه: يا أبانا إنا نخاف أن يفرط علينا يوسف ما صنعنا به بعدك فاستوهب لنا ذلك منه وأوصه بنا، قال يعقوب ليوسف: هب لى ذلة إخوتك بك ولا تحقدها عليهم، فقال يوسف: يا أبتاه قد عفوت عنهم ووهبتهم لك.

وأوصى يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام إذا هو مات أن يحمل جسده حتى يقبر مع أبويه إبراهيم وإسحاق عليهما السلام فى الأرض المقدسة ثم مات فى مصر

فحـمله يوسف على عجلة من أرض مـصر حتى أورده للأرض الـمقدسـة ثم مات فى الموضع الذى أمر به ورجع إلى مصر.

قال وهب: يقال إنه مات وأخاه عيص فى يوم واحـد وقبرا فى موضع واحد وكان فى بطن واحد وكان عمرهما مائة سنة وأربعًا وأربعين سنة.

وقال كعب ـ رحمـه الله ـ: أقام يعقوب عليه السلام بأرض مـصر أربعين سنة قرير العـين، فرح القـلب، قد جـمع الله بينه وبين أولاده فـعند ذلك أوحى الله إليـه: إنى أنجزت لك مـا وعدتك به، وأقررت عـينك بولدك يوسف حتى رأيته ملكًا عـزيزًا وقد اقترب الآن أجلك فـارحل عن مصر وأهلها فإنها بلدة الفـراعنة، وارجع الآن إلى قبور آبائك بالأرض المقـدسة، هناك وفاتك، قال: فـاغتم يعقوب لذلك غـمًا شديدًا ودعى ليوسف وقال: يا بنى إن الله تعالى قد وفى ما وعدنى به فيك وأقر عينى بك، وقد نعى نفسى وأمرنى بالمسير إلى بلاد آبائى وأنا خارج إلى هناك أنا وأولادى ولكن انظر يا بنى واحذر إذا دنا أجلك أن تتخذ لعظامك بلد مصر مدفنًا قال: ثم ودع يعقوب عليه السلام وخرج يوسف عليـه السلام معـه يودعه وهو وأولاده والملك ريان، وجمع أهل مـصر وساروا معه آخر بلاد مصر، ثم إن يعقوب عليه السلام عانق يوسف وودعه وعانق سائر أولاده والملك ريان وأمرهم بـالانصراف فانصـرفوا عنه وسار هو ومن مـعه من أولاده حتـى وصلوا أرض كنعان وأقـام أيامًا ثم سـار من هناك إلى موضع قـبر جـده إبراهيم وإسحاق عليهم السلام.

وقال كعب: فلـما جاء يعقوب عليـه السلام إلى البيت المقـدس إذا هو بالملائكة حضور، وقبـر مفتوح فوق يعقـوب عليه السلام فرأى قبرًا قـد فرش بأنواع الفرش من الجنة فقـال لهم: لمن هذا القبر؟ قـالوا: لرجل كريم على ربه، فـقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن ملائكة الله تعالى، فنظـر يعقوب عليه السلام إلى القبر فرأى أقـوامًا حسان الوجوه على منابر عالية، فقال يعقوب: من هؤلاء الذين يجلسون على المنابر؟ فقالوا: هؤلاء أولاد إبراهيم الخليل فهمَّ يعقوب أن يدخل إليهم ويسلم عليهم فقالت الملائكة: لا يدخل عليهم إلا من يشرب بهذا الكأس وناولوه كأسًا فـأخذه وشربه فلما شرب خر ميتـا عليه السلام فغسلتـه الملائكة، وكفنته بأكفـان من الجنة، وصلى عليه أحد أولاده ودفنوه إلى جنب قبر أبيه إسحاق وقبر إبراهيم عليهما السلام ثم رجع إخوه يوسف إلى

يوسف عليه السلام وأخبروه بوفاة أبيهم يعقوب فحزن يوسف حزنًا عظيمًا، وبكى بكاء شديدًا، قال: فلما جمع الله ليوسف شمله وأقر عينه، وأتم أمر رؤياه وعلم أن نعم الدنيا لا تدوم سأل الله تعالى حسن العاقبة ودعا ربه وشكره. انتهى.

ذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١).

رب: أصله يا رب، حذف حرف النداء لما مر في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ من النكتة وهي قرب المنادى لأنه تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد، وعلمه به، وعدم غفلته عنه دائمًا، لأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

ثم حذف ياء الإضافة اكتفاء بالكسر للاختصار.

والرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تبلغ الشيء إلى كماله الممكن تدريجًا ثم سمي به لأنه بمعنى المربي أو من قبيل: رجل عدل.

والمراد من الملك، ملك الدنيا وملك مصر الذي أوتيه بعض منه.

أو المراد ملك مصر.

ووجه البعض أنه لم يكن ملكًا مستقلاً، بل نائبًا عن الملك ريان فلا يخالف قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ (يوسف: ٥٦) وقيل: الملك الجمال أو ملك الوصال، أو ملك الشفقة، أو ملك العدل، أو ملك الحية، أو ملك النسب، أو ملك الشرف وغير ذلك.

ثم قال: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي بعض التأويل لأنه لم يؤت كل التأويل تفصيلاً، وإن أمكن أن يؤتى في علم تعبير الرؤى العلم إجمالاً أي ملكه مَلَكَةً يفنّد بها تأويله لأن علم التعبير له قوانين[1]، الاستنباط، لكن المراد من تأويل الأحاديث أعم من ذلك في أول السورة من أن المراد بالأحاديث إما المناجاة لأنها إما حديث ملك إن كانت صادقة أو حديث نفس أو شيطان إن كانت كاذبة، وإما غوامض الأحاديث الإلهية أي الكتب السماوية وإما دقائق أحاديث الأنبياء، وإما أسرار كلمات

---

(١) إن علم التعبير الذي يتحدث عنه بعض من العلم الذي آتاه الله لنبيه يوسف (عليه السلام) والعجيب أن المؤلف يريد أن يشرح قوانين علم التعبير في الوقت الذي يريد أن يسلبها هو نفسه عن نبي الله يوسف (عليه السلام) يا للجراة!! المحقق.

الحكماء، وفى كل ذلك كـون قانون الاستنبـاط غير معلوم واعلم أنه إذا أراد العـبد أن يدعو الله ويطلب منه حاجه يستحب أن يقدم على السؤال والطلب النداء، ثم الثناء، ثم يطلب سـؤاله فراعـى نبى الله ذلك الأدب، فتـأدب به بقوله: ربّ، ثم أثنى عليه بأنك يا رب أعطيتنى بعض الملك، وعـلمتنى بعض التأويل، فهـو ثناء عليه بجميـع صفات الكمال لأن الإعطاء والتـعليم المذكورين لا يكونان إلا بالقدرة والإرادة والعـلم والحياة والجود، والوجوب وغيرها.

فقد نادى ربه، وأثنى عليه نداء وثناء ليس وراءهم لكن مع التـخصيص لنفسه، ثم عمم بالنسـبة إلى جميع الكائنات العلوية والسـفلية فناداه وأثنى عليه على وجـه العموم بقوله تعالى:

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الفطر الشق والمراد من «السموات» ما فى جهة العلو، ومن الأرض: ما فى جهة السفل.

أى يا مبدعهما ومخرجهما بشق حجاب العدم والظلمة إلى نور الوجود وليس فوق ذلك الثناء على العموم ثم خصص بقوله:

﴿أَنتَ وَلِيِّى﴾ أى ناصرى أو متولى أمرى القائم به.

﴿فِى الدُّنْيَا﴾ وما فيها من النعمة بالأبناء والتعليم بعد التربية.

﴿وَالآخِـرَةِ﴾ فأصل الملك الفانى بالملك الباقى والسعادة الدنيوية الزائلة بالسعادة الأخروية الدائمة.

وذلك لا يكون إلا بالتوفى على الإسلام فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ كما قال يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢).

ثم طلب الوصول بالخوف إلى الرفيق الأعلـى كما طلب نبينا ـ ﷺ ـ عند النزع وقال: (اللهم بالرفيق الأعلى).

وذلك قـوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائى إبراهيم وبنيه، فـاللحوق بحسب الرتبة إلى طلب الوصول إلى مراتبهم لأنهم أعلى منه.

والمراد بالصالحين العموم ممن مضى منهم فطلب اللحوق بهم من بعدهم بحسب الزمان لأنهم المتقدمون بحسبه.

وفائدة اللحوق بهم كما فى صلاة الجماعة للنبى ﷺ .

فإن نبينا ﷺ (كان يصلى بالجماعة دائمًا وكان يقول: فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع وعشرين)[1].

والمعقول منه أن الأرواح المشرقة إذا تضامت وتقابل بعضهم ببعض يقوى إشراق نور الجلال فى كل واحد منها كالمرايا المتقابلة إذا وقعت الأضواء عليها وانعكس من كل واحدة إلى الأخرى قوى الإشراق فى كل.

وكذا هنا، ولم يطلب الصلاح حتى يقال: إن درجة النبوة أعلى من درجة الصلاح فلم يطلب ذلك بل طلب اللحوق بهم كما ذكر.

وقيل: إن الأنبياء مأمونون الخاتمة، فلم طلب الختم على الإسلام؟.

أجيب بأن المراد بالإسلام غير ما هو ضد الكفر وهو الاستسلام للحكم والرضا بالقضاء فطلب الختم على ذلك، وبأن المراد التواضع كاستغفارات الأنبياء، وبأن المراد الامتثال لحكم أبيه وهو قوله: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ثم اختلف العلماء فى أنه: هل هو طلب والسؤال للموت فنى، أو هو قول الأكثرين، وهو الظاهر من النظم لأن الأمر للفور على المذهب المختار.

وقالوا: لم يطلب نبى قبله ولا بعده الموت، الأنبياء فى حالة النزع قالوا: لما دعا هذا الدعاء لم يمض عليه أسبوع.

وقيل: شهر، وقيل: سنة حتى توفى.

وقال بعضهم: مراده ـ عليه السلام ـ أن يميته الله على الإسلام لا فى الحال وهو الموافق لديننا لأن طلب الموت فى ديننا مكروه إلا عند الخوف من الفتنة أى الوقوع فى الكفر والضلال.

---

(١) حديث: (فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة) عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة) هذه رواية صحيح مسلم.

انظر صحيح مسلم: ١/ ٤٥٠ الحديث رقم (٦٥٠) وصحيح البخارى: ١/ ٢٣١ الحديث رقم (٦١٩) صحيح ابن خزيمة: ٢/ ٣٦٣ الحديث رقم (١٤٧٠) وصحيح ابن حبان: ٥/ ٤٠٠ الحديث رقم (٢٠٥١) وسنن الدارمى ١/ ٣٢٩ الحديث رقم (١٢٧٦) والبيهقى فى السنن الكبرى ٣/ ٥٩ الحديث رقم (٤٧٣٤) وموطأ الإمام مالك ١. ١٢٩، وابن أبى شيبة فى المصنف ٢/ ٢٢٦، ومصنف عبد الرزاق: ١/ ٥٢٣ والإمام أحمد فى مسنده: ٢/ ٢٦٤.

كما ورد فى الحديث: (وإذا أردت فى قوم فتنة فتوفنى غير مفتون)[(١)].

قال وهب ـ رحمه الله ـ: ولما قال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ﴾.

قيل: فأوحى الله تعالى: كل حى يموت وقد بقى من عمرك ستون سنة أو خمسة وعشرون سنة فإذا استوفيتها ألحقتك بالصالحين فادع أهل مصر للإيمان سرًا وعلانية، فدعاهم يوسف حتى آمن كثير من الناس، وكانت القبلة للمسلمين، وصار المشركون قليلاً فأخَّرهم المؤمنون فشكوا من المؤمنين إلى ملكهم ريان يوسف وقال له أيها العزيز أنت تعلم أن أهل مصر كانوا يحبونك ويشكرونك والآن صاروا يبغضونك فما عليك من أديانهم، فقال يوسف: قد عرفت ما ذكرت فأنا راد قولك عليك فإنك تبغض الإيمان، ولقد كان أبى يدعوك إلى الإيمان طول مدة إقامته هنا معك وما سمعت منه وأفسد عليك إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ على بناء ما أنت محب له والآن محب له، فالآن إنى متحول عنك، وعن قومك وراحل عنك بأهلى، وملتى فإنى لا أحب أن أكون مع عبدة الأوثان.

قال: ثم إنه رحل عليه السلام بأهله وأولاده وقومه وإخوته والذين آمنوا معه حتى نزل فى الموضع الذى لقى فيه أباه يعقوب عليه السلام وقت مجيئه إلى مصر فنزل هناك هو وجميع قومه، ونزل جبريل عليه السلام وخرق له نهرًا من النيل وهو نهر يقال له فيوم وهو نهر بالفيوم يقال له: اللاهوت بأرض مصر، وكان لا يدخل هاتين المدينتين رجل إلا مؤمنا ملبيًا بقوله: لبيك ما فضل إبراهيم بالنبوة لبيك.

قال: عمرت المدينتان حتى لم يكن بأرض مصر أعمر منهما من كثرة الزراعة والثمار والمياه.

قال: فبلغ ذلك إلى الملك «ريان» فعزم على المسير إلى هناك حتى يطلع على هاتين المدينتين فبلغ الخبر إلى يوسف ـ عليه السلام ـ فأرسل إليه يقول: لا يدخلهما

---

(١) حديث: (وإذا أردت بقوم فتنة...) (١٩٣٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لى: يا محمد قل تُسمع وسل تُعط، قال: فقلت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون... اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك وحبا يبلغنى حبك) هذا حديث صحيح على شرط البخارى... انظر: المستدرك: ١/ ٧٠٨ الحديث رقم (١٩٣٢) ومجمع الزوائد ٧/ ١٧٩، ١٧٧ والمناوى فى فيض القدير: ١/ ١٥١.

إلا من كان مؤمنًا وأنت من عبـدة الأوثان فإن أردت ذلك فأسلم، قال: فلم يسلم ولم يدخل فيهما كما مر.

وقيـل: أسلم فدخل وأطاع فى حكم يوسف ـ علـيه السلام ـ بـالإسلام وشريـعة الخليل.

قال: ثم سار يوسف عليه السلام سير الأنبياء فى قومه حتى كبر وشاخ.

قال: فلما أدركته الوفاة اجتمع إليه قومه من بنى إسرائيل وهو ثمانون رجلاً وآذنهم بحضور أجله فقالوا: يا نبى الله يجب أن تعرفنا كيف تصرف الأحوال بنا بعد خروجك من بين أظهرنا وما يؤول إليه أمـرنا وأمر ديننا، فقال: أمركم يستـقيم على ما أنتم عليه وتستـقيـمون على دينكم إلى أن يـبعث الله إليكم رجـلاً جباراً عـاتيًا من القـبط يدعى الربوبية فيـقهركم، ويذبح أبناءكم ويستحيى نسـاءكم ويسومونكم سوء العذاب، فـتمتد أيامه مـدة ثم يخرج من بنى إسرائيل نبى من ولد لاوى بن يعـقوب عليه السلام اسـمه موسى بن عمران رجل طويل جعد الشـعر آدم اللون فينجيكم الله تعالى من أيدى القبط على يديه.

قال النيسـابورى رحمه الله: قال لى أهل التـحقيق: لا يبعـد من الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يعظم رغبته فى الموت لوجوه:

منها: أن مراتب الموجود ثلاث:

المؤثر: الذى لا يتأثر وهو الإله تعالى وتقدس، والمتأثر: الذى لا يؤثر وهو عالم الأجسـام كأنها قـابلة للتفكيك والتـصوير والصفـات المختلفـة والأعراض المتـضادة، ويتوسطها قسم ثالث هو:

عالم الأرواح لأنها تقبل الأثر والتصرف من العالم الإلهى، ثم إذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت.

وللنفوس فى التأثير والتأثر مراتب غير متناهية لأن تأثيرها بحسب تأثرها مما فوقها والكمال الإلهى غـير متناه فـإذن لا تنفك النفس عن نقصان مـا والناقص إذا حصل له شعـور بنقصانه وقـد ذاق لذة الكمالات بقى فى العلو وألم الطلب ولا سـبيل إلى دفع القلق والألم إلا الموت فحينئذ يتمنى الموت.

ومنهـا: الاستعادات الدنيا ولذاتها سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل

عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها، ثم إنها مخلوطة بالمنغصات والأراذل من الخلق يشاركون فيها، بل ربما كانت حصة الأراذل أكثر.

فلا جرم تمنى العاقل موته ليتخلص من هذه الآفات.

ومنها: أن اللذات الجسمانية لا حقيقة لها لأن حاصلها يرجع إلى دفع الألم.

وقد قررنا هذا المعنى فيما سلف.

ومنها: أن مداخل اللذات الدنيوية ثلاثة:

لذة الأكل، ولذة الوقاع، ولذة الرياسة، ولكل منها عيوب:

فلذة الأكل مع أنها غير باقية بعد البلع فإن المأكول يختلط البراق المجتمع فى الفم ولا شك أنه شيء منفذ ثم كما يصل إلى المعدة يستحيل إلى ما ذكره منفر فكيف به.

ومن ثمة قال العقلاء: من كانت همته ما يدخل فى جوفه كانت قيمته ما يخرج من بطنه.

هذا مع اشتراك الحيوانات الخسيسة فيها.

وأيضًا اشتداد الجوع حاجة والحاجة نقص.

وكذا الكلام فى لذة النكاح وعيوبها منع أن فيه احتياجًا إلى زيادة المال والنفقة للزوجة والولد ما يلزمهما والاحتياج إلى المال يلقى المرء فى مهالك الاكتساب ومهاوى الانتجاع.

ولذة الرياسة أدنى عيوبها أن كل واحد يكره بالطبع أن يكون خادمًا مأمورًا ويحب أن يكون مخدومًا آمرًا فسعى الإنسان فى الرياسة، سعى فى مخالفة كل من سواه ولا ريب أن هذا أمر صعب الحصول منيع المراد وإذا ناله كان على شرف الزوال فى كل حين وأوان لأن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر فيكون دائمًا فى الحزن والخوف فإذا تأمل العاقل فى هذه المعانى علم قطعًا أنه لا صلاح فى اللذات العاجلة ولكن النفس جبلت على طلبها والرغبة فيها، فيكون دائمًا فى بحر الآفات وغمرات الحسرات فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة. انتهى.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى ما ذكر من قصة يوسف عليه السلام.

﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ (يوسف: ١٠٢) خبر اسم الإشارة.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر آخر.

ويجوز أن يكون (ذلك) بمعنى الذى ومن أنبـاء الغيب صلته وقوله: ﴿نُوحِيـهِ﴾ خبره.

قال الرضى: أما الكوفيون فيجوزون كـون «ذا» وجميع أسماء الإشارة موصولة بعد ما الاستفهاميـة كانت أولا استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْـتُلُونَ﴾ أى أنتـم الذين.

وقـوله: عـدس بالعبـا، وعليك امـارة نجـوت، وهذا تحـمليـه طليق، أى الذى تحمليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ (طه: ١٧).

ولم يجوز البصـريون ذلك إلا فى «ذا» بشرط كونها مـا بعدها الاستفهـامية إذا لم تكن زائدة ففى، ماذا صنعت؟ يحتمل كونها زائدة وبمعنى الذى.

وقولك: ماذا الذى صنعت، نص فى الزيادة ومثله: ذا بعد من الاسـتفهامية نحو: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ (البقرة: ٢٤٥).

واعتذر البصريون عـن المواضع التى استدل بها الكوفيون بأن أسمـاء الإشارة فيها باقية على أصلها دفعًا للاشتراك الذى هذا خلاف الأصل. انتهى.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢) عطف على محذوف هو علة مع ما ذكر للحكمين المـذكورين، أعنى كون ما ذكر من قصة يوسف عليه السلام من أنباء الغيب، وكونه بوحى الله تعالى تقدير الكلام.

سمـعت هذا من أحد حـملة الأخبار من أهل الكتـاب وأصحـاب التواريخ وذلك معلوم لقـريش لا يشك فيه أحد منهم لأن قـومك أميون وما خرجت للتـعليم إلى قوم آخرين وما كنت لديهم أى عند يوسف وإخوته.

﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أى عزموا على ما هم عليه من إلقائه فى الجب.

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بأبيهم بالرُّسُل وبيوسف ليذهب.

وحين جاءوا على قمـيصه بدم كذب، وحين شروه بثـمن بخس، فلما انتفى عنك السماع من جـملة الأخبار كما هو مـسلم لقريش وإن كان ممكنا موهومًـا وانتفى أيضًا الحضور عندهم وهو معلوم بالبداهة.

وقد أخـبرت عن هذه القصة بـكلام بليغ فصيح فى أقـصى مراتب الإعجاز خـبراً

مطابقًا للواقع والكتب السماوية المتقدمة فلم يبق احتمال أصلاً غير أن يكون ذلك الإخبار بالوحى وهو المدعى لكن الله ترك من المتقدمتين، وهما نفى السماع عن جملة الأخبار، وعدم الحضور عندهم ما هو ممكن فى الجملة موهوم وهو نفى السماع لكونه معلومًا عندهم وهم الخصوم.

وذكر ما هو معلوم بالبداهة وهو نفى حضور لا عندهم لقصد التهكم.

كأنه قال: يا معشر قريش قد أخبر محمد ﷺ عن مسئولكم وهو قصة يوسف كما سبق فى أول تفسير السورة أن قريشًا جاءت اليهود وسألوهم إن عندنا رجلاً يدعى النبوة فما علامتها حتى نستخبر؟ قالت اليهود: سلوه عن سبب انتقال آل يعقوب وعن قصة يوسف، فسألوه فنزلت السورة بكمال لم يعهد قبل ولا بعد، ثم عاندوا، فلو يؤمنوا فتهكم بهم.

وقيل: ما مكابرة لعقولهم هل كان محمد ﷺ حاضرًا عند إخوة يوسف حين مكرهم وكأنهم جوزوا ذلك لمكابرتهم.

ولو ذكرت المقدمة الأولى دون الأخيرة أو ذكرتا معًا لم يحصل هذا التهكم كما لا يخفى.

ثم قال تعالى تسلية لرسوله لأنه حين ما رأى تكذيبهم بعد نزول السورة حزن حزنًا شديدًا لأنه كان يظن أنهم يؤمنون عند نزولها فسلاه وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ (يوسف: ١٠٣) عمومًا من قريش وغيرهم أو أكثر أهل مكة.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ قدم لرعاية الفاصلة فإن موقعه بعد قوله: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ والحرص طلب الشيء بأقصى الاجتهاد.

والواو فى «ولو حرصت» للحال عند صاحب الكشاف.

وتقدير الكلام: وما أكثر الناس بمؤمنين مفروضًا حرصكم عليهم حال من (بمؤمنين) أو أكثر الناس والعالم، معنى النفى والعطف عن الحربى أى ما هم بمؤمنين إن تحرص وإن حرصت.

وقد سبق تحقيقه فى هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإبلاغ والإنباء.

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أصلاً حتى يتكاسلوا عن الإيمان بسبب سؤال الجعل والعلة لعدم استدلال قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف: ١٠٤) من وجوه أربعة:

الأول: أن الذكر بمعنى العظمة والمؤاجرة أى الذى يعطى نفسه بالإجارة لا يكون ذاكرًا واعظًا.

والثانى: أن هذا القرآن عظة للعالمين عامة والنافع للعامة لا يطلب الأجرة من بعض.

والثالث: أن الموعظة تجويز وزجر عن طلب العائد من الدنيا فلا يليق أن يزجر الناس عنها ويطلبها.

والرابع: إنك المخاطب بقولنا وما سألهم رسول من الرسل وما طلب رسول الأجر أصلاً فأنت لأن ملة.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله الكاف للتشبيه وأى للإبهام ثم ركب فجعل كلمة واحدة.

قال الرضى: وأما كأين فنقل السيرافى عن سيبويه أنه بمعنى رب لا بمعنى كم.

قال: لأنه يستقيم كم لك ولا يستقيم كأيّن لك كما لا يستقيم رب لك وليس بدليل واضح وذلك لأن كم لكثرة استعمالها دون كأيّن جار حذف مميزها وأما رب فحرف جر لا يحذف مجروره، ولم أعثر على منصوب بعد كأين.

وقال بعضهم: يلزم ذكر من بعدها.

ولعل ذلك لأنه لو لم يؤت بمن وجب نصب مميزها لمجيئه بعد المنور، فكان تمييز كم الاستفهامية مع أنها بمعنى كم الخبرية وقد جاء كائن فى الاستفهام قليلاً دون كذا ومنه قول أبى بن كعب «لزر بن حبيش»[1] كأيّن تعد سورة الأحزاب.

---

(١) **(زرّ بن حبيش)** بن حباشة بن أوس بن بلال، وقيل: هلال بن سعد بن نصر بن غاضرة بن مالك بن ثعلبة بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدى، أبو مريم، ويقال: أبو مطرف الكوفى، مخضرم أدرك الجاهلية روى عن أبى بن كعب وحذيفة بن اليمان، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبى وائل شقيق بن سلامة الأسدى، وهو من أقرانه... روى عنه إبراهيم النخعى وإسماعيل بن أبى خالد، وحبيب بن أبى ثابت، وزبيد اليامى، وشمر بن عطية وطلحة ابن مصرف، وعاصم بن بهدلة، وعامر الشعبى، وعبد الرحمن بن مرزوق الدمشقى، وعبدة بن أبى لبابة، ذكره محمد بن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى أهل الكوفة، وقال: كان ثقة كثير الحديث، قال أبو نعيم: مات وهو ابن سبع وعشرين ومائة، روى له الجماعة، انظر: تهذيب الكمال ٩/ ٣٣٨ الترجمة رقم (١٩٧٦)

أى كم تعدها فاستعملها استفهامية وحذف مميزها وهما قليلان، لأنه يلزمها القصور دون كذا لما قلنا فى كم الخبرية وورود كذا مكرر مع واو نحو: كذا وكذا، وكذا أكثر من إفراده ومن تكرر بلا واو يكن عن العدد نحو: عندى كذا درهمًا. انتهى.

فقوله: «كأين» مبتدأ وقوله ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ مميزه أى كم من دلائل كثيرة تدل على وجود الصانع ووحدته وعلمه وحكمته.

قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ صفة كأين أو آية، والدلائل فى السموات الأفلاك الدائرات والكواكب من الثوابت والسيارات والأضواء والأنوار والأوضاع والحركات ووجه دلالتها أن كلا منها موجود من الوجوه الممكنة كالمقادير: السرعة والبطء وغيرها على وجه خاص هو أصلح الكل فلا بد لها لأجل إمكانها من موجد مرجح ومبدع، مقدر إذ لا رجحان فى الممكن ذاتى.

والدلائل فى الأرض أى طبقات العناصر البسيطة والمركبات العنصرية من الحيوان والنبات والمعدن فكل منها موجود على وجود خاص أصلح فله أيضًا مبدع ومخترع قادر على الإطلاق.

وقوله: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أى يشاهدونها من ذكر الملزوم وإرادة اللازم خبر كأين.

﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ أى عن التأمل والتفكر فيها وفى إبداعها وإيجادها.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ فإذا كان هؤلاء قومك عن التأمل فى عجائب مصنوعات الله تعالى مع عدم انحصارها فى عدد فلا غرو منهم أن يعاندوا فى معجزاتك بعد ظهورها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ﴾ أى والحال أنه لا يؤمن.

﴿أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ أى لا يصدق ولا يعتقد أكثرهم أى أكثر الناس مطلقًا لوجود الله، وبأنه خالق الكل.

﴿إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥) استثناء من أعم عام الأحوال، أى: لا يؤمن فى حال الاشتراك، فإن قريشًا وسائر العرب كانوا يعبدون الأصنام متحدين للأفكار والأولياء والملائكة صورًا يعبدونها ويشركونها بالله فى العبادة بعد إقرارهم بالله وخالقيته كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: ٢٥).

وقال الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧) فبعد إقرارهم بخالقيَّة الله ووجوده، وقدرته، وإرادته يعبدون الأصنام قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣).

والثنوية والمانوية من المجوس يشركون فى خالقية الله حيث يقولون يزدان أى الله تعالى خلق «أهر من» أى الشيطان.

ثم بعد ذلك فكل خير وقع فى العالم يقولون خلقه الله أى: يزدان، وكل شر يقع يقولون خلقه «أهر من» أى: الشيطان.

والنصارى: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله حيث يستحلُّون بهم ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، ويسجدون لهم.

وأيضًا اتخذوا المسيح عيسى ابن مريم ربًا وجعلوه ابنًا له تعالى.

وأيضًا: الإحكاميون من المنجمين معتقدون تأثير الكواكب بالاستقلال.

وأيضًا الأطباء من الطبيعيين يعتقدون الطبائع الأربع: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، والعقاقير والنباتات وغيرها مستقلة بالتأثير وهذا كله شرك جلىّ وكفر ظاهر بعد ذلك فى العالم شرك خفى وهو أنواع منها: الرياء، والسمعة.

وقد ورد فيه أحاديث كثيرة.

منها: ما روى ابن كثير فى تفسير هذه الآية وعن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ﷺ؟ قال: الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا بالذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون جزاء)[1] انتهى.

ومنها: تعليق التمائم، وفيه أحاديث كثيرة منها:

---

(١) حديث: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر... قالوا: وما الشرك الأصغر...) الرياء: الشرك الأصغر، رواه الطبرانى بسند فيه ابن لهيعة عن شداد بن أوس قال كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر، قال النجم: ورواه الطبرانى عن محمد بن رافع بن خديج رفعه بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل ترون عندهم الجزاء» انظر العجلونى كشف الخفاء: ١/ ٥٢٥ الحديث رقم ١٤٠١.

ما رواه ابن كثير من حديث أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الرقى والتمائم، والبوله شرك)[١].

وفى لفظ لهما: الطيرة شرك، وما منا إلا ويتطير ولكن الله يذهب بالتوكل.

ومنها: (الحلف بغير الله إن لم يعتقد أنه يميز فهو حرام وشرك خفى، وإن اعتقد أنه يميز فهو شرك جلى وكفر).

قال فى شرح الوقاية[٢]: لا يلصق القسم بغير الله فإنه حرام.

عن ابن عباس أنه قال: لو أحلف بالله كاذبًا أحب إلىَّ من أن أحلف بغير الله صادقًا.

وعن ابن مسعود أنه قال: (الإشراك بالله ثلاثة منها: الحلف بغير الله)[٣].

---

(١) حديث: (**إن الرقى والتمائم و... شرك**) عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالت: قلت: لم تقول هذا؟ والله لقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقينى، فإذا رقانى سكنت، فقال عبد الله: إنما كان ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها أكف عنها إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله ﷺ يقول: «أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا) انظر: البيهقى فى السنن الكبرى: ٩/ ٣٥٠

(٢) (شرح الوقاية) وقاية الرواية فى مسائل الهداية للإمام برهان الشريعة: محمود بن صدر الشريعة الأول: عبيد الله المحبوبى الحنفى المتوفى سنة ؟؟؟ صنفه لابن بنته صدر الشريعة الثانى، الآتى ذكره، أوله: (حمد من جعل العلم أجل المواهب الهنية... إلخ، وهو: متن مشهور اعتنى بشأنه العلماء: بالقراءة والتدريس والحفظ، فشرحه: الشيخ: جنيد ابن الشيخ سندل الحنفى، العلامة زين الدين المتوفى سنة ؟؟؟، أوله: (الحمد لله الذى جعل الشرع دينًا رضيا ونورا مضيًا... إلخ) وهو: شرح مفيد وسماه: (توفيق العناية فى شرح الوقاية) لحصوله بتوفيق الله ـ تعالى... وشرحه المولى علاء الدين، على بن عمر الأسود المتوفى: سنة ٨٠٠، ثمانمائة، وسماه: (العناية فى شرح الوقاية) وشروح أخرى كثيرة جدًا انظر: حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون: ٢/ ٢٠٢٠.

(٣) حديث: (**الإشراك بالله ثلاث...**) حدثنا أبو مجلز قال: كنت جالسًا عند ابن عمر فدخل عليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ما الأشراك بالله؟ قال: أن تجعل مع الله إلها آخر، فقال أيضًا: أبا عبد الرحمن ما الإشراك بالله قال: أن تتخذ من دون الله أندادًا، فقال أيضًا: يا أبا عبد الرحمن ما الإشراك بالله فقال: أخرج عليك إن كنت مسلما لما خرجت عنى، فخرج الرجل وغضب ابن عمر غضبًا شديدًا، قال: فقمت لما رأيت من شدة غضبه لأخرج فضرب بيدى على ركبتى فقال: اجلس فإنى أرجو أن تكون منهم، قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن آتى =

وعن ابن عمر أنه قال: الحلف بغير الله شرك.

كما في كفاية الشعبي.

فما أقسم الله تعالى بغير ذاته وصفاته من الليل والضحى وغيرهما ليس للعبد أن يحلف بها.

وما اعتاده الناس من الحلف بغير الله. فإن اعتقد أنه حلف بغير الله وذلك واجب يكفر.

وقال على الرازى: إنى أخاف الكفر على محاسن قال: بحياتى وحياتك وما أشبهه، كما فى النهاية.

وذكر فى المنية: أن الجاهل الذى يحلف بروح الأمير وحياته ورأسه لم يتحقق إسلامه بعد، كالنبى والقرآن وسورة منه والمصحف، والشرائع، والعبادات كالصلاة وغيرها، والعرش، والكعبة، كل ذلك لأن العرب ما تعارفوها يمينًا، كما فى شرح الطحاوى. انتهى.

ومنها: الدعاء والسؤال من غير الله فكل من دعا غير الله دعاء مسألة أو عبادة، فقد أشرك فى الألوهية وكل من اعتقد ضارًا، ونافعًا غير الله فقد أشرك فى الربوبية، كذا فى الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم قال تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا﴾ اختلف العلماء فى الهمزة الداخلة على الواو العاطفة كقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ (البقرة: ١٠٠) أو على الفاء كما فى هذه الآية، أو على ثم كقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ (يونس: ٥١).

فقال بعضهم: حرف الاستفهام يؤخر عن العواطف فى المعنى قدمت عليها لصدارتها. ويدل عليه كلام الرضى حيث قال:

وقد تدخل همزة الاستفهام المفيدة للإنكار على الواو العاطفة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ (البقرة: ٩٩) الآية، فقوله عطف على (أنزلنا) والهمزة لإنكار الفعل وقد يكون الاستفهام

= المدينة طالب حاجة فأقيم بها السبعة الأشهر والثمانية الأشهر، كيف أصلى؟ قال: صل ركعتين ركعتين.

انظر: مصنف عبد الرزاق: ٢/ ٥٣٩ الحديث رقم (٤٣٦٤)

للتوبيخ أو التقدير إذا دخلت همزته على جملة منفية كقوله تعالى: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا﴾ (القصص: ٤٨) عطف على: «قالوا لولا أوتى».

وكذا تدخل على الفاء العاطفة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ (يونس: ٤٢).

فقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أى: بعضهم يستمع إليك غير سامع فى الحقيقة أفأنت تسمع هؤلاء الصم.

وكذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ (يونس: ٤٣) وتكون الهمزة للتوبيخ، أو للتقرير إذا دخلت على النفى، وقد تدخل على فاء السببية كقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ (القصص: ٧١) أى: إذا كان كذلك فلمَ لا تسمعون.

وكذا قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧٢) فالفاء للسببية والهمزة للتوبيخ أو التقرير.

وكذا تدخل همزة الإنكار على (ثم) المفيدة للاستبعاد كقوله تعالى: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ (يونس: ٥٠، ٥١) فثم ها هنا مثلها فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١).

لأن الإيمان بالشئ مستبعد من استعجاله استهزاء .

وهذه الحروف ليست بعاطفة على معطوف عليه مقدر كما يدعيه جاد الله فى الكشاف.

ولو كانت كما ذكر هناك لجازٍ وقوعها فى أول الكلام قبل تقدم ما يكون معطوفًا عليه، ولم يجئ إلا مبنيًا على كلام متقدم. انتهى.

وقال بعضهم: تقدر المعطوف عليه بعد الهمزة ثم يعطف عليه بالحروف ما ذكر بعدها وعليه أكثر علماء النحو.

ونص الزمخشرى فى التفسير: فى مواضع بأن حرف الاستفهام قبل حروف العطف المذكورة لإنكار تعقيب الجملة المذكورة بعد الفاء وترتيبها على الجملة قبلها حيث قال فى قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ (البقرة: ٨٧).

المعنى: ولقد آتينا يا بنى إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم فكلما جاءكم رسول منهم

بالحق استكبرتم عن الإيمان به، فوسط أى الله تعالى بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجب من شأنهم.

ويجوز أن يريد: ولقد آتيناهم ففعلتم ثم وبخهم على ذلك.

ودخول الفاء لعطفه على المقدر، وعلى قياس قوله فى الفاء يكون فى الواو مع الجملة قبلها، وفى ثم لإنكار ترتب الجملة على الجملة أيضًا على التراخى.

فالمعنى على هذه الأقوال فى قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ على إنكار أمنهم بعد وضوح دلائل النبوة مثل سورة يوسف عليه السلام ودلائل التوحيد مثل ما فى السموات والأرض على الأول، وعلى إنكار فعلتهم وبعدها أمنهم على الثانى.

إذ التقدير: أغفلوا عن دلائل النبوة والتوحيد فآمنوا وعلى إنكار تعقيب إلا من وترتيبها على وضوح الدلائل المذكورة على القول الثالث قول الزمخشرى.

فالمعنى هنا لا ينبغى، ولا يستقيم، ولا يصح أن يوجد بعد وضوح الدلائل الكفر والأمن من: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ (يوسف: ١٠٧) أى نقمة عامرة محيطة من الغشاء.

﴿مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أى فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٧) بإتيانها، فإن تأتى كذلك على ما ورد فى الأحاديث.

نعوذ بالله من الغفلة والغضب آمين.

مجلس في:

بيان العبرة المستفادة من قصة يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب أما بعد:

فهذا مجلس فى بيان العبرة المستفادة من قصة يوسف عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ تبرئًا عن إشراك الناس وعن غفلتهم وأمنهم من عذاب الله، وعن الساعة.

﴿هَذِهِ﴾ السبيل بقرينة الخبر وهو.

﴿سَبِيلِي﴾ والسبيل كالطريق تذكَّر وتؤنث، ثم بين السبيل المشار إليها بحسب حضورها فى الذهن المبهمة لعدم تقدم ما يدل عليها بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أى إلى دينه من الأصول والفروع مستقرًا كاستقرار الراكب على المركوب.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ جمة غير عمياء، أى واضحة وهى القرآن الدال بإعجاز نظمه على صدقى فى دعوى النبوة وباعتبار معانيه اللغوية على الحكم والإحكام، حال من فاعل «أدعو».

﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر فى «أدعو» وفى (على بصيرة).

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ إلى يوم القيامة، عطف على المستترين أما على الأول للفصل والتأكيد ويجوز جمعها كما فى قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (الشعراء: ٩٤).

وعلى الثانى للتأكيد فقط ويجوز أن يبتدأ بقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ولا يكون حالاً عما تقدم، بل يكون مقدمًا، وقوله: ﴿أَنَا﴾ مبتدأ أو «من اتبعنى» عطف عليه.

ففيه إشارة إلى أن كل من اتبعه يجب أن يكون داعيًا إلى دين الله.

قال الكلبى:

وابن زيد حق على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه

ويذكر بالقرآن.

قال ابن عباس: يعنى أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة، وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن.

قال عبد الله بن مسعود: من كان مستنًا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد كانوا خير هذه الأمة وأبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله بصحبة نبيه ونقل دينه، فسموا بأخلاقهم وطرائقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم.

ذكره فى معالم التنزيل.

ويجوز أن يراد بالبصيرة اليقين والمعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عطف على «أدعو» أى أنزه الله وأسبحه تسبيحًا عن كل ما لا يليق بجناب قوله من كل نقص وباطل عمومًا من الإشراك وغيره.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تخصيص بعد التعميم.

وقيل: التنزيه مختص بالشرك بقرينه السابق واللاحق.

فقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ حال مؤكدة كقوله: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

فقد بيَّن سبيله بأنها هى الدعوة إلى دين الله مع حجة واضحة أو على يقين ومعرفة وهى تكميل النفوس الناقصة والتنزيه لله عن كل ما لا يليق به اعتقادًا وقولاً وفعلاً وهو الكمال فى نفسه وهو إن كان مقدمًا على التكميل لكن قدم التكميل عليه لكون نفعه عامًا كأنه مقصود بالذات عن وجود الأنبياء.

فدل الكلام على أن الداعى إلى الله يحب أن يكون على بصيرة أى يقين وحجة حتى يكون هاديًا غير مضل ويجب أن ينزه الله تعالى عن كل نقص وشرك حتى يكون مهتديًا غير ضال، جعلنا الله من جملتهم وحشرنا فى زمرتهم آمين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ (يوسف: ١٠٩).

قال بعض العلماء: (من) هنا لابتداء الغاية وهو قول الكوفيين.

قال الرضى: قوله: «فمن» للابتداء كثيرًا ما يجرى فى كلامهم إذ (من) لابتداء

الغاية و (إلى) لانتهاء الغاية ولفظ الغاية يستعمل بمعنى النهاية وبمعنى المدى، وكما أن الأمر والأجل أيضًا يستعملان بالمعنيين، والغاية تستعمل فى الزمان والمكان بخلاف الأمر والأجل وإنهما يستعملان فى الزمان فقط.

والمراد بالغاية فى قولهم: ابتداء الغاية وانتهاء الغاية جميع المسافة إذ لا معنى لابتداء النهاية وانتهاء النهاية فمن للابتداء فى غير الزمان عند البصرية سواء كان المجرور بها مكانًا سرت من البصرى أو غيره نحو: هذه الكتاب من زيد إلى عمرو.

وأجاز الكوفيون استعمالها أيضًا استدلالاً بقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ (الجمعة: ٩) وقوله:

* لمن الديار بقنَّة الحجر *

* أقوينَّ من حجج ومن دهر *

وأنا لا أرى فى الآيتين من معنى الابتداء إذ المقصود معنى الابتداء فى (من) أن يكون الفعل المتعدى بمن الابتدائية شيئًا كالسير والمشى ونحوه.

ويكون المجرور بمن الشيء الذى منه ذلك الفعل نحو: سرت من البصرة، أو يكون الفعل المتعدى بها أصلاً للشيء الممتد نحو: تبرأت من فلان، خرجت من الدار، لأن الخروج ليس شيئًا ممتدًا أن يقال خرجت من الدار إذا انفصلت منها، ولو بأقل خطوة.

وليس التأسيس والنداء حديثين ممتدين ولا أصلين لمعنى المبتدأ، بل هما حدثان واقعان فيما بعد «من» وهذا معنى فى (فمن) فى الآيتين بمعنى «فى» وذلك لأن فى الظروف كثيراً ما يقع بمعنى «فى» نحو: جئت من قبل زيد ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٥) وكنت من قدامك.

وقد دركنا ذلك فى الظروف المبنية وإقامة بعض حروف مقام بعض غير عزيزة وكذا الأقواء لم يبتدأ من الحجج بل أجل مرور حجج وشهر.

والظاهر مذهب الكوفيين إذ لا مانع من مثل قولك: نمت من أول الليل إلى آخره، وصمت من أول الشهر إلى آخره، وهو كثير الاستعمال.

وتعرف من الابتدائية بأن يحسن فى مقابلتها إلى أو ما يفيد فائدتها إلى، أو ما يفيد فائدتها نحو قولك: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

لأن معنى أعوذ ألتجئ إليه، وأقر إليه فالباء ههنا أفادت معنى الانتهاء.

وإذا قصدت بـ «من» مجرد كونها المجرور بها موضعًا انفصل عنه الشيء، وخرج منه، لا كونه معه لم يتغير أو لم يتم أو أن يقع موقعه «عن» لأنها لمجرد التجاوز، كما سيجيء [...][1] وانفصلت منه وعنه ونهيت من كذا وعنه، وسقاه من الغيمة، وعن الغيمة، أي: بعد عنها.

وأما «من» التفصيلية فهي وإن كانت بمجرد المجاوزة كما مر، لكنه لا يستعمل عن مكانها لأنها صارت علمًا في التفضيل وكبعض حروف أفعل التفضيل فلا تغير ولا تبدل.

وأجاز «ابن السراج»[2] كون «من» لابتداء غايتي الفاعل والمفعول لكون الفعل مشتركًا بينهما نحو: رأيت الهلال مكاني من خلال السحاب، فمبدأ رؤيتك مكانك مبدأ كون الهلال مرئيًا خلال السحاب.

وكذا قولهم: شممت المسك من داري من الطريق.

انتهى كلام الرضي.

---

(١) ما بين المعقوفتين مقدار كلمتين أو ثلاث لم أتبينها بالمخطوط.

(٢) (ابن السراج) هو: محمد بن السري أبو بكر النحوي المعروف بابن السراج، كان أحد العلماء المذكورين بالأدب وعلم العربية، صحب أبا العباس المبرد وأخذ عنه العلم، روى عنه أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي وأبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني، وكان ثقة، أخبرنا علي بن أبي علي حدثنا علي بن عيسى بن علي النحوي قال: كان أبو بكر بن السراج يقرأ عليه كتاب الأصول الذي صنفه، فمر فيه باب استحسنه بعض الحاضرين فقال: هذا والله أحسن من كتاب المقتضب، فأنكر عليه أبو بكر ذلك وقال: لا تقل هذا، وتمثل ببيت، وكان كثيراً مما يتمثل فيما يجري له من الأمور بأبيات حسنة، فأنشد حينئذ:

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

قال: وحضر في يوم من الأيام بني لي صغير فأظهر من الميل إليه والمحبة له ما يكثر من ذلك، فقال له بعض الحاضرين: أتحبه أيها الشيخ؟ فقال متمثلا:

* أحبه حب الشحيح ماله *

* قد كان ذاق الفقر ثم ناله *

بلغني عن أبي الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي أن أبا بكر محمد بن السري السراج مات في يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة، انظر: البغدادي: تاريخ بغداد: ٥/ ٣١٩ رقم الترجمة: (٢٨٤٢).

فالمعنى: «ومـا أرسلنا» فى الزمان الذى هو قبل زمانـك «إلاَّ رجالاً» رد لقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ (المؤمنون: ٢٤) معللين بأن الرسول يجب أن يكون مناسبًا للمرسل، فالله تعالى فى غـاية التجرد، والبشر فى غاية التعلق فلا مناسـبة بينهما فرده تعالى: بـإنا قد جرت عـادتنا بإرسال الذكـور من الناس، لأن مقـتضى الحكمـة رعاية المناسبة بين الرسول والمرسل إليهم.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ (الأنعام: ٩) ليفهم الناس كلامه لأنهم لا يسـتطيعـون الاستفـاضة من المـلائكة فلا يرسل الله إلا رجـالاً من الناس لا ملائكة ولا نساء ولا جنيًا.

﴿نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ صفة رجالاً فبهذا يتميزون عن غيرهم.

﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ صفة أخرى أى لا بدويًا ساكنًا فى جميع السنة فى البادية، فإن سكن فى بعض السنة فى البادية لأجل المـواشى كآل يعقوب ـ عليه السـلام ـ فلا يضر كما مر.

قال ابن كثيـر: يخبره تعالى أنما أرسل رسلاً من الرجـال لا من النساء، هذا قول جمهور العلمـاء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمـة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحيًا تشريعيًا.

وزعم بعـضهم أن سـارة امرأة الخليـل، وأم موسى، ومـريم أم عيـسى نبيـات، واحتجـوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسـحاق، ومن وراء إسحاق يعقـوب عليه السلام وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القـصص: ٧) الآية، وبأن الملائكة جاءت إلى مريم تبشرها بعيـسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمـران: ٤٢، ٤٣) وهذا القدر حـاصل لهن لكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القـائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فـهذا لا يشك فيه وبقى معه فى أن هذا هـل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرد أم لا؟ والذى عـليه أئمة أهل السنة والجماعـة وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعـيل الأشعرى[1]

---

(١) (أبو الحسن على بن إسـماعيل الأشـعرى): هو: على بن إسمـاعيل بن إسحـاق بن سالم بن إسـماعيل. . . بن أبى موسـى الأشـعرى اليمـانى، البصـرى (أبو الحسن) تنسب إليه الطائفة =

عنه: أنه ليس فى النساء نبية، وإنما فيهن صديقات كما قال الله تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم ابنة عمران حيث قال تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ﴾ (المائدة: ٧٥) فوصفها بأشرف مقاماتها بالصديقة، فلو كانت نبيه لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام فهى صديقة بنص القرآن، وفى الحديث الآخر: (أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فقال ﷺ: (لقد هممت أن لا أهب هبة إلا من قريش أو أنصارى أو ثقفى، ودوسى)[1].

وقال الإمام أحمد: عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: (المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)[2]. انتهى.

قوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ (يوسف: ١٠٩) قال البعض: تأكيداً لقوله: ﴿ **أَفَأَمِنُوا** ﴾ وحكم الفاء ما مر فيه.

ونحن نقول: تعليلاً لإنكار الأمن، فالفاء للسببية والهمزة للتقرير، فالمعنى:

= الأشعرية والمذهب الأشعرى كله ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وتوفى بها سنة ٣٣٠هـ، وقيل غير ذلك ردًا على الملحدة، والمعتزلة، والشيعة، والجهمية، والخوارة وترك عددًا من المؤلفات الهامة منها: مقالات الإسلاميين، الفصول فى الرد على الملحدين والخارجين، الرد على المجسمة، الرد على ابن الرَّاوندى فى الصفات، التبيين فى أصول الدين، وغير ذلك.
انظر ترجمته فى: مقدمة كتابه مقالات الإسلاميين تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، كحالة: معجم المؤلفين ٤/ ٣٥، الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٦، السبكى: طبقات الشافعية ٢/ ٣٤٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٣/ ٢٥٩، ابن العماد: شذرات الذهب ٢/ ٣٠٣، البغدادى: هدية العارفين ١/ ٦٧٦، الخوانسارى: روضات الجنات ٤٧٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٧.

(١) حديث: **(لقد هممت أن لا أهب هبة إلاَّ من قريش أو أنصارى أو لشقفى ودوسى)** انظر: ابن كثير: التفسير: ٢/ ٤٩٧، صحيح ابن حبان: ١٤/ ٢٩٥، ٢٩٦ الحديث رقم (٦٣٨٣) المستدرك: ٢/ ٧١ الحديث رقم (٢٣٦٥)، أبو بكر الهيثمى: موارد الظمآن: ١/ ٢٧٩، والهيتمى فى مجمع الزوائد: ٤/ ١٤٨، مصنف ابن أبى شيبة: ٦/ ٤١٣، الجامع لمعمر بن راشد: ١١/ ٦٥، مسند الإمام أحمد ١/ ٢٩٥، مسند الحميدى: ٢/ ٤٥٣، ٤٥٤ الحديث (١٠٥٣)

(٢) حديث: **(المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم...)** انظر: البيهقى فى السنن الكبرى: ١٠/ ٨٩، ابن ماجه فى السنن: ٢/ ١٣٣٨، المعجم الوسط للطبرانى: ١/ ١١٨، مسند أحمد ٢/ ٤٣، مسند الطيالسى ٢/ ٢٥٦، الديلمى فى مسند الفردوس: ٤/ ١٨٥.

لا ينبغى أمنهم من عذاب الله تعالى أو الساعة لأنهم قد ساروا فنظروا إلى مساكن المهلكين وما بينهما اعتراض.

أما قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ إلى آخر الآية، لبيان طريقة [...][1] للأمن المذكور والإشراك.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ لرد شبهة عرضت على الدعوة أو كما بين.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ إلى الآية، عطف على «هذه سبيلى» أى أدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأجادلهم بالتى هى أحسن وهى المرادة بالبصيرة أى: الحجة.

ونزهه عما يشينه وقال: «الدار الآخرة» ولا يضر الفصل بما سبق لكونه غير أجنبى تأمل تعرف.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم: مسجد الجامع، وجانب الغربى وصلاة الأولى، وبقلة الحمقى.

فعند الكوفيين يجوز ذلك بلا تأويل.

وعند البصريين بالتأويل أى: ولدار الآخرة أو الحياة أو النشأة الآخرة، فكذا مسجد الوقت الجامع وجانب المكان الغربى، وصلاة الساعة الأولى وبقلة الحبة الحمقى.

﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك والمعاصى فالخير مختصة بهم لأنهم المتنعمون فى درجات الجنات الجنان، وأما غيرهم فالآخرة شر لهم لأنهم المعذبون فى دركات النيران.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خيريتها للمتقين حتى تكونوا منهم.

أو أفلا تعقلون كون القرآن بصيرة، أى حجة واضحة غير عمياء، أو كون محمد ﷺ على بصيرة.

ومسألة الفاء قد ذكرت.

﴿حَتَّىٰ﴾ ابتدائية وهى ما يذكر بعدها الجمل مستأنفة أى غير مربوطة بما قبلها ربطًا لفظيًا، وأما الربط المعنوى ـ أى: معنى الغاية ـ فباق لكونه معنى حتى والمذكور بعدها هنا الجملة الشرطية، فهى غاية لمعنى محذوف يفهم من سابق الكلام.

---

(١) ما بين المعقوفتين كلمة لم أتبينها من المخطوط.

فالمعنى: وما أرسلنا من رسول من قبلك إلا رجالاً تراخى لضرهم وتمادى من القوم ضرهم فوعدوا لهم غاشية العذاب فى الدنيا أو الساعة وتطاولت مدة الوعد فلم ينزل عليهم شيء من العذاب فامتد هذا التراخى والتمادى والتطاول حتى:

﴿إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ يأسًا قويًا كاملاً ليس وراءه يأس، كما مر فى قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا﴾.

﴿وَظَنُّوا﴾ عطف على «استيأس» بيانًا وتفسيرًا له أى: ظَنّ الرسل ﴿أَنَّهُمْ﴾ أن الرسل.

﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ بالتخفيف فى قراءتنا.

يقال: كذب زيد عمرًا، إذا وعده فأخلفه.

فالمعنى: وظن الرسل أن الرسل قد كذبتهم أنفسهم فيما حدثتهم من مجيء النصر من الله أو كذبهم رجاؤهم حيث كان متعلقًا بالنصر، فظنوا أن النصر ليس إلا فى الدار الآخرة، فرجاؤهم فى الدنيا قد خاب وتحديثهم بذلك فى ذلك فى أنفسهم قد كذب، ففيه تجريد بغير الحرف كقول الشاعر:

ولئن بقيت لأرحلن بغزوة نحوى الغنائم أو يموت كريم

فههنا جرد عن نفسه كريم، فهنا أيضًا جرد الرسل عن أنفسهم نفوسًا كاذبة، أو عاتية من الرجاء خائبة.

وما روى عن ابن عباس فى صحيح البخارى: من الرسل لكونهم بشرًا ولضعف البشرية، ظنوا أن الله قد كذب لهم، أى أخلف فى ميعاده.

فيجب تأويله لصحة الحديث، وهو أن يقال: المراد بالظن ما يعرضهم بطريق الوسوسة والخطور فى البال، وإنما سمى ظنًا تهويلاً للأمر لا المعنى المصطلح، أى الطرف المرجح لأنه لا يليق بالمؤمنين، فكيف بالأنبياء.

فالمعنى قد وسوس إليهم الشياطين من الجن والإنس، أى: أوقع فى قلوبهم الخطور الذى ليس دفعه بمقدور أن الله أخلف فى ميعاده.

كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ (طه: ١٢٠) وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج: ٥٣) ثم نسخ الله وأحكم آياته.

وإمَّا على قراءة التشديد، فلا إشكال لأن الأنبياء ظنوا أى أيقنوا، والظن بمعنى اليقين فى القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ٤٦).

أيضًا فى الشعر قال:

أرسلته مستيقن الظن أنه ... مخالط ما بين الشراسيف جائف

إن الكفار قد كذبوهم، أو ظنوا على حقيقة الظن أن المؤمنين بهم للتراخى بضرهم كذبوهم شارفوا التكذيب.

وما يقال من أن بعض الضمائر الثلاثة فى: ظنوا، أنهم، قد كذبوا، أو كلها راجع إلى المرسل إليهم تكلف لاستلزام تفكيك الضمائر مستغن عنه لما مر من الوجوه الثلاثة.

﴿جَاءَهُمْ﴾ جواب إذا.

﴿نَصْرُنَا﴾ لهم على أعدائهم.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ من الرسل والمؤمنين لدلالة قوله:

﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أى عذابنا.

﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف: ١١٠) عليه، ففيه تسلية للرسول ووعد له بإنجاز وعده بنصره على الأعداء فأنجز بحمده تعالى أكمل إنجاز.

واعلم أنه تعالى ذكر فى أوائل هذه السورة قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣) ثم شرح فى القصة وربط بهذا القول قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ﴾ (يوسف: ٤) إلى ختم القصة بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١) فى تمام مائة آية.

ثم أثبت قوله: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا﴾ بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢) وبين فى ضمنه قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٢) بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ إلخ.

ثم استدل على كونه أحسن القصص بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ﴾ مؤكدًا باللام وقد، بل بالقسم أيضًا.

﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ أى قصص يوسف، وإخوته، وأبيه.

وقراءة القصص بالكسر لاشتماله على قصص أخرى من قصتى امرأته، الفتيين فى السجن، وقصة رؤيا الملك.

﴿عِبْرَةٌ﴾ عظيمة كثيرة إذ التنكير قد يكون للتكثير والتعظيم معًا كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول السالمة من سوالب الإلف والركون إلى الحسن، وهذه العبرة ما سيجىء نقلاً من تفسير التيسير.

ولما كان المقصود من إنزال الكتب السماوية تكميل النفوس الناقصة، فكل ما يكون فيه العبر كثيرة يكون أحسن المنصوصات فتكون هذه السورة.

ويسمى هذا الأسلوب فى علم البديع تشابه الأطراف وهو أن يختم الكلام وإن طال بما يناسب الابتداء، فسبحان من وقت حكمته وظهر إعجاز كلامه.

فاشتمال هذه القصة على العبر الكثيرة صار علة لأحسنها والعبور هو المرور من الجانب المعلوم إلى الجانب المجهول، وكيفيته سيجىء إن شاء الله تعالى، التيسير.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ أى: القصص المذكور.

﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ استئناف وهم عدم مطابقة الواقعة كالأشعار فإن أحسنها أكذبها.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة وغيرها، ونصب كلمة «تصديق» بالعطف على حديثًا.

وقال بعضهم بتقديره كان بعد لكن.

قال ابن هشام[1] فى معنى اللبيب: واختلف فى نحو: ما قام زيد ولكن عمرو، على أربعة أقوال:

أحدها ليونس: أن لكن غير عاطفة والواو عاطفة مفرد على مفرد.

الثانى لابن مالك: أن لكن غير عاطفة، والواو عاطفة جملة حذف بعضها على جملة صرح بجميعها.

قال ابن مالك[2]: فالتقدير فى زيد ولكن قال عمرو.

وفى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠) ولكن كان رسول الله.

---

(١) (ابن هشام) صاحب «مغنى اللبيب» تقدمت ترجمته.

(٢) (ابن مالك) تقدمت ترجمته.

وعله ذلك أن الواو لا تعطف مفرداً على مخالف له فى الإيجاب والسلب، بخلاف الجملتين المتعاطفتين فيجوز تخالفهما فيه، قام زيد ولم يقم عمرو.

والثالث لابن عصفور[١]: أن لكن عاطفة والواو زائدة لازمة.

والرابع لابن كيسان[٢]: أن لكن عاطفة والواو زائدة غير لازمة.

وسمع: ما مررت برجل صالح لكن طالح، بالخفض.

فقيل: على العطف، وقيل: بجار مقدر أى ولكن مررت بطالح، وجاز إبقاء عمل الجار بعد حذفه لقوة الدلالة عليه بتقدم ذكره.

انتهى كلام ابن هشام.

قال الرضى: وذهب يونس إلى أنها فى جميع مواقعها مخففة من الثقيلة وليست بحرف عطف وليها مفرد أو جملة، وذلك لجواز دخول الواو عليها، ففى المفرد يقدر العامل بعدها أو يشكل ذلك عليه إذا وليها مجرور نحو: ما مررت بزيد لكن عمرو.

فالأولى كما قال الخرولى أنها فى المفرد عاطفة إن تجردت عن الواو ما تقع «الواو» فالعاطفة هى الواو ولكن لمجرد معنى الاستدراك.

واختار فيما بعد الجمل أن تكون مخففة لا عاطفة صحبتها بالواو لا لموافقتها الثقيلة فى مجىء الجملة بعدها، فهى مع الواو ليست بعاطفة اتفاقًا.

وأما المجردة، فإن وليها المقدر فعاطفة خلافًا ليونس وإن وليها جملة فقيل: عاطفة وهو ظاهر مذهب الزمخشرى فلا يحسن الوقوف على ما قبلها.

وقيل: مخففة كما هو مذهب الجزولى[٣]، فيحسن الوقوف على ما قبلها لكونها حرف ابتداء. انتهى.

فجعله عين التصديق للمبالغة.

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يوسف: ١١١).

قال بعض المفسرين: كلمة «كل» للتكثير والتفخيم لا للإحاطة والعموم كقوله: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٢٣) فالمراد منه تفصيل الأشياء الكثيرة كما سيجىء فى بيان العبر.

---

(١) (ابن عصفور) تقدمت ترجمته. (٢) (ابن كيسان) تقدمت ترجمته.

(٢) (الجزولى) تقدمت ترجمته.

وقال بعضهم: كلمة «كل» للإحاطة والاستغراق، لكن قال: ضمير ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ راجع إلى القرآن، فعلل اشتماله على تفصيل كل شيء، بقوله عن أمر الدين إذ ما من حكم دينى إلا ويعلم منه بوسط كالسنة والإجماع والقياس أو بغير وسط.

لكم لفظ التفصيل آب من هذا التعليل إذ ليس تفصيل ما يعلم بالحديث أو الإجماع فى القرآن.

وأجاب عنه بعضهم بأن التفصيل هنا التبيين لا يقابل الإجمال فتناول الإجمال أيضًا.

والحق أن لفظ التبيين كالتفصيل لا يلائم ولا يناسب الإجمال، فالوجه هو الأول.

﴿وَهُدًى﴾ كأن القصص عين الهداية لإفضائه إليه.

﴿وَرَحْمَةً﴾ جعل هذا القصص عين الرحمة أيضًا للمبالغة وهى فى الأصل رقة قلب تعرض للإنسان فتحمله على الإحسان فالمبدأ أى الرقة انفعال والغاية أى الإحسان فعل فيحمل أن يكون المراد الغاية استماعها بسبب سرقة قلب كل مؤمن وبكائه لإحسانه فى العمل، ويحتمل أن يكون المراد: الغاية هذه السورة واستجماعها سبب لرحمة الله تعالى أى إحسانه.

ثم بين المنتفعين به بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى العبرة والتفصيل والهدى والرحمة إنما تحصل للمؤمنين دون الكافرين.

جعلنا الله من المعتبرين المهديين الراحمين المرحومين آمين.

قال التيسير: قال الإمام أبو منصور: وفى هذه القصة تصبير رسول الله ﷺ على أذى قريش يقول: إن إخوة يوسف عليه السلام مع موافقتهم إياه فى الدين والنسب عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك، فأنت مع قومك وهم مخالفون لك فى الدين أحرى أن تصبر على إيذائهم.

وقال الإمام البشاغرى[1]: وفيه دليل على صدق رسالة محمد ﷺ حيث قص قصة يوسف عليه السلام وغيرها على حسب ما يجدها أهل الكتب فى كتبهم من غير زيادة ولا نقصان مع معرفتهم أنه لم يختلط إلى أحد يتعلم منه ولا نظر فى الكتب فتعلم فما هو إلا عن الوحى، ولا وحى إلا إلى الرسل.

وقال بعض المحققين: ثم من العبر فى هذه القصة ما حمل يوسف عليه السلام على صغره من المحن من جهة إخوته من الطرح فى البئر والبيع بالثمن البخس، وما

---

(١) تقدمت ترجمته.

ابتُلي به من الاسترقاق والحبس الطويل من غير جرم، واستحقاق، فالعبرة به أن الله تعالى يفعل ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه، ثم صبر يوسف عليه السلام على هذه المحن كلها إلى أن ختم له بالملك والعلو، دليل على أنه لا يجد أحد على الصبر عن جريان المقادير عليه ثم ما فيه من التنبيه على أن من قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه فى الجب وإعلائه بعد حبسه فى السجن، وتمليكه مصر بعد أن كان هو لبعض أهلها فى حكم العبد، ثم جمع بينه وبين أبويه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة، لقادر أن يعز محمدًا ﷺ ويعلى كلمته وينصره على من عاداه من قومه.

ثم ما امتحن به أبوه من الوجد بفقده إلى أن ابيضت عيناه من البكاء عليه إلى أن جمع الله شمله ورد عليه ابنه سلوة وتحنين وطمأنتهم فى تبديل الحال، وتعريض المحنة للزوال.

وفيما جرى على يوسف من جهة إخوته الذين هم أولى الناس بالشفقه عليه، والذب عنه ما سلى رسول الله ﷺ فى عداوة قومه وأقاربه له ثم فيما فعله يوسف ـ عليه السلام ـ فى السجن من دعاء الفتيين إلى الله وإقامة الحجة عليهما للتوحيد وعلى بطلان الشرك ما يوجب على رسول الله ﷺ سلوك طريقه فى الصبر على الدعاء إلى الله والقيام به فى كل وقت يمكن، ود فعل ذلك رسول الله ﷺ وأكثر منه.

ثم ما كان من يوسف من بسط العدل فى ملكه عبرة للملوك فى المن والإحسان إلى الشرعية لأن يوسف عليه السلام لما ملكهم أعتقهم كلهم.

ثم ما فيه من العبرة من أرباب التقوى فإن يوسف عليه السلام لما ترك هواه رقاه الله إلى ما رقاه، ومنها العبرة لأهل الهوى من اتباع الهوى من شدة البلاء كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت ما لقيت من الضر.

ومنها العبرة للمماليك وحفظ حرية السادة كيوسف عليه السلام لما حفظ حرمة العزيز فى زليخا مَلَك مُلك العزيز، وصارت زليخا امرأة حلالاً.

ومنها العفو عند القدرة كيوسف ـ عليه السلام ـ حيث تجاوز عن إخوته، وغير ذلك من إشارات سبقت فى هذه النسخة وفى غيرها لأهل العلم والقصة.

وقال بعض الواعظين:

كان الله تعالى خليل يسمى إبراهيم فأعطاه ولدًا يسمى إسحاق، ونافلة يسمى يعقوب عليه السلام فولد ليعقوب عليه السلام أولاد، وجعل الله تعالى بعض أولاده بكمال وجمال ولطف وهو يوسف عليه السلام فآثره أبوه فحسده إخوته فاحتالوا حتى

غيبوه عنه وطرحوه فى البئر، ثم باعوه بالثمن البخس اليسير، ثم قاسى يوسف عليه السلام شديد الرق، وابتليت به امرأة العزيز بلية العشق، فراودته عن نفسه فاستعصم بعصمة الحق وبدلهم حبسه فى السجن، فطال ذلك، ثم بعد بضع سنين أفضى به علم التعبير إلى ملك مصر، والجلوس على السرير، ثم جاءه إخوته مرات، وامتاروا منه كرات، ثم جمع الله بين يعقوب، ويوسف عليهما السلام وأزال البأس والتأسف وجمع الشمل وسط يوسف عليه السلام على إخوته الفضل وتنعموا فيه أيامًا وشهورًا، وأعوامًا، ثم ماتوا فباتوا فكأنهم ما كانوا فلا يعقوب ولا بكاء ولا إخوة يوسف، ولا جفاء ولا سجن، ولا سجان، ولا عزيز، ولا ريان، ولا يوسف، ولا أصحاب به، ولا خول، ولا أحباب، ولا مملكة ولا أسباب، ولا امرأ، ولا حجاب.

وهذه عبرة لأولى الألباب.

وقيل: هذه القصة مرآة كل مؤمن ليوسف ـ عليه السلام ـ جمال الظاهر فنظرت إليه زليخا، وللمؤمن من جمال الباطن فنظر الله المولى.

وكان ليوسف عليه السلام حسن الصورة فاشتراه العزيز، قال الله تعالى عز وجل ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ ﴾ (يوسف: ٢١).

وللمؤمن حسن السيرة فاشتراه القوى العزيز: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ (التوبة: ١١١).

ولما اشتراه العزيز أدخله دار زليخا، ولما اشترى الله المؤمن أدخله دار الجنان، فأوقعت زليخا يوسف فى التهمة وأوقع الشيطان المؤمن فى المعصية فنقل يوسف عليه السلام إلى السجن والمؤمن إلى القبر، فسئل يوسف عليه السلام فى السجن عن تأويل الرؤيا، وسئل المؤمن عن الله والرسول والهدى، فأجاب يوسف عليه السلام على الصواب فأكرمه الريان، ويجيب المؤمن على الصواب فيكرمه الديان.

ووصل يوسف عليه السلام إلى ملك مصر، والمؤمن إلى ملك الجنة.

وقيل ليوسف: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (يوسف: ٥٤) ويقال للمؤمن: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (الدخان: ٥١).

وختم قصة يوسف عليه السلام بقوله: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٦٤).

ويقال للمؤمن ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (الصافات: ٦١) والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى. وتمت قصة يوسف عليه السلام.

فهرس محتوى الجزء الأول